

أدولف إرمان

ترجمة :
د. عبد المنعم أبو بكر
د. محمد أنور شكرى

ديانة مصر القديمة

مصريات

مهرجان القراءة للجميع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ديانة مصر القديمة

ديانة مصر القديمة

نشأتها وتطورها ونهايتها فى أربعة آلاف سنة

ترجمة

د. عبدالمنعم أبو بكر

د. محمد أنور شكرى



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(المصريات)

ديانة مصر القديمة

أدولف إرمان

ت. د. عبدالمنعم أبو بكر

ود. محمد أنور شكرى

الغلاف:

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان



امون وموت وخنسو ، آلهة طيبة ، ومن أمامهم الملك يقدم القربان . من بردية هارس التي يكثر ذكرها ، والتي تخبر بما فعله رمسيس الثالث لآلهة مصر .

تصـــدير

أريد بهذا الكتاب أن أعرض فيه الديانة المصرية فى أخصّ صفاتها ، وأن أقص حياتها الطويلة مستعينا فى ذلك بما يبدو لى مفيدا مما بين يدىّ من مادّة لاحصر لها ، إذ من حقّ المؤرّخ ، بل من واجبه ، أن يطرح جانبا ما ليست له أهمية وما من شأنه أن يثير الارتباك . وليس من قصدى أن يكون كتابى شاملا ، لايفتقد فيه العالم المختصّ شيئا . ولكن القارئ إذا ألفى فيه مايزيد كثيرا على القطاط المقدسة والمومياوات . وإذا وجد فى بعض الأحيان أن فى العقيدة المصرية من الأفكار والمشاعر ما لاتخجل منه الديانات السامية ، فقد أدّى كتابى الغاية منه . ولقد سبق أن عالجت عام ١٩٠٤ مادّة هذا الموضوع ، وظهر الكتاب إذ ذاك تحت عنوان « الديانة المصرية » (١) ضمن مجموعة « كتيبات المتاحف الملكية » (٢) ، التى أنشأها ريشارد شنى ، الذى كانت لديه فكرة جليلة عن وظيفته ، إذ كان يعتقد أن المتاحف إنما هى قبل كل شىء أماكن تثقيف ، وأن هذه الكتب ينبغى أن ترشد فى غير عناء إلى الحضارات القديمة الأجنبية كل زائر للمتاحف يحاول فهم ما يراه . وكان كتابى الصغير يتفق حقا وهذا الغرض ، حتى لقد أصبح من الضرورى طبعه مرّة ثانية عام ١٩٠٩ . وهو يظهر الآن للمرة الثالثة ، ولكن فى شكل جديد خارج تلك المجموعة ، إذ غدا أضخم من أن يتناسب معها . وقد وجد ذلك الكتاب فى الخارج كذلك استحسانا ، فما كاد يظهر حتى نقله جرفث إلى الإنجليزية ، وفيدال إلى الفرنسية ، وبلّجرينى إلى الإيطالية .

وإذ لم يغب عن ناظرى هذا العمل مذ ذاك ، فقد جمعت فيما انصرم من ربع قرن حتى الآن أثناء اشتغالى بأعمال القاموس وقواعد اللغة المصرية كثيرا مما يفى بالكشف

---

(١) Die aegyptische Religion

(٢) Handbuecher der Koeniglichen Museen

عن الديانة . ولهذا لا يجمع هذا الكتاب بسلفيه فى عامى ١٩٠٤ ، ١٩٠٩ شيئ كثير فيما عدا فقرات معينة ، على أنى أرجو أن يكون قد ظل بذلك واضحا سهل المعنى .

وعلىّ أن أذكر قبل كل شيء أن من الكتب التى أفدت منها والتى أثارت تفكيرى ، الطبعة الثانية من « تاريخ العصور القديمة » [١] لإدوارد ماير . فقد عالج فيه بما جبل عليه من صفاء النظر وصحة الحكم : مسائل الديانة المصرية أيضا . وأذكر بعد ذلك كتاب برستد القيم « تطوّر الديانة والفكر فى مصر القديمة » [٢] ، ثم ما كتبه فى هذا الموضوع كيس ورش . أما كتاب برستد « فجر الضمير » [٣] فيسوءنى أنه لم يتيسر لى أن أفيد منه . هذا ويعتمد كثير مما يرد فى كتابى على أبحاث زيتا الدقيقة ومؤلفات يونكر الهامة . أما ما أدين به لأبحاث لفيفر وأتّو وشوبرت بصفة خاصة فيما يتصل بالكهنة فهو فى غير حاجة إلى تنويه .

وقد أبقيت أسماء الآلهة والملوك على صيغها المعروفة بها ، وذلك لأنه ليس من الميسور ردّ أغلبها إلى صيغته الصحيحة ؛ كما أنه لايزال من المستحسن الاحتفاظ بالصيغ الخاطئة المعروفة مثل سكر ونوت ، أو شو وإيسى أو بيبى . من أن نستبدل بها صيغا جديدة غير صحيحة ، فيما يظنّ ، على نحو الصيغ القديمة سواء بسواء . وفى أسماء المدن تعرض صعوبة أكبر . فإلى جانب صيغها الإغريقية . التى يشيع استخدامها الآن ، أوردنا الأسماء المصرية التى لانكاد نعرف نطقها الصحيح ، ثم الصيغ القبطية . وذلك فضلا عن الأسماء التى يستخدمها السكان العرب فى الوقت الحاضر — وقد أوردنا الأسماء الأخيرة فى رسم تعسفى حقا [٤] . ولذلك لايدهش القارئ إذا تكلمت مرّة عن هرموبوليس وأخرى عن شمون . أو مرّة عن ددو وأخرى عن بوزيريس . أو إذا اختلطت الأسماء الجديدة كأهناسيا والأقصر بالأسماء القديمة . وكل هذا يبدو قليل الجمال ، على أن اتباع طريقة موحدة إنما يؤدّى إلى تصوّرات خاطئة .

---

(١) Ed. Meyer, Geschichte des Altertums.

(٢) H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt.

(٣) H. Breasted. Dawn of Conscience.

(٤) راعينا كتابة الأسماء العربية للمدن حسب رسمها فى الوقت الحاضر . المعربان .

وإنى لأرجو ألا ينظر إلى ما يرد فى كتابى من تواريخ بأكثر مما يمكن أن تكون عليه . حقا لقد أمكن تحديد أزمنة بعض أحداث التاريخ المصرى ، على أنه تتخللها أحداث أخرى كثيرة لايزال توقيتها غير محقق حتى الآن . ولحسن الحظ ليس تقديم أو تأخير حدث بضعة عشرات من السنين بأمر ذى بال فى أغلب الأحيان بالنسبة لموضوعنا . — وقد عرضنا فى صفحة م ما جرت به العادة من تقسيم تاريخ مصر القديم إلى دول وأسرات . — وإنى لأحيل القرّاء ، الذين يرغبون فى معلومات أدقّ عن التاريخ المصرى إلى كتاب برستد ، « تاريخ مصر »[1] ، الذى ترجمه هرمان رانكه عام ١٩١٠ . وما سقته من ترجمة حرفية من النصوص المصرية قد ميزته بخط مقوّر[2] . وكثير مما اقتطفته من نصوص يرد فى صيغته الكاملة فى كتابى « أدب المصريين »[3] . ولمن شاء أن يعرف كذلك شيئا عن الكتابة المصرية — وهى التى تعتمد عليها حياة مصر العقلية جميعا — أن يرجع إلى كتابى الصغير « الهيروغليفية »[4] ، الذى ظهر فى طبعة جشن فى ١٩١٢ و ١٩١٧ .

ولقد كانت زوجتى سندا لى فى طبع هذا الكتاب ، وقام السيدان جرابوُ وإركسن بالعمل المضنى فى مراجعة جميع الاستشهادات ، كما ساعدانى كذلك دون كلل فى تصحيح تجارب المطبعة . وإنى لأشكر لهما من كل قلبى هذه الخدمات التى تنمّ عن حبّ وإخلاص .

أدولف إرمانه

برلين — دالم

عيد العنصرة

---

(١) Breasted, History of Egypt.

(٢) أوردناه فى الترجمة العربية من داخل شولات فى أغلب الأحيان .

(٣) A. Erman. Literatur der Aegypter, Leipzig, Hinrichs 1923.

(٤) A. Erman, Die Hieroglyphen, Goeschen.

فهرس الموضوعات

صفحة

أقسام التاريخ المصرى

اعتدنا تقسيم التاريخ المصرى إلى عهود ، نسميها دولا أو أسرات ، وذلك لنقص معرفتنا التواريخ الدقيقة . وهاك أهمها :

١ — ماقبل التاريخ (وكان ذا حضارة راقية) .

٢ — الدولة القديمة — ٣٢٠٠ — ٢٢٥٠ ق . م تقريبا .

(ا) الأسرات الثلاثة الأولى . (وعلى رأسها الملك مينا ، مؤسس منف ، حوالى ٣٢٠٠ ق . م . — وفى نهايتها الملك زوسر « بانى الهرم المدرّج ») .

(ب) الأسرة الرابعة : ٢٧٢٠ — ٢٥٦٠ ق . م . (ومن ملوكها خوفو وخفرع ومنقرع ، بناة الأهرام العظيمة) .

(ج) الأسرة الخامسة : ٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ ق . م . (وملوكها ساحورع ونيوسر رع وغيرهما ، وعهدها عهد ازدهار) .

(د) الأسرة السادسة : وملوكها تيتى وببى وغيرهما . — وقد أعقبها انهيار حكومى تامّ حوالى ٢٢٥٠ ق . م .

٣ — الدولة الوسطى .

(ا) بعد فترة اضطرابات قامت حكومات ملكية جديدة فى هرقليوبوليس (ومن ملوكها مريكارع) وفى طيبة (الأسرة الحادية عشرة) .

(ب) الأسرة الثانية عشرة : ٢٠٠٠ — ١٧٩٠ . وملوكها يحملون اسم امنمحات وسيزوستريس ؛ وهذا العهد هو العهد الكلاسيكى للبلاد .

(ج) الأسرة الثالثة عشرة : حتى ١٧٠٠ ق . م . تقريبا ، وذلك عندما استولى على مصر الهكسوس ، ذلك الشعب المتبربر .

٤ — الدولة الحديثة .

(ا) تحرير أمراء طيبة للبلاد (الأسرة السابعة عشرة والملك أحمس)

(ب) الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م . وفيها كانت مصر دولة عظمى . الملوك يحملون اسم أمنوفيس (امنحوتب) وتحوتمس ؛ وأهمهم الملكة حاتشبسوت والملك تحوتمس الثالث .

وفى نهاية هذه الأسرة عهد المرطقة .

(ج) الأسرة التاسعة عشرة : ١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق . م . وملوكها سيتى ورمسيس وغيرهما ؛ ومنهم رمسيس الثانى ١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م .

(د) الأسرة العشرون : ١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق . م . ومن ملوكها رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٧ ق . م) ثم خلفاؤه وكانوا يحملون اسمه .

٥ — عصر الانحطاط .

(ا) الأسرة الحادية والعشرون : (الملك الكاهن حريحور فى طيبة وملوك آخرون فى تانيس) .

(ب) الأسرة الثانية والعشرون : ٩٥٠ — ٧٤٠ ق . م . ، وملوكها ليبيون (شيشنق وغيره) .

(ج) سيطرة الأثيوبيين (شاباكو) والأشوريين على مصر .

(د) الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م . وقد قام ملوكها فى سايس وعلى رأسهم أبسماتيك ثم خلفاؤه .

(هـ) سيطرة الفرس على مصر : ٥٢٥ — ٣٣٢ ق . م ، ويتخللها الملوك المصريون المضادون .

٦ — العهد اليونانى . ٣٣٢ — ٣٠ ق . م .

الإسكندر والملوك البطالمة .

٧ — العهد الرومانى ، منذ ٣٠ ق . م .

مقدمة

لايثير اهتمامنا بالديانة المصرية قدم عهدها فحسب ، إذ لايعنينا كثيرا أن نضيف إلى تاريخ الديانات الطويل ألف عام أو أكثر من ذلك أو أقل – بل إن أقوى مادفعنا إلى ذلك أن دراستها تتيح لنا تتبع حلقات التطور الديني المتصلة ، الأمر الذى يعسر علينا الاهتداء إليه إذا حاولناه مع غيرها من الديانات القديمة الأخرى . فنحن نعرف ديانة المصرى القديم منذ نشأتها البدائية فى العصور السحيقة ، حين تخيل الإنسان الإله ماردا أو كائنا رهيبا حتى ذلك الوقت الذى فيه بدأ الإنسان إدراك الصلات الروحية بينه وبين الإله ، فاعتمد عليه وجعله محط آماله ، بل أحبه وخشى بطشه ووعيده .

نعم نحن نعرف هذه الديانة حين بلغت أوج المجد والقداسة ، وتغلغلت فى نفوس المصريين القدماء . كما نعرفها أيضا عندما حاول الكهنة إدخال بعض الإصلاحات عليها ، وكيف أخفقت هذه المحاولة إخفاقا ذريعا ، أعقبها فترة اضمحلال طويلة المدى ، تخللتها بعض المحاولات للنهوض ولكنها انتهت جميعها إلى الزوال . تلك النهاية التى كان من أكبر عواملها التعصب الشديد والإيغال فى التقوى والورع . وعندما حلت الديانة المسيحية بأرض مصر كانت نذيرا بزوال الديانة المصرية القديمة .

وإن مما يجعلنا لاننظر بعين التقدير العظيم إلى الديانة المصرية أنها فى مظهرها الرسمى على الأقل قد حوت كل الأغلاط التى ترجع إلى عصورها الأولى . وليس فى استطاعة أحد أن يدفع الناس إلى التحمس لمثل هذه الأفكار البدائية التى – وإن كانت تسترعى نظرنا نحن – فإنها فى حقيقتها لم تكن بالنسبة إلى مصرىّ العصور المزدهرة إلابعض التقاليد المتوارثة التى لم تلعب دورا مهمّا فىحياته الدينية الحقيقية ، ومثلها فى ذلك مثل بعض الطقوس المتوارثة للديانات الأخرى .

وما من شك فى أنه توجد طرق مختلفة لإعطاء صورة للديانة المصرية ، فمن أراد التمسك بقواعد البحث العلمى الدقيق فعليه أن يدرس كل العناصر الدينية المختلفة

التى ورد ذكرها فى طقوس المصريين القدماء وما حوت من آلهة غامضة . وكائنات غريبة ، وعادات وحفلات مختلفة ، مما يستلزم ملء مجلدات لاحصر لها .

أما من لايرى اتباع هذه الطريقة العلمية فعليه أن يدقق فى بعض المظاهر التى وردت فى تاريخ هذه الديانة الطويل : أى عليه أن يبدأ بدراسة : — كيف تصوّر الشعب آلهته البدائية وجعل منها كائنات حية قدّسها بطرق ساذجة . ثم كيف أنه بعد ذلك بنى المعابد الضخمة لآلهته التى أصبحت بعيدة غريبة عنه . فاستبدلها بأشياء أخرى قريبة منه تسرع إلى نجدته . — ويدرس أيضا كيف أراد أحد ملوك مصر أن يقوم بمحاولة جريئة ليحرّر شعبه من تلك المعتقدات القديمة . وكيف تبرز وسط من ذلك الخضمّ العظيم من التصوّرات المختلفة للحياة بعد الموت فكرة تظهر لنا أن ما يصيب الإنسان من عدالة هو أهمّ وأعظم قدرا عند المصرى من تلك التعاويذ والطقوس الدينية . ولا نشك مطلقا فى أن الوصول إلى مثل هذه النتيجة لأهم وأجدى لنا من التعرّف على أسماء ورموز وأيام احتفالات الآلهة والآلهات .

وإنى لأرجو القارئ أن يعذرنى إذا اضطررت من حين لآخر أن أذكر ذلك التضارب والخلط الغريب فى المعتقدات المصرية . فإنها وإن كانت فى ذاتها غريبة ثقيلة . إلا أنها بالنسبة إلينا نحن الذين نعيش فى القرن العشرين مثيرة لدهشتنا أكثر مما ينبغى . ولكن أليس الغموض والتناقض هما الظاهرة الرئيسية لكل ديانة ؟ إن كل من يحاول أن ينشر ديانة واضحة المبنى [1] إنما ينزع منها سرّ الحياة . ويجنبها ناحيتها الروحية وراء الطبيعية ؛ وهى تلك الظاهرة التى تجعلها محببة إلى الإنسان . وذلك لأنها ليست وليدة تفكير . بل هى وليدة شعور .

إذن فكل المحاولات التى بذلت لدراسة أو وصف ديانة أىّ شعب من الشعوب لم تعتمد على وسائل أساسية : فهى ليست إلا وصفا لجميع الآلهة واستعراضا لنواحى طقوسه الدينية بدقة . وليست إلا متابعة لما حيك حول هذا الدين من القصص والأساطير والخرافات . ولكننا فى هذا البحث لم نتعرّض إلا للمظهر الخارجى للدين .

---

(١) إن من يشرّح الديانة بطريقة منهاجية على نحو ما يحدث فى كثير من الحالات فانه ينتهى إلى نتائج عقيمة غير صحيحة : « إن الحياة والروح لتفر من المبضع الخشن » .

. فإذا عرفنا الأشكال التى تحيط بالديانة فإن المعنى الحميمى الذى كان يقصده مبدع الديانة لم نعثر عليه بعد . وإن ما يعنينا هى المؤثرات والشعور الذى يربطنا بتلك الأشياء المقدسة . وهذه المؤثرات هى التى ترتفع بالإنسان عن سفساف الأمور وهموم العيش على الأرض ، وتجعل الديانة أكبر عامل فى الحياة الإنسانية ولهذا السبب نرى أن تكون الآلهة بهذا المظهر أو ذاك ، ولا يكون هذا إلا حسب اختلاف المستوى الثقافى لكل عابد .

فإذا عرفنا بطريق الصدفة ما يشعر به المؤمن نحو معبوده أمكننا أن نصل إلى لبّ الديانة ، ولكن ذلك لم يحدث إلا نادرا .

لهذا نرجو القارئ أن يضع نصب عينيه هذا النقص فى معلوماتنا ، وأن يتلمس فهم ما نعرضه له من معنى عميق للديانة . وليس من شكّ فى أن أغرب تماثيل الآلهة وأبعد الطقوس الدينية عن فهمنا تبدو واضحة مفهومة لا تمكننا من معرفة تلك الأحاسيس التى تجيش فى صدر المتعبد نحو هذه التماثيل ، أو ما يفهمه هو عن هذه الطقوس .

الفصل الأول

كلمـــة عامة

لقد استطاع الإنسان أن يميز نفسه عن الحيوان بصفات عدّة استمدّها فى أول الأمر مما يحيط بالحيوان من انفعالات : فصراخ الحيوان ومناداة الذكر للأنثى . تطوّرتا عند الإنسان وجعل منها لغة التخاطب ، كما أن غريزة التجمع عند الحيوان فى قطيع هى التى دفعت الإنسان إلى إنشاء الأسرة . ومنها تكوّنت الدولة . أما ذلك الدافع المبهم عند الحيوان للإبقاء على النسل فهو الذى أنمى العاطفة ودفع الإنسان إلى الزواج . وكذلك كان الشعور الغريزى بالخوف والفزع عند الحيوان من كل ما هو مجهول سببا دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التى تؤثر فى حياته دون أن يتعرّف كنهها . ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التى لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه .

ومع أن الإنسان لم ير هذه القوى إلا أنه كان يعتقد فى وجودها ، وكوّن فى مخيلته صورا لها . وأخذ يعطى كلا منها شكلا معينا واسما خاصا . بل أخذ يتمثلها على طريقته الخاصة : فجعل من بعضها أصدقاء أوفياء . ومن البعض الآخر أعداء ألداء . فهو لايعرف أشكالها وأماكنها ، وأخذ يتصوّر الأشياء التى تدخل السرور إلى نفسها كما عرف مايثيرها . وبالفعل بذل جهودا لكى يرتب أعماله على هذه النتائج .

وليس من شكّ فى أن ما اعتبرناه هنا أساسا لنشأة الديانة لم يتكوّن إلا بين البشر الذين عاشوا فى مستوى وضيع جدا . وعندما وصل بنو الإنسان إلى حضارة أكثر تقدما أخذت أهدافهم الدينية تسمو شيئا فشيئا وتركزت حول التعرّف عما يحويه ذلك العالم البعيد عن حياتهم اليومية . فالإنسان لم يرد فقط أن يلجأ إلى سند يحميه ، بل أراد أن يوجد لنفسه معبودا إذا ما فكر فيه سما بنفسه فوق كل ما ينتاب الإنسان من اضطرابات مختلفة فى حياته اليومية . ولقد دفعت الطبيعة البشرية الإنسان دائما أن

يخلق لنفسه معبودات أعطى لها أشكالا مختلفة ، وقد اندفع فى هذا المضمار اندفاعا لا إراديا .

ولقد كانت الصدفة وحدها هى التى شكلت هذه الآلهة ؛ فنرى الإنسان يتمثل معبودا معينا على أنه إله واحد ، وأحيانا يتمثل معبودا آخر على أنه عدة آلهة ، كما أعطى البعض من معبوداته شكلا مجسما ، ورأى فى البعض الآخر أنها أشياء روحانية غير مجسدة . وفى غالب الأمر يمتّ الشكل المعين لمعبود ما إلى عصور سابقة وألا يتفق هذا الشكل مع المستوى العالى الذى وصلت إليه عقائد الشعب فى عصر متأخر ولكن هناك من الأمثلة فى دياناتنا الحالية ما لاتختلف عما ذكرت ، فنحن الآن نبجل بعض الأشياء التى فى واقع الأمر تملأ صدورنا بالخوف والرعب ولكن نشأتها الأولى أكسبتها قدسية وأصبحت تعتبر من بين الرموز المقدسة فى عقيدتنا.

وفى الواقع لقد حوت كل الديانات أشكالا مختلفة تنمّ عن رموز تتركز حولها عقائد المؤمنين بها . وهذه ملاحظة كان من الواجب أن نبرزها لسبب واحد . هو أن بعض الناس يلومون المصريين لتقديسهم بعض الآلهة التى رمزوا لها بأشكال غريبة توارثوها منذ القدم وحافظوا عليها بأمانة كبيرة . ليس لأنهم رأوا فيها جمالا ، بل لأنها الأشكال التى قدّسها أجدادهم .

وديانة أىّ شعب تتأثر بطبيعة البلاد التى يسكنها والحياة التى يحياها . فبيئة الإنسان الذى يسكن شواطئ البحار تختلف كل الاختلاف عن بيئة ذلك الذى يسكن الغابة أو السهل ، وليس من شكّ فى أن الشعب الذى يعيش مستقرا فى حقوله الخصبة يفكر فى آلهة تختلف فى كنهها عن تلك التى يتخيلها شعب فقير يتنقل بين مكان وآخر لايعرف الاستقرار ولا يستسيغ إلا الكفاح . ومن هنا اتخذت الديانة المصرية لنفسها طابعا خاصا يتفق مع الحياة الهادئة والعمل المستمرّ الذى تحتمه البيئة التى يعيش فيها المصرى الذى تعوّد أن يزرع حبوبه ويربى قطعان ماشيته ، ويرى نيله يفيض كل عام على حقوله فيترك غرينه الذى يكسب الأرض خصوبة وحياة . وبجانب ذلك حوت مصر ظاهرة أخرى استرعت انتباه سكانها ، وهذه الظاهرة هى الشمس التى تشرق فجأة من وراء جبال الصحراء والتى كانت تعتبر بمثابة الصديق لشعب مصر

فتغمره فى أيام الشتاء القارصة ، ولو أنها كانت تأتيه بحرارة الصيف المحرقة . كذلك لاحظ المصرى النجوم التى تملأ ذلك الفضاء اللانهائىَ أثناء الليل ومن بينها القمر الذى يتضاءل يوما بعد يوم ثم لايلبث أن يختفى ثم يعود إلى الظهور فيزداد حجما حتى يكتمل . وكانت تنتاب مصر من حين لآخر بعض العواصف الشديدة مصحوبة بالصواعق كما هو الملاحظ الآن ، فترعد السماء وتبرق ، وتنساب السحب فى سرعة فائقة ، وتبدو الشمس من بينها كما لو كانت هناك معارك عنيفة تحدث بين مخلوقات غريبة فى السماء . ولم يكن من السهل ألا تثير كل هذه الأشياء اهتمام المصرى فى ذلك الوقت ؛ فاعتقد أن كل هذه الكائنات ليست إلا آلهة كبرى ، بل هى أكبر الآلهة التى تهيمن على العالم ، وهنا تساءل المصرى : أيمكن لهذه الآلهة الكبرى التى تحيا فى السماء والتى تهيمن على العالم أن تعنى بأمر حياة البشر كل فرد على حدة ؟ ويجب ألا نعجب لهذا التساؤل ، فكثيرا ما يساورنا مثله فيما يتعلق بالديانات الأخرى . وتساءل المصرى أيضا : هل فى استطاعته أن يلجأ إلى إله الشمس أو إلى إلهة السماء إذا ما دهمه الخطر أو إذا مرضت إحدى بقراته ؟ ورأى أن هذه الآلهة بعيدة عنه كل البعد وأن من الأفضل لديه أن يلجأ إلى آلهة أخرى أقلّ من تلك شأنا لتساعده . ولقد وجد ضالته بسهولة . فخيال المصرى أوجد كثيرا من الأشياء فى كل مكان وتحيط به فى كل ساعة . من خصائصها إما أن تدخل الرعب فى قلبه ، أو تأخذه بجمالها . فكانت هناك الحيوانات التى تسكن نيله الفياض أو أرضه أو الصحراء التى تحيط بمصر ؛ فمثلا هناك التمساح والثعبان والأسد ؛ كما كانت تنبت على حدود الصحراء أشجار ترجع إلى العصور الأولى التى لايتذكرها ولا يعرف عنها أىّ إنسان متى زرعت أو من أين جاءت ؛ ثم رأى أنواعا كثيرة من الأحجار لها أشكال متباينة غريبة لايمكن أن تنمّ إلا على أنها تحوى قوى سحرية تدعو إلى القلق . هذه الكائنات التى كانت تعيش بجانب مساكن الإنسان كانت هى التى تسارع إلى نجدته إذا ما التجأ إليها عند الحاجة . كما كانت تنتقم لنفسها إذا ما أسيئت معاملتها . . وهكذا تكوّنت من هذه الكائنات عدة آلهة أحاطت الإنسان ولعبت دورا هاما فى حياته اليومية . ولو أنها لم تَسْمُ فى مكانتها عنده إلى مكانة تلك الآلهة العظمى التى

تسكن السماء . وتعلق الإنسان بهذه الآلهة الصغرى وتأثرت بها حياة الأسرة سواء فى القرية أو فى الإقليم . ولكن المعتقدات الدينية يمكن أن نشبهها بالأمراض المعدية : إذ أن تقديس بعض هذه الآلهة المحلية انتشر بين الناس فى أماكن بعيدة عن مواطنها الأصلية . ولا غرابة فى ذلك فمصر لاتشبه فى طبيعتها أى بلد آخر . إذ أن فى الاستطاعة اجتياز هذا البلد من أقصاها إلى أقصاها بسفينة تعبر مياه النيل دون أىّ عائق . وإذا لم تساعد الظروف هذا أو ذاك المعبود من أن ينتقل من موطنه فقد كانت هناك بعض العادات والأفكار الدينية تنتقل من موطنها وتنتشر فى المواطن الأخرى ، وهكذا تكوّن فى مصر كنز لايفنى من معتقدات دينية تنوّعت أفكارها وتعدّدت مذاهبها : فهناك من الآلهة ما عبد فى موطن واحد ، وأخرى عبدت فى مواطن مختلفة . كما كانت هناك آلهة اختلفت أوصافها واتحدت فى شكلها . وكذلك آلهة اتحدت فى اسمها واتخذت أشكالا مختلفة . وليس فى استطاعتنا أن نتعرّف الأسباب التى دفعت المصرى إلى هذا الاختلاف المتشابك فى شتّى عقائده . ومن الغريب أن الآلهة العظمى لم تنج من هذا الخلط . حقا إن كل مصرى رأى فى الشمس والقمر والسماء ما يرمز إلى آلهة عظمى ، ولكن فى بلد مثل مصر لها امتدادها الطويل لم يستطع إنسانها فى كل مكان أن يتخيل نفس الصفات لكل من هذه الآلهة كما تخيلها زميله الذى يسكن منطقة من مصر تبعد عن منطقته . وسوف نتحدث فيما بعد عن هذه الظاهرة ، ونذكر هنا على سبيل المثال كيف أن هناك عقيدة صوّرت إلها على هيئة الصقر يسكن السماء عيناه هما الشمس والقمر : بينما هناك عقيدة أخرى صوّرت الشمس والقمر كنجمين يتجوّلان فى السماء داخل قارب كبير . وهكذا انتشرت مثل هذه العقائد المختلفة فى طول البلاد وعرضها ؛ ولقد ساعد على انتشارها ماوضع عنها من أناشيد وأشعار . ولقد توطنت بعض هذه العقائد فى أماكن ليس بينها وبين موطنها الأصلى أية صلة . ومن الغريب أنها - أى هذه المعتقدات - عاشت واستقرّت بجانب العقائد المحلية المتوارثة دون أن يشعر أهل هذا المكان بأىّ تناقض بينهما . وفى آخر الأمر تكوّنت فى البلاد عقيدة واحدة يمكن أن نسميها العقيدة المصرية ، وقد

حوت خليطا غير متناسق بين كل ما أنتجه العقل المصرى من صور مختلفة لمجموعة معبوداته ، ولو أن من المناطق ما احتفظ أهله بعقيدة معينة وتمسكوا بها لسبب أنها هى العقيدة التى توارثوها عن أجدادهم القدماء .

ولعلّ الأحداث التاريخية هى التى جمعت هذا الخضمّ المتناقض من المعتقدات وأضفت عليه الشكل النهائى . وليس من شك فى أن الديانة المصرية قد تأثرت كثيرا بظهور بعض الدويلات الصغيرة فى جزء من أجزاء مصر ، وأعنى بالدويلة تلك المقاطعة التى تتكوّن فى العادة من مدينة كبيرة مضافا إليها ما يحيط بها من أراض واسعة . فيصبح إله هذه المدينة هو الإله الأول للمقاطعة ، كما يرى فيه عبّاده ما يجعله فى مستوى يعلو كثيرا عن معبودات المقاطعات الأخرى . وهكذا يكون فى مصر نوع من الآلهة الكبرى يمكن أن نسميها آلهة المقاطعات تختلف عن غيرها من المعبودات بتسميتها منسوبة إلى المدن التى نشأت فيها . ونضرب لذلك مثلا الإله « ست » الذى سمى « رب أمبوس » أو « ذلك الذى من أمبوس » ، ومعنى ذلك أنه قد تكوّنت بين الآلهة ما يشبه طبقة الأرستقراطية .

ومرّت السنون وتقدمت مصر نحو الاتحاد . وتكوّنت من مقاطعاتها المختلفة دولتان كبيرتان : إحداهما فى الدلتا والأخرى فى صعيدها . وحدث ذلك حوالى القرن الأربعين قبل الميلاد . بيد أن المصرى نفسه لم يستطع تخيل ذلك العصر (عصر الدولتين) إلا بصورة مضطربة غير ثابتة . ولو أنه فى الوقت نفسه احتفظ بالشكل الخارجى لهذا التقسيم ولم ينس مطلقا أن يسمى مصر « الأرضين » وأن ملك مصر يجمع فى شخصه بين سلطتين مزدوجتين . ومن المرجح أن هذين البلدين تقاتلا . وهناك نصّ قديم يذكر ما كان من حروب بينهما . ولدينا فيما احتفظت به الديانة عن هذه العصور السحيقة الموغلة فى القدم ما يثبت ما قام من نزاع بين المملكتين وكان لكل من المملكتين آلهته التى تحميه . وقامت بينهما الحروب ثم تهادنتا ، ولو أنه فى واقع الأمر لم تختف الفرقة بينهما . ولا بد أن تكون تلك الحروب بين المملكتين هى التى دفعت الإله « حورس » حامى مصر السفلى أن يمثل فى جميع البلاد

كرمز الملكية . ويجدر بنا ألا نتعرّض لهذه المعتقدات لالشيء سوى جهلنا بها ، لأننا إذا ما حاولنا أن نفهمها فسوف نركب الشطط ؛ وسنحاول على كل حال فى الفصول الآتية شرح ما تثبتنا من معرفته .

وقبل أن نبدأ بالحديث المفصل عن هذه المعتقدات ينبغى لنا أن نعرض لبعض النقط التى تعتبر من أهمّ الأسس لتفهّم الديانة المصرية القديمة . لقد سلفت الإشارة إلى نوع الحيوان الذى حرص المصرى فى كثير من الأحوال أن يرمز به لبعض آلهته وكثيرا ما اختار بعض الحيوانات المفزعة مثل التمساح والثعبان ، كما اختار أحيانا بعض الحيوانات النافعة مثل التيس والثور والبقر من قطعانه . وكثيرا ما اختار أنواعا أخرى من الحيوانات شغلت تفكير الرجل الساذج بحركاتها وأعمالها كابن آوى الذى يتسلل ليلا من الصحراء متجها نحو الأماكن التى اختارها المصرى لدفن موتاه . واعتقد عباد هذه الحيوانات أنها تحوى شيئا إلهيا فى نفسها، بمعنى أنه إذا أراد أحد الآلهة أن يجسّد نفسه للبشر فإنه يختار حيوانا ترمز بعض صفاته إلى مالهذا الإله من صفات . ولكن من المعروف أن الإله لايكون مجسدا فى كل بقرة أو فى كل تمساح . وبرغم كل الاحترام الذى يحيط به المتعبد تلك الحيوانات فإنه يمكن أن يأتى يوم يذبح فيه البقرة ويقتل التمساح ولا يرى فى هذا عملا إجراميا . وفى بعض الأحيان تحتفظ مدينة ما بنموذج واحد من هذه الحيوانات كمثل للإله ، معتقدة أن جزءا من الشخصية الإلهية تسكن فيه بصفة مستمرّة . كما أن الإله يختار عادة مسكنا آخر له . فهو يسكن بيته فى معبده حيث يحفظ تمثاله المقدس الذى تنزل عليه روح الإله ، والذى يمثله فى شكل حيوان أو آدمى . ويحدث أيضا أن التقديس لايوجه نحو تمثال للإله ، بل نحو أىّ شيء آخر من الجماد تكون قدسيته قد اكتسبها لسبب من الأسباب .

وحافظ الناس على تماثيل الآلهة فى محاريبها كما وصلت إليهم فى أشكالها الخشنة لالسبب سوى قدسيتها ولأنه محرّم عليهم أن يتناولوها بأىّ تغيير . ولكن حدث بالنسبة إلى بعض الآلهة أن اضطرّوا إلى مراعاة طريقة جديدة فى تمثيلها ؛ فبدلا

من الصور الحيوانية البحتة ظهرت الصور النصف آدمية . وكان ذلك متوقع الحدوث فعلا . ألم يقولوا عن الإله إنه يحب ويكره ويحمى ويعاقب ويعطى ويأخذ ؟ فمن الواجب أن يظهر الإله لهؤلاء على هيئة آدمى ، لأن هذه الأوصاف لايمكن أن تنطبق على تمساح أو كبش أو صقر . ولكن فى الوقت نفسه كانت هناك آلاف الروابط التى تلزمهم بالإبقاء على التقليد القديم ذى المظهر الحيوانى . فاختاروا الوسط بين الحالتين ، فأعطوا الإله جسما آدميا حتى يستطيع التقبيل والإعطاء والحماية واحتفظوا له برأس الحيوان . حقيقة بقى حورس وخنوم على هيئة الصقر والكبش ولكنهما على ذلك استطاعا أن يقوما بكل الأعمال الآدمية إشباعا لرغبة المؤمنين بهما . إنه من العجب حقا بأية مهارة استطاع المصريون أن يوجدوا هذا المزج بين الإنسان والحيوان إلى حد لانرى نحن فيه أىّ تناقض ! ! .

وهناك تغيير أكثر أهمية مما يتصل بمظهر الآلهة الخارجى ، هو ما خلعوه على هذه الآلهة من أوصاف ؛ وسبب ذلك أن بعض الآلهة مدوا سلطانهم خارج حدودهم الأصلية ،ومن ثم أصبح لزاما ألا يكتفى المتعبدون بما كان لهم من أوصاف كآلهة محلية فى المقاطعات ،فاتجهوا إلى أن يكسبوا معبوداتهم أوصافا على نطاق أوسع بأن جعلوهم متصلين بالزراعة والحرف والحرب والتناسل ودفن الموتى . بل أكثر من هذا طمع كل إله فى أن تصبح له صلة فعالة فى حكم الطبيعة فيما يتصل بالسماء والأرض والماء والشمس والقمر . وتغالوا فى ذلك إلى درجة أنه لم يصبح هناك إله ليست له صلة بالنسبة إلى عبّاده على الأقل بمثل هذه القوى الطبيعية . وفضّل المصرى أن يجعل إلهة أنثى هى رمز السماء ، وإلها ذكرا كرمز للشمس أو للقمر دون أن يلاحظ أن هناك آلهة أخرى اعتبرت كآلهة لهذه القوى الطبيعية ، كما لم يقلقه أن يسند لأحد هذه الآلهة التى سبق ذكرها مهامّ أخرى . فمثلا لم يكن المعبود « خنوم » هو صانع وخالق البشر فقط ، بل كان أيضا إله « الماء البارد » بمعنى منابع النيل ، وكان لزاما على المصرى أن يوجد تناسقا بين هذه المهامّ المختلفة .

وقد مكّن موقع البلاد الجغرافى المحصن أهل مصر أن يعيشوا حياة هادئة . ومن البديهى أنه قد حدثت بعض الحروب والمعارك اعتبرها المصرى إحدى المصائب التى حلت بالشعب ولم يهتمّ بها كثيرا [1] . ولم يتعطش المصريون نحو الأخذ بالثأر كما كانت الحال فى الشعوب الأخرى ، ولذلك بقيت هذه العادة غريبة عنهم [2] . ومن أجل هذا بقيت ديانتهم خلوا من الطقوس المخيفة التى تحيد بالديانات الأخرى عن الطريق المعتدل . ولم يكن فيها مكان لآلهة ظمأى نحو الدماء ، ولا طقوس تسرف فى السرور أو الشراهة [3] . وكانت الطقوس الدينية تؤدى بشكل هادئ رزين. وعومل الإله معاملة الرجل القوىّ الذى يسعى الكل إلى تأكيد مظاهر احترامه ؛ فيقدمون له المآكل والمشارب والزهور والملابس والحلى ، ويشيّدون له مسكنا يحرصون على نظافته يشيع فيه عبق البخور . وكان الإله يسرّ لكل هذا فيعوّض الناس ببركاته عن كل هذه الأعمال .

وساد هذه الطقوس البساطة والكمال ، ولكنها تضاعفت بمرور الزمن حتى وصلت فى آخر الأمر إلى أبعد الحدود . ونتج عن ذلك أن أضيفت إلى طقوس الديانة المصرية ومايحيط بها من حفلات وعادات مختلفة الكثير من المستحدثات التى انتهت بأن قلبت الديانة المصرية رأسا على عقب .

ولقد لعبت « البدع » الدينية دورها المهم فى صبغ ديانة المصريين بصبغة أخرى ، ولو أننا لاندرى مدى تأثر الديانة بهذه البدع إلا أننا نعرف تماما أنها أضافت أنواعا جديدة من الآلهة ، فمثلا اختاروا الطائر إيبس (أبى منجل) ليرمز إلى إله القمر ، كما جعلوا إله القمر هو الإله العالم كاتب الآلهة .

---

(١) ومن الغريب أن لفظة « جنودنا » لم ترد إلا مرة واحدة فى النصوص المصرية القديمة التى لاتحصى ، وذلك فى مقبرة أحد الضباط .

(٢) لم يكن لديهم كلمة صريحة يعبرون بها فى لغتهم عن هذا الشعور .

(٣) وربما كانت هناك شواذ ، على أية حال فإنها لم تلعب أى دور فى العبادات المصرية قارن :
Ed. Meyer, I,23, 68 .

إن الصورة التى حاولنا رسمها لتطوّر الديانة المصرية هى بعينها الصورة التى يمكن رسمها لتطوّر أىّ دين من أديان الشعوب . فالخطوط الرئيسية لديانة ما ، تتحوّل وتتشكل ما دام هناك عرق ينبض فى قلوب الشعب . وتشترك الديانات كلها فى عدم استطاعتها التخلى عما وصل إليها من تقاليد قديمة . بل أكثر هذه الديانات تقدما وتطوّرا لم تستطع التحرّر من معتقدات وتصوّرات قديمة ؛ إذ أن الزمن وحده هو الذى أكسب هذه المعتقدات قدسيتها . وأصبح المؤمنون بها لايجدون غضاضة فى التعلق بأهدافها . وليس من شك فى أن الديانة المصرية امتازت بين الديانات القديمة فى الجمع بين الحديث والقديم .



— ١ —
الصقر المقدس

ونحن نلاحظ بإعجاب كيف استطاع هذا الشعب أن يجمع بمهارة فائقة ويوفق بين الحديث والقديم والغارق فى القدم ، واستطاع أيضا أن يصل إلى هدفه هذا بأن أكسب هذه العقائد القديمة قدسيتها دون أن يستعمل المنطق فى مناقشتها . ويجدر بنا هنا أن نذكر أن أولئك الذين أقدموا على هذا التوفيق كانوا علماء الكهنة المتفقهين الذين عرفوا كل شىء وفهموا كل شىء . واستطاعوا أن يحافظوا على معتقدات شعبهم طوال آلاف السنين كما حرصوا على الإبقاء على ما وصل إليهم من أجدادهم . وكان من الطبعى على شعب زراعى مثل الشعب المصرى أن يتمسك بكل هذه العقائد ، ولكن الإبقاء عليها بكل ما تحويها من دقائق بسيطة مختلفة لم يكن إلا كنتيجة لتفقه أولئك الكهنة فى علوم الكهنوت . ولعل من الأسباب الأولى التى دفعت الكهنة إلى هذه السياسة أنهم لمسوا طبيعة المصرى التى تدفعه باستمرار ألا ينسى شيئا مطلقا . هذا الشعب قد واتته الفرصة بأن يخترع الكتابة فى أول عصوره ، وبذلك اكتسب مركزا ميزه على الشعوب الأخرى ، ولكنه دفع لذلك ثمنا غاليا . إن كل مرحلة من مراحل تاريخه الطويل قد أنتجت له معتقدات دينية جديدة عاشت بجانب القديمة دون أن تؤثر عليها . ولا غرابة فى ذلك فالقديم محفوظ فى مدوّناته وكتبه كتراث مقدس إذا سببت بعض الظروف أن يتوارى فى الظلام ، فإن ذلك لم يكن إلا فترة قصيرة لايلبث بعدها أن يظهر ويأخذ مكانه اللائق بين المعتقدات الجديدة . وحتى

بعض المعتقدات القديمة التى لم يبق منها سوى ما دوّن على بعض الأوراق البردية المنسية فى مكتبات بعض المعابد كانت تدبّ فيها الحياة مرة أخرى فتظهر متقدمة الصفوف . وهكذا كانت كل فترة من فترات التاريخ المصرى تضم إلى ذلك الخليط الكبير من المعتقدات الدينية أجزاء أخرى ، كان كهنة هذه الفترة يتلقفونها بسرور وإن كنا نجزع لها لأنها تزيد من غموض الديانة المصرية فى نظرنا . ويفاخر الشعب المصرى جميع الشعوب الأخرى بتلك المجموعة الهائلة من المخطوطات الدينية التى ترجع فى كثير من الأحوال إلى أقدم العصور ، ثم زادت وتكاثرت بمرور الزمن حتى العصر الرومانى ، وامتازت بعض هذه المخطوطات بقدسية خاصة على أساس أنها « كلمات الإله » ألفها « تحوت » نفسه ربّ الحكمة . ومن الغريب أن المصريين لم يستطيعوا أن يجمعوا كتابا مقدسا يشبه إلى حد ما واحدا من كتبنا المقدسة التى نعتبرها نبراسا لنا يحدد الكمالات الخلقية للبشر ، ومن أجل ذلك لم يكن الدين المصرى فى يوم من الأيام ذا صبغة موحدة ولم يتصف هذا الدين بصفة العقيدة ذات الأصول الثابتة ؛ كما أنه لم يحاول فى يوم من الأيام أحد الحكماء أو الرسل أن يرجع إلى هذه الديانة أو أن يتفهم أصولها .

لقد تحدثنا فى أول هذا الفصل عن المعتقدات التى سادت الطبقة الوسطى عند المصريين ، وأنها تكونت من عناصر مختلفة كل منها يمتّ إلى منطقة خاصة تجمعت وتكتلت نتيجة لسهولة الانتقال بين ربوع مصر . وساعد على اندماج هذه العناصر الدينية المختلفة توثق عرى المناطق المصرية بعضها مع البعض وتثبيت أقدام الملكية فيها . ونتج عن ذلك ما يمكن أن نسميه دين المصريين العام . حقيقة لم تحدد عناصره كما لم تنسجم أجزاؤه ، ولكن أصبح فى الاستطاعة لمصرى الدلتا إذا زار مصر العليا أن يجد هناك آلهة سمع باسمها وأحيانا كثيرة تشبه فى صفاتها آلهته .

وإذا أردنا أن نتتبع تطور الديانة المصرية فيجب علينا أن نبدأ بأصولها الأولى ، وهذا ما سنحاول الوصول إليه على صفحات الفصول الآتية .

وايم الحقّ إن مهمتنا هذه لاتعتبر سهلة ؛ إذ أن ما خلفه لنا المصريون من مدوّنات هائلة العدد . سواء على جدران معابدهم أومقابرهم أوعلى صفحات أوراق

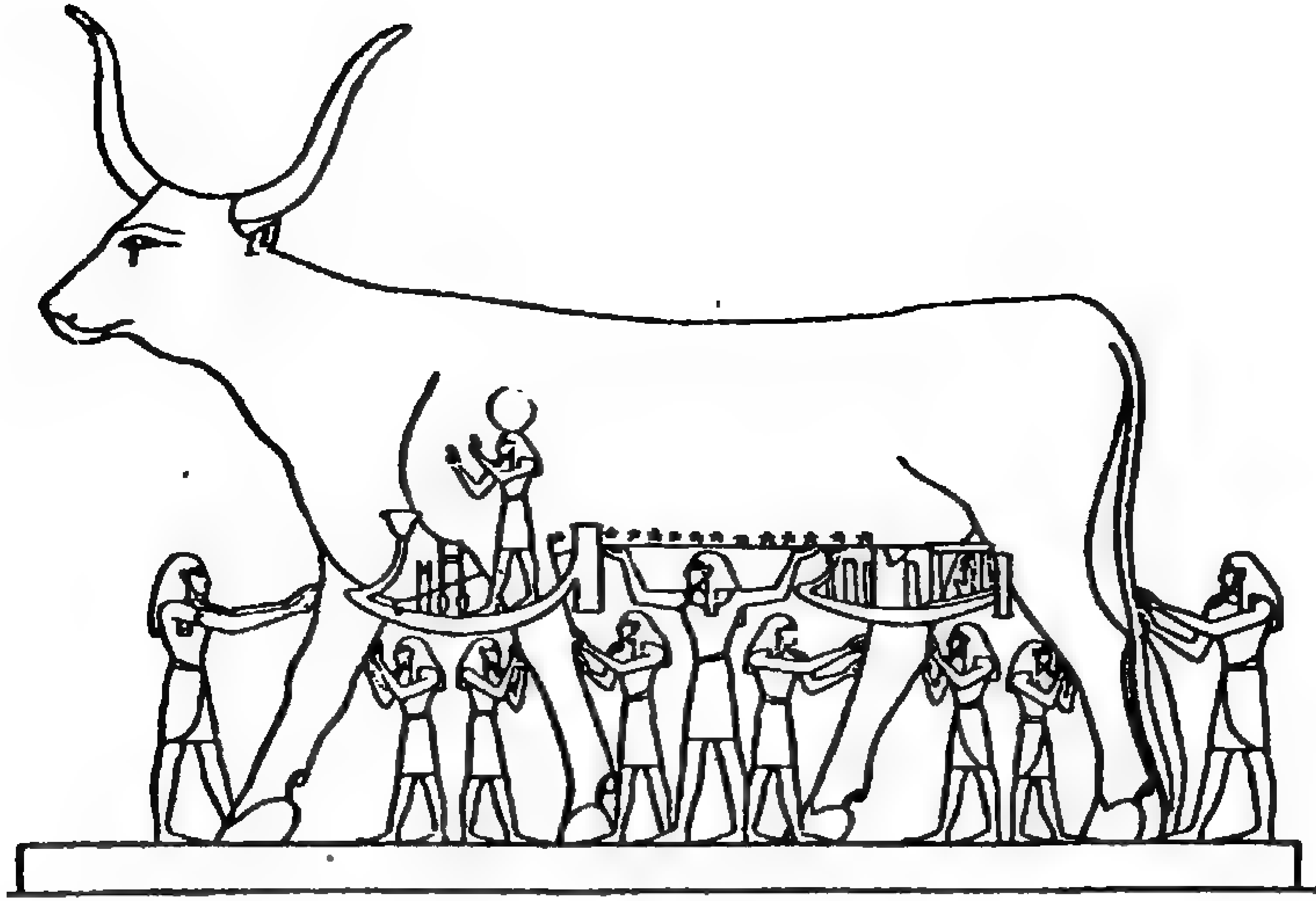
البردى والتى ترجع إلى جميع عصورهم المختلفة قد اختلطت وأصبح من الصعب علينا أن نتعرّف القديم منها ، بل مما حفظ من وثائق كتبت فى العصر الرومانى ، ما حفظ لنا معتقدات ترجع إلى العصور الأولى مما لم تتح لنا الفرصة أن نعثر عليها مكتوبة على وثائق أخرى . ومن أجل ذلك سوف تصبح الصورة مشوّهة للديانة المصرية إذا تحرّجنا ونظرنا بعين الحذر إلى كل وثيقة وصلت إلينا من عصر من العصور المتأخرة . لهذا فلا مناص لنا من أن نستعمل هذه الوثائق ولكن بحذر . على أننا فى الوقت نفسه لن نستطيع أن نستخلص منها الصورة الواضحة للمعتقدات المصرية فى عصور التاريخ الأولى وإنما سوف نصل إلى العقائد المهمة التى كانت تسود مصر فى عصر الدولة الوسطى ، أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . أجل إذا أتيح لنا أن نستجوب مصريا من مصريى عصر الدولة الوسطى فيما وصلنا إلى معرفته من ديانته لتعرّف على القليل منها ، ورأى فى البعض الآخر بعض ما كان أجداده يقدسونه . ومن المؤكد أنه سوف يفتقد الكثير مما كان يقدسه أو يهزّ رأسه عجبا لما قد وصلنا إلى معرفته مخطئين ، ولكنه فى آخر الأمر سوف يرى فيما نقوله بعض ما كان يقدسه أو يعتقد فيه .

الفصل الثانى

العالم وآلهته

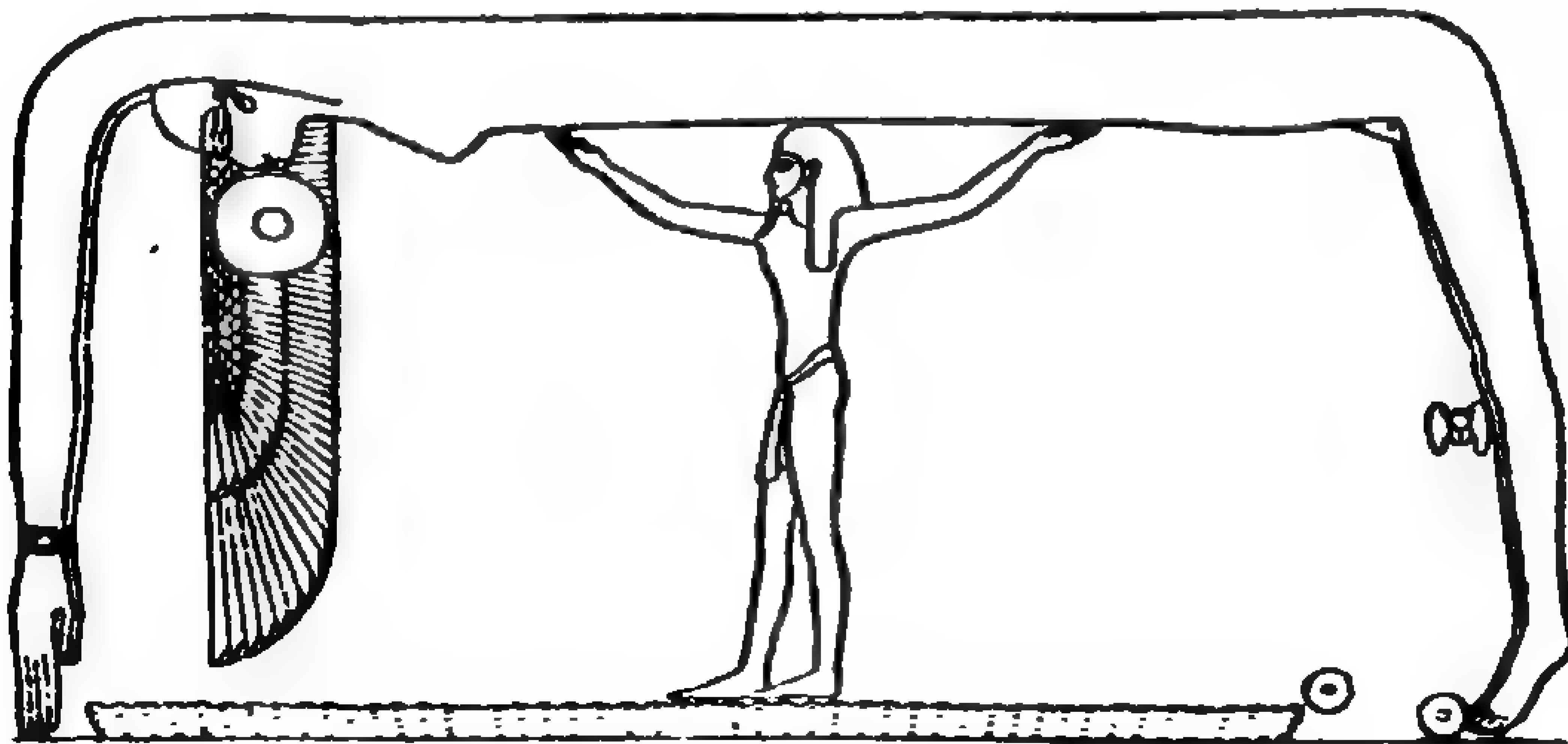
إذا أراد رجل من عامة الشعب أن يفكر فى شىء لايدركه ولا يستطيع فهم عناصره فهو لايستعين فى تفكيره بالمنطق بل يعتمد على الخيال . فمثلا نراه لايحاول أن يبحث مدققا فى ماهية السماء وما هو كنه الأرض . بل يعمد بماله من شاعرية متوثبة أن يقارن السماء بشىء مما تعوّده فى بيئته دون أن يتساءل عما إذا كان هناك أىّ تقارب بينهما . فهو يسمى السماء بالبقرة . وفى ذلك لم يفكر مطلقا أن يحقق هذه المقارنة تحقيقا دقيقا . بمعنى أنه لايتساءل إذا كانت السماء تشبه بطن البقرة ، فأين الشعر الذى يكسوها ، وأين الثدى . وأين مكان أرجلها الأربع . بل أكثر من ذلك نجد أن هذا التشبيه قد ثبتت أقدامه فى اللغة وتعوّده الشعب ، ومن ثم تلقاه الفن وأصبح الفنان لايحاول رسم السماء إلا على أنها بقرة جميلة دون أن يفكر فى حقيقة هذا الفضاء اللانهائى الذى يبدو للرائى كقبة عظيمة ؛ وبهذا أصبح من المعتاد التحدث عن السماء على أنها بقرة ، بل ورسمت بأستمرار على هذا الشكل . وتعوّدت عقول البسطاء السذج على هذا التمثيل سواء فى اللغة أو فى الفن ، واعتقدوا بالفعل أن السماء هى البقرة دون أن يحاولوا السؤال عن الشعر الذى يغطى بطن البقرة ، وعن مكان الثدى . ولما هذا التساؤل ؟ ما دامت المقارنة قد أعجبته ، وما دامت البقرة تعتبر من أجمل الحيوانات التى يحبها المصرى .

وهكذا أثرت شاعرية المصرى وغريزته الفنية على تصوراته الأخرى التى تخيلها عن العالم وعن الآلهة التى تسكنه ، ويرينا المثل الذى أوردناه فيما سبق إلى أىّ حدّ تشبث الشعب المصرى بهذه التصوّرات . وإذا حدث أن تخيل أهل عصر صورة أخرى للسماء فمثلوها على هيئة امرأة قد انحنت فوق الأرض فإنهم يعطونها رأس بقرة . أو على الأقل يزينون رأسها الآدمى بقرون بقرة . هذه هى ربة السماء « حاتحور » .



٢ — السماء على هيئة بقرة يمسكها إله الهواء « شو » وآلهة أخرى . وعلى بطنها النجوم وسفينة الشمس (مقبرة سيتى الأول)

وإذا كانت الصورتان اللتان تخيلهما المصرى للسماء لهما صفة الأنوثة فقد تخيل الأرض على أنها ذكر ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن كلمة السماء فى اللغة مؤنثة وكلمة الأرض مذكرة . وصور إله الأرض « جِبْ » مستلقيا على بطنه وقد نبتت المزروعات فوق ظهره . أما المرأة التى تنحنى فوق إلهة السماء « نوت » فقد اعتبرها زوجته [1] . وأما الفضاء الذى يفصل بين الإلهين فهو الإله « شو » وتعنى الكلمة فى اللغة « الفضاء » وقدصورته اللغة والفن على أنه رجل يقف فوق الأرض ويسند بيديه إلهة أو بقرة السماء [2] .



٣ — السماء على هيئة امرأة يحملها « شو » وعليها الشمس على هيئة جعل أو قرص . (مقبرة رمسيس الرابع)

(١) قارن Pyr 316 (٢) Pyr 1471

ولما كانت تنقلات المصرى كلها بوساطة السفن فوق سطح نيله الفياض ، نراه وقد تخيل أيضا أن الشمس والقمر والنجوم تتحرّك فى السماء فوق سفن ، وفى هذه الحالة لابد وأن تكون السماء بحرا خضما « هى الماء البارد » أو « البحر الذى يجرى تحت بطن الإلهة « نوت » »[1] . وهكذا نرى كيف انسجمت هذه التصورات بعضها مع البعض الآخر ، وإذا كانت السماء عبارة عن بحر كبير فقد بقيت فى الوقت نفسه فى خيال المصرى هى بطن البقرة أو بطن الإلهة . أما المطر فكان يأتى بطبيعة الحال من تلك « المياه الحية الموجودة فى السماء »[2] .

وهناك تصوّر آخر للسماء يمتّ إلى العصور الحديثه ويتخيل المصرى فيه السماء قائمة فوق أربعة جبال كل جبل منها يقع فى ركن من أركان العالم الأربعة ، وأحيانا يتصوّروها محمولة على أربعة أعمدة[3] أو على أربع قوائم ، بينما توجد الأرض مستلقية على ظهرها[4] .

أما الأرض فقد صوّرها وقد أحاط بها محيط كبير « الدائرة الكبرى »[5] وقد انقسمت الأرض إلى قسمين : أحدهما جدب « الأرض الحمراء » حيث يسكن البرابرة المتوحشون الذين يعيشون على الأمطار ؛ أما القسم الثانى فهى « الأرض السوداء » ، وفى الواقع لم يتخيل المصرى أن هناك أرضا سوداء غير أرضه حيث تسكن الآلهة ، والتى وهبها الآلهة نيلها الفياض « الذى يجلب الخير للناس » واعتقد أن فيضانه يأتى إليه من الدنيا السفلى فمصدره « من الماء الحىّ الموجود فى الأرض »[6] وينبع من فتحتين موقعهما بين صخور الشلال الأول .

ونحن نعذر المصرى إذا كان قد أفسح لخياله المجال نحو تقديس النيل : تلك القوّة التى تأتيه بالأعجوبة السنوية والتى تهيمن على حياته فلا غرابة إذا كان قد ألّهه وجعله واحدا من بين آلهته العظمى ، ومع ذلك عومل النيل معاملة أخرى .

---

(١) Pyr. 802

(٢) Pyr. 2063, 1146 وهناك تفسير آخر للمطر فى Pyr. 2065 على أنه البول الذى تتبوله كل من الإلهة « تفنوت » والإله « شو » .

(٣) Pyr. 1143

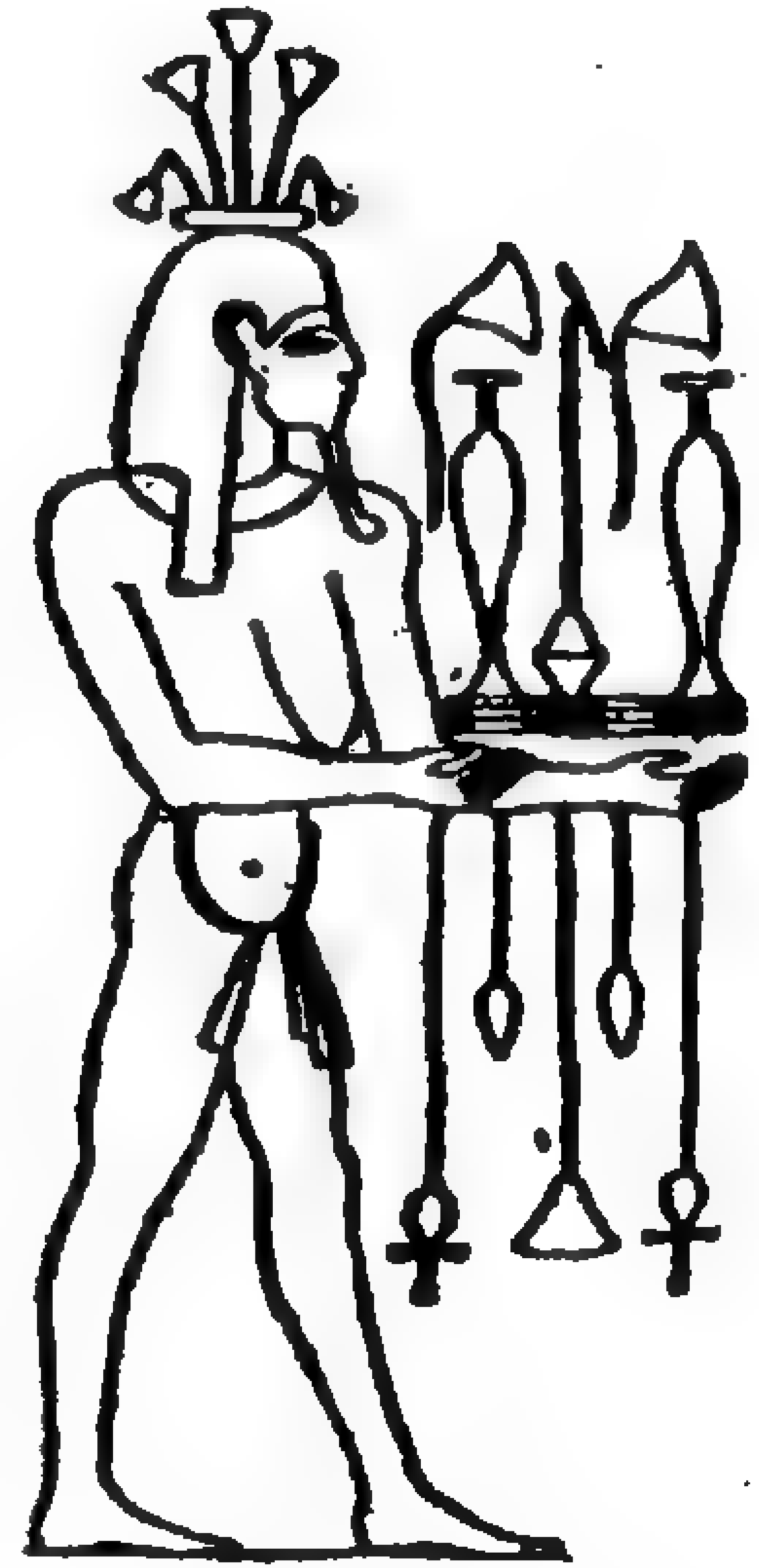
(٤) Papy. Leiden 347 5,9 ووردت أيضا فى قصة الفلاح .

(٥) راجع مدينة هابو (W. B. 423, 487) .

(٦) Pyr. 2063

فلو أنهم اعتادوا تقديم القرابين له وتأليف الأناشيد لتمجيده إلا أنهم لم يضعوه فى ذلك المستوى الذى وضعوا فيه آلهتهم الأخرى ، وإذا كانوا قد لقبوه فى بعض أناشيدهم « بأبى الآلهة » فإن هذا اللقب قد استعاره من الإله « نون » ربّ الماء الأزلى . والسبب فى ذلك أنه ذكر فى نصّ من النصوص الدينية على أنه ينبع من هذه المياه . ومن بين الأناشيد التى دبجها المصرى فى وصف النيل [1] : « هو الذى يذهب فى وقته ويأتى فى وقته ، الذى يحضر المآكل والمؤن ، هو الذى يأتى بين الأفراح ، المحبوب جدا ، ربّ الماء الذى يجلب الخضرة . يتفانى الناس فى خدمته ويحترمه الآلهة . هو إله صغير خلقه « رع » من أحسن عناصره » .

وفى مكان آخر قالوا عن النيل وقد أعطوه بعض صفات أوزيريس ما يأتى : [2] « كل من يرى النيل فى فيضانه تدبّ الرعشة فى أوصاله ، أما الحقول فهى تضحك ، وأما الشواطئ فتكسوها الخضرة ، وتتساقط هدايا هذا الإله وتعلو الفرحة وجوه البشر ، أما قلوب الآلهة فتخفق من السعادة » .



٤ — النيل

ومن الغريب أن النيل قد تبوأ بين الآلهة منصب الخادم لهم ، فصوّروه على جدران المعابد بزى البحار أو صياد السمك على هيئة بشر نصفه أنثى والنصف الآخر ذكر يقدم منتجاته إلى الآلهة الكبرى [3] .

وهناك قسم ثالث للعالم غير السماء والأرض وهو الدنيا السفلى حيث يخيم الظلام وحيث يعيش الموتى ، وسوف نصور فى الفصل الرابع عشر الخيالات المختلفة التى دبجتها عقول المصريين عن هذا العالم . ونكتفى هنا بأن نذكر كيف أن المصرى لم ير فى الدنيا السفلى العالم الذى يسكنه الموتى فقط ، بل رأى فيه المكان

---

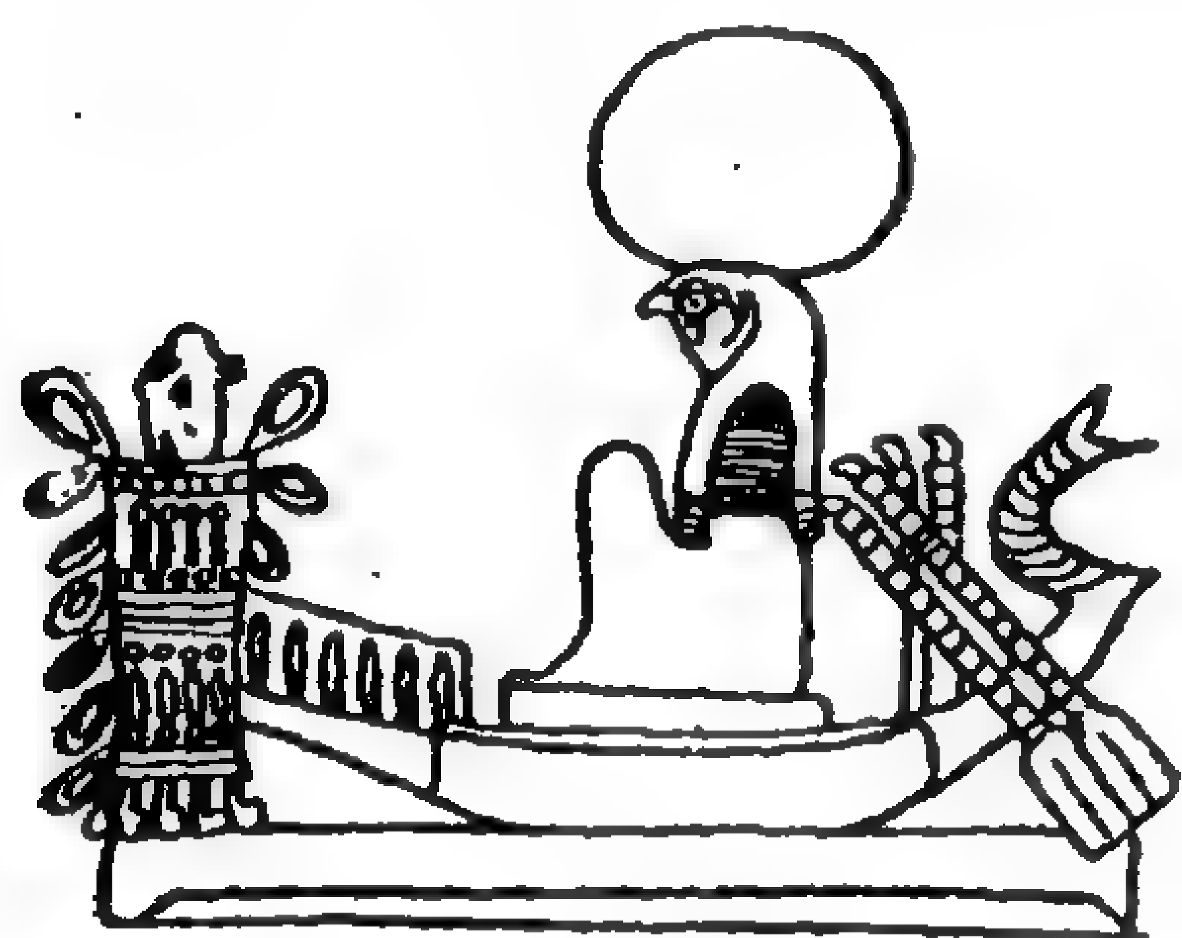
(١) Lacau, Textes religieux XIX (p. 44,45)

(٢) Pyr. 1553

(٣) لقد صوروه وله ذقن وثديان كبيران ولست أدرى السبب فى تصويره على هذا الشكل .

الذى تغيب فيه الشمس فى المساء وتعبره طوال الليل لتشرق من الشرق فى الصباح التالى ، ومعنى ذلك أن هذا العالم السفلى لابد له من نهر عظيم تجتازه سفينة الشمس كما تجتاز السماء ، وفى آخر الأمر رأى المصرى فى الدنيا السفلى سماء أخرى تعادل سماء الأرض ولو أنها تمتاز بالظلام « تصعد إلى السماء وتنزل إلى السماء السفلى » قالوا ذلك بالنسبة إلى تحركات الشمس .

وبطبيعة الحال كانت الشمس هى أهمّ ما استرعى نظر المصرى فى السماء ، فعرف الإله « رع » أهل مصر فى الشمال والجنوب ، فتخيلوها ذلك القرص الأحمر المتوهج الذى يعبر السماء فى قاربه ؛ ومن ثم لعب الفنّ وما امتاز به عقل المصرى من خيال خصب دوره المهمّ فى تصوير هذا الإله على أشكال مختلفة ، فمرة صوّروه على شكل جعل عظيم « خپر رع » وهو يدفع قرص الشمس أمامه فوق صفحة السماء تماما كما يفعل زميله الذى يحيا فوق الأرض عندما يدفع كرة الروث أمامه . ومرة أخرى تخيل الشمس على هيئة عجل ذهبى تلده أمه بقرة السماء فى الصباح [٢] ، وينمو أثناء النهار حتى يصبح ثورا سموه « كاميفيس ثور أمه » لأنه يلقح أمه البقرة حتى تلد فى اليوم التالى شمسا جديدة . أما فى الأحوال التى تخيل فيها السماء كامرأة فهنا نجده يتحدث عن طفلها الشمس الذى ينمو أثناء النهار



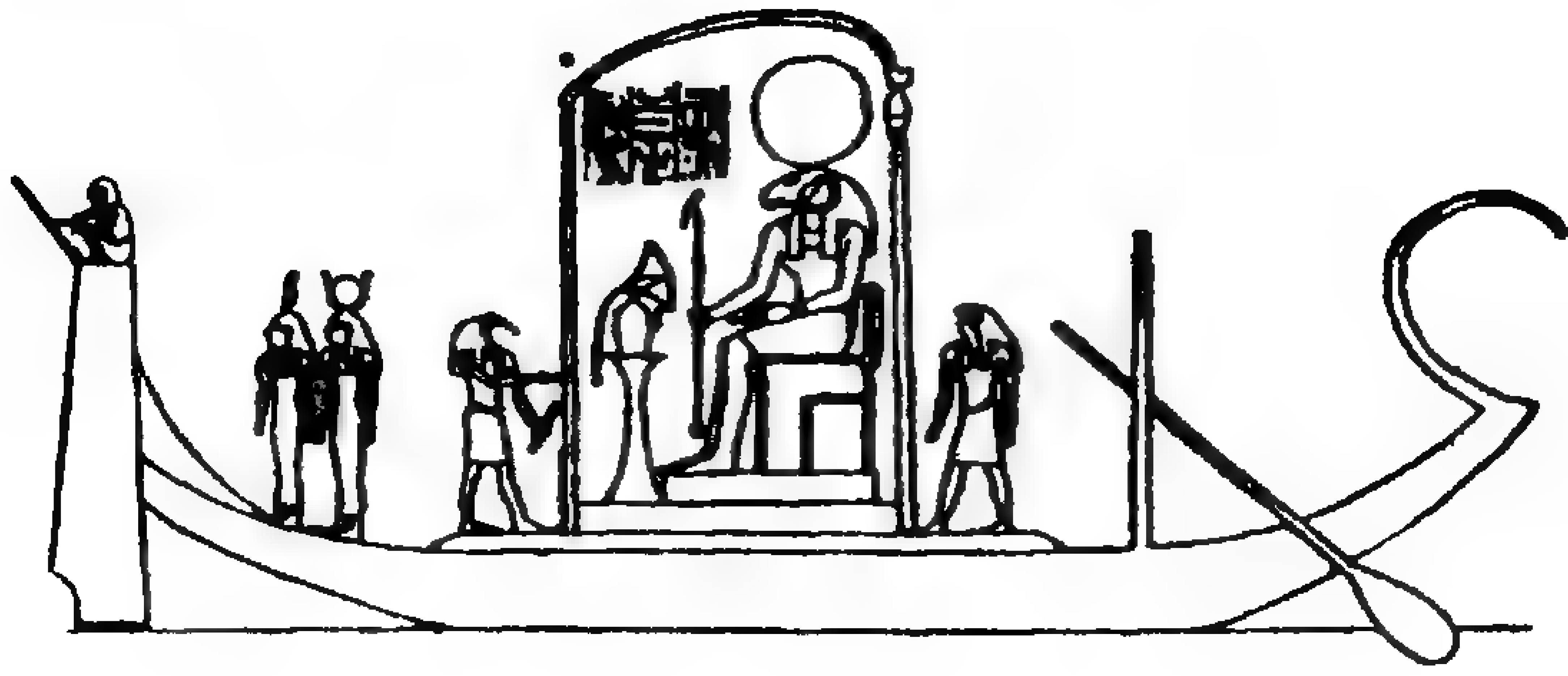
٥ – سفينة الشمس وقد علق على مقدمها بساط

و يصير رجلا كهلا فى المساء ويختفى فى الدنيا السفلى . وتصور الشمس فى شكلها الهرم كإله له جسم الإنسان ، وسموه « آتوم » الذى يعبد فى هليوبوليس » بينما رأوا فى الجعل « خپر » رمز الصباح ، ومعنى ذلك أن المصرى ميز بين شمس الصباح « خپر » وشمس الظهر « رع » وشمس الغروب « آتوم » [٣] .

---

(١) Pyr. 149 (٢) Pyr. 1029

(٣) ويمكننا أن نقول أن كلمة « رع » فى الأصل أطلقت على النجم نفسه ، بينما « آتوم » ، وخپر ، وحوراختى هى أسماء إله الشمس الذى عرف أيضا باسم « رع » (Pyr, 348, 1694) أما التفرقة بين خپر



٦ – سفينة الشمس ، وهى المكان الذى يحكم منه العالم ، حيث يجلس الإله على عرشه فى مقصورة ويقف أمامه وزيره « تحوت » يخاطبه . ويتخذ الإله رأس كبش على نحو ما يتخذ فى رحلته بالليل فى العالم السفلى (من معبد وادى السبوعة L. D. III, 181)

وزاد المصرى على ما تقدم صورا أخرى للشمس : فتخيلها على هيئة الصقر ، أو كإله له رأس الصقر هو « حوريس » الذى يعنى اسمه « البعيد » لأن إله الشمس « بعيد عن الآلهة » [١] فهو يطل على الآلهة وليس هناك إله يطلّ عليه [٢] . واعتقد المصريون فى أوّل الأمر أن الإله حوريس هو حاكم السماء . له عينان متوهجتان إحداهما الشمس والأخرى القمر .

وما دام المصرى قد تخيل الجعل وهو يدبّ فوق سطح السماء ، ويرفرف فوقه الصقر بجناحيه ، فانه من الواجب أن يكون لإله الشمس الذى على شكل آدمى قارب يسبح فيه فوق سطح محيط السماء [٣] ، وبالفعل كان له قارب جميل صنع من الذهب [٤] طوله ٧٧٠ ذراعا ، وقام ببنائه الآلهة أنفسهم [٥] . تشرف على تسييره

فى الصباح ورع فى الزوال وآتوم فى المساء (Paps. Turin 133.10) فنجدها مذكورة أيضا فى Pyr, 1695 ومن الغريب أن نجد فى Pyr. 888 أن رع يشرق فى الصباح وخبر يغرب فى المساء . قارن أيضا Urk, IV 19,3 أما فى Urk. IV,19 فنجد أن آتوم قد ذكر كشمس الصباح .

(١) Pyr. 1693

(٢) Pyr, 1479

(٣) وهنا نجد أيضا تضاربا عجيبا ، فثلا هناك نص يتحدث عن الجعل وهو يركب القارب (Totb 134,3)

(٤) Pyr. 602

(٥) Pyr. 1200

النجوم [١] وتصاحب الآلهة العظمى الشمس فيه [٢] « إنه الإله العظيم رب السماء » الذى يحكم العالم من قاربه هذا ، ولا غرابة فى ذلك فإن إله الشمس هو سيد الآلهة أجمعين [٣] .

واعتقد المصرى أن هناك ثعبانا يلتف حول قرص الشمس الذى يحمله الإله على رأسه . هذا الثعبان هو الخادم الخطر الذى يحرق أعداءه بأنفاسه النارية ، وهو بعينه الثعبان الذى يزين جبين الملك الأرضى والذى يعرف باسم الصل ، والذى اعتبر كرمز لأسمى ما وصلت إليه القوة .

أما الأعداء الذين يقابلهم الإله أثناء رحلته فهم بطبيعة الحال السحب ، ولكن « رع يمزق الصواعق ويبعد الأمطار ويفتت البرد » [٤] . وامتاز الثعبان « أبوفيس » بأنه أشد أعداء الشمس قوة وخطرا ، ومن أجل ذلك اعتبر رمزا لكل مكروه دنىء [٥] ، وبطبيعة الحال لن تستطيع هذه الأعداء أن تمس الإله بمكروه ، فالآلهة الأخرى تدافع عنه كما تصاحب القارب تلك السمكة التى تتنبأ بما سيحدث والمسماة « ابدو » ، فتسارع بتبليغ أصحاب القارب يدنو أحد الأعداء منه [٦] ، وتصل الشمس فى المساء آمنة مطمئنة إلى الغرب فترحب بها . إلهة الغرب التى تقف لاستقبالها عند سلسلة الجبال التى اعتقد المصرى أنها بمثابة الحدود التى تفصل عالمه عن العالم السفلى [٧] . وعندئذ تترك



٧ — إله الشمس

---

(١) فمثلا راجع كتاب Lacau, Textes religieux p. 13, 65 ; Pyr. 1209

(٢) Pyr. 906

(٣) ولقد ذكر بهذا الوصف فى نصوص الأهرامات نفسها كما ذكره « باعنخى » على لوحته سطر ٧٥ على أنه سيد النجوم .

(٤) Pyr. 500

(٥) لم نعثر على ذلك فى نصوص الأهرامات .

(٦) قارن Totb. 15, A (Pap. Berlin, 3006, 5) , Meternichstele 78

(٧) وتصور المصرى فى أقدم عصوره الشمس وقد خرجت فى الصباح من فرج أمها إلهة السماء ، بينما تبتلعها فى المساء . (راجع هذا المنظر — فى الصورة التى عثر عليها حديثا ممثلة إلهة السماء — فى كتاب Frankfort - De Buck, The cynotaph of Sétei' 1st. at Abydos, vol II, pl. 81 (London 1933)

الشمس قارب النهار وتستقل قارب الليل وقد خيم عليها الظلام ، وذلك لتبدأ رحلة الليل مخترقة العالم السفلى . وهناك « يضيء رع للإله الكبير الذى يحكم هذا العالم المظلم كما يضيء للموتى المساكين الذين يعيشون فى كهوفهم والذين يحيونه بقلوب تملؤها السعادة رافعين أذرعهم مبتهلين باسمه شاكين له كل أحوالهم . . . فتفتح عيونهم عند رؤيتهم له كما تدق قلوبهم فرحا عند أول نظرة يلقونها عليه . أما هو فيستمع إلى جميع طلباتهم أولئك الذين يضطجعون فى توابيتهم فيخفف من آلامهم ويقلل من عذابهم . ويملأ أنوفهم بنسيم الحياة » .

ولما كان نسيم الشمال الذى ينتشر فى دنيا الأرض لايصل إلى دنيا الموتى « هادس » لذلك تصوّر المصرى الموتى وقد تجمعوا حول الحبل المربوط فى مقدمة القارب يتعاونون على سحبه تماما كما يحدث على الأرض عند ما تقف الرياح ويسحب المصريون سفنهم على سطح النيل [1]

وعندما يترك الإله فى الصباح العالم السفلى فهو يغتسل أولا فى بحيرة « إيارو » [2] حتى يزيل عن نفسه ذلك اللون القاتم المدلهم الذى اكتسبه أثناء الليل [3] ، ويتقدم متحليا « بملابسه الحمراء » [4] إلى باب السماء [5] ثم يظهر فى ذلك الجبل الخرافى المدعو « بش » ويهب كل الكائنات الحياة والسرور ، وإذا كنا نلاحظ كيف تقفز الأسماك فى الصباح وكيف تضرب الطيور أجسامها بأجنحتها عند استيقاظها فقد أرجع المصرى ذلك إلى أن هذه المخلوقات تحيي إله الشمس وهذا هو السبب الذى يدعو القردة إلى الصياح عند شروق الشمس ، فهم يرتلون أناشيد تمجد هذا الإله [6] ، وكذلك البشر

---

(١) وفى كتاب « فى العالم السفلى » ذكرت تفصيلات كثيرة عن هذا سوف نشرحها فى الفصل الرابع عشر ، ويكفينا هنا أن نذكر نهاية هذه الجولة التى تنتهى بدخول الشمس فى ذيل ثعبان كبير ثم تخرج من فمه فى الصباح على شكل الجعل .

(٢) Pyr. 1421

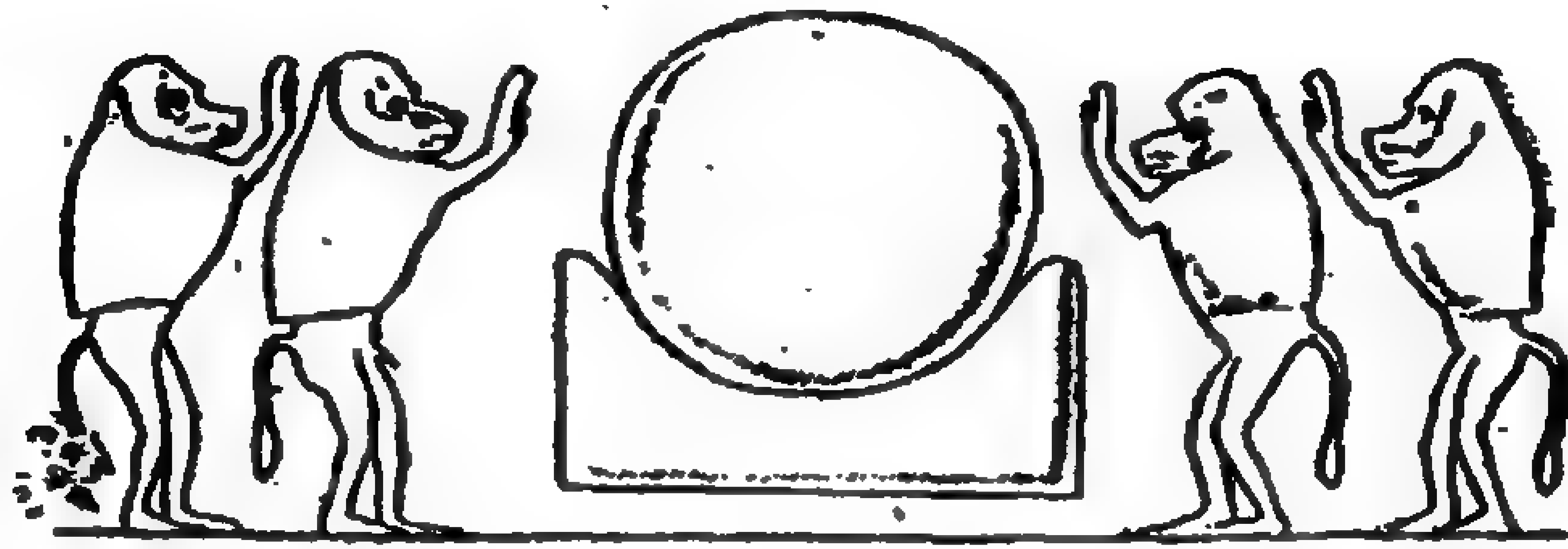
(٣) وقد لونت شمس الليل باللون الأخضر الذى يميل إلى الاصفرار على التوابيت التى ترجع إلى عصر الأسرة ٢٢ والمحفوظة فى متحف برلين .

(٤) Pyr. 285

(٥) Pyr. 526

(٦) إن علامات الفرح التى ذكرت عن السمك والطيور فى الصباح الباكر وصلت إلينا مذكورة

فهم يرفعون أيديهم إلى أعلى ويبتهلون إلى الشمس قائلين [1] : « المجد لك أنت عندما تشرقين من اليم الذى يحيط بالسماء لتنشرى الضوء على مصر بشروقك . الشكر لك تلهج به ألسنة الآلهة أجمعين . . . . . أيها الطفل الجميل المحبوب الذى إذا ما أشرق دبت الحياة فى البشر وتتعاون آلهة العاصمتين على رفعه . أما القردة فتلهج بشكره أيضا كما تتفق جميع الحيوانات على تقديسه . ويفتك ثعبانك بأعدائك ، وتغمرك السعادة فى قاربك ، ويملأ الفرح قلوب رجالك . أما أنت يا سيد الآلهة فقد ظهرت بشائر الفرح عليك . أما الآلهة فتنشيد بذكرك، وربة السماء تزيد زرقتها وهى بجانبك » [2]



٨ – القردة تتعبد الشمس (برلين ٧٣١٥)

على هذا النحو تمثل المصريون عادة ما يحدث للشمس فى كل يوم ، ولكن هناك صور أخرى غيرها ترجع فى نشأتها إلى أقدم العصور . ومن الغريب أنها لاتتفق عن بعد أو قرب مع تلك التى شرحناها فيما سبق . فهناك الصورة التى تخيلها المصرى عن ولادة الشمس . فى المساء تدخل فم إلهة السماء ، ثم تعبر أثناء الليل جسمها ، وتولد فى الصباح [3] ، كما أن هناك فكرة أخرى تقول بأن الشمس إذا ما اختفت فى الغرب تظهر من جديد فى الشرق ، ولكن لكى تصل إلى هذا الشرق يجب عليها — حالها فى ذلك حال كل مصرى — أن تعبر النهر ، ومن أجل ذلك كان يلزمها حزمتان

فى وثيقة ترجع إلى العصر المتأخر ؛ أما ما تقوم به القردة من ابتهالات للشمس فقد نص عليها ، فى وثيقة قديمة ، والدليل على ذلك أن القردة لم تعرف فى البيئة المصرية إلا فى العصور التى سبقت العصر التاريخى واختفت بعد ذلك .

(١) كلمة « دوا » بمعنى يمجد ولا بد أنها كانت فى الأصل تعنى « التعبد فى الصباح » هذا مع العلم أن الصباح عند المصريين كان بمثابة الفترة المقدسة للعالم .

(٢) Totb. XV A, 11

(٣) قارن كتاب "Rusch, Himmels - Göttin Nut, 44"
وكذلك مقبرة « زانوفر » فى جبانة طيبة .

من البوص لمساعدتها على السباحة [١] . ومن الغريب أن المصرى ولو أنه تخيل الشمس فى حركة مستمرة بين الشرق والغرب ، وبالعكس طوال النهار والليل ، فانه رأى أيضا أن يجعل لها مسكنا فى جزء من اجزاء السماء وسماه « آخت » وتصوره أول الامر كجزيرة وسط ماء السماء وفيما بعد ، فسره بالمكانين حيث تغرب وتشرق الشمس . ومن أجل ذلك اعتدنا نحن إما عن خطأ أو صواب ، أن نترجم هذه الكلمة بالأفق . وكنتيجة لذلك سميت الشمس باسم « حورأختى » (حوريس الأفق) ومن ثم اعتبر هذا الإله واحدا من بين الآلهة الرئيسية وصور على شكل إله ذى رأس الصقر وعبد فى هليوبوليس .

ويتحدثون فى بعض الأحيان عن قصر خاص للشمس فى السماء مكانه فى حقول « ايارو » [٢] أو فى المنطقة الباردة [٣] . ويطلقون على هذا القصر اسم « قاعة آتوم » [٤] أو « دار حوريس » [٥] ويعتبرونه بمثابة قصر حاكم العالم تتردد عليه الآلهة ليتلقوا الأوامر كما يبقون فيه حيث تقدم لهم المآكل [٦] — تماما كما يحدث فى بلاط ملك الأرض بالنسبة إلى رجالات الدولة . ويبقى علينا الآن أن نذكر صورة أخرى تخيلها المصرى عن الشمس . وذلك بالنسبة إلى الاعتقاد القديم الذى يجعل من إله السماء معبودا له عينان متقدتان [٧] . ومن الغريب أن حوريس نفسه لم يذكر إلا نادرا على حين كثر الحديث عن « عينيه اللتين يحملهما ما فى جبينه » وهما الشمس . وسميت عين الشمس . والقمر وسمى عين حوريس [٨] . وغالى المصرى فى نسج الأقاصيص المختلفة عنهما . مع أنها لا تمت بصلة معقولة بهما . ولكن المصرى تعلق بها وردّدها باطمئنان . وبطبيعة الحال ربط المصرى بين هاتين العينين وبين جبين الإله الذى تصوروه ككائن خطر لأنه يحرق أعداءه . ولما كان خيال المصرى قد تصوّر فيما سبق أن الثعبان الذى يعلو جبين الإله « رع » يقوم بنفس الوظيفة [٩] لذلك نجده

---

(١) Pyr. 1103, 1084, 1705

(٢) Pyr. 1984

(٣) Pyr. 1180, 2035

(٤) Pyr. 1984 ، وقارن عن قصر آتوم ما ورد فى بردية Harris I, 4, 11.

(٥) Pyr. 1026, 1027

(٦) Pyr. 1026, 1027

(٧) وفى بعض الأحيان تصوروها على أنها إلهة للسماء لها عينان ، قارن Pyr. 823

(٨) ولقد حدث هنا أيضا خلط كبير فذكر عن عين حوريس أشياء لا تتعلق بها ، بينما صلتها كبيرة بعين الشمس .

(٩) Pyr. 1568

قد ربط بين العينين وذلك الثعبان . ثم مادام هناك عينان ، إذاً يجب أن يكون هناك ثعبانان ، وقالوا فى ذلك : « الإله له عينان على هيئة ثعبانين » [1] . ولكن الثعبان اعتبر عند المصرى بمثابة رمز القوّة للملك ، وبما أن الملك يضع على رأسه تاجين : واحدا منهما يمثل الجنوب ، والآخر يمثل الشمال ، لذلك تساءل المصرى لماذا لاتقارن هذين التاجين بما لهما من قوّة سحرية بالثعبانين ، بل وأيضا بالعينين [2] . ومن الغريب أن المصرى لم يكتف بكل هذه المقارنات بل اعتبر التاجين كإلهتين حامينين للملك هما العقاب والثعبان اللذان اعتبرهما المصرى فى مناسبة أخرى مساويين للثعبانين . وما دام الحال هكذا لماذا يتردّد المصرى فى مساواة هاتين الإلهتين الحاميتين للملك بعينى الشمس ؟ . وتطوّر الأمر وأصبحت عين الشمس كلقب يعطى لكثير من الآلهات الكبرى ، فمثلا « حاتحور » إلهة السماء منحت هذا اللقب مع ملاحظة عدم وجود الصلة بينهما . وكنتيجة للجمع بين العين والثعبان والتاج وعدة آلهات حدث اضطراب وخلط عجيب فى الديانة المصرية ، فمثلا يقولون إن « رع » أرسل عينه لتقتل أعداءه [3] أو أن الثعبان الذى يحمله رع فوق جبينه يغذى الملك الميت من ثديه [4] . أو أن الإلهة الحامية لمصر العليا هى أيضا التاج ثم عصابة الرأس للملك التى فى واقع الأمر تمثل على هيئة العقاب هى أيضا بقرة وحشية ، وكذلك يمثلونها على هيئة امرأة بثديين كبيرين بارزين يرضع منهما الملك [5] . وهناك عدد آخر لايحصى من هذه الأمثلة التى يجب ألا ننظر إليها بعين الجدّ لأنها تمثل الازادات التى لم يعرها معظم المصريون أهمية كبرى ، ولا يجب علينا نحن أن نفكر فيها طويلا .

ووجه المصرى — وحاله فى ذلك حال كل الشعوب البدائية — أهمية كبرى نحو القمر وعين حوريس هذه كانت تصغر رويدا رويدا ثم لاتلبث أن تنمو بشكل عجيب حتى تكتمل ، ولا يمكن للخيال البسيط غير المعقد أن يفهم هذه

(١) Pyr. 1287, & also Totb. XVII, 7 . وفى بعض الأحيان كانت سفينتا الشمس توصفان بذلك أيضا ، انظر Pyr. 198 A.

(٢) Pyr. 1795, 1832, & also 823, & Edfou, I, 406

(٣) قارن القصة المذكورة فى الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٤) Pyr. 1108

(٥) Pyr. 729

الظاهرة إلا بأن هناك كائنا شريرا يعتدى على هذه العين فيجرحها ، ثم يسارع كائن آخر طيب فيعالجها . وكان هذا الإله العدو هو « ست » ، وعداوته لحوريس استمر مع مرور الزمن ، أما الإله الطيب فكان « تحوت » على شكل الطائر « إيبس » الذى أصبح فيما بعد هو نفسه إله القمر ، بل « الممثل الليلى لرع » الثور بين النجوم »[١] ، وعين حوريس هذه أو كاسموها « الصحيحة » سوف يأتى ذكرها أكثر من مرة فوق صفحات هذا الكتاب ، وذلك لأنها لعبت دورا مهما فى معتقدات المصريين دون أن تفهم السبب الذى أعطاها كل هذه الأهمية ، بل تطورت وأصبحت تمثل رمزا مقدسا استعمله المصرى كتميمة ملأت نماذجها متاحف العالم ، وهى فى هذه الحالة تسمى عين « أودچات » ، بل أكثر من هذا استعملت على نحو غريب لانستطيع أن نهمله فى هذه المناسبة : مادامت العين الصحيحة تمثل القمر الكامل ، رأى الموظفون القائمون على كيل الحبوب أن يقارنوا بين عين « أودچات »[٢] ووحدة الكيل الكاملة ، بل قسموا هذه الوحدة إلى أقسام مختلفة مثل النصف والربع والثمن وغير ذلك ورمزوا لها بالأجزاء المختلفة لهذه العين فى كتاباتهم ، وهكذا نرى ظاهرة جديدة وهى استعمال العناصر الدينية البحتة فى أغراض يومية جافة .

وعرف المصرى عن النجوم أنها أيضا « تسبح فوق اليمّ الموجود فى بطن نوت »[٣] وكانت إلهة السماء هذه تلدها من جديد فى كل ليل ، وفى الصباح تدخل هذه النجوم فى فم هذه الإلهة[٤] . وتنوّعت النجوم ، فأحسنها كانت تلك التى سموها « التى لاتنعدم » أى النجوم التى تبقى دائما مرئية . وهناك نوع ثان سموه « التى لاتستريح » واعتبرت من النجوم الراقية نظرا لأنها مع التى سبقتها لها الحقّ فى أن تصاحب إله الشمس فى قاربه[٥] كما اعتبر نجم الصباح من النجوم المقرّبة إلى إله الشمس « فهو الذى يحيى الإله فى الصباح » وهو أيضا « الذى يشرق بعد رع »[٦] ، وجعلوا من

---

(١) Berl. Ægyp. Inschr. II, 40.

(٢) Möller, A. Z. 48, 99

(٣) Pyr. 802

(٤) Piohl, Inscr. III, 60

(٥) Pyr. 1171

(٦) Pyr. 2005

وظائف هذا النجم أن يغسل الشمس فى الصباح ، كما أنه كان النجم الوحيد الذى يقدم الطعام إلى الشمس [٢] . ولقبوه بهذه المناسبة « صاحب الخطوات الواسعة الذى يحضر كل يوم طعام الطريق إلى رع » [٣] ولم يكن نصيب كل النجوم من الاحترام كنصيب تلك التى ذكرناها ، إذ كان هناك نجوم حقيرة سموها « المتعفنة » أو « تلك التى تسقط على الأرض من السماء » [٤] . ولا غرابة فى ذلك إذ لاحظ المصرى كيف تسقط بعض النجوم من سمائه الوضاءة أثناء الليل المدلهم . ومن هنا برزت الفكرة عن بعض النجوم أنها تحمل صولجانا ترتكز عليه [٥] .

ومن بين العدد الكبير من النجوم والبروج التى وصل ذكرها إلينا لانستطيع أن نحقق إلا القليل منها ، وإننا لنكتفى هنا بذكر نجمين منها كانت لهما بعض الأهمية عند المصريين ، وتبوّءا مكانا بارزا فى دياناتهم . النجم الأول هو « سوتيس » الشعرى اليمانية (التى نسميها نحن النجم « Serius » أو نجم الكلب) وعندما يظهر هذا النجم فى آخر شهر يوليو فى السماء صباحا يكون ذلك بمثابة البشير لوصول الفيضان . واعتبر هذا رمزا لبدء السنة الجديدة للمزروعات . [٦]

وكذلك لعب دورا كبيرا ذلك النجم المسمى باسم « ساح » (صاحب الخطوات الواسعة) الذى يمكن أن يكون هو النجم « Orion » وكان ظهوره بمثابة بشير لحصاد العنب [٧] والذى يوافق فى مصر شهرى يونيو ويوليو ، أى بمعنى آخر يوافق أوّل العام الجديد . واعتبر هذان النجمان من بين الكائنات المقدسة ، وجعل المصريون منهما إلهين عظيمين . حدث هذا فى ذلك الوقت كما سيأتى بالتفصيل فى الفصل الرابع عشر عندما تخيل المصرى دنيا جديدة للموتى فى السماء ، وترتب على ذلك أن أصبح ذلك الجيش العرمرم من النجوم يمثل الموتى الذين حمل كل منهم مصباحه وأخذ يتجول

---

(١) وذكر هنا على أنه يقوم مقام الشمس فى الظهور فى السماء كأحد الموتى . Pyr. 2042
(٢) Pyr. 2051
(٣) Pyr. 263
(٤) Pyr 2058
(٥) Pyr. 1456
(٦) Pyr. 965
(٧) Pyr. 1524, Pyr. 820

فى السماء . أما نجم الجوزاء « Orion » فاعتبر إله الموتى : أى كأوزيريس [1] . وأصبحت الشعرى اليمانية هى زوجة أوريون ؛ أى إيزيس ، وتم الحلقة بأن أفردوا مكانا بين هؤلاء لأحفاد إيزيس وهم « أولاد حوريس » [2] .

وليس فى استطاعتنا الآن أن نتحدث عن كل ما كانت تحويه السماء مثل « الدفة » [3] وبقرات السماء [4] « وثور السماء » وغير ذلك من بحار وجزر . وعلى كل فسوف نتحدث عن بعض هذا عند الكلام على رحلة السماء للموتى .

---

(١) Brugsch, Thesaurus, 85.

(٢) Pyr. 1092, L. D., III, 170, Totb. XVII, 42,

(٣) Totb, 148. وربما تخيل المصرى السماء تدور كما تحرك السفينة بواسطة دفتها .

(٤) Pyr. 550 وربما تفسر على أنها كانت سحب المطر .

الفصل الثالث

الآلهة العظمى لمصر

لقد تبين من حديثى السابق عن العالم وعن مظاهر الطبيعة التى ألهها المصريون أن هذه الآلهة كانت تكوّن النطاق الخارجى للديانة المصرية التى إذا أردنا تفهمها فلا سبيل إلى ذلك إلا بالتعرّف على آلهتها التى كانت تعبد فى المعابد وتقدم لها القرابين ويحتفل الناس بأعيادها . ولقد بلغ عدد هذه الآلهة الفعلية حدا خرافيا ، وامتزج بعضها ببعض ، إلا أنها لم تبلغ فى تنافرها وتعارضها ذلك الحدّ الذى بلغته إلهة السماء أو إله الشمس . وكثيرا ما يحدث أن يتعذّر على الشخص أن يفهم أىّ الآلهة يعنونه ، أيقصدون الإله « سوكاريس » أم « أوزوريس » ، هل هى الإلهة « ساخمت » أم « باستت » ، أو هل هى الإلهة « حاتحور » أم « إزيس » . وعلى ذلك أصبحت هناك أسماء وصور مختلفة تعنى إلها واحدا [1] .

آلهة منف وهليوبوليس

وسنبدأ الآن بتلك الآلهة التى عبدت فى ذلك الجزء من مصر الذى كان ولا يزال بمثابة المنطقة التى تتوسط وادى النيل والتى لعبت دورا كبيرا فى تطوّر الديانة المصرية القديمة . ونعنى بذلك المكان الذى تشغله الآن مدينة القاهرة ، والذى شغلته فيما سبق عاصمة البلاد منف ، ثم انتظم مدينة هليوبوليس القديمة المقدسة أيضا .

وأهمّ آلهة منف الذى حاز شهرة كبيرة وقدّسه معظم المصريين هو الإله « بتاح » والذى كان فى أحيان أخرى يسمى أيضا « تاتنن » (صفحة ٣٠) وكان يمثل على شكل إنسان برأس عارية لاتحمل أية شارة خاصة ، واضعا يديه فوق

---

(١) قارن Pyr. 556 حيث يبدو أن هناك ثلاثا من الآلهة هن : إزيس ، ونفتيس ، وإلهة ثالثة يطلق عليهن اسم واحد .

صدره وممسكا بصولجان . ونعتقد أن هذه الصورة ترجع فى أصلها إلى عصور غابرة ولو أنها لاترينا مطلقا الأصل الذى يودّ المصرى أن يرجع هذه الصورة إليه. واعتقد المصريون أنه خالق الفنانين وصانع الفخاريين وعلى ذلك فهو المثل الأعلى للفنانين وحامى حماهم (سيدهم) وسماه الإغريق باسم « هيفايستوس » . وعلى ذلك فقد كان فى اعتقادهم أنه هو الذى خلق الدنيا . ثم تطوّر هذا الاعتقاد فيما بعد ورأوا فيه ذلك المحيط « نون » الذى منه خرجت جميع المخلوقات ، فهو « أب لجميع الآلهة ، الإله العظيم صاحب البداية الأولى « أول من كان وأوّل إله فى الخليقة » . وبذلك كان هذا الإله بمثابة الإله الذى عاش عصورا لاحدّ لها ، أو كما يقول المصرى القديم : احتفل بعدد لايحصى من الأعياد الفضية . ومن أجل ذلك أصبح مثلا يتشبه به كلّ ملوك مصر الذين حكموها مددا طويلة .


٩ — بتاح فى مقصورته

وعبد فى منف إله آخر غير بتاح صوروه على شكل آدمى برأس صقر وسمى « سوكاريس » واعتبر إلها للموتى ، وكانت منطقته المقدسة تسمى « رستاو » أى باب الممرات ، ومن هذه التسمية نتبين بوضوح أنهم يقصدون الدنيا السفلى . إلا أن الظروف لعبت بمصير هذا الإله « سوكاريس » إذ اندمج فى جاره الكبير وأصبح يسمى « بتاح سوكاريس »[٣] . وبعد ذلك عند ما أصبح أوزريس هو إله الموتى الوحيد سمى « سوكاريس » باسم آخر « أوزريس سوكاريس » وأحيانا أيضا « بتاح سوكاريس أوزريس » .


١٠ — سوكاريس (برلين ٧٢٩٩)

أما الإلهة التى عبدها الناس فى منف فكان اسمها

---

(١) قارن Edfu II, 37

(٢) قارن L.D. III, 254 C; Harris I, 44,7; 44,4

(٣) كل منهما اعتبر كإله منفرد . قارن Urk. I, 81; Urk. IV, 12 ثم كإلهين مندمجين ، قارن مثلا Urk. I, 124

« سخمت » وسوف يأتى الحديث عنها . وقبل أن ندع الحديث عن آلهة ممفيس ينبغى لنا أن نتحدث عن إله آخر صغير لايمتّ بصلة إلى الآلهة الكبرى ، أى الإله « أبيس » العجل المقدس الذى احتفظ به المصريون فى معبد بتاح دون أن يكون هناك علاقة ما (على الأقل فى العصور القديمة) بين الإلهين [1] . ومن الملاحظ أن الجمع بين إله وبين حيوان مقدس فى معبد واحد لم يكن كنتيجة لعقيدة ، بل كثيرا ما كان لمجرّد صدفة ، ثم بعد ذلك يجمع بين الاثنين بشكل دينى بعد مرور حقب طويلة من الزمن وبعد أن يتعوّد الناس على ذلك ، (أو بحكم العادة) . ومن أجل ذلك لم يتمتع أبيس فى العصور القديمة بعبادة ذات طقوس معينة [2] يقوم بها كهنة خصوصيون [3] . أما فى العصور الحديثة فقد تغير الحال وأصبح لهذا الحيوان المقدس عدد لايحصى من الأتباع .



١١ – أبيس
(برلين ٢٠٧٤)

وفاقت المدينة المقدسة « أون » أهمية مدينة « منف » ، وهى التى تسمى أيضا « هليوبوليس » . وكان يعبد فيها منذ أقدم العصور الإله « رع » الذى كان بمثابة إله عبده كل المصريين وأقاموا له معبدا ذا طابع خاص ؛ إذ لم يكن فى هذا المعبد صورة لهذا الإله ، بل حوى قطعة من الحجر مقدسة تسمى « بن بن » توضع فى فناء مكشوف . واعتقدوا أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر . ولم يعثر على معبد واحد من هذه المعابد فقد اختفت كلها ، ولكننا نستطيع أن نتصوّرها إذا ما قارناها بمعابد الشمس التى شيدها ملوك الأسرة الخامسة على نمطها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن الناس أحيانا صوّروا إله الشمس فى هليوبوليس

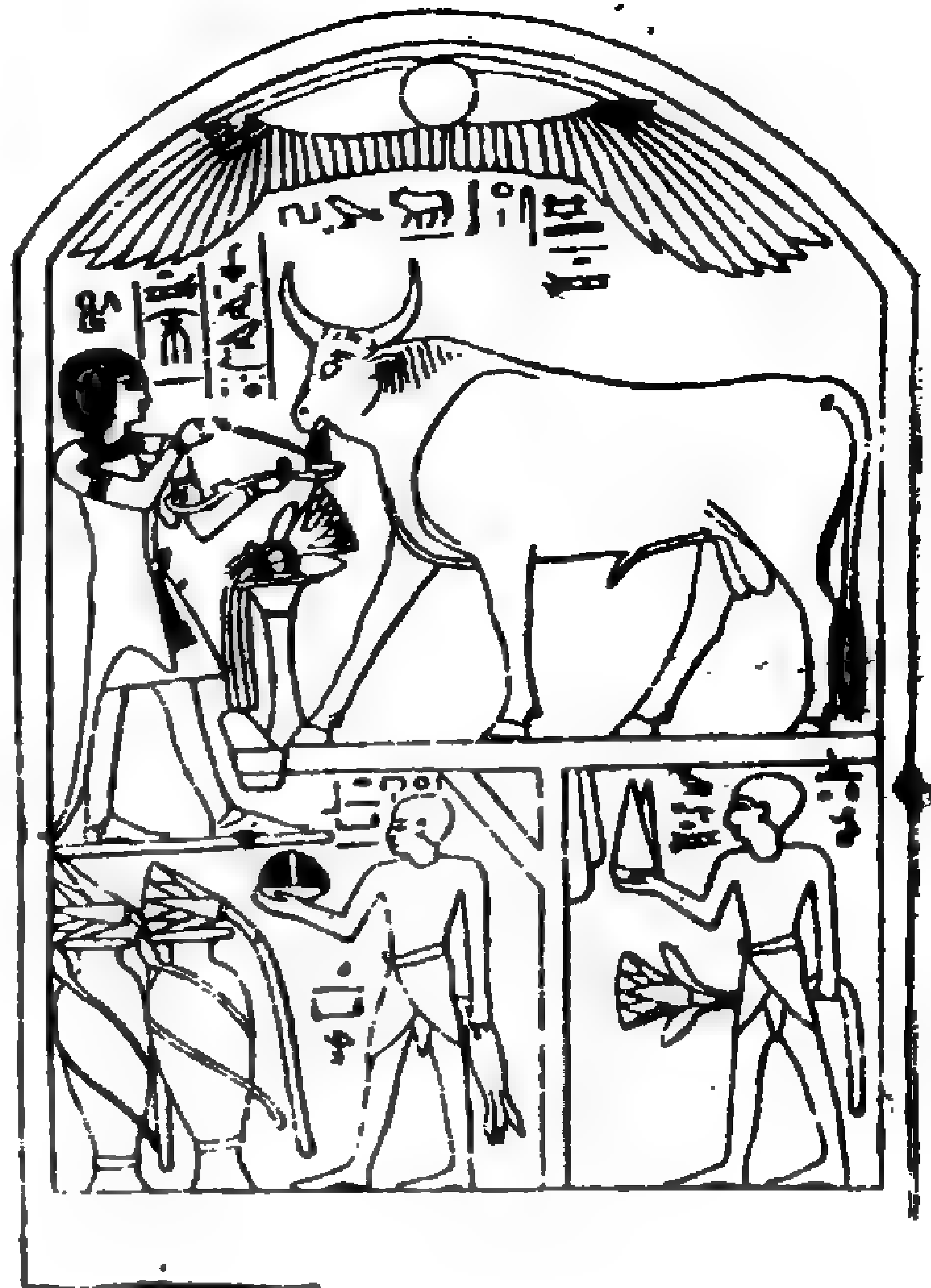
---

(١) ولم يعتبر أبيس كروح للإله بتاح إلا فى عصر الدولة الحديثة ، قارن Harris I, 44,9 Vatikan 127. ، وقارن كذلك Wilcken, Pholemaer Urkunden I, 18 وهناك اعتقاد آخر يجعل من أبيس ومن عجل هليوبوليس المسمى منيفس رسولين يقومان على تبليغ الرسائل إلى إلهيهما وهذا الاعتقاد يرجع إلى عصر الدولة الحديثة أيضا (قارن Sitz.Ber.Berl.Ak. 1916, 1148)

(٢) إن عادة « إطلاق العجل أبيس للجرى » من بين الطقوس القديمة التى وردت على حجر بالرمو من عصر الأسرة الأولى ، ويحدث ذلك فى الاحتفال الذى يعدو فيه الملك وبجانبه العجل أبيس ، قارن Sitz Ber. Berl. Ak. 1916, 1150 ، ولعل ما يسمى « احتفال أبيس » (Urk. I, 20) هو بعينه الاحتفال السالف الذكر .

(٣) وكانت مهمة « خدم أبيس والعجل الأبيض » هى القيام على خدمتهما والعناية بهما

أيضا على شكل آدمى كما هى الحال مع الآلهة الأخرى ، وأحيانا أخرى سمى هذا الشكل الآدمى باسم « آتوم » الذى رأى فيه المصرى كما أسلفنا شمس المساء [1] . وأحيانا ثالثة سموه أيضا « حوريس الأفقين » أو « رع حور آختى » الإله العظيم الذى كان رأسه يمثل صقرا يعلوه قرص الشمس . وهنا حدث ما كان يحدث فى مثل هذه الأحوال إذ اندمج الإلهان معا وأصبحا كأنهما إله واحد مع اختلاف فى الشكل . وكان الكهنة أثناء قراءة طقوسهم الدينية يتحدثون عن « آتوم رع حوراختى » على حين نقش فوق صورته فى المعبد اسمه كرع حورأختى تمييزا له عن الإله الآخر آتوم [2] . وخليق بنا أن نعجب إذا ما عرفنا أن هذا الإله المزدوج سمى أيضا بأسماء إله الشمس الأخرى .



١٢ — نصب أهداه إلى منيفس « كن » خادم المعبد . ويرى فى الجزء العلوى الكاهن الأعلى الأمير أحمس (برلين ١٤٢٠٠)

ولا نود هنا أن نتحدث عن الآلهة الأخرى التى عبدت فى هليوبوليس مثل « يوزاس Jusaas » وآخرين ، ولكننا فى الوقت نفسه نود أن نذكر باقتضاب إلهين صغيرين : أحدهما مثله المصريون على شكل الثور ، والآخر على شكل طائر ، والأول اسمه « منيفس » والآخر « بنو » . وهذا الأخير لايزال يعيش حتى الآن ويعرف باسم Phônix . واعتبر هذان الإلهان من أهم الأشياء التى تتمم المعبد فى هليوبوليس . وبلغت أهمية « منيفيس » درجة لم ير أمينوفيس الرابع المصلح معها

(١) وتعنى أيضا كلمة « آتوم » : « ذلك الذى انتهى » (من عمله اليومى) .

(٢) قارن Harris I, 25, 24 وكذلك قارن لاندماج رع وآتوم Pyr. 1686 واندماج أتوم مع خبر رع Pyr. 1652

بدا من ضمه إلى معبد الشمس الذى أقامه فى تل العمارنة ، مع أنه لم يكن يتلاءم مطلقا مع الديانة الجديدة الناضجة التى نادى بها هذا الملك . وأحب أن أذكر هنا أن ما قلته عن الإله أبيس فى الصفحات السابقة ينطبق تماما على الإله منيفيس فى مصر .

واعتبر العلماء الكهنة أن السمندل (Phônix) هو أزوريس [1] أو هو روح الإله « رع » [2] ، وما نعرفه نحن عن هذا الطائر هو أنه ولد فوق شجرة فى معبد هليوبوليس [3] ولعلّ هذه الشجرة المقدسة هى بعينها تلك الشجرة القديمة التى اعتاد آلهة مصر أن يكتبوا أسماء الملوك على أوراقها . وكان السمندل يلقب « سيد الأعياد الفضية » — [4] بمعنى ربّ الحقب الطويلة من الزمن — . ولعل ذلك يفسره الاعتقاد عند الإغريق القدماء بأن الـ (Phônix) لايعود إلا بعد مدة طويلة من الزمن يقدرونها أحيانا بـ ٥٠٠ عام ، وفى أحيان أخرى بـ ١٤٦١ سنة . وليس من شك فى أن هذا الطائر كان من بين الأشياء التى يتعذّر على الناس رؤيتها فى المعبد ونودّ أن نعتقد أن كل ما حاكه المصريون من قصص حول هذا الطائر يرجع إلى أصل بسيط (ساذج) لايتعدى أكثر من أن طائرا من هذا النوع حطّ فوق الشجرة المقدسة فى المعبد وبنى لنفسه عشا هناك . وربما كان وجود هذا الطائر راقدا فوق عشه لم يثر فضول الزائر الخالى الذهن فى أول الأمر . ولعل الناس اعتادوا رؤية هذا الطائر سنين طوالا فوق الشجرة ، ثم حدث أن غاب هذا الطائر عن مكانه مدة طويلة أخرى . ولا بد أن المصرى كان قد رأى فى رجوع طائر من هذا النوع بعد مدة طويلة من الزمن إلى الشجرة المقدسة حادثا كبيرا يسترعى الانتباه ويدعو إلى الفرح والابتهاج . وهكذا يمكننا أن نعتبر أن كل الأشياء التى خرجت عن أصل



١٣ — السمندل

(١) قارن Totb. ed. Naville 17, 13 - 14

(٢) قارن Totb. ed. Nav. 29 B. 2

(٣) قارن Metternich Stele 77 وكذلك Faijum Pap. ed. Pleyte I - II, 18
وهو كذلك كروح أوزوريس يحط على الشجرة النابتة فوق مقبرته (Wilkenson, I.I, 349)

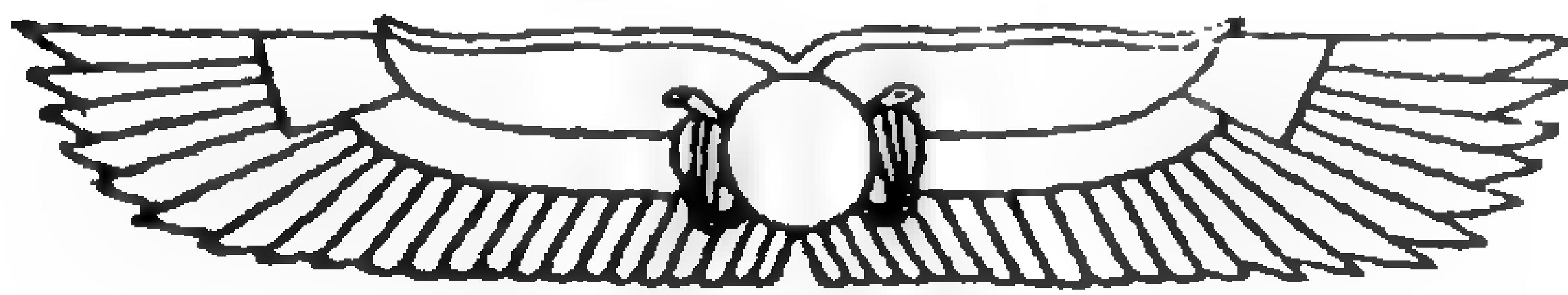
(٤) قارن Faijum Pap. ed. Pleyte I - II, 18

مماثل ، لم يذكر الناس كيف نشأت ، بل اعتقدوا أن من الواجب نسبتها إلى قوّة كبيرة سماوية .

آلهة حوريس

لم يكن إله الشمس حوريس الذى مثل برأس الصقر والذى تحدثنا عنه من بين آلهة هليوبوليس وسميناه « حور أختى »[1] مشهورا وقويا فى هذه المدينة شهرته وقوّته فى أماكن أخرى من مصر .

وكان الموطن الأصلى لحوريس هو الدلتا ، ومن هنا يودّ البعض أن يرى فيه الإله القوى للدلتا ، ويقابله فى ذلك الدور الإله « ست » الإله القوى لمصر العليا . ويتمثل فى هذين الإلهين حاكما مصر ، ولو أن حوريس وحده يعتبر هو الحاكم على مصر مجتمعة ، نظرا لأن البعض يرى أنه فى وقت ما حكمت مصر السفلى مصر العليا . وما دام حوريس قد أصبح إلها للقطرين فمن الواجب أن تكون له فى مصر العليا مدينة ، وكانت هذه المدينة تقع بالقرب من العاصمة وقتئذ وسميت « نخن » أو كما سماها الإغريق « هيرا كونبوليس » ؛ أى مدينة الصقر .



١٤ — إله الشمس فى إدفو

وأقدم معبد لحوريس بنى فى مدينة « بهدت » أو « بحدت » وهى دمنهور الحالية . ومن أجل ذلك سمى بهدتى أو بحدتى ، أى هو الذى من بحدت . وفى الوقت نفسه كانت هناك مدينة فى مصر العليا سميت بالاسم ذاته وهى إدفو الحالية ، وكان لها أيضا « حوريس بحدتى » أى هو الذى من بحدت ؛ أى هو الذى من إدفو . وكان هذا الإله يصوّر فى إدفو على شكل الشمس المجنحة . وكما يبدو ليس هناك أى شبه بين

---

(١) ومن الواضح أنه ليس هناك من فرق بين حوريس وحور أختى ، ويؤكد ذلك النص الوارد فى Pyr. 348

صورة هذا الإله وصورة حوريس الحقيقية . فكما قلنا صوّر إله إدفو على شكل قرص الشمس بجناحين كبيرين ذى ألوان مختلفة وصفا بأنهما الجناحان ذوا الريش المختلف الألوان التى تتمكن بهما الشمس أن تطوف السماء . ولا يزال المعبد الخاص بهذا الإله قائما حتى اليوم ومكتملا كما تركه ملوك العصر اليونانى الذين أرجعوا إليه عظمته وأعادوا بناءه . وصورة هذا الإله الخاص بإدفو نعرفها جيدا إذ نراها منقوشة فوق مداخل معابد مصر لأنها تعتبر حارسا يحول دون دخول الأشرار المعبد .

غير هذه الآلهة نجد هناك عددا كبيرا من الآلهة التى سميت بهذا الاسم يخص البعض منها إله الشمس [١] أو نجم فى السماء ، ومن هذه الحالة نستطيع أن نفهم هذه التسمية ، ويخص البعض الآخر أشياء أو معبودات لاتمتّ بعلاقة للإله حوريس . وليس فى وسعنا هنا أن نبحث كل اسم على حدة . وهناك حوريس آخر نال شهرة بين المصريين ؛ وهو ذلك الابن الذى فقد أباه أوزريس والمعروف باسم « حور سايزيس » — أى حوريس بن إيزيس الذى ورد اسمه فى قصة أوزريس المشهورة والذى يجعل من يقرؤها يرثى له .

ثم هناك حوريس المحارب فى مدينة « ليتوبوليس » وفى أماكن أخرى والذى كان يسمى حوريس الكبير [٢] مقابل حوريس الرضيع (ابن إيزيس) وليس من شكّ أنه لاعلاقة بين حوريس المسمى كنتشتاوى معبود أتريبس فى الدلتا وبين حوريس سبودو ، وكلا الإلهين عبدا فى شرق الدلتا فى المنطقة التى كان يخترقها الطريق الموصل إلى فلسطين . وخلاصة القول أنه لم يكن هناك إله كبير لم يرد أن تأتيه الفرصة دون أن يغتنمها للتمثيل بحوريس أو التسمى باسمه .

---

(١) ويبدو ذلك واضحا من الأسماء المتعددة التى وردت بكثرة فى نصوص الأهرامات ، قارن Pyr. 981 ff; 1084 ff.; 1132 ff.; 1478 ff.; 1207 ff. وهى مصحوبة بأوصاف ثلاث أو أربع تخص « حوريس » كإله الشمس ، ولا بد أن ترمز هذه الأوصاف إلى ساعات النهار المختلفة .

(٢) قارن Kees. A. Z. 64, 106 عن « حوريس العجوز » (عمسو) .

إلاهات السماء

وكما كانت الحال مع الآلهة المسماة بحوريس نجد هنا أيضا الأمر نفسه مع آلهة السماء التى لم تحظ بعبادة منظمة منتشرة عندما كان اسمها « نوت» . وعلى العكس من ذلك قد حظيت بأسمى درجات التقديس عندما سميت « حاتحور » . وهذا الاسم « بيت حوريس » [٢] يرجع فى أصله إلى تلك النظرية القديمة الخاصة بالصقر حوريس الذى يحلق فى السماء . على حين أن صورتها التى تمثلها بقرنى البقرة وأذنيها[٣]، وأحيانا تمثلها أيضا برأس بقرة كاملة [٤] فهى ترجع إلى العقيدة التى تصوّر السماء على شكل بقرة ، وفيما بعد أخذت هذه الآلهة تفقد رويدا رويدا مميزاتها الخاصة بإلهة السماء . ومن العسير أن نفهم السبب الذى من أجله مثّلت بقرة السماء الشمس . أو كما يقول المصريون عين الشمس التى تحملها هذه الإلهة بين قرنيها ، وعلى هذا الأساس سميت حاتحور نفسها « بعين الشمس » وأصبحت هذه التسمية من بين ألقابها المشهورة . وبعد ذلك احتفظت حاتحور بالقليل من مميزاتها القديمة . وكان من بين هذا القليل أنها أصبحت سيدة الإلهات كما احتفظت أيضا بدورها المهم الذى يجعل منها ذلك المكان الذى تختفى فيه شمس المساء ، وهذا هو السبب فى أنها أصبحت إلهة الغرب التى تقف وراء جبل عال وتسمح للشمس وللموتى أن يدخلوا الدنيا السفلى . وكذلك جعل المصرى من حاتحور إلهة للحبّ [٦] وأصبحت الإلهة الطروب عند النساء وسمينها بالذهب . وهذا هو الذى يجعلنا نفهم السبب الذى من أجله سماها الإغريق فى العصور المتأخرة

---

(١) لقد ورد من الدولة القديمة ذكر كاهن للإلهة نوت (Berl. Aeg. Inschr. I S. 92. Kairo 1431) ومن الدولة الوسطى (Berl. aeg. Inschr I, S. 177) ومن العصر المتأخر (Louvre Serapeum 427)

(٢) بيت حوريس الموجود فى السماء ، قارن Pyr. 1026

(٣) ونحب أن نلاحظ أن « نوت » ظهرت منذ عصور متقدمة بشكل نصف آدمى ، قارن Pyr. 1344 حيث يتحدث النص عن أن لها يدين وقرنين طويلين .

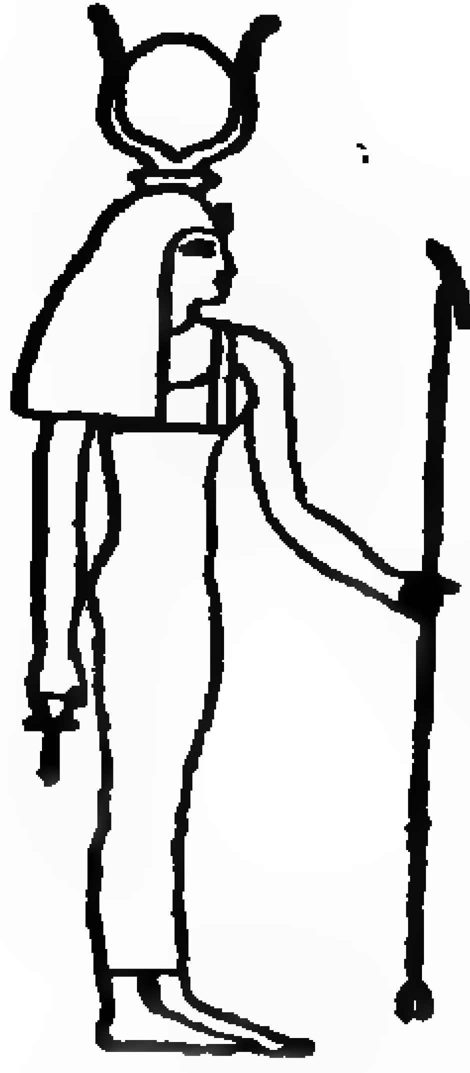
(٤) قارن Urk IV 235 ومثلت كذلك على شكل بقرة كاملة فى المقصورة المحفورة فى الصخر فى معبد الدير البحرى وهى ترضع الملكة الصغيرة .

(٥) قارن Pyr. 705

(٦) ظهر ذلك فى عصر الدولة الحديثة فى أغانى الحب .

بالإلهة « أفروديت » ، وقام النساء على خدمتها وأحيوا [1] حفلاتها بالرقص والغناء والموسيقى .

وإذا كانت حاتحور بجانب هذا كله صورت على أنها إلهة حرب فيرجع ذلك إلى تسميتها بعين الشمس التي تحارب وتناضل أعداء الإله « رع » .


١٥ – حاتحور

ونظرا إلى أنّ حاتحور كانت إلهة مقرّبة إلى قلوب النساء لذلك كان لزاما عليها أن تصبح أما ذات طفل فأعطوها ولدا إلهيا هو « ايحى » الذى يجلس فى حجرها [2] . ولعلّ ذلك كان تشبها بحوريس الطفل ابن إيزيس . ومن الملاحظ أن « ايحى » هذا لم يتمتع مطلقا بتلك الشهرة الشعبية التى تمتع بها حوريس الطفل ، ومع ذلك فقد تمكنت حاتحور من أن تعوّض هذا النقص عند الشعب المصرى بأن أصبح لها عدة أبناء انتشرت شهرتهم بين طبقات الشعب فى العصور المتأخرة ، نقصد بذلك « الحاتحورات السبع » اللاتى كنّ مثل « ايحى » يدخلن السرور على قلب حاتحور الكبيرة بالموسيقى والرقص [3] ، واللاتى كنّ يحمين الإنسان ويتنبأن بمستقبل كل مولود جديد [4] .


١٦ – رأس حاتحور (من أحد تيجان الأعمدة من بوبسطا)

وكانت مصر العليا الوطن الأصلى لحاتحور ؛ وسميت فى أطفيح « الأولى بين البقرات » . وهذه التسمية ترجع بالطبع إلى ذلك الدور القديم الذى كانت تلعبه فى شكلها الحيوانى المعروف . وإلى الجنوب من معبد بتاح فى ممفيس عبدت حاتحور أخرى سميت أو لقبت بسيدة الجميزة [5] ؛ وربما كانت هذه الإلهة فى أول الأمر ليست إلا شجرة مقدسة حاطها المصرى القديم

---

(١) غالبا فى عصر الدولة القديمة كما أن هناك لقب « كاهنة حاتحور فى كل أماكنها » قارن Rougé Inscr. Hiér. 64

(٢) Lacau, Textes Relig. P. 13, 132

(٣) Mar. Dend. III 76 a; Chassinat, Mammisi 29, 33

(٤) Berl. Med. Pap. 21, 8

(٥) Erman, Aegypt. Litt. S. 210, 204

كما هى الحال فى مصر الحديثة بالكثير من عنايته واحترامه . وعلى كل حال لم تكن سيدة الجميزة فى مركزها أكثر من إلهة شعبية انتشر نفوذها بين السيدات [1] .

وإذا تحدثنا اليوم عن « حاتحور » فنتجه إلى معبدها الكبير الموجود فى دندرة ، الذى يعتبر مكان عبادتها ، ولو أن هذا المعبد يرجع إلى العصر اليونانى مثل معبد إدفو وغيره من المعابد .

ولقد بلغ انتشار عبادة حاتحور بين طبقات الشعب حداً جعل المصريين يطلقون اسم حاتحور على كل إلهة أجنبية [2] . واعتبرت الألهة « موت » كسيدة السماء أيضا ، وقد عبدت هذه الإلهة فى طيبة واسمها يعنى الأم ، ولقد لقبت فى النقوش التى ترجع إلى عصور متأخرة بلقب « أم الشمس » التى تشرق منها [3] . أما الدور لعادى الذى تلعبه « موت » فقد كان مماثلا للإلهة « سخمت » إلهة الحرب .

ومن هنا أصبحت « موت » ترسم برأس أسد . وعندما أصبحت طيبة عاصمة البلاد حظيت هذه الإلهة كزوجة لآمون إله الدولة بأسمى درجات الشهرة والتقدير ، ومثلت على شكل ملكة تزين رأسها بالتاج الذى كان يلبسه حكام هذه المدينة (قارن اللوحة رقم ١) . ومثلت هذه الإلهة كالعقاب . يحلق فى السماء [4] . وليس من شكّ فى أن المصريين قارنوها فى تلك الصورة بالإلهة « نخبت » التى تمثل شكل العقاب والتى لم يكن لها اسم معين ، فهى لاتسمى إلا التى تتبع « مدينة نخب » — وهى العاصمة القديمة لمصر العليا . وعند ما أصبحت « موت » إلهة للعاصمة



١٧ — الإلهتان الحارستان « بوتو ونخبت »

---

(١) قارن Urk. I, 80

(٢) قارن Urk. I, 126

(٣) قارن Aeg. Zeitschrift, 38, 124

(٤) ويكتب المصرى كلمة « موت » بمعنى الأم بصورة « العقاب » وهى نفس الصورة التى ترمز للإلهة « موت » .

اعتبروها حامية حكام هذه المدينة تحلق فوقهم وتدفع عنهم الشر [1] ، وفى الوقت نفسه نجد فى مصر السفلى أن الملك فى عاصمته كان يحتمى فى إلهة أخرى اسمها « أوتو » أو كما سميت خطأ من الإغريق « بوتو » . وقد صورت هذه الإلهة الأخيرة على شكل ثعبان ، ومن هنا أتت العادة التى جعلت المصرى يصور هاتين الإلهتين الحاميتين للملك تارة على شكل ثعبانين ، وتارة أخرى على شكل عقابين . ولقد رأينا فيما سبق كيف أن هاتين الإلهتين اندمجتا أيضا فى ذلك الخليط الكبير من الآلهة التى صوّرت على شكل ثعابين أو عيون ، كما أنهما اندمجتا فى التيجان الملكية التى ألّهت عند المصريين وسميت باسم سيدات السحر [2] .

وإزيس هى أشهر الإلهات المصرية نشأت أول الأمر فى الدلتا [3] ، ويبدو أنها ترجع فى أصلها إلى إلهة سماوية [4] ، وورد ذكرها فى قصة أوزيريس ، ومنذ ذلك الوقت فقدت طابعها هذا وبقيت محتفظة بصفتها كزوجة للإله وأزيريس والأم الرءوم لحوريس . وبما أن ابنها كان يسمى باسم إله الشمس ، فهذا يدلّ على أن إيزيس فى الأصل وفى وقت ما كانت تعتبر إلهة للسماء التى تلد الشمس مرّة كل يوم .



١٨ — إيزيس تحمل فوق رأسها العلامة التى يكتب بها اسمها

أما الإلهة « نايت » الكبيرة التى كان موطنها الأصلى مدينة سايس (صالحجر) فقد كانت تلعب أدوارا مختلفة فى الديانة المصرية . فمن المعروف أنها كانت تمثل إلهة الحرب ، فرمزها المعروف يتكوّن من قوسين ودرع . وإذا كان من بين ألقابها « التى تمهد

(١) وتقدم هذه الإلهة التى يطلق عليها أيضا اسم « البيضاء » (أى التاج) المساعدات لكل أم عند الوضع (قارن Urk. IV, 225) ولقد سماها الإغريق Eileithya

(٢) قارن Pyr. 729, 823, وكذلك Erman, Hymnen an das Diadem, p. 11 1795, 1832

(٣) من النص الوارد فى Pyr. 309 نستدل على أن هذه الإلهة كانت تعتبر مساوية للإلهة « بوتو » .

(٤) ويمكن أن يفسر اسمها « مسكن » الشمس كما اقترح ذلك ماير Ed. Meyer, Geschichte des Altertums, I,2² § 187

الطريق » فمعنى ذلك كما يبدو من النصّ المصرى القديم أنها كانت تتقدم الملك فى المعركة الحربية [1] . وفى الوقت نفسه كانت تزين رأسها بتاج الوجه البحرى ، أى أنها تعتبر ممثلة لهذه البلاد ، ولكنها كانت أيضا إلهة الفيضان التى تسكن شواطئ النيل حين ترقد التماسيح على شواطئه الطمية (الغرينية) [2] . ولأن المصرى كان يرى أن الكون هو المحيط الذى خرجت منه بقرة السماء لذلك سميت الإلهة نايت « بالبقرة » التى ولدت الشمس [3] ، أو « الأم التى ولدت الشمس » والتى ولدت لأول مرّة عندما لم يولد أىّ شيء آخر [4] . ومن الغريب أنها فى العصور القديمة عبدت من النساء كحاتحور ، فقمن على خدمتها وسمين بأسمائها [5] .

آلهة على شكل أسد

إن الإلهات الكثيرة التى ظهرت لنا برأس أسد أو لبوءة كانت فى الأصل كائنات مخيفة تبيد الأعداء . ولما كانت مصر بلدا يسود فيها السلام فقدت هذه الكائنات رويدا رويدا صفاتها السالفة . فمثلا الإلهة « باخت » [6] التى عبدت فى بنى حسن . أو الإلهة « محيت » ربة ثيس لم تكونا سوى إلهتين فى مناطقهن مثل جميع الإلهات الأخرى . فباخت كانت تسكن الصحراء الشرقية وتجول فى وديانها . وكانت هى التى تسيّر سيول المطر التى تحدث بعد العاصفة وتدفعها إلى الصحراء .

أما الإلهة « تفنت » فقد احتفظت فى قصتها بخصبها فى حين اتخذت لنفسها صفة أخرى فى علاقتها مع زوجها الإله « شو » الذى اعتبر عند قدماء المصريين — كما أسلفنا — إلها للهواء الذى يحمل السماء [7] (راجع صفحة ١٦) . أما كيف تزوّج شو

---

(١) قارن Ed. Meyer, A.Z. 41, 105

(٢) قارن Lacau Textes Relig. p. 7

(٣) قارن Champ. Not. II, 28

(٤) قارن Brugsch Thes. 637

(٥) ولقد أطلق اسم هذه الإلهة على خمس عشرة زوجة من بين زوجات أحد ملوك الأسرة الأولى ، وكن قد بلغن الخمسين عدا .

(٦) قارن Urk. IV, 386

(٧) ومعنى هذا الاسم هو « الفضاء » .

بتفنت وصوّر بصورتها فهذا ما لا نستطيع تعليله . وعلى كل حال عبد الاثنان على شكل الأسد وزوجته فى ليونتوبوليس Leontopolis فى الدلتا . وشاركت تفنت زوجها فى أعباء مهمته السلمية وعاونته فى حمل الأفق . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الإله « شو » – كما سنرى ذلك فيما بعد – قد احتفظ لنفسه بمهمة أخرى فى القصص


١٩ – سخمت

الإلهى وسمى من أجل ذلك باسم « أونوريس Onuris » وهذه المهمة الجديدة جعلت منه إلها شعبيا حظى باحترام كبير وخاصة فى عصر الدولة الحديثة .

أما الإلهة « سخمت » القوية التى عبدت فى منف والتى مثلت على شكل لبوءة فقد احتفظت بشخصيتها المخيفة [1] . وكانت تعتبر إلهة المعارك الحربية . ونحن لانفهم تمثيلها بالصل الملكى الذى يبصق النار على الأعداء [2] ، ولو أن ذلك قد ورد فعلا فى النقوش المصرية .


٢٠ – باستت
(برلين ١١٣٥٤)

ومن الغريب أن الإلهة « سخمت » كانت تختلط فى بعض الأحيان مع الإلهة « باستت » [3] ، والسبب فى ذلك أن الفنّ المصرى لم يكن يميز فى وضوح بين رأس القطة ورأس الأسد ، بينما صفات « باستت » تختلف اختلافا تاما عن تلك التى اتصفت بها « سخمت » . وكذلك شعر المصريون بهذا الاختلاف ، وكانوا يتحدثون عن باستت كأنها شخص ودود . وعن سخمت كأنها شخص مخيف وعلى ذلك كانت باستت أقرب الآلهة إلى حاتحور إذ اعتبرت إلهة المرح . تقوم احتفالاتها على الرقص والموسيقى . ويصوّرونها على شكل آدمى برأس قطة ، تحمل بإحدى يديها سستروم الراقصات

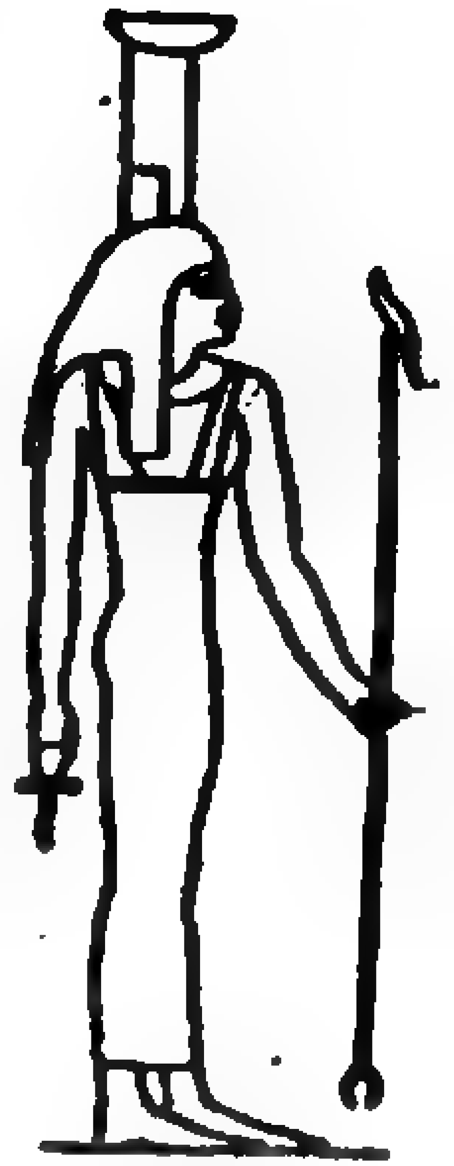
---

(١) قارن Lacau, Textes Relig. p. 101 واعتبرت كمثلة للملكية مصر العليا

(٢) قارن Pap. Sallier III, 9,4

(٣) وقليلا ماظهرت باستت كحاربة ، قارن العبارة « ممسكا بيده القوس كباستت »
(Karnak Ramses II nach absthrift Sethe

وفى اليد الأخرى صورة رأس الأسد الخاص بالإلهة « سخميت » وتتدلى من ذراعها سلة صغيرة . ولعل صورة رأس « سخميت » التى تحملها فى يدها تدل على أن هذه الرأس المخيفة توافق مزاجها . واسم هذه الإلهة لايدلّ على معنى خاص ، بل يدلّ على أنها إلهة مدينة « باست » [1] .



٢١ – نفتيس وهى تحمل فوق رأسها بالعلامة التى يكتب بها اسمها

وهناك إلهة أخرى ذكرت فى القصص على أنها أخت إيزيس وهى « نفتيس » التى لانعرف شيئا عن أصلها ، ومعنى اسمها « سيدة المنزل » كما أننا نعرف عنها أنها تسمى أحيانا بإلهة الكتابة . وكذلك كان الحال فى الغموض الذى يكتنف إلهة العقرب « سلكت » .

وإذا ما اختتمنا حديثنا بذكر تلك الإلهتين اللتين كانتا تسكنان جزر الشلال الأول وهما « ساتيس » و « أنوكيس » فنكون بذلك قد انتهينا من ذكراهم الإلهات المؤنثة ، ولو أننا لم نذكرهن جميعا . وسنبدأ الآن بذكر بعض الآلهة التى لعبت دورا كبيرا عند المصريين والتى لم نتعرّض لها فيما أسلفنا من حديث .

آلهة أخرى عظيمة

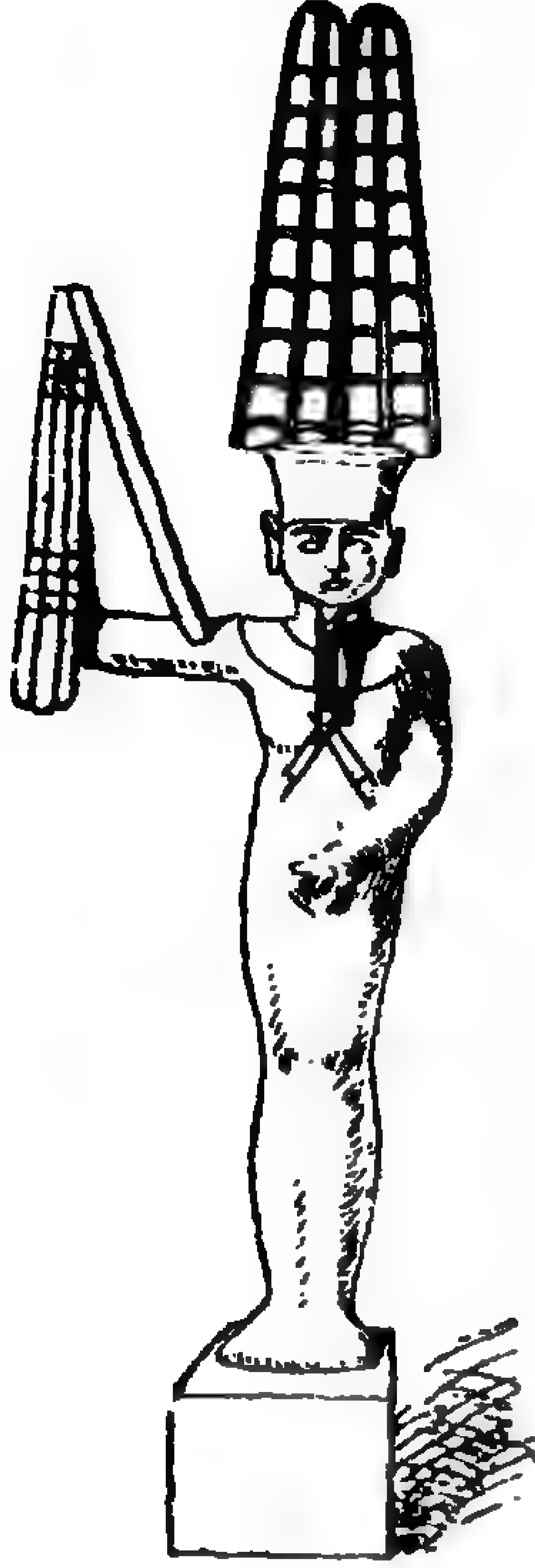
سنبدأ بالإله « مين » الذى يستحقّ عناية خاصة . فهذا الإله الكبير الذى عبد فى تلك المنطقة التى تقع بين إخميم وقفط وبين طيبة وأرمنت ، ويمثل هذا الإله واقفا وقضيبه منتصب ، وعلى رأسه ترتفع ريشتان عاليتان ، رافعا ذراعه الأيمن وقابضا على السوط المثلث الفروع وكان يعتبر إله الإخصاب الذى يسرق النساء وسيد العذارى [2] . وإذا كان هذا الإله قد أخصب أمه [3] فإن هذه الصفة كان يتميز به

(١) « بوباستس » كاسم أطلقه الإغريق على الإلهة والمدينة التى تقع حاليا فى جنوب الدلتا بجوار الزقازيق

(٢) قارن Brit. mus. 911

(٣) قارن L. D. III 102 ولأنه ورد فى أنشودة من أناشيد الاحتفال فهذا يدل على قدمه . قارن أيضا Edfu, ed. Rochem. I, 398

فى الأصل إله الشمس . وهكذا نجد باستمرار كيف أن الآلهة فى مصر تتصف بصفات بعضها البعض ، وكيف يؤثر الواحد على مميزات الآخر .



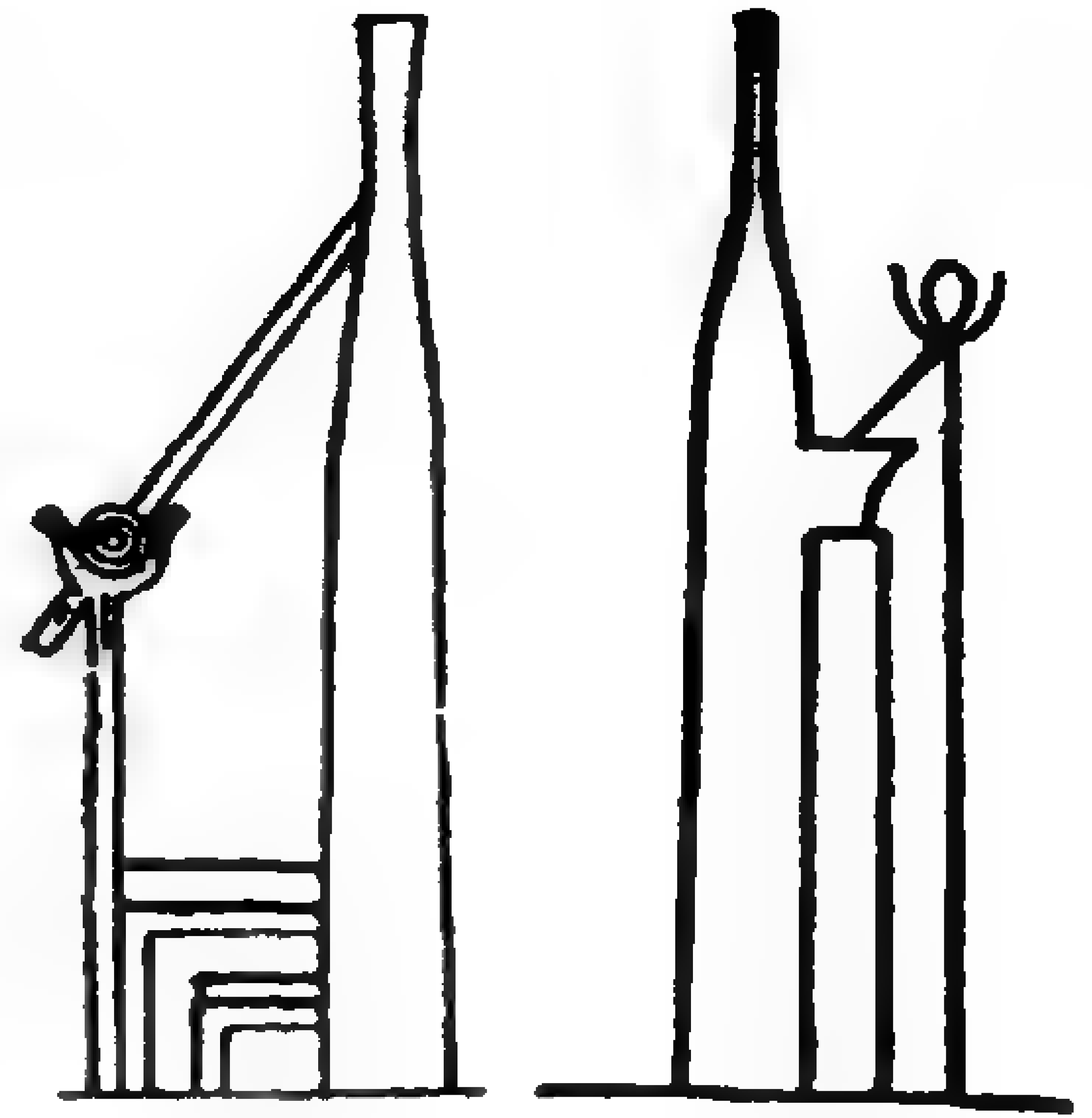
٢٢ – مين
(برلين ٢٤٣٩)

وكان إله الإخصاب هذا أو كما سماه الإغريق « پان » Pan يعتــبر أيضا إلها لخصوبة الأرض . وتدلّ طقوس احتفاله الكبير على أنها كانت بمثابة شكر على محصول زراعى طيب . علاوة على هذا لقد اعتبر « مين » أيضا ربّ البلاد الأجنبية الشرقية . وعبد فى جميع الأماكن التى اقترب فيها النيل من البحر الأحمر فى مصر العليا ، وحيث كانت طرق القوافل تخترقها إلى البلاد الشرقية وإلى المناطق الجنوبية . وكان لزاما على كل من يودّ اختراق هذه الطرق أن يتعبد للإله « مين » قبل أن يترك قفط لكى يحميه من القبائل المتبربرة (Trogodites) التى كانت تجوب هذه المناطق . وهكذا أصبح هذا الإله ربا للصحراء الشرقية صاحب اللازورد والكحل والخضاب وسيد البلاد الأجنبية طرا ، تفوح منه رائحة الطيب الزكية عندما يأتى من بلاد المازوى ، وهو صاحب المكان المرموق فى بلاد النوبة [1] . ولقد عبده اليونانيون تحت اسم Pan Euhodos أى الإله الذى يساعد على رحلة طيبة . ويبدو أن هـذه الصفات تميز بها « مين » منذ أقدم العصور . فتمثاله الذى عثر عليه بترى فى أساس معبد قفط ويرجع إلى عصر مبكر جدا رسمت على حزامه أصداف وأفيال وجبال ، أى كل المظاهر التى يتعرّف عليها المسافر فى طريق قفط ـــ البحر الأحمر . ومن الملاحظ أن لهذا الإلهة معبد قديم جدا بُنى عند مدخل الطريق الموصل للجبال ، والدليل على ذلك تلك الصورة التى اعتاد الفنان رسمها بجانب صورة التمثال والتى تمثل هيكلا منحوتا فى صخرة ذات قمة مدببة . ومن الملاحظ كذلك أنه من بين طقوس الاحتفال بالإله « مين » ظهور

---

(١) قارن Louvre (C. 30 M. R.)

أحد المتبربرين فى الوقت الذى يتسلق آخرون من جنسه قوائم خشبية مرتفعة . ونميل إلى الاعتقاد بأن أفرادا من القبائل المجاورة التى كانت تسكن الصحراء كانت تشترك بطريقتها الخاصة فى هذا الاحتفال [1] .



٢٣ – مقصورة مين المنقورة فى الصخر من أمام مدخلها سارى يعلوه قرنان بينهما الشمس . (حسب آثار الدولة الوسطى)

وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الإله « مين » كان يعبد فى وقت ما بطيبة . والدليل على ذلك أن كثيرا ما نجد إلها يشبهه تمام الشبه ويعتبر إلها للإخصاب وهو « كاميفيس » ويلقب ب «ثور أمه » ويبدو أن اسمه القديم قد هجر ، وذلك لأننا سوف ندرك مما سيأتى ذكره مستقبلا أنه بعد أن أصبحت مدينته عاصمة كبيرة للبلاد ، اضطرّ هو أن ينزوى ليحلّ مكانه إله جديد هو « أمون العظيم » الذى احتفظ ببعض صفات هذا الإله الذى سبقه ، ولو أنه فى مجموعه يمثل إلها آخر ذا صفات جديدة . وفى الوقت نفسه يسمع بين الحين والآخر لقبا من الألقاب التى تعيد ذكرى الإله الأول مثل «ذو الذراع العالية» أو الذى تنمو فوقه النباتات عالية مغطية جميع حقوله الجميلة [2] . وسوف يأتى ذكر هذا الإله من حين لآخر على صفحات هذا الكتاب . أما الثور الأبيض الذى يمتّ بصلة إلى الإله مين فقد ترك ولم تصبح له علاقة مع الإله آمون فى طيبة . ولو أن هذا الثور كان فى العصور المتأخرة يعبد تحت اسم « بوخيس » فى المناطق المجاورة مثل مدامود وأرمنت .



٢٤ ـ أمون (انظر أيضا صورته فى أول الكتاب)

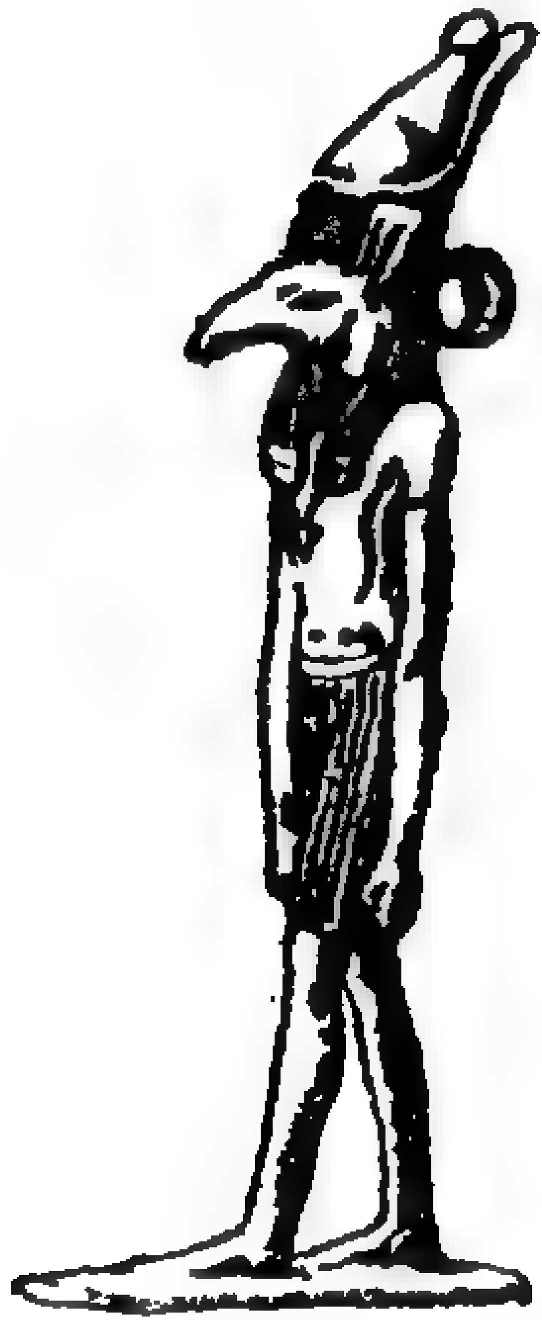
---

(١) ولا يزال غامضا علينا السبب الذى من أجله وصف « مين » أنه ينشر الرعب فى السنة التى يخضر فيها قارن Urk. IV, 18

(٢) قارن Urk. IV, 990

وقد كان فى استطاعتنا أن نتحدث طويلا عن إله آخر من آلهة طيبة وهو « مونتو » لولا أن بعض الدخلاء قد هدموا معبده فى القرن التاسع عشر ليقيموا على أرضه مصنعا للسكر . وعلى ذلك فكل ما نعرفه عن هذا الإله [1] أنه كان يصوّر برأس الصقر وأنه كان إلها للحرب ، وأن الملوك اتخذوه رمزا للانتصار فى الحروب .

لقد سبق أن تحدثنا عن الإله العظم « ست » وقلنا عنه إنه يمثل معبود الوجه القبلى وأنه يمثل كائنا يخافه الناس ولا يحبونه . ولو أن هذا الإله لم يتصف بصفاته الكريهة التى اشتهر بها فى العصور الحديثة والتى تميز بها بعد أن اشترك اشتراكا فعليا فى قصة أوزيريس [2] إلا أنه كان أيضا فى أول الأمر معبودا يمثل العواصف [3] فهو الذى يعلو صريخه فى السماء [4] ، وصوته هو الرعد [5] ، وهو الذى يهزّ الأرض هزا [6] ثم بعد ذلك أصبح ذلك الكائن الذى يسلب القمر أى عين حوريس .


٢٥ — ست
(برلين ١٣١٨٦)

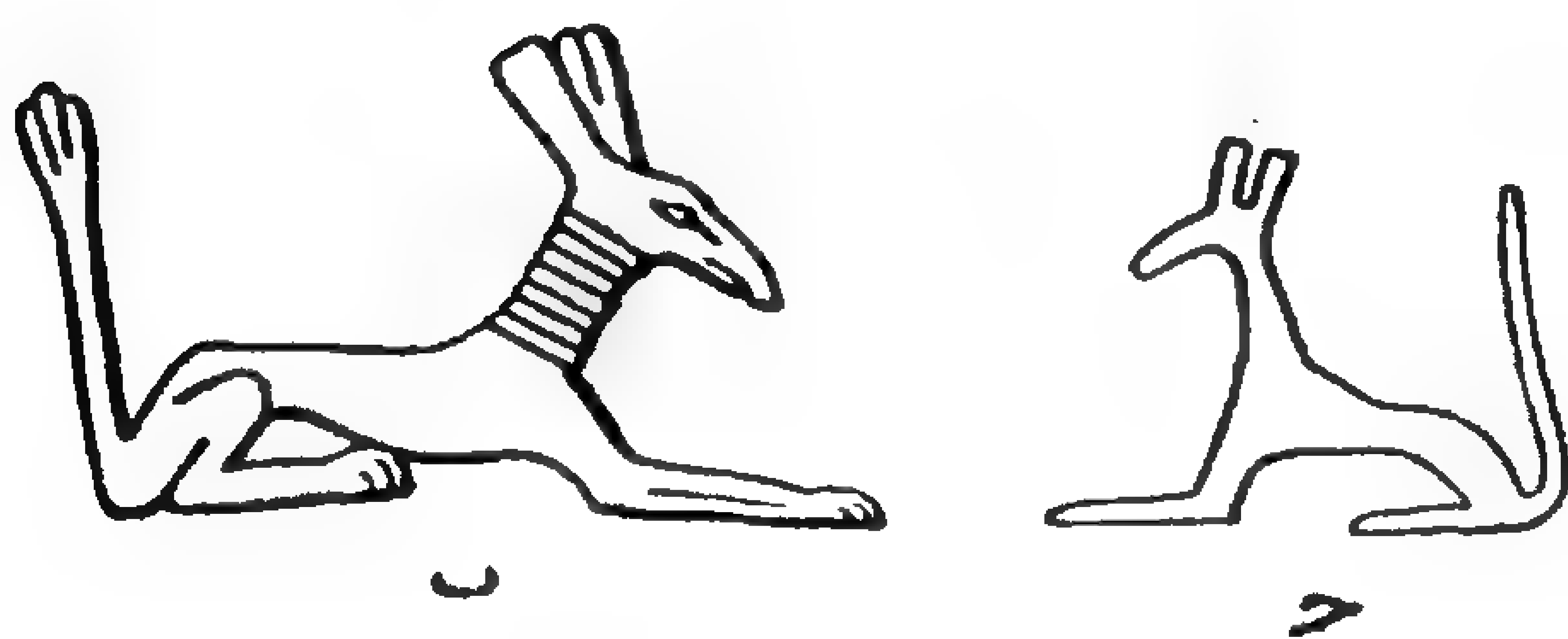
وإذا كان ست يعتبر باستمرار العدوّ الأكبر لحوريس فإن فى هذه العداوة مرآة تعكس بعض الذكريات التى ترجع إلى عصر كان فيه ملوك مصر السفلى يتحاربون تحت حماية إلههم حوريس مع ملوك مصر العليا الذين كان يحميهم الإله « ست » . ثم بعد ذلك اتحد القطران ، فاعتقد الناس أيضا أن هذا الاتحاد كان معناه انتشار السلام بين الإلهين اللذين أصبحا بمثابة إلهَىْ (سيِّدَىْ) مصر [7] . ويتبع ست مصر العليا [8] « مديريات ست » [9] . ويتبع حوريس مصر السفلى « مديريات حوريس » :

(١) قارن Pyr. 1081 حيث يقال عنه إنه يصعد ثم يسير .
(٢) قارن Pyr. 832, 865
(٣) ويستعين المصرى بصورته للتدليل على كلمة « عاصفة » .
(٤) Pyr. 1150
(٥) Math. Handb No 87b
(٦) Pyr. 581, 1855
(٧) Pyr. 204 ff. ; 390,473, 683,850
(٨) Pyr. 204
(٩) Pyr. 487, 948, 2011

ولو أنه فى الحقيقة ، كان حظ حوريس أحسن من حظ ست لأنه اعتبر فى الواقع إلها للدولة المتحدة ، على حين أن أخاه اختفى قليلا ولم تصبح له أهمية . ونتيجة لذلك مثل الملك الحىّ بحوريس ولم يحدث ذلك إلا فى القليل النادر بالنسبة إلى « ست » [٢] ثم هناك لقب اختصت به الملكات اللاتى كنّ يلقبن « بالتى ترى حوريس وست » ولا يمكن أن نفسر هذا اللقب إلا بأن الإلهين قد احتفظا بزوجة ملكية واحدة . وأكثر من هذا فإنه يظهر بوضوح فى الألقاب الملكية انتصار حوريس على ست ، واعتاد المصرى إذا ما أراد أن يظهر انتصار الملك على أعدائه أن يصوّره كصقر يقف فوق العلامة الهيروغليفية الخاصة بالذهب . وهذه العلامة بالذات تعتبر كمدلول للإله الخاص بمدينة « امبوس » ، أى الإله ست . ومعنى هذا كله أن



ا



ب ج

٢٦ — حيوان الإله ست ا ـ كما ورد على شاهد قبر من الأسرة الأولى
(برلين ١٥٤٨٤)
ب ـ من الدولة القديمة . ج ـ من الدولة الحديثة .

(١) والمعنى فى Ebers I, 13 يدل على أنه زميله فقط .

(٢) وحدث ذلك فقط بالنسبة إلى الملك القديم « بر ـ ايب ـ سن » من الأسرة الثانية ولعل مرجع ذلك إلى أسباب سياسية (Royal Tombs II, XXI) أما خليفته فقد نسب إلى نفسه الإلهين ، كما أطلق على نفسه اسما يدل على انتمائه للقوتين « حوريس وست » . ولم يحدث أن سمى ملك من بعده نفسه باسم ست .

حوريس يقف مزهوا بنصره على عدوه [1] . وأحيانا نجد أن الإله ست يعتبر رمز للقوّة كمحارب قوىّ [2] — يعلّم الملك كيف يستعمل القوس والنشاب . ثم كان هذا الإله أيضا يتمثل بالإله « رع » فيحتفظ بثعبان يقف بجانبه أثناء الحرب .

أما الحيوان الذى عبده الناس أوّل الأمر على أنه الإله ست فهو غريب جدا . فصورته لانعثر على مثيل لها بين الحيوانات التى تسكن أفريقيا . وإذا كان المصريون فى العصور المتأخرة قد اعتبروه حمارا فإن أقدم صوره تشبه فى الواقع هذا الحيوان [3] . ومن المحتمل أنهم تمثلوا قصدا هذا الحيوان إلها للأعداء . واستبدلوا ذنبه فى بعض الأحيان بسهم رشقوه فى مؤخرته . وثمة شىء آخر يجدر ذكره فى شأن هذا الإله الغريب . فلونه هو اللون الأحمر ، وهو من الألوان المكروهة لدى المصريين . فقد كان أحمر اللون وعيناه حمراوتان [4] ، وما كان يصنعه من أعمال شريرة إنما كان « أشياء حمراء » [5] . فاذا كان قد نسبت إليه مرة أعمالا خضراء (رمزا للأعمال الطيبة)[6] فقد كان ذلك تلطفا فى التعبير على نحو ماجرت به العادة فى المقابر القديمة ، إذ كان لاينبغى إزعاج الملك المتوفى فى قبره بعلامات أو صور غير سارة .

وإذا كان ست بتقدم الأزمنة يعتبر عدوا للخير ، فهناك إله آخر كان هو الصديق الوفى للآلهة وبنى الإنسان ، وهو الإله « تحوت » الذى عبد فى أول الأمر على شكل الطائر إيبيس (أبى منجل) فى الدلتا ، ثم بعد ذلك وجد لنفسه موطنا جديدا فى الأشمونين بمصر الوسطى ، واعتقد الناس فيه أنه إله القمر ، وأنه هو الذى يعيد

---

(١) وكتابة علامة الذهب تحت اسم الملك تدل أيضا على نفس المعنى .

(٢) Pyr. 1145 [

(٣) بل فى بردية « إبرس » نجد أن الكاتب قد استعمل صورة « ست » كمخصص الحمار ، ولقد شاع هذا فى العصور المتأخرة ، فثلا نجد فى الكرنك (باب العيد) حوريس يطعن حمارا أمام أوزيريس ، وكتب الأستاذ رودر مقالا : Roeder : A . Z. 50, 85 ff : يؤكد أن حيوان « ست » يعتبر من الحيوانات الخرافية فهو أقرب إلى الزرافة منه إلى الحمار .

(٤) Edfu, Düm. Geogr. Inschr. II, 87, 88.

(٥) قارن مثلا Ebers, I, 14

(٦) قارن Pyr. 1595

هذا النجم إلى اكتماله بعد اختفائه ، أى يعيده ، فيصبح هو العين الكاملة لحوريس .


٢٧ — تحوت

وهو أيضا الذى يدير الوقت (الزمن) ويشرف على نظام العالم . ثم هو أيضا المحاسب وكاتب الآلهة . ومن هنا — كما سنرى ذلك فيما بعد — أصبح راعى كل أولئك الكتاب فى مصر وكان الكتاب موضع احترام الجميع . لذلك تجد اسمه مسطورا أيضا فى كل من قصتى « خلق العالم » و « أوزيريس » .

ولا ندرى لم صوّره الناس على صورة أخرى غير إيبيس هى صورة قرد مفكر ، ولعل ذلك يرجع إلى أن القرد كان يمثل إلها آخر اندمج فى الإله « تحوت » فيما بعد . وعلى كل حال لم يكن تحوت هو الوحيد الذى يعتبر إلها للقمر ، إذ أنه فى طيبة عبد الناس القمر تحت اسم الإله « خونسو » ومعناه الذى يجوب السماء [1] . وقد صوّره الناس كطفل آدمى ، ويرجع ذلك إلى أنه أصبح ابنا للآلهة المحلية التى تمثل السماء ، وهى « موت » ولكن « خونسو » لم يكن له ما لتحوت من الشهرة .

وما دمنا قد وصلنا فى كلامنا عن الآلهة العظيمة إلى النهاية ، فمن الواجب أخيرا أن نذكر كلمة موجزة عن ذلك الإله أوزيريس الذى يراه بعض المؤرّخين محور الديانة المصرية . فهو لم يكن إلها معظما فى أول الأمر ، ولكن قصته وعلاقته بالحياة والموت جعلته يحتل مكان الصدارة بين الآلهة فأصبح من أهمّ الآلهة المصرية . وسوف نتحدّث عنه بإسهاب فى الفصل الخامس . ولو أننا نجد لزاما علينا أن نذكر فى هذه المناسبة بعض الصفات البارزة الخاصة بهذا الإله ذى المزايا العديدة ، وهل كانت تلك المميزات معروفة عنه فى عصوره الأولى ، أم أنها ظهرت وتكوّنت على أثر ظهور قصته المشهورة ؟ فالإله أوزوريس ينسب إليه كل التطوّرات التى تحدث على سطح الأرض طوال العام [2] . فاذا ما أتى الفيضان فأوزيريس هو الماء الجديد [3]

---

(١) لقد قصد فعلا أن يكون هذا هو المعنى لذلك الاسم ، قارن : Edfou.ed. Rochem. I, 269

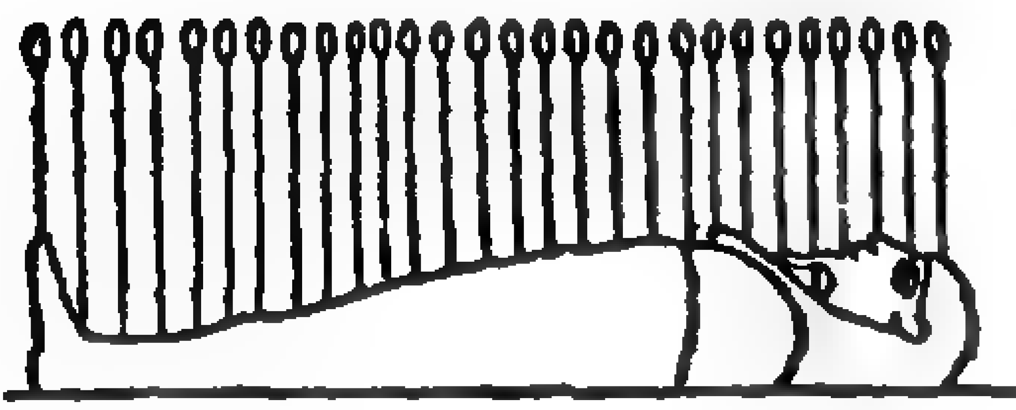
(٢) قارن Ed. meyr, Geschichte 1^2 § 178 وراجع أيضا Schafer, A. Z. 41, 109

(٣) قارن Pyr. 25; 589, 767.



٢٨ – أوزيريس

الذى يكسب الحقول خضرة . وإذا ماجفّ النبات وفنى ، فمعنى ذلك أن أوزيريس قد مات . ولكن موته هذا ليس أبديا ، لأنه إذا ما نبتت البذور فى العام الجديد فإنما نبتت من جسده الذى لايزال على قيد الحياة، فقد اعتقدوا أن الحياة تعود إليه كل عام . وبعودتها تنبت المزروعات يعيش بها الإنسان والحيوان [١] . وليس أدلّ على وجود هذه العقيدة عند المصريين من احتفالهم بأحد أعياد أوزيريس وتمثيله (وقد عادت إليه الحياة) ببذور نابتة . وكانوا يصوّرونه ميتا مستلقيا على الأرض وقد ملأت جسمه حبوب ترطب بالماء فتنبت وتنمو. وهكذا تعود الحياة إلى الإله . ومن أجل الحياة والموت اعتبر أوزيريس بعد ذلك إلها للموتى وسيدا لهم .



٢٩ – من جثة أوزيريس يخرج النبات

وهذه الصفة أبرز الصفات التى عرفت عنه ، ومن أجل ذلك أصبح فى العصور التاريخية عند المصريين إلها للموتى .

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن أوزيريس اعتبر إلها للقمر [٢] وذلك لأنه يختفى ثم يعود مرّة ثانية إلى الحياة ، بل أكثر من ذلك مثّل عندهم الشمس الغاربة والمشرقة . ولكن من الملاحظ أن كل هذه الصفات التى برزت فى العصور المتأخرة لم تبلغ ما بلغته الميزة الأولى التى أسلفناها ، فقد كان باستمرار بمثابة « الحبوب الجديدة » [٣] طعام الإنسان [٤] ، ثم « المياه الجديدة » التى [٥] تكسب الأرض خصبها ، فهو الذى يكتسب الشباب بمياهه المتجددة . تخرج منه المياه [٦] بل تعتبر البحار والمحيطات

---

(١) Philae (3352) Eurgetes vor Osiris

(٢) Pyr. 732

(٣) ويطلق عليه اسم « نفرى » بمعنى «حبوب» وذلك فى مقبرة سيتى قارن Sharp u. Bonomi 18, 5.

(٤) قارن Bibl. Nat. 20. Osiris hymn. 4

(٥) Pyr 589, 767

(٦) Pyr. 848, 868

دولتيه [1] . وكان يسمى « الكبير الأخضر » لان المصريين سمّوا البحار باسم « الأخضر الكبير » ثم أطلق عليه أيضا « الأسود الكبير » لأن المصريين كانوا يسمون البحيرات المرّة باسم « الأسود الكبير » .

وكذلك اعتقد المصرى أنه هو الحقول التى تطفو فوق مياه الفيضان إذا ما بدأت المياه تنحسر عن وجه الأرض وتصوّرها عائمة فوق الماء [2] . ثم مثلوا أوزيريس بالأرض الجاثمة فوق صدر عدوّه « ست » الذى يحمله ، وفى العصور المتأخرة نجد أوزوريس الذى يحكم دنيا الأموات كأنه نائم تحت الأرض ، والأرض من فوقه والماء ينبع من قدميه [3] .

وما أجمل هذه الفقرات هى تلك التى كتبها مصرى عاش فى عصر الدولة الحديثة متحدثا فيها عن بعض هذه الصفات فيقول :

« ترقد الأرض قاطبة ، على أوزيريس الميت وتزلزل زلزالها إذا تحرّك ، ويجرى النيل من عرق أصابع يديه ، يهب الناس (الحياة) من أنفاسه ، وتنمو فوقه الأشجار والنباتات والحبوب وجميع الثمار . ويجثم فوقه كل ما تشيده يد الإنسان من قنوات ومنازل ومعابد وآثار ومقابر وغير ذلك من الأشياء العديدة التى ليس من اليسير تدوينها دون أن يئنّ أو يتضجر من العبء الذى يحمله » [4] .

والمعروف حتى الآن أن موطن أوزيريس كان فى مدينة « ددو » التى سماها اليونان « بوزيريس » أى بيت أوزيريس . ومن هذه المدينة انتشرت عبادة هذا الإله إلى جميع أطراف البلاد ، وزيادة على ذلك فإن هذه العبادة طردت معبودات كثيرة من مواطنها ؛ فنى ممفيس مثلا اندمج سوكاريس فى أوزيريس ، كما تغلب على الإله الأصلى فى أبيدوس إله الموتى المسمى « أول أهل الغرب» [5] والذى كان يرمز

---

(١) Pyr. 628 ff., 847, 1631

(٢) Pyr. 388

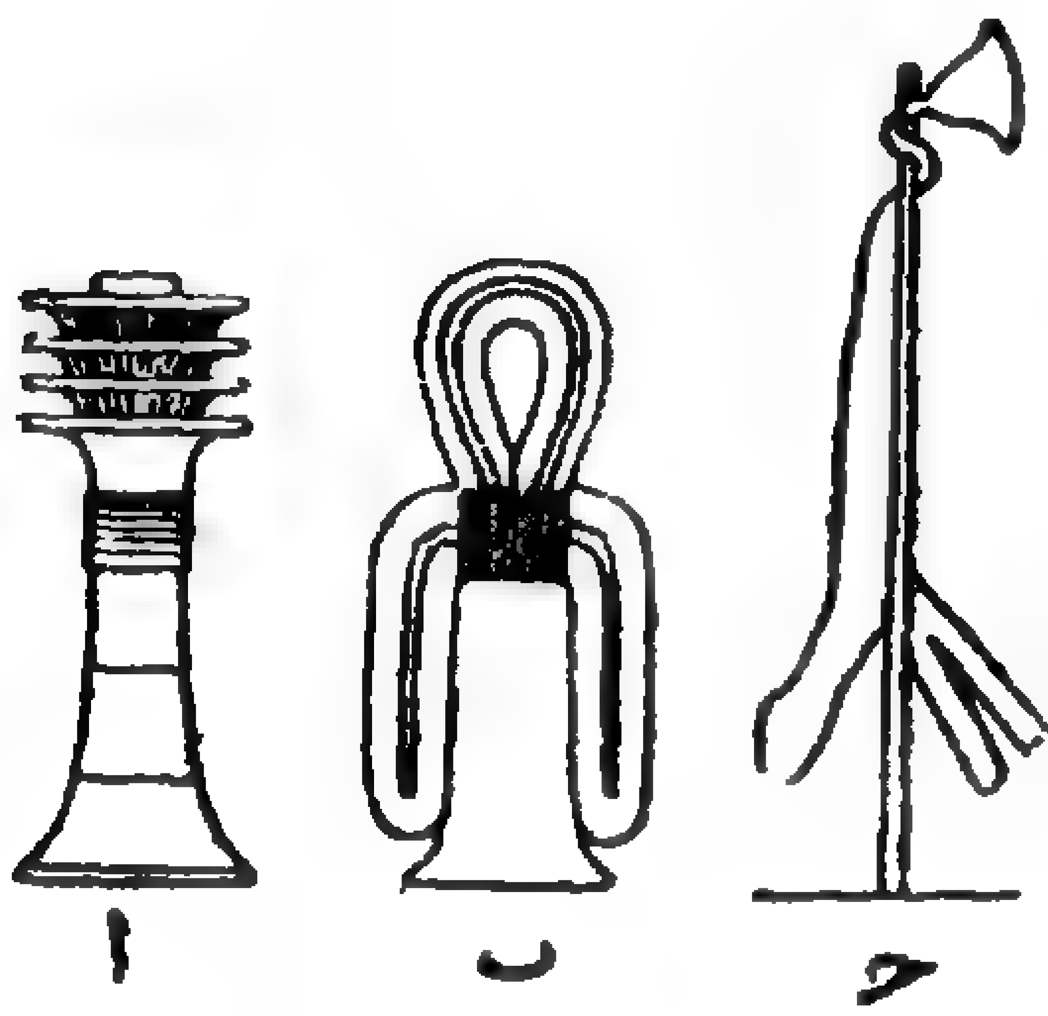
(٣) قارن Mar. Dend. III, 35 راجع أيضا Edfu I,567, Dum. Geogr. Inschr. III, 18

(٤) قارن Erman, Litt. S. 376

(٥) قارن Petrie, Royal Tombs راجع أيضا Pyr. 745, 1833, 2198
وكتب عن ذلك أيضا Ed. Meyer, A. Z. 41, 67 ff.

إليه ويعبد على شكل ابن آوى . ويبدو أن هذا حدث إبان عصر الدولة القديمة ، (أى حوالى ٣٠٠٠ ق . م) ومنذ ذلك العصر أصبحت أبيدوس أهمّ المدن التى تعتبر المركز الرئيسى لعبادة أوزيريس . وبديهى أن أوزيريس منذ اعتبر ملكا للموتى أصبح يصور على هيئتهم ، بمعنى أنه مادام ميتا فيجب أن يكون مومياء فى أربطتها ، ولكنه ربما عاد ودبت فيه الحياة مرّة أخرى لذلك صبغوا وجهه باللون الأخضر ، ووضعوا فوق رأسه التاج وفى يديه عصا الحكم والصولجان .

أما فى عاصمته الشمالية « ددو » (فى الدلتا) فقد صوّر على شكل آخر ليس بالآدمى ، وليس فى استطاعتنا أن نفسر هذا الشكل فإنه كان يمثل عامودا ثقيلا قمته العليا مقسمة إلى أقسام [1] . وكانوا يحتفلون فى عيد هذا الإله بإقامة ذلك العمود ، وربما كان قصدهم من ذلك أن يشيروا إلى أن الحياة قد دبت فى الإله مرّة أخرى . وهذا الرمز يسمى عامود «دد» من أقدس الرموز عند المصريين ، وأصبح يدل فى الكتابة المصرية على معنى الاستمرار (البقاء) ولعل ذلك كان لاعتقادهم بأن الإله ولو أنه ميت إلا أنه باق . ومن المعروف أن المصريين قد أضافوا إلى رمز أوزيريس هذا رمزين آخرين : الأوّل لزوجته إيزيس ، والآخر لصديقه أنوبيس ولقد اشتهر المصريون بحبهم العظيم لمثل هذه الإضافات التى لم يفهم لها من سبب .



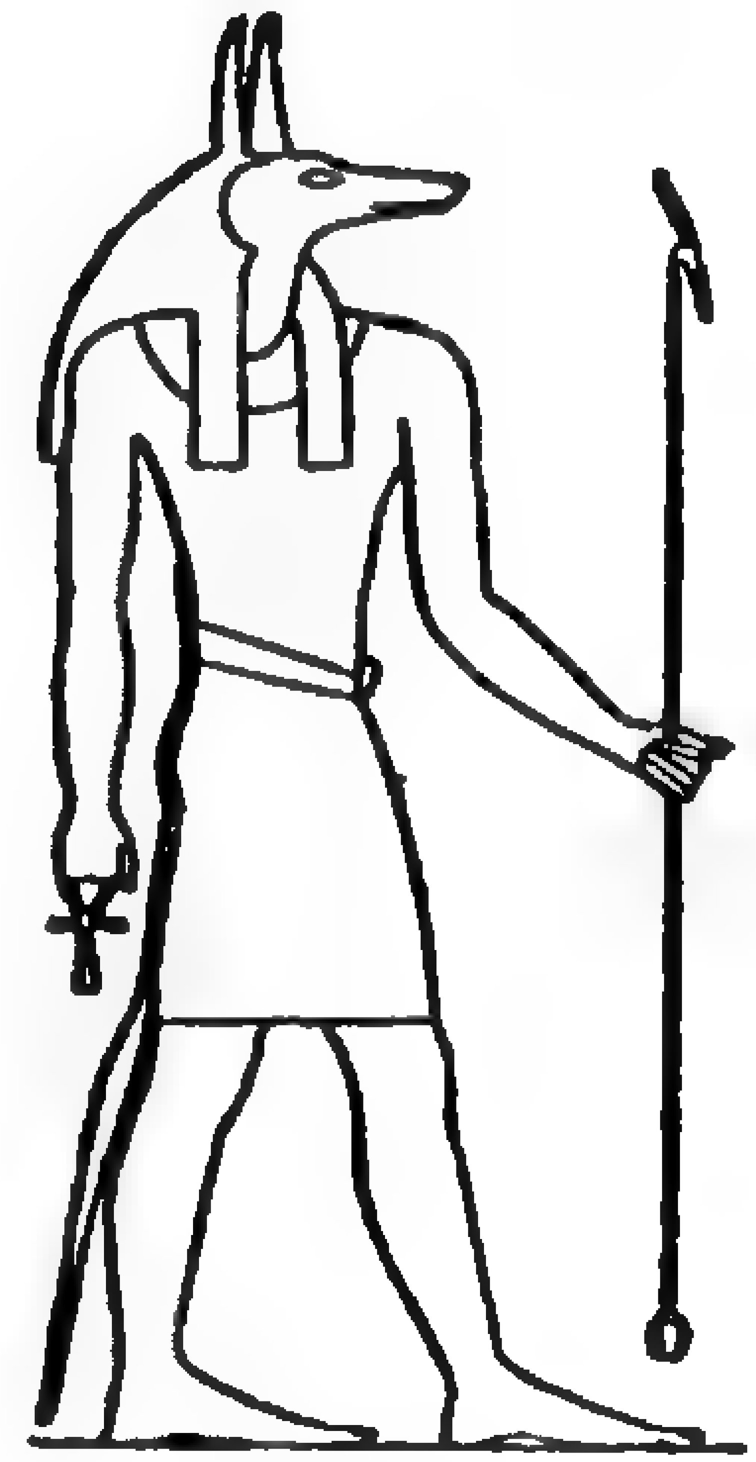
٣٠- رموز أوزيريس وإيزيس وأنوبيس

آلهة الموتى

إذا كان أوزيريس قد ظهر لنا كإله للموتى عند المصريين أجمعين ، فمن الصعب علينا أن نعتقد أن هذه الصفة لازمته منذ أول العصور . لأن موتى كل مدينة يرقدون

(١) شرحها بعض الناس على أنها جزع شجرة ، والبعض الآخر يرى فيها مجموعة من سيقان نباتات (قارن Schäfer, in der Fest schriften von Griffith) وعلى كل حال فمن الواضح أنها شىء ثقيل كبير الحجم يحتاج الناس لرفعه فى الهواء إلى حبال سميكة .

مجتمعين فى جبانة واحدة تقع بالقرب من هذه المدينة . ولا بد أنهم كانوا تحت رعاية إله محلى خاصّ بهذه الجبانة [1] . وغالبا ما تأخذ مثل هذه الآلهة المحلية للموتى شكل ابن آوى ، أى الحيوان الذى يجوب المناطق الصحراوية ليلا حيث تقع هذه المقابر باحثا عن فريسة (طعام) . وهذا هو الشكل (الرمز) الذى اتخذه سيدُ أهل الغرب [2] (أى الموتى) ، ولو أن أوزيريس فى أبيدوس قد انتزع هذه الصفة لنفسه ، وأنوبيس الذى كان يرمز له بابن آوى والذى كان إلها للدفن منذ عصور الدولة القديمة [3] وصل إلى مكانتهَ هذه لأنه ذكر فى قصة أوزيريس . ولأن جميع الآلهة الذين ورد ذكرهم فى هذه القصة ظهروا فى الصورة الآدمية ، نجد أنوبيس أيضا قد صوِّر بهذا الشكل ، ولكن الرأس فقط هى التى كانت تمثل ابن آوى . وكان موطنه الحقيقى على الأرجح مصر الوسطى .


٣١ – أنوبيس

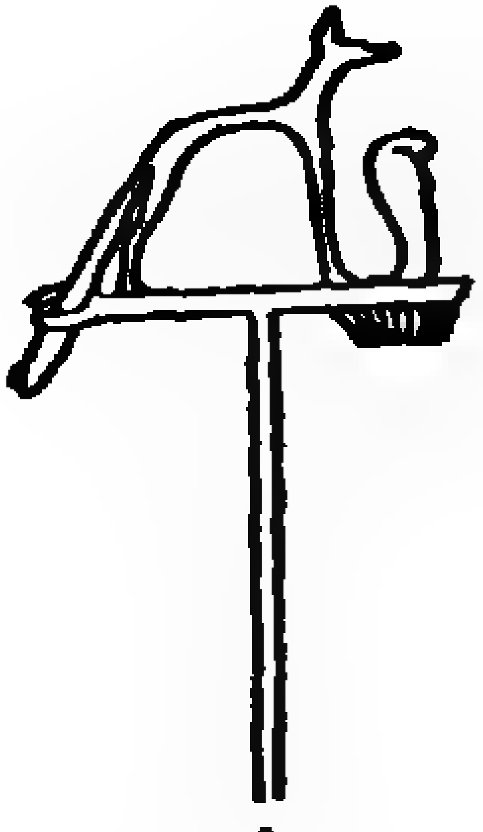
وظهر فى نفس المنطقة إله آخر على شكل ابن آوى وهو « أوب وات » ، وعلى وجه التحقيق ظهر اثنان من الـ « أوب وات » يشبهان كل الشبه « أنوبيس » ولا يختلفان عنه إلا فى أمر واحد ، وهو أن « أنوبيس » يصوّر كحيوان قابع (ومن أجل هذا يسمى « الذى يرقد على بطنه ») . بينما يمثل الـ « أوب وات » وهو يسعى فوق أرجله . وربما كان هناك اختلاف آخر بينهما ، نظرا لأن اليونان الذين عرفوا المصريين فى ذاك الوقت أكثر منا ، يقسمون ما نسميه ابن آوى إلى نوعين : الأول أنوبيس ويعرّفونه بأنه كلب ، و « أوب وات » بأنه ذئب ، ولقد لعب الإلهان الـ « أوب وات » دورا فى قصة أوزيريس ، فكانا كما يدلّ اسماهما « فاتحى الطريق » زميلا أوزيريس

---

(١) كان وفى أول الأمر هذا هو رأى ماسبير .

(٢) قارن Pyr. 220 ، وراجع أيضا Ed. Meyer, A. Z. 41, 97 ff.

(٣) Urk. I, 120; 123


٣٢– أوب وات
(نقش من أبو جراب فى برلين)

فى كفاحه ، يتقدمانه فى المعركة ، ومن أجل ذلك نجد أحيانا أن هذين الإلهين قد صورا ومع كل منهما دبوس حربى وقوس . ولقد ورد من بين ألقابهما « المتسلحان بالسهام . . . المنتصران . . القويان فوق جميع الآلهة [1] واللذان تغلبا على مصر فى موقعة النصر الحاسم . ومن أجل هذا نشأت العادة فى العصور المتأخرة أن يتقدم الملك رجل يحمل شارة تمثل الإله « أوب وات » الذى يعبد الطريق له بين الأعداء .

الكباش والتيوس

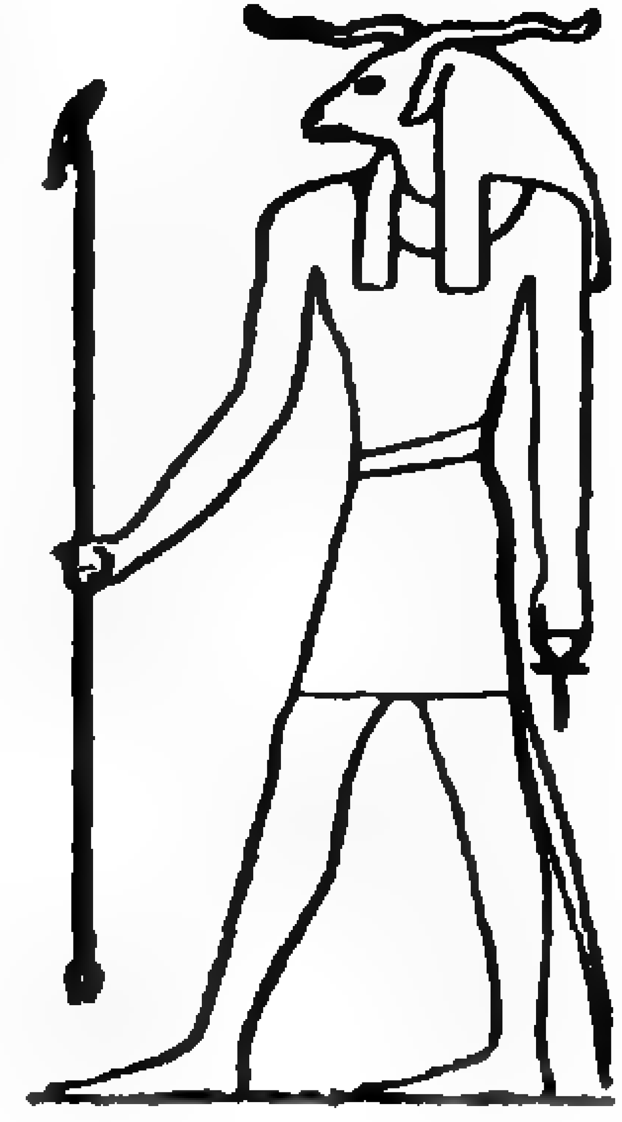
إن نفس الالتباس الذى وقع بين الآلهة التى مثلت على شكل ابن آوى وقع أيضا فيما يتعلق بالآلهة التى نعتقد أنها مثلت على شكل الكباش، ونحن لانستطيع أن نفرّق بينها إلا فى حالتين : الأولى الخاصة بالحيوانات المقدسة للإله آمون فى طيبة التى تتميز بقرون ملتوية إلى أسفل ومستندة إلى الرأس ، والنوع الثانى الذى يتميز بقرون أفقية تمتد فى انحناءات متعددة فوق الرأس . وكان اليونان أنفسهم يقسمون هذا النوع الأخير قسمين : أولهما الكبش ، والثانى التيس . ونحسن صنعا لو أننا أخذنا بهذا التقسيم . وأهم الآلهة التى مثلت على شكل الكبش هو الإله « حور سافس » معبود مدينة هرقليوبوليس الواقعة حاليا بالقرب من أهناسيا ، والذى أراد عُبَّاده أن يجعلوا منه فى العصور المتأخرة إلها للعالم ، عيناه الشمس والقمر ويخرج من أنفه الهواء [2] وكان اسمه « الكائن فوق البحيرة » . ومن هذه التسمية نستدل على أن معبده كان يقع عند المدخل الموصل إلى أرض بحيرة الفيوم . وتتصف الآلهة الأخرى التى لها شكل الكبش والتى تحمل اسم خنوم بصفات مختلفة ،فأحيانا يعتقد البعض أن خنوم

---

(١) قارن Siut I, 232 - 233 ولا ندرى سببا لماذا أطلق الإغريق على « أوب وات » اسم Makedon قارن Diodor, I 18

(٢) قارن Urk. II, 3

هو الإله الذى يخلق ويكوّن، مثله فى ذلك مثل الإله بتاح إله ممفيس .-فخنوم يعمل عمل


٣٣ — خنوم

الفخارى فيجلس إلى دولابه [١] يخلق البشر ، وكل طفل يولد هو من صنع يديه يتقدّم بالشكر له على خلق أعضائه السليمة [٢] ويسكن الإله خنوم ومعه آلهة كثيرة تحمل هذا الاسم جزيرة الفنتين [٣] ، واعتبروا هناك بمثابة أسياد (أصحاب) المياه الباردة [٤] التى تنبع من هذا المكان ، وهى عقيدة قديمة ترجع إلى أول العصور . ويبدو لنا أن أتباع هذا الإله كانوا فى أول الأمر مستوطنين للحدود المصرية الجنوبية ، وهم الذين أعطوا هذه الصفات لإلههم هذا المحلى .

أما التيوس فقد كانت فى شمال مصر . فمثلا التيس الذى عُبِد فى منديس اعتبر معبودا امتدّ تقديسه حتى العصر اليونانى . ومما تجدر ملاحظته مع هذا النوع من الآلهة أنها لم تكن مثل الحيوانات المقدسة الأخرى التى تسمت بأسماء خاصة . بل اكتفى المصرى بأن أطلق عليها اسم التيس [٥] ولم يحدث أن صوّرت على شكل آدمى . وربما يمكن أن نعلل هذه الظاهرة بأن الشعب بالنسبة إلى هذا النوع من المعبودات لم يسمح بتطوّر أشكالها . بل أبقاها كما عرفها منذ أقدم العصور . وسوف نتحدّث عن الأدوار المهمة التى لعبتها هذه الآلهة فى الديانة المصرية .

الآلهة على شكل التمساح

وهناك إله يجدر بنا أن ننوّه عنه بإيجاز سمى باسم « سوبك » وهو التمساح الذى ظهر كمعبود محلى فى مناطق مختلفة حاملا نفس الاسم والشكل . فعبد فى الدلتا فى مدينة

---

(١) L. D. IV, 70 ff.

(٢) Pap. westcar 10,2.

(٣) Urk, I,69

(٤) Urk. I, 110, 111

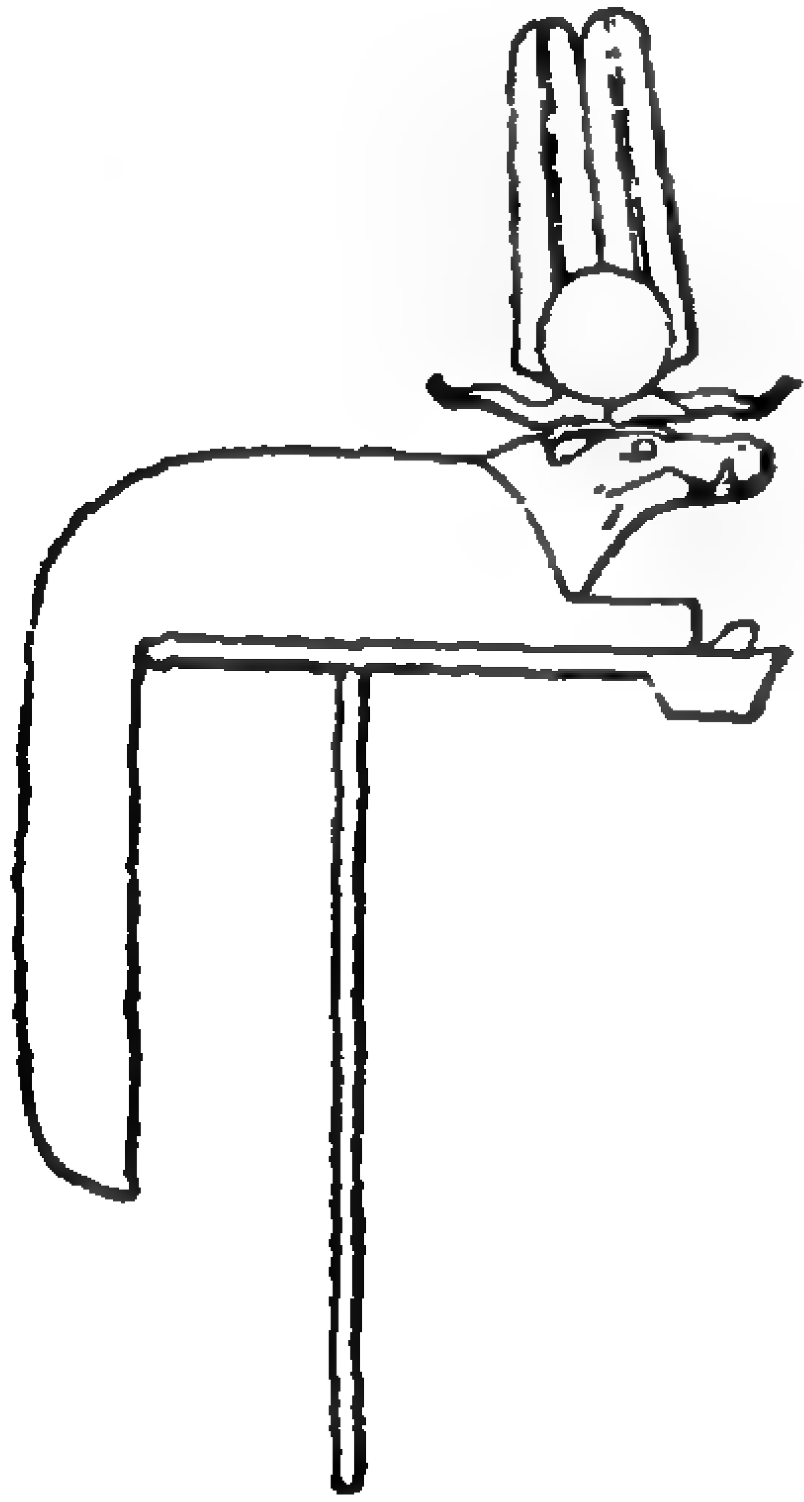
(٥) Ed. Meyer, I 2^2, 178



٣٤ – سوبك

سايس حيث « يعطى الحيـــاة للنباتات فوق الشاطئ » [١] واعتبر هناك ابن إلهة المياه « نايت [٢] العظيمة » يضحك عندما يأتى الفيضان [٣] ، ولم يخجل الفنان من أن يصوّر هذه الإلهة ترضع تمساحا من كل من ثدييها .

وأهمّ مكان انتشرت فيه عبادة « سوبك » كان أرض البحيرة فى الفيوم ، ثم فى مدينة أمبوس الجنوبية ، إذ اعتاد الناس الاحتفال هناك بظهور الفيضان كل عام ، ومن هذا نرى أنه كان إلها للماء . وقد عثر على صورة له قديمة لاترتبط بأىّ مكان فى مصر تمثيله فى محراب صغير [٤] فوق شاطئ رملى كمعبود يقدّس فى كل مكان من وادى النيل . وإذا كنا نرى أن قدسية هذا الحيوان المفترس بلغت جدا جعلت المصرى أحيانا يلقبه بصاحب الوجه الجميل [٥] فليس من شك أن السبب الحقيقى لهـــذه العبادة يرجع إلى الخوف منه والرعب الذى يشيعه فى نفوس أهل شاطئ النيل .



٣٥ – سوبك من معبده فى الفيوم – برلين ١٦٩٥٣ .

الثعابين وآلهة صغرى أخرى

وكان الخوف والرعب أيضا هما العاملان اللذان دفعا المصريين إلى تقديس كائنات مرعبة مؤذية أخرى مثل العقرب والحشرة السامة الكبيرة ذات الألف قدم ، ثم أخطر الثعابين السامة المعروفة باسم « الناشر » .

---

(١) قارن Pyr. 507, 510 ويجدر بنا أن نلاحظ أن المصرى اعتاد رؤية التماسيح مستلقاة فوق الشاطئ فاعتقد أنها تكسبه الخصب .

(٢) Pyr. 510

(٣) قارن Erman, Litt. S. 195 عن أنشودة النيل .

(٤) قارن Relief aus dem Sonnenfempel vou Abu Gurab in Berlin

(٥) قارن Morgan, Ombos II, 78, 627 c

فالعقرب هى الإلهة الكبيرة « سلكت » . أما الحشرة ذات الألف قدم فقد عبدت فى هليوبوليس تحت اسم الإله « سبا » . أما الثعبان السامّ فقد عبد فى شكلين مختلفين كما عرفنا ذلك من قبل : أولهما هى الإلهة « بوتو » حامية ملك مصر ، والثانى هو الصلّ حامى إله الشمس وزميله . وانتشرت الثعابين المقدسة فى مصر إلى درجة أنه فى العصور القديمة أصبح اسم كل إله يخصص برسم ثعبان مثل الصقر الذى اعتبر مخصصا لكلمة الإله (فى الكتابة المصرية القديمة) بل أكثر من ذلك صوّرت الإلهة الصغيرة الطيبة « رنن أوتت » إلهة الحصاد على شكل ثعبان [١] . ثم بعد ذلك أصبحت العادة تحتم أن يحوى كل معبد نموذجا حيا من هذه الثعابين . وعلى كل حال فقد كانت كل مديرية تحتفظ بعدد كبير من الحيوانات والأشياء التى لم تعتبر آلهة . ولكنها كانت ذات صفة إلهية . فمثلا مدينة هليوبوليس قدست غير الآلهة التى سبق أن ذكرناها حيوان النمس الذى تشكل آتوم بشكله عندما بدأ العراك بينه وبين أبوفيس [٢] . وفى غير ذلك من المدن المصرية قدّس الناس أنواعا مختلفة مثل الأسماك والطيور والفئران والأشجار وغير ذلك . ولو أن الصور التى تظهر لنا على جدران المعابد . والتى تمثل الديانة القديمة لم تظهر لنا شيئا من هذا النوع من المعبودات الدنيا إلا أننا لانشكّ مطلقا فى أن هذه المعبودات كانت منتشرة بين أفراد الشعب .

وسوف نتحدّث عن بعض هذه الآلهة الصغيرة مثل « بس » و « تويريس » عند الكلام على الآلهة الشعبية فى عصر الدولة الحديثة . ومما تجدر ملاحظته أنه كلما طال الزمن على الديانة المصرية وامتدّ بها الدهر كلما سمحت الظروف لهذه المعبودات الدنيا أن تتسرّب إلى المعابد وأن تجد لها مكانا منزويا بين آلهة الديانة الرسمية .

وكثيرا ما اعتبرت هذه الآلهة الصغرى كمساعدين للكبرى . فمثلا « آبيس » و « منيفيس » (راجع صفحة ٣١ ، ٣٢) و « مافيديت » [٣] المرعبة التى ظهرت منذ أقدم العصور . وكذلك الـ « أوب وات » الذى سبق الحديث عنه . كلها تعتبر من هذا

---

(١) وكانت قديما تعتبر أيضا إلهة النسيج ، قارن Pyr. 1755, 1794

(٢) قارن A. Z. 63, 50 وراجع أيضا Daressy, Ann. du Serv. 18,116

(٣) قارن Griffith in Royal Tombs II, 50

النوع من الآلهة . وكذلك أوزيريس ربّ الموتى كانت له رسل [1] يرسلها من عالمه الثانى إلى الناس لكى يعلنونهم بالموت .

ولا نشكّ مطلقا فى أن هذه القائمة الطويلة من المعبودات المختلفة التى وصلنا هنا إلى آخرها سوف تترك فى نفس القارئ فكرة عن ذلك الخلط الذى لا حدّ له . وهذا الالتباس هو فى الحقيقة مبالغ فيه ، إذ أننا هنا نحاول أن نشرح دنيا قديمة امتدّ به التطوّر طوال آلاف السنين ، والصورة التى نحاول أن نعطيها هى لعصور يتميز كل منها بحضارة مختلفة ؛ بل نشأت كل من هذه الحضارات فى منطقة مختلفة . ولقد بقيت بعض هذه الحضارات دون تغيير بينما حاول البعض أن يغير من هذه الحضارات بضم حضارتى منطقتين بعضهما إلى البعض الآخر . فكان أن أزاد ذلك فى عدم وضوح الحضارتين ، أو قل عدم فهمنا نحن لهما .

وليس من السهل علينا أن نعين فى إسهاب متى وكيف حدث هذا التطوّر ، ولو أننا نعرف العوامل القوية التى أثرت على الدين وغيرت من أصوله ، وما دمنا نتتبع بوضوح هذا التطوّر فى العصور التاريخية فليس من شكّ أن هذه العوامل بعينها أحدثت نفس الأثر على الدين إبان عصور فجر التاريخ ، وسوف نتحدث فى الفصول القادمة عن هذه العوامل وأثر الأحداث الخارجية على التاريخ والأثر الذى نتج عن المحاولات التى قام بها رجال الكهنوت فى نسج القصص الدينى .

---

(١) ويظهر ذلك جليا فى قصة حوريس وست Horus und Seth, 15,5 ff. Gard. J.E.A.IX, 12
, كذلك Totb. 29, I; Totb. 125, Einleitung 16 ، وراجع أيضا Pap. Smith 18, 12
, كذلك Bauer; nach Pap. 3023, 119 حيث وصف أنه رسول الإله التمساح .

الفصل الرابع

تتبع التطورات التي حدثت للديانة المصرية

إن الأحداث الكثيرة التي استهدف لها الشعب المصرى طوال تاريخه الممتد لابد وأن أثرت هى الأخرى على ديانته . إن مصر كانت دولة متحدة قوية ، ثم اضمحلت وانقسمت إلى إقطاعيات ، وانزوت أسرات ملكية ، وحلّ محلها بيوتات أخرى اختارت لنفسها عواصم أخرى . وحدثت تلك الثورة الجامحة التى هزّت مصر هزا وقلبت الأوضاع فيها قلبا ، فغزتها أمم متبربرة ، ثم ما لبثت مصر أن غزت هى بدورها أمما أجنبية . كل هذه الأحداث أثرت على الديانة المصرية ، سواء فى مظاهرها الخارجية أو فى أحاسيس الأفراد . ومما يؤسف له أننا نتصوّر كل هذه الأشياء ولا نتلمسها ، ونراها واضحة حية إلا فى حالة واحدة ألا وهى الإصلاحات التى قام بها أمنوفيس الرابع . وسوف نكتفى بالحديث عن هذه الأحداث التاريخية فى حينها، ولكننا نودّ هنا أن نتعرّض للتغيرات التى أخذت تدخل الديانة المصرية دون تأثيرات خارجية .

وإذا وجد فى مدينة واحدة معبودات عديدة تحظى بتقديس الناس فليس من شكّ أن هؤلاء لابد وأن يتصوروا وجود علاقة ما بين هذه المعبودات . فإذا كانت إحداها إلهة كبيرة والآخر معبودا صغيرا فلا مندوحة هناك من أن يعتقد الناس أن الإلهة هى الأم والمعبود هو الابن ، فى طيبة أصبح خنسو ابنا للإلهة « موت » ، وفى دندرة أصبح « ايحى » ابنا لحاتحور يجلس على حجرها ، وفى سايس اضطرّت « نايت » أن تقبل تمساحا « الإله سوبك » ابنا لها . وإذا حدث أن كان فى نفس المدينة إله آخر كبير يحظى بتقديس الناس فليس من بد أن يكون هو الزوج والأب أيضا . وهكذا أصبح آمون زوجا للإلهة « موت » وأبا لخنسو ، واتخذ بتاح معبود

Lacau, Text. Relig. S. 133 (١)

بمفيس من ساخمت « التى كانت رأسها على شكل رأس الأسد » حبيبة له ، وأصبح ابنه ذلك المعبود الصغير « نفر - تم » الذى لم يكن سوي زهرة . ونجد أمثلة كثيرة لهذه الأسرات الإلهية منتشرة فى كل مكان ، وأشهرها هى عائلة أوزيريس التى سنتحدث عنها عند الكلام عن قصته .


٣٦ - الإله نفرتم
(برلين ١١٠٠١)

وإذا حدث أن اتحدت آلهة بعضها مع بعضها الآخر دون أن يربط بينها أىّ رابط ، فهناك حالات أخرى يندمج فيها إله فى إله آخر مجاور لشهرته ويفقد بذلك كيانه المستقلّ ، فمثلا « سوكاريس » إله الموتى فى ممفيس لم يكن إبان عصر الدولة القديمة إلا بمثابة اسم آخر « لبتاح » يدل على صورة معينة من صور « بتاح » فأصبح « بتاح سوكاريس » بل أكثر من ذلك قد أدمجه الناس فى إله آخر أجمع المصريون على تقديسه ألا وهو « أوزيريس » ، فكانت النتيجة أن تكون من ذلك إله اسمه « بتاح - سوكاريس - أوزيريس » ونرى بوضوح من هذا المثل أن الاندماج لايحدث غالبا بأن يسطو إله قوىّ على جاره الضعيف ، بل يمكن جدا أن يكون الإله المتغلب من الذين أصبحوا - لأمر ما - محبوبين بين الشعب ، ويكاد يكون هذا هو السبب فى معظم الحالات ، وكثيرا ما يحدث أن يفقد الإله القديم اسمه ويبدو ذلك هو السبب فى وجود آلهة مختلفة سميت باسم واحد مثل حوريس وحاتحور ولو أننا لانستطيع إثبات ذلك . ومن الأمثلة التى تضرب لهذا النوع من الآلهة الدخيلة هو الإله « أونوريس » ويعنى اسمه « ذلك الذى يحضر البعيد » . وترجع نشأة هذا الإله إلى قصة « عين الشمس » ثم نجده بعد ذلك قد ثبت أقدامه فى كثير من الأماكن وحلّ محل إله الهواء « شو » . وهناك مثل آخر لذلك وهى إيزيس زوجة أوزيريس التى أدمج الناس فيها منذ عصور مبكرة إلهات مختلفة . فسميت مثلا « سيدة بوتو »

كما لو كانت هي بمثابة الإلهة الأصلية على شكل الثعبان [1] .

ومن الحالات التي كان لها نتائج خطيرة اندماج عدد كبير من الآلهة في إله الشمس . وأول إله اندمج فيه هو « آتوم » إله هليوبوليس القديم كما ذكرنا ذلك فيما سبق ، وسوف نعود إلى ذلك في مناسبات عدة على صفحات هذا الكتاب .

ولقد أخذت عبادة الشمس تنتشر منذ عصر الدولة القديمة ، ولعل السبب في ذلك أن ملوك الأسرة الخامسة الذين حكموا مصر من عام ٢٥٦٠ إلى ٢٤٢٠ ق . م ينتمون إلى كهنة هذا الإله ، فأصبح هذا المعبود أكثر المعبودات تقديسا عندهم . وعلى كل حال نلاحظ مدى الألف السنة التالية كيف أن الناس قد أضافوا في كل مكان اسم « رع » (الشمس) على أسماء الآلهة القديمة ، وهكذا أرادوا أن يضفوا على الآلهة « سوبك – رع » و « مونت – رع » و « خنوم – رع » وغير ذلك نصيبا من القوّة التي تمتع بها إله الشمس الذي كان يتصرّف في مقادير العالم أجمع . ولو أنها في حقيقتها لم تزد عن تلك المعبودات التي يمثلها التمساح والصقر والكبش . وأصبح أيضا آمون الإله المحلي لطيبة منذ عصر الأسرة الحادية عشر (حوالى ٢١٠٠ ق . م) « آمون – رع » . وبلغ إله الشمس في شخصيته الجديدة « كملك للآلهة » [2] أسمى درجات التقدير والشهرة . ولا غرابة في ذلك فقد كان « آمون رع – منذ عصر الأسرة ١٨ (١٦٠٠ ق . م) إله الإمبراطورية المصرية .

وكما سببت الملكية في مصر ذلك الانتشار الواسع لعبادة إله الشمس نراها أثرت أيضا تأثيرا واضحا في صياغة الأسس الدينية . كانت مصر كما أسلفنا منقسمة إلى دولتين : مصر السفلى وعاصمتها « بوتو » ، ومصر العليا وعاصمتها « نخن » . وهذا التقسيم الذي يرجع إلى عصور فجر التاريخ له مظاهر أخرى : فهناك إلهان رمزيان هما : حوريس وست ، وإلهتان حاميتان للملكي القطرين وهما : الثعبان « بوتو » والعقاب « نخبت » . ثم تاجان : الأحمر لمصر السفلى ، والأبيض لمصر العليا وقد ألهمهما المصريون . ولقد حدث أن تمكن حاكم لمصر العليا في الألف الرابعة قبل

---

(١) قارن Pyr, 309, 313 . ويشعر القارئ أن في هذا ذكرى لأماكن قديمة لإزيس .

(٢) ومنذ أقدم العصور اعتقد المصري في « ملك الآلهة » قارن Pyr. 1458

الميلاد من أن يوحد القطرين . ويعتبر هذا الحادث بمثابة بدء عصر جديد للديانة المصرية اختلطت فيه المعتقدات الدينية ، وكلما زاد اختلاطها تقارب بعضها من بعض . ولا نودّ أن نقول بأن البعض منها قد تلاشى أو هجر ، بل على العكس من ذلك فما كان يمتّ إلى القديم بقي حيا محترما بجانب ما أدخله العصر الجديد من مبتكرات على هذه المعتقدات . فمثلا أسس الملوك منذ أول عصر الدولة القديمة عواصمهم فى المنطقة بين ممفيس وهليوبوليس والقاهرة الحالية ، ولكنهم ما فتئوا يتحدثون فى معابدهم عن العاصمتين « بوتو » و « نخن » ، كما أن إلهتى هاتين العاصمتين هما اللتان تحميان الملك ، ولو أنهما كانتا قد اندمج بعضهما فى بعض وأصبحتا تصوّران كثعبانين وغير ذلك ، فلا زالت مصر فى عرفهم منقسمة إلى قطرين ، والملك هو « سيد القطرين » بل إن ألقابه تظهره كما لو كان صاحب شخصيتين ، فهو ملك مصر السفلى وملك مصر العليا ، يلبس لكل شخصية يمثلها التاج الخاصّ بها مع العلم أن هذا لم يمنعهم فى نفس الوقت من أن يضموا التاجين ويجعلوا منهما تاجا مزدوجا واحدا . ولقد اختلف الحال مع آلهة القطرين ، إذ تضاءل مركز « ست » معبود مصر العليا بالنسبة إلى « حوريس » معبود مصر السفلى وانزوى . ولا يمكن أن نفسر هذا التضاؤل إلا أنه تأثر بحدث تاريخى نرجح أن يكون ما ورد فى النصوص المصرية خاصا بظهور دولة غارقة فى القدم سمى ملوكها « خدم حوريس » . ويغلب على الظنّ أن هذه الأسرة الملكية خصت حوريس بتقديس يبز كلّ ما عداه من الآلهة ومن هنا نشأ هذا الامتياز الذى انفرد به حوريس من دون جميع الآلهة فى العصور التاريخية ، وأصبحت صورة الصقر فى الكتابة المصرية « كمخصص للإله » و « للملك » وأصبح حوريس قبل كل شىء المثل الأعلى للملك ، فهو الإله الذى كان أول من حكم الناس ، وبذلك كان كل من أعقبه من الملوك خلفاءه وممثليه . وكان الملك يلقب بحوريس [1] . أما إذا أرادوا أن يفرّقوا بينه وبين الإله لقب بحوريس الذى يسكن القصر . وكذلك نراهم يذكرون « الرعب الذى يلقيه حوريس بين سكان البلاد

(١) لقب حورس هو أعظم الألقاب، أما لقبا ملك مصر العليا وملك مصر السفلى فلم يكونا غير لقبين لوظيفته الدنيوية .

الأجنبية ١ . وفى أنشودة من عهد الدولة الوسطى سمى الملك « حوريسنا » ٢ وينبغى ألا نعتقد أن الملك كان إلها مثل بقية الآلهة تشيد له المعابد وتقدم له القرابين ، فلم يبلغ تأليهه هذا الحدّ . فإذا ما سمى بحوريس أو الإله الطيب ٣ ؛ أو إذا ذكر أثناء الحديث باسم الإله ٤ فلا يعدو ذلك طريقة مهذّبة للتعبير عن خضوعهم التامّ له ، حتى إذا ماشاع هذا الاستعمال اللفظى لم يفكر أحد فى معناه الأصلى . وقد بالغ المصريون بالذات فى استعمالهم لمثل هذه الألقاب مع الملك فقالوا عنه إنه « الشمس الحية » الذى إذا تحدث كان « أتوم هو الذى يتحدث من فمه » أو « هو صورة حية للإله تعيش فوق الأرض » وهكذا لايمكن أن تحوى ألقابه « حوريس » و « الإله » من معنى حقيقى يختلف عن الأمثلة التى سردناها فيما سبق .

وهناك لقب آخر أضافه ملوك الأسرة الرابعة على ألقابهم ؛ ومن العجيب أنه يرمز أيضا لشخصيتهم المؤلهة ، وهذا اللقب هو « ابن رع » أو « ابن رع من جسده » ومن ثم بقى هذا اللقب ثابتا من بين الألقاب الملكية ٥ . ونكاد نعتقد أن فى استطاعتنا تفسير السبب الذى من أجله نشأ هذا اللقب ونرجعه إلى ذلك الاعتقاد الذى يسود بعض الشعوب الأخرى وفى عصور مختلفة ، والذى يقول بأن الملك ولو أنه ابن لأبيه من الناحية الفعلية إلا أنه فى نفس الوقت هو ابن لأكبر الآلهة وأكثرها تقديسا . وليس فى استطاعتنا طبعا أن نفسر مرجع هذا الاعتقاد وكيف يكون ذلك ، خصوصا ولأن أسباب فهمنا للعقائد المصرية لازالت قليلة بسيطة .

ويظهر لنا بوضوح كيف استمر الشعب متمسكا بفكرته هذه فى القصة التى كتبت حوالى عام ١٧٠٠ ق . م والتى تتحدث عن ملوك الأسرة الخامسة ، وكيف أنهم ينتمون إلى محتد إلهى فتقول إن « رع » كان غير راض عن الملك خوفو الذى

---

(١) Urk. I, 124

(٢) Kahun Hymnus, Erman Litt. S 179

(٣) أطلق عليه فى أقدم العصور « الإله العظيم » وهو لقب لم يستعمل فيما بعد إلا عند الحديث عن الآلهة الحقيقيين Urk. I, 8

(٤) فمثلا ورد ذلك فى اللقب القديم « رئيس خزانة الإله » أو فى التعبيرات التى يطلق على الملك فيها « الإله » Urk. IV, 20

(٥) قارن Ed. Meyer, Geschichte des Altertums II 2, 250

بنى الهرم الأكبر ، وإذا ما تفضل وسمح لابنه وحفيده « صاحبي الهرمين الثانى والثالث » بالحكم فإنه أراد أن يحكم مصر من بعدهم ملوك يفوق تقديسهم للإله تفكيرهم فى تشييد مقابرهم الضخمة ، ملوك يشيدون المعابد ويقدمون القرابين على المذابح ويكدسونها على الموائد ويجعلونها كثيرة وافية »[1] . وهكذا اختار زوجة كاهن من كهنته واسمها « رود ـ ددت » وجعلها تحمل منه وتلد بمساعدة الآلهات ثلاثة أطفال كانوا بمثابة باكورة جيل جديد . فأعطاهم خنوم الذى يصنع الناس أعضاء قوية ، وأعطتهم إيزيس أسماءهم ، وتبينت مسشنت إلهة الولادة أنهم ملوك حقيقيون « سيتقلدون شئون الملك فى هذه البلاد بأجمعها » . وهؤلاء هم الملوك : أوسركاف ، وسحورع ، وكاكاى ــ أول ثلاثة ملوك من الأسرة الخامسة الذين لم يولدوا كتوائم ، ولكنهم كانوا بالفعل مقربين إلى إله الشمس بدليل أن كلا منهم ــ كما سنتحدث عن ذلك فى الفصل السابع ــ قد بنى معبدا خاصا لهذا الإله بالقرب من عاصمته قام فيه هو وعظماء رجالاته بالخدمة .

وهذه القصة الخرافية حبكها وأخذ يسردها رجل من الرجالات الموالين لأحد الملوك القدماء ، ويبدو أنها حازت إعجابه وإعجاب رجال بلاطه إلى درجة أنهم نقشوها ورسموا حوادثها فوق جدران المعبد ــ [2] . وانتشرت هذة القصة ، إذ نجد مثيلا لها منقوشا فوق جدران معابد طيبة من عهد الدولة الحديثة ، وكان الإله طبعا هو آمون . ثم نجدها أيضا فى معبد من معابد الفيوم وكان الإله هو سبك .

وكما كانت الحال فى القصة الخرافية نجد فى طيبة أن الإله آمون أراد أن ينجب ملكا يقوم بتشييد « منازل » للآلهة وتكثر على يديه القرابين التى تقدم لها وهو يعلن

---

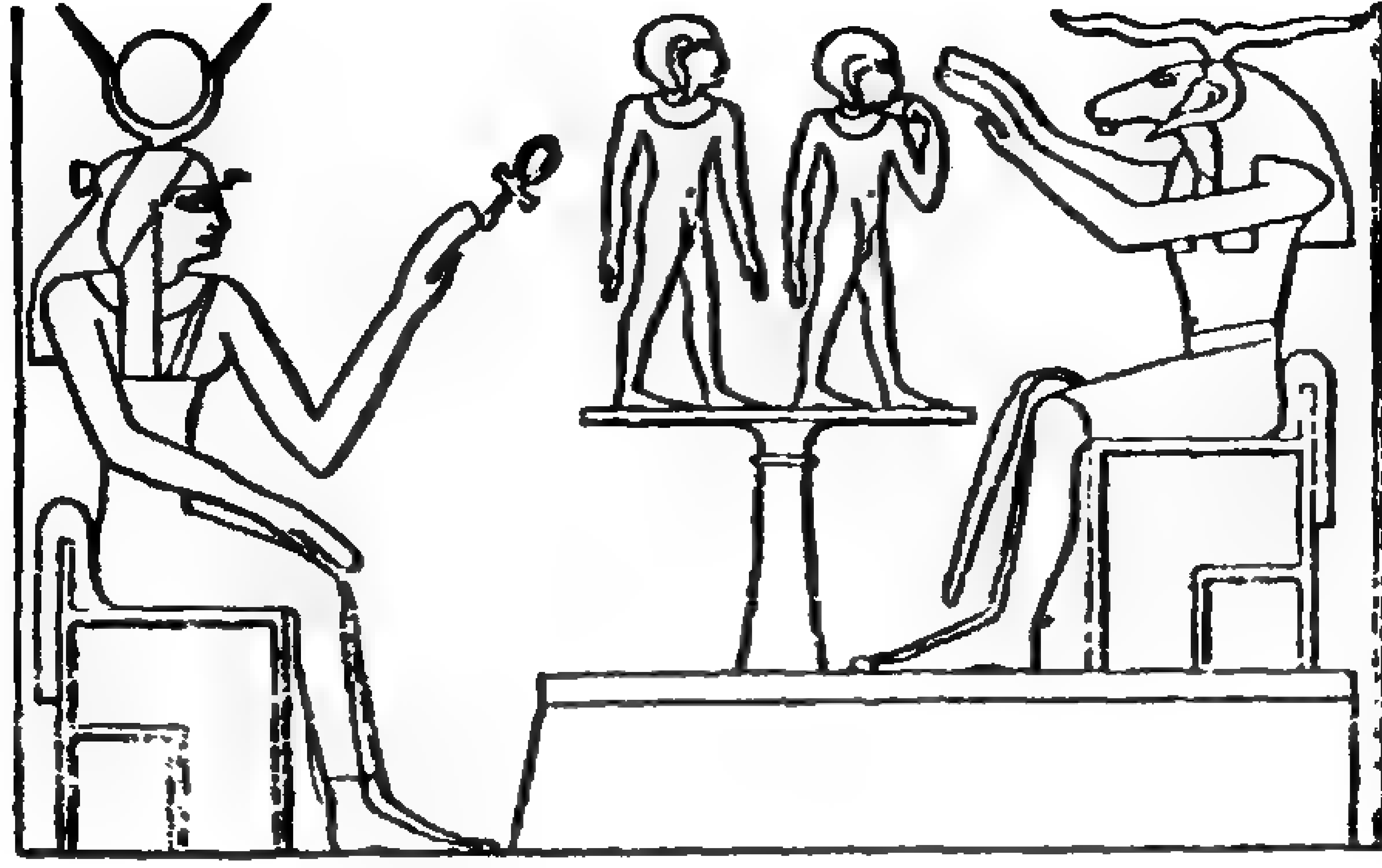
(١) Mârchen des Westcars, Erman, Litt. S. 73

(٢) وأسلوب هذه القصة يدل على أنها دبجت وكتبت فى عصر الدولة القديمة . Urk. IV 241 ff. وهذه القصة فى مجموعها تعتبر نموذجا جيلا لأسلوب النثر ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المختلف الذى وصلت به إلينا بعد أن أراد الفنانون سردها مصحوبة بصور ورسوم لنقشها على جدران المعبد ، ولا ندرى تماما المعبد الأول الذى زينت جدرانه بهذه القصة ، وأول نموذج وصل إلينا هو ذلك الذى نقش على جدران معبد لا منحهات الثالث (Berlin, Aeg. Insch. I, 268) ومن عصر الدولة الحديثة وصل إلينا نموذجان : الأول للملكة حتشبسوت (Naville, Der el Bahari II, 46 ff, Urk. IV, 216) والثانى للملك امنحوتب الثالث (Gayet, Luxor 63 ff) .

هذا إلى الآلهة أجمعين الذين يعدونه بحماية الملك المرتقب . ويبدو أن الإله آمون رأى شابة وجد فيها غايته ، فأرسل « تحوت » لكى يستعلم عن أحوالها ، فرجع تحوت وأبلغه ما يأتى : « هذه الشابة التى تحدثت لى عنها اسمها أحمس » وهى أجمل من أىّ امرأة فى هذه البلاد ، وهى زوجة الملك تحوتمس ، وعندئذ « تقمص آمون شكل زوجها الملك تحوتمس » وقاده تحوت إلى الملكة التى وجداها مستلقية تستريح فى قصرها الجميل « فاستيقظت الملكة على عبير الإله ، وضحكت لجلالته ، فتوجه إليها الإله وجسده يحترق بنار الحبّ وأفصح لها عن نيته وأظهر لها جماله الإلهى . . . . ففرحت عندما رأت جماله هذا ، وامتلأ جسمها بحبها له وغمر عبير الإله جو القصر وكأنّ عطره الذكىّ من بلاد البخور » .

وأتمّ الإله معها كل ما أراد ، وتركته يسعد بها وقبلته « ثم تحدثت الملكة أحمس إلى جلالة هذا الإله آمون قائلة : « يا سيدى ، ما أعظم قوّتك ، وما أحلى أن يرى الإنسان جمال طلعتك ، لقد أسبغت على جلالتى من عظمتك فتسرّب نداك فى كل أعضائى » ، وبعد أن أتمّ جلالة هذا الإله كل ما أراده معها تحدّث آمون إليها قائلا : « خنمت آمون حتشبسوت » هو اسم هذه الابنة التى وضعتها فى جسدك وذلك تبعا للكلمات التى نطقت بها الآن » . وذلك لأن الملكة عندما كانت تتكلم مع الإله استعملت لفظى « خنم » بمعنى « يزود » و « شيس » بمعنى « عظمة » ، ومن هاتين الكلمتين اشتق الإله اسم الطفل الذى سيولد . ثم أعلن الإله بعد ذلك « أن ابنته ستشغل هذا المنصب العالى فى جميع البلاد ، وستستمد من روحه وقوّته وستحمل تيجانه ، وسوف تحكم القطرين وتقود الناس أجمعين » . وما دامت البذرة قد وضعت فيجب أن يخلق الطفل ، ولذلك كلف آمون « الإله خنوم » وهو الفخارى أن يصنع فوق دولابه طفلا ملكيا من نموذجين : الأول للطفل ، والثانى للكا « روح الطفل » . وهكذا كتب لهذا الطفل أن يكون من أهل الحظّ والسعادة والصحة ، تطيعه كل الأمم والشعوب ، ويملك القوت والغذاء . وكتب له أن يجلس على « عرش حوريس » يحيط به جلال « رع » كملك ، وكما أمر بذلك أبوه « آمون رع » الذى يحبه . وصاحب « خنوم » الملكة الحبلى ومعها القابلة الإلهية « حقت » إلى مكان الولادة

التى تشرف عليها الإلهة « مسشنت » وهكذا رأى الطفل نور الدنيا مزوّدا بأحسن ما يمكن لمصرى أن يتمناه لملكته ، وظهر كملك لمصر العليا والسفلى الذى سوف يحتفل بعدة أعياد فضية .



٣٧ – خنوم يشكل على دولاب الفخارى الملك وقرينه وإلى الجانب حاتحور تقدم رمز الحياة
(Gayet, Luxor pl. 63)

وكشأن كل إنسان على الأرض يولد له طفل فيسرع لرؤيته نجد فى حالتنا هذه أيضا أن « حاتحور » أعظم الإلهات شأنا تحضر « آمون » لكى يرى ابنته المحبوبة الملكة « حاتشبسوت » بعد أن ولدت . فانشرح لذلك صدره بمولدها . وأيد أن هذه هى ابنته التى هى من صلبه ، « فقبلها وطوقها بذراعيه وأحبها أكثر من كل شىء ورعاها وقال لها : مرحبا ، مرحبا بابنتى حبيبتى من صلبى » . ولا يعنينا هنا كيف أن آمون طلب إلى آلهات عدّة أن يرضعن ابنته ، وكيف أن البقرة السماوية قد أرضعتها ، وكيف ترعرعت ورحب بها من آلهة البلاد ، وكيف أنها فى آخر الأمر قد جلست على عرش البلاد بين تهليل الشعب المصرى . وذلك لأن هذه الفترة من حياتها الأرضية لعب أبوها الآدمى الدور المهمّ فيها .

وقد نقشت عبارات وصور هذه القصة ـ كما أسلفنا ـ كستند رسمى فوق جدران المعابد . ونكاد نجزم بأن الملك والملكة الأم لم يريا بأسا فى هذا . ولم تكن هذه هى القصة الوحيدة التى دوّنت ، بل هناك قصص أخرى كتبت بطريقة سافرة . فمثلا نرى أن « بتاح تاتنن » قد أكد لرمسيس الثانى أنه قد تنبأ بالأعمال العظيمة التى



٣٨ - ولادة الابن الملكى ومن الآلهة الذين يساعدون الملكة خنوم، ورأسه على هيئة رأس كبش وحقت ورأسها على هيئة رأس ضفدعة (صورة فى معبد الأقصر) انظر :

Gayet, Luxor, pl. 66

سيصنعها له هذا الملك فقال : تقمصتُ صورة « تيس منديس » واضطجعت بجانب أمك الجميلة لكى تلدك وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية »[1] . هذه القصة دوّنت فوق جدران معبد أبى سمبل الجميل[2] الذى بناه رمسيس الثانى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وليس من شك فى أن تعبير الإله أنه تقمص صورة التيس قد نبا عن الذوق .

وما دام الملك قد ولد كابن للإله فلا بد أنه لايموت ميتة الآدمى ، فاذا ما انتهت حياته السعيدة فهو يصعد إلى السماء ويندمج فى كرسى الشمس التى خرج منها[3] .

وهناك أشياء أخرى اكتسبها الملوك من تلك الحقيقة التى اعتبروها من خصائصهم كأولاد للإله وكائنات إلهية ؛ فهو يحمل فوق رأسه الصل مثله فى ذلك مثل إله الشمس . والصل كما قلنا فيما سبق هو ذلك الثعبان الذى يحرق الأعداء بزفيره النارى ، وأصبح الصل هو الرمز الملكى يضعه الملك فوق جبينه أو فوق تاجه . وأهمّ من ذلك أيضا أن أصبح الملك كنتيجة لهذه الاعتقادات الرسمية يتصل خاصة بالآلهة ؛ فهو منهم وهم آباؤه وهو ابن لهم . ومن الطبيعى أن علاقة البنوّة بينه وبين الآلهة لم تكن

---

(١) قارن Rougé Inscriptions Hieroyl. 131, 3

(٢) قارن L. D. III, 194 كما قام رمسيس الثالث بنقش هذه القصة فوق جدران معبده بمدينة هابو .

(٣) قارن Urk. IV, 54

تعتبر أمرا جديا ، وكان كل إله أو إلهة فى المعبد يخاطبه على أنه اينه أو ابنها كما كان يدعوهما على أنهما أبوه وأمه . وقد جاء حتى فى الزمن القديم أن التاسوع بأكمله وهو مؤلف من تسعة أشخاص قد أنجب الملك : حقا إننا هنا فى مجال ليست الكلمة فيه للعقل * ، وعلى كل حال كان لهذه المعتقدات تأثير قوى على الدين ، ونخص بالذكر الملك كنصف إله ، إذ كان سببا فى أن أصبحت الطقوس الدينية التى تتبع فى المعبد غير مفهومة لدى الشعب بعيدة عن إدراكه . فالآلهة لم تكن آلهة الشعب بل كانت آلهة الملك ابنها . فهو الذى يشيد لها المعابد ويحضر لها القرابين ، وهو صاحب الحق فى رؤيتها ، وإذا قام الكهنة بهذه الأعمال فإنما يقومون بها كممثلين له . وإذا ما أسبغت الآلهة على مصر طيباتها فلا يحدث ذلك من أجل الشعب بل حبا فى ابنهم . وسوف نعود إلى هذه النقطة المبهمة من الدين المصرى فى الفصل الثانى عشر من كتابناهذا .

وإذا كان هذا هو تأثير الملكية القوية على الدين بحيث أصبحت جزءا منه ؛ فهناك أيضا بعض طبقات الشعب التى اتصلت بالدين ولعبت دورها المهم فى تطوره . ونخص بالذكر تلك الطبقة التى اعتبرت فى مصر القديمة صاحبة النفوذ الأعلى فى الدولة طبقة الكتاب أو قل الموظفين وأفرادها هم الذين يكتبون ويحسبون ويقاضون ، ولقد اتخذوا من الإله تحوت إله القمر حاميا لهم . وهذا الإله هو الذى يقسم الزمن إلى شهور وهو الذى ينظمها . أى بمعنى آخر هو الذى ينظم شئون العالم . وإذا كان إله الشمس هو حاكم العالم فان « تحوت » هو أعظم الموظفين شأنا هو الوزير الذى يقف بجانبه على سطح سفينته ليتلو عليه شئون الدولة [1] . هو « القاضى الذى يحكم فى السماء [2] ويقضى فى منازعات الآلهة ، ويتنبأ للآلهة والبشر بما سيحدث لهم . هو الذى يشيد المدن ويضع حدودها . ثم هو أيضا العالم « سيد الكتب » [3] ورب كلمات الآلهة » أى الكتابة المقدسة . فهو الذى أعطى الناس الكلمات والكتابة .

---

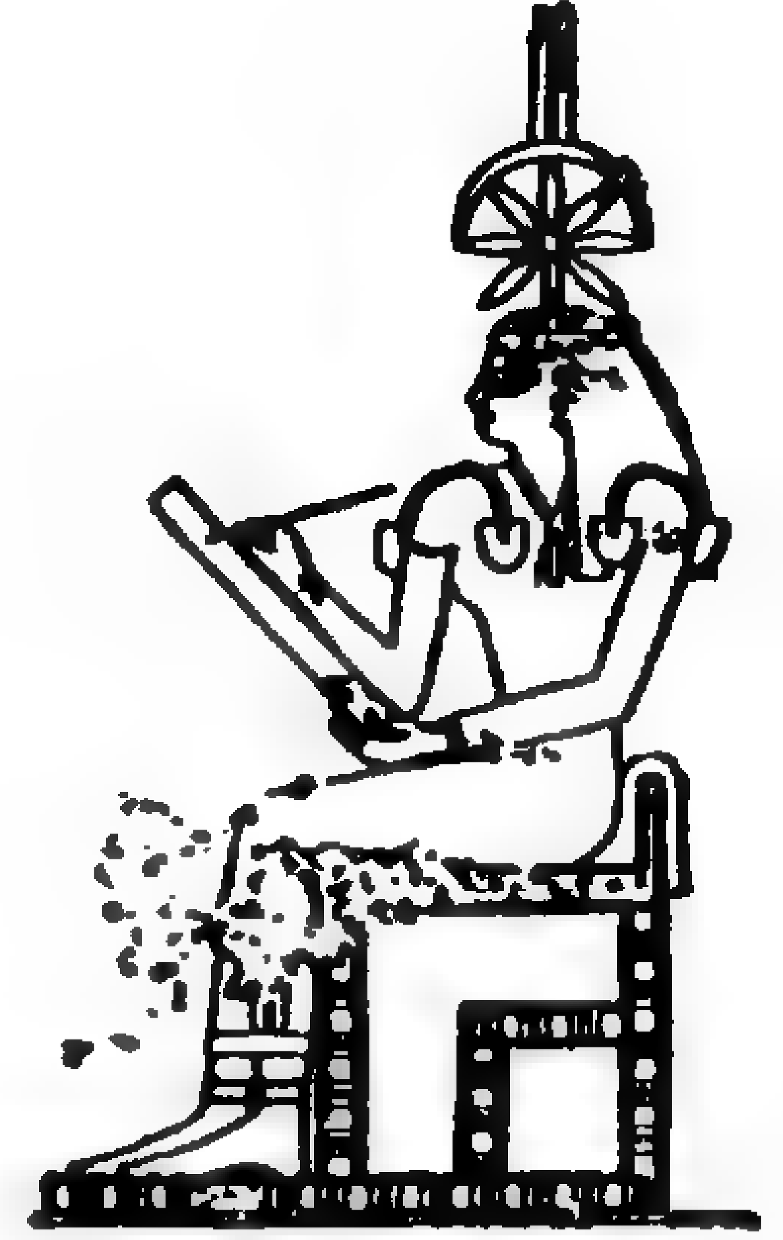
* وقد حدث فى بعض الأحيان أن أحد حكام الأقاليم ممن لا يمتون للملكية بصلة ادعى بأنه ابن «تحوت» وأن التاسوع أنجبه وأنه من نطفة الإله رع .

(١) قارن الصورة على ص

(٢) Berlin. Aeg. Inschr 'I 41

(٣) Urk. IV 53

ومن أخلص له يجزيه أحسن العطاء بأن يمنحه المعرفة ويعلم الكتّاب الحساب [1] الصحيح . وهكذا كان « تحوت » ممثلا لأعظم الناس شأنا فى مصر ، ومن أجل ذلك اعتبر (كما ستتحدث عن هذه النقطة فى الفصل الحادى والعشرين) « هرميس مثلث العظمة » أعظم آلهة مصر طرًا .



٣٩ – سشات من معبد نحورع (الأسرة الخامسة)

وكان للإله « تحوت » زميلة تقاسمه وظيفته ككاتب وعالم هى الإلهة « سشات » الكاتبة وسيدة دور الكتب – أى المكتبات – [2] وكانت هى الإلهة الأولى التى كتبت [3]، وقد كانت فى الأصل هى الإلهة « نفتيس » [4] ووظيفتها أن تسجل أعمال الملوك [5] وتنقش أسماءهم على شجرة فى معبد « هليوبوليس » [6] بينما يقوم « تحوت » بتسجيل سنى كل ملك على غصن طويل (راجع لوحة رقم ٢) . وهناك زميلة أخرى تفوق الإلهة « سشات » فى الأهمية هى الإلهة « ماعت » ربة الحقيقة التى تعرف أهل الطبقة الممتازة على آلهتهم – وهذه الإلهة لاتعتبر كائنا من لحم ودم . بل هى ذلك الشىء المجرّد « الحقّ والحقيقة » ولذلك نعتبرها من مظاهر الديانة المصرية التى تبعث على الاهتمام – ويصوّرونها كإلهة [7] تحمل شارة على شكل ريشة عقاب ، ولا ندرى السبب الذى جعلهم يختارون هذه الشارة بالذات [8] . ولم يصل تقديسها فى العصور القديمة إلى درجة تشييد معبد لها تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين . ولكنها

---

(١) Urk. IV, 20

(٢) Urk. IV, 252

(٣) وكذلك فى معبد دندره Düm. Geogr. Inschr. IV,134

(٤) Pyr. 616 حيث أطلق عليها لقب « رئيسة البنائين » ولا ندرى سببا فى هذا الخلط لأن نفتيس لم نعرفها إلا فى صورتها التى شهرت بها فى قصة أزوريس . وعلى كل حال فقد خلط المصريون بين سشات وبين حاتحور وإيزيس .

(٥) قارن Borchardt, Grabmal des Sahure Taf. I

(٦) L. D. III, 169

(٧) ويرجع عدم تصورها كإله إلى أن الاسم يعتبر مؤنثا .

(٨) راجع Mariette, Dendara, I,73 A; II, 26; III, 38

حظيت بتقدير كبير فى أوساط المتعلمين ، ولا غرابة فى ذلك « فالحقيقة » هى باستمرار أهمّ دعامة للكمال الخلقى فى عالم تسوده الفضيلة . ولقد قال عنها أحد الملوك المصريين : « هى خبزى ، وإنى أشرب من نداها » [1] . وكان القاضى الأوّل والوزير يسمى نفسه كاهنها ، ويحمل صورتها فوق صدره كشارة لوظيفته . ثم فى آخر الأمر اندمجت فى تلك المجموعة التى سميت بحاتحور ولقبت « ابنة رع » سيدة السماء ، حاكمة القطرين ، عين رع التى لامثيل لها [2] » . ومع هذا يجب أن لاننسى بأنها كانت فى الأصل فكرة اصطنع الناس منها شخصية — حالها فى ذلك حال فكتوريا عند الرومان — .



٤٠ — معات

(برلين ٩٤٦٨)

وهناك طبقة أخرى متعلمة ، غير طبقة الموظفين اتخذت لنفسها من مجموعة الآلهة حاميا خاصا لهم . نقصد بذلك الأطباء الذين تمتع فنهم بشهرة كبيرة عند المصريين . فلو أنهم اتخذوا من تحوت قائدا لهم « فهو الذى يمنحهم الكلام والكتابة والذى يصنع لهم قوائم الأدوية (التذاكر الطبية) . ويكتب النجاح لكل من اتبعه من العلماء والأطباء [3] » إلا أنهم اختاروا راعيا خاصا بهم هى الإلهة « سخميت » إلهة منف على شكل الأسد [4] . وفى العصور المتأخرة عندما أصبح الوزير القديم « أى أم حتب » إلها للأطباء جعلوا من سخميت أمّا له .

وكذلك اختار الفنيون والصناع الذين لاتزال أعمالهم تفوز بتقديرنا وإعجابنا حتى الآن إلها يحميهم ، فقد رعاهم بتاح إله ممفيس الذى كان هو نفسه فنانا بين الآلهة . وكان رئيس كهنته بمثابة القائد الأعظم للفنانين . ولقد وجههم هذا الإله بالفعل وخصوصا إبان عصر الدولة القديمة حينما لعبوا دورهم المهمّ فى حياة ملوك هذه الأسرة [5]

---

(١) Urk. IV 385

(٢) من عصر رمسيس الثانى Berl. Aeg. Inschriften II, 317

(٣) Ebers I, 8

(٤) Ebers 99, 2 وهناك طبيب الملك سموزع الذى أطلق على نفسه اسما يحوى اسم «سخمت»

(٥) قارن Urk. I, 38

وإذا كنا لم نعثر على علاقات مماثلة لتلك التى ذكرناها بين بعض الطبقات الأخرى من الشعب وبين آلهة لهم ، فان لهذا ما يسوّغه ، فمثلا الجنود لم يلعبوا دورا هاما فى مصر فى العصور القديمة ، كما أن الفلاحين وهم السواد الأعظم من أفراد الشعب لابد أن كانت لهم آلهتهم التى تحميهم وترعاهم ، ولكنهم لم يتركوا لنا وراءهم عمارات مشيدة أو آثار حجرية . ولكن الحال تغير فى الدولة الحديثة وبدأنا نلاحظ تغلغل أفراد هذه الطبقات فى الحياة الدينية .

ومما يبعث على الدهشة أن المصريين كثيرا ما تحدثوا — علاوة على آلهتهم المعينة عن « إله عام » ويحدث ذلك عادة فى الأدب عندما يفكرون فى تلك القوّة التى تتحكم فى مصائر الناس . فمثلا يقولون : « ما يحدث هو أمر الله » [1] ؛ « صائد الطيور يسعى ويكافح ولكن الله لايجعل النجاح من نصيبه » [2] . « ما تزرعه وما ينبت فى الحقل هو عطية من عند الله [3] » ، « من أحبه الله وجبت عليه الطاعة » [4] . « الله يعرف أهل السوء » [5] ، « إذا جاءتكم السعادة . حقّ عليكم شكر الله » [6] . وربما كان المقصود بالله فى كل حالة من هذه الحالات على حدة هو « إله الشمس »[7] مثلا أو « الملك » [8] أو « الكا » [9] التى سنتحدث عنها فى الفصل الرابع عشر . ولكن على العموم لابد وأن ساورتهم تلك الفكرة الغامضة عن الله وقدرته وجبروته وهناك فقرة وردت فى كتاب قديم من كتب الحكمة [10] تقول : « إن الله خفىّ ولذلك وجب على الناس تقديس صورته كبديل له » هذا إذا كان المصريون قد قصدوا ما فهمنا نحن من هذه العبارة .

هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة ، ولو أنهم فى واقع الأمر تعلقوا أيضا بدينهم الموروث وبقوا عبادا أمناء لآلهتهم .

---

(١) Erman. Litt. S. 89
(٢) Erman. Litt. S. 104
(٣) Erman. Litt. S. 9 i
(٤) Erman. Litt. S. 97
(٥) Erman. Litt. S. 112 , 100
(٦) Erman. Litt. S. 111, Urk. I, 39
(٧) Erman. Litt. S. 119
(٨) Erman Litt. S. 9 i
(٩) Op. Cit S. 90
(١٠) Op. Cit. S. 118

الفصل الخامس

أساطير الآلهة

تحدثنا فيما سبق عن الأساطير التي حيكت حول تلك المعبودات البسيطة فأبرزتها وغيرت من معالمها . وإن ذلك الفيض الكبير من الإرشادات والتعليقات التي نجدها في كل معبد والتي تفسر أعياده وتقصّ قصة لكل صورة من صوره لترينا إلى أيّ حدّ بلغت تلك الأساطير من ذيوع . ولأن المصريين منذ أقدم العصور يعشقون القصص الخرافي ؛ لذلك نجد أن هذه القصص قد حيكت وتداولها الناس كأساطير محببة إلى نفوسهم قريبة إلى قلوبهم ؛ لأن الآلهة فيها تشبهوا ببني الإنسان فهم يتعاملون ويحبون ويكرهون ، ومن ثم فقد خلعوا عنهم في ذلك الرداء الذي يجعلهم بعيدين عن متناول يد الإنسان، ويبدو أن القصاصين قد استجابوا إلى رغبة عامة الشعب وانزلقوا في هذه الاستجابة إلى أنهم ألصقوا بمعبوداتهم صفات لاتتفق مع جلالها وعظمتها . وهذا مما يثير دهشتنا إلى حدّ بعيد . وإذا حدث أن تحدث الناس بقصة معينة عن إله في مكان معين فلا تلبث هذه القصة أن تنتشر في البلاد تختلط تارة وتمتزج أخرى بقصص الآلهة الأخرى الخاصة بالأماكن المختلفة التي تنتشر فيها كما يحدث أيضا أن تصبح بعض هذه الأساطير مشاعا بين جميع المصريين .

وفي آخر الأمر لم يستطع الدين الرسمي الذي يعتنقه الكهنة ويمارسونه في المعابد أن يصمد لهذه الأساطير ، فتسرّبت إليه الواحدة بعد الأخرى ولكن بعد أن نزع عن الكهنة بعض الأوهام التي ألصقوها بالآلهة : ولو أنهم لم يستطيعوا انتزاع كل الصفات التي حاكتها هذه الأساطير حول الآلهة . فالإله « ست » مثلا بقي معتبرا في المعبد كقاتل أزوريس ، ولكن هذا الأخير لم يستطع أن ينزع من « ست » صفته كإله جبار قويّ . وبدأ تسرّب هذه الأساطير إلى الدين الرسمي منذ العصور القديمة واستمرّ بعد ذلك ، وكلما ظهرت أسطورة جديدة بين الشعب وكتب لها

الانتشار والذيوع كلما طالب أهل التقوى من الشعب ألا يحرموا منها فى المعبد .

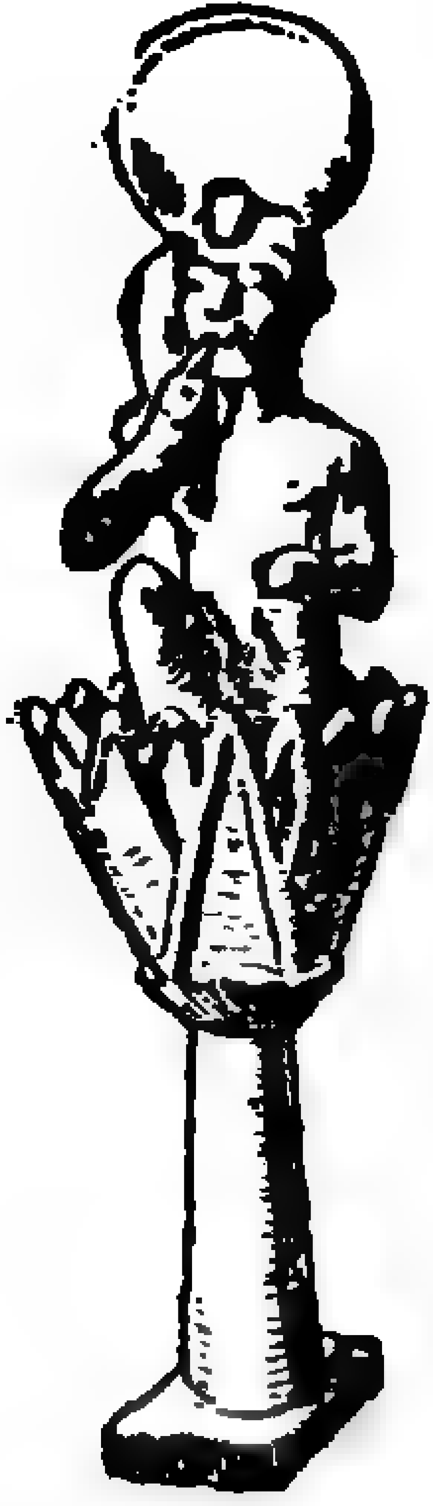
ولقد وصلتنا هذه الأساطير بصور مختلفة : فهناك الصورة التى قبلها الدين الرسمى وعلى أساسه تسرّبت إليه ، وهى صورة بسيطة قصيرة ولهذا لم تكن واضحة . أما الصورة الأخرى فهى التى احتفظت بشعبيتها ولكن للأسف غالبا ترجع هذه إلى العصور المتأخرة ، وأخيرا هناك تلك الأساطير التى أفقدها قصاصوها لونها الدينى ؛ فمن يقرأ قصة الأخوين الممتعة لايستطيع أن يتصوّر أن هذين الفلاحين « أنوبيس » و « باتا » هما فى الحقيقة ليسا إلا إلهين ، وذلك لأن ما بقى لهما من هذه الصفة لايتعدّى اسميهما .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن هذه الأساطير جعلت من الآلهة كائنات حية لكل منها صفاته الخاصة . بل هى التى دفعت الناس إلى الشعور نحو البعض منها بالحبّ ونحو البعض الآخر بالكره والبغضاء ؛ فالأساطير هى التى جعلت من « إيزيس » إلهة طيبة ومن « ست » إلها مكروها .

وإذا تساءل الأنسان عن العالم ونشأته فليس من شكّ أنه حاول الإجابة على ذلك متأثرا بما كان يلاحظه من مظاهر الطبيعة التى تتغير وتختلف طوال العام . فتختفى حقول مصر مرّة كل عام فى لجة من المياه لاتلبث أن تنحسر عنها رويدا رويدا . فاعتقد المصرى أن الأرض أيضا قد برزت من الماء . وتصوّروا أن مكانا عاليا من الأرض كان أوّل ما ظهر على سطح ذلك الخضمّ القديم الذى سمونه « نون » وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم ، فهو التلّ الموغل فى القدم أو كما قالوا : « التل المزدهر الذى ظهر فى أوّل العصور » وحدّدوا مكانه فى مواقع مختلفة من مصر .

وفوق هذا التل القديم ظهرت المعالم الأولى للحياة ؛ إذ سكنت فيه الضفادع والثعابين وهى من الكائنات التى تتفق مع ما يغمر هذا المكان من ظلام ورطوبة ، وسميت هذه الكائنات بأسماء استمدّت من طبيعة هذا المكان : الليل ، الظلام ، الاختفاء ، الذبذبة وغير ذلك ، وكان عددها ثمانية ، ومدينة شمون تحمل أسماءها فاسمها يعنى « الثمانية » . وكان هناك شىء آخر فوق هذا التلّ الطمى . شىء يتناسب

مع طبيعة هذا العالم الطينى المجدب ، هذا الشىء هو بيضة طائر مائى [1] خرجت منها أوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار واضح فهى الشمس التى طارت صائحة (ومن أجل ذلك سميت : « الصائحة الكبيرة ») فوق سطح الماء . فكان ذلك بمثابة الضوء الأول والصوت الأوّل الذى أضاء الظلام الدامس ، وانطلق فى ذلك الصمت الأزلى الذى خيم فوق العالم .



٤١ – إله الشمس الشاب فى زهرة اللوتس

وهناك أسطورة أخرى تقول بأن زهرة لوتس نبتت من الماء الأوّل [2] وكان يجلس فيها طفل الشمس ، ثم تضيف أسطورة ثالثة على ذلك فتقول : إن بقرة كانت تسبح فى الماء [3] وجلس فوق ظهرها إله الشمس الطفل . وهذه كلها تخيلات استمدّها المصرى من بيئته أثناء الفيضان . وفى هليوبوليس ظهرت تلك الأسطورة التى تقول بأن الشمس ظهرت هناك على الحجر المسمى بالبنبن . أما ماحدث من تطوّر هذه الأسطورة وكيف أن إله الشمس قد أخصب نفسه فولد الآلهة الأولى ، ثم كيف تزاوجت هذه الآلهة فتكاثرت ، وكيف خلق إله الشمس البشر من عينه ، كل هذه سوف نسردها ونبحثها فى الفصل المقبل عند حديثنا عن « اللاهوت » فهى كلها أشياء لاتعنى الشعب بمثل ما تعنى طائفة العلماء الكهنة .



٤٢ – شو يرفع نوت بينما يرقد جب إلى أسفل وعلى نوت سفينة الشمس (برلين ٨)

ولقد كان العالم الذى برز من الماء الأزلى لايزال مضطربا إذ لم تكن السماء قد انفصلت عن الأرض وكانت إلهة السماء نوت مستلقية فوق زوجها إله الأرض « جب » ولكن

Lacau, Textes Relig. S. 133 (١)

Kees, Ag. Z. 57, 116 ff. (٢)

(٣) لعلهم هنا قصدوا بقرة السماء .

أباهما « شو » إله الهواء زجّ بنفسه بينهما ورفع السماء إلى أعلى ورفع معها كل حىَ خلق ، أى كل إله « ومعه سفينته » فاستحوذت عليها نوت وقامت بتعدادها وجعلت منها نجوم السماء [1] ولم تستثن منها الشمس وأصبحن جميعا يجبن بسفنهن جسم « نوت »

وهكذا كانت نشأة عالمنا هذا ، إذ أنه منذ انفصال السماء عن الأرض اتخذ الكون وكائناته الشكل الذى نعرفه ، ولم يكن هناك من اتصال بين العالم العلوى والآخر السفلى سوى « عظام شو [2] الذى تحمل ذراعاه الجميلتان نوت » [3] .

وبعد أن انفصل إله السماء عن الأرض عين إله الأرض حاكما عليها « أعطى كب ما ورثه وسلمه التاسوعة بأكملها » (أى الآلهة الكبرى) وهكذا قالت الآلهة عن « كب » أميرنا ، أمير الآلهة . إذا نادانا نهرع إليه ونصبح زملاء له يقضى بين الآلهة (كزعيم للتاسوعة) آباءه وأمهاته ، وهو أقوى من كل إله[4] . وهكذا حكم « كب » الآلهة فوق الأرض كما استقلت نوت بالسماء « فمدت سلطانها على الآلهة وعلى أرواحها وما ورثوه وعلى أقواتهم وما يملكونه » [5] .

ومن الغريب حقا أن سيادة إله الشمس (الذى كان حاكم العالم) لم تعتبر من القضايا المسلم بها ، فمنذ العصور الأولى اعتاد أطفال « الضعفاء » أن يكفروا بسيادته هذه [6] وكانوا ينتظرونه فى الصباح عند الشرق أى عند ما يكون طفلا ليمزّقوه إربا فنشب قتال عنيف فى كل مكان « فى السماء وفوق الأرض » كان النصر فيه إلى جانب إله الشمس وقدمت له أفواج الأعداء فى جزيرة اللهب فى شمون ، وهنا تستطرد الأسطورة [7] فتزيد أعجوبة لانفهم مغزاها نحن : بعد أن انتصر رع على أعدائه ووضع الحقّ مكان الباطل دسّ بأنفه فى زهرة لوتس ولم تكن هذه الزهره سوى « نفر ـ تم » أحد الآلهة الصغرى فى معبد ممفيس .

---

(١) قارن Pyr. 785

(٢) Pyr. 208, 393

(٣) Pyr. 1471

(٤) Pyr. 1618, 1619, 1645, 1834,

(٥) Pyr. 824

(٦) Totb. 17. وقارن رسالة جرابو Grapow's Dissertation S. 36

(٧) Pyr. 265. 266

وفى هليوبوليس عرف الناس أيضا أن رع قد قتل الأعداء هناك ولكنه كان متقمصا صورة قط كبير ، وأن ذلك حدث بالقرب من شجرة لاشكّ أن الناس قد صوّروها فى المعبد فيما بعد [1] .

وهناك ثورة أخرى حدثت أثناء حكم رع تعتبر أسطورتها أكثر حيوية وأكثر قربا لما يحدث بين البشر [2] .

لقد حدث أن بسط رع سلطانه على الآلهة والبشر . وبعد أن تقدم الزمن برع ودبت فيه الشيخوخة « فأصبحت عظامه من فضة ، وأعضاؤه من ذهب وشعره من اللازورد الحقيقى » لاحظ الناس ذلك ودبروا له سوءا ، ولكن نواياهم هذه لم تخف عن الإله وقال لأحد أتباعه « ناد لى عينى » وكذلك « شو » و « تفنوت » و « كب » و « نوت » وكذلك كل الآباء والأمهات الذين كانوا معى عندما كنت فى الماء « نون » وكذلك الإله « نون » . . . . وعليك أن تقودهم إلىّ فى صمت حتى لايراهم الناس فتهرب أفئدتهم . وعليك أن تحضر مع هذه الآلهة إلى القصر « وعندما أحضرت هذه الآلهة إلى هناك ورأته ارتمت على الأرض أمام جلالته قائلة « تحدث إلينا لنسمعك » فقال رع لنون « أنت يا أقدم الآلهة ، الذى منه خلقت ، وأنتم أيتها الآلهة الأجداد . هل رأيتم بنى الإنسان الذين خلقتهم من عينى كيف يأتمرون ضدى . صدقونى ماذا أنتم صانعون بهم . لم أود قتلهم قبل أن أسمع منكم ماذا ستقولونه أنتم . فتحدث جلالة الإله نون فقال : ابنى رع ، الإله الذى هو أعظم من أبيه وخالقه ، ابق أنت جالسا على عرشك فإن الخوف منك لعظيم ، وخصوصا إذا ما صوّبت عينك نحو المتآمرين عليك » .

وعندما صوّب رع عينه نحوهم هربوا إلى الصحراء وقلوبهم كانت تخشى عاقبة ما بدر منهم ، ولكن الآلهة نصحوا رع بعد ذلك أن يرسل إلى المتآمرين عينه لتبطش بهم ، فأرسل عينه التى نزلت إلى الأرض على هيئة الآلهة حاتحور ، ثم

---

(١) Totb. 17, 54

(٢) هذه القصة وردت فى كتاب « هلاك البشر » وهو كتاب يتعلق بأمور سحرية وورد مكتوبا على كثير من مقابر الملوك من عصر الدولة الحديثة كما ذكرت هذه القصة فى حكم مرى كارع قارن Erman, Litt. S. 119

رجعت هذه الإلهة بعد أن قتلت البشر فى الصحراء ، فحيا جلالة هذا الإله قائلا : « أهلا بحاتحور . . . . فأجابته هذه الإلهة : وحياتك لقد كنت جبارة مع الناس وهذا يسعد قلبى » .

ولكن رع خشى أن تبيد حاتحور فى اليوم التالى البشر ولذلك قال : « نادوا لى على التوّ رسلا مسرعين يجرون مثل الظلّ » ، وفى الحال أحضروا له رسلا من هذا النوع ، وقال لهم جلالة هذا الإله : « أسرعوا إلى اليفنتين وأحضروا لى كثيرا جدا من « الديدى » ، (ويبدو أنها مادة تصبغ إلى اللون الأحمر) وأعطوا هذا الديدى إلى الإله « ذى الضفيرة فى هليوبوليس » وقام هذا الإله بطحنها على حين قامت خادماته بتحضير الجعة « البيرة » من الشعير ، وخلطوا بعد ذلك الديدى مع الجعة فأصبح سائلا يشبه « دم البشر » فملئوا ٧٠٠٠ إبريق من هذا الجعة ،وحضر جلالة الملك رع مع الآلهة ليروا هذه الجعة ، وعندما أصبح الصباح الذى ستقتل فيه هذه الآلهة الناس قال : « سأحمى الناس منها . . . فاحملوا هذا إلى المكان الذى تنوى قتل الناس فيه » فنفذوا هذا الأمر وصبوا الجعة هناك حتى غمرت الحقول وارتفعت عنها بمقدار أربعة أمتار . وفى الصباح خرجت الآلهة ووجدت المكان مغمورا ورأت وجهها معكوسا على السائل بشكل جميل فشربت منه واستطابت طعمه وقفلت راجعة وهى ثملة فلم تتعرّف الناس » .

وإذا كان الإله العجوز قد حفظ بنى الإنسان من الهلاك إلا أنه لم يرغب فى البقاء سيدا على هذه المخلوقات الناكرة للمعروف ولقد قال متململا « وبحياتى لقد تعب قلبى من وجودى معهم » وهنا تدخل نون العجوز فى الأمر ونادى على ابنته « نوت » التى على شكل بقرة وجلس رع على ظهرها فرفعته إلى السماكين وتكوّنت بذلك السماء ، ولكن عندما ألقت نوت بنظرها إلى أسفل « ارتعشت من شاهق الارتفاع » فنادى رع الإله « شو » وقال له : « ابنى « شو » ضع نفسك تحت ابنتى « نوت » وخذها فوق رأسك » فنفذ « شو » ما أمر به وسند منذ ذلك الحين بقرة السماء التى تلمع النجوم على بطنها وتتحرّك الشمس فوقها فى قاربها هنا وهناك .

ويحدثنا كتاب التعاويذ نفسه (الذى نقلنا عنه هذه الأسطورة) عن القمر ونشأته

فيقول بطريقته التى عرفناها فيما سبق : « عندما كان رع يسكن السماء قال مرة : نادوا لى تحوت ، فأحضروه إليه فى الحال ، فتحدث جلالة هذا الإله إلى تحوت قائلا : « فلتكن أنت فى السماء فى مكانى إبان تلك الفترة التى أُضئ فيها الدنيا السفلى . . . فأنت فى مكانى هذا كنائب عنى ، ولسوف يدعوك الناس بنائب رع » ويصاغ حديث رع هذا فى أسلوب يعتمد على اللعب بالألفاظ فينشأ عن ذلك أشياء مختلفة فهو يقول « وسوف أجعلك تحتضن (ionh) السماء بجمالك وبأشعتك فينشأ عن ذلك القمر (ioh) » ، ثم فى مناسبة أخرى خاصة بتحوت كنائب لرع ، يقول « سأرسل (hob) إليك من يفوقك عظمة ، فنشأ « ايبس » (hib) طائر تحوت » .

وانتشرت فى كثير من الأساطير المصرية القديمة طريقة اللعب بالألفاظ وهى التى أدت إلى نشأة أشياء كثيرة ، ويمكن لنا أن ننسب هذه الظاهرة إلى اهتمام المصريين وتعلقهم بتحميل اللفظ الواحد معانى كثيرة يحوى كل معنى شيئا من كنه هذا الاسم ، فمثلا « إله الشمس » كاسم أعطى صاحبه صفتين « الذى خلق نفسه » و « الذى أنشأ اسمه » .

والتاريخ الذى نسرده هنا يتعلق بأسطورة « عين الشمس » ، وعين الشمس هذه كما شرحنا ذلك فيما سبق كانت هى النجم نفسه ؛ ورأى فيها الناس أيضا ذلك الكائن المخيف الذى أوقف نفسه على خدمة رع ، وأحيانا كانت عندهم كواحدة من الآلهات العظمى .

ولقد لاحظنا وسوف نلاحظ ذلك أيضا على الصفحات التالية أن هذه العين كانت تعتبر مستبدة ؛ وهناك قصة وصلت إلينا ولكن للأسف لم نفهم منها إلا نصفها [2] تتحدث عن هذه الصفة : وحدث ذات يوم أن أرسل رع عينه فى مهمة (لابد وأن كانت مكافحة بعض أعدائه) ولكنها لم ترجع فأرسل « رع » لإحضارها

---

(١) Totb. ed. Naville 17, 6

(٢) قارن Budge, Nesiamsu S. 168 ff. هذا الكتاب وضعه بعض رجال السحر فى العصور المتأخرة، وكانوا أنفسهم لا يفهمون المصادر التى نقلوا عنها فهما تاما ، ومن أجل ذلك راجع النص القديم فى Totb. 17 وكذلك Grapow,s Dissertation S. 30 ff.

كلا من « شو » و « تفنت » فأغضبها ذلك كل الغضب ، فبكى « رع » ومن دموعه كانت البشرية — وهنا نجد لعبا بالألفاظ بين « رميت » بمعنى دموع و« رميت » بمعنى البشر ، ثم « زاد حمق العين عندما رجعت ووجدت عينا أخرى قد نمت فى مكانها » وعندئذ (كما أحاول أن أفهم ذلك من النص) وضعها الإله على جبينه كثعبان — ومنذ ذلك الوقت حكمت عين الشمس العالم بأجمعه ، ولا غرابة فى ذلك فإن هذا الثعبان الذى حمله « رع » فوق جبينه هو رمز قوّته . أما « شو » فأصبح هو الآخر منذ ذلك الحادث يسمى « أونوريس » أى الذى أحضر البعيدة [1] .

وهناك نصّ جميل يتحدث عن أسطورة اعتبرت فيها عين الشمس بمثابة بنت للإله ؛ فأحيانا يسميها مدفوعا بحبه العظيم لها « درتى » وأحيانا أخرى « عينى » ولما ماتت [2] طلبت إلى أبيها فى موتها أن يسمح على الأقلّ لصورتها أن ترى الشمس مرّة فى كل عام . هذه الأبنة كانت هى « حاتحور » — أى عين الشمس — واعتاد الناس حمل صورتها فى معبدها بدندرة والصعود بها إلى سطح المعبد لكى ترى إله الشمس .

ومن الأسطورة التى ذكرناها ، والخاصة بعين الشمس التى أرسلت فى مهمة ثم أعيدت مرّة أخرى ، اشتقت قصة وصلت إلينا من المعابد التى ترجع إلى العصر اليونانى [3] فى مصر ، ويبدو أنها كانت قد انتشرت بين الناس انتشارا كبيرا : سكنت الآلهة « تفنت » فى صورتها كلبوءة متوحشة الصحراء النوبية وكانت تمزّق أعداءها إربا والنار تشعّ من عينيها وتخرج من فمها ، ثم أراد « رع » أن تكون بالقرب منه ، فأرسل إلهين فى طلبها هما أخوها « شو » الذى كان أيضا على شكل أسد جبار و « تحوت » إله الحكمة والطلاسم — وتقمص هذان الإلهان صورة قردين ورحلا إلى بلاد النوبة حيث تقابلا مع اللبوءة فى الصحراء ، وتتقدم « تحوت » فى صورة قرد صغير أمام ذلك الحيوان الجبار (كما يظهر ذلك فى منظر على جدران « معبد « دكه ») وبدأها بحديث ودى عن الحياة وجمالها فى مصر وعن استعداد المصريين

---

(١) راجع Sethe, Sonnenauge S. 26, Junker Onurislegende S. 5

(٢) Dekret Von Kanopus Z. 28, 55, Herodot II. 129-132

(٣) اكتشفها يونكر وطبعها فى Abh. Berl. AK. 1911 ، وراجع أيضا Sethe, Sage von Sonnenauge ، وكذلك Junker. Onurislegende

تقديم أنواع صيد البرّ والنبيذ إليها ، فرقت الآلهة لحديثه ورافقتهما إلى مصر وفى « فيله » أقصى الحدود الجنوبية لمصر أطفأت نارها[1] فى مياه المكان المقدس فتحوّلت من لبوّة إلى إلهة جميلة — وهلل الجميع لها واستقبلوها وأقاموا لها الحفلات ثم رحلت شمالا على ظهر سفينة وتوقفت فى أماكن عديدة وفى كل مكان استقبلت بالتهليل والفرح ، فنزلت فى « أومبوس » وفى « ادفو » وفى « الكاب » و « إسنا » وخصوصا فى « دندرة » التى أصبحت منذ ذلك الوقت مكانها المختار . ولا غرابة فى ذلك فهى ليست إلا الإلهة « حاتحور » أى الإلهة التى احتفل بها الناس تارة ك « سخمت » الشريرة ، وتارة أخرى ك « باستت » الطيبة .

ومما يدل على اعتزاز المصريين بهذه القصة فى العصور المتأخرة أنهم جعلوها إطارا لمجموعة شعبية من قصص الحيوان ، حفظت لنا على بردية من العصر الرومانى[2] وفى هذه القصص تقطن أيضا الإلهة « ابنة رع » وتُعتبر أيضا « قرص الشمس الكبير » بلاد النوبة ، وكانت تظهر على شكل الأسد فى حالة غضبها ، وإلا فإنها تتخذ شكل القطة « باستت » . أما « تحوت » وهو يظهر على شكل القرد (وهو الحيوان الذى يتفق معه راجع ص ٤٨) . وتسبب مهمته له حرجا كبيرا ؛ إذ أن الآلهة تهدد هذا الرسول المسكين بالموت وذلك لغضبها الشديد على أبيها الذى من أجله اضطرت إلى ترك مصر ، ومن الغريب أنها احتفظت بصورتها على شكل القطة مع أنها كانت غاضبة ، فأخذ « تحوت » يكرّر لها خطأها أن تقتل كائنا ضعيفا لأن الإنسان لايعرف ما يجيئه به القدر . وربما تحتاج إلى معونته . وضرب لها الأمثال . ومنها قصة الأسد والفأر ، وحدثها بأن نكل سيئة عقابها ، ثم نوّه أيضا بمصر وطنها حيث عاشت مرّة عيشة طيبة كإلهة عبدها الناس أجمعين وحيث يسود الناس الآن الحزن والقلق ، وأقلع الجميع عن الفرح والموسيقى ، وعندئذ بدأت القطة فى البكاء وانهمرت دموعها غزيرة كالمطر — ولكن ما فتئت أن انتابها ثورة غضب مرّة أخرى وتحوّلت إلى لبوّة « يتصاعد من حرارة معرفتها الدخان وأصبح ظهرها بلون الدم ، وكان وجهها يبرق كالشمس وعيونها تتقد من النار . . . وعمرت الصحراء

(١) قارن Jurken, Abaton S. 78

(٢) راجع Spiegelberg Mythus vom Sonnenauge

بأتربة تصاعدت من ضرب ذيلها إياها ، ولكن القرد عرف كيف يزيل هذه الثورة بتملقه ، فتحوّلت مرّة ثانية إلى قطة أخذ يقصّ عليها أساطير أخرى هدأت من نفسها وطيبت مزاجها ، وانتهى الأمر بها أن رضيت مرافقته إلى مصر ، وما وصلت إلى هناك حتى اتخذت الإلهة فى كلّ موطن من مواطنها الصورة القديمة لها . فتحوّلت فى مدينة الكاب إلى العقاب « نخبت » (ص ٦٠) وفى طيبة إلى الإلهة « موت » (ص ٣٨) وفى آخر الأمر تحوّلت إلى « تفنوت » وتصالحت مع أبيها رع . ولقد حدث أن تهددها خطر كبير فى مصر ؛ فى أثناء نومها دنا منها الثعبان الضخم « أبو فيس » فخلصها منه القرد الذى كان يجلس عند رأسها قائما على حراستها وهكذا كان فى ذلك تحقيق للعبرة التى قصها عليها فى أسطورة الأسد والفأر .

ووصلتنا هذه الأسطورة — كما أسلفنا — عن طريق نصوص ترجع إلى العصر المتأخر ، ولكن لابد وأن تكون هذه الأسطورة منتشرة على الأقل فى عصر الدولة الحديثة ؛ إذ أن هناك رسما على قطعة خزفية يرجع إلى عهد هذه الدولة وحاول الفنان أن يصوّر عليها القطة وقد جلس أمامها القرد يغريها على العودة إلى مصر .

وأسطورة الإله أوزيريس تفوق كل الأساطير التى تحدثنا عنها فيما سبق ، إذ تغلغلت فى الدين منذ العصور الأولى [1] ، بل وأثرت على بعض نواحيه ، ولو أن هذه الأسطورة فى أصلها بسيطة لاتتعدّى قصة ملك طيب قتله أخوه الشرير ، فأحضرت زوجته جثته ونجحت فى أن تردّ إليه الحياة ولكن ليست كاملة ، ثم عكفت على تربية ابنه فى كتمان مطلق ، حتى إذا ما ترعرع وصلب عوده انتصر على قاتل أبيه وجلس على عرشه . وهى كما نرى قصة جميلة فهم الشعب مغزاها الطيب . ويبدو أن هذه القصة انتشرت من موطنها الأصلى وهو شمال الدلتا [2] على أفواه

(١) وهناك دليل غريب يثبت لنا إلى أى عصر مبكر ترجع هذه الأسطورة . فعندما بدأ المصريون ينظمون « تقويمهم » حوالى عام ٤٢٤١ ق . م سموا أيام النسىء الخمسة بأسماء الآلهة الخمسة الواردة فى قصة أوزيريس . ولقد حدث ذلك فى مدينة هليوبوليس . وفى الواقع لقد استقر هؤلاء الآلهة الخمسة فى مدينة هليوبوليس فى عصر مبكر جدا ، وذلك لأن تاسوع هليوبوليس لم يتكون إلا من إضافة آلهة أسطورة يرزيس إلى الآلهة المحلية (راجع كتاب ادوارد ماير Chronologie ص ٩٠) .

(٢) ومما يرجح نشأتها فى الدلتا أسماء الأماكن الواردة فيها ، كما أن إزيس كانت قد أخفت رضيعها فى مستنقعات الدلتا ، وكذلك مدينة « ددو » مسقط رأس عبادة أوزوريس هى إحدى مدن الدلتا ، بل مقاطعة منجلق » هى إحدى مقاطعاتها .

القصاصين إلى جميع الأرجاء المصرية وأصبحت من بين التراث القومى للشعب المصرى مثلها فى ذلك مثل أساطير حرب طرواده عند الإغريق ، وكذلك أثرت أسطورة أوزوريس على الديانة المصرية تأثيرا بينا ، بحيث أصبحنا لانتصوّر هذه الديانة بدون قصة أوزوريس .

والآن ما هى العوامل التى أكسبت أسطورة أوزوريس كل هذه القوّة ؟ العامل الأول كان بلا شك هو الاعتقاد بأن الاستبداد والتعسف ليسا هما القوّتان اللتان تسودان العالم ، بل الحقّ والإخلاص . ثم العامل الثانى كان الاعتقاد بانتصار الإله المقتول على الموت . فلو أنه قد مات حقا إلا أنه قد استرجع الحياة ، ولو أنه تنازل عن حقّ السيادة على الأحياء إلى ابنه حوريس إلا أنه أصبح سيدا على الموتى ، أولئك الذين كانوا مثله يستحقون التمتع بحياة ثانية . ومن الواضح أن هذه كلها كانت أفكارا يتمسك بها الشعب المصرى منذ أول عصوره ، ولكن هذه القصة كانت بمثابة المثل الواضح الذى تبلورت فيه هذه الأفكار وأصبحت لهم بمثابة الحقيقة الواقعة وأخذ كل مصرى ينسج لنفسه حياة على منوال أوزوريس وإيزيس .

ولقد حدث أن اختلطت بعض الأشياء بقصة أوزوريس فى عصور مبكرة لاتمتّ بصلة ما لها . فمن البديهى مثلا أنه إذا كان الاسم الذى أطلقته القصة على الأخ الشرير لأوزوريس هو « ست » وعلى الابن المظفر له هو حوريس ، فذلك يرجع إلى الإلهين القديمين « ست » سيد أومبوس و « حوريس » سيد بحيدت ، وخاصة لأن كليهما كانا من بين الآلهة المحبة للقتال . وما دام الأمر كذلك فيجب أن يدمجا فى القصة . وكذلك كان الحال مع « العين » التى قدمها حوريس إلى أبيه فهى فى الأصل « عين حوريس » أى القمر الذى اعتقد الناس يوما ما أنه عين إله السماء حوريس . وهكذا لقد حدث لقصة أوزوريس ما يحدث عادة لكل أسطورة شعبية كلما انتشرت بين الناس واستتب بها الأمر كلما استوعبت فيها الكثير من المعتقدات التى تفيض بها قلوب الشعب ، ولو أنها لاتمتّ بصلة لقصتنا هذه .

ولو قدّر لقصة أوزوريس أن تحيا بين الشعب مدة طويلة دون مؤثرات لاتخذت شكلا مغايرا لما عرفناه عنها ، ولكن هذه القصة اعتبرت من صلب الديانة الرسمية

للبلاد فى عصر مبكر . وهكذا وقف تطوّرها وأصبحت منذ ذلك الوقت ثابتة الأصول ولو أن بعض تفصيلاتها تغيرت على ممرّ آلاف السنين ، وعلى المرء ألا يسائل عن القواعد التى بنيت عليها هذه القصة كأسطورة ، كما أننا سوف لانتساءل نحن هل كان هناك حقيقة ملك بشرى يحمل هذا الاسم ، أو إلى أىّ حد تتعلق هذه الأسطورة بمظاهر الطبيعة : أى بجفاف الحقول ثم بدبيب الحياة فيها بعد الفيضان مرّة كل عام .

ولقد تحدثنا فى ص ٤٩ عن الصور المختلفة الخاصة بأوزوريس بعد أن أصبح إلها ؛ فتارة صوّروه كماء الفيضان ، وتارة اعتبروه هو الأرض ثم عبدوه كإله للموتى . ولا نودّ هنا أن نتحدث عن هذه الصور . بل سنقصر الحديث على قصته كما وصلت إلينا من عصور مختلفة . *

ولقد وردت فى أقدم المتون الدينية بعض التلميحات لهذه القصة لاتتفق مع ماعرفناه عنها ؛ فمثلا نجد أوزوريس ابنا للإله « كب » والإلهة « نوت » ، وأن أخوه « ست » الشرير كان يتعقبه ، وشاركه فى هذه المؤامرة [1] أخ آخر هو « تحوت » وتمكن « ست » من أن يهزم [2] أخيه وقتله [3] ثم رمى به فى النيل فسبحت جثته فى الماء وكان لونها أخضر وأسود . ومن هنا أتت تسمية البحار تارة « بالأخضر الكبير » وتارة أخرى « بالأسود الكبير » [4] وعندما اختفى أوزوريس حزنت الآلهة بأجمعها وبكت إيزيس وصرخت نفتيس . أما إلهة مدينة بوتو — وهى موطن أوزوريس الأصلى « فقد أخذت تضرب لحومها وأذرعتها ونفشت شعورها » . والإلهان الوحيدان اللذان لم يبكيا هما « ست » و « تحوت » [5] . أما الجثة فقد بليت . ولكن « نوت » أم أوزوريس انحنت عليها « فضمت عظامها بعضها إلى بعض وأعادت

---

* عن تفاصيل هذه الأسطورة فى صيغتها التى سادت فى منف ، انظر الفصل السادس (صفحة ١٠٧)

(١) راجع Pyr. 163, 173, 175

(٢) Pyr. 1007

(٣) Pyr. 1477

(٤) Pyr. 628 ff., 1630

(٥) Pyr. 163

القلب إلى الجسم ثم وضعت الرأس فى مكانه [١] . أما إيزيس ونفتيس فقد بحثا فى كل مكان حتى عثرا على الجثة الملقاة فى الماء ، فأمسكت إيزيس بها وأخرجتها [٢] وأسرعت الآلهة لمساعدتها ، فرفع رع رأسه [٣] وأمروه بأن يستيقظ فاستيقظ أوزوريس واستقبل حياة جديدة ، فهو « الذى هجر النوم وكره التعب » [٤] وهكذا لم يتعفن جسد أوزوريس ولم يَبْلَ [٥] .

أما عن حوريس وكيف وضعت بذرته ، فقد تصوّرها الناس كما يأتى : تحوّلت إيزيس إلى طائر حطّ فوق جثة زوجها وحملت منه [٦] ، ثم وضعت حوريس وتعاونت مع نفتيس على تربيته ، وترعرع حوريس الطفل « الذى يضع إصبعه فى فمه [٧] » وتقاتل مع قاتل أبيه الذى انتزع منه عينه — وهنا تلميح إلى القمر كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق — كما انتزع حوريس منه خصيته [٨] . ولكن بعد أن انتصر حوريس فانه استرجع عينه من ست [٩] « وألصقها بأبيه أوزوريس وفتحها له لكى يرى بها [١٠] » . وهذه التضحية كنتيجة للحبّ البنوى جعلت أوزوريس يحيى ويقوى [١١] حتى أوقع الرعب فى قلوب أعدائه [١٢] . وهناك رأى آخر يقول بأن الابن أعطى الأب ليأكل أيضا [١٣] . وعندما دعى كب الآلهة للاجتماع فى قصر

---

(١) Byr. 318, 825, 828 . وفى الواقع أن ضم أجزاء الجسم بعضها إلى بعض ، وكذلك « إزالة التراب » عن الفم بواسطة الإله جب ، إنما ينتمى إلى صيغة أخرى ورد فيها أن الجثة تبلى فى الأرض .

(٢) Pyr. 1630, 584

(٣) Pyr 1500, 72 i

(٤) Pyr. 72i, 260

(٥) Pyr. 1500

(٦) Pyr. 632. 1636 وقارن الرسوم المنقوشة فوق جدران معبدى أبيلوس ودندره Mar. Dend. IV 88.9

(٧) Pyr. 663

(٨) Pyr. 1463

(٩) Pyr. 1242

(١٠) Pyr. 609 / 643

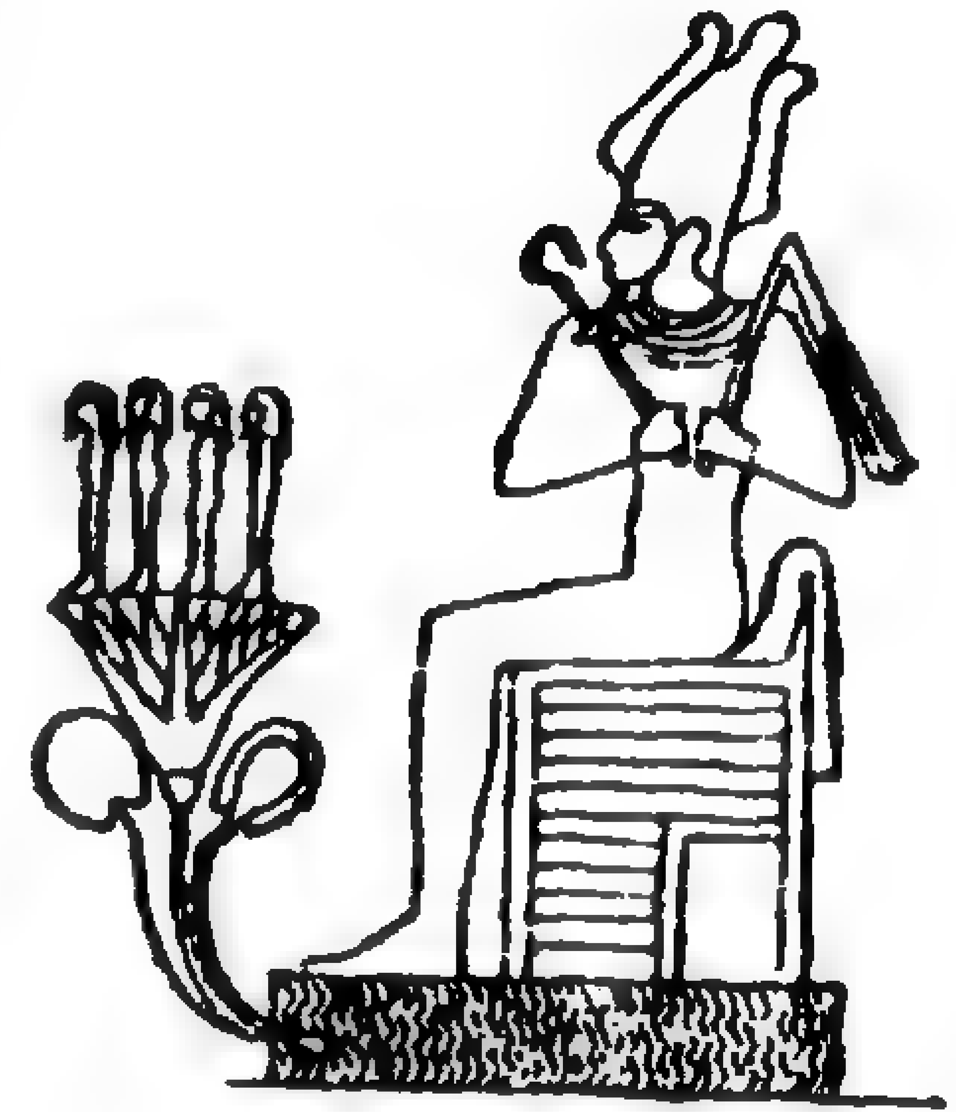
(١١) Pyr. 578

(١٢) Pyr. 614

(١٣) Pyr. 192

الأمراء بهليوبوليس للمحاكمة لم يقرّ ست بالحقيقة [١] . ولقد شهدت إلهتا الحق المحاكمة كما دعى شوكشاهد . « وقرّرت إلهتا الحق أن عرش كب هو له [٢] » . أما حوريس فقد جعل ست ينحنى تحت أوزوريس [٣] فيحمله بذلك إلى الأبد [٤] ، واستولى أوزوريس على كل تيجانه وأجلسه كب على عرشه [٥] ، وهكذا حكم كإله ليس له أعداء [٦] « وانتهى الحزن وعاد الضحك » [٧] .

بقى علينا أن نتعرّض لقصتين فقط من تلك المجموعة الهائلة من القصص التى حيكت حول أسطورة أوزيريس . وتتحدث إحدى هذه القصص عن أن إيزيس قطعت أيدى حوريس وقذفت بها فى الماء [٨] ، وعندما أرادوا استعادة هذه الأيدى دعوا سوبك وهو الإله على شكل التمساح ولكنه لم يتمكن فى بادئ الأمر العثور عليها واضطرّ أخيرا أن يستعين بشبكة الصيد ليلتقطها . وكانت هذه الشبكة تعتبر كنز سرّى محفوظ فى معبد هيراكونبوليس .



٤٣ – أبناء حورس على زهرة فى بحيرة ، يجلس على حافتها أوزيريس (Totenb. ed.Nav. I, 136)

وأهمّ من هذه قصة أولاد حوريس الأربعة وهم : أمستى وحابى ودواموت . اف وكبح سنو . اف . ويقولون إن حوريس قد أنجبهم من أمه نفسها [٩] ، ولقد عهد إليهم أنوبيس بالقيام بدفن أوزوريس « فغسلوا

---

(١) Pyr. 957,958
(٢) P9r. 317
(٣) Pyr. 650
(٤) Pyr. 1,99
(٥) Pyr. 845,649
(٦) Pyr. 25,765,1607
(٧) Pyr. 1989,1009
(٨) Totb. 113 naeh Sethe A. Z. 58, 57 folg. وهذه هى نفس القصة التى يرجع إليها بلوتارك (Plutarch, de Is. cap .20)
(٩) Totb. ed. Nav. 112 nach Tb. (A. Z. 58,4)

أوزوريس ثم بكوه وفتحوا فمه بأصابعهم النحاسية ليتمكن من أن يأكل ويتحدث ثانية »[1] ، ولقد كان أولاد حوريس هؤلاء حقلا واسعا ترتع فيه تخيلات الشعب المصرى فاعتقدوا أنهم كنجوم يمكن العثور عليهم فى السماء[2] ، وكما سترى فيما بعد فى الفصل الخامس عشر اعتبرت الأحشاء فى رعايتهم . ويبدو واضحا من بعض الرسوم التى تصوّرهم أنهم اعتبروا فى أساطير أخرى قد نشأوا فى زهرة لوتس ثم تفتحت عنهم .

وتعتبر النماذج التى وصلتنا من العصر المتأخر عن حياة أوزوريس ونصيبه منها أقوى وأمتع مما تحدثنا عنه من أساطير مقتضبة من العصور القديمة . لقد أنجب إله الأرض « كب » وإلهة السماء نوت أربعة أطفال : ولدين هما أوزوريس وست ، وابنتين هما إيزيس ونفتيس ، تزوّجت الأولى من أوزوريس ، والثانية من ست . وحكم أوزوريس العالم كملك وعلم الناس كل طيب مفيد « وورّثه كب فأعطاه ملك القطرين[3] . . . . وأسند إليه قيادة البلاد لسعادتها وسلمه هذه الأرض فى يده : ماءها وهواءها ونباتها وقطعانها وكل ما يطير وكل ما يسبح فى الفضاء وديدانها ووحوشها ، كل ذلك أعطى لابن نوت وسعدت مصر بذلك . وكان أوزوريس ملكا عظيما ، وسطع على عرش أبيه كالشمس عندما تشرق فى السماء فترسل بأشعتها لكل من يعيش فى الظلام » وكان عادلا . « ثبت من أقدام الحقيقة فى مصر » وحينما تكون الحرب يظفر بإنهائها لأنه كملك يلقب بـ « الذى يسوّى المعارك الدامية »[4] ثم بجانب ذلك كان بطلا من أبطال الحروب « واسع الشهرة إذا ما أوقع بأعدائه ، قوىّ الشكيمة إذا ما أردى عدوه قتيلا . وكان أعداؤه يرتجفون أمامه ، وعمل على توسيع رقعة بلاده » وكذلك كان مبرزا فى سيادته على الآلهة « كمرشد لكل إله بأوامر صائبة مدحته التاسوعة الكبرى (من الآلهة) وأحبته التاسوعة الصغرى »

(١) Pyr. 1983, Totb. 17,37

(٢) L. D. III 170-1/i, Totb. 17, 42

(٣) ولقد اعتمد فى كل ما نقوله فى هذا الموضوع على أنشودة أوزوريس المنقوشة على لوحة رقم ٢٠ المحفوظة فى المكتبة الوطنية ، راجع Legrain 21-28

(٤) راجع Louvre C 2 (m. R.)

ولم يتحدث هذا النصّ عن السبب الذى أوغر صدر « ست » منه . وربما اعتبر السبب منطقيا لايحتاج إلى تنويه، فما دام هناك فى أسرة ملكية أخوان أحدهما يملك فليس من شكّ فى أن يصبح الثانى عدوا له . وكلّ ما نعرفه أن « أوزوريس » حجب « ست » ويبدو أن ست لم يستطع أن ينال أخاه بسوء لفترة طويلة ، ولا غرابة فى ذلك فإيزيس كانت تحميه « فهى حاميته التى تدفع أعداءه عنه وكانت ذكية ؛ لسانها سليط وبديهتها حاضرة ، وكانت أوامرها محكمة » ولذلك تحايل ست على قتل أخيه ونجح فى ذلك . وإذا صدقنا ما قاله « بلو تارك » فقد استدرج أخاه ودعاه ليضطجع فى صندوق على سبيل المزاح ثم يقفل الصندوق ويقذفه فى البحر .

وهكذا بقيت إيزيس وحيدة مسكينة لم تعرف حتى أين المكان الذى استقرّت فيه جثة زوجها « وبحثت عنه دون ملل ، وجابت الأرض كلها والهموم تملأ صدرها ولم تدع للقنوط سبيلا إلى قلبها إلى أن عثرت عليه . ثم جلست مع أختها نفتيس بجانب الجثة وأخذتا تولولان بالنشيد الآتى [1] الذى أصبح فيما بعد أنموذجا لكل الأناشيد الجنائزية ، وهو : « ارجع إلى منزلك ! ارجع إلى منزلك ! أيها الإله « أون » عُدْ إلى منزلك ، أنت الذى لاأعداء لك . أيها الشاب الجميل . ارجع إلى منزلك ، لترانى ، فانى أختك التى تحبها . ويجب ألا أفقدك . أيها الطفل الجميل عُدْ إلى منزلك . . . . إنى لاأراك الآن ومع ذلك فقلبى يفيض حبا لك ، وعيناى تتلهفان عليك . . . . . عُدْ إلى تلك التى تحبك . التى تحبك يا « أون نفر » المبرور أو المنعم . عد إلى إلى أختك ، عد إلى زوجتك . إلى زوجتك أنت الذى جمد (وقف) قلبك . عُدْ إلى زوجتك فإنى أختك من أمّ واحدة فيجب ألاتبعد عنى فالآلهة وبنو البشر يتوجهون إليك باكين إياك .



٤٤ — إيزيس تحمى أوزيريس بجناحيها
(برلين ١٣٧٧٨)

(١) راجع Pap. 3008 des Berl. Mus.

أناديك وأبكيك حتى يسمع صوتى فى السماء ولكنك أنت لاتسمع صوتى . وبينما أنا أختك التى أحببتها على الأرض ولم تحبّ غيرها يا أخى ، يا أخى ، » .

وهكذا ندبته وعطف عليها أسمى الآلهة مكانا ؛ إذ أرسل إليها رع ابنه الرابع أنوبيس فنزل إليها من السماء [1] لكى يدفن أوزوريس ، فجمع أشلاء الإله التى لم يبق منها غير العظام (كما ورد فى بعض النصوص المتأخرة) أو التى مزّقها « ست » ثم طواها فى لفائف وأتمّ كل المراسيم التى أصبحت فيما بعد نموذجا يحتذى به المصريون . أما إيزيس فروّحت بأجنحتها فهبّ الهواء ودبت الحياة فى جسم الإله الميت [2] وحرّك ذراعه ثم انقلب على جانبه ورفع رأسه ، ولما كان من الصعب عليه أن يحيا فوق الأرض حياته الأولى ، لذلك أصبح لزاما عليه أن يحيا حياة ثانية . وبذلك صار مَلِكا للموتى بعد أن كان ملكا للأحياء . ولكن النصر كان حليفه أيضا فوق الأرض؛ إذ ترك لها وريثه الذى أنجبه من إيزيس .

فعندما حملت إيزيس هربت من مطاردة « ست » لها إلى أحراش الدلتا ، وهناك وفى هذا المكان الموحش حيث ظهرت فيما بعد مدينة Chemmis وضعت ولدا هو حوريس الذى « رضع فى هذه الوحدة ولا يدرى إنسان أين مكانه » ولقد عطفت عليها الإلهة « بوطو » حامية الدلتا وكم هددت الأخطار هذا الصبىّ حوريس ولكن كان باستمرار ينجو منها بيقظة وعناية أمه « إيزيس » ولم يكن أحبّ إلى المصرى من تلك الصورة التى تمثل الإلهة الأم وعلى حجرها رضيعها . وهكذا ترعرع حوريس فى الخفاء حتى « إذا ما اشتدّ ساعده قام يقاتل ست » ولقد كان قتالا رهيبا فقد فيه حوريس عينه وتشوّه فيه « ست » ، ولكن « تحوت » خلصهما من بعضهما البعض وطببهما .



٤٥ - إيزيس مع حوريس مختفيان فى أحد الأحراش

---

(١) راجع Mitt. aus den Oriental. Samml. IX, II, 17 ويعتبر أيضا أنوبيس ابن أوزوريس من زوجته نفتيس .

(٢) Mar. Dend. IV 63 ff., 88 ff.

وعند ما انتصر حوريس قادته أمه « إيزيس إلى قاعة كب » فحياه الآلهة المجتمعون هناك فرحين قائلين : « أهلا بك حوريس يا ابن آوزوريس . أيها الشجاع . مخلص حقه ابن إيزيس ووريث أوزوريس » ولكن ست رفع أمره إلى المحكمة طاعنا بشدة (كما ورد ذلك فى الوثيقة اليونانية) فى صحة ميلاده ، وأيضا فى أحقيته فى الوراثة . فعقد الآلهة الكبار جلسة « فى قاعة كب » وفحصوا الشكوى ، إلا أنهم أداروا ظهورهم للباطل . إذ أنهم وجدوا أن الحقّ بجانب حوريس فأعطوه ما كان لأبيه فخرج متوّجا تبعا لأمر كيب وأصبح حاكما للقطرين وبقى التاج فوق جبينه » ولقد كانت هذه القضايا تنظر باستمرار فى « القاعة الكبرى بهليوبوليس » ؛ فمثلا تؤكد المصادر المصرية أن أوزوريس قد تقدم أمام هذه المحكمة للدفاع عن تهم وجهها إليه « ست » وأعداؤه الآخرون ، إلا أن تحوت دافع عنه وأظهر براءته ، فحكمت الآلهة على ست وأعلنت نصر أوزوريس الذى وضع قدمه فوقه ثم ارتفع أوزوريس إلى السماء حيث حكم هناك — وإذا اعتقد الإنسان أن العالم الثانى كان تحت الأرض فيكون مكانه فى الأعماق حيث حكم الموتى « كذلك الذى يأتى إليه الجميع ممن كانت تدبّ فيهم الحياة فهو الوريث المحبوب للإله كب . ملك مصر العليا والسفلى « أون نفر » ، [1] المرحوم [2] فهو أول أولئك الذين سكنوا الغرب أى « الموتى » بينما كان ابنه حوريس أوّل الأحياء الذين حكموا الأرض . وبه يبدأ عصر الدنيا الحالية . ولا غرابة فكل ملوك مصر ليسوا سوى خلفائه الذين جلسوا على عرشه .

وليس من شك فى أن القارئ سوف يلاحظ من هذه الكلمة القصيرة إلى أىّ حدّ اختلفت قصة أوزيريس عن القصص الأخرى ولماذا كانت أحبها إلى قلوب المصريين الذين ارتاحوا إلى ما فيها من مشاعر بشرية وإلى نزوع أوزيريس إلى الحقّ وإلى ولاء إيزيس لزوجها وحبها لابنها ثم إلى تقوى حوريس الطفل .

والفصل الأخير من هذه الأسطورة والذى يتعلق بالكفاح بين حوريس وست

---

(١) هذا الاسم هو اسم أوزيريس كملك لعالم الموتى ، ثم بعد ذلك أصبح يطلق على الأفراد ، ولقد شاءت الصدفة أن يبقى هذا الاسم لأحد القديسين (سان أنوفريو) .

(٢) Siut, I, 234



قد وصفته لنا قصة كتبت فى العهد المتأخر من عصر الدولة الحديثة [1] غير أن هذه القصة لاتتحدث عن الكفاح الأصلى الذى أصيب فيه كل منهما بجروح ، وإنما تعرض الأمر – على نحو ما ورد فى الرواية القديمة – كأنه نزاع قانونى ، أو قل إنه قضية أقامها أحدهما ضد الآخر بكل ما يتبع ذلك من إجراءات قانونية ، وبمعنى آخر قد كان هذا إجراء بعيد عن القوّة والخشونة يفهمه المصرى الذى قطع شوطا بعيدا فى التحضر والتمدن . وفى الحقّ يبدو كل شيء فى هذه القضية وقد طبع بطابع الإنسانية المتحضرة ، كما تبدو الآلهة كأنها بشر [2] – وفيها صوّر لنا حوريس كابن فقد أبيه ، ولولا ما اتصفت به أمه من مكر ودهاء لتعقدت الأمور أمامه وأصابه مكروه . أما « ست » فصوّر كرجل

٦٤ – حوريس على هيئة ملك

حقير متعسف يخافه ويخشاه كل الآلهة إلا « رع حوراختى » « سيد الجميع » الذى رأس جلسات المحكمة . فقد كان يميل إلى انتصار « ست » واعتبر كساعده الأيمن فى سفينة الشمس يقتل الأعداء أثناء رحلتها .

وتكونت المحكمة من كلا التاسوعين ، أى من أكثر الآلهة جلالا واحتراما (انظر ص ١٠٤) وكان يقود مناقشتها « شو أونوريس » ودوّن محاضرها « تحوت » أما « اتوم » إله هليوبوليس – وهو الذى يأتى ذكره أحيانا بجانب « رع . حور آختى » – فنعتبره كدرجة عليا تقف على الحياد أثناء نظر القضية ، ومثله فى ذلك مثل الملك بالنسبة إلى الوزير .

ولقد استمرّ انعقاد المحكمة ثمانين عاما دون أن تستطيع إصدار الحكم ، والواقع

(١) حفظتها بردية بيتى (قصة حوريس وست) وقد علق عليها ونشرها جاردنر . وسنرى فيما بعد (صفحة ٩٨) أن هذه القصة لم تنشأ فى وقت متأخر وهو ما يمكن أن تدل عليه نغمتها .

(٢) فمثلا يملك « ست » حديقة يقوم على خدمتها بستانى ويزورها « ست » كل يوم وذلك علاوة على بيت .

أن المسألة كانت دقيقة ، فهى تتعلق بمعرفة ما إذا كان حوريس الذى ولد بعد وفاة أبيه هو حقيقة ابن له (١) .

وعندما اقتنع شو أنوريس، ابن رع ، بأحقية حوريس نادى آمرا بأن يُعطى له منصب أبيه، وعندئذ أعلن تحوت أن ذلك « صحيح مليون مرة » ، ثم صاحت إيزيس عاليا من الفرح ونادت الريح الشمالى قائلة : « اذهب إلى الغرب ، وابهج نفس « أون ـ نفر » (أى أوزوريس) بهذا الخبر » ، ولكن رع كرئيس كان له رأى آخر ، فلاذ بالصمت وكان الغضب يتملكه من التاسوع . بيد أن ست صاح طالبا أن يطرد خارجا مع حوريس وسيريه حينئذ ماذا يستطيع أن يفعله ، وفى الحقّ فانه قد أطبق عليه بيده . ولكن تحوت قال : إنه ليس فى الإمكان إعطاء منصب أوزوريس لأخيه ما دام يوجد ابن له من صلبه، فغضب « رع . حور . آختى » غضبا شديدا لأنه كان يرغب فى إعطاء المنصب لست .

ولقد صاح أنوريس : ما ذا نحن فاعلون ؟ وعندئذ اقترح أتوم إحضار كبش منديس لكى يكون حكما . ولا شك أن سبب ذلك يرجع إلى أن هذا الإله الخاصّ بالنسل هو خير من يستطيع أن يعرف ما إذا كانت صحة نسب حوريس تستند إلى أساس صحيح . ولكن كبش (تيس) منديس لم يرد أن يتدخل فى هذا الأمر ، واقترح إخراج الطرفين وطردهما وكتابة خطاب إلى نيت العظيمة ، أمّ الإله ، على أن ينفذ بعد ذلك ما تشير به ، فوافق الآلهة على ذلك و عهد إلى تحوت بالكتابة إلى نيت باسم أتوم .

وجلس تحوت وكتب خطابا بأسلوب القصر ختمه بهذا السؤال : « ماذا سنفعل بهذين الرجلين اللذين ظلا واقفين طوال ثمانين عاما أمام هذه المحكمة ؟ » فكان الجواب الذى وجهته نيت للآلهة واضحا غاية الوضوح : « اعهدوا بمنصب أوزوريس لابنه حوريس ولا ترتكبوا ظلما كبيرا ، وإلا فانى سأغضب وستسقط السماء على الأرض » . واقترحت فوق ذلك أن يأخذ ست بصفة تعويض عنت وعشترت ، الابنتان الأجنبيتان لرع .

---

(١) Plutarch, de Iside Kap. 19

وعندما وصل خطاب نيت قرأه تحوت أمام الآلهة فأعلن الجميع فى صوت واحد : « أن هذه الآلهة على حق » . بيد أن سيد العالم غضب على حوريس وقال له : « إن جسمك ضعيف جدا ، وإن هذا المنصب لثقيل جدا عليك أيها الغلام السيئ » .

وعندئذ استاء أونوريس جدا وكذلك التاسوع كله فى طبقتيه ، وبقى رع حور آختى وحيدا ، واجترأ « بابا » ، وهو إله ضئيل الشأن ، على السخرية منه بأن قال له : « إن محرابك فارغ » فأثارت هذه الدعاية غضب الآلهة الأخرى فصاحت : « اذهب » ، ثم تركوا المحكمة وذهبوا إلى مخياتهم .

ولكن نفس رع كانت مليئة بالحزن ، فألقى رع بنفسه على الأرض من فرط استيائه . وأمضى الإله العظيم يوما بأكمله مستلقيا على ظهره فى قاعته والحزن يملأ قلبه . والوحدة تحيط به . على أن حتحور ، سيدة شجرة الجميز الجنوبية حضرت إلى والدها سيد الجميع ومكثت عنده وكشفت عن عورتها ، فانفجر الإله ضاحكا وقام واتخذ مكانه فى وسط التاسوع العظيم .

وقال لحوريس ولست : « تكلما » ، وعندئذ قال ست ، عظيم القوّة ، ابن نوت : « ألست أنا أقوى من فى التاسوع ؟ إنى أقتل كل يوم عدوّا لرع حور آختى ، واقف فى مقدمة سفينة الملايين . وهذا ما لايستطيع إله آخر أن يفعله ، وإنى لحرىّ إذن أن آخذ منصب أوزوريس » . وعندئذ قالت الآلهة : « إن ست لعلى حقّ » ولكن أوزوريس [1] وتحوت صاحا صياحا عاليا وهما يقولان : « أيُعطى المنصب لأخ الأم ، على حين يوجد ابن من صلبه على قيد الحياة ؟ » . فأجاب كبش (تيس) منديس ، الإله العظيم الحىّ : « أيعطى هذا المنصب لهذا الشاب ، على حين أن ست أخاه الأكبر لايزال موجودا ؟ » فصاح التاسوع فى مواجهة سيد العالم : « ما هذا الكلام الذى تقوله ، إنه جدير بألا يسمع » . وقال حوريس : « إنه ليس عملا طيبا أن تهوّن من شأنى هكذا أمام التاسوع وأن أجرد من منصب أبى » وعندئذ غضبت إيزيس من التاسوع وأقسمت« بحقّ حياة أمى نيت ،وبحقّ حياة بتاح تاتنن ، صاحب

(١) هكذا فى الأصل الألمانى ، وربما كان المقصود هو أنوريس – المعرب .

الريش المرتفع ، سوف توضع هذه الأقوال أمام أتوم ، ذلك العظيم المقيم فى هليوبوليس ، وكذلك أمام خبرى الذى يقيم فى سفينته » وعندئذ قال التاسوع لها : « لاتغضبى فان الحقوق ستعطى لمن يستحقها ، وسيعمل بكل ما تقولين » وعندئذ غضب ست من التاسوع لأنه قال هذه الكلمات لإيزيس ، وقال له : « سآخذ صولجانى الذى يبلغ طوله ٤٥٠٠ ذراع ، وسأقتل كل يوم واحدا منكم » وأقسم ست لسيد الجميع بأنه لن يبق فى المحكمة مادامت إيزيس باقية فيها .

وبعد هذا القسم قرّر رع حور آختى أن ينقل المحكمة إلى « الجزيرة الداخلية » وأمر ملاح الجزيرة بألا يسمح بعبور أية امرأة يمكن أن تشبه إيزيس ، وبعدئذ انتقل التاسوع إلى الجزيرة وجلست الآلهة تتناول طعامها .

ولكن إيزيس اختفت فى شكل امرأة عجوز تسير وقد انحنى ظهرها وتحمل فى أصبعها خاتما من الذهب واقتربت من الملاح وقالت له : « إنى أحضر إليك ومعى إناء من الدقيق لصغير يرعى الماشية فى الجزيرة منذ خمسة أيام وقد اعتراه الجوع » .

لم يرغب الملاح أن يعمل شيئا لأنه تلقى أمرا بألا يسمح بعبور أية امرأة ، ولكن إيزيس قالت له : « أهذا بسبب إيزيس ؟ سأعطيك هذا الخبز » . ولما استمرّ الملاح فى إصراره على الرفض أعطته خاتمها الذهبى ، فنقلها بالرغم من قرار الحظر .

وعند ما مرّت إيزيس تحت أشجار الجزيرة لمحت التاسوع يتناول طعامه مع سيد الجميع فى قاعته ، وعندئذ لمحها ست من بعيد ، فتلت صيغتها السحرية وتحوّلت إلى شابة جميلة ذات قسمات ومحاسن رائعة جميلة لايوجد مثيل لها فى جميع أنحاء البلاد ، وعندئذ وقع الإله فى حبها وترك الأكل واتجه نحوها ، لأن أحدا لم يرها سواه ، ثم أخفى نفسه وراء شجرة ونادى : « إنى هنا أيتها الفتاة الجميلة » فأجابت : « ياسيدى العظيم ، لقد كنت زوجة راعى قطيع وأنجبت له ولدا ، غير أن زوجى توفى وتولى ابنى رعى ماشية أبيه ، ولكن أجنبيا حضر وجلس فى حظيرتى وقال لابنى : « سأضربك وسآخذ ماشية أبيك وأطردك » ، هكذا قال ، ولكنى أودّ أن تكون له حاميا ومعينا » . فقال لها ست : « أتُعطى الماشية لرجل أجنبى ، على حين يوجد ابن الرجل على قيد الحياة ؟ » وعندئذ تحوّلت إيزيس إلى طائر وطارت

واستقرّت فى أعلا قمة شجرة سنط وصاحت به : « الخزى لك ، إن فمك نفسه قد قالها ، وإن مهارتك نفسها قد حكمت عليك ، فماذا تريد بعد ذلك ؟ » عندئذ ارتبك ست وذهب والعار والخزى يجللانه إلى رع حور آختى ، فقال له الأخير : « هل لديك من جديد ؟ » فأجابه ست : « إنها هذه المرأة الشريرة التى عادت من جديد لتسىء إلىّ » وقصّ عليه قصته واعترف له أيضا بأنه قال : « لاتعط الماشية * لرجل أجنبىّ ما دام الابن لايزال موجودا ، ويجب أن يضرب الأجنبى على وجهه بالعصا ويطرد خارجا » وعندئذ قال رع حور آختى : « أجل إنك أنت الذى حكمت على نفسك بنفسك ، فماذا تريد بعد ذلك ؟ » .

وبناء على تعليمات ست أحضر أيضا الملاح ، وكان إلها صغيرا ، أمام التاسوع وعوقب وأصبح الذهب إلى هذا اليوم ملعونا مكروها فى مدينة هذا الإله بسبب خاتم الذهب .

وبعد ذلك غادر الآلهة الجزيرة واستقرّوا فوق جبل الشاطئ الغربى ، بيد أن رع حور آختى وأتوم (وقد أشير إليهما هنا بوضوح على أنهما شخصان) كتبا معا كتابا إلى التاسوع قالا فيه : « لماذا تجلسون هنا ؟ وماذا تعملون هنا ؟ إنكم تتركون الشابين يقضيان حياتهما فى المحكمة . عندما يصلكم كتابى عليكم أن تعطوا حوريس التاج الأبيض وأن تنصبوه فى مكان والده » . فاغتاظ ست ، ولكن التاسوع قال له : « لماذا تغضب ألا يجب أن نفعل ما يشير به أتوم ورع حور آختى ؟ » وعندئذ وضع التاج الأبيض على رأس حوريس ، ابن إيزيس . فأخذ ست يصرخ وقال غاضبا : « أتعطون المنصب لأخى الأصغر على حين أنى أنا أخوه الأكبر ما زلت موجودا ؟ » . وأقسم قائلا : « إنه سينزع التاج الأبيض من على رأسه ويلقى به فى الماء حتى يمكننى أن أقاتله بشأن السلطة » . ولقد وافق رع حور آختى من جديد على الاقتراح ، وعندئذ تحوّل الاثنان إلى فرسى بحر وكان عليهما أن يقفزا ويغوصا فى عرض البحر ، والذى لايستطيع منهما أن يبقى تحت الماء أكثر

* الكلمة التى استخدمت هنا للماشية لها معنى مزدوجا ، فهى تعنى أيضا « وظيفه » ، وقد قصدت إيزيس هذا المعنى .

من ثلاثة شهور يخسر الرهان . ولكن إيزيس بكت وقالت : « إن ست يقتل ابنى » وعملت بنفسها سنّارة ورمتها فى الماء ، ولكن السنارة أمسكت بخناق حوريس، فصرخ ورجا إيزيس أن تأمر سنارتها بتركه ، فاستجابت إلى طلبه وعملت ما أراده ، ثم ألقت بالسنارة من جديد فى الماء ، ولكنها فى هذه المرة أمسكت بست، فصاح : « ماذا فعلت لك يا أختى إيزيس ؟ » ورجاها أن تخلصه من السنارة أيضا فهو أخوها بحقّ ـ من نفس أمها ـ وأن إيزيس لايمكن أن تفضل عليه الأجنبى (ويشير هنا ست بلا شك إلى الابن غير الشرعى المزعوم) فأشفقت عليه إيزيس وأمرت السنارة بأن تتركه أيضا .

ولكن حوريس غضب من أمه وخرج من الماء وهو ينظر بشراسة كالفهد وقطع بسلاحه رأس إيزيس وأخذه تحت ذراعه وصعد إلى الجبل ، وعندئذ اتخذت إيزيس شكل ملكة من الصوان من غير رأس • ورأى ذلك رع حور آختى فسأل تحوت : « ماهذا الذى يأتى إلى هنا من غير رأس ؟ » فأجاب تحوت : « إنها إيزيس العظيمة ، أمّ الإله ، لقد فصل ابنها رأسها عن جسدها » ، وعندئذ صاح رع حور آختى بالتاسوع : « دعنا نذهب ونعاقبه بكل قسوة » ، ثم صعدوا إلى الجبل وبحثوا عن حوريس وكان قد استلقى مستخفيا تحت شجرة فى بلد الواحة ونام، ولكن ست وجده وضربه وانتزع عينيه ودفنهما فى الجبل فنبتتا فى شكل زهرتين .

وأعلن ست لرع حور آختى أنه لم يجد حوريس ، على حين أنه قد وجده . فذهبت حاتحور ووجدت حوريس نائما فى الصحراء يبكى . فاصطادت غزالة وحلبت منها لبنا وضعته فى العين اليمنى وفى العين اليسرى فشفى . وعندما أبلغت حاتحور الخبر لرع حور آختى استدعى التاسوع حوريس وست أمام المحكمة ووجه رع حور آختى الكلام إليهما معا قائلا : « اذهبا . فقد سمعنا ما كان عليكما أن تقولاه . كلا واشربا فإننا فرحون قانعون وضَعا حدا لهذه المعركة التى ما فتئتم تبدأونها

• يتفق هذا مع أية صخرة كانت تبدو كأنها « إيزيس بغير رأس » . وفضلا عن هذا ينقص هذه القصة جزء هام تعرفه من بردية Sall. IV 2,6 - 3,6 ومن بلوتارك ، فقد منح تحوت إيزيس رأسا جديدة ، وهى رأس بقرة ، وقد تعودت حملها بصفتها إيزيس ـ حاتحور .

كل يوم » . وعندئذ دعا ست حوريس إلى منزله ، وعندما أقبل الليل أُعدّ لهما فراش ، ولكن ست اعتدى على الشاب اعتداء منكرا .

وهذا الفعل المنكر الذى اقترفه ست ، والحيلة التى أفلحت بها إيزيس فى إنقاذ ابنها من هذه الفضيحة والخزى ، كلّ هـذا مشروح بدقة وتفصيل لا يمكن سرده هنا [1]

وعندئذ اقترح ست اقتراحا جديدا لتسوية النزاع وإنهاء المعركة ، بأن يبنى قاربان من الحجر يبحران بهما ، فمن يبلغ منهما نهاية الرحلة بسلام يحصل على منصب أوزوريس . أما حوريس فقد صنع لنفسه قاربا من خشب الأرز وطلاه بالجير وألقى به مساء فى الماء دون أن يلاحظ ذلك أحد . ولكن ست كان يعتقد أنه من الحجر . فذهب إلى الجبل واقتطع قمته ونحت منها قاربا طوله ١٣٠ ذراعا ، وعندما صعدا على ظهر سفينتيهما أمام التاسوع فان سفينة ست غاصت فى الماء وتحوّل هو إلى فرس بحر دمر سفينة حوريس . غير أن حوريس تمكن من أن يطعن خصمه بوساطة مزراق بطريقة بلغ من عنفها أن تدّخل التاسوع طالبا الرحمة والعفو عنه .

وعندئذ أبحر حوريس على سفينته حتى بلغ سايس وذهب لزيارة نيت العظيمة ، أم الإله ، والتمس منها المعونة لأن قضيته قد استغرقت ثمانين عاما واعترف بصحة دعواه ألف مرّة ، ولكن ست لم يهتمّ بحكم التاسوع . ولا نعلم بماذا أجابت نيت على هذه الشكوى ، وأخيرا اقترح تحوت كتابة خطاب إلى أوزوريس وذلك لكى يحكم بينهما ، ووافق الجميع على ذلك . وعندئذ كتب تحوت خطابا لأوزوريس زينه بكل عبارات البلاغة والبيان الخليقة برسالة ملكية سائلا الإله عما ينبغى اتخاذه بشأن حوريس وست ، وعندما وصل الخطاب إلى أوزوريس صرخ عاليا وكتب الرد الآتى فى الحال إلى الآلهة : « لماذا تخطئون فى حقّ ابنى حوريس ؟ ألست أنا الذى أقوّيكم وأخلق القمح والشعير لكى يكون غذاء للآلهة ، والماشية بعد الآلهة ؟ ولم يستطع أىّ إله آخر أو آلهة أخرى أن يفعل ذلك » .

---

(١) إذا استثنينا هذه القصة . فان اللواط يكاد لا يظهر فى مصر القديمة ، فبهذا يبدو أن الغرض هو تصوير « ست » تصويرا سيئا . للغاية .

وعندما وصل جواب أوزوريس هذا إلى رع والتاسوع كتب رع لأوزوريس على جناح السرعة : « آه ! إذا كنت لم توجد وإذا كنت لم تولد فان القمح والشعير كانا يوجدان وينموان مع ذلك » وقد أجاب أوزوريس على خشونة رع حور آختى بنفس السخرية معلنا أن كل ما يفعله رع وكلّ ما يبدعه التاسوع حسن جدا وجميل ، ولكنه (مشيرا بذلك إلى حظه ونصيبه هو) يضيف إلى ذلك أنه إذا اختفت الحقيقة وغرقت فى العالم السفلى ، فان رع يجب عليه مع ذلك أن يفكر فيما يتعلق به على وجه خاص . ألا يوجد فى البلد الذى يقيم فيه أوزوريس رسل لها نظرات مرعبة لاتخاف أىّ إله أو آلهة . وقال : « إنى سأجعلهم يخرجون ليرهبوا قلوب أولئك الذين يقترفون الشرّ ، وعندئذ سيكون عليهم أن يكونوا هنا معى ، وفى الحقّ ما فائدة وجودى هنا وبقائى فى الغرب ، على حين تظلون جميعكم فى الخارج ، من منكم أقوى منى ؟ ، ولكنهم يخطئون ويكذبون ، فعندما خلق بتاح السماء ألم يقل لنجوم السماء : « سوف تستريحون فى كلّ ليلة فى الغرب حيث يحكم أوزوريس كملك » وفضلا عن الآلهة فإن الناس والشعب يجب عليهم أن يستريحوا حيث تكون أنت ، هذا ماقاله لى »

وعندما وصل خطاب أوزوريس لسيد الجميع وللتاسوع قرأه عليهم تحوت فقالوا : « إن كل ما قاله صحيح جدا ، فهو سيد الطعام » .

وأخيرا أعلنت المحكمة أحقية حوريس ، وعندئذ كلف أتوم إيزيس أن تحضر ست مقيدا بالأغلال ولامه على عدم إذعانه لقرارات المحكمة ، فأذعن ست وترك لحوريس منصب أبيه ، فاعتلى حوريس عرش أوزوريس وتوّجوه بالتاج الأبيض وحيت إيزيس ابنها كملك طيب على البلاد .

وأخيرا تساءل بتاح فيما عسى أن يكون من أمر ست ، وقد ظفر حوريس بالعرش ، فأعلن رع حور آختى بأن عليهم أن يعهدوا إليه بست لكى يضعه فى منزلة الابن وأن يُسمع صوته فى السماء وأن يخشاه الجميع [1] . وهكذا انتظم كل شىء وابتهجت السماء والأرض بأكملها .

---

(١) وفى رواية أخرى (Sall. IV, 9,4-6) ينال ست الأرض الحمراء ، أى بلاد الصحراء ، نصيبا له .

وكل من يقرأ هذه القصة الطويلة بكل ما فيها من دعابات وفحش . من حقه ان يسائل عما إذا كان يحق لنا أن نقربها حقا من أسطورة أوزوريس التي كانت تستمتع بأهمية عظيمة فى نظر الشعب المصرى . بيد أننا لانعرف هذه القصة إلا من مخطوط من القرن الثانى عشر . ولذلك فقد يداخلنا الشك فى أنها لم تكن إلا مجموعة من قصص ساخرة لمؤلف واحد ، استخدم فيها أشخاص آلهته .

على أن هذا الشك لايكاد يستند إلى أساس صحيح ، إذ أن بعض أجزاء من هذه القصة وصلت إلينا عن طريق مصادر أخرى فى صورة مماثلة تماما ؛ فمثلا الجزء الخاص بأفراس البحر وقطع رأس إيزيس [1] . وكذلك قطعة أخرى من القصة أطول حفظت لنا فى بردية ترجع إلى عهد أقدم بستة قرون [2] . وهذه القطعة تتضمن بالضبط ذلك الجزء من القصة الذى اخترنا أن نغفل ذكره بسبب ما فيه من فحش فى القول ، ولهذا فاننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتقاد بأن هذه القصص كانت تتعلق بالأساس وتتناقلها الأفواه فما عن فم . إنما تتناسب وتتفق مع حاجات المستمعين . فالطبقات الدنيا من الشعب تجد لذتها فى غير ما تجد فيه الطبقات الراقية . وهكذا تشمل الأسطورة الجد والسخف والطيب والخبيث . وتلك صفات ينتمى كل منها إلى الأسطورة سواء بسواء ، وترينا أسطورة أوزوريس بنوع خاص فى أحدث صيغة لها وهى ترجع إلى العصر اليونانى كيف تقبلت الطبقات المختلفة من الشعب فصولها المختلفة . وفى الكتاب الذى خصصه لها بلوتارك [3] حذف كثيرا من التفصيلات التى رآها غير لائقة بل نابية . ومع ذلك فقد كان أحد كبار المخلصين لعبادة إيزيس ، وإنه إذا كان كل شيء قد حدث حقا كما هو مكتوب ، فانه لايبقى لنا — إذا اتبعنا أسلوب آشيل فى الكلام إلا أن نبصق ثم نطهر فمنا . والشيء الذى أعجب بلوتارك واستثار شوقه على وجه أخص فى هذه الأسطورة هى الحوادث والمظاهر التى يمكن تفسيرها بأسلوب وطريقة فلسفية .

---

(١) Sallier ,IV, 26 ff. وكذلك راجع Plutarch de Iside Kap. 20

(٢) Pap. Kahun, Taf 3

(٣) Plutarch de Iside Kap. 20

وسنرى فى الفصل الثانى والعشرين مظهر أسطورة أوزوريس فى ثوبها الأكثر رقيا وتهذيبا عندما نتكلم عن انتشارها فى أوروبا .

ولنستعرض فى إيجاز فى خاتمة هذا الفصل الطويل قصة أوزوريس كما قرأها بلوتارك فى الكتاب الذى زوده بالأساس الذى اعتمد عليه فى تصويره لعقيدة إيزيس [1]

لقد لعن رع نوت حتى لاتستطيع أن تلد فى أى شهر من شهور السنة ، ولكن هرمس ترفق بها فخلق أيام النسىء الخمسة [2] التى لاتدخل ضمن أىّ شهر من الشهور ، وبهذا تمكنت من أن تلد فى هذه الأيام أبناءها الخمسة : أوزوريس وحرويرس وست وإيزيس ونفتيس .

وعند ولادة أوزوريس ارتفع صوت من معبد طيبة معلنا أن الملك العظيم الخير قد ولد . وعندما استولى على السلطة عنى بالناس وغير الطريقة البدائية فى الحياة التى كان الناس قد ألفوها من قبل حتى ذلك الوقت ، وأدخل زراعة الفواكه وأعطى الناس القوانين وعلمهم كيف يعبدون الآلهة ويقدسونها ، وأخذ يجوب البلاد جميعها دون حاجة إلى حرب ، وكان لايجتذب الناس إلا بالتلطف والإغراء والموسيقى [3]

ولم يحدث فى غيبته أىّ شرّ ، لأن إيزيس زوجته كانت يقظة ساهرة ، بيد أن تيفون الذى كان يتقد صدره بالغيرة ، دبر مؤامرة ضد أوزوريس اشترك فيها اثنان وسبعون رجلا وأخذوا فى تنفيذها عقب عودة أوزوريس ، فقد صنع صندوقا رائعا بحجم أوزوريس تماما وعرضه فى خلال مأدبة ووعد مداعبا بإهدائه لمن يستطيع أن يملأه تماما ، فلم يوافق الصندوق أحدا إلى أن جاء الدور على أوزوريس فنام فيه ، وعندئذ أسرع فى الحال أتباع « ست » المتآمرون ووضعوا الغطاء وأغلقوه بالمسامير وألقوا بالصندوق فى النيل ، وظل عائما حتى بلغ البحر . وعندما اختفى أوزوريس

(١) سنحتفظ هنا لكل من ست وتحوت بالاسمين اللذين استخدمهما بلوتارك وهما تيفون وهرمس .

(٢) من العقائد القديمة أن الآلهة الأوزيزية الخمسة ولدت فى أيام النسىء الخمسة ، انظر مثلا Pyr. I 91 وفى هذا دليل ملحوظ على قدم أسطورة أوزوريس . وعندما ابتدع التقويم عام ٤٢٤١ ق . م كانت هذه الآلهة معروفة فى هليوبوليس . راجع Ed. Meyer I², 197

(٣) راجع Plutarch, de IS. الفصل ١٣ . وهناك مصدر آخر يونانى يتحدث عن غزوات أوزورس .

هكذا حزنت عليه إيزيس حزنا عظيما وأخذت تجوب البلاد بحثا عنه ودلها بعض الأطفال على الجهة التى انساق إليها التابوت لأنهم كانوا قد رأوا بطريق الصدفة كيف ألقى أتباع تيفون بالصندوق فى البحر . ولقد علمت إيزيس فوق ذلك بأن الصندوق قد جنح إلى شاطئ فينيقية عند مدينة جبيل (بيلوس) ونبتت شجرة نمت بسرعة واحتوته فى داخلها ، بيد أن ملك جبيل أعجب بضخامة هذه الشجرة واتخذ من جذعها الذى يضم الصندوق عمودا يدعم سقف قصره . وعندما بلغت الإشاعة إيزيس سافرت إلى جبيل وجلست باكية فى حالة شديدة من الذل والمسكنة بجوار نبع . وكانت لاتكلم أحدا ولا تلاطف إلا خادمات الملكة . فكانت تصفف شعورهن وتعطرها بالطيب الجميل الساطع الخاص بها . فعندما لاحظت الملكة الطيب الذى يفوح من خادماتها أمرت بإحضار المرأة الأجنبية واتخذتها نديمة لها ومرضعة لطفلها . بيد أن إيزيس كانت تعطى الطفل إصبعها لاثديها . وعندما جنّ الليل حرقت الأجزاء الفانية من جسمه وتحوّلت هى نفسها إلى عصفورة أخذت تحلق نائحة حول العمود الذى يخفى جثة أزوروريس . وحدث أن الملكة [1] اكتشفت أن طفلها يرقد فى النار أثناء الليل ، فصرخت وبذلك فقد الطفل خلوده . وعندئذ كشفت الإلهة عن نفسها ونزعت العمود من تحت السقف وأخرجت الصندوق من باطن الشجرة . ولفت الشجرة فى الكتان وغطتها بالدهون . ولا تزال تعرض حتى اليوم فى معبد جبيل على أنها « خشب إيزيس » .

وانطرحت إيزيس على التابوت وأخذت تبكى وتندب بحسرة على أن الابن الأصغر للملك قد مات وأخذت الإبن الأكبر والتابوت وعادت بهما إلى مصر . وهناك فى عزلة . فتحت الصندوق ووضعت وجهها على وجه الميت وقبلته وهى تبكى وتنتحب ، وعندئذ فاجأها الصبىّ فوجهت إليه إيزيس ، ونفسها تفيض بالغضب ، نظرة بلغ من رهبتها أن مات من الخوف .

وعندما ذهبت إيزيس إلى ولدها حوريس الذى كان يربى فى بوتو ، خبأت

---

(١) وكانت تسمى عشترت ، على اسم الإلهة الفينيقية التى وجدت سبيلها كذلك إلى مصر .

الصندوق الذى فيه جثة أوزوريس ، ولكن تيفون الذى كان يصطاد ليلا كشف عن مكانه فقطع جسم أوزوريس إلى أربعة عشر قطعة وبعثرها . وعندئذ أخذت إيزيس تجوب المناقع بقارب من سيقان البردى باحثة عن أشلاء الجثة ، فعثرت عليها جميعا ما عدا عضو التناسل، لم تعثر عليه لأن نوعا خاصا من السمك كان قد التهمه ، ومن ثم فقد أصبح هذا النوع من السمك مكروها ومحرما عند المصريين . ثم دفنت جميع أجزاء الجسم الأخرى على انفراد ، كل جزء حيث وجدته ، وهذا هو السبب فى تعدد مقابر أوزوريس فى مصر .

وبعدئذ خرج أوزوريس من العالم السفلى ليعدّ حوريس للقتال . وقد سأله عن أجمل شىء فى الوجود فأجابه الصبىّ : إنه هو علاج الظلم الذى حاق بالوالد [1] . وعندما اتخذ حوريس أهبته للقتال كان تيفون قد هجره عدد ليس بالقليل من رفاقه ومن بينهم تويس خليلته . وهى فرسة البحر التى سنعرض لذكرها فى الفصل العاشر .

وبعد قتال استمرّ عدّة أيام انتصر حوريس على تيفون ، بيد أن إيزيس التى كانت قد تسلمت تيفون من ابنها حوريس مقيدا بالأغلال عفت عنه وفكت قيوده وأغلاله . فلم يحتمل حوريس ذلك وأطاح بالتاج من على رأسها . ولكن هرمس استبدله بقناع على شكل رأس البقرة .

وعندئذ اتهم تيفون حوريس بأنه ابن غير شرعى ، ولكن هرمس ناصر حوريس فاعترفت به الآلهة ابنا شرعيا لأوزوريس ، وفى خلال معركتين تاليتين غُلب ست على أمره تماما .

وهكذا تنتهى رواية بلوتارك . ونحن إذا قارناها بالروايات الأقدم عهدا التى أوردناها فيما سبق ، فاننا سنلاحظ أن هذه الرواية الأحدث من الأسطورة البدائية تلائم من حيث الشكل ذوق القارئ اليونانى . وفوق ذلك فان من بين المظاهر المهمة التى توحى بها طبيعة أوزوريس . هو ذلك المظهر الذى يجعل من أوزوريس الشكل المثالى الأول للميت الذى تتخذ له طقوس جنازية لدفنه . فالصندوق الذى كان ينام فيه يذكرّ بالتابوت . وجميع حوادث جبيل

(١) علاوة على هذا امتطى حوريس الجواد ، أكثر من الأسد ، لأنه يمكن به مطاردة الهاربين

(بيلوس) تشير أيضا إلى الدفن وإعداد الجثة ، لأن كل ما يستخدم فى هذه الظروف من خشب وزيت أرز يستورد من هذه الميناء . وهناك كتاب قديم للحكمة يؤكد أيضا هذا الأمر [1] . « فاذا لم تعمل الرحلة إلى جبل (بيلوس) فان خشب الأرز ينقص للموميات وزيت الأرز لايوجد لتحنيطها » .

ومع ذلك فانه مما يستلفت النظر أنه لم يرد ذكر الإله الذى دفن أوزوريس إلا عرضا ، فقد ظهر مرّة واحدة اسم انوبيس وهو طفل وُلد من علاقة غير شريفة بين أوزوريس ونفتيس . وخوفا من تيفون ألقت به نفتيس فى جهة ما ، ولكن إيزيس وجدته بعد أن أرشدتها عن مكانه طائفة من الكلاب ، فربته إيزيس وصار هذا الطفل حارسها وتابعها . وكان أنوبيس هو الذى يتولى حراسة الآلهة كما تتولى الكلاب حراسة الإنسان .

وشخصية أخرى أكبر خطرا أيضا ، وهى حوريس الطفل التى لم تذكر إلا عرضا ولم تكن تمثل إلا إلها صغيرا معينا ، وهو حربوقراط — كما يسميه الإغريق — أى « حر . يا . خرد » . وحوريس الطفل . وكان ينظر إليه على أن إيزيس قد ولدته بعد موت أوزوريس ، وأنه لهذا السبب قد ظل هزيلا .

وإنه ليمكن ذكر أحدث صيغة لأسطورة أوزوريس ، فقد عادت هذه الأسطورة من جديد فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وذلك فى أوروبا على الأقل . وقد أزادت مقطوعة « الناى المسحور » فى نشرها وذيوعها بين الناس حتى لقد صرخ جوته فى حنق وغيظ قائلا : « أى إيزيس وأوزوريس لو أنى أستطيع التخلص منكما ؟ »

ولكننا نحن الذين نعرف هذه الأسطورة من مصادرها القديمة الخالصة وهى أقدم ما فى العالم من أساطير ، فاننا ننظر إليها نظرة مختلفة كما نستطيع أن نبتهج بها فى غير تحزّب .

---

١ — قارن Erman, Lit. P. 135

الفصل السادس

اللاهوت

إذا كنا قد عالجنا فى الفصل السابق التطورات ، والأساطير التى تعتبر فى مجموعها ذات طابع إنسانى قريبة إلى الفهم فاننا فى هذا الفصل سنعالج أكثر نواحى الديانة المصرية غموضا مما يتعلق بالتأويلات والتخيلات التى أخضع الكهنة لها عقائدهم . وقد آثر الكهنة اتخاذ هذه الطريقة منذ أقدم عصور التاريخ ، وإن اشتهار المصريين القدماء بالحكمة العميقة حتى يومنا هذا ليعتمد — قبل كل شىء — على هذا النوع من المعرفة .

وكما هى الحال فى كل مكان فاننا نرى الناس يفكرون فى أغلب الأحيان فيما لايفيد كثيرا جوهر الدين ، ولكى نعطى مثلا يقرّب إلى الأذهان ما أعنيه فانه لايؤثر على العقيدة المسيحية موقف كل شخص من الأقانيم الثلاثة ، ولو أنه قد يحدث أحيانا كنتيجة للتعمق فى هذه النقطة أن يعتنق الكافة هذه النظرية .

وقياسا على ذلك فان بعض ما حاكه الكهنة حول آلهتهم ، من أقاصيص قد بلغ الشعب وذاع فى طبقاته . ولقد بقيت هذه القصص مجهولة حتى كشفت فى عصرنا منقوشة فوق جدران المعابد ومدوّنة فى النصوص كجزء من المقدسات المحاطة بالأسرار وإن لم تلعب دورا مهما فى حياة أفراد الشعب . وإذا كان هؤلاء يسمون أولادهم باسم الإله « بتاح » العظيم مثلا وإن كانوا يفزعون إلى هذا الإله فى ساعات حرجهم فانهم أهملوا شأن الإله « تاتنن » الذى اخترعه الكهنة وجعلوه صورة من صور الإله « بتاح » ، ولو أنهم كثيرا ما ذكروه فى أحاديثهم واعتبروه إلها أبديا خالدا .

ولقد احتفظ الكهنة بسرّ تعاليمهم الدينية إلى درجة جعلتنا نعجب مما ورد فى بعض النصوص المنقوشة فوق المعابد الدينية ولم ندرك لها معنى إلا بعد أن قرأنا ما يقصد به

منقوشا على معابد العصور المتأخرة ؛ فمثلا كل من يزور المعبد الصغير في مدينة هابو لايستطيع أن يفسر لماذا سمي منذ أول العصور باسم « المكان المقدس لآلهة الأبدية [1] » ولم ندرك فحوى هذه العبارة إلا من نص يرجع إلى العصر اليوناني ظهر منه أن الكهنة كانوا قد اعتبروا هذا المكان بمثابة الجبانة التي يرقد فيها أولى الآلهة المصريين .

وكان لكل معبد بطبيعة الحال تعاليمه ، ولو أنه قد حُفظت لنا جميع معابد مصر لتيسر لنا ترسم العقائد المصرية حسب مدارسها المختلفة ، ولكن ضاعت جميع معابد الوجه البحرى تقريبا وكثير من معابد الوجه القبلى . ويجدر بنا هنا أن نذكر بأنه مع وجود هذا النقص الكبير فقد تمكن علماء الآثار المصرية بدأبهم واجتهادهم أن يصلوا إلى نتائج فتحت أمامهم الطريق إلى الكثير مما غمض من تعاليم الكهنة المصريين. وسوف نتحدث هنا عن التعاليم الخاصة ببعض المعابد الكبرى التي كانت ذات أثر فى الديانة المصرية لسبب واحد هو أنها كانت المعابد المشيدة فى المدن التي كانت عواصم للحكم فى بعض العهود وتنتهى كل هذه التعاليم غالبا عند نقطة واحدة لأن هدف هؤلاء الكهنة أن يصلوا إلى نتائج دينية يكون مسلّما بها عند الجميع ، ولقد حاولوا أن يعرفوا كيف تكوّن العالم غير قانعين بما اعتقده البسطاء من أن الأرض طفت يوما من الأيام فوق سطح الماء . . . فالكهنة فى منف — مثلا يقولون بأن الأرض الطافية (تا - تنن) هى بعينها الإله « بتاح » نفسه ، ومن أجل ذلك سمى هذا الإله باسم « تا . تنن » . ثم أراد الكهنة بعدئذ أن يدفعوا بإله مدينتهم إلى الصدارة فلما لم تسعفهم الفرصة — إذ كان هناك إله آخر انتشرت تعاليمه وتغلغلت فى نفوس عدد أكبر من أنصار إلههم أضفوا على ذلك الإله ذى العبّاد الكثيرين من صفات ومناقب إلههم المحلى [2] .

وكذلك الحال فى تعاليم المدينة المقدسة « هليوبوليس » وأول ما عنيت به هذه التعاليم هو تاريخ بدء الخليقة ، فقالوا : « عندما تكوّن إله الشمس (أو كما سموه فى هليوبوليس الإله أتوم) فى المياه الأبدية « نون » قبل أن تتكون السماء والأرض

---

(١) Sethe, Amoun,103

(٢) ومن الأمثلة الواضحة عن ذلك أن الكفاح بين حوريس وست قد أصبح فى الفيوم كفاحا بين الإلهين سبك وتحوت . Fayoum Papyrus II, 38.

وقبل أن تخلق الدودة أو العلقة ، لم يجد مكانا ما يقف فيه [1] . فوقف فوق تل ، ثم صعد فوق حجر الـ « بن بن » فى هليوبوليس » [2] . وبعدئذ وجد نفسه وحيدا وفكر فى أن يخلق له زملاء (رفقاء) فحمل من نفسه [3] . وبعد هذا الحمل تفل [4] فكان الإله شو والآلهة تفنوت . ويبدو واضحا من اسمى هذين المعبودين أنهما خلقا بالطريقة التى ذكرناها فيما سلف ؛ فالاسمان اشتقا من كلمتين قديمتين بمعنى (البصق) الكلمة الأولى : إشش . والثانية : تف .

وأنجب شو وتفنوت الإلهين كيب إله الأرض ونوت إلهة السماء ؛ كما أنجب هذان الأخيران أوزوريس وست وإيزيس ونفتيس . ثم تكاثر أبناء الزوجين الأخيرين .

ولقد حكم هؤلاء العالم فى أول الأمر قبل أن تتجمع السلطة فى يد حوريس فكانوا الآلهة العظام ولأن عددهم كان قد بلغ التسعة فقد سماهم المصريون التاسوع ، أو التاسوع العظيم لهليوبوليس . ولكن هذه التسمية قد سببت بعض الاضطراب لأنه بجانب هؤلاء الأبناء كان هناك أحفاد وأحفاد أحفادا لإله أتوم الذين امتازوا بتقديس الناس إياهم واعتبروا آلهة ، فاضطر الكهنة أن يؤلفوا من بينهم مجموعات منها التاسوع الصغير الذى يتكوّن من حوريس بن إيزيس وتحوت ومعات وأنوبيس ولكى يكملوا العدد أضافوا إليهم بعض الأسماء لآلهة غير مشهورين . ولقد حظيت فكرة كهنة هليوبوليس بتقدير كهنة بعض المدن الكبرى الأخرى . وأرادوا أن يكونوا من آلهتهم المحلية تاسوعا فوضعوا معبودهم الأكبر فى مقدمة هذا التاسوع ثم أضافوا إليه عددا من الآلهة كان أحيانا يزيد عن التسعة ، ومثل ذلك تاسوع طيبة [5] الذى جمع ما لايقل عن خمسة عشر معبودا ، وأحيانا نجد عددا من الآلهة يكوّن تاسوعا ليس من بينهم معبود ممن قدس فى هليوبوليس . ومثل ذلك فى مدينة

---

(1) Budge, Nesi Amsu, p. 147, 156.

(2) Pyr. 1652.

(3) Pyr. 1248, 1652.

(4) Pyr. 1652, A.Z. 67, 34

(5) Sethe, Amoun, 41

أبيدوس التى تألف تاسوعها من إلهين باسم خنوم ثم تحوت ، ثم إلهين باسم حوريس وإلهين باسم أوب أوات [1] . ومما يثير العجب أن المصريين منذ العصور الأولى أخذوا يتحدثون عن هذه المجموعة من الآلهة الذين اخترعوهم ليكونوا تاسوعا كما لو كانوا يمثلون إلها واحدا . فقالوا مثلا : إن التاسوع قد ولد إلها [2] ، أو أنه قد خرج من بين فخذى التاسوع [3] . وواضح أنهم قد رأوا فى هذه المجموعة من الآلهة معبوداً واحدا ، ولو أننا نميل إلى الاعتقاد بأن هذا لم يكن إلا نوعا من أنواع الجناس كما هو واضح فى كثير من النصوص المصرية .

ويجدر بنا هنا أن نؤكد أن تعاليم هليوبوليس هذه رغم أنها تبدو عريقة القدم قد ظهرت فى عهد كانت عقيدة أوزيريس فيه قد دخلت وامتزجت بمعتقدات هذه المدينة .

وعندما جعلت تعاليم هليوبوليس الإله « أتوم » على رأس جميع الآلهة لم تستطع جارتها مدينة منف الأخذ بهذه الحقيقة ، وبخاصة لما لإلهها « بتاح » من شهرة وتقديس بين أهلها ، ولأنها كانت فى الوقت نفسه مقرّ الملوك . وفى ذلك الوقت — أى فى أول عصور الدولة القديمة — وضع كهنة منف وثيقة أكدوا فيها أن « بتاح » ومنفيس تفوق منزلتهما ما لأتوم وهليوبوليس من منزلة ولكن القدر تحكم فى مصير هذه الوثيقة التى نسميها (تعاليم منف الكهنوتية) والتى اعتبرت من أهم الوثائق التى حفظت بين كنوز معبد منف آلافا من السنين . ثم أتت الأرضة (ديدان) عليها فأخفت منها معظم القطع المكوّنة لبدايتها ونهايتها . وعندما حكم الملك النوبى « شباكا » مصر حوالى عام ٧١٠ ق . م تقدم إليه كهنة منف وطلبوا منه أن ينقذ من الفناء ما بقى من كتاب الأجداد هذا ، إذ كان يعتبر دليل شرف لمعبدهم . فأمر « شباكا » أن يحفر ما بقى من هذا الكتاب على لوح من الحجر الجرانيت الأسود . وقد دفع الورع بكتبة « شباكا » أن يخلدوا كذلك على هذا

(١) Urk. IV, 99

(٢) Pyr. 258

(٣) Pyr. 1087, 262

الحجر بقية من كتاب آخر ، وعلى هذا الشكل الغريب وصل لنا هذا الكتاب [1]

والحكمة التى يحويها هذا النصّ هى أن « بتاح » خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سميت باسم بتاح ، ولقد أطلق عليها البشر غالبا أسماء أخرى ، ولا غرابة فهذه هى آلهة مصر الكبرى أو قل إنها خالقة مصر . ومن أجل ذلك أرجعوا كل آلهة مصر إلى « بتاح » حتى إنهم قالوا بأن المعبود الصغير « نفر تم » — وهو تلك الزهرة التى تُدخل السعادة على قلب إله الشمس كل يوم ليس إلا « بتاح » . وإذا كانوا قد نادوا بوجود ثمانية أشكال مختلفة لبتاح فلم يكن ذلك إلا ليُكوّنوا مع بتاح الأصلى تاسوع يعادل تاسوع هليوبوليس .

وأطلقوا على الإلهين الثانى والثالث من هذا التاسوع « بتاح — نون » المياه الأزلية وزوجته « بتاح — ناونت » وقد أنجبا الإله أتوم . ومعنى ذلك أن أصبح هـذا الأخير وهو أعظم آلهة هليوبوليس أقل شأنا من الإله بتاح المنفيتى . فكل ما اتصف به أتوم من خصال استمدها من « بتاح » بل إن شفتيه وأسنانه التى تفل بها شو وتفنوت قد استعارها من بتاح ؛ بل سلبوا أتوم من قدرته على أن يخلق ويبدع ، أذ أن قلبه ولسانه ليسا إلا من بتاح . ومن هذا نرى بوضوح كيف أن القلب واللسان هما اللذان كانا يخرجان كل شىء إلى الوجود : « إذا ما رأت العين وسمعت الأذن ونشقت الأنف الهواء بعثت هذه » مارأت وسمعت ونشقت إلى القلب لذى يبدأ فى اتخاذ قراراته ، أما الإنسان فينطق بها . واعتُبر القلب واللسان للإله أتوم كطيفين من أطياف بتاح عرف الأول باسم تحوت والثانى باسم حوريس . ولقد خلق اللسان كل شىء حىّ بوساطة « الكلمة [2] التى خلقت كل قوى الحياة وكل ما يؤكل وكل ما يحبه أو يكرهه الإنسان » كما أخرجت القوانين ، فهى « التى أعطت الحياة لمن يحبّ السلام والموت للأشقياء كما سببت نشأة الفنون » أى كل عمل

---

(١) ومن الغريب أن هذا الحجر تعرض للتلف مرة أخرى ، فقد وجد بعض أهالى منف أنه يصلح قاعدة لرحى ، فاستعملوه فى هذا الغرض فامحى جزء كبير من النقوش ، ومنذ عام ١٨٠٥ توجد هذه الوثيقة الغريبة فى المتحف البريطانى .

(٢) واعتبر فيما بعد أن كلمة المعبود هى التى تخلق الأشياء Pyr. 1146, Berlin Papyrus 3055,6,9

وكل فن تصنعه الأيدى ، فاذا ما أمرت الكلمة سعت الأقدام وتحكرت الأعضاء .

وخلاصة القول ، هو أن بتاح خالق أتوم بل خالق كلّ الآلهة « وسعد قلب بتاح بعد أن خلق الأشياء كلها وخلق كلمة الإله » .

وهيمن بتاح أيضا على الأرض « فقد كون الآلهة وشيد المدن وأنشأ المديريات ووضع الآلهة فى معابدها وسمح للقرابين التى تقدم لهم أن تتكاثر وتتزايد كما زوّد مقاصيرها المقدسة بمحتوياتها ، ثم صنع لها أجسادها ليسعد أفئدتها ، ثم دخلت الآلهة إلى أجسادها التى صنعها من مختلف الأخشاب والأحجار والمعادن وازدهرت المحصولات المختلفة وجمعت فى صوامع الإله بتاح - تا - تنن ، وهى تلك الأماكن الكبيرة التى أسعدت آلهة معبد بتاح . »

وهكذا كشف كهنة بتاح عن حكمتهم العميقة فى كلمات رنانة ، إذ من الواضح أن ما أتى فى آخر النصّ يدل على أن ما يصيبهم من نفع مادى فى هذه الدنيا التى خلقها بتاح قد ادخروه فى أمكنة أمينة .

ولقد تأثرت المعابد الأخرى بتعاليم منف ، فسارع الكهنة فى كل مكان وقالوا إن الآلهة التى تعبد فى المعبد هى أعضاء للإله الأول فيه وسواء كان ذلك الإله بتاح أوأمون أورع [1] كما جعلوا من « تحوت » القلب الذى يفكر فى كل شىء ، ثم جعلوا « اللسان » بمثابة الناطق بما يجب أن يكون . ولقد ورد فى نصّ حديث يرجع إلى العصر اليونانى أن هذه من بين التعاليم التى تنادى بها حكمة المصريين : « القلب هو الذى يقود الجسد أما اللسان فيسمونه مبدع الكائنات » [2]. وينبغى لنا ألا نغفل هنا كيف أن تعاليم منفيس قد انتظمت أصولا دينية غريبة ؛ وهى أن هناك إلها واحدا خرجت منه الآلهة الأخرى . وأن القلب هو الذى يقود هذا الإله الواحد .

وفى الوثيقة نفسها التى هوّن فيها كهنة منف من الإله أتوم على النحو الذى شرحناه نجدهم قد شرحوا موقفهم من إله آخر هو أوزوريس ولو أنهم لم يجسروا أن يجعلوا منه طيفا من أطياف بتاح ، إلا أنهم جعلوا منه واحدا ممن يتكوّن منهم بلاط بتاح وأنه

(١) قارن ما ورد فى أنشودة أمون المحفوظة بمتحف « ليدن » : إن التاسوع قد تجمع فى جسدك ، وقارن كذلك A. Erman, Literztur P. 369

(٢) Horapollo I, 2i

آخى الآلهة التابعة له [1] ثم جعلوا من منف الميدان الذى جرت فيه أهم الأحداث لهذا الإله .

فى منف توجّه أوزوريس إلى الدنيا السفلى ، وكان ذلك بعد أن انتشلته أيدى إيزيس ونفتيس . وفى هذه المدينة أيضا حاول كب أبو أوزوريس أن يصلح بين حوريس وست المتعاديين ، فأعطى للأول مصر السفلى وللثانى مصر العليا . وفى منفيس أعطى حوريس حفيده من ابنه الأول حكم البلاد بأجمعها .

وهناك بعض التعاليم الخاصة بمدينة الأشمونين ومدرستها الدينية تعتبر أيضا من تخريج منف ، ولو أنها لم ترد فى الوثيقة التى كثر الحديث عنها فيما سلف . فلقد اعتبر تا ـ تنن هو خالق الآلهة الثمانية الأولى فيها [2] كما أنه اعتبر خالق البيضة التى انبثق منها إله الشمس ، وبذلك أصبح « والد آباء (جد) كل الآلهة ، وبدء كل ما كان فى البداية » فهو صانع كل ما فى الكون .

لقد بحثنا فى الفصل السابق تلك القصة التى تحدد بدء الخليقة فى مدينة الأشمونين على هيئة الضفادع والثعابين وكان عددها ثمانية ، وعلى هذا سميت المدينة « مدينة الثمانية » أى « شمون » وإذا تعذّر علينا معرفة دقائق هذه التعاليم وكيف تصوّرها كهنة مدينة شمون وذلك لقلة ما تخلف من معابدها ، فاننا فى الوقت نفسه نعرف الكثير عما تركته هذه التعاليم من تأثير فى مدينة أخرى أخذت عنها فى عصور تالية ، ألا وهى طيبة . . إذ حدث فى أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد أن تسرّبت بعض معبودات شمون إلى طيبة واستقرّت فيها ، ونخصّ بالذكر واحدا من الآلهة الثمانية الأولى أى أمون الذى تلألأ وعلا شأنه فى طيبة كما استقرّ أيضا فيها الكثير من تعاليم ديانة « شمون » وحكمة كهنتها ، وهكذا وصلتنا هذه الحكمة وعرفنا الكثير من تعاليم هذه الديانة عن طريق معابد طيبة فى العصور التالية . وأهم ما سمت هذه المحاولات إلى إبرازه هو عدم الاكتفاء بالآلهة الثمانية ، بل يجب محاكاة لمنفيس أن يوضع إله قبلهم يكون هو الذى خلقهم ، وبالفعل جعلوا أمون الذى كان واحدا

---

(١) ولو أنه ورد فى نص أنه قد خلق من بتاح Berliner Inschiften II, 149

(٢) Sethe Amun, 200, Anm. 2, Taf. II

منهم هو خالقهم ويدل اسمه على أنه « الكائن الخفيّ » . وعلى هذا النحو لم يكن لأمون هنا أيّ أهمية لأنه صوّر على هيئة ثعبان اسمه « كم ـ اتف » ويعني هذا الاسم « ذلك الذى أكمل زمانه » .

وهكذا كان هذا الإله غير ذى موضوع لهذه الدنيا فانتهى أمره وأنجب « كم ـ اتف » ولدا على هيئة الثعبان اسمه « إير ـ تا » خالق الأرض الذى خلق بدوره الآلهة الثمانية الأولى ، ومنها نشأت الخليقة . ولأولئك البسطاء الذين لم يتعرّفوا على هذه الحكمة ذات المعانى العميقة كان « كم ـ اتف » عندهم هو « أمون العظيم » معبود الكرنك ، وهو أيضا أمون إله التناسل وخالق الأرض ومعبود الأقصر .

وعندما خلقت الآلهة الثمانية كانت الدنيا لاتزال فى ظلام دامس ، ولكن الآلهة الثمانية اندفعوا مع تيار المياه الأولى ووصلت إلى شمون ـ وهناك من يقول إنها وصلت إلى منف أو إلى هليوبوليس ـ وهناك خلقت الشمس ، ومن ثم رجعت إلى طيبة . ولما كانت قد أتمت صنيعها بخلق العالم انتهى أمرها ولحقت بالثعبان « كم ـ اتف » فى عالم الموتى بطيبة واستراحوا جميعا فى ذلك المكان حيث بنى المعبد الصغير بمدينة هابو . يتردد عليهم أمون الأقصر مرّة كل عشرة أيام ليقدّم لهم القرابين واعتبروا بالنسبة لعالمنا هذا كالموتى يهرع إليهم الناس بما يقدمون إليهم . على حين كانوا قوّة لايستهان بها فى العالم السفلى ، فهم الذين يدفعون الشمس إلى الشروق والنيل إلى الأرض . وإذا كانت فكرة موت الإله تبدو لنا غريبة فانها لم تكن كذلك لدى المصرى [1] . ولا غرابة فى ذلك فقد اعتقد أن إلهه الكبير أوزوريس كان يحيا حياة بشرية ثم مات .

ولقد تمادى أهل المعرفة من رجال طيبة فى تنفيذ فكرتهم هذه حتى أنهم جعلوا من أوزوريس إلها هو « كم ـ اتف » الذى يتفق فى معنى اسمه « الذى قد أكمل وقته » مع أوزوريس . ثم ليزيدوا فى إحكام الحلقة جعلوا من أمون « الروح » لأوزوريس وقالوا إن جسد أمون يوجد فى الدنيا السفلى ، وإنه أى أمون كإله للشمس يزور جسده هذا عندما يتجوّل فى الدنيا السفلى أثناء الليل .

---

(١) وهكذا ورد أيضا أن « تسعة أبناء لرع » قد دفنوا فى إدفو وكان لهم عيد خاص وكان يقدم لهم القربان كل يوم . Edfu, Rochem. I 137. 289. 289, II 51.

وليس من شك أننا فى عصرنا هذا لانستطيع مطلقا تفهم دقائق هذه التعاليم ، ولكننا نكاد نعتقد أيضا أن أكثر الكهنة تعمقا فى هذه التعاليم لم يكن يعيرها أهمية ما أثناء حياته الكهنوتية العادية ؛ فانهم لم يروا فى أمون الكرنك إلها ميتا منتهيا ، بل كان هو أكبر آلهتهم وأقواهم ، هو ملك الآلهة الذى يسوس العالم ويتحكم فى مقاديره. كما أنهم فى واقع الأمر لم يروا فى أوزوريس ذلك الإله الذى تظهر روحه باسم أمون بل كان إله الموتى فقط .

ومن تلك التعاليم التى تقول بأن الآلهة قد خلقوا من إله أول واحدنتجت فكرة أخرى وهى أن كل ماتخلقه الآلهة من أشياء، فإن هذه الأشياء تحوى بعض صفات تلك الآلهة . وقد قالوا فى ذلك « إنها خرجت من أعضائها » وليس من شك فى أن هناك علاقة ما تربط بين كنه هذه الآلهة وبين تلك الأشياء التى تخرج منها ، وكثيرا ما سموا الماء « أعضاء أوزوريس » ولعل هذه التسمية يفسرها ذلك الاعتقاد القديم الذى يجعل من أوزوريس إله الفيضان الجديد ، ولكننا لانكاد نفهم السبب الذى جعل المصرى يقول بأن الماء هو ذلك السائل الذى يجرى من جثة أوزوريس . ولعل السبب الذى جعلهم يسمون « الهواء » «أعضاء أمون » [١] هو أن هذا الإله العظيم كان يعتبر — وهو فى حالته الأولى كأحد الآلهة الثمانية — إله للهواء والرياح [٢] كما اعتبرت زوجته « أمونت » إلهة الرياح الشمالية [٣] ، وكذلك نفهم أن اللبن يخرج من حاتحور [٤] لأنها كانت تعتبر فى وقت ما « بقرة السماء » ولكن لانلرى سببا للعلاقة بين الجعة التى جعلوها تخرج من حاتحور [٥] والزهور من أوزوريس [٦] والقطران من ست. [٧] ومن المعروف أن المصريين على وجه عام أحبوا أن يرجعوا كل الأدوات التى

---

(١) هكذا ذكر فى معبد رمسيس الثالث بالكرنك ، وقارن Brugsch, Grosse Oase 25,3

(٢) راجع Spiegelberg, A.Z. 49, 127

(٣) راجع فى كل ذلك Sethe, Amun

(٤) Mariette, Dendera II, 37 a

(٥) راجع Philae, 1545

(٦) Philae, 967, 898

(٧) راجع Pyr. 1999 وذكر فى Plut. de Iside. 62 أن الحديد هو بمثابة عظام ست .

استعملوها فى طقوسهم إلى أصل إلهى حتى يكسبوها نوعا من التلشين فيرجعوا المرّ والبخور إلى أصلها كأعضاء الآلهة حاتحور أو حوريس عندما يحرقونها كتقدمة لهذين الإلهين [1] كما أحبوا تسمية البخور « عرق الإله » [2] .

ولقد وهب هذا العرق [3] العالم عند تدفقه إلى الأرض شيئا آخر ، إذ منه نشأ الكتان الذى استحقّ أن يكون من أصل إلهى ، إذ استعمل المصريون الكتان فى صناعة أقمشة غطوا بها تماثيل الآلهةوا حتاجوا إليها فى لف مومياتهم [4] ، ولقد اعتقدوا أيضا بأن كل المواد التى تستعمل فى التحنيط ترجع إلى أصل إلهى مثل الزيوت والعسل والقار [5] .

وإذا كنا فيما سبق قد ذكرنا أن روح أوزوريس قد بقيت على قيد الحياة كأمون فاننا بذلك قد تعرضنا لموضوع آخر تعلق به المصريون واعتبروه من أهم معتقداتهم ، ولذلك تشعبت نظرياتهم عنها تشعبها فيما يتعلق ببدء الخليقة . وسوف نتحدث فى الفصل الرابع عشر عن اعتقاد المصرى بأن لكل إنسان روحا سموها « با » تسكن الجسد مادام حيا وتصوّروها على هيئة طائر بعد الموت ، وعن أنه هناك غير « البا » ما أسموه « القرين » أى كا . ولقد طبقوا على الآلهة ما اعتقدوه عن البشر ، فكان لكل إله « با » و « كا » ، ولكن لم تجر المسائل مع الآلهة بمثل السهولة التى جرت عليها مع البشر .

فأولا كان لكل إله « با » تسكن كما تصوّروا ذلك تمثاله الموجود بالمعبد ، ولكن لم تسكن فقط المعبد بل كانت تتجوّل فى أمكنة أخرى وبخاصة فى السماء .
وهكذا تصوّر لنا نقوش معبد دندرة التى ترجع إلى عهد متأخر كيف كانت

---

(١) راجع مثلا Philae, 1096 وكذلك Edfu II, 42

(٢) راجع مثلا الطقوس التى تقام لأمون حيث يقال عن البخور هو رائحة عرق جسم الإله .

(٣) عدا هذا لم يكن هذا الأصل الإلهى يبدو دائما فى شكل ظريف ، فقد جاء أن أنف جب أدمى فنما الأرز وتجشأ رع فنشأ البردى (Pap. Salt. 825, II, 7)

(٤) Salt, 825 II, 7

(٥) Rituel de L'embaumement, Maspero, Pap. du Louvre N 3 PL. 7,10

تهبط روح حاتحور من السماء إلى معبدها الجميل لتسعد نفسها .

كما اعتقد المصرى أن روح الإله تسكن الحيوان المقدس فى معبده ، وقد أعطى هذا الاعتقاد رجال الدين المتفقهين فيه فرصة طيبة لكى يضموا فى تعاليمهم هذه الحيوانات المقدسة ، فتمتعت العجول والتيوس والبقر والصقور والتماسيح والثعابين بقداسة لاشك فيها ، ولقد اختلف الأمر عندما بدأ المصرى يعتقد بأن هذه الحيوانات كانت تدبّ فيها الروح بوساطة الإله ، أو ما سموها « أرواح إلهية » ولنضرب لذلك مثلا أنهم اعتقدوا أن عجل أبيس هو روح الإله بتاح [1] — أو كما ورد فى نصّ متأخر هو أيضا روح أوزوريس [2] — وأن الطائر الخرافى « فنيكس » هو روح رع [3] والتماسيح كانت أرواح الإله « سوبك » [4]، وأن تيس مدينة منديس يمثل أربعة أرواح لأربعة آلهة مختلفة هى رع وأوزوريس وكب وشو . وانتهى الأمر بهم أنهم لم يكتفوا بجعل روح واحدة لكل إله، بل زادوا العدد [5] ؛ فمثلا رع كانت له سبع أرواح وأربعة عشرة « كا » [6] ولو أننا لانعرف شيئا عن هذه الأرواح السبعة إلا أننا استطعنا أن نفهم شيئا عن هذه الأربعة عشرة « كا » التى كانت ذكورا لها نفس العدد من الإناث والتى تتمثل فى : قوّة السحر — البهاء — النصر — القوّة — النموّ — الطعام — الاستمرار — النظر — السمع — الشبع وغير ذلك كثير [7] ثم فى الوقت نفسه اعتبرت الكا فى تعددها وكذلك مع إناثها ككائنات تنشر الخير مثلها فى ذلك مثل النيل والحقل [8]

---

(١) راجع Sitz. Ber. Berl. AK. 1916, 1148

(٢) راجع Plütarch de Is. 20

(٣) راجع Totb. 17, vgl. Grapw Dessertation 45

(٤) Destruction, I, 86

(٥) ومن الأمثلة التى تبين سخف هذا التفكير أنه حسب أنشودة تاسوع الهيبة ، فإن لإله الشمس أربعة رءوس كل منها على هيئة رأس الكبش تقوم جميعا على عنق واحد . وله عدا ذلك ٧٧٧ أذنا ومئات الألوف من القرون ، وتمثل رءوس الكباش الأربعة آلهة الرياح الأربعة (عن مقالة لم تنشر بعد : (Roeder, Urgötterlied aus Hibis.

(٦) راجع Edfu. ed. Rochem. I, 441

(٧) راجع Pichl, Edfu, Inscrip. 128, 130

(٨) راجع Brugsch, W.B. Suppl. P 997 and Pyr. 396

ولما كان الملك فى اعتقادهم ذا صفات إلهية ، لذلك وجب أن يكون له أرواح كثيرة وأكثر من «كا» واحدة [1] ، ولكن هذه فسرت بالنسبة إليه على وجه آخر ؛ فاذا ما تحدّث المصرى عن «أرواح الملك» فانه كان لايقصد إلا التعبير عن سلطته القوية .

وإذا تحدث المصرى عن «أرواح» إحدى المدن أو الأماكن المقدسة وكثيرا ما يحدث ذلك فانه يعنى شيئا آخرا مختلفا، فأرواح مدينة «بوتو» أو مدينة هليوبوليس هى آلهتها [2] .

وليس فى استطاعتنا هنا أن نتحدث عن كل ما نسجه المصرى القديم من تخيلات غريبة عن أرواح الآلهة ، ويكفينا أن نختم هذه الكلمة بحقيقة أخرى وهى أن الإله يمكن أن يكون بمثابة روح لإله آخر . فمثلا «أمون» كان روح «شو» [3] أو روح أوزوريس . وعندما عانق أوزوريس إله منديس الممثل على شكل التيس تكوّن من هذا العناق روحا مزدوجة [4] .

وليس من شك فى أن الصورة التى أعطيناها هنا عن معتقدات المصريين وتعاليمهم الدينية هى صورة محزنة . كما أن مانعرفه غير ذلك عنها لايدفعنا إلى تحسين هذه الصورة على أىّ شكل من الأشكال . فمثلا الفكرة البسيطة التى بدأت باعتقادهم أن الشمس تسير فى قاربها أثناء الليل فى الدنيا السفلى وفى عالم الموتى ، هذه الفكرة جعلوها نواة لما ملأوا به صفحات كتب متعددة تحدثوا فيها بتوسع كبير عن إله الشمس وما يلقاه أثناء تجوّله الليلى (قارن الفصل الرابع عشر) كما أنهم حاولوا تنظيم ذلك الخليط العجيب من التعاليم الدينية . ويبدو ذلك واضحا من تلك الصفات

---

(١) وفى حالات استثنائية كان للفرد العادى كذلك أكثر من «كا» واحدة ، انظر :
Mar. Mast. F 2 ; Rougé J H 38

(٢) راجع Pyr. Text. Spruch 474, 575, 580, Sethe A. Zeit. 57.

(٣) راجع Brugsch, Grasse Oase, 16,40.

(٤) راجع Grapow, Dissertation S. 39, Mammisi d' Edfou, ed. Chassinat 96
وفى إدفو كان يعتقد أن روح أوزيريس تتألف من أربع أرواح هى روح «رع» فى إدفو وروح «شو» وروح «كب» وروحه هو نفسه .

المختلفة التي تعطى لعـدد من الآلهة سميت باسم واحد . ومثل ذلك هو معبد الكرنك فقد أقيم فيه معبد صغير للإلهة « موت » كان من بين معبوداته عدد كبير سمى باسم « سخمت » إلهة الحرب فرقت صفات كل منها الواحدة عن الأخرى : « سخمت » محبوبة « بتاح » ، سخمت سيدة الصحراء الغربية ، سخمت فى بيت « باستت » ، سخمت الكبرى ، سخمت المحبوبة من « سوبك » وغير ذلك [1] ، ونحن نعرف أيضا من نصوص معبد دندرة أن هناك مئات من الإلهات « هاتحور » عبدت فى مناطق متفرّقة من مصر .

ووجه علماء الكهنة المتفقهين فى الدين نفس العناية إلى قصص الآلهة فنظموه ولكن ليس بالطريقة التي تقرّبه إلى الأذهان ، فما ارتبط منه بحياة الشعب أهملوه وجعلوا منه موجزا مشوّها، ثم سعوا إلى تحقيق ما بدا لهم مهما محاولين تفسير ما أطلق عليه من اسماء ، ووجدوا ضالتهم دائما فيما نسبوه إلى الإله من أقوال وأعمال . فاذا وجدوا مثلا أنه قد قيل فى نصوصهم إن الإله رع قد تنازل لأوزوريس عن ملكه فنجدهم قد أضافوا إلى ذلك قصـتين تعتورهما الحماقة والسخف [2] : لقد فزع ست أمام عظمة غريمه إلى درجة أن نزف الدم من أنفه ، فأسرع ودفن هذا الدم فى الأرض فنشأ عن ذلك ما أطلقوا عليه حرث الأرض وهو عيد احتفل به فى مدينة إهناسيا (هيراكليو بوليس) وفى بعض المناطق الأخرى . ثم عندما ثبت رع تاجه على رأس أوزوريس، مرضت هذه متأثرة من حرارتها الملتهبة ، ولكن رع أخرج الدم والقيح من الرأس وشفى أوزوريس وتكوّن من هذا الدم والقيح تلك البركة بجوار معبد هيراكليوبوليس .

ونذكر هنا مثلا آخر يدل بوضوح إلى أىّ درجة مسخ هؤلاء المتفقهون القصص القديم . كان أهل إدفو يقصون أن إلههم وهو قرص الشمس المجنح الذى أطلقوا عليه اسم حوريس قد حارب أعداء رع . ولما كانت العادة عند الحديث عن حوريس أن يذهب الذهن إلى حوريس ابن إيزيس لذلك أدمج الناس قصة الكفاح

---

(١) راجع : A. Zeit. 58, 44

(٢) راجع Totenbuch 175 nach. Kees A. Z. 65 ff

المرير الذى حدث بين حوريس هذا وبين ست فى قصة قرص الشمس المجنح وأصبح يظن أن الأعداء هم ست وجماعته الذين تشكلوا على هيئة التماسيح وأفراس البحر ، على حين ضم حوريس إليه علاوة على المعبودة الأجنبية عشتروت مجموعة من الآلهة حملة الخطاطيف . واعتمادا على هذه القصة ألف أحد كهنة إدفو ممن عاشوا فى عهد الدولة الحديثة [1] حكاية مطوّلة عن الكفاح وما وقع إبانه من أحداث كما يلى :

سافر رع وحوريس إدفو وتحوت فى سفينة وجابوا مصر من حدودها النوبية إلى البحر ، وبكل مكان عثروا فيه على أعداء شريرين تقدم حوريس وانتصر عليهم وقتلهم ، واعتاد تحوت أن يبدى ملاحظة إلى رع بعد كل انتصار وفى كل مكان ، وكانت هذه الملاحظة هى الأصل الذى ترجع إليه تسمية هذا وذاك من مدن وقنوات ومعابد وأعياد وأشجار وسفن وكهنة ومغنيات أطلق على كل منها اسمه بعد كل معركة ونتج عن ذلك من ٦٠ الى ٧٠ اسما عرفها ذلك الكاهن المجدّ . وإذا ابدى لنا هذا التفقه فى العلم سخيفا فانه قد أثر على الكثيرين ووجد بينهم عشاقا معجبين إلى درجة أن أحدهم عاش فى القرن الأوّل قبل الميلاد قد رأى فى هذه القصة وثيقة ثمينة تشيد بعظمة اله هذا المكان [2] فنقشها على الجدران الداخلية للسور المحيط بمعبد إدفو .

وفى آخر الأمر ألف هؤلاء العلماء المتفقهون قصة عن التاريخ الأوّل للعالم حاكو أطرافها مما تجمع لديهم من قصص وحكايات ، وتقول هذه القصة إن الآلهة فى أول الأمر كانوا ملوكا لمصر العليا ومصر السفلى ، وإن الناس عرفوا مدة حكم كل منهم ، ولقد ورد على بردية تورين أسماء هذه الآلهة مبتدئة بالإله كب ، ثم أوزوريس وست وحوريس ثم تحوت ومعات ويتبع ذلك أسماء بعض الآلهة الأقلّ شأنا ، وتأتى فى آخر القائمة أسماء « خدم حوريس » أى أسماء الملوك العشر الذين حكموا

---

(١) مما يدل على أن هذه الصيغة فى الأسطورة تنتمى إلى الدولة الحديثة أنه قد ورد فيها ذكر الإلهة الأجنبية عشترت .

(٢) راجع Brugsch, Sage von der Geflügelten Sonnenscheibe (Abh. d. Goettinger Gesellschaft der Wissenschaften 1870)

فى العصور الأولى . وانقاد العلماء فى هذا الطريق إلى درجة أنهم كوّنوا لكل إله ألقابا تشبه ألقاب الفراعنة ، ولقد عثر على لوح حجرى [1] أقيم فى مقبرة بأبيدوس ترجع إلى عهد الدولة الوسطى وكتب عليه اسم أوزوريس مصحوبا بلقبين من ألقاب ملوك مصر : « حوريس الذى هدأ من المذابح فى قطرى مصر — ملك الشمال والجنوب — أوزوريس — أون — نفر . » .

وسمى ست فى وثيقة ترجع إلى عصر الدولة الحديثة :

« ملك الشمال والجنوب — ست القوى — ابن الإله رع المحبوب منه ، نوبتى محبوب الإله حور أختى » [2] .

وكان من واجبات علماء اللاهوت أن يقوموا بتفسير النصوص الدينية القديمة . وعثرنا على تفسير لما نسميه الفصل السابع عشر من كتاب الموتى . وفى هذا النص العريق فى القدم يعلن الميت أنه ذو كنه إلهى ويفاخر بأنه أصبح هذا أو ذاك الإله ، فمثلا يقول : أنا « مين » فى خروجه وثَبَّتُّ الريشتين العاليتين على جبينى » وفى هذا القول ما يرجع فى الأصل إلى ذلك الاحتفال الذى يظهر فيه تمثال هذا الإله وقد ثُبِّتت فوق رأسه الريشتان اللتان تعتبران من العلامات المميزة لهذا الإله .وإذا رجعنا إلى التفسير القديم نجد أن « مين » هنا هو الإله حوريس بن أوزوريس . ولأن تمثال حوريس لاتميزه الريشتان فسرت هذه على أنهما : « الصّلان الكبيران اللذان يحليان جبين أبيه أتوم » . وفى تفسير آخر يرجع إلى عصر الدولة الحديثة نجد أن « مين » قصد به أيضا حوريس ولكن لجأ صاحبه إلى التغلب على صعوبة تفسير الريشتين بشكل آخر فقال إن « الخروج » معناه « ولادة » حوريس وذكر القارئ بقصة تحدثت عن إيزيس ونفتيس اللتين ثُبتا على جبين حوريس كعُقابين وإليهما ترجع الريشتان . ويبدو أن هذا التفسير لم يكفه فأورد تفسيرا آخرا . كما لو كان للقارئ أن يختار بينه وبين ماسبقه ، وهو أن هاتين الريشتين هما فى الأصل عينا حوريس .

---

(١) Louvre. C. 2

(٢) A. Z. 65 ,87

وفى موضع آخر من هذا الفصل يقول الميت عن نفسه :

« كنت البارحة وأعرف الغد » ويقصد بذلك أنه كإله لايعرف الوقت ، ولكن أصحاب التفسير يقدمون لنا هنا معنى آخر لقوله هذا . فالبارحة معناها « أوزوريس » والغد معناه « رع » فى ذلك اليوم الذى أباد فيه أعداء « أوزوريس » وتقلد فيه ابنه حوريس مقاليد الحكم .

ويرى المرء من هذه الأمثلة كيف حوت رءوس هؤلاء العلماء المتفقهين فى الدين عقول أطفال .

الفصل السابع

الحوادث التاريخية وأثرها

حدثنا حتى الآن عن القوى الخفية التى تُؤثر باستمرار فى الديانة وتشكلها . . . ولكن بعض الحوادث الخارجية قد أثرت فيها أيضا وقطعت سلسلة هدوئها . ومع عدم إحاطتنا بالتاريخ المصرى إحاطة تامة فاننا نعتقد أنه يمكننا معرفة هذه الأحداث التى نفرد لها هذا الفصل .

فى طليعة ما تواتر لنا من روايات نجد حدثا كان له أكبر الأثر على الديانة ؛ إذ اتحدتا مملكتا مصر العليا والسفلى لتكوّنا دولة واحدة صار مقرّ حكمها منف . وقد تحدثنا غير مرّة عما كان لهذا من أثر فى الديانة ، فحسبُنا عنها حديثا ولقد غدت الديانة بعدئذ شبيهة بالحكومة ، أى أصبحت ذات صبغة موحدة تؤلف عقيدتا هليوبوليس ومنف نواتها .

وفى نحو عام ٢٥٦٠ ق . م . كانت الأسرة الحاكمة التى ابتنت لنفسها الأهرام الكبرى قد انتهى حكمها وخلفها ما يسمى بالأسرة الخامسة . وينتمى ملوك هذه الأسرة إلى أحد كهنة إله الشمس . وكانوا يعبدون هذا الإله بنوع خاصّ حتى إن كلا منهم ابتنى لنفسه فى مقرّه معبدا للإله رع على نمط معبد هليوبوليس الأكبر .

ومن أكبر علامات الشرف[1] التى تمنح لشخص ما هوالسماح له بالقيام بخدمة رع فى ذلك المعبد الخاص بالملك ، وهكذا أصبح رع الإله المفضل لدى الطبقات العليا . وفى المدن الأخرى كذلك حرص الناس على تقديم العبادة إلى هذا الإله النبيل . فان لم يكن لدى هذه الجهات آلهة للشمس فاننا نجد من غير شك إلها آخر عظيما ذا طبيعة كبيرة الشبه بطبيعة الإله رع . حتى إنه إذا قام أحد الكهنة المتعمقين فى العلم ليحققه بدقة فلن يشك فى أن هذا الإله هو أيضا إله الشمس فى صميمه . وعلى ذلك فانه

---

(١) مثلا Urk. I, 175

حدث على مرّ السنين أن كثيرا من هؤلاء الآلهة – مع استثناء الإله بتاح وحده [1] – تحولوا إلى إله شمس . وإننا لندرك المظهر الخارجى لهذا التحوّل من إضافة اسم رع إلى أسمائها القديمة : منتورع ، سوبك رع ، خنوم رع ، أمون رع . وفى هذه المرحلة من تطوّر الديانة المصرية نرى ميلا واضحا إلى الاتحاد فى عبادة شمسية كان يتألق فيها إله الشمس خلال صور عديدة قديمة للمعبودات . وقد بلغ الأمر فى النهاية إلى حد اندماج أوزوريس – إله الموتى الطيب – فى إله الشمس . ولم تكن هذه الفكرة بعيدة كل البعد عن الصواب ، إذ أن الشمس كانت ترتحل كل ليلة فى العالم السفلى حيث يكوّن رع وأوزوريس – طبقا لمعتقدات اللاهوتيين – « الروح المتحدة » [2] وهذا الاتصال بين الإلهين يتمثل فيما بعد فى الكتابة حيث يكتب اسم أوزوريس أوزى – رع وليس أوزيرى كأنما يحتوى اسمه اسم إله الشمس .

– ولكن هذا الهيام باله الشمس أفاد شخصا آخر هو الملك ، فمنذ الأسرة الخامسة – كما رأينا فى الفصل الرابع – كان يعد ابنا للإله رع . وكان كل ملك يختار لنفسه عند اعتلائه العرش اسما له صلة برع ليشارك رع فى طبيعته ، ثم – حين يموت – يصعد إلى السماء ويتحد مع أبيه وهكذا يعود إلى الكائن الإلهى الذى ينتمى إليه .

وعند انهيار الدولة المصرية حوالى عام ٢٢٥٠ ق . م . كان بين الدويلات التى تمكنت من الارتقاء إبان العصور التالية ، دويلة مركزها مصر العليا وعاصمتها طيبة . وقد كان يعبد فى هذا الإقليم بصفة خاصة منتو ومين ، ولكن كان إلى جانبهما إله آخر – كما رأينا فى صفحة ١٠٩ وهو الإله أمون أحد آلهة شمون الثمانيه الأولين ، ويرجح أنه لم يكن إلها شعبيا أبدا لأننا لانعرف أىّ قصص قديم يرتبط به ، وهو لم يكن فى طيبه سوى صورة أخرى لـ « مين » وكان – مثله – يصوّر منتصب القضيب رافعا ذراعه وكان يحمل سوطا ، وعلى رأسه قلنصوة تعلوها ريشتان كبيرتان ، وكان لون جلده أزرق . وما ساعد أمون على الارتقاء إلى مرتبة إله عظيم ، إن أسلاف الأسرة الثانية عشرة قد اختاروه إلها عائليا فترى أول ملوك الأسرة وقد حكم مصر

---

(١) Ed. meyer 1, 2^2 , 272

(٢) Totb. 17 Thèse de Grapow, P. 39

حوالى ٢٠٠٠ ق . م . يتخذ الاسم المميز آمون — ام — مات ، أى « امون فى المقدمة [١] » . ونظرا إلى الدور الذى كان على أمون أن يؤديه كإله للآلهة صار لزاما عليه أن يتحوّل إلى إله شمس تحت اسم آمون رع ، وهكذا اتخذ مركزا ممتازا بالنسبة إلى جمهرة آلهة المقاطعات الصغيرة ، وقد اتخذ لهذه المناسبة مظهرا آخر أكثر احتشاما ، فمن ذلك الحين صار يمثل جالسا على عرشه كملك ولم يحتفظ من مظهره الأول بغير القلنصوه ذات الريش ولون الجلد الأزرق ، ولكن ارتفاع شأن أمون رع الذى كان يجب أن يضعه فى نهاية الأمر على رأس الآلهة جميعا توقف فجأة .

وحوالى عام ١٧٠٠ ق . م غزا مصر شعب أجنبي يعرف عادة باسم الهكسوس ولسنا ندرى على وجه التحقيق إلى أى جنس كان ينتمى هؤلاء الغزاة ، كما أننا نجهل أية آلهة كانوا يعبدون ، وإن كنا ندرك تماما أنهم لم يكونوا يعبدون على كل حال الآلهة المصرية ، وعند ما قام الملك خيان الهكسوسى بزخرفة معبد بوبسطة لم يلقب فيه بلقب المحبوب من آلهة هذا المعبد كما كان معهودا من قبل ، أى باستت ، بل أطلق عليه لقب « ذلك الذى تحبه « كا » . ولم يفاجأ المصريون بهذه التسمية لأنهم كانوا يدركون أنّ لكل منهم روحا مماثلة ، وأن الملك الهكسوسى له الحقّ مثلهم أن يتخذها إلها شخصيا .



٤٧ — امون رع يقدم للملك السيف وبعض الشعوب الأجنبية (من معبد مدينة حابو)

ثم عند ما اتخذ الهكسوس عاصمة لملكهم [٢] فى شرق الدلتا عبدوا الإله سوتخ ، وقد تواتر أن الملك أبوفيس « لم يعبد إلها آخر فى كافة البلاد » .[٣]

ولنرجع الآن إلى أمون رع لأنه سيصل إلى قمة مجده بعد طرد الهكسوس ، وقد تمكن أمراء طيبة من

---

(١) Hymne à Amon de Leyde, verset 100

(٢) وهى أفاريس ، التى أصبحت فيما بعد تانيس . والإله سوتخ هو نفسه الإله ست فى مصر العليا ، على أن اسمه كتب فى شكل هجى .

(٣) Sallier I, 1.; cf. Litt. P. 214

تحرير مصر من النير الأجنبي ، وعندما امتد حكم الأسرة على مصر كلها دون أن تهجر مقرّها طيبة صار من المحتوم أن يصبح أمون رع إلها للمملكة وأكبر إله فى البلاد . ومنذ ذلك الوقت اتخذ لقب ملك الآلهة ، بل وأكثر من ذلك – شاء القدر أن يتمتع ملوك الأسرة الثامنة عشرة التحوتمسيون والأمنوفسيون – وهم الذين رفعوا إلههم أمون عاليا – بعظمة لم تعرف لها مصر مثيلا من قبل . فمن الفرات إلى السودان كانت جميع البلاد تدفع الجزية ، وقد انتشرت عظمة إلههم فى كل هذه الأرجاء الشاسعة ، وقد أقام فراعنة القرنين السادس عشر والخامس عشر والأسرات اللاحقة معابد طيبة الضخمة للإله أمون رع بوساطة هذه الأموال التى تدفقت على مصر رمزا لتقديرهم وعرفانهم بسبب ذلك النصر الذى قادهم إليه . وقد أقاموا فى البلاد الأخرى من امبراطوريتهم هياكل جديدة حتى يستطاع خدمة إله ملكهم فى كل مكان . وهكذا أصبح أمون رع حقيقة – ولمدة طويلة – أول إله للمصريين . ولكنه لم يكن أحد الآلهة الكبار القدامى ، بل إنه أخذ كل مظاهر طبيعته تقريبا من الآلهة الآخرين . وكل من يقرأ الأنشودة الكبيرة التى يمجد فيها هذا الإله صاحب الأسماء المتعددة [1] يلاحظ سريعا أنه إذا استثنى اسمه وذكر الكرنك لايوجد سوى القليل مما يتصل مباشرة بأمون . والحقيقة أنه ليس هناك غير تلاعب بالألفاظ حول اسمه كرئيس للناس الذى يختفى اسمه (أمون) عن أولاده . وكذلك كان فى لقب « الذى يوجد فى كل شىء » ما يمكن تفسيره بالطبيعة الأصلية للإله القديم الأول أمون الذى رُمز به للهواء [2] . وإنما كل ما يقال عنه يرجع إلى إلهين آخرين دون غيرهما . واسم هذين الإلهين مضافا إلى اسمه « مين » . « رع » ، فهو مثل « مين » يحتفل به لأنه يحمل ريشتين عاليتين . وهو مثل « مين » كذلك يحمى طرق الصحراء رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطريق المؤدية إلى البحر الأحمر . وهكذا يقولون عن أمون إن الآلهة تحبّ رائحته حينما يأتى من بنت (بلاد البخور) وهو غنىّ بالعطور حينما ينزل من بلاد المازوى وهو حوريس الشرق الذى تجلب له الصحراء الفضة

---

(١) Hymne à Amon du Caire

(٢) cf. Sethe, Amon 217 ff.

والذهب واللازورد حبا فيه . كما تجلب له كل أنواع البخور من بلاد المازوى والمر الطازج لأنفه . وتذكر عادة كل هذه المنتجات تمجيدا لجاره « مين » . أما تقريب شخصيته من « رع » فيذهب إلى أبعد من ذلك ، فان الإله يسمى رع - خبرى أو أتوم ويلقب بـ « ثور هليوبوليس » أوالذى يتألق فى بيت حجر Benben وهو يعبر السماء بسلام وهو صاحب سفينة المساء وسفينة الصباح ،وهو كذلك يحارب التنين أبوفيس ، وهو مثل رع فإن عينه هى التى تصرع الأعداء ويفرح قومه حين يرونه يصرع عدوّه « أبوفيس » وكيف تقطع أعضاؤه بالسكين وكيف تلتهمه النار وكيف تعاقب نفسه أكثر مما يعاقب جسده . هنا الأفعوان يمنعون مجيئه - الآلهة فى نشوة وحاشية رع مسرورون فان أعداء « أتوم » مصروعين وطيبة راضية وهليوبوليس قريرة .

وقد كان ما يحكى عن إله الشمس من أساطير ينسب كذلك إلى أمون ، فهو قد قام بمحاكمة حوريس وست فى الصالة الكبرى بصفته رئيس التاسوع الأكبر . ويعتبر أمون رع - كإله الشمس - خالق كل شىء هو الذى عمل كل ذلك . هو الوحيد صاحب الأيدى الكثيرة - هو أب الآلهة الذى صنع الناس وخلق الحيوانات وفرق بين الناس حسب أنواعهم . خرج الناس من عينيه والآلهة من فيه . ولكن أمون رع هو أيضا عضد وعائل كل الكائنات الحية - وتمجد الأنشودة خاصة هذه الناحية من طبيعته - هو يسهر فى الليل حين ينام الناس أجمعون . وكالراعى الصالح يبحث عن الأفضل لقطيعه . وهو يُنبت الحشائش لقطعانه وشجر الفاكهة للناس . وهو يخلق ما تعيش منه الأسماك فى النهر والطيور فى السماء . وهو يعطى نسمة الحياة لمن لم يخرج بعد من البيضة ويطعم ابن الدودة . وهو يخلق ما يعيش منه البغوض والدود والبراغيث . وهو يضع ما يلزم للجرذان فى جحورها ويطعم الطيور على كل الأشجار . النيل الطيب المحبوب يأتى حبا فيه - وحينما يأتى يحيا الناس .

هذا القادر رئيس كل الآلهة ، الذى تقعى الآلهة عند قدميه كالكلاب ، له رغم ذلك قلب مستجيب محب حينما يدعى . هو منجى الخائف من اعتداءات السفيه ويسمع دعاء ذلك الذى فى كرب وضيق . ولهذا فإن كل واحد يحبه ويعظمه مهما

علت السماء وانبسطت الأرض وازداد البحر عمقا . الآلهة تخضع أمام جلالك وتمجد خالقها . هم فى نشوة حين يقترب خالقهم . « المجد لك » تقولها كل الحيوانات المتوحشة و« التسبيح لك» تقولها كل صحراء . جمالك يأسر القلوب وحبك يشل الأذرع وصورتك الجميلة تجعل الأيدى لاتقوى على الحركة والقلب ينسى من كثرة التأمل فيك .

وسنرى فى الفصل التاسع بالتفصيل إلى أىّ درجة صار أمون شعبيا بوصفه مساعدا وصانع خير للناس . ولكننا ندرك من النظرة الأولى أن هذه الظاهرة من طبيعته أقل أهمية لنا من تلك التى تظهره كإله للشمس ، ذلك لأنه هو فى الأصل سبب هذه الثورة الكبرى التى نسميها الآن بعصر الهرطقة .

ويتضح جليا من أنشودة من عصر أمنوفيس الثالث (١٤١١ – ١٣٧٥) – أى العصر الذى يسبق مباشرة عصر الثورة الكبرى – كيف تغيرت عبادة أمون رع تدريجيا إلى عقيدة خالصة فى إله الشمس . وفى الواقع أن أمون رع لايحتفل به فى هذا الوقت إلا بصفته الشخصية ، وليست هناك إشارة إلى أية صفة أخرى مما ذكر فى الأنشودة الكبرى لأمون . ولكن الأخوين التوأمين حور وسوتى اللذين تحمل لوحتهما هذه الأنشودة كانا بلا شك عابدين صادقين لأمون ، لأن الاثنين كانا يمجدانه بصفتهما من كبار مهندسيه المعماريين أحدهما على الضفة اليمنى والآخر على الضفة اليسرى للنيل . وهاك أهمّ ما تحتوى عليه أنشودة أمون حينما يشرق بصفته حور اختى :

التسبيح لك إنك رع الجميل كل يوم . الذى يطلع فى الصباح دون توقف .

خبرى الذى تجهد نفسك ، فى العمل .

الأشعة أمام أعين الناس ولكنهم يتجاهلونها . الذهب لايشبه لمعانك .

أنت بتاح وقد كوّنت أعضاءك . أنت معطى الحياة الذى لم يولد .

أنت الوحيد من نوعك الذى يعبر الأبدية كلها . لمعانك شبيه بلمعان إلهة السماء ولونك يتألق أكثر مما يتألق جلدها .

أنت تسبح فوق السماء . والناس جميعا يتأملونك . ولكن مسراك خفى عليهم رغم ذلك .

ثم يشار إلى المسرى السريع البعيد الذى تقوم به الشمس كل يوم ، وهو طريق مكوّن من ملايين ومئات الآلاف من الأميال فى لحظة واحدة . وحينما يذهب ليستريح تنتهى بالمثل كل ساعات الليل ويضبطها دائما دون توقف . ثم يستمر التسبيح بهذه العبارات . فبفضلك ترى جميع العيون ولا تقوم بأداء شىء بعد أن تنام جلالتك . تقوم مبكرا لتظهر فى الفجر . نورك يفتح الأعين ولكنك حينما تغرب فى جبل مانون Manoun فانهم ينامون كالأموات .

وإذا كانت الفقرة الأولى موجهة إلى « رع الجميل فى كل يوم » فان هناك فقرة ثانية تمدح الشمس تحت اسم « أتون » وهى ذات الكلمة التى ستصبح بعد ذلك بمدة يسيرة علما لعصر الثورة . . . هكذا تعبر الفقرة التالية :

« المجد لك أى شمس النهار التى خلقت كل الكائنات الحية وتكفلت بما يحتاجون إليه . أنت أيها الصقر الكبير ذو الريش المختلف الألوان الذى ولدت لتنشئ نفسك الذى جئت من نفسك بنفسك دون أن تولد .

أى حوريس المسن فى وسط آلهة السماء . ذلك الذى تصعد نحوه أصوات البهجة فى شروقه وغروبه معا .

أى خالق ما تنتجه الأرض . خنوم وأمون الناس . الذى تملك القطرين من أكبر الأشياء إلى أصغرها . أنت الأم الرائعة الممتازة للآلهة والناس ، أنت الخالق الطيب الذى يتعب نفسه من أجل مخلوقاته العديدة .

أيها الراعى القوى الذى يقود قطعانه . أنت ملجؤهم الذى تحفظ عليهم الحياة . إنه ذلك الذى يسرع . ذلك الذى يجرى . هو الذى ينهى دوراته . «خبرى» صاحب المولد الجليل الذى يأخذ من جسم نوت جماله هو الذى ينير القطرين بشمسه . الإله الأصيل الذى خلق نفسه .

هو الذى يصل كل يوم إلى حدود البلاد وينظر إلى الذين يتجولون فيها . هو الذى يشرق فى السماء . هو يقسم الفصول إلى شهور ، وينتج الحرارة حينما يريد والبرودة حينما يشاء . هو يطوى الأعضاء ويحتضنها . كل بلد تتوسل إليه عند طلوعه يوميا كى تعبده .

هاهى ذى محتويات الأنشودة ولسنا نستطيع أن نقول كيف قامت الثورة الكبرى التى يشار إليها منذ الآن . ولكننا إلى حد ما نلاحظ أن ساعتها قد أذنت .

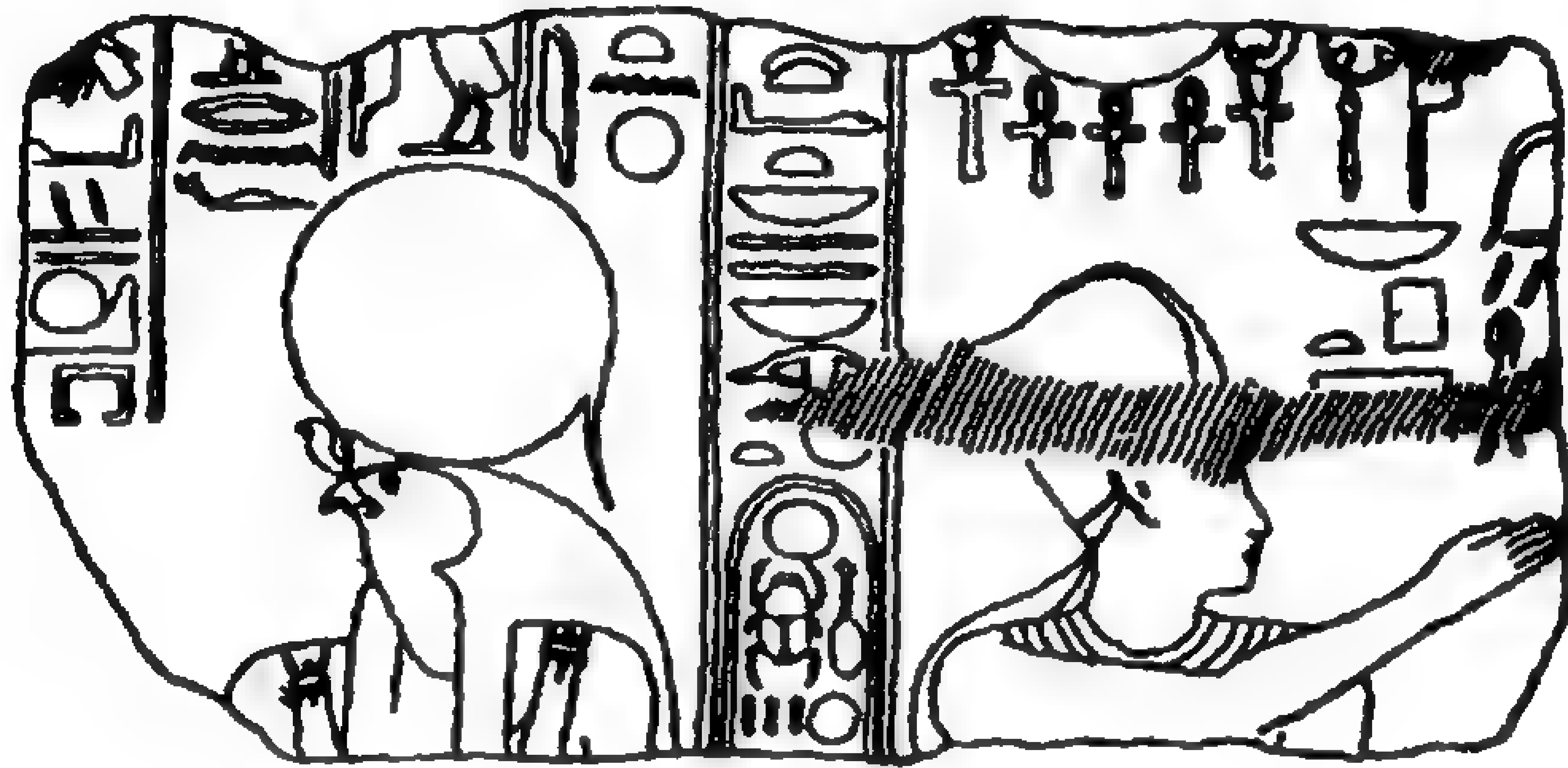
الفصل الثامن

عصر الهرطقة

إذا تساءلنا عن الوقت الذى وصلت فيه إمبراطورية مصر الحديثة إلى أوج عظمتها ، فان علينا أن نذكر عصر أمنوفيس الثالث قبل كل شىء (١٤١١ — ١٣٧٥) ففى عهده كانت مصر لاتزال تتمتع خارج حدودها ببسطة نفوذها . وكانت حينئذاك أول دولة فى العالم . وأما فى الداخل فقد كانت تتمتع بثرائها وتنعم بالحضارة التى يجلبها الثراء . وكان الفنّ المصرى فى ذلك الوقت فى أوج ازدهاره ، ولم يوجد من قبل ولا من بعد ما يمكن أن يقارن فى بساطة جماله بمعبد الأقصر . ولم يستطع النحات منذ ذلك الوقت بلوغ ما بلغ ذلك الفنّ من جمال ودقة ومهارة عالية . ولكن عهد ازدهار وفخامة وأبهة كذلك العهد لايخلو من خطر الانتكاس الذى يكون مصدره البَطَر ، حين يزهد المرء فيما يملك ويتوق إشباع نهمه بشىء جديد . ولذا فنحن نستقبل فى عصر أمنوفيس الثالث أشياء معينة ليس لها كبير صلة بما كان خاصا بمصر القديمة . فاذا كان الملك حتى ذلك الوقت يعتبر فى المعابد نصف إله فان النصف الإنسانى منه كثيرا ما يتغلب على النصف الإلهى . فى تسجيل للحوادث ذات الشأن فى عصره نراه يقص لنا على جعلان كبيرة أنه قتل عشرة ومائة من الأسود ، وأنه طارد قطيعا من الأبقار الوحشية ، وأنه احتفر بحيرة كبيرة للملكة وافتتحها رسميا ، كما أرسل إليه ملك ميتانى إحدى بناته ومعها حاشية مكوّنة من ثلاثمائة وسبع عشرة فتاة . ولكنه يهمه قبل كل شىء أن يذكر الأجيال المقبلة أنه وهو الملك العظيم قد تزوّج من تى ابنه يويا وتويا ، أى امرأة ليست من الدم الملكى والقارئ المفكر يقدر كيف لاتليق مثل هذه الحوادث بالملكية المصرية . وأن الملك الذى كان يحب أن يظهر بهذا المظهر الجديد كان فى طريقه إلى أن يصير حاكما دنيويا كما كان جيرانه فى بابل وميتانى .

ومن ناحية أخرى كانت كثيرا من الأفكار قد بدأت تتخمر فى عقلية الشعب

المصرى لأن الثورة الكبرى التى اندلعت فى عهد خلفه لايمكن فهمها بخلاف ذلك . . كان الناس يضيقون بالحياة فى ظروف موروثة عن العهود السابقة والتى تظهر كأكاذيب لقوم أحسن استعدادا لم يعد الناس يريدون الكتابة بلغة شاخت منذ أمد طويل ولم يعودوا يريدون تصوير الناس على هيئة لطيفة بوجوه ذات ابتسامة محببة . . . إنهم صاروا قادرين على تصوير تقاسيم الوجه على حقيقتها – وقبل كل شىء – كانوا قد ملوا خدمة ديانة تجرّ وراءها أشياء لاتعنى شيئا لأناس يعقلون [١] . وكانوا يودون عبادة وحبّ الآلهة التى يرونها ويحسون بأفضالها – أى الشمس – إن هذا الجيل الجديد كان يسير إذن نحو الحقيقة .



٤٨ – من مبنى لأمنوفيس الثالث فى طيبة .
إلى اليمين الملك وهو يتعبد ومن فوقه الشمس ؛ وإلى اليسار إله الشمس فى شكله القديم ولكن باسمه الجديد (برلين ٢٠٧٢)

وأمر بناء معبد للشمس فى الكرنك عند نهاية حكم أمنوفيس الثالث يثبت إلى أىّ حدّ يرجع الاتجاه الجديد إلى هذا العهد [٢] ، ولا شك أن هذه الحركة كانت عامة [٣] . ولو أن العلماء – كما سنرى فيما بعد – كانوا فى طريقهم إلى تنفيذها . وكل

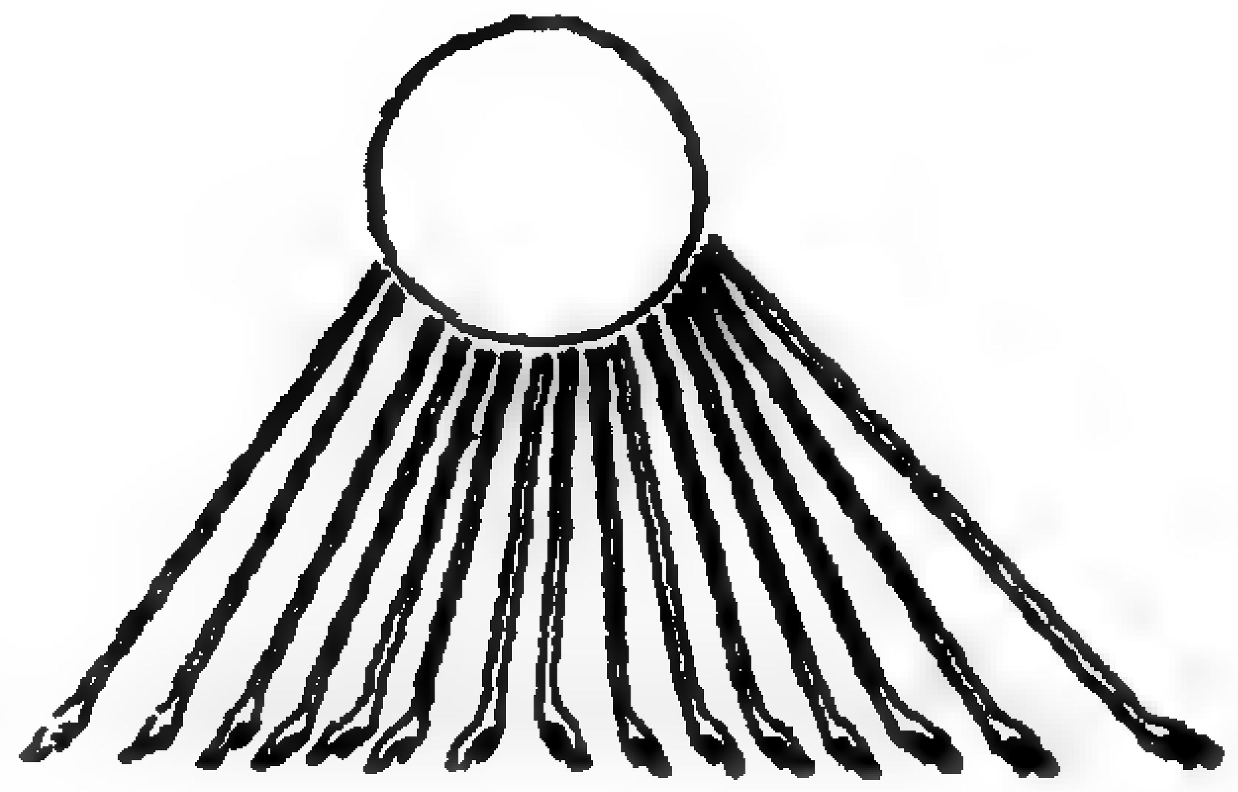
(١) يرى إدوارد ماير فى كتابه Geschichte. des altertums t., II² S. 326 كذلك أن فى هذه الحركة ثورة من الطبقات المثقفة .

(٢) يملك متحف برلين كتلة حجرية من هذا الأثر رقم ٢٠٧٢ – قارن Schâfer فى كتابه Amarna in Relégion und Kunst وكذا مقاله لبورخاردت Mitt. der Deutsch. Or. Gesell. s. فى Borchardt nº 57, 18 S.

(٣) يذكر إدوارد ماير (Geschichte I², 80) بحق أن مثل هذه الحركات العظيمة لم يقم بها الكهنة أنفسهم .

المفكرين أبدوا من غير شك وريث العرش الجديد حينما جرؤ عند اعتلائه العرش على بدء العهد الجديد . ولا يمكن تقدير عمق الهوّة التى سيحفرها مثل هذا القرار .

ما هى المميزات لهذه العقيدة الجديدة ؟ نحن نعرف صيغة عبرت عنها بوضوح ، وهى الاسم الغريب الذى أعطى منذ ذلك الوقت إلى إله الشمس : يعيش حور اختى – الذى يتهلل فى الأفق – فى اسمه شو الذى هو أتون (الشمس) واسمه موضوع على هيئة اعتراف بالمعتقد الذى لم يكن يعنى شيئا فى واقع الأمر بالنسبة للرجل العادى .



٤٩ – الصورة الجديدة لإله الشمس

كان يجب أن يكون أقرب إلى أذهان الشعب ألا يمثل إله الشمس كسابق العهد على هيئة إنسان ذى رأس صقر ، بل على صورة الكوكب نفسه فحسب . ومن الشمس تخرج أشعة تنتهى بأيدى . وهذه الأيدى معناها أن الشمس تعطى الإنسان الحياة وكل ماهو طيب . وفى بعض الأحيان كان يثبت فى الطرف السفلى للقرص شعاره القديم ـ الصل ـ كأثر أخير للتصويرات القديمة . وقد وصلت إلينا محتويات هذه العقيدة الجديدة الحقيقية عن طريق تسبيحات وأدعية مختلفة نستطيع قراءتها فى مقابر تل العمارنة . ولا يوجد فيها شىء متصل بالعقائد أو اللاهوت . وليس إله الشمس فيها سوى الخالق المحببّ عند كل الأحياء . وأجمل هذه التسبيحات عبر عليها فى قبر الكاهن « آى » وسنتكلم عنه كثيرا فيما بعد . وهذا هو نصها :

إن ظهورك جميل فى أفق السماء أيتها الشمس الحية أولى الأحياء
إنك طلعت فى الأفق الشرقى من السماء وتملأ كل البلاد بجمالك .
أنت جميل وكبير تتألق وأنت فوق كل البلاد .
ان أشعتك تحيط البلاد بقدر ما خلقت منها .
أنت رع وأنت تخترقها حتى نهايتها [1] وتأسرها بحبك من أجل ابنك (أى الملك) .

(١) فى هذا مجاز لفظى مع كلمة رع .

أنت بعيد ولكن شعاعك على الأرض . . . نراك ورغم ذلك لانعرف مسراك .

عندما تختفى فى الأفق الغربى تصبح الأرض فى ظلام كما لو كانت مائتة .

ينامون فى حجراتهم ملفوفى الرءوس ولا ترى عين عينا أخرى .

إذا سرقت منهم حاجياتهم جميعا من تحت رءوسهم فانهم لايحسون .

كل أسد يخرج من وجاره وجميع الزواحف تلدغ .

والأرض فى سكون لأن من خلقها يستريح فى أفقه .

عندما يطلع النهار وتبزغ عند الأفق وتتألق فى النهار ككونك شمسا تطرد الظلام وتهدى شعاعك، القطران[1] يفرحان . إنهم يستيقظون من النوم ويقفون على أرجلهم عند ما توقظهم ، فيغتسلون ثم يرتدون ملابسهم وترتفع أيديهم علامة على التعبد عند ما تظهر ، ثم تنهمك البلاد كلها فى أعمالها .

القطعان كلها فرحة بمراعيها . الأشجار والنباتات تخضر . الطيور تخرج من أعشاشها وتسبحك بأجنحتها . جميع الحيوانات تقفز على قوائمها وكل ما يعيش ويرفرف يحيا عند ما تشرق من أجله .

القوارب تهبط وتصعد النهر . كل طريق مفتوحة لأنك طلعت. الأسماك فى النهر تقفز أمام وجهك وأشعتك فى وسط البحر .

أنت الذى تجعل أحشاء المرأة تثمر وتضع النطفة فى الرجل . أنت الذى تطعم الابن فى بطن أمه وتهدئه حتى لايبكى ، كرضع فى بطن الأم .

أنت الذى تعطى الروح لمن تخلقه حتى تحييه . عند ما يخرج من بطن أمه فى يوم ولادته تفتح فمه للكلام وتقوم بما يلزمه .

الفرخ يزقزق وهو ما زال فى البيضة . فيها تعطيه روحا حتى يبقى على قيد الحياة وعند ما تعطيه القوّة ليكسرها يخرج ويعدو على رجليه بمجرّد خروجه .

كم عديدة هى أعمالك أيها الإله الوحيد الذى لايوجد آخر إلى جواره . . .

---

(١) أى سكان القطرين .

لقد خلقت الأرض حسب رغبتك أنت فقط برجالها وقطعانها وجميع حيواناتها .
كل ما على الأرض يمشي على أقدامه ، وجميع ما فى الهواء يطير بأجنحته .

البلاد الأجنبية . . سوريا والنوبة وبلاد مصر .. أنت تثبت كلا فى مكانه وتعمل مايلزمه .

كلٌ له طعامه وأيامه معدودة وألسنتهم مختلفة مثل أشكالهم . وجلدهم مختلف لأنك ميزت الشعوب .

أنت تخلق النيل في العالم السفلى وتسيره كما تشاء لإطعام الشعوب .

أنت سيد هم جميعا — تشق من أجلهم .

أنت سيد البلاد جميعا وتشرق من أجلها . . . كشمس النهار القوية .

أنت تعنى بالبلاد البعيدة جميعا . وضعت نيلا فى السماء حتى ينزل لهم .

أنت تحدث أمواجا فى الجبال مثل البحر ليروى حقولهم .

كم هى طيبة أفكارك يا سيد الأبدية .

نيل السماء تعطيه للشعوب الأجنبية وللحيوانات فى كل صحراء . . . تلك التى تمشى على أقدامها . أما النيل فينبع من العالم السفلى من أجل مصر .

أشعتك تغذّى كل الحقول . وعندما تتألق يحيون وينمون من أجلك .

أنت تخلق الفصول فتحفظ كل ما خلقت . الشتاء لترطبها والحرارة ليتذوقوك .

أنت صنعت السماء البعيدة لترتفع إليها وتتأمل كل ما خلقت .

أنت وحيد . . . أنت تشرق فى هيئة الشمس الحية : عندما تظهر وتتألق وتبتعد ثم تعود .

أنت تخلق ملايين الكائنات منك وحدك .

المدن والأماكن والحقول — الطريق والنهر . كل عين تراك أمامها حين تكون شمس النهار فوق الأرض .

أنت فى قلبى ولا يعرفك أحد إلا ابنك الملك . أنت تفهمه بطبيعتك وقوتك وكل ما يحدث للعالم فهو بإرشادك لأنك أنت خالقه .

أنت تشرق فيعيشون وتغرب فيموتون .

أنت نفس دوام الحياة ونحن نعيش بفضلك .
الأعين تتأمل جمالك حتى تغيب فيقطع كل عمله عند ما تغرب عن اليمين [1] .
وعند ما تشرق تنمى . . . من أجل ابنك الذى خرج من أعضائك .

حينما تقارن هذه الأنشودة الجميلة بأناشيد أخرى لإله الشمس وبالأنشودة الكبيرة للإله أمون (ص ١٢٢) فان الفروق الأساسية لايمكن أن تغيب عنا مع ذلك . فان كلا منهما تعترف بالإله كخالق يعين على الحياة . ولكن الأنشودة الجديدة تمرّ كلها دون ذكر أسماء إله الشمس القديمة وتيجانه وصوالجه ومدنه المقدسة . وهو يغفل كل شيء من سفنه وبحارته وعن التنين أبوفيس وعن الرحلة فى مملكة الأموات وعن سرور ساكنيها . وعلى العموم فلا يبقى إلا القليل من مجموع المعتقدات المصرية المتوارثة . . . وهى حقيقة أنشودة يستطيع التغنى بها السورى أو الأثيوبى تمجيدا للشمس . والواقع أن هذه البلاد وساكنيها مذكورون كما لو أن نظرة الكبرياء التى كان ينظر بها المصريون نحو تلك الشعوب التعسة أصبحت شيئا قديما . فان الناس كلهم أبناء الله أعطاهم ألوانا مختلفة ولغات متباينة ووضعهم فى أقاليم متميزة ولكنه يعطى كلا بطريقة واحدة ، فهو إذا أعطى لأحد نيله فانه يعطى الآخر على سبيل التعويض مطرا من لدنه .

ولقد كان فى استطاعة هذه العقيدة التى تؤثر كثيرا فى نفوسنا اليوم أن تظهر مثل هذا إذا أتيح لها الوقت لتنتشر بهدوء بين الشعب . ولكن الأمر لم يكن كذلك . فان الملك الشاب الذى كان معتلا من الناحية الجسمية كما تظهره لنا صوره . كان ذا روح قلقة ، وقد قام بانقلابه منذ أول الأمر باهتمام بالغ كان لابد معه من إلحاق الأذى به . وفى بدء حكمه تساد يسمى نفسه الكاهن الأكبر لإلمه و « وحيد رع » [2] . ويتابع قبل كل شىء بناء معبد الكرنك الذى كان قد بدئ فيه كما رأينا فى عهد والده .

وتظهر لنا العقيدة الأولى — فى مرحلتها الأولى — كتتمة للتعليم الهليوبوليتانى

---

(١) كان المصرى يعتبر الغرب أنه عن يمينه .

(٢) معنى هذا من غير شك « محبوبه » ومثل هذه الألقاب التى تلصق بالاسم الرابع تقابلها مع الملوك الآخرين أحيانا . وأما من ناحية « أمنوفيس الرابع » فان اللقب « وحيد رع » تقابله متصلا باسمه منذ البداية .

فإن الإله ما زال حوراختى ويستمرّ تمثيله على هيئة رجل له رأس صقر . وفى المعبد الشمسى الجديد بالكرنك نرى أن أهمّ شىء فيه هو حجر Benben الذى يمثل الصخرة التى طلعت عليها الشمس قديما . ويحمل الكاهن الأكبر نفس اللقب « اور — ماو » الذى يحمله كاهن هليو بوليس . وكذلك لم يكن يجوز أن يخلو المعبد الجديد من العجل المقدس « منيفس » الذى كان من المعتاد وجوده فى هليوبوليس [1] . وحتى القردة — التى تتعبد للشمس عند طلوعها كانت تمثلها فى المعبد الجديد تماثيلها — [2] . وعلى هذا النحو ظهرت العقيدة الجديدة التى بشر بها الملك فى بدء حكمه بصفته الكاهن الأول لحوراختى الذى يتهلل فى الأفق [3] . وعلى العموم فان اسم إلهه يكشف عن شىء غريب يكمن تحت هذه الظواهر العادية : فالاسم القديم حوراختى الذى يتهلل فى الأفق [4] يفسره مايقابله « فى اسمه شو الذى هو أتون » وشو وأتون اسمان من أسماء الشمس . وهذه الأفكار ولا شكّ عميقة وهى كذلك عسيرة الفهم . وإن مظهرا خارجيا يبين لنا كم كانت صدمة عنيفة صورة الإله ذى رأس الصقر فى هـذا الدور الأول من تطوّر الديانة . لقد كان رع يرمز إليه منذ آلاف السنين فى الاسم الملكى برمز الشمس فقط ⊙ .

أما هنا فقد أدخل استعمال العلامة الهيروغليفية [5] 𓁛 ،وفى كل هذا لم يظهر بعد ما يناهض أمون أومايمنع من بناء المعبد الأكبر الذى يزاد على هيكله . وقد افتتح رسميا محجر لقطع حجر Benben وفى البناء التذكارى لهذا المشروع ظهر بكل وضوح كيف يقدم الملك التسابيح لآمون ويسميه هناك بـ « محبوبه » [6] .

---

(١) وقد كان ذلك بغير شك فى السنة الرابعة عند تأسيس تل العمارنة .

(٢) Gauthier L. des Rois II, P. 349 n° XIX

(٣) يسمى نفسه ككاهن حوراختى . « ذلك الذى يتهلل فى الأفق » ، قارن Gauthier, L. des Rois II, P. 346 VIII et 349, XIV كما أننا نجهد هذا اللقب كذلك فى Totb. 133,5

(٤) مثلا Davies, Amarna XI, 27, 1

(٥) مثلا Gauthar L.des Rois II, P. 349, XVII b

(٦) Braested, Ancient Records II, 932, cf. L. D., III, 110, Legrain, Annales III, 263

وفى الواقع إنه ليس هناك فى عبادة إله الشمس الجديد ماينا هض أمون ، لأنه منذ تحوّل هذا إلى أمون رع لم يكن فى واقع الأمر سوى صورة جديدة لإله الشمس القديم . وكان كل شيء يعبده الناس تقريبا فيه موروثا عنه . ولذا فان الملك لم يظنّ أنه ارتكب إثما نحو إله أجداده حين أرجع من جديد إله الشمس نفسه .ولكن هذا الهدوء لم يدم طويلا وإننا لنجهل السبب الذى دعا إلى الاضطراب [1] ولكننا لا نخطئ من غير شك إن نحن قرّرنا أن كهنة أمون كانوا قد كشفوا فى المعتقد الجديد عن هرطقة لاتحتمل ، وأنهم حاولوا القضاء عليها بشتى الطرق .

وتنفجر فجأة فى ثورة عاصفة ضد أمون حركات نرى آثارها إلى اليوم فى كل أنحاء مصر بعد ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة . فحيثما يوجد اسم أمون نراه مشوّها ، ولسنا بمستطيعين أن نصدق أن اضطهاد أمون هذا كان من صنع الملك وحده . فقد كانت هناك من غير شك مجموعة متعصبة اقتحمت كل المعابد والمقابر لمحو اسم أمون الكريه ، غير ملقين بالا للأضرار التى ألحقوها بأجمل المبانى . . . وكما هى العادة — فان الناحية الطريفة تبقى كذلك بعد أن تنقضى فترة الجنون هذه — . أليس من المضحك أن كاتب الملك العالم يراجع فى مكتب سجلاته الخطابات المكتوبة بالكتابة المسمارية والمرسلة من الملوك الأسيويين ليرى إذا كان من الواجب محو اسم أمون من مكانه بها ، رغم أنه لم يكن هناك من يستطيع قراءتها غيره ؟ وليس أقلّ سخرية أن أىّ كلمة لاخطر لها ولكنها تتصل بسبب ما باسم أمون كان يجب تضحيتها فى سبيل إرضاء نزوة تعصب أصحاب المذهب الجديد ... وكان من أكثر الأمور إثارة مطاردة الآلهة « موت » زوجه أمون . فلقد شاء سوء الحظّ أن يكتب بنفس الطريقة التى كانت تكتب بها كلمة « أم» وحينئذ فلم يبق شيء أمام من يريد إظهار بغضه لآلهة طيبة سوى أن يكتب كلمة « أم » بطريقة أخرى . . . وكان من أشد آثاره كذلك ما تعرض الملك نفسه له . . . فإن اسمه كان « امن حتب »

---

(١) على لوحة الحدود للسنة الرابعة إشارة إلى ما حدث من « شر » حدث ما يماثله كذلك فى عهد تحوتمس الرابع ؛ ولكن العبارة مشوهة والمعنى غير واضح بما لا يسمح بمعرفته .

أى « أمون مسرور » ولكنّ اسما كهذا لم يعد مقبولا فلم يبق أمامه إذن إلا أن يتخلى عن اسمه فتسمى باسم « أخن أتون » أى « هذا يرضى الشمس [1] » ويلاحظ إلى أىّ حدّ أصبح الملك الشاب متعصبا ، لأنه بتغيير اسمه لاينكر أمون فقط ، بل ينكر أيضا أسلافه الأمجاد .

وبعد أن كان التحمس لإله الشمس مقصورا على أقصاء أمون إلا أنه تطوّر بعد وقت كما يحدث عادة فى مثل هذه الحالات . ما دام أتون أصبح يسمى كذلك الآن « خالق كل شىء » فان من المستحيل بعد ذلك أن تقوم إلى جانبه آلهة أخرى . فهو يجب أن يكون الإله الواحد الحقيقى ، ومن الكفر الاعتقاد بوجود غيره إلى جانبه .

وهكذا نرى أنهم لايحذفون اسم أمون فقط ولكنهم يحذفون كذلك فى حالات كثيرة أسماء آلهة أخرى . فى معبد بتاح فى الكرنك شوّهت أسماء بتاح وحاتحور [2] وفى بهو أعمدة تحوتمس الثالث فى الكرنك لحق بهذا المصير جميع الآلهة أوزوريس وإيزيس وحوريس وأتوم ومنتو وكب . . . وغيرهم . وحتى العقاب تحيت المحلق فوق الملك لحمايته لم يغفل أمره [3] . ومحى كذلك اسم التيس المقدس [4] . أما كلمة إله فان جمعها آلهة يعتبر كذلك غير مقبول ولا محتمل [5] . ولكن اضطهاد الآلهة الأخرى لاتظهر له نتائج قوية كاضطهاد أمون ، ونستطيع أن نحبذ الرأى القائل بأنها لم تحدث بناء على أمر . . . وعلى العموم فان الأمر لم يأخذ صبغته الرسمية البعيدة . . . ونحن نرى أن . . . فى العام الخامس من حكمه تقرير إدارى يخبره فيه مرسله أن معبد بتاح فى حالة جيدة ، وأن التقدمات لكل الآلهة والآلهات تقدم بانتظام وتقبل . . . طيبة [6] . وطبقة التقرير لاتظهر أىّ تغيير حدث فى الديانة .

---

(١) وقد هجر كذلك اللقب القديم : المتوج بالريشتين العاليتين ، وذلك لأنه مشتق من الإلهين آمون ومين .

(٢) L. D. texte III. 8

(٣) Idem, III, 31

(٤) Urk. IV, 224

(٥) قارن Breasted Æ. Z. 40, 109

(٦) Griffith, Kahuṇ Pap., pl. 38

وإذن فليس هناك بعد أىّ اضطهاد للآلهة الأخرى ، ولكن الملك قام حينئذ بخطوة حاسمة وقطع صلته بكل ما كان له قيمة فى الماضى . فأعطى لمصر عاصمة جديدة لمملكة إلهية لايسمح فيها بوجود إله سوى إله الشمس . ومع ذلك لم يهدم الملك مدينة آبائه ولكنه لم يطق العيش أكثر من هذا فى مدينة أمون . فاختار لنفسه ولإلهه مكانا جديدا فى المنطقة التى نسميها اليوم تل العمارنة . وهى تتوسط مصر إذا قيست كل مساحتها . وقد كان يوجد على الضفة الشرقية للنيل سهل واسع صحراوى ، وكان مكانا مثاليا لتشييد العاصمة العظيمة التى كان الملك يريدها والتى سميت « أخت أتون » أى أفق الشمس .

وانتقل إليها الملك مع كل حاشيته (فى السنة السادسة على الأغلب) وقدم التقدمات ودعا أصحابه و كبار رجال القصر والقوّاد . وأعلن أن هذا المكان هو المكان الذى اختير لإقامة العاصمة الجديدة . وهو لم يأخذ الفكرة عن واحد من مستشاريه ولكن الإله نفسه أراد هذا . كما إنه وهو الفرعون قد وجد كذلك أن هذا المكان لم يكن لأىّ إله أو آلهة أو ملك أو ملكة . . ولم يكن لأحد حق فيه . وقد وافق الكبراء على هذا ورفع الملك يده إلى السماء نحو أبيه وأشهده على قسمه : « سابنى أخت أتون لأتون أبى فى هذا المكان ، ولن أبنى أخت أتون أقرب إلى الجنوب أو إلى الشمال أو إلى الشرق أو إلى الغرب . ولن أتجاوز علامات الحدود لافى الجنوب ولا فى الشمال . ولن أبنى كذلك فى الغرب ، ولكننى سأبنى فى الشرق حيث تظهر الشمس أى فى المكان الذى أحاط نفسه بالجبال فيه . وإذا قالت لى الملكة إنه يوجد فى مكان آخر موقع أجمل من هذا يليق بأخت أتون فلن ألتفت إلى كلامها ، وإذا قال لى المستشارون أو أىّ شخص آخر مثل ذلك فلن أستمع إلى كلامهم . . . وإذا كان هناك موقع فى الشمال أو فى الجنوب أو فى الغرب أو فى الشرق فلن أقول أبدا إنى سأترك أخت أتون ، أوسأذهب لأبنى أخت أتون أخرى فى هذا المكان الأفضل . ولكن هذه أخت أتون لأتون ، وهو الذى أرادها لكى يستطيع التمتع بها دائما ويعدد الملك المبانى الكبرى التى يريد إقامتها فى مدينته للإله ولنفسه وللملكة . ولايفوته أن يعلن أنه حين يموت هو أوالملكة فانه يجب أن يدفنا فى أخت أتون .

وفى يوم آخر أقسم الملك قسما ثانيا أصبحت بمقتضاه المساحة الواقعة بين نصب حدود أخت أتون — وهى مساحة عرضها ثلاثة عشر كيلومترا وطولها عشرون كيلومترا — ملكا لأتون جبالا وصحارى وحقول من كل الأنواع . . . مياه وقرى وشواطئ وأناس وقطعان ، أى كل ما خلق أبى أتون [1] » .

ثم بدأ فى مكان لم يكن فيه شىء من قبل — بناء مدينة كبيرة [2] بمعابد وقصور وشوارع طويلة على جوانبها بيوت وحدائق . وقد اشترك جميع المهندسين والنحاتين فى هذا العمل الضخم . وقد وجد الفن أمامه الطريق خاليا لينمو كيفما أراد غير عابئ بالتقاليد ومحاولا الوصول إلى الحقيقة . وقد ظهرت هذه الحقيقة بطرق مختلفة حسب طبائع الفنانين ، فقد وجدت بجانب التماثيل العجيبة التى عثر عليها بورخارت فى معمل نحات بعض الرسوم الكاريكاتورية ، وتلك نتيجة طبيعية لتحرّر الفن . هذا ، وليس هنا المجال لبحث مثل هذه المسائل[3] ، ولسنا نستطيع كذلك أن نصرّ على أن اللغة العامية حلت محل اللغة الأدبية ، وأن هذه بطل استعمالها ، ولكن علينا أن نوضح أن فى تغييرات الفن واللغة هذه تطوّرت بالمثل موضوعات الصور والنقوش ، وقد تمّ هذا حيث كان الأمر يتعلق بالملك وبالملكية .

وأما الأسلوب الرسمى الذى فرضته التقاليد من قبل فقد ترك جانبا وكان يؤمل أن يعيش الملك فى تل العمارنة « حتى يَسْوَدّ البجع ويَبْيَضّ الغراب ، وحتى تروح الجبال وتجىء ، وحتى يسرى الماء نحو المنبع » [4] .

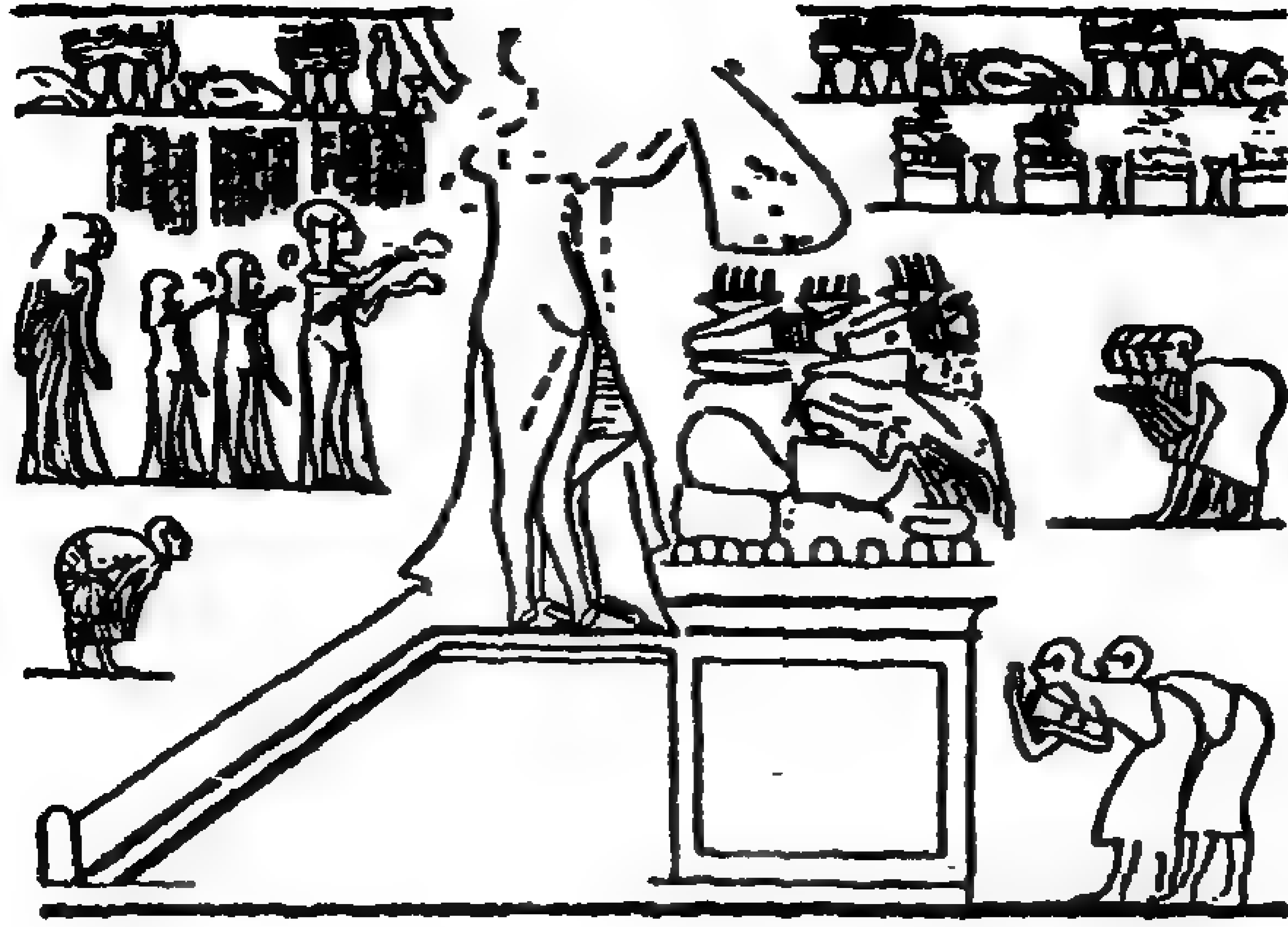
---

(١) لوحة الحدود ، أنظر : Davies El Amarna V pl. 28

(٢) لم يبق شىء من المعبد الكبير الذى كان يبلغ طوله ٨٠٠ مترا وعرضه ٣٠٠ مترا ، ولسنا نستطيع أن نكون فكرة عنه سوى عن طريق صور جدران مقابر تل العمارنة . وكان الجزء الرئيسى فيه عبارة عن مذبح ضخم يؤدى إليه درج وكان يوضع عليه وعلى المذابح الصغيرة الأطعمة الوافرة . ويظهر أن العبادة بأكلها إنما كانت تؤدى فى الهواء الطلق . انظر : Davies, El Amarna I, II

(٣) انظر كتاب Schaefer, Die Religion und Kunst von El Amarna, Berlin 1923. نشأت الفكرة الخاطئة من أنه كان هناك قبل هذا الفن فن آخر أكثر اعتدالا وأقل بعدا عن التقاليد من إحلال اسم الملك الجديد مكان اسم أمنوفيس الثالث على صوره . (Borchardt. Mitteil der D. O. G. 57) ولقد كان يحدث ما يماثل ذلك فى كثير من الأحيان فى مصر ، ولكن إحلال اسم الابن مكان اسم الأب هو عمل سىء لا يتفق ونشدان الحقيقة .

(٤) El Amarna, ed. Davies II, 30. III, 3, III, 29. cf Litt. P. 363,



٥٠ – امنوفيس الرابع يقدم القربان على المذبح لأتون . (Davies, Amarna II, 18)

ويجب أن يكون لدى الملك كنوز بقدر حبات الرمال على شاطئ البحر وبقدر الفلوس على السمك وبقدر الشعر على الثيران [1] ، وعليه أن يحتفل بيوبيلاته بقدر ما للطيور من ريش وما للأشجار من ورق . . .[2] وأن مثل هذه التمنيات لاشك أصرح وألطف بكثير من الاصطلاحات التقليدية القديمة التى تتمنى أن يحتفل الملك بأكثر من يوبيل كالإله بتاح . تاتنن . ولكن كل من اعتاد طريقة الحياة القديمة كان يرى فى أمثال هذه العبارات إخلالا بالاحترام وكان يشعر بهذا خاصة أمام صور الملك .

وقد رأينا أنه منذ عصر أمنوفيس الثالث أبى الملك كانت حياة الملك الخاصة واضحة للعيان أكثر مما كانت العادة عند الفراعنة . وفى عهد ابنه يظهر هذا الطابع أكثر وضوحا ، لأن زواج الملك السعيد أصبح موضوعا لدى الفنانين . فزوجته الشابة الجميلة « نفرتيتى » توجد إلى جانبه فى كل مكان يلعبان مع بناتهما الصغيرات وتصبّ بنته له النبيذ ليحتسيه ويجلسها على ركبتيه ويقبلها . و [illegible] قسم عظيم هو « بقدر ما يسرّ قلبى بالملكة وأولادها »[3] كل [illegible] الإنسانية وبالرزانة التى توحى بها . ولكن [illegible] أعظ [illegible] إمبراطورية عظيمة

---

(١) El amarna III, 3, III, 29

(٢) Idem VI, 29, 19-20

(٣) لوحة الحدود V, 27



٥١ – أمنوفيس الرابع مع زوجه وأولاده (برلين ١٤١٤٥)

أن يفعله ؟ ماذا كان رأى المستشارين القدامى والقوّاد والشيوخ حينما كانوا يرون منظر الحياة اللاهية التى يحياها فرعون الصغير إلى جانب زوجه وأولاده حيث السعادة والسعة بينما كانت مصر مهتزّة بالانقلابات ؟ إن وجودهم بعيدين عن بلاط تل العمارنة يكشف تماما عن آرائهم لأنه فى مقابر هذه المدينة لايرقد الرجال الكبار الذين خدموا على النظام القديم بل يوجد – بقدر ما نستطيع الحكم – أولئك الذين خلقهم الملك الجديد فهو الذى بناهم (أى خلقهم) وحولهم . وهم يسمون ملكهم بأنه الإله الذى يخلق الناس . . . الذى يصنع كبارا ويخلق صغارا [١] ، ويمدحونه لأنه أغناهم . وهو – فى رأيهم – النيل لكل الناس الذين يشبعهم بأطعمته [٢] ، وهو الأمّ التى تصنع كل العيش فى العالم والذى يطعم الملايين بأطعمته ، وليس هناك فقر لمن يحبه الملك . وهو لايحتاج إلى أن يقول « لو كان عندى [٣] » وكثيرون من هؤلاء الأغنياء

(١) وبالمثل El amarna IV, 28, VI, 15, 6

(٢) Idem II, 7, III, 19

(٣) El amarna IV, 35

الذين يثيرون العجب يتحدثون بصراحة أكثر فيذكر أحدهم أن الملك جعل منه رجلا وسمح له بالاختلاط بالممدوحين والنصحاء والمستشارين ، ولم يكن يظن أبدا أنه سيأتى يوم يتصل فيه بالمستشارين ولكنه صار الآن كاتم سرّ الملك الذى جعله غنيا بعد أن كان فقيرا [1] . ويحكى لنا آخر أسراره فى سذاجة أكثر . . . كان فى حالة وضيعة — من ناحية أبيه وأمه — ولم يكن يملك شيئا ، وكان من حثالة الشعب يلتمس خبزه . . . وقد جعل الملك من هذا المتسوّل شيئا ، فهو قد خلقه وأطعمه من طعامه وسمح له بالاختلاط بمستشاريه وحاشيته ورجاله (يعنى بلا شك مواطنيه) يرمقونه بعد أن صار الآن سيد المقاطعة [2] .

وعندما يفخر العظماء بأنهم عصاميون فان ذلك يدل على الأقل أنه كان من المستحبّ فى بلاط تل العمارنة أن يكون الشخص من خلق الملك ، وهذا يدلنا كذلك عن ماهية حاشية الملك ، فإن نبلاء أبيه قد ابتعدوا عنه ، فاستوجب ذلك البحث عن رجال آخرين [3] ، وكان من البدهى أن يختارهم من بين أعوانه . . . من بين من كانوا يحبذون مبادئه . . . لأن الملك كان يقاوم كل من يجهل مذهبه ، ولكنه كان يكافئ من يعرفه [4] ، ولذا كان الجميع يفخرون بالاستماع إلى مذهبه [5] مذهبه الجميل فى الحياة [6] ، مذهب فرعون [7] ، أو كما يقال بحماس « المذهب — نعم المذهب » [8] .

إنهم سمعوا مذهبه وعملوا بمقتضى قوانينه [9] أو بمعنى آخر تابعوا العقيدة [10] .

---

(١) Idem II, 7, 8

(٢) Idem V, 4

(٣) عثر فى منحت النحات الذى أشرنا إليه من قبل على كثير من الصور الصادقة التى تمثل بغير شك عظماء البلاط . وفى ملامح وجوههم الجافة ما يوحى بضعة أصلهم .

(٤) El Amarna V, 21, 27

(٥) Idem I, 8, V, 2, VI, 25

(٦) Idem VI, 25, 16

(٧) Idem I, 30

(٨) Idem I, 8, VI, 19, VI, 25, 16 — لاتكفى الكلمة البسيطة لشىء رائع كهذا .

(٩) Idem VI, 32, cf. VI, 34

(١٠) Idem V, 2, VI, 33, 10 w

وأما أحدهم فقد علمه الملك بنفسه فاعتنق مذهبه أما الآخر فيقص أن الملك اهتم بتعليمه كل صباح لأنه كان يتصرف طبق ما يوحى له به مذهبه [١] .

ولسنا نريد أن نعتقد أن هذا مجرّد كلام إذا كان المذهب من عمل الملك وحده . إن الأسس التى قام عليها هذا المذهب ترجع من غير شك إلى شخص آخر ، ولكن كان من فضل الملك أنه عممه ودافع عنه ولذا نراه يسمى نفسه ابتداء من السنة الخامسة من حكمه « ذلك الذى يحيا من الحق » [٢] وبعد ذلك بعام أطلق على نفسه — بطريقة أكثر وضوحا — « ذلك الذى يعرّف اسم أتون » [٣] فهو إذن نبىّ الإله كما نستطيع أن نقول ومن واجبه أن يبصّر بجمال أتون ويمجد اسمه وينشر فى البلاد المعرفة بخالقه . ويجعل اسمه واضحا للناس ، لأن أباه الإله تجلى له وأعطاه هو وحده حقّ فهم أفكاره وقوّته [٤] وقد زاد هذا المذهب الذى كان الملك يدعو له . . . زاد انتشارا منذ الاستقرار فى تل العمارنة . ألم يكن فى ذلك بقايا أثر للعبادة القديمة التى توبعت فيها عبادة إله الشمس القديم حوراختى فى مظهره الإنسانى كرجل برأس صقر ؟ ثم كيف أن هذه العلامة الهيروغليفية القديمة التى كانت ترمز له ظلت فى اسم هذا الإله ؟ لقد أصبح من الضرورى حذفه كما سبق أن حذف العقاب من كلمة أم ، وقد كتب بدلا من الصقر علامتان أبجديتان هما ح ، ر [٥] ، ولم يستطع أشد المتعصبين للمذهب الجديد الاحتجاج على ذلك ، وفى واقع الأمر أن القراءة الجديدة للكلمة لم تعد سهلة [٦] .

---

(١) Idem VI, 25, 14 وقارن كذلك Idem VI, 15, 10, VI, 21, 23, وذكر المذهب كذلك فى I, 35, II, 8 VI, 15, VI, 21, 14

(٢) Gauthier L. des Rois II, 345 ss.

(٣) El Amarna VI, 16, II, 34, V, 27 وفى جهات أخرى .

(٤) الأنشودة الكبرى I, 12 ولسنا نعرف على التحقيق إن كانت Sekher تعنى الأفكار — أفكار الإله — أو هى تعنى « كيانه » فقط إذا أخذنا معنى آخر الكلمة .

(٥) Schâfer : Relegion Kunst von El Amarnra P. 27

(٦) تبدو لنا التفسيرات الأخرى فى الكتابة سخيفة تماما . فعلامة « مرى » بمعنى محبوب كانت تكتب فى مقابر عدة بعلامة « ش » كما كان يضاف إلى الرغيف فى علامة « حتب » كذلك كمكتان .

ولكن هذا التغيير لرمز حور فى اسم الإله لم يكن إلا اضطرارا . وفى العام الثامن خطا الملك خطوة أخرى إلى الأمام ، فأعطى صورة جديدة لاسم الإله إذ استبدل أولا اسم حوراختى بعبارة أخرى هى « سيد الأفقين » وهكذا يزداد اسمه معنى جديدا منقولا عن أحد ألقاب الملك . ومنذ ذلك الحين يصبح اسم الإله هو « يحيا — رع — سيد الأفقين — الذى يتهلل فى الأفق — باسمه كأب لرع — الذى أتى بصفة أتون » ولسنا ندرى إذا كنا نترجم على وجه الصواب هذه الكلمات الغامضة . والمصرى الذى لم يكن قد درس هذا المذهب بتعمق لم يكن فى وسعه الوصول إلى مدى المعنى المقصود ، فان هـــذه الكلمات كانت تخفى من غير شك إنكارا أكثر عمقا مما صادفناه حتى الآن .

وإننا إذا حاولنا فهم هذا المذهب على وجه الدقة فى تحليله الأخير فاننا نلاحظ أنه يتجه الآن — على عكس ما كان عليه فى البدء — نحو الاعتقاد بالتوحيد . فإنه يوجد إله واحد ليس له شريك . وكل ما كانت تقوم به جمهرة الآلهة الأخرى ينفرد هذا الآن بعمله لأن فيه ملايين المخلوقات . . . لقد خلق نفسه بنفسه ، وهو يعاود فى كل صباح خلق نفسه . وفى خلال النهار يجوب السماء ولكن لاندرى كيف يحدث ذلك ، لأنه إذا كان التعبير القديم الذى يذكر أن الشمس « تسبح » مازال مستعملا فانه لم يعد يذكر فى أىّ مكان شىء عن سفينته أو عن التمثيلات المتصلة بهذه الرحلة ، ولا يذكر بالضبط كذلك فى أىّ مكان تستقرّ الشمس ليلا ، وهى ربما تكون فى العالم السفلى ، ولكن ليست هناك إشارة صريحة إلى العالم الآخر كما سنلاحظ ذلك فيما بعد .

ولم تعد للإله صفات مشتركة مع الصور القديمة لإله الشمس أتوم وخبرى وحوراختى . ولم يحتفظ له سوى باسمى أتون ورع اللذين يمثلان الشمس نفسها . وهو فى الحقيقة الكوكب نفسه وليس إلها على الطريقة القديمة واعتقد المصرى قبل كل شىء أن هذا الكوكب هو الموزّع الأكبر للنعم على كل من يحيا .

وإلى هذا الحدّ نرى العقيدة الجديدة مفهومة ومنطقية وهى — بقدر ما نحس — تفوق بكثير تعدد الآلهة الذى كان يدعو قديما إلى الارتباك والحيرة . وهذه العقيدة

تمنع هذا التعدد . وفى رأينا أن تصرف الملك كان له مايبرّره حتى إذا فكرنا فى أولئك البسطاء الذين حرمتهم الثورة من أقدس شيء كانوا يملكونه . . . ولكن ظهرت بسرعة — مع الأسف — فى العقيدة الجديدة التى أرادت أن تكون طاهره ومعقولة علامات الضعف وعدم التبصر ، فأصبح هذا الإله الواحد يتجلى على أشكال ثلاثة [1] .

فهذا هو إله الشمس العام المشترك للعالم كله « الإله الطيب الذى يحبّ الحقّ سيد السماء والأرض أتون الكبير الحىّ الذى ينير القطرين » .

ولكن يظهر بجانبه شكل آخر لإله الشمس كما يعبد فى تل العمارنة « أتون الحىّ فى بيت أتون فى تل العمارنة » ولقد فهم على أنه ملك واسمه مكتوب كالأسماء الملكية وهو يحمل كملك لقب « الممنوح الحياة الأبدية » ويظهر أنه كان يجب — طبقا للعادة القديمة — أن يكون هناك إله محلى خاص بالعاصمة ، وأما الشكل الثالث الذى تتجلى فيه الألوهية فهو الملك نفسه . ذلك الذى طرد الآلهة الأخرى واصبح من حقه أن يعبد هو نفسه كإله . ولقد كان العرف شائعا منذ العصور السابقة أن يعترف بالملك كإله ، ولكن هذه العادة لم تخرج أبدا عن مجال الألقاب والعبارات التقليدية . وحيث إن كل تقليد كان يجانب الآن ، فان فى استطاعة الملك دون تردّد أن يعبد كإله . وحتى فى صلاة الموتى القديمة كان يعترف به كإله [2] وهو لايمدح فقط باعتباره الشمس أو ابنها الطيب ابن الأبدية الذى جاء من الشمس ، ولكنه عرف كذلك كيف يجب أن تُتخيل الصفة الإلهية للملك . فكما أن الشمس تخلق نفسها كل صباح فانها كانت تلد يوميا ابنها [3] الملك . « وهى تلد بغير انقطاع ابنها العظيم [4] والشمس تجدّد باستمرار طبيعته الإلهية . ولكى نتعرف على المدى الذى وصلت إليه عقيدة الناس فى الوهيـة الملك — ولو فى الظاهر

---

(١) لقد لاحظ Davies هذا الأمر : إن الثلاثة مسكون جنبا إلى جنب على أبواب المقابر El Amarna II, 5, VI 32 وكذا لوحة الحدود El Amarna V pl. 27

(٢) Idem III, 19, II, 9 VI 25, 27

(٣) Idem VI, 19, 21

(٤) Idem VI, 33, 8

على الأقل كما ذكرنا ــ تقول بأن الصلاة الحنزية فى شكلها القديم ظهرت على جدران المقابر ولكنها لاتخاطب الآن الإله الشمسي وحده، بل تخاطب كذلك الملك والملكة[1].

ويلاحظ القارئ فى كل ماعرضنا له عن العقيدة الجديدة أن شيئا واحداً لم يذكر قط ولو أن المصريين كانوا يعطونه أكبر الأهمية وهو مملكة الموتى . . . وفى الواقع أن هذا الشيء لم يذكر فى مجموعة نقوش تل العمارنة ومعظمها مأخوذ من المقابر، لأن هذه العقيدة الصافية لاتتفق بسهولة مع ذكر الموت والدفن . وليس بمستطاع إهمالها، كما أنه لايستطاع كذلك إظهار الاغتباط بها . فإذا كانت هناك مقابر كبيرة قد حفرت فى الصخر . فهذا لأن العادة تقضي بذلك، ولأن الموتى يجب أن يستقرّوا فى المكان اللائق بهم ، ولكن العاطفة الدينية القوية التى دفعت قديما إلى بناء الأهرام تنقصنا هنا ، وحتى قبر العائلة المالكة لانراه متسعا اتساعا كبيرا . وفى كل مقبرة تقريبا لايكاد يوجد كاملا سوى الصالة الكبرى التى تستعمل للاحتفالات أيام الأعياد لأنه ــ حتى فى المقابر ــ كانوا يفضلون التفكير فى الحياة بدلا من الموت . كما ذكروا النهار فى أناشيد الشمس وأهملوا الليل .

وجدير بالذكر أن الملك كان يتكلم عن تأثيث مقبرته دون الاستعانة بالاصطلاحات والتورية المعتادة[2] فهو لايتحدث عن « الطيران إلى السماء » أو عن « الرسو » ولكن يتكلم بمنتهى البساطة عن الدفن . وهو يذكر مقبرته الخاصة بطريقة مبسطة ليس فيها تعقيد . ولم تندثر العقيدة القديمة التى تقول بأن الأموات يسكنون فى العالم السفلى[3] ولكن يتكلمون عنهم عادة كأنهم يسكنون مقابرهم . « هنا فى الجيل يتحوّل الميت إلى روح حية »[4] كانت تمثل حسب الطريقة القديمة على هيئة طائر وهو يجثم عادة فوق الجثة التى كان قد خلقها إله الشمس[5] ولكنها تستطيع الخروج من المقبرة والعودة إليها لأنها تريد التمتع بالشمس والدنيا . ويتقبل الميت كذلك المأكولات[6] ويدعى كذلك

(١) Idem II, 9. III, 16

(٢) لوحة الحدود : Idem V, 30, 17

(٣) Idem I, 34. IV, 39

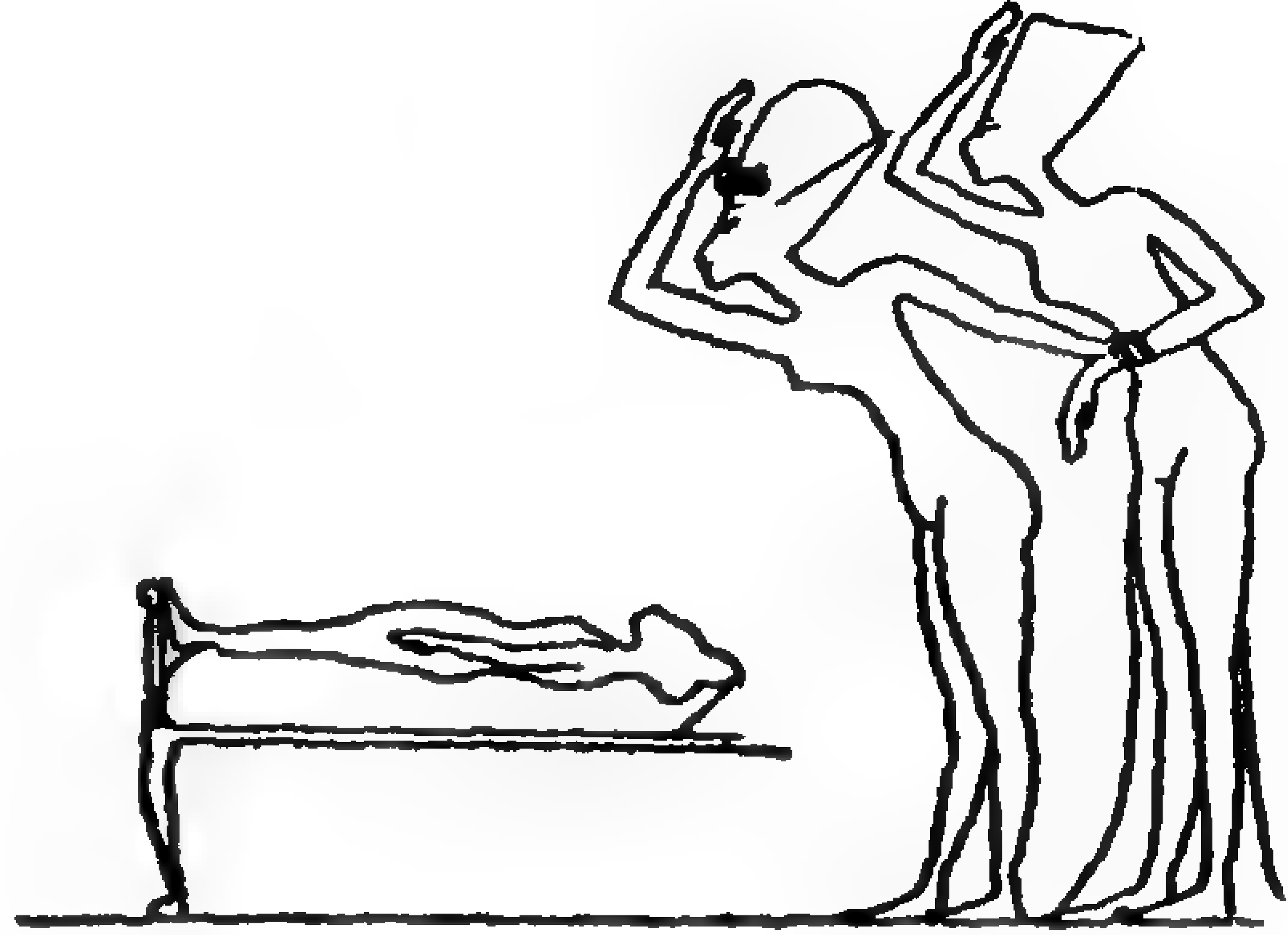
(٤) Idem VI 33 w

(٥) Idem VI, 33

(٦) Idem III, 2, IV, 3

إلى المأدبة التى يقدمها له الملك أو أفراد أسرته ، وينال كذلك نصيبه مما يتبقى فى المعبد [1] فاذا كانت هذه بالذات هى المعتقدات القديمة فانهم يتصوّرون من ناحية أخرى حياة المتوفى التي تشبه الحياة التى كان يحياها أشراف تل العمارنة [2] .

فحينما تطلع الشمس توقظ الميت فيقوم هذا ممتلئا سرورا ثم يغتسل ويرتدى ملابسه . وعند باب المقبرة يصلى للإله ويذهب إلى صالة المعبد الكبرى ليخدم الشمس ثم يتنزّه فى الحديقة التى زرعها بنفسه يشرب الماء على شاطئ بحيرته .



٥٢ – الملك والملكة إلى جانب جثة أبنتهما الصغرى

وثمة شيء آخر يدهشنا فى نقوش تل العمارنة هذه إذا أنها لاتذكر أبدا فى أىّ مكان منها شيئا عما كان يشغل بال المصريين عن اعتقادهم فى أوزوريس ومملكته ، فنحن لانجد أثرا للمحاكمة التى يتعرض لها الناس بعد موتهم والتى يأملون الخروج منها مبررين .

ولكن كلمة « مبرر » تظهر أحيانا [3] وهى لاتتضمن بالضرورة المحاكمة . وهى هنا – كما كان الأمر من قبل – عبارة تقليدية لاتعلق عليها أهمية أكثر مما تعلق أهمية على عبارتنا « المرحومون » ومن ناحية أخرى نرى فى المقابر ألوانا كثيرة من العادات الموروثة عن العصور القديمة (قارن ماجاء بفصل ١٥) والتى لاتتفق ونظريات العصر الحديث . ولم يعد يوجد أوزوريس وليست هناك محاكمة أموات ولكنهم لايزالون يضعون على المومياء الجعل الكبير الذى كان عليه مساعدتهم فى هذه المناسبة . كما كان ينقش دعاء لأتون [4] ، وكذلك فان التماثيل الصغيرة التى كان عملها

(١) Idem I, 39, IV, 3, IV, 39, VI, 25

(٢) مايلي مأخوذ من El Amarna IV, 4, VI, 1

(٣) Idem IV, 39, V, 21, VI 116, VI 27

(٤) برلين ١٥٠٩٩ قارن Schaefer Æ. Z. 38, 45

خدمة الميت فى العالم السفلى احتفظوا بها[١] ، وحتى قبر الملك حوى مثل هذه التماثيل وقد كتب عليها دعاء لأتون : ولم ينس كذلك الهرم الصغير إذ أصبح يحمل الآن صورة ورسم الإله الجديد[٢] وقد احتفظ بالتابوت الحجرى الكبير فى هذا العصر بهيأته العادية: فى الزوايا الأربعة إلهات مازالت موجودة مادة أذرعها علامة على الحماية ، ولكنها لم تعد تمثيلات لإيزيس ونفتيس ، بل حلت محلهما آلهة جديدة هى الملكة[٣] .

وحين نلقى الآن نظرة ـ بعد آلاف السنين ـ على مملكة تل العمارنة فنحن مدفوعون نحو رؤية عالم تظلله السعادة وتباركه أشعة الشمس . زوجان ملكيان مع بنات صغيرات لطيفات . مدينة مليئة بالمعابد التى تسرى بها الأنغام وقصور ومساكن وبحيرات . . . كل هذا محاط بهالة من الإيمان المرح الذى لايعرف إلا الصلوات لشكر الخالق المملوء طيبة ولا يعرف إلا العدل نحو الغير . . . حتى إذا كان من شعب غريب ـ وكان هذا شيئا عجيبا نادرا فى العالم ـ ولكن هذا السناء لم يعهده العالم من قبل ، ولم يكن الفقر والهموم بعيدين عن بلاط تل العارنة . وبالرغم من جهود الملك فان غالبية الشعب قد رفضت العقيدة الجديدة وظلت تعبد آلهتها القديمة سرا [٤] .

ونحن نجد الآن صعوبة فى سبب فهم فشل العقيدة الجديدة تماما ، إذ يلوح أنه كان يجب قبولها كوسيلة لتحرير آلاف المواطنين فى عصر رائع الازدهار ، ولتنقية الديانة من كل الحشو الذى تراكم فيها منذ آلاف السنين . ولكن بجانب الطبقة المتعلمة قامت طبقة الشعب التى كانت لايمكن أن تجمع شتاتها عقيدة أساسها المنطق . وكان ينقصها أيضا شىء آخر لاتستطيع خير ديانة الاستغناء عنه وهو الناحية

---

(١) Petrie, Amarna, 17-18, Culte d' atounre I, 6 ss.

(٢) برلين ١٤١٢٣

(٣) قارن Schâfer, Æ. Z. 55,3 – تابوت الأميرة برلين (١٤٥٢٤)

(٤) وفى تل العمارنة نفسها ، حيث غيّر أحد الأشخاص اسمه من « بتاح موزى » (بتاح منح الطفل) إلى « رع موزى» (رع منح الطفل) ، عثر فى أحد المنازل على نصب كرّس للأله بتاح .

التصوّفية وناحية ما وراء الطبيعة ، ولذا فقد فضل مجموع الشعب البقاء على عقيدته القديمة [1] حيث توفرت فيها هذه الناحية . تجد هذه العقيدة السبيل ميسرا بين أفراد الشعب المصرى . ولم تكن حامية الملك فى تل العمارنة مكوّنة من أسيويين وزنوج [2] إلا لهذا السبب . وهناك شىء آخر خطير هو أن قوّة المملكة الخارجية تضعضعت . . . حقا إن نقوش تل العمارنه لاتشير إلى ذلك، « وإن الأمراء الأجانب مازالوا مستلقين عند أقدام الملك »[3]،وإن الإله يكل أمر البلاد كلها إلى الملك حتى بنفث بحميته فيهم[4]وحتى إن هناك واليا أجنبيا يمجد الملك فى رسالة ويصفه بأنه ذلك الذى يعطى الراحة إلى البلاد كلها بقوّة يده . ويشبهه ببعل صاحب الصوت الذى يرعب كل البلاد [5] ، ولكن هذه مصطلحات تقليدية ونحن نعلم الحقيقة نقلا عن مصادر أخرى ، « منها أنه حين أرسل جيش إلى فينيقيا لتوسيع الحدود كان ذلك دون طائل » [6]. وحتى إذا نحن لم نشأ التسليم بذلك الأمر لأنه جاء من جهة معارضة فان خطابات أمراء فلسطين المحفوظة فى سجلات تل العمارنة تظهر بجلاء سير الأمور .

هكذا كانت مملكة العقيدة الجديدة تتجه نحو خراب مؤكد . وقد نتساءل عما إذا كانت ستختفى بسبب ضعفها أو أثر حدوث كارثة . وكما يتضح لنا اليوم لم تسقط هذه المملكة بسبب اضطراب مفاجئ بل تدهورت قليلا قليلا . أصابتها الهزّة الأولى عند موت الملك الذى لم يترك وليا للعهد بعد أن حكم البلاد مدى تسعة عشر عاما . وحينئذ انتقلت مقاليد الحكم إلى زوج ابنته الكبرى الذى خلفه صهر آخر أصغر سنا وهو المعروف بالملك توت عنخ أتون ، أى صورة أتون الحية . غير أنه كان يجب على أولئك الذين وضعوا الغلام على العرش أن يتبينوا أن المذهب الجديد

---

(١) يدل على ذلك ما أصاب أعمال الملك من انهيار بوفاته .

(٢) Æ. Z., 36, 128 ومثلا El Amarna I, 15

(٣) Idem I, 41 r

(٤) Idem II, 30

(٥) Knudzon, El Amarna Tafeln n° 147 (P. 609)

(٦) لوحة توت عنخ آمون بالمتحف المصرى .

قد خسر المعركة . . . وكان رد الفعل محتوما . وهناك لوحة [1] تدلنا على أنه فى عصر توت عنخ أتون كانت عبادة أمون وموت مسموحا بها ، وهكذا أعيد السلام مع أمون . وكعلامة لهذا التوفيق تخلى الملك الشاب وزوجه عن اسميهما المهرطقين فتوت عنخ أتون أصبح توت عنخ أمون . ثم يرجع إلى طيبة ويفتتح عهده بمرسوم يلمح فيه إلى البؤس الذى انحطت إليه البلاد : «تهدمت المعابد فى البلاد كلها وأما واجهاتها فقد اختفت معالمها . وهذا هو السبب فى أن الآلهة استدبرت البلاد (أدارت ظهرها إليها) وصار الجيش عاجزا . وعند ما كان المرء يتضرّع إلى إله أو آلهة لاستشارتهم كانوا لايستجيبون له . لكن الآلهة قد أقاموا ملكا جديدا على عرش آبائه — طرد الإثم من البلاد . . . الحقّ يبقى والباطل يزهق . . . أصبحت البلاد من جديد كما كانت قديما » .

وإذن فالملك يقيم المعابد ثانية ويجملها ويصنع تماثيل لأمون وبتاح من الذهب الخالص ذات حجم كبير حتى إنه وجب زيادة عدد المحفات حتى يستطاع حملها فى الاحتفالات . وقوارب الآلهة أعيد صنعها من خشب الأرز وزخرفت بكمية من الذهب حتى إنها تجعل النهر مضيئا . وجميع العطايا زيدت . وعلاوة على ذلك يكرّس الملك للمعابد عبيدا من الرجال والنساء مغنيات وراقصات كانوا جميعا (ملحقين) ببيت الملك . ثم عيّن كهنة مرءوسين ورؤساء اختارهم من بين أبناء البيوتات العريقة وأولاد المتعلمين أصحاب الأسماء المشهورة . ودفع لهم أجورا مرتفعة . ونرى من ذلك مدى الإصلاح الذى أردف به الملك الشاب اسمه .

ولكن توت عنخ أمون مات هو كذلك شابا . ونحن نملك الآن الرسالة التى بعثت بها أرملته إلى ملك دولة الحيثيين الكبرى تطلب إليه أن يرسل إليها أميرا من أفراد عائلته ليتزوّج منها ، ولكنه لم يلبّ طلبها [2] فعاد العرش إلى ذلك الملك الذى كان يشغل الوظائف الكبرى منذ أول العهد الهرطقى والذى نشك فى أنه هو الذى أقام الملك الشاب على العرش . هذا هو الكاهن « آى » وكانت زوجته « تى » مرضعة الملك

---

(١) برلين ١٤١٩٧ (السجل المفصل صفحة ١٢٨) .
(٢) يبدو أن الأمير قتل أثناء رحلته .

الهرطقى فصار هو ملكا واغتصب المبانى والآثار التى أقيمت لأمون فى عهد الملك الشاب .

وقد ترك لتوت عنخ أمون المسكين كنوزا لاتحصى ، كان هذا الملك قد أعدها لمقبرته خلال حياته كلها ، ولكن لم يعطه المقبرة الكبرى التى كانت قد أعدت من أجله ، بل دفن الجثة فى تسرّع وبغير نظام فى قبر ضيق بعد أن حاول توسيعه بسرعة ، وقد كان لهذه المقبرة الوضيعة أغرب مصير ، إذ أنها الوحيدة من بين مقابر الملوك التى لم تستهدف للسلب طوال آلاف السنين . وعند اكتشافها عام ١٩٢٢ انتشر اسم توت عنخ أمون فى العالم بأجمعه . وقد احتجز « آى » لنفسه المقبرة الكبرى التى كانت قد أعدت من أجل توت عنخ أمون ، ولكن ذلك لم يجلب له حظا حسنا ، إذ أن المقبرة خربت وسلبت محتوياتها [1] . على أن حكم « آى » لم يستمر سوى بضع سنين وخلفه ملك آخر أعظم منه هو « حور محب » القائد العام للجيش فى منفيس وكان هو الآخر من المقرّبين للملك الهرطقى ، وصار على ما يبدو السيد الحقيقى لمصر السفلى . وفى المقبرة التى جهزّها لنفسه فى منفيس [2] مُثّل وهو يستقبل سفراء الشعوب الأجنبية . وقد ذهب إلى طيبة حيث توجّه أمون ملكا ، ونحن نجهل ماحدث بعد ذلك ، ولكن يمكن أن نؤكد أنه عند اعتلاء حور محب العرش كانت الهرطقة قد اختفت حتى فى أبعد مظانها . وفى نفس هذا الوقت دمرت المبانى التى كانت تذكرّ بالعهد الهرطقى فى طيبة واستعملت أنقاضها كموادّ للبناء .

وفى ذلك الحين كذلك خربت تل العمارنة . . . ولم يترك شىء من معبدها الأعظم . أما موضع ذلك المعبد فقد صار جدبا بطريقة مغرضه إذ لم يكن من المرغوب أن تنتشر الحياة فى هذه البقعة اللعينة .

وقد خُربت مقابر تل العمارنة إذ ذاك ولم تفلت كذلك المقابر الملكية من هذا المصير . ولكن لابد أن تمكن أحد المخلصين لأخناتون فى عهد توت عنخ

---

(١) توجد بقايا من تابوته فى متحف برلين .

(٢) صورها الجميلة مبعثرة اليوم فى متاحف أوروبا .

أمون من إنقاذ بعض محتوياتها وإخفائها فى مقبرة قديمة فى طيبة . أجل لقد اختفى تابوت الملك نفسه ، ولم يعد الرجل الذى حاول إعطاء شعبه عقيدة جديدة يرقد إلا فى تابوت من الخشب . وهكذا انتهت هذه الفورة كما تنتهى كل الثورات — إنها تترك وراءها من غير شك شيئا محمودا ولو لم يكن سوى جزء بسيط مما كان يؤمل فيه وبعد كل الأسى الذى أرهق الشعب تعود هذه الأضرار والمساوئ القديمة فى صور أخرى .

ومن بين مراحل التقدم التى أدخلها عصر تل العمارنة لم يبق سوى مظهر واحد هو استعمال اللغة العامية .

أما من جهة الفن فلم يحدث سوى القليل من التحسينات . والحركة الدينية الكبرى لم تكن لها إلا نتيجة واحدة هى إحداث رد الفعل الذى كان دافعا للانحطاط الروحى فى مصر .

---

(٣) وهو الآن فى المتحف المصرى ، ولا يملك المرء إلا أن يتساءل بطبيعة الحال عما إذا لم تكن الجثة فى خلال « هذا الإنقاذ » قد استبدلت بغيرها . إن علماء التشريح يقررون أن الجثة التى عثر عليها هى لرجل فى الثلاثين من عمره ، ويبدو أن هذا السن قليلا لاخناتون الحقيقى .

الفصل التاسع

نهاية الدولة الحديثة

هكذا انتهت الحركة العظيمة بخاتمة ، لم تكن لتستطيع أن تفرّ منها ، فقد دمر الحقد كل ما كان يذكّر بالهرطقة . وبعد ذلك بعشرات السنين — كما تذكر بنود قضية مدنية — كان يتجنب ذكر اسم أمنوفيس الرابع الذى توارى منذ أمد طويل ولم يعد الحديث يجرى عنه إلا ويذكر لقب مجرم تل العمارنة [1] . وكان أنصار أمون ينشدون فى ابتهاج :

« الويل لمن يمسّك ! لقد أسست مدينتك خير تاسيس . ولكن ذلك الذى حاول المساس بك قضى عليه ! الخزى لمن يسىء إليك فى أىّ بلد كان ! إن شمس من لايعرفك قد غربت ، أما من يعرفك فيضىء . . . إن معبد من مسّك فى ظلام ، وأما الأرض كلها ففى النور [2] . . . » إنه كان حقا ظلاما ذلك الذى خيّم على مجرم تل العمارنة المخيف . . . وقد اختفت كل المعلومات الخاصة به . ويرجع الفضل إلى ليسيوس فى إلقاء بعض الضوء على اسمه وأعماله بعد أن اكتنفهما النسيان لأكثر من ثلاثة آلاف عام [3] .

ولكن الدين الذى أعيد تدعيمه لم يكن يشبه تماما المعتقدات القديمه . والواقع أن آلهة المدن المختلفة قد استعادت حقوقها . . . وأتون الذى كان طاغيا عليها قد غُلب على أمره ، ولكن الواقع كذلك أن طاغية آخر قد حلّ محله . . . هو أمون رع . . . ومن البديهى أن يحدث ذلك . أليس إليه وإلى مدينته يرجع الفضل فى الانتصار

(١) Inschrift des mes. Æ. Z., 39, 24

(٢) Erman, Æ. Z., 42, 106

(٣) Lepsius: Reisebriefe P. 35 et 101

فى المعركة ضد الهرطقة ؟ فبفضله أحرق عدوّ رع حتى استحال إلى رماد [1] ، وبفضل انتصاراته استطاعت طيبة أن تقدم للبلاد سيد اواحدا ، وهذا السيد الوحيد لم يكن إلا أمون رع لأنه هو مالك البلاد كلها والحقول جميعها كانت له وكذلك جميع الشواطئ والأراضى . . . له وحده أنشئت سجلات المساحات والمقاييس ؛ ومن أجله تفد جميع السفن من البلاد الأجنبية محملة بالثروات . . . من أجله ينمو شجر الأرز الذى يستعمل فى بناء قاربه الفاخر . . . الجبال تزوّده بالحجارة لمبانيه الضخمة [2] . . . الآلهة الأخرى لاتحيا إلا بفضل طيبته . . . إنها تلتمس منه التزوّد بالحياة وهو يعطيها الخبز من ممتلكاته [3] ؛ وبفضله كذلك لها نصيبها من المنشئات والتماثيل والمعابد [4] فى مصر . وهو له فى كل مكان معابد فيستطيع أن يسكن حيثما يطيب له [5] . . . له العالم بأسره حتى بلاد الأعداء . . . الفرات والمحيط يعيشان فى وجل منه [6] وهو ككل ملوك عصره يمدح لأنه مبعث رعب لدى خصومه . . . إنه يلقى بهم على وجوههم ولا يستطيع أحد مهاجمته ، هو الأسد الزائر ذو المخالب الفظيعة ؛ هو الثور ذو الحوافر الثقيلة ؛ هو الطائر الكاسر الذى يحطم أعضاء وعظام المعتدى . . . الجبال ترتعد من تحته والناس يخافونه [7] .

ولكن الواقع أن هذه القوّة وهذا الطابع المخيف لم يكونا العنصر الأساسى فى طبيعة أمون ؛ ورغم اضطراب هذا العهد فانه ظل نفس الإله اللطيف الذى عرفه الناس من قبل محسنا خيرا للناس والمخلوقات جميعا .

ومما يقدم لنا فكرة عن طبيعة أمون فى العصر التالى للهرطقة نشيد أمون فى مجموعة مدينة لايدن الذى استشهدنا بكثير من فقراته . ويظهر الإله أمون فى هذا النشيد

---

(١) أنشودة امون فى « ليد » فقره ٧ ؛ ٧٠٠ – نفس المرجع لكل ما يلى – قارن Litt. P. 363 ss

(٢) أنشودة امون فى « ليد » فقرة ٦

(٣) Idem, verset 60

(٤) Idem, verset 60

(٥) Idem, verset 60

(٦) Idem, verset 6

(٧) Idem, verset 50

مخالفا لأمون الذى عرفناه فى الفصل السابع ، فاذا كان هذا خليطا من الإلهين مين ورع فان أمون الآن لم يعد إلا مجرّد إله شمسي وقد فقد كل مشاركة مع مين . هو يمخر عباب السماء بصفته إلها شمسيا فى مركبه كعادته السابقة وهو يتغلب على تنين السحب ويجول فى العالم السفلى حيث يلقى مومياءه [1] . . . هو يصنع السنين ويصل الشهور ببعضها البعض . . . الأيام والليالى والساعات تنتظم طبق مسيره [2] .

ولكن نشيدنا لايتعرّض للأطوار المختلفة لرحلة الشمس وهى التى كانت تشغل حيزا ضخما من النصوص الأكثر قدما . والقردة لاتحييه فى الفجر والآلهة لاتشيعه فى مركبه ولا يذكر أوزوريس ولا الموتى المساكين ، بل — وأكثر من ذلك — لانجد أثرا للتيجان والمعابد التى كان يختص بها أمون رع . ويغلب على الظنّ أن هذا الصمت لم يكن وليد الصدفة فان مؤلف الأنشودة ربما كان يعتبر هذه الأمور ثانوية ، بل لاتتفق ومستلزمات العصر ، ولو أنه من المحتمل أن تكون قد احتفظت بمكانها فى الشعائر الرسمية . ويلاحظ أن الشاعر لايزال متأثرا بهذه الفترة الهرطقية ، وما زالت صفته كإله طيب تشغله أكثر من الشكليات المتعلقة به . فهو يصف هذه الطيبة على طريقة أصحاب النشيد السابق أو نشيد تل العمارنة ، فيقول عن أمون : «حين ينام الناس تكون عيناه متيقظتان [3] وعند ما يستيقظ النوّام يبدو لهم مضيئا فى مظهر جديد [4] . إنهم يولون وجوههم ناحيته ويقول له الناس والآلهة : نعم المجيء والطبيعة كلها تبتهج كما تبتهج الآلهة والناس [5] ، كل الأشجار تهتزّ أمامه وتستدير نحو عينيه وتتفتح أوراقها . الحيوانات تقفز فى المياه وكل الدوابّ تقفز أمام وجهه . الطيور جميعا ترقص له بأجنحتها . . . السماء تتلألأ كأنما صيغت من ذهب ومحيطها يشبه اللازورد . الحقول تخضرّ كأنما هى مغطاة بالدهنج . الناس يحبونه [6] وهم يغنون له فى كل مكان ،

---

(١) Idem, verset 30

(٢) Idem, verset 20

(٣) Idem, verset 20

(٤) Idem, verset 9

(٥) Idem, verset 9 et 20

(٦) أن مايلى ورد فى فقرتى ٩ ، ٦٠

وفى يوم عيده تُصنع الجعة من أجله ويتجاوب الغناء من اجله فوق أسطح المنازل . . . ويعتبر أمون المعين [1] للأفراد العاديين . . . لأنه يقشع الشرّ ويطرد الداء [2] . . . إنه الطبيب الذى يشفى العين دون دواء ، ويفتح الأعين ويشفيها من الحول . إنه يخلص من أراد حتى وإن كان قد ارتحل إلى العالم السفلى . إنه يرفع الشؤم والسحر حين يرتأى ذلك. إنه يطيل الحياة أو يقصرها . . . إنه لأمون ، عينيه وأذنيه فى كل مكان وهو يصيخ السمع لدعاء من يدعوه . إن من يتكئ بظهره عليه يحميه . . . إنه خير من مليون مساعد عند من له ثقة به .

واسم أمون له قوّته على الماء كذلك . . . فهو يطرد التماسيح ويعطى البحارة ريحا رخية [3] ، ومع ذلك فان التوسل لاسمه لايجلب البركة دائما لأن له كذلك اسما سريا يجهله المرء [4] وهو فظيع لدرجة أن من يلفظ اسمه هذا يخرّ صريعا . . . وليس يستطيع إله ما أن يناديه بهذا الاسم .

ولم يسمّ أمون « بالخفى » لغير ماسبب ، فهو كائن ملىء بالأسرار . . . تجهل — حتى الآلهة — مظهره الحقيقى . . . وصورته ليست منتشرة فى الكتب وهو محجب بالأسرار حتى لايستطاع الكشف عن بهائه وروعته وهو كبير حتى لايستطاع تكوين فكرة عن ماهيته ، وهو قوىّ حتى لايستطاع معرفته وإدراكه .

وشاعرنا على مايلوح لنا رجل مثقف مؤمن بأن طبيعة الآلهة تفسرها الكتب والمجادلات ، ولكنه يؤمن كذلك بأن حكمة الإنسان تقصر إزاء سيد الآلهة هذا . . . وكل مانستطيع فهمه من هذا اللاهوت الشعرى قد يلخص فيما يلى :

إن أمون هو أصل كل شىء [5] إنه ولد فى البدء وليس هناك إله آخر ظهر قبله ، ولم يكن معه إله آخر ليشير إليه بصورته . لم تكن له أمّ تمنحه اسمه ولا أب

---

(١) Idem verset 70

(٢) تلد الحامل حين تنطق باسمه (Chassinat, Mammisi Edfu 25)

(٣) فقره ٧٠ من نشيد أمون .

(٤) ما يلى موجود بفقرة ٢٠٠ .

(٥) إن مايلى مأخوذ عن فقرة ١٠٠ من أنشودة آمون فى ليه .

ليكون أصلا له وليقول له : « ها أنا ذا » . إن كل شيء آخر صدر عنه [١] : التاسوع والآلهة جميعا كانوا متصلين بجسده حين خلق الآلهة الأولين فى صورته كبتاح تاتنن . . . وعلى ذلك فليس هناك فى الواقع سوى كائن إلهى واحد هو أمون [٢] . ولا يجوز لنا أن نعجب إذا ذكر إلى جانب هذه العقيدة الجزلة للإله بعض تصوّرات أقل سموّا [٣] ترجع إلى عهد أكثر قدما .

ويمكننا اعتبار العقيدة – كما يعبر عنها هذا النشيد مثلا – كنوع من ديانة أمون رع . وفى الواقع لايجب أن نتمثل أمون تحت صورة واحدة بل تحت صورة ثالوث إلهى . . . لأن رع نفسه متحد بجسده ، كما أن أمون يسمى كذلك بتاح تاتنن . . . اسمه كأمون مخفى ، رع يخصه كوجه وبتاح كجسد [٤] .

ومن الطبيعى جدا أن يكون رع متصلا اتصالا وثيقا بأمون فى مظهره الشمسى ولكن من غير شك كان دخول بتاح كعضو فى هذه الألوهية العظمى نتيجة تأثير خارجى : لأن طيبة كان عليها أن تجامل حور محب ما دام هو الرجل الذى أصلح الأمور ولنشأته فى منف مدينة بتاح .

ولذا فان هؤلاء الآلهة الثلاثة : أمون ورع وبتاح هم الآلهة الذين كانوا يعبدون فى الفترة اللاحقة مباشرة لفترة الهرطقة وهم الآلهة الرسميون فى البلاد جميعا ومدنهم هى الأماكن المقدسة ومعابدهم هى هياكل الدولة . . . ولكن هذا الشرف يرجع قبل كل شيء إلى طيبة التى أصبحت الآن المكان الأكثر قداسة وإن لم تعد مقرّ حكم الملك (انظر آخر هذا الفصل) .

وأما المعبودات الأخرى فى البلاد فتنطمس أمام ثالوث أمون ورع وبتاح الذى يشغل فيه أمون مكان الصدارة . وسنرى نفس الوضع بعد قرن من الزمان فى مستند رسمى هو بردية هاريس التى سيرد الكلام عنها فى الفصل الثالث عشر .

---

(١) عن فقرة ١٠٠ .

(٢) Idem verset 200 .

(٣) من ذلك يخبئة الإله الأول وخلقه لنفسه وبصقه شو وتفنوت .

(٤) Idem verset 300 .

وكان لكل من هـذه الآلهة العظمى الثلاثة جزؤه الخاص به ، بينما خصص لباقي الآلهة الأخرى — ومن بينهم بعض ذوى الأهمية مثل حاتحور وتحوت وأوزوريس الخ — جزء واحد . ومن الملاحظ كذلك إن إيرادات أمون لايمكن أن تقارن بها إيرادات زميليه إذ أنه كان يمتلك حقولا بقدر خمسة أضعاف حقول رع وبقدر تسعين ضعفا لحقول بتاح ، مع أن هـذا الأخير كان فيما سلف من الزمان إله الدولة الكبير ، وزيادة على ذلك فإذا كان أمون قد تغلب من الناحية المادية على بتاح فان جوهر طبيعته كان يجب أن يتحول تدريجيا إلى صورة زميليه ، وقد تحول إلى إله شمسي تقريبا بدليل تلك التسبيحة التي كانت تتردد صبيحة كل يوم في طيبة تمجيدا له ، والتي كان يعتبر فيها دائما إلها أصيلا خلق جميع الكائنات الحية ، ولكن المديح يتناوله أصلا لصلته بالشمس قبل كل شيء ، فهو الذي خلقها ، كما أن رع هو ابنه الذي خلق من أجله السماء ، وأنفاس فه هي التي تدفع أمامه بقوارب الشمس، بل وأكثر من ذلك أن بتاح هو الشمس نفسها . . . الطفل الذي يولد في العالم كل يوم ويغرب في الجبل الغربي ليدخل السرور إلى الموتى في العالم السفلي .

ولقد حاول الملك حورمحب وخلفاؤه — أى الأسرة التاسعة عشرة — أن يعوضوا بطريقة مفخمة . . . الخسائر التي لحقت بأمون ومدينته خلال فترة الهرطقة [1] ، فهم الذين أقاموا تمجيدا له تلك المباني الضخمة التي لم تستطع أى بلد أو أى عصر آخر أن تشيد ما يمثلها .

وأما الفخامة التي شاعت في هذه المعابد ، وأما الأعياد الرائعة التي كانت تقام فيها فسنتناولها بالتفصيل في الفصل الثالث العاشر . ولكن علينا أن نتساءل حقيقة عما إذا كانت كل هذه الفخامة والأبهة قد أفادت الدين ، إذ لاشك أن الدين أخذ يفقد رويداً رويداً تلك القوة الروحية التي اكسبته البقاء، ورغم هذه الروعة — أو على الأرجح بسبب هذا الألتماع — أصبح الدين غريبا على غالبية الشعب ، بل أصبح دينا للملك

(١) وكذلك أعيد إذ ذاك نقش أسماء الآلهة التي سبق محوها (فصل ٨) ولم يكن لذلك على وجه التأكيد تأثير حسن على الآثار . وقد حدث ذلك بصفة خاصة في عهدى سيتي الأول ورمسيس الثاني ، انظر :
Bissing : Æ. Z. 41, 126

ـ أو كما نسميه ـ دينا للدولة ولم يعد دينا شعبيا . لأن الرجل من العامة لم يعد يستطيع دخول المعابد التى ما زالت تبهرنا حتى اليوم ، بل ولم يكن من العبث أن توضع تماثيل الآلهة التى تستجيب للدعوات على أبواب المعابد [1] . وهناك كان الرجل من العامة يتقدم بسؤاله إلى الإله .

ورغم العظمة المحيطة بأمون فإنه لم يكن إلها شعبيا ، بل إن الرجل فى الحياة العادية كان يفكر عن طيب خاطر فى إله الشمس أكثر من تفكيره فى أمون . وإذا كان هناك ما يدعو لذكر اسم إله فى قصص ذلك العصر فكان اسم « رع حوراختى » هو المفضل وحين كان المرء يستعطف الآلهة ويلتمس رضاهم فى خطاب من الخطابات فإن الحديث كان يوجه إليه . وفى الحض على التقوى والتعبد كان يذكر فقط « إله هذه البلاد شمس الأفق » [2] . ومن الطبيعى أنّ هذه العبادة الشعبية لإله الشمس لم تكن تحمل إساءة نحو الآلهة القدامى الآخرين . فإن أهل بوبسطة كانوا يتوجهون بأدعيتهم ـ كما كان الحال منذ القدم ـ إلى إلهتهم باستت وأهل الفنتين إلى إلههم خنوم ـ والكتاب والعلماء إلى حاميهم تحوت الذى يساعدهم على فهم الكتابة ويسندهم فى أعمالهم . وأما فى الحرب فان منتو هو الذى قاد الملك إلى النصر . وهكذا عادت الحياة إلى جمهرة الآلهة المصريين ، واهتمّ الملوك بعاطفة الشعب هذه ، فعاودوا بناء معابد الآلهة القديمة أو هم أتموا بناءها . وقام رعمسيس الثانى على الخصوص بعمل واسع فى هذه الناحية . ويمكن القول إنه قلّ أن يوجد فى مصر معبد لايحمل اسمه . ويلوح أنه أراد أن يعوّض باقى الآلهة لقاء مافعله من أجل أمون وشريكيه . ونجد نفس الرغبة فى إرضاء باقى الآلهة من جديد يعبر عنها رعمسيس الرابع فى معبد قام بينائه فى أبيدوس بعد حوالى قرن من الزمان [3] ، ولم يكن الأمر من قبيل المصادفة أن أغفل ذكر آلهة طيبة وذكر بتاح منف ، والواقع أن

---

(١) مثل على نصب فى برلين برقم ٢٠٣٧٧ الباب من وراء أمون الذى « يستجيب إلى الدعاء » .

(٢) Max. D' Anii 6,16 (Litt. P. 299)

(٣) Mar.: Abydos II, 54-55

الملك يقص علينا أنه قام بأبحاث مضنية فى كتب دار الحياة ، وأنه استطاع أن يصل إلى أن أوزوريس هو أكثر الآلهة غموضا وخفاء . . . هو القمر . . . وهو النيل . . . وهو ذلك الذى يحكم فى العالم الآخر . وفى كل ليلة ينزل نحوه إله الشمس ويكوّن معه الروح المتحدة وهذه تحكم العالم . وأما تحوت فيقيد أوامره . ثم يقص الملك بعد ذلك كيف ساهم فى أعياد أوزوريس وكيف خدم بذلك جميع آلهة تاسوع أبيدوس . . . . ولكن ابن رعمسيس الثالث هذا يمر مر الكرام على أمون رع وبتاح رغم أن أبيه قام بعبادتهما أكثر من كل الآلهة الآخرين . والواقع أنه لم يذكر من بين آلهة الدولة الثلاثة سوى رع حوراختى . ولقد ذكر فقط بمناسبة الدور الذى يلعبه كرفيق يومى لأوزوريس .

ولسبب خاص نرى الإله ست ـ وهو لم يكن شعبيا حتى الآن ـ قد أخذ مركزا مهما فى الدولة الحديثة وفى الأسرة التاسعة عشرة على وجه الخصوص .

واحترامه لايقوم على أساس أنه الإله القديم الذى يحمى مصر العليا ولا على أساس أنه قاتل أوزوريس ، ولكنه هنا الإله الذى قامت بعبادته أسرة المحاربين هذه بغير انقطاع . ولما كان أصل الأسرة الحاكمة يرجع إلى شرق الدلتا ، حيث كانت تستقر عاصمة ملوك الهكسوس من قبل فإن إلهها كثيرا ما اتخذ مظهر سوتخ الذى عبده الهكسوس المتبربرين والذى كان ذى طبيعة غريبة عن مصر . ويلاحظ أن ملوك هذه الأسرة كانوا يقدرون هذا الإله كثيرا للدرجة أن جيوش رعمسيس الثانى لم تطلق عليها أسماء أمون ورع وبتاح فحسب بل واسم ست كذلك . وعلى ذلك وضع فى مرتبة متساوية لمرتبة هذه الآلهة الوطنية الثلاثة . بل إنه فى المدينة الكبيرة التى أقامها رعمسيس الثانى فى الدلتا خصص أحد الأقسام لأمون كما خصص قسما آخر لسوتخ .

وكانت هذه المدينة الملكية الجديدة (التى سخر اليهود فى بنائها كما ورد فى القصص) واقعة فى الدلتا ، لأن دور طيبة كان قد انتهى . ولأنه كان يجب عليها أن تفسح المكان أمام عاصمة أخرى ليست مثلها فى عزلة . وإن جميع المبانى التى قام

بتشييدها الملوك لتجميلها لم تعد كافية لتغيير حظها وهى التى لم تزل أقدس المدن – مدينة أمون [1] كما كانت تسمى باختصار – ولكنها لم تستطع أن تعود فتصبح عاصمة من جديد، لقد ظل الملوك يقيمون معابدهم وقصورهم على الضفة الغربية – وحين يموتون كان يجب أن يقلوا فى هذه المدينة المقدسة فى أعماق مقابر احتفروها لأنفسهم . ومنذ ذلك الوقت تصبح طيبة مدينة المعابد والأعياد الرسمية ويصبح صيت هذه الأعياد كبيرا ومنتشرا حتى لتسمى الشهور فى البلاد جميعا بأسماء هذه الأعياد [2] .

---

(١) وقد عرفها اليهود كذلك بهذا الأسم .

(٢) Erman : Æ. Z. 39, 128

الفصل العاشر

التقوى والآلهة الشعبية والوحى

كان الدين الذى تحدثنا عنه حتى الآن فى جوهره دين معابد وكهنة ولم يكن دينا يستطيع أن يستغنى عن القوى التى كانت تدعمه . ولم يخضع الدين للدولة إلا بعد الثورة، وقد اكتسب من وراء ذلك رونقا مازلنا نعجب به حتى اليوم . ولكن إذا حاول شخص ما أن يجد فى الديانة شيئا غير تعاليم الكهنة والعادات الخاصة بالطقوس فانه سيغتبط كثيرا حين يدرك أن مظاهر الإيمان الشعبي الأكثر حرية أشد ندرة . وذلك يشبه فى أحيان كثيرة النباتات البرية ولكن جذورها تندفع فى الأرض المشتركة بين جميع الديانات المتطورة، وتكون هذه العبادة بمثابة الرباط الذى يجمع بين الفرد العادى وإلهه. وقد تحولت الهيبة التى رافقت عبادته إلاها من قديم الزمان إلى شعور بالثقة وتعلق بهذا الإله الذى يعتبر كأب . وقد التقينا بمثل هذا الشعور فى أنشودة الشمس التى ترجع إلى عصر العرطقة ، وفى الأنشودة الكبرى لأمون رع ، ولكن نرى التعبير عنها أشد وضوحا فى أغنيات صغيرة وفى صلوات ترجع إلى القرنين الثالث عشر والثانى عشر حيث يدعى أمون « الراعى » الذى يخرج البقر مبكرا والذى يقود الجائع إلى المرعى . . . هو الشراع الذى يقاوم الريح . . . هو الربان الذى يعرف الشطوط الرملية والذى يشتاق إليه المرء وهو على الماء [1].

وهذا حبّ صبيانى وثقة كاملة يشعر بها المرء نحو الإله : أمون رع ... إنى أحبك ... وقد احتبستك فى قلبى — إنى لا أطاوع القلق فى قلبى ... إن كل مايقوله أمون يزهر [2] ... وعلى ذلك فان كل ثقة وكل هم كانت يُعرض على الإله ... ستخلصنى من فم الرجل حين يلقى بالأكاذيب [3] ... وهناك رجل قد ظن أن غريمه قد سلبه وظيفته، فتضرّع إلى

---

(١) Inschr. in the Hier. Char pl. 26, cf. Litt. P. 382

(٢) Inschr. in the Hier. Char pl. 26, cf. Litt. P. 383

(٣) Inschr. in the Hier. Char. pl. 26

١٥٨

إله الشمس أو أوزوريس كى يعينه[1]. وهناك آخر يصلى هكذا: أى أمون اصغ السمع إلى رجل وحيد فى المحكمة . . . فقير وخصمه قوى . المحكمة تطارده ! فضة وذهب للكتبة ! . . . ملابس للخدم ! ولكنه يكتشف أن أمون يتحوّل إلى وز.. كى يربح الفقير دعواه ! [2] ، وتظهر أيضا هذه الأنشودة أن الإله يرأف بالفقراء و.. و وزيرهم [3] ويظلّ عونا لهم وقاضيا لايقبل الهدايا ولا يتأثر بالشهود حتى يكون الجميع ضدهم [4] . وللكتبة خصوصا — أى الموظفون والعلماء — علاقات ثقة وطيدة بالههم تحوت ، فإن أحدهم يقدم الدعاء التالى : تعال إلى أى تحوت أيها الأبيس الفاخر — أنت الإله الذى تحبه شمون . . . أنت كاتم سرّ الآلهة التسعة ، تعال إلىّ لتقودنى وتجعلنى كفؤا لخدمتك لأن وظيفتك هى أكثر الوظائف جمالا . . . إن الذى ينبع فيها يجد نفسه أميرا . إن الأعمال التى تقوم بها من أجلهم كثيرة عند ما يكونون فى مدرسة الثلاثين . أنت الذى تقود من لايوجهه أحد . . . السعادة والنعمة بالقرب منك . أقبل إلىّ وقدنى . أنا خادم بيتك دعنى أتحدث عن أعمالك وأقول فى أىّ بلد أكون حتى يردد الناس حينئذ أن مايصنعه تحوت رائع ، ثم يحضرون بأولادهم حتى يوسموا بخاتم مهنتك . . . المهنة الجليلة أيها المنقذ العظيم كم هو سعيد من يصل إليها ويحصل عليها ! [5]

وآخر يصلى هكذا : أى تحوت أقمنى فى شمون مدينتك حيث يقضى المرء حياة هانئة وأعطنى ما أنا فى حاجة إليه . . . خبزا وجعة وارع فمى حين يتحدث [6] .

وكان يوضع فى المكتب تمثال لتحوت على هيئة قرد يفكر [7] ويعلن أحد الكتاب فى فخر وخيلاء أنه أقام هو الآخر لنفسه صورة للإله : جاء السرور إلى بابى منذ أن تجاوزه الإله . افرحوا يا أهل ناحيتى وكونوا مسرورين جميعا . يا أقربائى هاكم

---

(١) Æ. Z., 38, 19 ss. ef. Litt., 373 ss.

(٢) Anast. II, 5 ss. ef Litt. p. 380 والمثل على وثيقة من مجموعة جاردنر حيث يتقدم امون لنصرة فقير فيعيد إلى الوطن من كان فى الغربة ويخلص من يظلمه مولاه .

(٣) Anas. II, 6,5 ss Litt. p. 380

(٤) Bull. 1094, 2, 3ss

(٥) Anast. V, 9,2 ss. Litt. p. 377

(٦) Sall. I, 8, 2 ss. Litt. p. 377

(٧) Borchardt : AE. Z. 44, 59

سيدى الذى يصنعنى والذى يريده قلبى . أى تحوت ! ستكون لى بطلا ولذا لن أخشى شيئا [1] .

ويمجد الإله كذلك فى دعاء آخر أكثر تسلية من كل ذلك وفى طلباته شىء من المادية : أيتها الدوحة المثمرة ذات الستين ذراعا أنت التى بك ثمار ذوات نواة وبالنواة ماء . . . أنت الذى تأتى بالمياه من جهات بعيدة أقبل نحوى وخلصى أنا الصامت . أى تحوت أيها النبع الحلو لرجل يكاد يقضى عطشا فى الصحراء . . . هو مغلق أمام من يتكلم ومفتوح أمام من يصمت . . . عند ما يحضر الصامت سيجد النبع . . . ولكن عند ما يحضر الفائر فانك لاتعاونه [2] .

ومعنى الفقرة الأخيرة من هذا الدعاء الجميل لا يحتمل الشك : إذ أن المرء يجب أن يتوقع فى صمت عون الإله : فى صمت وثقة . . . فى اعتقاد المفكرين يعتبر الصامت خير من الثرثار وهذه المثل العليا ستكون موضع الحديث فى الفصل القادم . ونجد نفس هذا النوع من الأغانى والأدعية على اللوحات التى عثر عليها فى هيكل صغير على الضفة الغربية لطيبة [3] . وليس الإله هنا كذلك كائنا لايمكن الاقتراب منه . وهو إن كان يسبب العمى لمن يخطئ فانه يغفر له كذلك أو يشفيه من دائه . فلقد ارتكب « نفرابو » وهو موظف بالجبانة أمرا ذميما نحو الآلهة المحلية « قمة الجبل » . . . كمثل رجل جاهل لايدرى ماهو خير وما هو شرّ فعاقبته وكان فى قبضة يدها ليل نهار . وكان يصرخ ملتمسا الهواء ، ولكن الهواء لم يأت إليه ، وحين وعد الآلهة رسميا أن يعلن عظمتها أمام الشعب كله . . . عفت عنه ومسته برحمتها حتى نسى علته . [4] لأن هذه الآلهة ـ كما تذكر لوحة أخرى [5] ـ تمدّ يدها نحو من يحبها وتمنح حمايتها لمن يحتويها فى قلبه .

---

(١) Anast. III, 4, 12 وفى ختام ذلك على ما يبدو « من العين » ولعل المقصود بذلك النظرة الشريرة ، انظر : Litt. S. 379, anm. 2

(٢) Sall. I,8,2, ss. Litt. p. 377

(٣) Erman : Sitz. Ber. Berl. Akad.. (1911) P. 1086 ss. وفى اللاحظات التالية سترقم اللوحات تبعا للحرف التى تحملها فى المقال المذكور .

(٤) Erman : Sitz. Ber. Berl. Akad., (1911) P. 1087 ss.

(٥) Idem. K.

وفى مكان آخر كان شحص حلف زورا باسم بتاح فأراه هذا الإله - سيد الحق - الظلام فى النهار. وصيره شبيها بالحيوانات التى فى الشوارع ، وجعل الآلهة والناس ينظرون إليه كشىء بغيض نحو سيده. وكان هذا كلامه عند توبته: بتاح سيد الحق عادل نحوى . . كن راضيا عنى حتى أرى كم أنت عطوف [1] .

والآلهة كذلك تحس السرور ، كما تشير إلى ذلك هذه اللوحات عند ما تعلن قوتهم وتحذر من غضبهم. فالمصور « نب رع » الذى كان قلقا من أجل مرض ابنه نذر نذرا « سأضع لأمون أغنيات باسمه، وسأمدحه بقدر ماترتفع السماء، بل بأبعد مماتمتد إليه الأرض سأقص مدى قوته لمن يصعد (على النهر) أو ينزل. التفتوا جيدا واحذروه . . بلغوه لكل فتى وفتاة ، للكبار والصغار .. . اذكروه لكل الأجيال ، بل للأجيال التى لم تأت بعد . . . اذكروه لسمك الماء وطيور السماء.. . اذكروه لمن يعرفونه ولمن لايعرفونه . . . التفتوا جيدا واحذروه . . . ثم يعلن « نب رع » أمام إلهه « أى أمون ، أنت سيد من يصمت . . . أنت الذى تستجيب دعاء البائس . إن صرخت لك فى شقائى فإنك تأتى لتعيننى » .

والواقع أن ابن « نب رع » كان يستحق ما ناله من مرض ، لأنه أثم فى حق بقرة من أبقار أمون . . . ولكن عند ما استرحم الأب هذا الإله . . . « أتى على هيئة ريح الشمال ونسيم عليل ومرّ من أمامه وأنقذه من مرضه » وعندئذ قال الأب معترفا بالفضل « كما أن العبد مستهدف للإثم كذلك المولى مستعدّ للصفح . إن سيد طيبه لايمرّ على غضبه يوم كامل ، إذا ما غضب فإن غضبه لايستمرّ سوى لحظة ثم لايبقى له أثر » [2] .

وكان الإله الذى يخاطبه ذلك الوالد فى محنته أول الآلهة جميعا ؛ ولكن ليس تماما بالصورة التى يعبد بها فى معبد الكرنك . . . إنه أقرب إلى أن يكون أمون الذى يجيب التضرّعات وهو فى صورته على هذه اللوحة [3] يظهر بطريقة غير طبيعية خارجا

---

(١) Idem. D.
(٢) Idem. A
(٣) cf. pl. IV

عند باب المعبد . وليس تمثيله على هذه الصورة محض مصادفة لأن عامة الشعب لايرون الإله الكبير أيام الأعياد وهم يخشون مضايقته بمشاغلهم وهمومهم. ولذا كان من المفضل أن يتخيل أمون فى صورة أقرب إلى الناس ، يستمع إلى تضرّعات الفقراء عند باب المعبد . وكانت هناك آلهة أخرى يتجه إليها المرء بدعائه ، وكانت توصف بأنها تستجيب إلى الدعاء [1] . ومما يدل كذلك على الثقة بالإله ما كان يدعيه المتضرّع من أنه قريب من الإله بصفته « خادما » له [2] .

ولا تكمل الصورة التى تزوّدنا بها النصب التى أسلفنا الكلام عنها ، عن عقيدة الشعب مالم نفكر كذلك فى المكان الذى كانت تقام فيه . وهو معبد صغير متواضع بنى قديما فى عهد تحوتمس الرابع على الشاطئ الغربى لطيبة ، واستبدل بعد ذلك بعدد من الأبنية الصغيرة [3] وكان يستعمل كمعبد للعمال وموظفى الجبانة ، وكان مكرّسا من غير شك فى الأصل للآلهة الذين يحمون الجبانة ، وهما الزوجان الملكيان اللذان سنتحدّث عنهما فيما بعد . ولكن هذا البناء كان مفتوحا ، كما تذكر هذه اللوحات لكل من أراد تقديم العبادة للآلهة الخاصة به وكان يعبد فيه أمون رع كما يعبد فيه أمون البواب الصغير وخنسو القمر وبتاح وآلهة الفتنين والإلهين الأجنبيين رشف وكدش والقطة والسنونو . وهنا كان يستطيع كلّ أن يتعبد على طريقته من ناحية التقديس والصلاة . ولا بد أن المعابد الكبيرة كانت خاصة وكأنّ التقوى التى لايربطها رابط تقف عند الباب .

وكان خيال الشعب يضيف إلى الآلهة التقليديين باستمرار آلهة أخرى يأمل عونهم فى الحياة . وهو يبدأ باختيار أشياء يتخيلها ذات طابع قدسى خاص . فإذا تصفحنا مثلا الأسماء التى يسمى الناس بها أبناءهم خلال الدولة الوسطى فى أبيدوس فإننا نجد من بينها : هبة المركب نشمت ، أو القارب نشمت منح ابنا وهكذا . فهم

(١) مثل أمون رع وتحوت وغيرهما . وإننا لنجد كذلك « بتاح لدى البوابة العظمى » (برلين ٨٤٤٠) ولا بد إن كان الأمر يتعلق كذلك بمكان مماثل لأن كاهنه الأكبر « باك ان خنسو » يذكر أنه أقام للإله هيكلا يدعى « رمسيس الذى يستجيب الرجاء » فى الباب العلوى لمعبد أمون .

(٢) A. E. op. cit الكلمة المستعملة هنا « خادم » ليست الكلمة التى أشار بها المصرى إلى الكهنة قديما hem ولكن كلمة bak وكانت تستخدم فى أسماء كثيرة للأشخاص مثل « خادم خنسو » .

(٣) Sitz. Ber. Berlin - 1911, 1088, 1105

يشكرون مركب معبد أوزوريس إذا كانت سببا فى منحهم الأولاد وليس الإله نفسه، ولقد انتشر هذا الاستعمال خلال الدولة الحديثة خاصة، ففى رسالة من طيبة ينصح فيها أحد الأشخاص للمرسل إليه أن يطلب حماية الآلهة ونراه لايذكر الآلهة وإلهات هذه المدينة المحليين الكبا أمون وخنسو وموت وحدهم، بل يذكر كذلك معبودات من الطبقة الثانية مثل شجرة على طريق الكباش وبرساء أمون فى الكرنك وثامون القردة الواقعة فى هيكل جاتحور وباب باكى الأكبر [1]. وفى رسالة أخرى لايوجه الدعاء لرجوع غائب إلى بتاح منف ولكن إلى تمثال تحوتمس الثالث الذى كان موجودا من غير شك فى هذه البلدة [2].

ولقد كان لهذه المبانى أثرها على الشعب بالنسبة لحجومها أو قدمها ، مما يعطيها روعة وبهاء إلهيين . فأبو الهول بالجيزة مثلا أله فى نهاية الدولة الحديثة، وهو لم يكن فى الأصل سوى صخرة طبيعية أعطاها الملك خفرع رأسا ملكية . ولكنه أصبح الآن كائنا إلهيا لدى أهل الأقاليم المجاورة يعبد بصفته حرماخيس أى حوريس الأفقى [3]. وقد زودتنا حفائر بورخاردت فى جبانة أبى صير بعبارة أخرى مماثلة فى إقليم منف . فأمام هرم الملك ساحورع (حوالى ٢٥٥٠ ق . م) يقوم معبد فخم كانت تقدم فيه القرابين إلى هذا الملك، وكان — كعادة هذا العصر — غنيا بالرسوم والنقوش التى تمجد حياة الملك وأعماله أو تمثله متعبدا أمام مختلف الآلهة . وقد مثل فى إحدى اللوحات أمام الآلهة ذات رأس الأسد « سخمت » وقد كان لهذه الصورة — لسبب لانعرفه على وجه التحقيق — حظوة خاصة . لأنه فى عصر لم يكن يفكر فيه أحد فى الملك الذى ارتحل منذ زمان طويل والذى انهار معبده إلى أنقاض أصبحت صورة سخمت ساحورع صورة تفوز بالتقديس وأصبح هذا المعبد المهدم هيكلا صغيرا لسخمت ، ونحن لانظن أننا نخطئ إذا اعتبرنا أن خلفاء كهنة الملك الجنزيين الذين كانوا لايزالون يعيشون بالقرب من المعبد كانوا هم حماة وسدنة هذا المحج، وأن شهرته ترجع على الأقل إلى

---

(١) Bol. 1094, 10, 11, ss.

(٢) Pap. Petersbourg, 1019 (XIXe. XXe dyn.)

(٣) بليى (36,77) ويسميه كذلك — وله الحق الكامل — numen adcolentium

Erman : Sitz. Ber. Berlin. akad. (1904), 428, 1068

عهد الإمبراطورية الحديثة وأن زيارته لم تكن قاصرة على عامة الشعب ، بل إن نبلاء وأشرافا لم يأنفوا من تقديم قرابينهم إلى هذه الـ « سخمت » ، بل إن كاهنا كبيرا لمنف حيث كانت سخمت الحقيقية فى مدينتها الأصيلة تقدم بالولاء لهذه المعبودة الجديدة .

وكان الحجاج يقدمون علامة على تعبدهم نصبا يثبتونها بطريقة بربرية فى نقوش المعابد القديمة . . . وقد مثلت على عدد كبير من هذه النصب آذان تعنى — حسب العادة — أن الإلهة قد استجابت إلى الدعاء . وهناك نذور أخرى أكثر بساطة مصنوعة من الطين الملون وصلتنا فى كميات كبيرة مما يدل على قيام تجارة حقيقية ضخمة لمناسبة موسم الحج . وكانوا يقدمون كذلك تماثيل صغيرة للآلهة أو لبعض الآلهة الشعبية الأخرى . ومن العجيب أن حيوانات مقدسة أخرى تسرّبت إلى هذا المعبد الجديد مثل السحالى (الورن) والخراف ، وهذا يتفق مع تعلق الناس فى العصور المتأخرة بهذه الحيوانات المقدسة وإن كنا لانستطيع أن نفهم معنى لهذه الصلة بين هذه الإلهة المتوحشة ومخلوقات هادئة كهذه .



٥٣ — نصب قدمه إلى آمون رع رجل يدعى نب محيت . وتدل الأذنان على أن الإله قد استجاب الدعاء
(برلين ٧٣٥٤)

وقد دام معبد سخمت هذا أكثر من ألف سنة ونحن مدينون له ببقاء معبد ساحورع وبنقوشه الرائعة فى الوقت الذى تهدمت فيه تماما المعابد الأخرى الواقعة حوله .

وقد اختير الملوك القدامى بصفة خاصة كحماة لهذه الجبانات الشاسعة فى منف وطيبة حيث كانت تزخر بالكثيرين من النحاتين والنقاشين

والموظفين الخ الذين يعملون بها . فى منف كان ملوك الدولة القديمة هم الحماة [١] وأما فى طيبة فقد كانوا ملوك الدولة الحديثة تتقدمهم السيدة التى كانت على رأس الأسرة الثامنة عشرة الزوجة الإلهية احموزه نفرتارى وابنها أمنوفيس الأول [٢] ، وقد اعتبر كلاهما كإلهين ، وكانت تحمل صورهما فى المواكب وتقام الطقوس لاسميهما. وفى الهيكل الصغير الذى زوّدنا باللوحات الحجرية المتضمنة الأدعية كان النقاش «پاى» يقدم القربان لتمثال صغير جذاب لهذه الملكة [٣] ، وهناك فى نفس المكان توجد لوحة صغيرة تحمل النصّ الآتى ، وفيه يتقدم أحد الأشخاص الذين يعبدون أمنوفيس بالدعاء له على هذه الصورة . «إن من يدخل إليك حزين القلب يخرج فرحا مستبشرا. الكبار والصغار يأتون إليك من أجل اسمك لأنهم يسمعون عن قوة اسمك» وأما مايلى فيرينا فيما تتركز قوّة هذا الملك القديس «ألست أدخل يدى فى فجوة بها ثعبان ضخم ؟ إنك تدرك إذن قوّة أمنوفيس (وترى) كيف يقوم بالمعجزات لبلدته [٤] » .

ولكن أهالى طيبة لم يكونوا يكتفون بهؤلاء الحُماة فهم كانوا يعتقدون أن معبودة أخرى كانت تحكم مقاطعتهم وأنها تعيش فوق أحد جبال مدينة الموتى. ولهذا يسمونها قمة الجبل . وبما أنها تحكم مملكة إله الموتى الذى يسكت الناس فإنها قد أطلق عليها اسم « مريت سجر » أى « محبوبه الذى يسبب السكوت » وكانوا يمثلونها بالضبط مثل زوجته إيزيس [٥] ، ولقد رأينا من قبل كيف تعاقب وكيف تصفح .

ولقد عبدت فى البلاد كلها من غير شك آلهة أخرى صغيرة تعين فى الشدة وهى من خلق الشعب ، وعلى هذا فانه ليس لها مظهر الآلهة العظام ، بل بالعكس فقد صوّرتها المخيلة الشعبية فى صورة كاريكاتورية . ولنذكر فى أول الأمر الآلهة

---

(١) Berlin 1116

(٢) اعتمادا على Champ. not. I, 855 يمكن أن يذهب المرء إلى أن هذا الملك كان يعتبر بحق ابنا لأمون والزوجة الإلهية . — على أننا لا ندرى لم لون جسده باللون الأسود فى الصورة الكبيرة فى برلين رقم ٢٠٦٠ .

(٣) Berlin no 6908

(٤) Sitz. Ber. Berl. Akad., (1911), 1105

(٥) Idem, 1107



٥٤ – توريس
(برلين ١٠٧١٠)

تويريس ، ومعنى اسمها – بمنتهى البساطة – « العظيمة » [1] وهى وحش يتكون فى نفس الوقت من عجل بحر وتمساح بيدين آدميتين وقدمى لبوة ، وهى تقف على رجليها وتحمل عادة رمز الرعاية والحماية إذ أنها تأتى بهما للناس . وهى تمثل فى صورة « حامل » وتماثيلها الصغيرة التى تقدس فى المعابد تجعلنا نظن أنها كانت تساعد أثناء الوضع والرضاع [2]. وقد دخلت تويريس بعد ذلك فى محيط الآلهة الكبار وأصبحت الآلهة المحلية أوپت طيبة [3] .

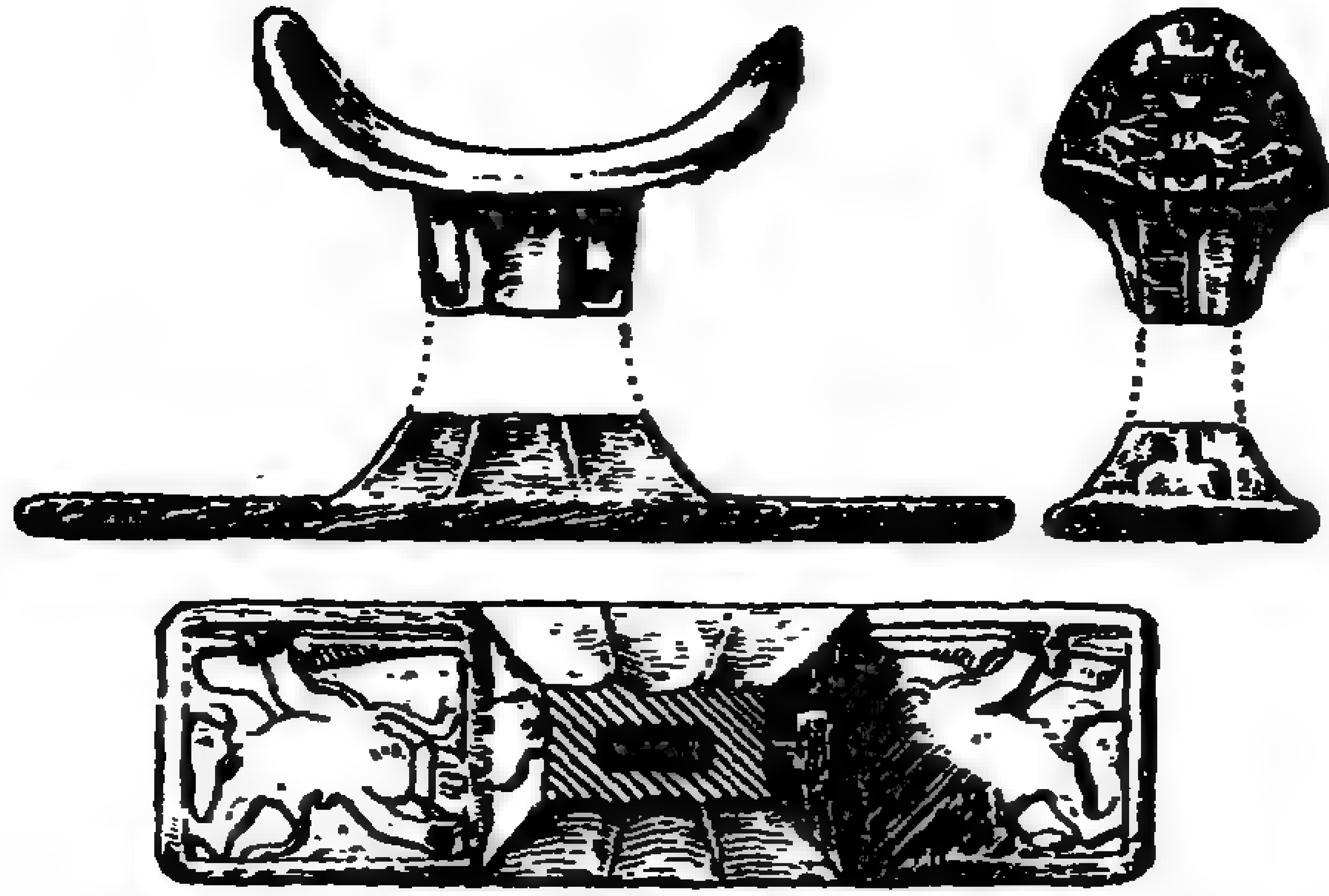
وهناك كائن آخر محبوب غير أنه أقلّ غرابة وهو بسّ الذى نستطيع أن نستنتج من مظهره حتى اليوم أنه يشيع السرور وهو قزم ملتوى الساقين ، وله رأس كبيرة وذقن منتفشة وذيل كذيل الحيوان ، ونستطيع أن نشبهه بمسوخ الأساطير اليونانية فهو مثلهم يظهر فى أعداد كثيرة تمثل فى خدمة الآلهة الكبار وتدخل السرور إلى نفوسهم عن طريق الرقص والموسيقى وتسهر على أولاد الآلهة ؛ ولكن هذا المركز المتواضع لايمنع من أن يتحوّل إلى إله حقيقى حتى ليسمى الطفل أحيانا « ذلك الذى ينتسب إلى بس » مثل « ذلك الذى ينتسب إلى آمون » أو « ذلك الذى ينتسب إلى تويريس » . وعلاوة على هذا فهم يستخدمون الصورة الهزلية لـ « بس » كمقبض لمرآة أو علبه مساحيق ، كما يمثل على مساند الرأس وهنا يكون بس مسلحا بقوس وسكاكين حتى يحمى النوام من كافة أنواع الضرّ .



٥٥ – بس يضرب على الطنبور (برلين ٥٦٦٦)

---

(١) الاسم حديث .
(٢) Möller, A E. Z , 54, 138 فى معبد تحتمت لساحورع Borchardt : Sahure I, P. 130
(٣) تمثل صورتها كذلك نجم الدب الكبير .



٥٦ — مسند الرأس ، كان يستخدم بدلا من الوسادة ، ويحمله شكلان كل منهما على هيئة بس ، ومن الأسفل شكلان آخران يمثلان بس مسلحا لحماية النائم (برلين ١٢٦٢٥)

وهناك مجموعة أخرى من الآلهة القميئة مصورة على هيئة إنسانية كاملة ولكنها ليست مغرية ، فظهرها مظهر أطفال ناقصى التكوين ذوى أعضاء مشوّهة [1] . وعليهم أيضا مساعدة الناس من غير شك ولكن ما يعنينا بصددهم هو أنهم يعتبرون مثل بتاح أو أولاد بتاح ، وهو ما تشير إليه تسميتهم « باتك » التى نقلها هيرودوت [2] ، وهم بالمثل يساعدون الناس ويضفون عليهم الحماية ضد الثعابين مثلا . وهم فى ذلك مثل بس تماما [3] .



٥٧ — باتك
(برلين ١١٠٥٥)

وليس علينا إلا أن نتصوّر أيضا سابوع حاحور كمخلوقات منفرة أو مضحكة . وقد عرفنا آلهة الحبّ السبعة هذه من طريق قصص الدول الحديثة حيث تتنبأ للمولود الجديد بحظه . ونحن نعرف كذلك أنها تعهدت بإعطاء ذرية نكاهن لتحوت إن هو قدم لها صورة ووجه إليها أدعيته [4] .

---

(١) نجدهم كثيرا بعد الدولة الحديثة ولكننا لسنا على ثقة من أنهم ظهروا خلاله .

(٢) هيرودوت III, 37

(٣) فيما يخص « الباتك » قارن : Cat. dét. du musée de Berlin P. 306 وبالمثل Berlin 1543

(٤) Bissing et Blok, AE. Z., 61, 83

و لنذكر أخيرا الإله أونوريس الذى نتخيله على هيئة أمير يركب عجلة حربية


٥٨ – تميمة عليها صورة شو أنوريس (برلين ٨٩٢٠)

ويقتل الحيوانات البرية وهو يسمى « بالمنقذ » . هو يحمى أولئك الذين يحملون صورته كتميمة تحميهم من الحيوانات والأعداء .

ويضاف إلى كل هذه المعبودات الشعبية الصغيرة معبودات استعيرت من البلاد الأجنبية . فمنذ زمن طويل كان لمصر فى الواقع صلات مستمرة بالبلاد الواقعة إلى شمالها وإلى شرقها ، ولم تؤثر هذه الصلات على اللغة الدارجة فتزوّدها بأسماء سامية فحسب ، بل إن الدين كذلك دخلت إليه هذه المعبودات الأجنبية . ذلك لأن التجار والجنود كانوا يعبدونها فى منازلهم عرفانا لفضل حمايتها إياهم فى البحر أو فى المعارك . وحيث إن كل ما يأتى من الخارج له جاذبية خاصة فإن أناسا آخرين صاروا بدورهم يضعون آمالهم فى هذه الآلهة الجديدة .


٥٩ – سوتخ ويميزه القرنان الصغيران وما يتدلى من التاج وأربطة النقبة كإله أجنبـى (برلين ٤٤٨٠)

واندمجت بعض هذه الآلهة فى الآلهة المصرية التى تشبهها فى طبيعتها . وهكذا نرى عشتارتى ترتبط بإلهة الحرب المصرية سخمت فى منف وقدش بحاتحور والإله السورى رشف يختلط بسوتخ فى الدلتا الشرقية [1]

والإله رشف هذا هو صاحب القوّة بين التاسوع ، وهو إله محارب مسلح بحربة ودرع . وهو يلبس تاجا لمصر العليا ، ولكن لباسه يكفى لإثبات أصله الأجنبى ، فيه تعلق شرائط على النقبة وشريط آخر طويل يتدلى من تاجه الذى يزينه من الأمام قرنان أو رأس غزال ، وعلى كل فقد كان يوجد بلا شك أكثر من « رشف » ، لأن إحدى القصائد جاء بها أن ضباط رعمسيس الثالث أقوياء كالآلهة

(١) لـ « رشف » قارن Brugsch : Thes., 1434 ، و « لسوتخ » Berlein 8440

رشف . ولم يكن أولئك الذين يعبدون إله الحرب هذا جميعا محاربين بالضرورة ، فإن الرجل الذى قدم لوحة « لين كان من بلدة طيبة الجنزية . وأما الإلهة كدش التى تقف أحيانا إلى جانبه فلها طابع سمح مثل حاتحور . . . وهى – مثلها – تدعى « عين الشمس » أو « ابنة رع » وحين تقف على الأسود وتمسك فى الوقت نفسه زهورا وأفاعى ، فإن معنى هذا – بمنتهى البساطة – أن تعمل للحماية من هذه الحيوانات الشريرة [1] . وفى الوقت الذى كان فيه لرشف وكدش دائرة من المؤمنين بهما كان لبعل والإلهتين عنات وعاشترت نفوذ أعم .

وبعل كائن مخيف يقرن – كما تظهره رسومه واسمه – بست . وهو إله العواصف والزوابع ، وهو يقف على الجبال ويزأر فى السماء . أما فى الحروب فإن الملك كان يشبه ببعل حين يكون ثائرا [2] . ولقد شاع بين الشعب حتى لم تعد تحس قيمة اسمه وحتى أصبح يسبق بأداة التعريف : البعل كما لو كان اسما عاما يدل على « الإله » .

وكما كان فى كنعان أكثر من بعل واحد فإنه كان يجب أن يعبد فى مصر أكثر من بعل كذلك . ومن هنا نعرف بعل قادش وبعل زيفون [3] الذى يظهر أنه كان إلها للملاحين . ومن ناحية أخرى كان يوجد كذلك معبد لبعل فى منف ، ونحن نعرف كاهنا لهذا الهيكل كان فى خدمة بعل وعشتارت وهو يحمل اسما أجنبيا وإن كان قد دفن خلال حكم أمنحتب الرابع كمصرى خالص [4] ، وكانت للإلهتين عنات وعشترت شهرة عامة فى مصر خلال الدولة الحديثة على نحو ما كان لبعل . وكلتاهما إلهتا حرب ، ويمثل أحد المناظر إحداهما وهى تمتطى حصانا وتمسك بيدها بلطة الحرب ودرعا [5] . وحين أصبحت عنات بعد ذلك إلهة مصرية بحتة اضطرت إلى

---

(١) Brugsch, Thes., 1434

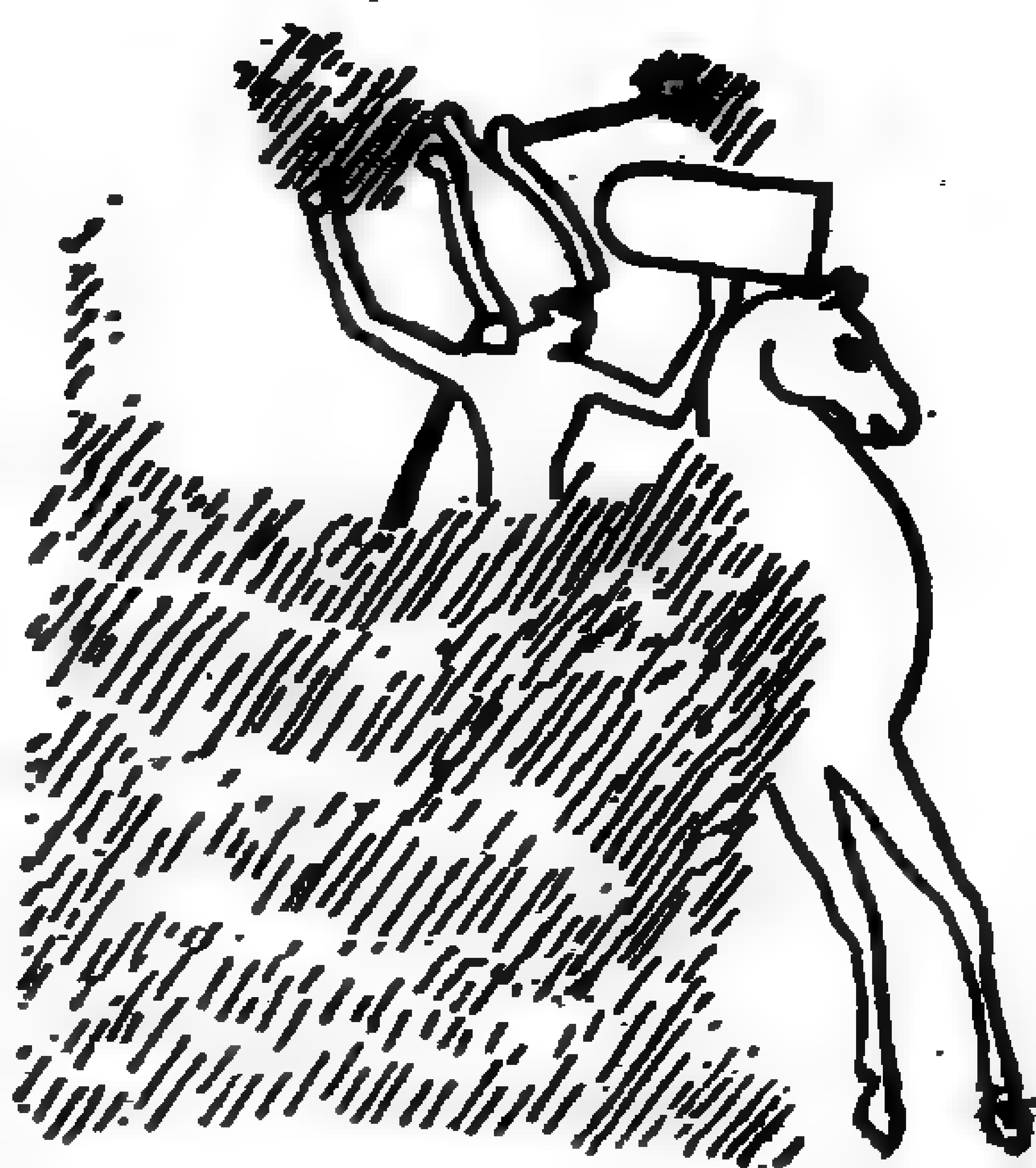
(٢) بالمثل فى Grapow, Bildliche Ausdrücke P. 186

(٣) الاثنان مذكوران فى Sall., IV, Ro., I, 6 ثم إن موظفا مصريا كرس لبعل زينون حجرا تذكاريا فى رأس شمرة . وهناك مكان على الشواطىء المصرية يحمل اسمه كذلك (قارن Eissfeldt, Baal Zophon, etc., Halle 1932)

(٤) L.D. Texte I, 16 وبعض هذه القطع الثمينة موجود فى متحف برلين .

(٥) نقش قام به أحد الضباط فى صحراء الرديسية (L. D., III, 138.)

تبذ تلك الطبيعة الوحشية. وحين نراها بعد قرون فى معبد فيلة إذ بها تتحول إلى إيزيس ولها ابنها حوريس [١] ، ونرى أوغسطس يقدم لها مرآتين كهدية مناسبة لها .



٦٠ عشترت تمتطي حصانا (من نص لأحد الضباط فى صحراء رديسية)

ولكن هذه الطبيعة المسالمة لم يظهر لها أثر فى الدولة الحديثة لدى هاتين الإلهتين . فهما درع الملك فى حربه [٢] وهما مرتبطتان بعجلته الحربيه [٣] ، وحين ينقض تحوتمس الرابع — فى عربته — على العدوّ فإنه يقود حصانه كما تقوده فى الوقت نفسه عاشترت [٤] . وفى قصة حوريس وست نراهما قد أعطيتا لست إله الحرب كتعويض لما أصابه من ضرر . وفى أسطورة أخرى ترى أنهما زوجتان لست ، لأن غريمهما حوريس يمنعهما من الولادة [٥] . وفى قصة أخرى يذكر كيف أن الآلهة التى أزعجها البحر أحضرت عاشترت من سوريا إلى مصر وأن هذه الآلهة قامت باستقبالها رسميا،وأنها أعطيت عرشا وجلست عليه ، وأن « الآلهة الكبار وقفوا أمامها ، وأن الآلهة الصغار انبطحوا على بطونهم» [٦] وهى كذلك تعتبر ابنة لبتاح ، وليس من عجب بعد ذلك أن تتوطن بسرعة فى منف . وقد كان لها فى عهد أمنوفيس الرابع — كما رأينا من قبل — معبدا خاصا بها [٧] .

وقد عبد ملوك الأسرة التاسعة عشرة أيضا إلهتى الحرب ، فترى الحيّ الشرقى

(١) Philae «2804»

(٢) Med. Habou (Rougé, Inscr. 117)

(٣) AE. Z. (1880), 94

(٤) Davies, Tomb of Thutmosis IV pl 10

(٥) Pap. mag. Harris. 3,8.

(٦) Litt., P. 218 يكمل الآن ويصحح طبقا لجاردنر ـ دراسات لجريفث صفحة ٧٤ .

(٧) L. D. Texte I, 16 et Ranke : Studies for Griffith P. 416 وكان هذا المعبد الواقع فى الحى الفينيقى من المدينة قائما فى زمن هيرودوت .

من العاصمة الجديدة فى عهد رعمسيس الثانى مكرّسا لعشترت ، بينما كان الحىّ الغربى مكرّسا للآلهة المصرية بوتو . ولم تكن خيل الملك تسمى باسم عناتَ وحدها، بل إن ابنته كذلك كانت تحمل الاسم السامى « بنت عنات » أى ابنةَ عنات .

وهناك آلهة أجنبية أخرى ليست لها أية صلة بعشترت وقد عبدت كذلك فى منف وهى الإلهة السورية عشتار . وهى ترى مرّة مع الإلهة كدش تعطيان الصحة لواحد من خدم الكاهن الأعظم لبتاح . ومرة أخرى تتعرف عليها بطريقة أدقّ كإحدى الإلهات التى دعيت لتسدى معونة . فلقد كان بواب معبد بتاح مشوّه الساق كما تبين لنا صورته فى اللوحة وكان يعتمد على معونة هذه الآلهة خاصة لأنه هووزوجه من أصل سورى . وإنه لمن الغريب كذلك أن تعرف تحت أىّ ظروف دخلت الإلهة عشتار إلى مصر . . .

يلوح أنه حين مرض أمنوفيس الثالث مرضه الأخير . سأل صهره توشراتا ملك ميتانى أن يعيره تمثال عشتار من نينوى لأنه سبق لها أن مارست قوّتها فى مصر من قبل فى مناسبة مماثلة . وقد أجابه توشراتا إلى سؤاله وبعث بالإلهه التى كانت ما تزال تحتفظ بذكرى التقديس الذى حظيت به فى مصر والتى كانت تحبّ البلاد كذلك وطلب توشراتا إلى أمنوفيس أن يجدّد تمجيد الإلهة حتى تمنحهما معا الحماية والعمر الطويل . كما طلب إليه أن يردّها بعد ذلك بقلب سمح . وأضاف قائلا : « عشتار إلهتى وليست إلهة أخى » ومن الواضح أن توشراتا كان يخشى أن يحتفظ بمصر بصورتها العجائبية [1]

وإذا كانت عشتار مستعارة بالتأكيد من إقليم الفرات فإننا نستطيع كذلك أن نقرر أن الإلهة « نكر » أو « نكل » — التى تعتبر فى أحد النصوص السحرية كزوجة للإله الأعظم — ليست سوى آلهة بابل المسماة « ننجال زوجة الإله القمرى « سن »[2].

وهكذا نرى الشعب يبحث عن نعيمه تارة عن طريق آلهة الشعوب الأجنبية . وطورا عن طريق مخلوقات جديدة يلصق هو بها صفات إلهية . وذلك بعد أن أصبح الآلهة القدامى غير قريبين منه . وليس بغريب فى هذا البحث أن يعود الشعب إلى

---

(١) Ranke: Studies for Griffith, P. 412 ss

(٢) Gardiner AE. Z. 43, 97

ما اعتاد الركون إليه منذ أمد طويل وهو تقديس الحيوان . وفى الواقع : إن مظهر هذه العبادة لم يكن قد اختفى تماما ، بل إن الناس — كما كانت الحال قديما — ما زالوا يقومون بتربية الثيران المقدسة أبيس ومنيفيس فى ممفيس وهليوبوليس ولم يبرح ذاكرتهم أبدا كبش منديس ولا الصقر حوريس . ورغم هذا فإن هذه الحيوانات لم تكن سوى توابع من مستلزمات الديانة لها قيمتها . وكل من كان يقدم أناشيد الثناء لبتاح وحوراختى لم يكن يفكر البتة فى الثيران المقدسة أبيس ومنيفيس أكثر من أنها موجودة — على سبيل العادة المتوارثة — فى معابدها [1] ، ولكن مظاهر اتجاه الشعب تزداد وتميل نحو الرغبة فى العودة إلى تقديس الحيوانات ، وهى تلك الكائنات التى تظهر فيها الألوهية حية . . . أليست هذه الحيوانات أقرب إلى الرجل الساذج من الصور الإلهية بالمعبد ، تلك الصور التى لاتسنح له الفرصة ليراها ؟ ولكننا ما زلنا بعيدين عن ذلك العصر الذى يعتبر فيه كل قط وكل أفعى سامة مخلوقا إلهيا وإن كان الطريق معبدا لمثل هذه الحماقة .

وهناك لوحة ترجع إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة كرسها خادم أحد المعابد لتخليد تعبده لمنيفس [2] . وإننا لنرى عظم احترام هذا الحيوان المقدس بفضل وشاية ترجع إلى عهد رعمسيس الرابع ، فقد كان من بين ذنوب أحد المتهمين بيعه ثور منيفس صغيرا عند ما وضعته بقرته [3] . كما وجدت لوحات كرست لكل أنواع الحيوان التى يعبدها الإنسان رغم أنها لاتتصل بالدين الرسمى للمعابد ، ورغم أن علاقتها بالآلهة الأصيلة تظل خافية عنا .

وإننا لنذكر أيضا أن كبشا كان يمكن أن يكرّس لأمون ما دامت إحدى أشكال هذا الإله كانت برأس كبش . ولكن ما معنى وجود أوزة خلف أمون ؟ إننا لو وجدنا سببا قويا لمثل هذه الغرابة فقد نستطيع التفكير فى المزقزق الأعظم الذى

---

(١) إذا كان قد بدئ فى تل العمارنة فى الفترة الأولى على الأقل من الثورة بتخطيط قبور للثور منيفس فإن فى هذا ما يدل فقط على الرغبة فى أن تكون مدينة الشمس الجديدة مشابهة فى ظاهرها كذلك للمدينة القديمة .

(٢) Berlin, 14200

(٣) Spiegelberg ; AE. Z: 29, 82

كان يرفرف على الهاوية الدكناء عند خلق العالم ، ولكن الواقع أن كل تأويل يظلّ عبثا أمام التصوير الممثل على لوحة أخرى للقط الجميل أو السنونو اللطيف الذى يظل هناك كذلك . . . إلى الأبد . . . والذى يتقدمون له بالدعاء [1] .



٦١ – أمون رع مع أوزة
(برلين ٧٢٩٥)

ثم ما معنى تلك السمكات السبع التى نراها إلى جانب إله الشمس والتى ترى فى معبد صغير خاص بها ؟ [2] . ولقد كان هذا التيار قويا إلى حد أن الديانة الرسمية لم تكن تستطيع هى الأخرى أن تمنع الاهتمام به.

ولذا فان الأمير « خع ام واست » ابن رعمسيس الثانى وكاهن منف الأكبر أمر ببناء مقبرة عامة لعجول أبيس . ولقد أمعنوا كثيرا فى ذلك الوقت فى تكريم الأبقار الميتة حيث كانت توضع بجانبها تماثيل جنزية (فصل ١٥) مهمتها تخفيف العمل عنها فى العالم الآخر [3] ، وقد قام أمير يدعى تحوتمس فى الأسرة الثامنة عشرة بدفن قط مقدس على طريقة دفن الإنسان ، فصنع له تابوتا كبيرا من الحجر وفى أطرافه مُثلتا كل من إيزيس ونفتيس وهما تنوحان . . . أما هو (أى القط) المبجل إلى جوار أوزوريس فيجلس كما يجلس الرجل الميت أمام مائدة طعامه مثلت فوقها أوزة مشوية [4]



٦٢ آلهة تطعم الموتى من شجرتها
(عن برلين ٧٢٩١)

وهناك أثر آخر من أقدم العصور استمرّ خلال عهد الدولة الحديثة وهو عبادة أشجار معينة ..وقد رأينا فيما سبق خطابا من طيبة

(١) Turin, 134, Sitz. Ber. Berl. akad. (1911) 1096

(٢) Berlin no 818

(٣) برأس أبيس Berlin Nos 398, 399

(٤) Borchardt AE. Z., 44, 97

أن أهل ذلك الإقليم كانوا يقدمون لها أدعيتهم ، وعلاوة على ذلك فإن عبادة شجرة الجميز لم تبطل أبدا فى منف ، وهى الجميزة الكائنة فى جنوب معبد بتاح . وقد كانت الإلهة حاتحور — طبقا لعقيدة قديمة — تسكن هذه الشجرة ، وبما أنها كانت إلهة الحب كذلك فقد كان يعطى للنبات أسماء مثل « إنوحى مملوكة الجميزة » [1] . ويظن كذلك أن إلهة أخرى كانت تستقر على بعض الأشجار الأخرى على حدود الصحراء وهى نوت وحاتحور وكانوا يأملون أن تعطى هذه الأشجار للموتى المدفونين هناك الماء والطعام . وقد عرف الدين الرسمى للإمبراطورية الحديثة كذلك — كما سنرى فيما يلى — طبيعة إلهية فى بعض أشجار معينة فى المعبد .

حين يعتقد المرء أن المعبودات تشارك فى تقرير مصيره وتوجهه فى أعماله . نراه يعقد العزم على كشف ما قرّرته بصدده وما تنصحه بعمله . . .

ولقد كان الأمر كذلك فى مصر دائما ولكننا لانلاقى أمثال هذه القرارات الإلهية إلا منذ الإمبراطورية الحديثة . فحين أراد تحوتمس الأول تثبيت وراثة العرش لابنته حتشبسوت رغم كل التقاليد ، نرى أمون ينطق بأمر يتفق ورغبات الملك . وحين أرادت حتشبسوت نفسها إرسال رحلة إلى بلاد البخور توسلت أمام سلالم سيد الآلهة وسمع أمر من المعبد الكبير ، بل نصيحة من الإله نفسه هى : ابحثى عن الطرق التى تؤدى إلى بونت وافتحى المسالك التى توصل إلى جبال المر [2] ، وحين يقود تحوتمس الثالث وأخلافه جيوشهم فى آسيا فليس يتمّ ذلك إلا لأن الإله أمون أبوهم قد أعد لهم هناك انتصارات . وإذا كان أمون كما رأينا قد ساعد الأميرة حتشبسوت على ارتقاء العرش . فإنه لم يختر للملك شقيقها الذى كان قد ثبته على العرش من قبل وهو الذى قدر له أن يخلعها بالتالى . . . ولقد نشأ الشاب الصغير فى المعبد — وربما كان ذلك لأن أباه أراد أن يجعل منه يوما ما كبيرا للكهنة — وقبل أن يصبح كاهنا ساهم فى حفلة قدم الملك خلالها قربانا ضخما . . . ولم يستقرّ الإله فى مكانه أمام المذبح ، بل تقدم — لعجب الجميع — نحو الصالة الكبرى كأنما هو

---

(١) تدل الطريقة العامية فى كتابة هذه الأسماء على أنها إنما ترجع إلى لغة الشعب .

(٢) Urk., IV, 342

يبحث عن شخص ما . . . ثم توقف أمام الأمير الصغير الذى كان بين الكهنة من غير شك فارتمى الأمير على الأرض أمامه ، وقاده الإله إلى مكان المعبد حيث يقف الملك عادة ، ثم فتح قدس الأقداس ووضع له – كما تذكر بقية القصة – منذ هذه اللحظة التاج على رأسه وأعطاه لقبه الملكى [1] .

وحين اعتلى رعمسيس الثالث العرش فيما بعد أعلن الإله أنه سيحكم مائتى عام ، وقد أخذ هذا الإقرار حرفيا على الإله لابنه ، وعندما مات الملك تذكروا ذلك ، فالتمسوا من الإله أن يفى بالوعد لخليفته على الأقل [2] .

وإذا كان الإله يظهر إرادته للملك فى هذه الحالة ، فإن مثل ذلك يمكن أن يحدث لعامة الناس وفى عهد رعمسيس الثانى حدث أن كبيرا للمدجائيين (أى قائدا للبوليس النوبى) شارك فى موكب لتمجيد إيزيس . وقد أشارت له صورتها المقدسة من أعلى قاربها . وكان معنى ذلك أنه سيرقى ، وقد حدث بالفعل فيما بعد أن أصبح ضابطا كبيرا وسفيرا للملك كما تقصّ ذلك علينا إحدى اللوحات [3] . وكان يحدث أيضا أن يستفتى الإله حتى لو كانت هناك منازعات خاصة بملكية بعض الأشياء ، فقد حدث مثلا أن سرقت من مقبرة فى طيبة ملابس النقاش « كاها » ولم يعرف السارق . فتوجه المسروق منه إلى الملك المقدس أمينوفيس مولاه . والتمس منه أن يقدم له العون اليوم. وبينا هم يقومون بنقل صورة الإله أمام منزل أمون نخت أشارت الصورة برأسها معلنة أن ابنة ذلك الرجل هى التى لديها الملابس [4] . وحادث آخر كذلك . . . تشاجر خع ام ماست . وهو أحد عمال طيبه مع زميل له بخصوص امتلاك بيت أبيه . فرفع الأمر إلى الملك المقدس وقال : « أقبل إلى معاونتى أنت أيتها الشمس العظيمة » ، وحين سئل الملك إن كان البيت يعطى إلى خع ام ماست ؟ انحنى بشدة أمام العاملين وأمام كل الذين كانوا يحملون التمثال [5] .

---

(١) Urk., IV, 156 ss. et texte allemand, P. 75. cf. Breasted, Records, Tome II 138 et Lefebre, Grands Prêtres, P. 74 ss.

(٢) Harris I, 23, 2

(٣) Petrie, koptos, pl. 19

(٤) Ostracon, Gardinér No 4

(٥) Ostracon Petrie No 21. cf. aussi Erman : Sitz. Ber Berl. akad 1910, p. 344

وهناك نص يحوى جدالا حدث بين بعض المثقفين العلماء يثبت لنا أنه لم يكن الشعب فقط الذى يصدق مثل هذه القرارات الإلهية. وفى هذا المكتوب يدافع الكاتب عن نفسه ضد غريمه الذى يشك فى مهارته ككاتب ويقترح أخيرا أن توضع أمام أونوريس خطابات غريمه ليقرر من هو صاحب الحق [1].

وسنرى فى الفصل الثامن عشر كيف أن عادة سؤال الإله قد ازدادت رسوخا أكثر فأكثر حتى أصبحت من عوامل الحياة الهامة.

---

(١) Anast. I : cf. litt. P. 281

الفصل الحادى عشر

الأخلاق

حين يعيش الناس فى مجتمع دائم تنشأ فيما بينهم على مرّ العصور أنواع شتى من التقاليد من شأنها أن تحدّ من أفعال الأشخاص إذا كان من أثرها إيذاء المجتمع . إن الصلات الاجتماعية تفرض على الشخص ألا يقتل أو يسرق أو يقترف أىّ عمل من هذا القبيل . ولعل ما تفرضه هذه الأخلاق على الفرد من واجبات كأثر لازدياد الثقافة قد يتجاوز ما يطلب إلى الإنسان .

وليست للأخلاق صلة بالدين فى أساسها [1] ولكنه من الواضح أنها موضوعة فى صورة من الصور تحت حمايته ، ولقد كان الظلم فى كل العصور فى مصر مرذولا فى نظر الآلهة . ونحن نقرأ فى متون الأهرام أن الملاح السماوى لايسمح بالعبور لغير الصالحين العادلين [2] . ويعتبر إله الشمس بصفة خاصة ممثلا للعدالة وكان الصدق أو العدالة — كلمة واحدة تعنى أحد المعنيين — تمثل كأنما هى ابنة له . أليس هو القائل بنفسه للإنسان : قل الصدق وافعل ما يقتضيه فهو العظيم القوىّ [3] . . . هذه الحقيقة وهذا القانون يتضمنان المثل الأعلى لدى المصريين . وهذا هو ما يكوّن دولة متحضرة ؛ والواقع مهما أوغلنا فى القدم فإننا ندرك أن المصريين عاشوا كشعب كان النظام يسيطر على علاقاته الاجتماعية .

وحين كان يضطرب هذا النظام كانوا يعتبرون هذا الأمر جُرما ، وربما كانت الرغبة فى الكفاح أو البطولة تعوزانهم ، بل قد يندر أن تجد فى مختلف النقوش التى وصلتنا من كل العصور من يفاخر بعمل حربى ، وليس الأمر مصادفة أن تكون

---

(١) Ed. meyer I², 71

(٢) Pyr. 383 ss.

(٣) Paysan (litt., P. 173)

الأسطورة المحببة لدى المصريين ذات طابع سلمي . فلقد كان أوزوريس كما رأينا في الفصل الخامس أميرا للسلام . . . إلها لاأعداء له ، وضع حدا للتناحر ، وإنه وإن كان يعظم كمحارب وفاتح ، فإنما مرجع ذلك إلى عادة تصور الملك الأرضي على هذه الصورة . كما أنه يجدر بالملاحظة أن أوزوريس — تبعا لما جاء بالنسخة الأولى من الأسطورة — لم يحارب الشعوب الأجنبية إلا عن طريق الإقناع . وحين يطالب ابنه حوريس قاتله بدمه فإن الأمر لايسير إلا عن طريق العدالة . . . وأما سكان الوادي الوادعين فلم يشعروا بغير الاشمئزاز نحو الحروب والمعارك التي أبدعت في تصويرها خيالات بعض الشعوب الأخرى — ولعلنا لم ننس الإلياذه — هذا . . رغم أننا نجد الملوك يسرون بأمثال التعبيرات . . وطئ الشعوب الأجنبية بقدمه . . . ، وسع الحدود .

والرأي القائل بأن حظ الميت متوقف على طريقة سلوكه خلال حياته القديمة ... رأي موغل في القدم ، والآلهة التي في مقدورها أن تمد يد المساعدة للميت لاتمنح عونها لكل شخص . وحين يتقدم المعتقد الأوزيري على سائر المعتقدات ، فإنه يطغى عليها في نهاية الأمر . ومملكة هذا الإله المبرأ من كل عيب لايدخلها إلا المطهرون ، وعلى كل واحد أن يثبت أمام الاثنين والأربعين قاضيا للموتى أنه لم يرتكب إثما قط . وسنرى في الفصل الرابع عشر بالتفصيل ماكانوا يقصدونه بالجرائم في هذه الاعترافات . ففي مقدمتها ماهو محرم في كل مجتمع إنساني وهو القتل والتحريض عليه والسرقة والغش والتزوير والفسق والزنا . ثم يضاف إلى ذلك واجبات أسمى ، فعلى الإنسان ألا يكذب . وألا يغتاب . وألا يتجسس من وراء الأبواب وألا يأكل قلبه [1] أي لايهلك نفسه فيما لايجدي من أسى . وألا يؤخذ اللبن من فم الرضع حتى لايجوعوا ولا يبكوا . وهناك أمور أخرى تمس الظروف الخاصة بكيان المصريين ، فيجب ألا يعوق الماء الجاري أثناء الفيضان وألا يعتدي على حيوانات أو أسماك أو طيور الآلهة . وألا يسرق الأطعمة من المعابد أو المقابر .

ويظهر لنا بطريقة أوضح ما كان يعتبر في مصر فضيلة ، وقد سجلته نقوش المقابر

---

(١) يتجلى في اللغة القبطية أن هذا المعنى هو المعنى الصحيح .

القديمة وآداب الدولة الوسطى . فالمرء يفخر قبل كل شيء بعمل الخير ، يعطى الخبز للجائع والماء للصادى والملبس للعارى [1] ، ومن يعجز عن عبور النهر يساعد على عبوره فى القارب الشخصى [2] ، ويهدى إلى السبيل السوىّ من ضلّ [3] . الرجل الطيب هو ابن للمسنين [4] وأخ للمطلق ، وزوج للأرملة ، وأب لليتيم . . . هو كساء لمن يقرصه الصقيع ، ملجأ من الريح [5] . هو للمريض مرضع أو ممرّض .

ويفخر أحد العظماء زيادة على ذلك بأنه لم يغبن الأرملة أبدا ، ولم يستغلّ ابنة رجل من العوام . لم يسبب الضيق لمزارع أو راع . وفى أيام الفاقة ساعد الشعب ولم يفرّق بين كبير وصغير [6] ، وقد حاول بصفته قاضيا أن يجعل المتخاصمين يخرجان مسرورين من المحكمة [7] . وقد عنى أيضا بأن يحفظ للابن مال أبيه وممتلكاته حين يكون فى الأمر خلاف [8] . لأن واجب الرجل الشريف أن يحفظ للابن وظيفة أبيه . ويذكر الحكيم بتاح حوتب وزير الملك أسسى (حوالى ٢٥٠٠ ق م) كيف يجب على الرجل الشريف والموظف الصالح أن يعيش . من الخير أن يتزوّج وأن يكوّن أسرة . ولكن عليه أن يحترس من النساء فى منازل الآخرين . لأن ألف رجل يسعون إلى الخراب بسببهن . يجب أن يكون محبوبا من الناس جميعا ولا سيما الذين يطلبون العون . ويجب أن يشجعهم بإشارة من رأسه وأن يصغى إلى شكاواهم . وعليه أن يكون دائما متواضعا وكتوما ، وأن يجتنب ذكر الألفاظ النابية ، وألا يتكبر بسبب علمه . وألا يحتقر الوضيع إذا مارفعه الملك . . . إن البخل عيب قبيح وشهوة قبيحة تدعو إلى اضطراب العلاقات الإنسانية جميعا .

---

(١) cf. Urk. I, 122; Caire 20505

(٢) Urk. I, 122; Caire 20505

(٣) Sinouhé, 96

(٤) مايلى مأخوذ عن Paysan (litt. p. 126) et Hatnoub

(٥) Hanovre, Kestner-museum, no, II

(٦) Inscr. d Ameni (Beni. Hassan)

(٧) Hatnoub, p. 29

(٨) Urk., I, 123, 133

(٩) إننا نجهل صحة إسناد هذه النصوص القديمة الأدبية لأشخاص معينين ، على أية حال فإن هذا الكتاب أقدم من الدولة الوسطى . وكل مايلى مأخوذ عن Literatur, S. 87-90

وتبدو هذه المبادئ على شئ من القناعة ويظهر هذا الطابع أكثر وضوحا حين يؤكد الحكيم كم هي مفيدة تعاليمه للناس . فعلى المرء أن يحبّ زوجه ؛ ويجب أن يعمل لها كل خير ، وألا يدخر وسعا في ذلك ، فهى حقل طيب يحمل الثمار . . . يجب أن تكون خادما مخلصا لرئيسك حتى يدوم بيتك وكل أموالك وسيكون مرتبك معقولا .

كن كريما نحو من يثق فيك فمن يدرى ؟ ربما يأتى الوقت الذى يساعدونك فيه .

أما تعاليم أحد الملوك الذين عاشوا قبل الدولة الوسطى والموجه إلى ابنه « مرى كارع »[1] فمن طراز مختلف ، ويذكر فيها أيضا أنه يجب مواساة الباكى وعدم اضطهاد الأرملة أو حرمان أحد من ماله . ويجب ألا يباهى الملك بأصله . وعليه قبل كل شىء أن يجتنب الغضب فى الحديث واندفاع العاطفة . وهذه على كل حال فكرة تقابلها كثيرا فى الدولة الوسطى . وهى بكل تأكيد إحدى الأفكار الأساسية للأخلاق فى هـذه الفترة . فقد قيل عن أمير ما . أنه كان يتغلب على هواه . وكان قلبه هادئا خاليا من كل طيش [2] .

ويعلّم الملك الشيخ ابنه أن يتحدث فى لطف لأن الكلام أقوى من العراك . وينبهه فيما يختصّ بالتعبد للآلهة ، أن الإله يفضل تقوى العبد الصالح عن ثور يقدمه شرير على مذبحه ولكن على الرجل كذلك أن يفعل ما يفيد نفسه ، أن يقوم بعمل الكاهن ويقدّم القرابين ، فإن الإله يعرف من يفعل شيئا من أجله .

وقد وصلنا من الدولة الحديثة كتاب يُعتبر من أمتع ماخلفه لنا الأدب المصرى ، وقد كتبه رجل يدعى « أنى » ولنكتف بتقديم بعض مقتطفات منه :

كن كريما ولاتأكل خبزا حين يكون هناك آخر يتضوّر جوعا[3] . احترس من المرأة الأجنبية الغير معروفة فى بلدها . لاتبادلها النظرات ولا تظهر أنك تعرفها فإن هذه

---

(١) إن ما يلى مأخوذ عن Litt. p. 109-119

(٢) Hatnoub, p. 61; pareillement p. 25; Caire 20288, moyen Empire

(٣) Ani , Litt. p. 299

خطيئة عظمى حتى إذا لم تتحدث هى بذلك [1] . من الخير أن يبكر فى الزواج وأن يكون للشخص أطفال كثيرون [2] . عامل زوجتك برعاية إن كنت تعرف عنها أنها ممتازة ولا تقل لها « أين هذا ؟ هاته » إن كانت قد وضعته فى مكانه الصحيح [3] .

أعد لأمك كل ما فعلته من أجلك . أعطها المزيد من الخبز واحملها كما حملتك . إنها حملتك ثقلا وحين ولدت بعد تمام شهورك حملتك على عنقها وظل ثديها فى فمك ثلاث سنوات ولم تكن تشمئز من قاذوراتك . وأرسلتك إلى المدرسة كى تتعلم الكتابة وفى كل يوم كانت تنتظرك بالخبز والجعة من بيتها [4] .

كن وقورا حين تتناول طعامك . واعتدل فى شرب الجعة وإلا فإنك سوف لا تعرف ما تقول . وإن سقطت ستظل ملقى على الأرض كطفل صغير . رفاقك يتركونك ملقى ويقولون فليهلك هذا الثمل [5] . تخير جيدا معاشريك ولاتؤاخ خادم رجل آخر [6] . ولتغض النظر عما يجانب الصواب فى بيت أجنبى . فإذا رأته عينك اسكت ولاتقله لغريب [7] واحترس من أن تكشف أسرارا وإن قالها رجل فى بيتك فتظاهر بالصمم [8] .

لاتكثر الكلام وكن حذرا حين تتكلم لأن اللسان يسبب للناس النكبات [9] ، الفضيلة الرئيسية للمرء هى الحشمة والحياء . لاتبق جالسا حين يكون شخص أكبر منك سنا أو مركزا واقفا [10] . لاتدخل منزلا أجنبيا ما لم تكن مدعوا [11] لاتجاوب

---

(١) Idem. Litt. p. 296

(٢) Idem. Litt. p. 295

(٣) Idem. Litt. p. 300

(٤) Idem. Litt. p. 299

(٥) Idem. Litt. p. 296

(٦) Ani. Litt. p. 297

(٧) Idem. Litt. p. 295

(٨) Idem. Litt. p. 295

(٩) Idem. Litt. p. 298

(١٠) Idem. Litt. p. 298

(١١) Idem. Litt. p. 300

رئيسا غاضبا ، بل حاول تهدئته [1] — وبالمثل — لاتدخل المحكمة أو تخرج منها حتى لاينتن اسمك [2] . لاتضع ثقتك فى الغنى ولاتعتمد على ميراث ، ولا تقل : إن والد أمى يملك بيتا . . . لأنه عند ما يأتى وقت القسمة مع إخوتك فقد لاتتسلم أكثر من مخزن [3]

ويطنب هذا الحكيم فى الحديث عما يجب نحو الإله :

احتفل بعيد إلهك . . . إن الإله يسخط على من يهمل هذا الواجب [4] . لاتختر المكان الأول فى عيده لتحاول أن تحمله ، ولا تتساءل أين تمثاله .

والطريقة التى يندد بها « أنى » التظاهر بالتقوى تترك أثرها فينا بصفة خاصة : إن مسكن الإله يمقت الصخب . . . صلّ من قلب مبتهل تظلّ فيه كل الكلمات مختفية . . . فهو يصنع ما أنت فى حاجة إليه ويستمع إلى كلامك ويتقبل قربانك [5] .

والدولة الحديثة — من غير شكّ — عصر أصبحت فيه العاطفة أكثر رقة وعلينا ألا ندهش حين نصادف فى نصوص أخرى [6] ذكر الإله الذى يسكن فى الإنسان [7] . إنها سعادة للمرء أن يسرّ منه . هذا الإله فى الإنسان هو — كما لوحظ فى موضع آخر [8] — قلبه . ويكفينا أن نرى فى ذلك أيضا « كا » (التى سنتحدث عنها فى الفصل الرابع عشر) ، وهذه العقيدة تتصل بما نسميه نحن بالضمير .

وبعد ذلك بحوالى ثلاثة أو أربعة قرون أعطى ناظر القمح والأملاك « أمون أم أوبى » ابنه ثلاثين حكمة للسلوك الطيب فى الحياة . وهو كتاب يفيدنا بصفة خاصة لأن فقرات معينة منه ذكرت فى أمثال سليمان . ومنها إلى الكتاب المقدس [9] .

---

(١) Idem. Litt. p. 300

(٢) Idem. Litt. p. 296

(٣) Idem Litt. p. 298

(٤) Idem Litt. p. 295

(٥) Idem, Litt. p. 296

(٦) Urk., IV, 117, 12 = 149, 4

(٧) ورد كذلك فى نص قديم أن الإله يقطن فى الإنسان . قارن Lacau, T. R. XLIV S. 91

(٨) Vienna, Cercueil XX (Ptol.) = Wreczinski P. 160

(٩) Erman, Sitz. Ber. Berl. akad., (1924), p. 86 ss.

والفكرة التي نكتسبها من قراءة الكتاب فيما يختص بالعلاقة بين الإنسان والإله شديدة الشبه بفكرتنا اليوم. ففيه يقال إن الإنسان من تراب وقش، وإن الإله هو الذى صنعه [1] ، وإنه لايوجد كمال بالنسبة للإله [2] ... لاتقل « ليست لى خطيئة » إن الخطيئة من شأن الإله وهو الذى يضع عليها خاتمه [3] . فى كل مشاجرة ومشادة مع أعدائك لاتضع كل ثقتك فى نفسك، بل اترك نفسك بين ذراعى للإله فصمتك (أى هدوءك) سيسقط أعداءك [4] . وكذلك نقرأ فى مكان آخر : لاتشترك فى أية مشادة مع شخص ثائر . إن الإله يستطيع أن يجيبه على كلامه [5]

علاوة على ذلك ، فإن الحكيم يهتم اهتماما بالغا — كما يليق بمهنته — بالأمانة والدقة فالإيبيس والقرد أي تحوت إله الكتاب — يسهران عليهما . وكذلك: لاتغمس قلمك (فى المحبرة) حتى تؤذى شخصا [6] آخر . ولا تغش فى المقاييس [7] والأوزان [8] ، ولاترتش [9] . اقض بعدل لا تظلم الضعيف لصالح الغنى [10] ، ولا تطرد من كان ملبسه غير مناسب [11] .

لاتغش فى جباية الضرائب . ولاتكن قاسيا كذلك . إذا ما اكتشفت مبلغا كبيرا متأخرا على القائمة عند أحد الفقراء قسمه إلى ثلاثة أجزاء واحذف جزءين منهما ولا تبق إلا جزءا واحدا [12] .

إن جميع ما تفعله فى غير عدالة لن يجلب لك بركة ، إذ أن مكيالا واحدا يعطيه الإله خير من خمسة آلاف تكتسبها بغير حق [13] . إذا جاءك أحد بثروة على

---

(١) Lange, Amenemope p. 121

(٢) Idem. p. 98 (٣) Idem. p. 98

(٤) Erman. Sitz. Ber. Berl. Akad. (1924) p. 91; Amenemope p. 110

(٥) Erman : Sitz. Ber Berl. Akad. (1924) p. 91

(٦) Lange : Amenemope. p. 85

(٧) Idem. p. 48 (٨) Idem. p. 88

(٩) Idem. p. 92

(١٠) Idem. p. 105

(١١) Idem. p. 105

(١٢) Idem, p. 80

(١٣) Idem. p. 52

طريقة اللصوص فإنها لاتبقى معك ليلة واحدة . . . عند طلوع الصباح لن تكون فى بيتك ... ترى فقط المكان الذى كانت فيه وأما هى فليست موجودة ...لقد فتحت الأرض فاها وابتلعتها . . . إن العالم السفلى قد غمرها . . . إنها صنعت لنفسها حفرة ضخمة وانطمرت فيها . . . إنها صنعت لنفسها أجنحة وطارت إلى السماء [1] . . . خير للمرء قلب راض من غنى مقرون بالهموم [2] .

ولكى يكون المرء كاملا ، عليه أن يظهر دائما باحتشام ورقة وتواضع . فالشخص الثائر كالشجرة التى تنتهى بأن تصير وقودا . . . أما الوديع فهو كالشجرة التى تحمل ثمارا فى الحديقة [3] . لاتسع وراء صحبة الثائر ولا تقترب منه لمبادلته الحديث [4] . عليك أن تنحنى أمام الرئيس السريع الغضب حتى ولو أهانك فإنه سيصلح الأمر فى اليوم التالى [5] .

احذر الهموم لأن الإنسان لايدرى ماسوف يكون فى الغد[6]. لاتبذر الكلام القبيح[7]. لاتكن بخيلا لأن المال المغتصب ليس فيه متعة لك [8] . لاتتخذ سفينة على النهر لتتكسب عن طريقها أجر عبوره ، أو لاتقبل ثمنا لذلك إلا ممن يمتلك شيئا ، وأما من ليس له فلا تتقاضاه شيئا [9] . وانقل فى مركبك كل من يطلب العبور طالما كان فيها مكان [10] .

كن رحيما فى كل شىء . فلا تهزأ بالأعمى ولا تسخر من القمىء . لا تسبب ضرًا لمقعد . ولا تزدر رجلا فى يد الإله ، ولا تغضب عليه إن سقط [11] .

Erman : Sitż Ber. Berl. Akad. (1924), p. 87 (١)

Idem p. 87 (٢)

Lange, Amenemope p. 42,43 (٣)

Erman : Sitz. Ber. Berl. Akad. (1924) p. 90 (٤)

Lange, Amenemope p. 128 (٥)

Idem p. 98 (٦)

Iedm p. 61 (٧)

Idem p. 73 (٨)

Idem p. 132 (٩)

Idem p. 132 (١٠)

Idem p. 121 (١١)

ويرجع كتاب « أمون أم أوبي » إلى حوالى النصف الأول من الألف سنة الأولى[1] . ونحن نرى فى هذا العصر فترة انحطاط ، ولكن انحلال الدولة لايتمشى دائما مع انحطاط العقل . ولذا فإنه تصادفنا فى نقوش العصر علائم إحساس أكثر رقة وتعقلا وسموّا . ولنذكر فقرة واحدة تفوق كل تعليم أنى ، وأمون ام أوبى. يقول أحد المعاصرين : لقد خلقنى خنوم ممتازا . إنه يوجه لسانى نحو الخير . إننى لم أدنس فمى بإهانة من أهاننى . إننى استجلبت المحبة لنفسى وصار أعدائى أعوانا لى[2].

وهكذا كان لزاما على كل شخص أن يقابل كل إهانة بالتسامح حتى يكتسب عدوّه ويجعل منه صديقا .

---

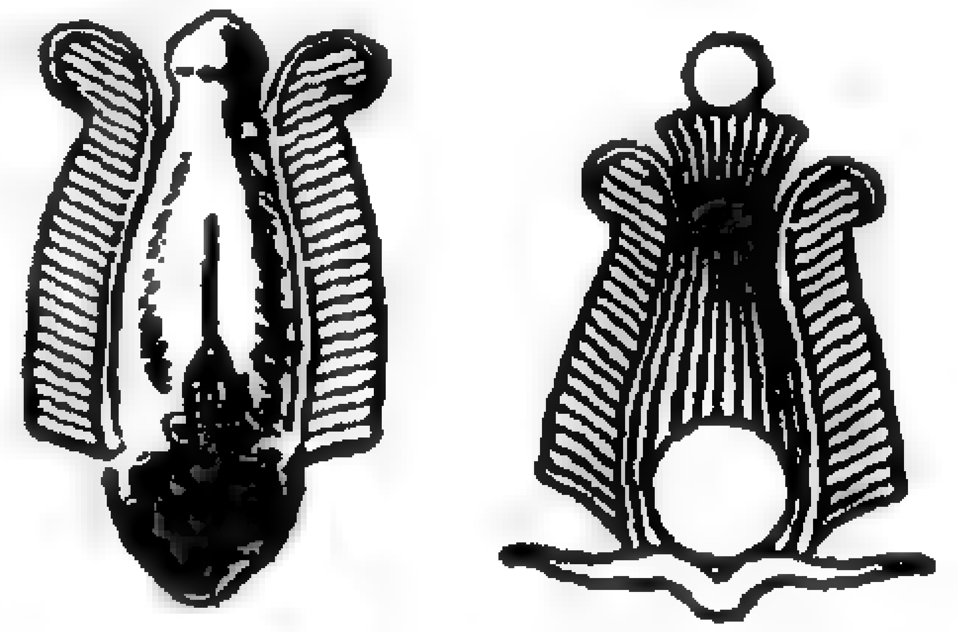
(١) مما يدل على أنه قديم على هذا النحو لوح فى متحف تورين نسخ عليه تلميذ من ذلك العهد بعض الفقرات .

(٢) Caire, Catal. 559, XXII dyn. (Rec. de Trav., 16,56)

الفصل الثانى عشر

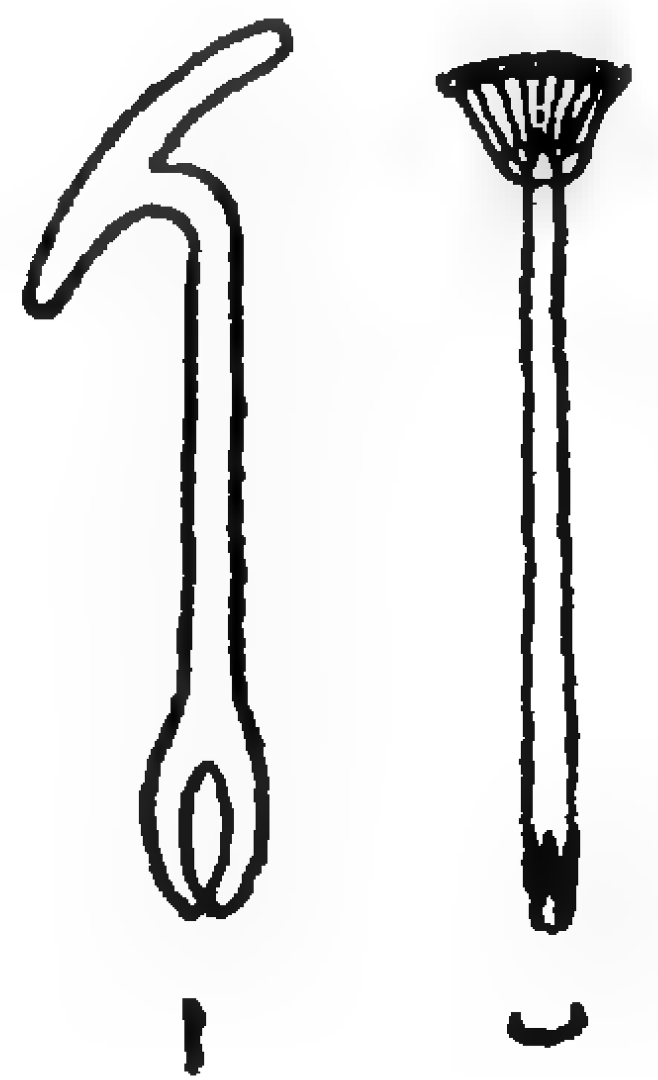
العبادة فى العصور القديمه

لسنا نستطيع أن نخوض فى جميع دقائق العبادة والتعرّف إلى نظام المعابد وتحديد الفروق بين أنواع الكهنة المختلفين وذلك بالنسبة إلى عددهم الذى لايحصى . ولكننا سنلقى نظرة سريعة على ذلك كله حتى نستطيع أن نلقى ضوءا على مميزات هذه المظاهر الخارجية للديانة المصرية . ومن أراد التكلم عن هذه الديانة لابد أن يفكر فى ذلك العصر حين كانت الآلهة تتربع على عرش عظمتها فى معابدها الضخمة حيث كانت تقام لها الحفلات الفخمة . ولكن العبادة على هـذا الشكل حديثة نسبيا ، وإذا اردنا أن نتفهمها تفهما أقرب إلى الصواب فإنه يجب علينا الرجوع إلى أقدم العهود . . . إلى عهود لانذكرها حين كان المصريون لايزالون شعبا بدائيا . . حينذاك كانوا قد استطاعوا نحت التماثيل الخشنة ذات الأشكال الإنسانية أو الحيوانية والتى كانوا يميزونها بتيجان



٦٣ – تاجان

مختلفة . ولكن خيالهم اكتفى بتيجان مكوّنة من حزم من القشّ وقرون الخراف والأبقار وريش النعام . وكانت الآلهة تحمل بمثابة الصولجان عصا كما يفعل البدو حتى يومنا هذا ؛ بل كانت الآلهات تكتفى بعود من الغاب . وكانت المعابد عبارة عن أكواخ ذات حوائط من الأعواد المحبوكة تبرز من سقفها عصى . وكان ينصب فى الواجهة حاجز به ساريتان . وكانوا يستعملون حصيرة من القشّ كمذبح ، وكانوا يقيمون رواقات لمناسبة الأعياد .

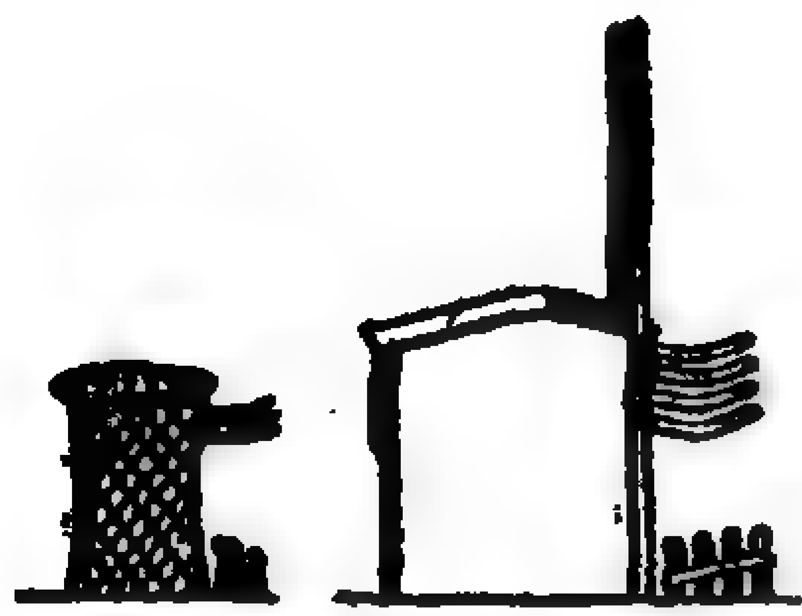


٦٤ – صولجانان للآلهة والآلهات

وإذا كان المصرى قد وصف معبده فيما بعد بأنه « قصر الإله » فإن هذه العبارة كانت تعنى يوما ما معناها الحرفى . لأن الإله كان يتصور مثل الملك يعيش فى قصر له تيجان ويؤدى له أتباعه الضرائب — أى القرابين — وله كذلك خدم يعنون به ويطعمونه وهم الكهنة الذين يسمون من أجل ذلك بخدم الإله . ويتفق طقس العبادة اليومية مع هذه العقيدة كما أن ترتيب غرف المعبد يشبه تنظيم منزل أحد الأعيان .

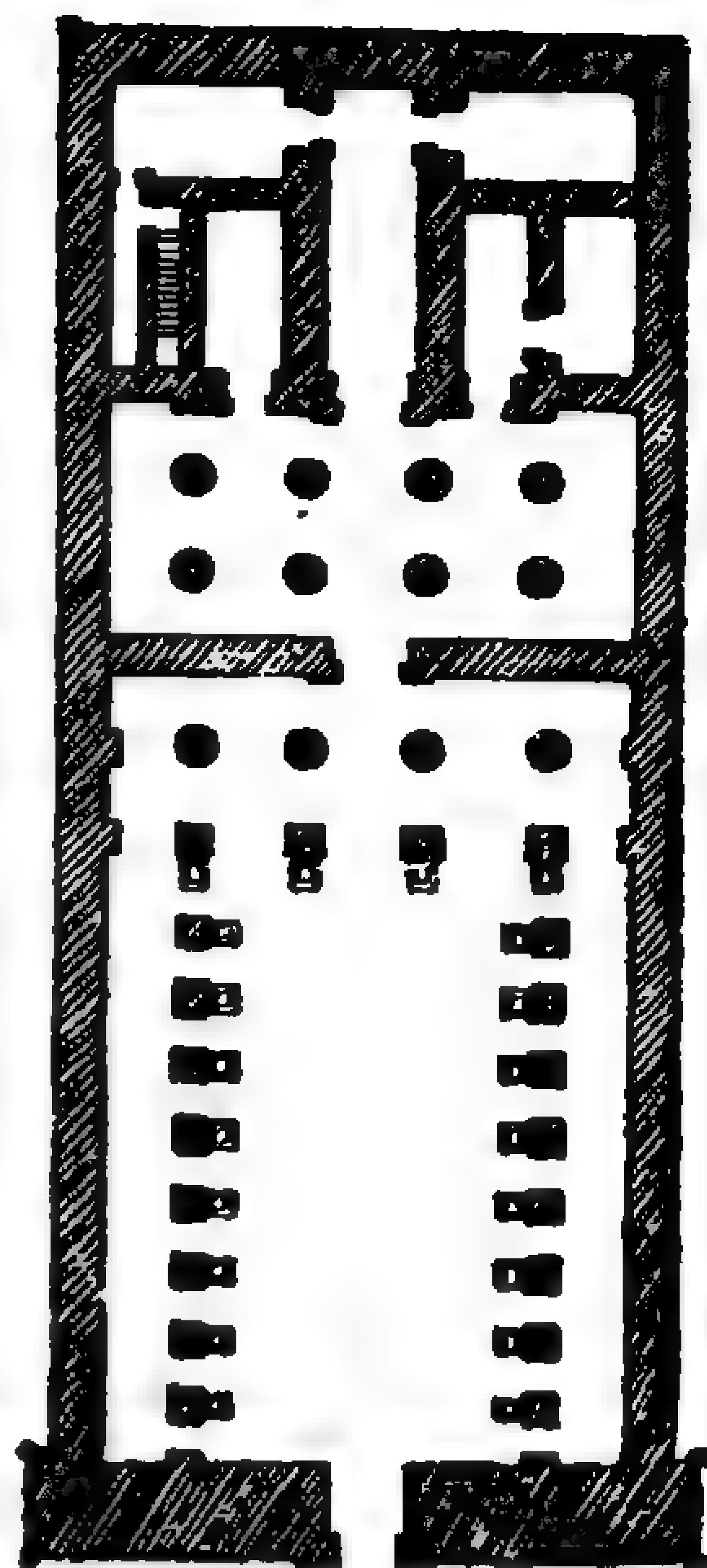
وفى مبدأ الأمر لم يكن المعبد الواحد مكرّسا لغير إله واحد وهو سيده . ولكن — على مرّ الأجيال — ألحقت به آلهة أخرى كان لها أتباع فى المدينة ، ولهذا السبب اضطروا إلى تخصيص مكان ثانوى لهم فى المعبد . ولقد رأينا فى الفصل الرابع كيف أن بعض هؤلاء الآلهة كانوا يعتبرون ضمن عائلة الإله الأكبر ، وكان لهم نصيب من العطايا والأعياد ولو بقدر محدود .

ولم تبق لنا بطبيعة الحال معابد من العهد العتيق ، بل نحن لانعرفها إلا عن طريق رسومات صغيرة وردت فى نقوش قديمة جدا . ولكن لم يبق إلا القليل جدا من الأبنية الكبرى التى ترجع إلى أوائل العصور التاريخية . وقد تناولها التعديل والترميم والتوسيع خلال العصور المختلفة حتى إنه لم يصلنا على العموم إلا بعض جدران من المعابد الأصلية . ومع ذلك فإن هذه البقايا النادرة من أكثر المعابد الكبرى قدما تكفى لتقديم فكرة صحيحة تامة ؛ فلقد كان لها فى مجموعها نفس مظهر المبانى الكبرى التى حلت محلها بعد ذلك . وهذا المظهر الذى أعطته الأجيال القديمة للمعبد اتخذ كنموذج فى جميع العصور . وكانت تعتبر كميراث مقدس خلقته الآلهة نفسها . فإن بتاح وسشات بنفسيهما كانا قد غرسا قديما الأوتاد فى الأرض وشدّا الحبال لتحديد تصميم المعبد ، وإننا إذا كنا سنحاول فيما يلى تصوير معبد من الدولة الحديثة ، فاننا فى نفس الوقت نكون قد أبرزنا معالم معبد يرجع إلى عصر أكثر قدما .

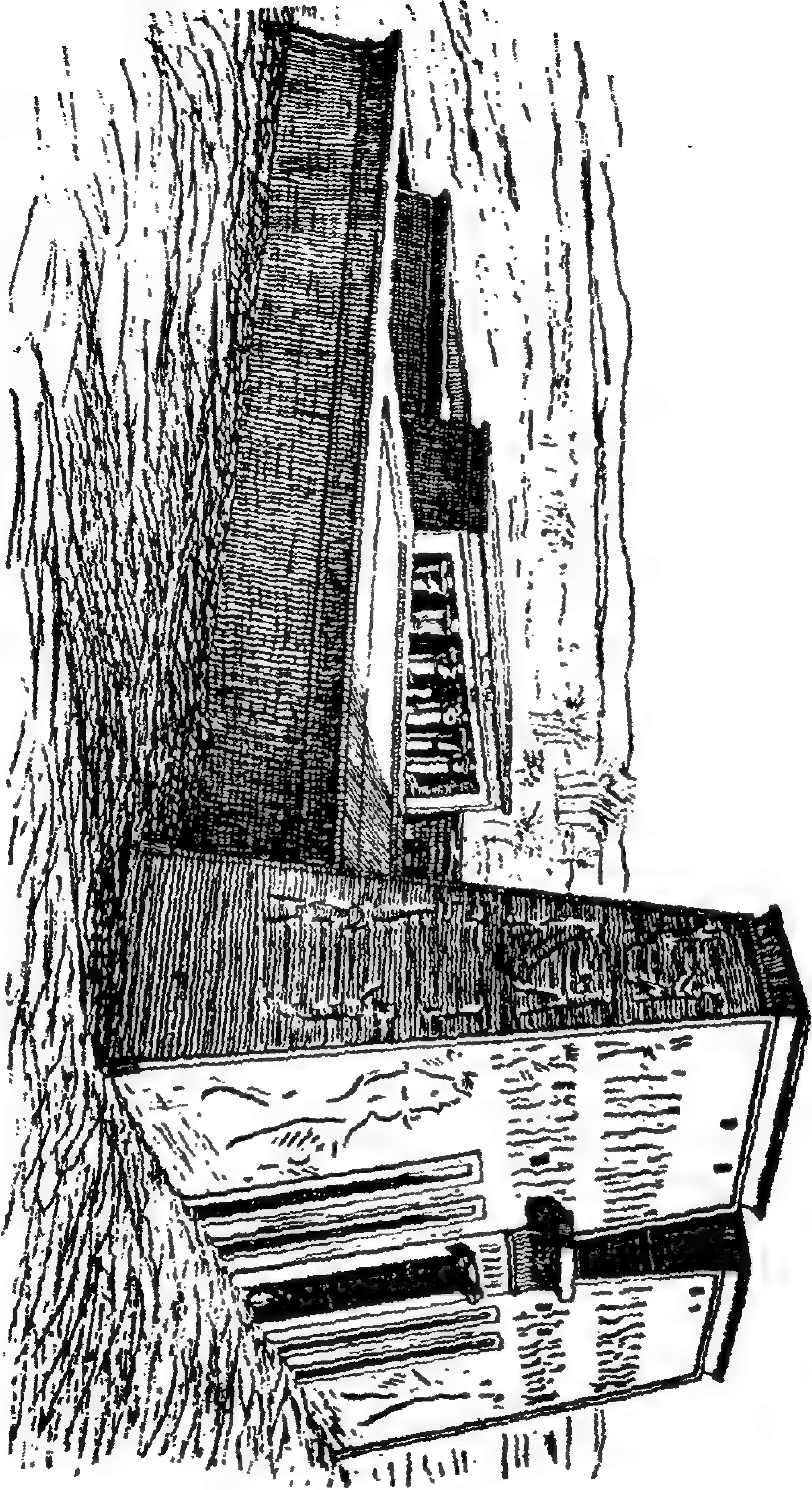

٦٥ — معبد فى العهد العتيق

ومن المعتاد أن نرى اليوم أنقاض المعابد المصرية الجميلة قائمة وسط الحقول والحدائق ، ونحن نتخيل أنها كانت كذلك فى العصور القديمة . والحقيقة أن المعابد

كانت تقوم فى داخل المدن بين أكداس المنازل وبين الحارات القذرة الضيقة فى مدينة من مدن الجنوب. ولإنقاذها مما يقلقها من ضجيج صاخب كانت تحاط بسور عال من اللبن حتى تصبح فى مكان هادئ نقى يتوسط عالما صاخبا مليئا بالقاذورات . وكان الطريق المؤدى إلى المعبد يمرّ فى شوارع المدينة الضيقة ولكن شقت — على مر الزمن — طرق أوسع ساعدت على القيام بمواكب كبيرة . وقد رسم « طريق الإله » متسقا ومستقيما خلال الأحياء . ووضعت على جانبيه تماثيل كباش وأسود وحيوانات أخرى مقدسة كانت تقوم كحرّاس من الحجر كأنما تشرف على رعاية طريق الإله كله . وفى المكان الذى يلتقى فيه الطريق بسور المعبد يلوح الصرح المهيب وهو عبارة عن بوّابة كبيرة بجانبيها برجان عاليان تميل حوائطهما ميلا خفيفا . وينبسط وراء هذه البوّابة الضخمة بناء واسع مكشوف تحيطه أروقة ذات أعمدة ؛ وهنا كانت تقام الطقوس التى كان يسمح لعدد كبير من سكان المدينة أن يشاركوا فيها . وخلف هذا الفناء كان هناك قاعة هى الصالة الكبرى سقفها محمول على أعمدة وكانت مكانا مخصصا لطقوس مختلفة . ثم يلى ذلك قدس الأقداس حيث يوجد تمثال الإله . وهناك حجرات أخرى جانبية تحوى صورا للآلهة الأقارب مثل الزوجة والابن .



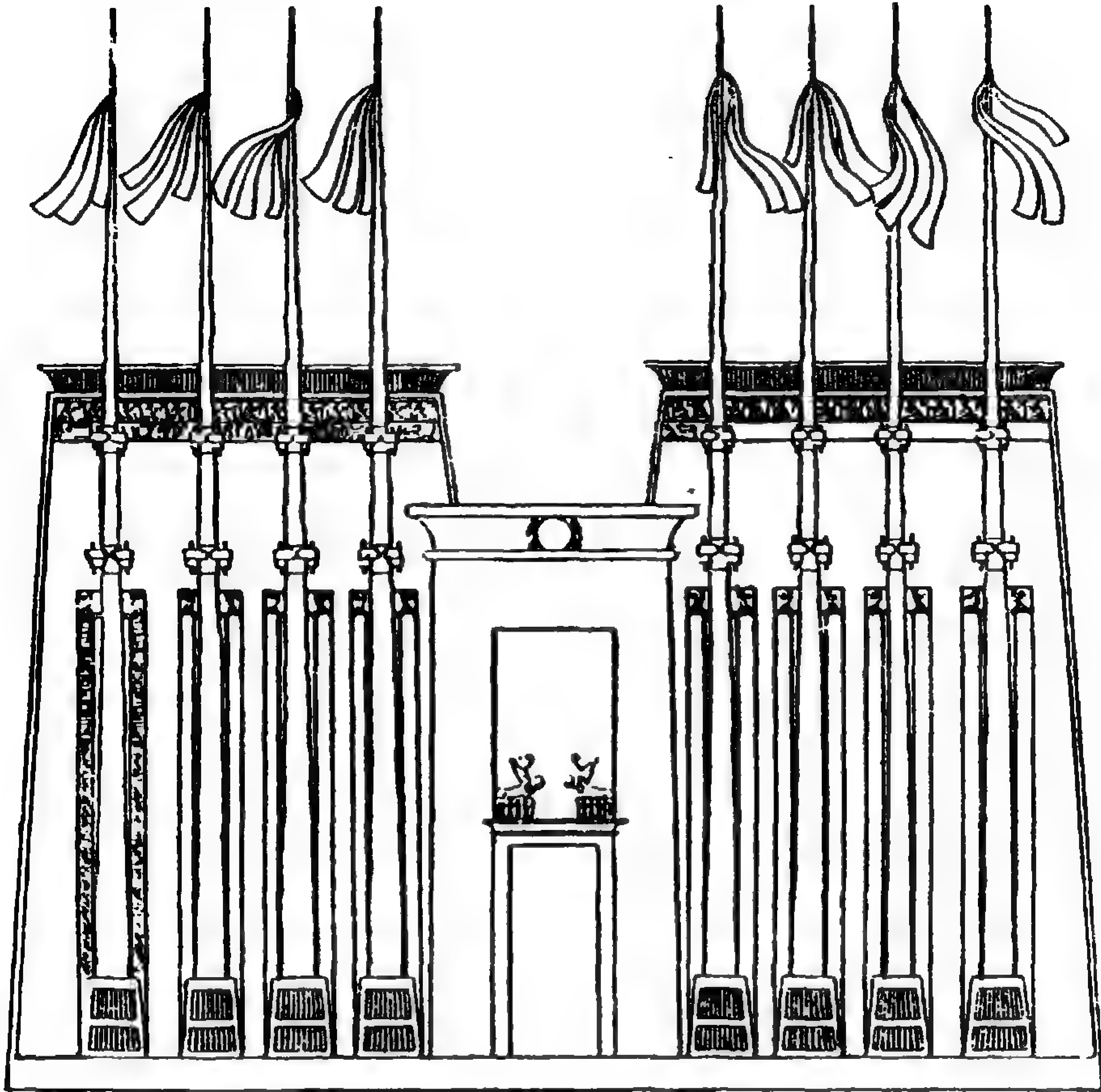
٦٦ — تخطيط معبد رمسيس الثالث فى الكرنك



٦٧ — معبد إدفو وقد بنى فى العهد الإغريقى على غرار نموذج قديم . فى المقدمة المدخل ومن خلفه الفناء ثم المعبد فى حقيقة الأمر

هذه هى الأقسام الرئيسية للمعبد ، ومن الممكن أن يحوى ذلك قاعات أخرى ثانوية تستخدم لإيداع الأدوات المقدسة أو تخصص لبعض طقوس العبادة . ويجب ملاحظة أمر ذى دلالة خاصة ، وهو أن أقسام المعبد المختلفة ينخفض بالتدريج ارتفاعها وقوّة الإضاءة فيها كلما توغلنا إلى الداخل . فى الفناء يتألق ضوء الشمس

فى قوة لاتحتمل ، وأما القاعة فيدخلها ضوء أقل عن طريق الباب وفتحات السقف ، وأما قدس الأقداس فتعمه ظلمة حالكة .



٦٨ – المدخل بصواريه وأعلامه المتطايرة فى الفضاء (من رسم مصرى)

وأما زخرفة المعبد فى مجموعها فلا تتغير . وتمثل على الجدران الخارجية – ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة على الأقل – الأعمال الرائعة للملك الذى يحكم البلاد . وأما فى الداخل فجميع النقوش تتصل بالعبادة وتمثل مايحدث يوميا فى هذه القاعات . ولا بد أن هذه النقوش ترجع إلى عهد قديم جدا ، ودليلنا على ذلك أن العلامات الهيروغليفية المختلفة تستخدم بطريقة رمزية . فعند ما يسرع الملك نحو الإله يمسك بيده بالعلامة «هب» أى « يسرع الخطى » فى يده . وحين يقدم للإله علامة «ماعت» أى «الحقيقة» و « نب » أى « كل » فإن معنى هذا أنه يقدم له « كل ما هو صادق وحقيقى » .

وأما اختيار زينة المعبد فليس بغير هدف كذلك . فأسفل الجدران يشير إلى الأرض والنيل ، بينما نرى السقف يمثل السماء تنتثر عليها النجوم وتحلق فيه عقبان طائرة .



-٦٩- مسلة سيزوستريس الأول فى هليوبوليس L.D.III,118

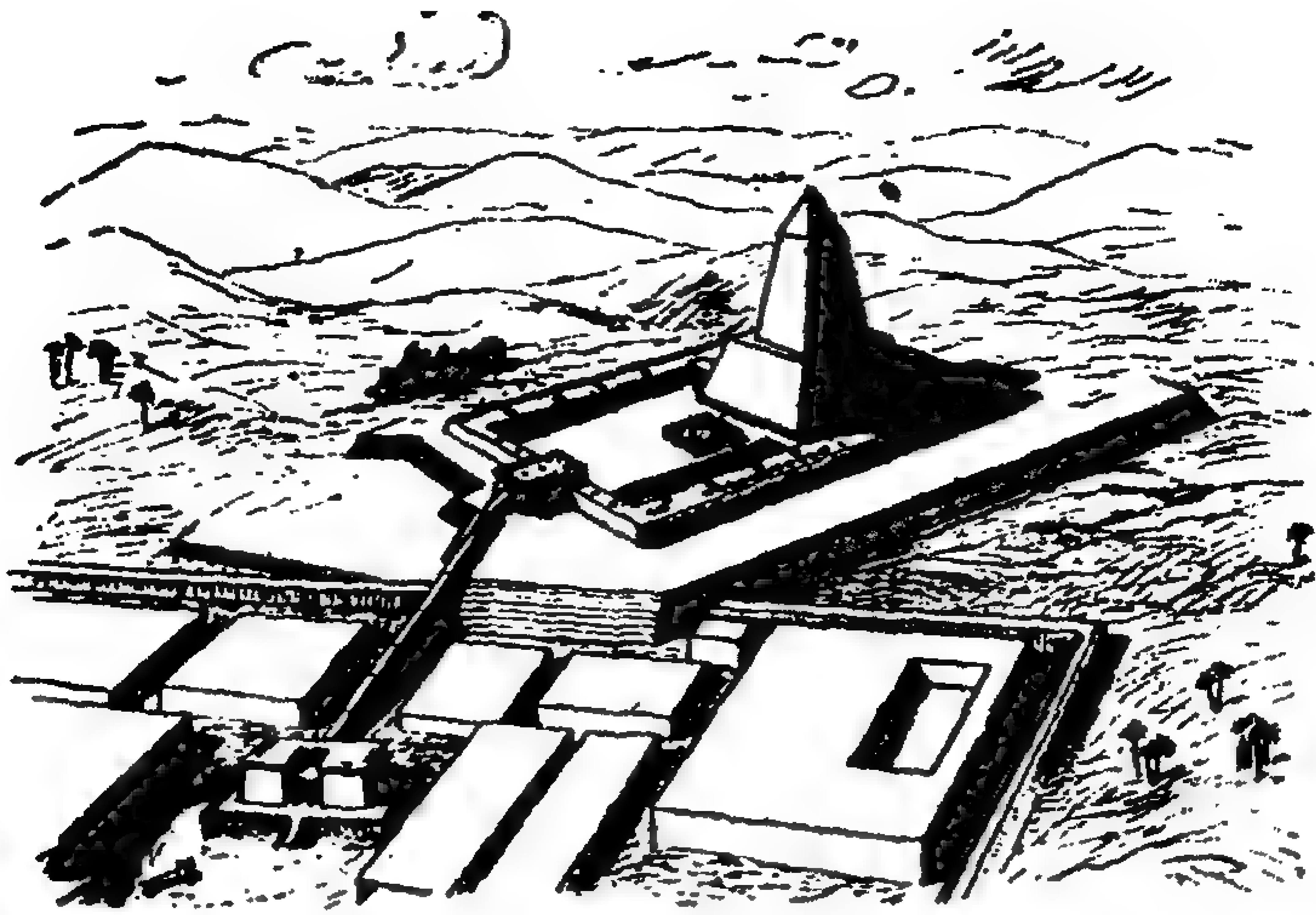
وأمام الصرح تقوم المسلتان وهما عمودان من الحجركالعمودين اللذين اعتدنا أن نراهما أمام باب أبنية أخرى ، وربما كانا يحملان فى الأصل اسم صاحب الدار . وترتفع ملاصقة لجدران الصرح صوارى ترفرف على قمتها أعلام مختلفة الألوان . وتقوم تماثيل ضخمة للملك أمام جدارى الصرح أو فى داخل الفناء ، الغرض منها حراسة المعبد الذى قام ببنائه . وتنتشر فى أجزاء المعبد المختلفة تماثيل أخرى للملك أصغر حجما تمثله يصلى أو يقدّم القربان للإله . ويحوى المعبد كذلك تماثيل لآلهة أخرى كما لو كانت هى الأخرى تريد خدمة الإله المحلى العظيم . فترى إلهى النيل يقدمان له محصولات نهرهما ، أو تمثالين لسخمت ذات رأس الأسد يبعدان الأعداء .

وقد كان المذبح الأكبر — وهو على ارتفاع بسيط تؤدى إليه درجات من الخلف [١] — يقوم عادة فى وسط الفناء ذى البوّابات . وكانت توجد كذلك فى قاعات المعبد الأخرى موائد توضع عليها الأطعمة والأشربة وأما فى قدس الأقداس فقد كان يوضع سراج أمام الإله [٢] .

وهذا الذى عرضناه إن هو إلا نمط عادى للمعبد المصرى ، الذى لايزال من الممكن فى الوقت الحاضر التعرّف عليه فى كل مكان تقريبا حتى ولو اضطرب تخطيطه فى بعض الأحيان بسبب إضافات جديدة أو بسبب خاصية الأرض التى يقوم عليها أو بسبب ظروف أخرى غير عادية . على أن هناك مجموعة صغيرة من المعابد تختلف تماما عن هذا الطراز ، وهى المعابد الشمسية للأسرة الخامسة ، وهى التى كانت — كما نظن بحق — محاكاة

(١) مازال موجودا بالدير البحرى .

(٢) Urk., IV, 772, Scharff, Æ. Z. 59, 32 يذكر سراجا كتقدمة إلى سوبك فى معبد من معابد الدولة الوسطى .



٧٠ — معبد الشمس فى أبو جراب

لمعبد الشمس المشهور بهليوبوليس الذى انقرض . وهذه المعابد التى تحمل أسماء مثل « مقعد رع المفضل » عبارة عن فناء واسع مكشوف تقوم خلفه مسلة عظيمة ترتفع فوق قاعدة هرمية الشكل . ولقد كان هذا الجانب الرئيسى من المعبد يعتبر من غير شك مركز الإله . وربما كان محاكاة للحجر المشهور Benben فى هليوبوليس الذى كان شكله مماثلا له . وكان يقوم أمام المسلة مذبح كبير للإله ، وفى غير هذه الحالة كانت تشغل الفناء قاعات لأغراض أكثر مادية . ولم تكن زخرفة المعبد تختلف كثيرا عما عهدناه . ولكن هناك منظر غير متوقع فى ممرّ جانبى يؤدى إلى قاعدة المسلة : يمثل فصول السنة تحضر القرابين للملك من كل ما تنتجه الأرض والماء معا ، نموّ النباتات ، وتوالد الحيوانات ، وأعمال الإنسان . . . وربما كان لهذه الصور اللطيفة مكانها فى المعبد ، إذ أن إله الشمس هو الذى يحيى كل شىء ويدفع به إلى التقدم .

وإذا كانت معابد الشمس هذه قد استغنت عن تماثيل للإله فرجع ذلك إلى اعتقاد الناس أن المسلة كانت هى مسكن الإله ، فحق عليهم عبادتها ، وعلى كل حال نحن نعتبر هذا أمرا شاذا ، إذ أن جميع المعابد المصرية حرصت على جعل تماثيل الآلهة هى أهمّ وأقدس ما فيها ، وكانت روح الإله — كما تبين ذلك نقوش متأخرة — تستقرّ عليه حين تنزل من السماء كما تجثم على جسمه [1] . ومهما تعدّد ذكر

(١) Dümichen : Temp. Insch., 25; Resultate 38-41; cf aussi Mar. Dend., II. 61 b. حيث يظهر أن نقشا من نقوش الجدران يستطيع استقبال الروح .

هذه الصور الدينية ، ومهما بلغ عدد ما نقل منها صغيرا أو كبيرا مما وصل إلينا ، فإننا لا نملك واحدة أصلية [1] ، فلقد اختفت جميعها عند انحلال الديانة المصرية كأثر لضربات المسيحيين ، ورغم ذلك فإننا نملك على الأقل فى المعابد المتأخرة أوصافا وتمثيلات لها نستطيع بواسطتها أن نكوّن فكرة عنها . فمعبد حاتحور فى دندرة كان من بين ما يحتويه التماثيل الآتية :

حاتحور : من الخشب الملون والنحاس ، بعيون مرصعة ، ارتفاعه ثلاثة أذرع وأربعة قبضات وأصبعان .

إيزيس : من خشب الكابلى المصقول ، بعيون مرصعة ، وارتفاعه ذراع .

حوريس : من الخشب الملون ، بعيون مرصعة ، ارتفاعه ذراع وأصبع .

بوتو : من الخشب الملون ، بعيون من الذهب ، ارتفاعه ذراع [2] الخ الخ .

وهذه الصور القديمة المقدسة كانت ذات أحجام صغيرة (أغلبها لا يزيد ارتفاعه عن ذراع ، أى حوالى نصف متر) وكانت عادة من الخشب . أما التماثيل الحجرية الثقيلة ، فكان يصعب حملها فى الأعياد رغم ضرورة وجودها . ومن الطبيعى ألا يستبعد أن يقام تمثال حجرى فى قدس الأقداس ليستخدم رمزا دينيا [3] . وعلى كل حال فإن أغلب هذه الصور الدينية — إذا ما استثنينا ما يمثل على هيئة حيوانية — كانت مصنوعة على نفس النمط ولا تتميز عن بعضها البعض — كما يتضح ذلك من صور الآلهة بالفصول الأولى — إلا بالرءوس والتيجان والعلامات المميزة . وكانت اللحية على شكل شعر مضفور نهايته معقوفة إلى الأمام ، وتشبه اللحية التى تتخذها بعض قبائل وسط أفريقيا حتى اليوم . وإذا كانت الآلهة ترتدى ثيابا فإن ثوب الإله كان عادة عبارة عن قميص قصير مشدود بواسطة حمالات ، بينما كانت الإلهات ترتدى زىّ النساء العادى . وفى الصورة القديمة جدا (مثل صورة بتاح ص ٣٠) لم تكن

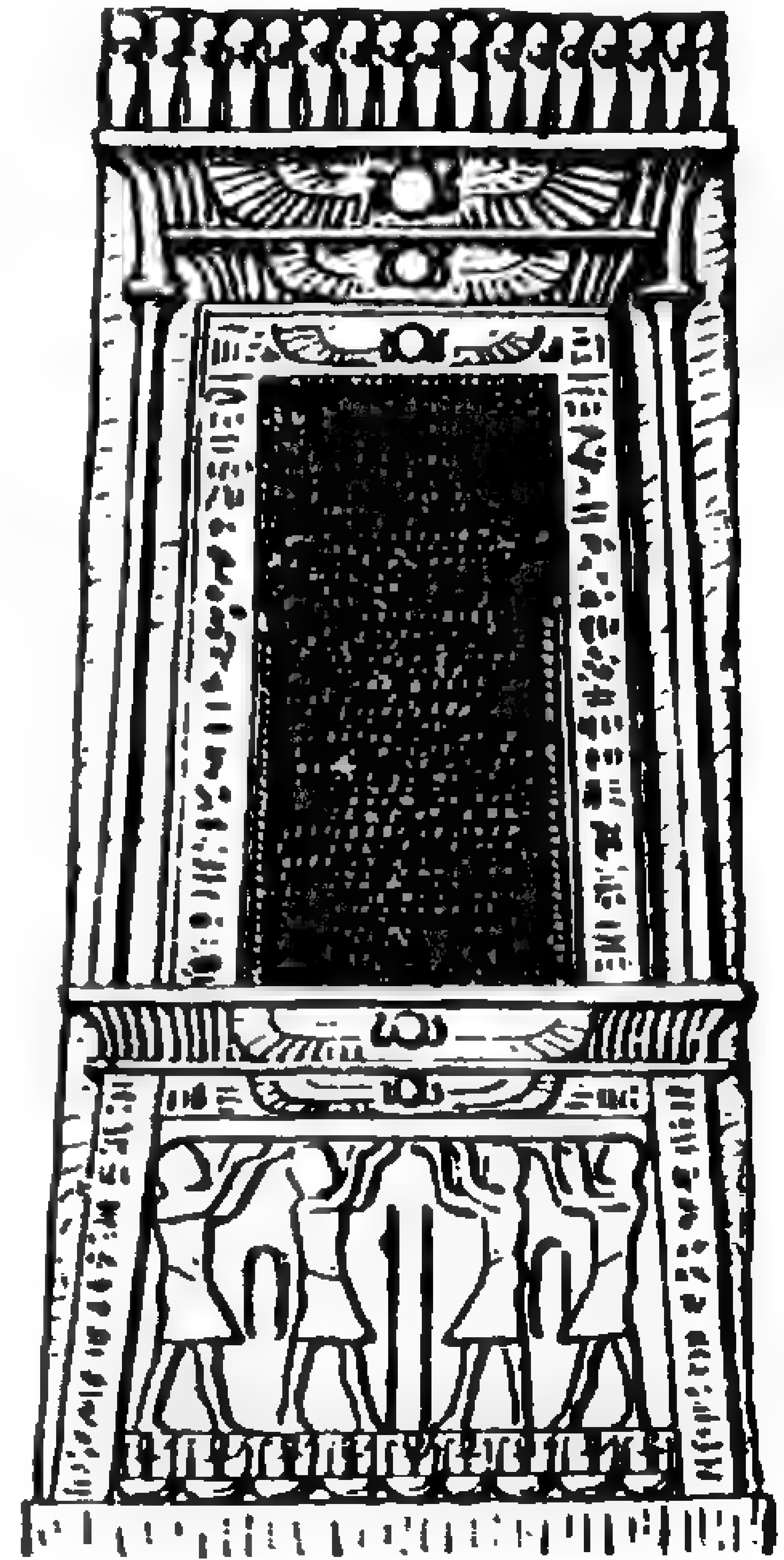
---

(١) يبدو أن الصقر القديم النحاسى برأس ذهبية الذى عثر عليه كويبل فى هيرا كونبولس هو أحد تماثيل العبادة .

(٢) Dümichen: Resulte, 34 - 35 cf 39 - 40

(٣) بالمثل فى معبد بتاح فى طيبة ، وكذا بقرة حاتحور فى هيكل تحوتمس الثالث بالدير البحرى .

السيقان والأذرع والثياب مبينة بتاتا ، وكان المنظر العام هو الذى اتخذته المومياء فيما بعد . وكانت هناك كذلك صور عتيقة أولية للصقور المقدسة ، سيقانها عبارة عن قطعة واحدة ، وبمضى الزمن تطلبت هذه الصور المقدسة بعض الترميمات ، وكان يحدث فى غالب الأمر أن ملكا تقيا متدينا كان يجملها بمنحها من جديد زينة من الذهب والأحجار الكريمة . وهكذا أعاد تحوتمس الأول صنع التماثيل الإلهية القديمة بأبيدوس من الذهب ، وجعلها أجمل مما كانت عليه من قبل . كذلك أيضا المحفات لنقلها ، فأصبحت أعجب ما فى السماء وأشد خفاء وأكثر امتلاء بالأسرار من كل ما يحويه العالم السفلى .[1] وكانت هناك معامل خاصة لهذه الأعمال الدقيقة هى بيوت الذهب » وإننا لندرك أن الصياغ الذين تشرفوا بالعمل فيها كانوا يفخرون بأنهم تعرفوا إلى سر بيوت الذهب » » أى إلى « تماثيل الآلهة »[2] .



٧١ – ناووس متأخر من معبد فيلى (باريس) .

وكان مقام الصورة الإلهية المعتاد هو الناووس الكائن فى أقدس مكان فى نهاية المعبد . وكان كثيرا ما ينحت من حجر واحد من الجرانيت الصلب محيطا بالصورة المقدسة وكأنه حائط لا يسهل اختراقه . وكان يقفل من الأمام بواسطة باب ذى مصراعين مثبتين فى إطار من البرونز . المكان الذى يقوم فيه هذا المحراب أو كما يسمى « المكان العظيم » هو المكان الذى تقام فيه الطقوس اليومية . وهى فى الحقيقة فى منتهى البساطة .

يتقدم الكاهن المحتفل عند انبثاق الفجر نحو

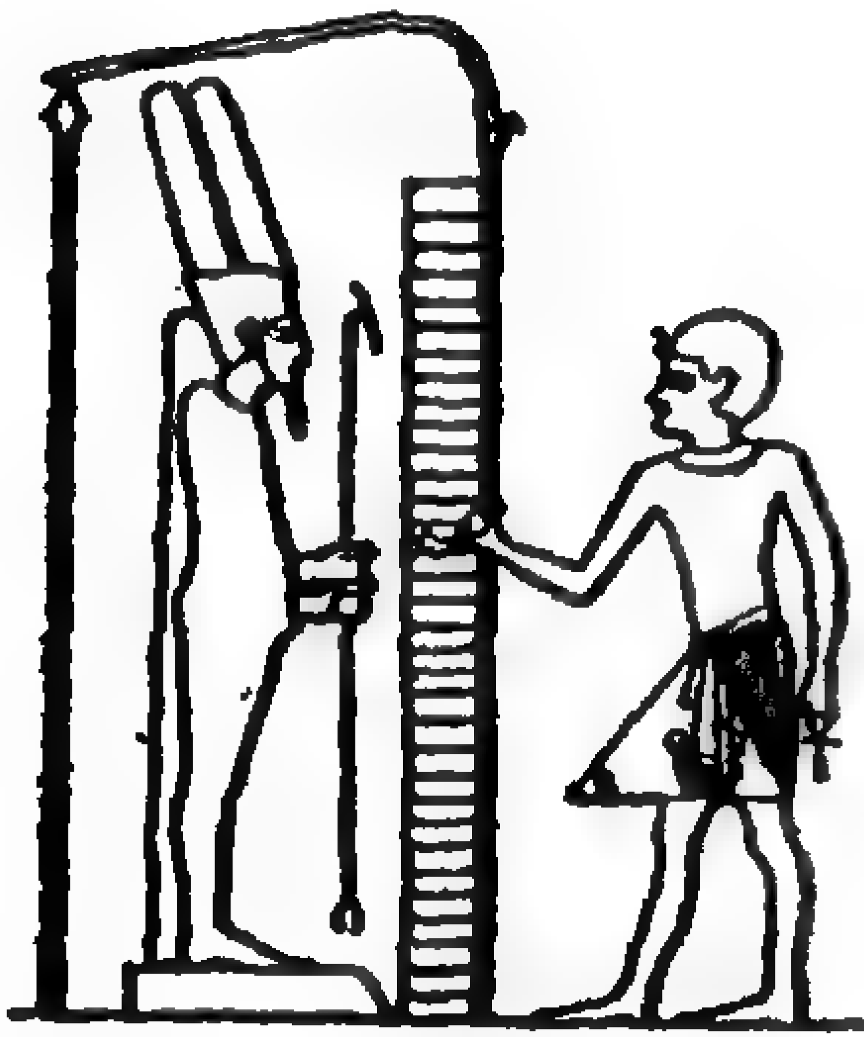
---

(١) Urk., IV, 99

(٢) مثلا Mar. Mast., p 450 (Nouvel - Empire) . وفى معبد دندرة لم يكن يعمل فى العصر اليونانى أقل من ٤٨ صائغا يباشرون عملهم فى مجموعات كل منها مكونة من اثنى عشر (Mar. Dend. IV 22a)

قدس الأقداس ويبخره حتى يمتلئ من عطر البخور ، ثم يقترب من المحراب ويفتحه ويحيِّ الإله بالركوع عدة مرات ، وبترتيل أو تلاوة بعض الأناشيد . ثم يتناول الأدوات الدينية الموجودة فى صندوق بالقرب منه ويبدأ فى التزيين اليومى للإله ، فينضح التمثال بمحتويات أربع جرار من الماء ، ويكسوه بشرائط من الكتان الأبيض والأخضر والأحمر والمائل للحمرة ثم يدهنه بالزيت ويزجج عينيه بمساحيق خضراء وسوداء وغيرها. ثم يطعم الإله بأن يضع أمامه مختلف أنواع الأطعمة والشراب من خبز وأوز وأفخاذ بقر ونبيذ وماء ، وكذلك الزهور التى لايجب أن تخلو منها مائدة مصرية .

كل هذه الخدمة لاتتطلب سوى نصف ساعة ، ولكنها كان يجب من غير شك أن تطول إلى أكثر من ذلك بكثير ، لأن كل عمل كان ينقسم إلى عدة حركات طقسية ، لكل منها فقرة يتلوها الكاهن . . . وكل هذه الطقوس تنحدر إلى اللانهاية بصورة آلية ، لأنه لا يوجد هناك أثر لأية عاطفة مهما تبلغ — تتصل بقداسة المكان أو عظمة الإله ، إذ أن كل ما هو شخصى قد تلاشى فى هذا الطقس الذى يرجع إلى عصور حديثة. وأما الإشارات إلى الأساطير فهى كثيرة فيه بطريقة لاتتفق مع الواقع أو العقل ، كما لو أن كل الدين كان منحصرا فى قصة حوريس وست ، وفى قصة أوزوريس . فإذا كان حوراختى أو بتاح هما من يعبدان ، أو كانا إيزيس أو موت . فإن كل ما يذكر يقارن بعين حوريس التى أتلفها ست والتى أعطاها حوريس لأبيه ... ودائما يعاد حوريس على عرش أبيه ، ودائما يعاد تصحيح جثة أوزوريس[1] . وحين يحل الكاهن — مثلا — الحبل ويفض الختم الذى كان قد أغلق به مسكن الإله خلال الليل فإنه يجب أن يقول : إن الرباط قد حلّ والختم قد فضّ لاجتياز هذا الباب . كل ما كان فىّ من شرّ قد ترك جانبا . أنا آتى وأحضر لك عين حوريس . . . إن عين حوريس



٧٢ — الملك يقوم بدور الكاهن ويفتح باب الناووس (من معبد أبيدوس)

(١) كل ما يلى منقول عن التصوير الجزئى . Mar. Abydos I

لك . أنا تحوت حين كان يصلح العين . وكان معنى هذا بالضرورة أن الكاهن يقترب وهو مطهر ، ويحضر إلى الإله ما هو فى حاجة إليه كما فعل تحوت فيما مضى حين أحضر إلى العين القمرية ما كان ينقصها . وعندما يفض ختم الطين من المحراب كان يعلن ما يأتى للإله : أنا لم آت لأطرد الإله عن مقعده ، بل أنا آت لأضعه فوق مقعده . أنا الذى أدخل الآلهة وأنت ستبقى فوق مقعدك العظيم .

ثم يدخل المفتاح فى القفل ويسحب المتراس ويقول :

إن إصبع ست خرج من عين حوريس وكانت هذه سليمة . إن أصبع ست خلص من عين حوريس وصارت هذه سليمة . . . ومن الواضح أن الأصبع هو المفتاح . ثم يؤكد للإله أن من حقه أن يراه : إنى كاهن . إنه الملك من يأمرنى أن أتأمل الإله . أنا العنقاء الكبرى الموجودة فى هليوبوليس . لقد هدأت ذلك الذى فى بحيرة العالم السفلى . وحينئذ يفتح مصراعى الباب ويتأمل الإله : أيها الوجه ، احذر الإله ، أيها الإله ، احذر الوجه ، أيها الإله لقد فتحت الباب فدعنى أدخل . ثم يرتمى على الأرض ويقول : أنا أقبّل الأرض ووجهى إلى أسفل ، لقد أتيت بالحق إلى سيده وبالغذاء إلى من صنعه — أى أنه أتى الإله بطعام شهىّ .

وحين يرفع الكاهن الغبار عن المحراب بواسطة قطعة من القماش يتصوّر نفسه كحوريس ، ويتصوّر قطعة القماش كأنما هى عينه : أنا حوريس ، أنا آتى وأبحث عن عينى ، أنا لاأسمح لها أن تكون بعيدة عنك ، أنا أمسك بها بينما هى تأتى لحسن الحظ لتبعد عنك كل شرّ .

وعندما يخلّص الكاهن تمثال الإله من الدهان السابق ليستبدله بغيره يقول : إنى آتى لأملأك بالدهون التى خرجت من عين حوريس . أنا أملؤك بها حتى تربط عظامك وتضم أعضاءك وتجمع اللحم إلى بعضه وتطرد كل رطوبة شرّيرة . خذها إنها طيبة الرائحة عليك . إنها تساوى فى طيبتها رع عندما يرتفع من الأفق . وهنا تشبّه بطبيعة الحال جثة أوزوريس بتمثال الإله .

وهذه الفقرة الأخيرة المقتطفة من طقوس المعبد معروفة لنا حرفيا من مجموعة آيات أخرى نجدها فى متون الأهرام القديمة ، كأقوال يجب أن تتلى أثناء دهن

الجثة [1] . وهناك حالات كثيرة مماثلة ، فمثلا عند ما يتلى — حين يغسل التمثال الإلهي — : ردّت إليك عينك . رد إليك رأسك . ردت إليك عظامك . أعاد إليك جب رأسك ثابتة فى مكانها . ألا فليغسلها تحوت بطريقة تتخلص بها مما فيها [2] — فإنه من الواضح أن ما غسل ليس سوى جسد أوزوريس وهى جملة تتلى حين يغسل الميت الذى يمثل دائما بأوزوريس نموذجه الإلهي . وذلك يبين لنا من أين حصلت هذه الطقوس على مضمونها العجيب . وكان كل ما يتعلق بالموت وبالقبر يملأ حياة الشعب أكثر فأكثر . وسنرى فى الفصل الخامس عشر أن هذه الخوالج جذبت وراءها طقوس العبادة الإلهية .

ويظهر هذا الأمر نفسه كذلك فى الشعائر . فالصيغة المعهودة : « قربان يقدمه الملك » التى كانت تبدأ بها الصلوات من أجل الموتى كانت تستخدم كذلك فى المعابد من أجل الآلهة [3] ، وعند ما نصادف فيما بعد فى معبد دندرة تلك العادة التى يجب بمقتضاها أن ترى الصورة الإلهية الشمس من وقت إلى آخر ، فحينئذ يظن أنه من أهم رغبات الميت كذلك أن يرى الشمس .

ولسنا نستطيع أن نعرف على وجه التأكيد إذا كانت هذه التسمية الغريبة للقرابين والأطعمة تصدر عن عبادة أوزوريس أو تكريم الموتى : فأولا كان كل ما يقدم يسمى بعين حوريس . وكل طعام وكل شراب ، والثياب والأدهان والمساحيق . . . كل ذلك يجب تسميته هكذا حتى يصل الأمر إلى أن يسمى النبيذ عين حوريس الخضراء . واللبن عين حوريس البيضاء ، والأدهان والبخور وكل ماله رائحة طيبة يسمى عرق الآلهة . ويدهن الإله برائحته . . . العرق الذى خرج من لحمه [4] . وأخيرا كانت تعتبر جميع الحيوانات التى تذبح فى ساحة خاصة من المعبد كأنما هى

---

(١) Pyr. 1800

(٢) Berlin. Pap. 3055., 27,2 ss.

(٣) بالمثل كذلك فى Urk., IV, 111; 30. وما بعدها ، وكذا فى Pyr. 599 يوعد الآلهة بقربان إن هم قاموا بحماية الأهرام .

(٤) Mar. Abydos I, 28 b, 3. وما بعده

أعداء الإله التى تقتل لإرضائه ... وحتى الظباء الصغيرة التعسة كانت تذبح كأنما هى وحوش مهيبة ، ومن يقدم لحما للإله يأتى له دائما بأفخاذ أعدائه [١] أو يقول : لقد قتلت من أجلك ذلك الذى ضربك [٢] . وعلى كل حال فقد ذكر فى عصور قديمة أن ثورا أحمرا قد قدم [٣] كقربان لأوزوريس . وهذا اللون نجد له تفسيرا فى عقيدة وصلتنا من العهد اليونانى [٤] كان يجب بمقتضاها تقديم الثيران الحمر كضحايا ، لأن ست نفسه كان له نفس اللون . وعلى كل حال فإن اللون الأحمر كان المصريون يعتبرونه كلون شؤم [٥] .

ويقدم اللحم إما نيئا أو مشويا . وفى الحالة الأخيرة كان يقدم للإله نون مواقد فحم صغيرة [٦] ، وهذه المواقد كان الغرض منها شيّ اللحم وليس إحراقه ، لأن القربان المحروقة لم يستعملها المصريون فى طقوسهم فى العصور القديمة . ولا تترك التقدمة تحرق حتى تختفى [٧] فى النار إلا عند ما تقدم إلى إله بعيد لا يمكن أن تبسط أمامه الأطعمة . وقد فعل ذلك رجل فى الصحراء فى ظبي دله على الطريق فقدمه إلى « مين » كعرفان للجميل [٨] . وحين قدم الملاّح الغريق صاحب القصة المعروفة قربانه إلى الثعبان بعد عودته فإنما قام بحرق هـذا القربان لأن الريح فقط هى التى تستطيع أن تحمل التقدمة بعيدا .

وفى الدولة الحديثة ذكر لأول مرة حرق القربان فى بعض الحالات [٩] ، وقد أصبح ذلك أمرا عاديا فى العهد المتأخر . وقد أضيفت إلى هذه التقدمات التى كانت تقدم حسب قواعد خاصة كانت تقضى بها نصوص الألفاظ الإلهية [١] أشياء أخرى

---

(١) Pyr. 653 ومابعدها

(٢) Pyr. 1544

(٣) Pyr. 1550

(٤) Plutarque : De Iside, 31

(٥) Ebers I, 14

(٦) Siout, I, 302; Gayet, Louxor, I, 37, et ailleurs وهذه المواقد كانت تستعمل كذلك فى المقابر الطيبية فى الدولة الحديثة لحرق البخور .

(٧) اصطلاح Sb-n-sdt تساوى مظهرا للعبادة القبطية فى صورة Seb - ensete

(٨) L. D., II, 149; cf. Litt. P. 61

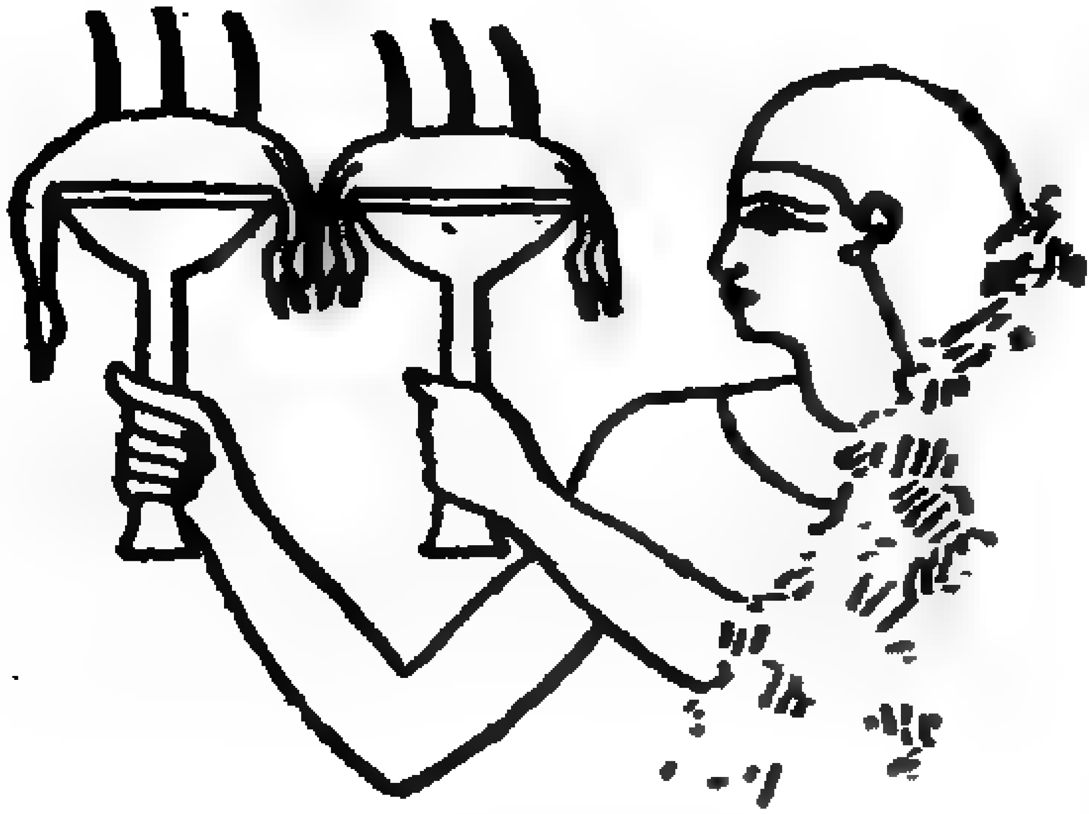
(٩) وكذا فى طقس موت فى برلين 3 ,16 يجب أن يحرق غزال فوق الموقد .

Karnak temple de Ramese III «813» déjà avecnom tardif (glil)

أكثر تهذيبا ، وفى مقدمتها حرق البخور ، الذى لم يكن المصرى ليستطيع أن يفكر فى أن العبادة يمكن أن تقوم بدونه ، لأن رائحة البخور تطهّر وتقدس المكان ، وكان



٧٣ – رجل يقدم القربان فى مجمرة فحم .
(Mission V, tombeau d'Apoui pl. 3.)



٧٤ – رجل يقدم بطا فى مجمرتين
L. (D. III 9.)

البخور يسمى بكل بساطة « صانع القداسة » . كذلك يجب أن نتصوّر كل صالات المعبد الداخلية مليئة بعطره . ولقد كان تحضير البخور الأصلى التى علما خصصت من أجله كتب فى المكتبات يرجع تأليفها إلى الإله تحوت نفسه [٢] .

ولم يصلنا شىء من هذه الكتب ، ولكننا لانعتقد أننا ننحو عن الصواب إن تخيلناها « كحكمة » من معبد من عصر متأخر . وهى تلائم بين تقديم البخور والخمسة عشر يوما لاكتمال القمر . . . حينذاك تتحد عين حوريس – البخور – بعين أوزوريس – القمر – [٣] .

وكان يجب كذلك تمجيد الإله بالأناشيد ونحن نجهل إذا كان الكهنة يغنون حقا هذه الأناشيد أو هم يكتفون بتلاوتها ؛ ونحن لانعدو جادة الصواب مرة أخرى إذا تخيلنا أن هذه التلاوات كانت تتلى بطريقة آلية بحتة . وفى الواقع أن صميم هذه الأناشيد لايكشف فى صورة عامة سوى عن قليل من الشعر . وهى مؤلفة – فيما عدا بعض الشواذ – على نفس النمط ، وهى تعدد أسماء الإله وتيجانه ومعابده ، وهى تذكّر هنا أو هناك بطبيعته أو قصصه بقبضة أيديهم .

---

(١) Tombeau Thebain «694»; XIX dyn.
(٢) Mar. Abydos I, 44, 655
(٣) Philae «1657 - 1658»

« لتتمجد اى اوزيريس ابن نوت الذى له قرنان ويتكئ على عمود عال . الذى أعطى التاج والسرور أمام التسعة آلهة . والذى خلق منه أتوم القوّة فى قلوب الرجال والآلهة والممجدين ، والذى أعطى له السلطان فى هليوبوليس، ذو المظهر الرائع فى بوزوريس، المُهاب فى المعبدين المقدسين، ذو القوة العظيمة فى روستاو وسيد البطش فى اهناس وسيدفى تنفت . المحبوب جدا فى الأرض . ذو الذكر الحسن فى قصر الإله ، الذى يلوح عظيما فى أبيدوس . الذى مُنح الخلاص أمام التسعة آلهة مجتمعين . الذى من أجله أثيرت المذابح فى القاعة الكبرى التى فى هرور ، الذى يخشاه عظماء الأقوياء . هو الذى وقف الكبراء أمامه على حصيرهم . هو الذى من أجله أثار شو الخوف ، ومن أجله خلق تفنت القوّة . هو الذى تتقدم نحوه فى انحناء مصر العليا والسفلى ، لأن مخافته عظيمة وقوّته رائعة » .[1] وهذا هو كل ما يستطيع أن يقوله لنا هذا الكاهن الشاعر عن أكثر الآلهة إنسانية .

وعلينا أن نذكر هنا كذلك بصفة خاصة نشيدا : أغنية الصباح القديمة الذى يوقظ بها الآلهة المصرية كل صباح فى معابدهم طالما كان هناك آلهة[2] ويمكن أن نتخيل أن هذا النشيد هو الذى استخدم فى الأصل لإيقاظ الملك . وهاهو ذا مضمونه عندما يوجه إلى إلهة : استيقظى بسلام أيتها الملكة العظيمة . استيقظى بسلام . إن يقظتك هادئة . استيقظى بسلام — « نين — أوتت » فى سلام . إن يقظتك هادئة . . . الخ .

وكانت هناك من غير شك جماعة تغنى « استيقظى بسلام . . » « إن يقظتك هادئة » بينما كان يقوم بغناء الأسماء أحد المغنين .

وكان هناك مظهر آخر للعبادة هو الـ « هنو » ، ويلوح أنه كان عبارة عن تهلل انجذابى أكثر منه تلاوة نشيد . وكان القائمون به يركعون ويضربون صدورهم بقبضة أيديهم .

---

(١) Louvre, C 30

(٢) Erman: Hymnen an das Diader (abh. Berl. akad., 1911) p. 15 cf. litt. p. 35

ولم تلعب الموسيقى سوى دور ثانوى فى التعبد . هذا ولو أنه كان فى معبد أمون (جنك) يمجد عليه « جمال الإله » عند ظهوره ، وهو الذى أهداه الملك أموزيس ، وكان مصنوعا من الأبنوس والذهب والفضة . وآخر أهداه تحوتمس الثالث إلى الإله وكان مزخرفا بالفضة والذهب واللازورد والدهنج ومختلف الأحجار الكريمة الفاخرة [1] .

وكانت الموسيقى بصفة خاصة من اختصاص الكاهنات اللواتى كن يطقطقن ويصاصلن بشخاليلهن وصنوجهن وعقودهن الكبيرة أمام حاتحور أو أى إله اخر كما اعتادت أن تفعل النساء فى رقصهن أمام سيدهن . وكذلك كان اللعب بالكرة الذى كان يقام أمام حاتحور لم يكن فيما قبل سوى تسلية مرحة هدفها الترفيه عن الآلهة . وهذه العادة البسيطة لم تنج من تأويل أكثر عمقا . فالكرة كانت لابدّ أن تمثل حدقة أبوفيس أو أى عدوّ آخر للإله . والعصى التى كانوا يضربونها بها كانت تعتبر مثل «إشعاع » من عين الشمس [2] . ولكن عند ما يقوم الرقص أمام حاتحور فإن هذا يعبر قبل كل شىء عن السرور . وكان سير التعبد اليومى العادى ينقطع فى أيام الأعياد الخاصة بكل معبد . وهذه الأعياد كانت تتضمن كذلك الأحداث الكبرى للمدينة التى كما يقال « كانت لى عيد » . وكان « خدم الإله الذين لاينسون أعياده » يأتون من الضواحى « نحو أولئك الذين يعبدون الإله » [3] .

٧٥ – شخليلة من العهد الإغريقى
(برلين ٢٧٦٨)

وهذه الأيام هى كذلك أعياد شعبية [4] . وكانت الجعة تصنع تكريما للإله .

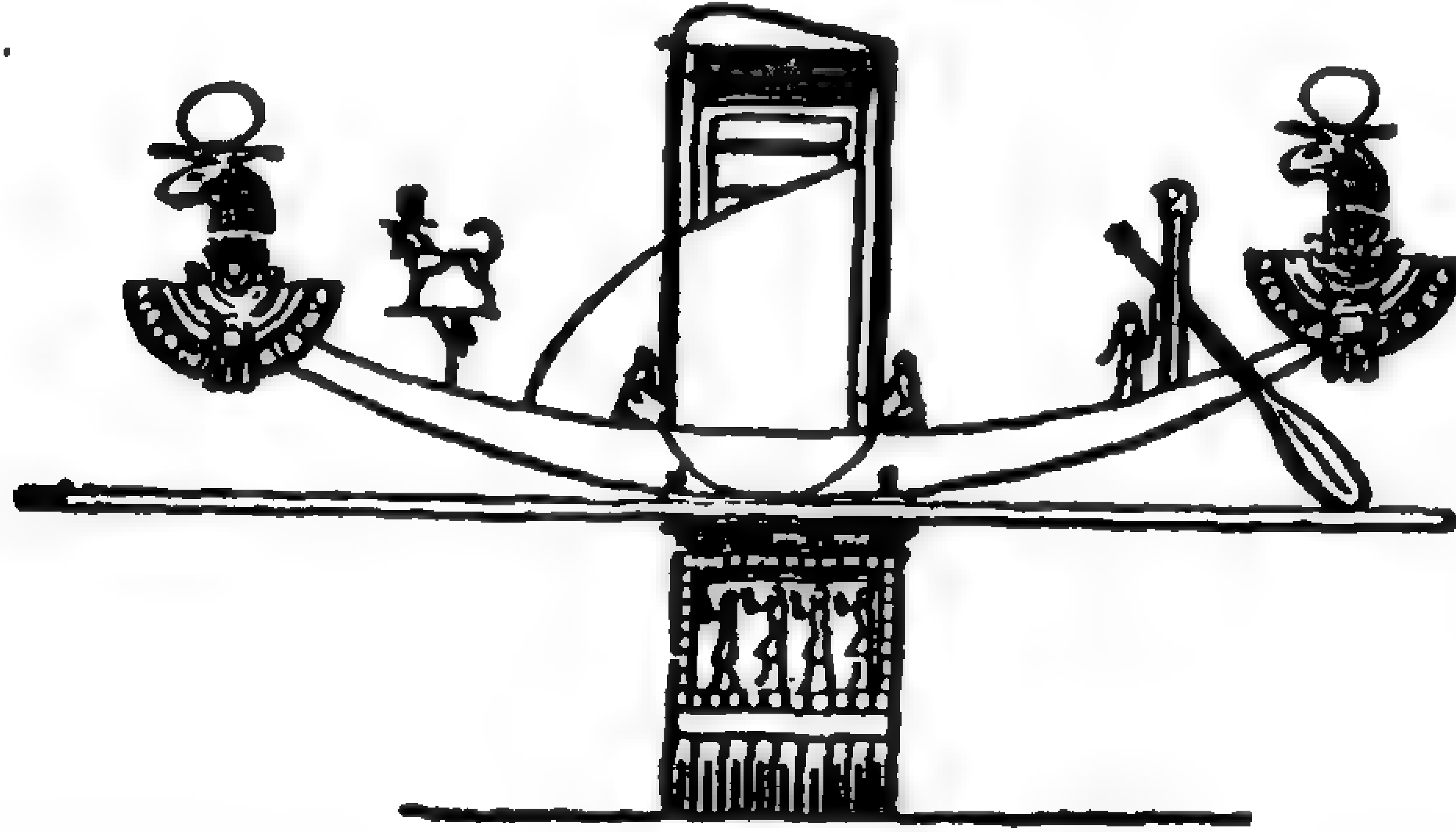
---

(١) Urk., IV, 23; idem 179

(٢) Naville : Deir El Bahari, 100; Mission XV, pl. 68, 213 وكثيرا كذلك فى العهد اليونانى Mar : Dend. III, 22c, Philae «1143»

(٣) Caire, 20281 (moyen Empire)

وكانوا يجلسون فوق المنازل فى نسيم الليل ، ويدور اسم الإله فوق سطوح المنازل [١] . وكان الشعب كله يتدهن ويتناول المشروبات [٢] . ويلاحظ أن هذه الأعياد قديمة جدا أنشأها رع بنفسه منذ الأزل[٣]. وكقاعدة عامة يُوجد فى كل مدينة عيد أو أكثر من عيد رئيسى كذكرى لأحداث هامة من أساطير الآلهة . فمثلا ذكرى عيد ميلاد الإله[٤] أو انتصاره على عدوّه . وعلاوة على ذلك كان يحتفل بأوائل تقسيم الزمن كيوم العام الجديد أو أول يوم من الشهر . ويعطى المصرى هذه الأعياد أهمية كبرى ، وتضاف أناشيد خاصة إلى الطقوس ويزخرف المعبد ويضاء — كما هو الحال فى المدينة — وتزاد التقدمات حتى يتسنى إرضاء جمهرة النزلاء الذين يتدفقون على المعبد للاشتراك فى الاحتفال . والمهم فى هذه الاحتفالات أن يرى الشعب « جمال سيده » وأن يتطلع إلى صورة الإله التى كانت تخرج من محرابها وتنقل خارج قدس الأقداس فيما يشبه صيوانا خفيفا بعد تزيينها لهذه المناسبة بالتمائم وقلائد الذهب [٥] ، وعلى كل



٧٦ — ناووس وحامل على شكل سفينة ، ومن أسفل قاعدة حجرية (من معبد أبيدوس)

حال فإن هذا المحراب السهل الحمل كان كثيرا ما يتخذ شكل القارب ، لأن المركب كانت فى نظر المصريين الوسيلة الطبيعية للانتقال .

---

(١) Litt. p. 367

(٢) Urk. IV, 688

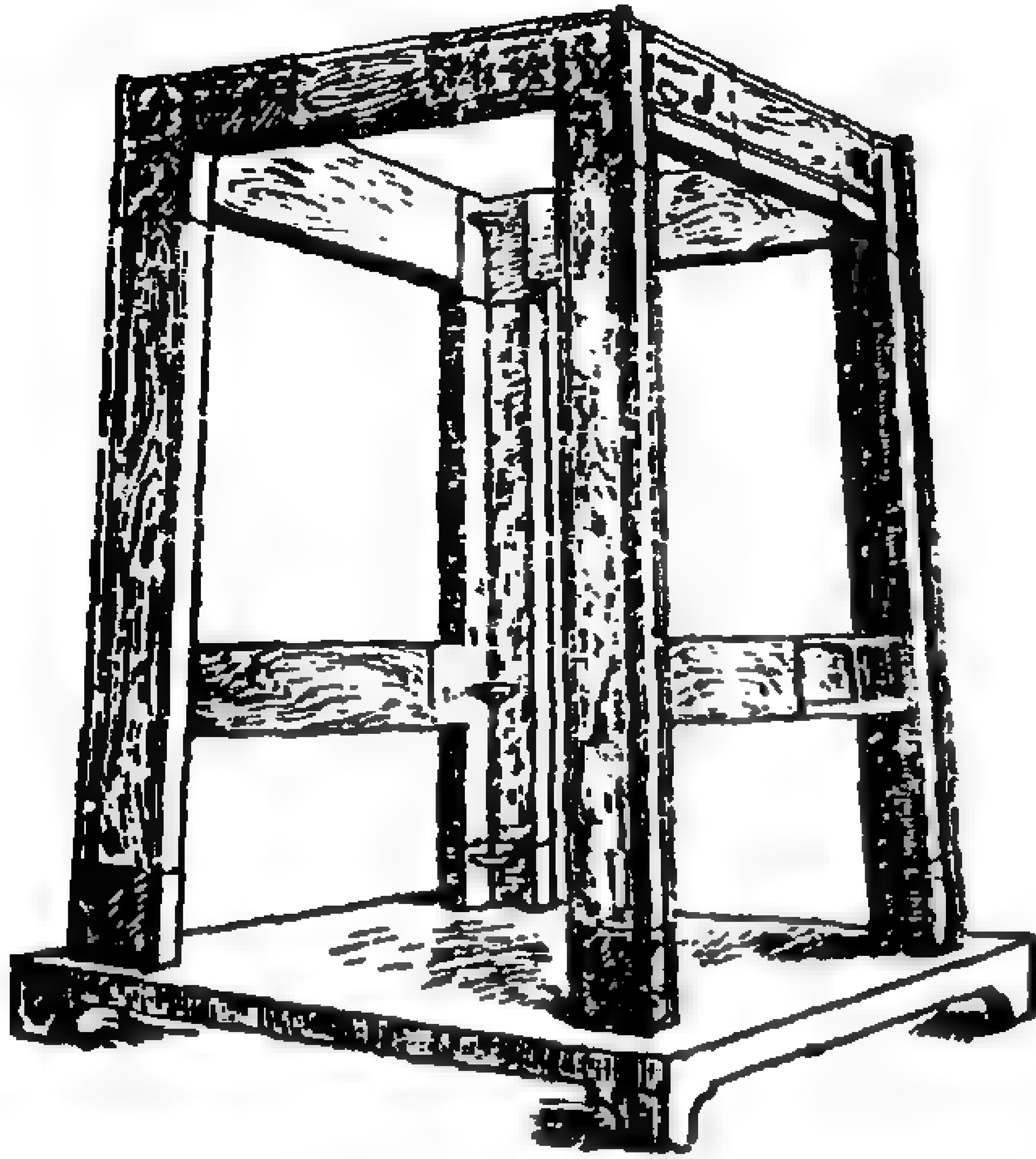
(٣) Piankhi, 29

(٤) فى العصور القديمة لم يكن العيد يقام سنويا Ed-Meyer I, 2^2 , 185

(٥) Harris ,I, 6, 3

إلى جانب ذلك كان لكل إله عظيم مراكب حقيقية يستعملها فى أسفاره على النهر . وسنرى فيما بعد مقدار السرف فى تزيينها .

وهكذا – عند ما يخرج الإله من معبده كانت تحمل أمامه أعلام مزينة بصور إلهية ، لاسيما بنات آوى اوب – اوات ، المنوطة بفتح الطريق للإله كما يدل عليها اسمها « فاتح الط ق »[1] ، وترافق الإله تماثيل للمعبودات المرافقة وللملك[2] ، ثم يعرض الإله هنا وهناك فى صالات الدخول بالمعبد أو فى المدينة على قواعد حجرية . وتقدم له القرابين والبخور والأدعية . ثم تأزف اللحظة الحاسمة حينما يزيح الكهنة الأستار التى تحجب جوانب المحراب الصغير المحمول ، وهنا تصيح الجماهير المتحمسة صيحات الفرح للتمثال الصغير الذى يمثل بالنسبة لهم أقدس شىء فى الوجود .



٧٧ – ناووس من البرونز والخشب سبيل الحمل أهداه أماسيس لأحد معابد طيبة ، وكانت تتدلى على الجوانب ستائر تخفى ما وراءها (برلين ٨٧٠٨)

وسنرى فى الفصل القادم إلى أىّ حدّ من الفخامة كان يحتفل بعيد كبير فى الدولة الحديثة . ويلوح لنا هذا الاحتفال أكثر بساطة فى سجلات حسابات البلاط الملكى التى حفظت لنا عرضا . وهى ترجع من غير شك إلى عصر كانت تجتاز فيه طيبة مرحلة عصيبة حوالى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وقد ورد فيها أن آلهة المدينة المجاورة لميدامود ، أى مونتو وحوريس حامى أبيه ، قدما فى وقت ما إلى طيبة حيث عرضا فى قاعة القصر ذات العمد . وقد بدئ فى ترضيتهما بالتقدمات بهذه المناسبة ، فأحضر الفلاحون أربعة عجول : اثنان لكل إله . وقدم الموظفون وإحدى أخوات

---

(١) كان هناك طقس كذلك لـ « فتح الطرق » cf. Daressy, Mission VIII, 388, et Naville, Mythe d' Horus, 25

(٢) Urk., IV, 768, 769

الملك مختلف أنواع العطايا ، ومن بينها خمس حمامات وأحد عشر طائرا آخر . وقدم الموظف الأول ، أى الوزير ، البخور . وعلى كل حال كان لمونتو كذلك نساء فى حاشيته وكن له بمثابة الحريم — كما سنرى كذلك أيضا فيما يتعلق بأمون — وكان هناك موظف يقود الموكب عند الذهاب والإياب .

وفى مناسبة عيد آخر لـ « مونتو » نعرف بعض الشخصيات التى تشرّفت بالاشتراك فى المأدبة التى أقيمت فى قاعة القصر ذات العمد . وكان عددهم حوالى السبعين من كبار الموظفين فى الدولة والبلاط ، وإلى جانبهم أناس أدنى مقاما مثل رئيس حرس الكلاب والمراقب المساعد لحظيرة الدجاج والمغنين والعازفين على العود — والمهرج — إن كنا لم نسئ الفهم . ولم تكن هذه وليمة كبرى لأن نصيب كبار الموظفين أنفسهم لم يزد عن العشرة أرغفة ، ولم ينل الواحد من بين الآخرين أكثر من خمسة . ولم يكن هناك ما يشرب ، ولم تمنح الحلوى لغير الوزير والقائد .

ومع ذلك فإن جميع هذه الاحتفالات لاتكشف إلا عن الناحية الظاهرة من الأعياد ، وأما ناحيتها الحقيقية التى كثيرا ما تبقى خفية فهى شىء آخر . وكما رأينا من قبل — كان المراد من هذه الأعياد الاحتفال بتخليد أحداث معينة من قصص الآلهة ، تمثل أمام الشعب فى مناسبات مختلفة . وقد كانت تمثل أحيانا على هيئة مآسى حقيقية ، ونستطيع أن ندرك صميمها فى يسر ما دمنا نعرف الأجزاء الهامة من القصص الأوزيرى — إلى أى ناحية يمكن أن نرجعها فى أعياد أبيدوس [1] .

وتقص علينا لوحة الأمير ايجر نفرت — وهو من أقدم خازنى الدولة — كيف أن الملك سنوسرت الثالث (حوالى . ١٨٦ ق . م) أرسله فى مهمة خاصة إلى أبيدوس ليزين تماثيل الإله والأدوات الدينية بذهب اغتنمه الملك من النوبة . وقد أدى هذه المهمة « بيد طاهرة وأصابع طاهرة » فزين تمثال الإله باللازورد والدهنج والذهب الصافى والأحجار الكريمة . وقد حلت أعياد الإله أثناء وجود ايجر نفرت وصحبه [2] فى أبيدوس فكان له شرف الاشتراك فيها .

---

(١) ما يلى مأخوذ عن Schäfer فى كتابه Die Mysterien des Osiris in Abydos (Sethe : Untersuchungen IV, 47 ss.)

(٢) ترك لنا هؤلاء كذلك لوحات صغيرة فى أبيدوس ، انظر :
Schäfer : Untersuchungen IV, 39

وأول هذه الأعياد خروج أوب وات عند ما يذهب لنجدة أبيه (أوزوريس) فيدافع إيجر نفرت عن قارب الإله ، ويهزم أعداء أوزوريس ، والمقصود هنا من غير شك الأحداث الكبرى للحرب التى قام بها أوزوريس حين فتح البلاد . ثم يلى ذلك عيد آخر ، هو « الخروج الأكبر » وكما يتضح لنا من مراجع أخرى كان هذا هو العيد الرئيسى الذى يشغل جانبا كبيرا من الحداد على أوزوريس . وعلينا أن نذكر أن مقتل الإله كان يذكر ويخلد أثناء هذا الاحتفال ، ولكنه لم يكن يمثل لأن المصريين حاولوا دائما أن يجتنبوا ذكر هذه المأساة المفزعة فى دينهم . ويكتفى إيجر نفرت بأن يقص علينا أنه زوّد قارب الإله بمقصورة كما منح الإله حليا جميلة حتى يتيسر له الوصول إلى قبره فى « پكر » ثم يعبر ايجر نفرت طريق الإله (التى تؤدى) إلى قبره فى پكر ، ولعله يقصد من وراء ذلك حدوث موكب كبير .

وفى عيد آخر يخلد انتصار الإله ، وهو يوم « العراك العظيم » الذى يهزم فيه أعداء أوزوريس حيث يقتلون على مياه « نديت » ثم يطلع ايجر نفرت بأوزوريس — الذى يجب أن نتصوّره منبعثا — فى قاربه الكبير الذى ينقل « جماله » . ويتهلل الشعب كله حين يرى عظمة مركب « نشمت » عند ما يبلغ أبيدوس ويعيد أوزوريس إلى مقره .

وقد وصلتنا من آخر الدولة الحديثة أنباء عن أعياد أبيدوس ، ولكن ليس بها فى واقع الأمر أكثر من إشارات وتلميحات . ويقص علينا رعمسيس الرابع (حوالى ١١٦٠ ق . م) كيف أنه أنار فى أبيدوس الضوء لأوزوريس فى اليوم الذى تحنط فيه مومياؤه . وأنه أبعد ست عن الإله حين أراد أن يمزّق أوصاله . وأنه وضع ابنه حوريس كوريث له على العرش . ولكن فى العيد الذى أقيم تمجيدا لحوريس فى أبيدوس نرى أن الملك بصق على عين حوريس التى كان قد انتزعها من تغلب عليه ، وأنه أعطى لحوريس عرش أبيه وميراثه فى كل البلاد . وجعل كلمته صادقة فى يوم المحاكمة ، وجعله يطوف بمصر والأرض الحمراء بصفته نائبا عن حوراختى [١] .

وفى أثناء احتفال آخر ، وهو احتفال إقامة عمود أوزوريس الذى كان يحتفل

---

(١) Mar. Abydos II, 54 - 55

به أصلا فى منف ، كانوا يقيمون عمودا مثله بوساطة حبال حتى يعتدل على قاعدته وكان أوزوريس هو الذى يقيمونه هكذا بعد أن تمثل جنازته خلال الأيام السابقة . وتأتى بعد ذلك تمثيلات أخرى لاندرك لها مغزى ، وكان فريق من الشعب يرقص ويقفز ، وفريق آخر يهجمون على بعضهم البعض ، ويصيح آخر : « لقد أمسكت بحوريس » ، وكان آخرون يتحاربون بالعصىّ وباللكمات ممثلين فى ذلك سكان بلدتى بى ودب التى كانت تتألف منهما العاصمة القديمة بوتو . وأخيرا كانوا يطوفون حول المدينة أربع مرات بأربعة قطعان من العجول والحمير . ونحن لاندرك تماما معنى هذه القصص حتى نستطيع من وراء ذلك تفهم مغزى هذه الأمور . وربما كانت أحداثا تتصل بمقدم حوريس الذى كان يحتفل به فى اليوم التالى [1] . والحقيقة أن التمثيلات التى تناولناها لاتعدو فى الحقيقة — على قدر ما نستطيع أن نقدرها — المناظر الشعبيه التى تخلد فى ديننا مولد وموت المسيح .

ونحن لانستطيع أن نعرف إذا كانت تضاف إلى هذه الأحداث المألوفة لكل مصرى أحداث خاصة بالمُميزين ، ولكن مثل هذه « الأسرار » لاتظهر إلا فى عصر متأخر جدا حين يطوف هيرودوت بمصر .

ولم يكن على الأشخاص الذين يساهمون فى هذه الحفلات التى ذكرت هنا سوى النطق ببعض العبارات التى كانت تكتب أحيانا إلى جانب اللوحات التى تمثل هذه الأعياد . وفى أحيان أخرى كانوا يجمعونها ، وكل من يقرأ كتاب فلسفة منفيس القديم يدرك أن الجزء المخصص لأوزوريس يسجل الكلمات التى ذكرت أثناء حفل كهذا . فنرى جب يقول لست : اذهب إلى حيث ولدت — ويقول جب لحوريس : اذهب إلى حيث غرق أبوك . ويقول جب لحوريس وست : لقد فصلت فيما بينكما . ويقول جب للتاسوع : إننى سلمت ميراثى إلى هذا الوارث ابن أول أبنائى المولود الأول — هو ابنى وطفلى . . . ويقول حوريس لإيزيس ونفتيس : أذهبا وامسكا به . وتقول إيزيس ونفتيس لأوزوريس : سنأتى لنأخذك [2] .

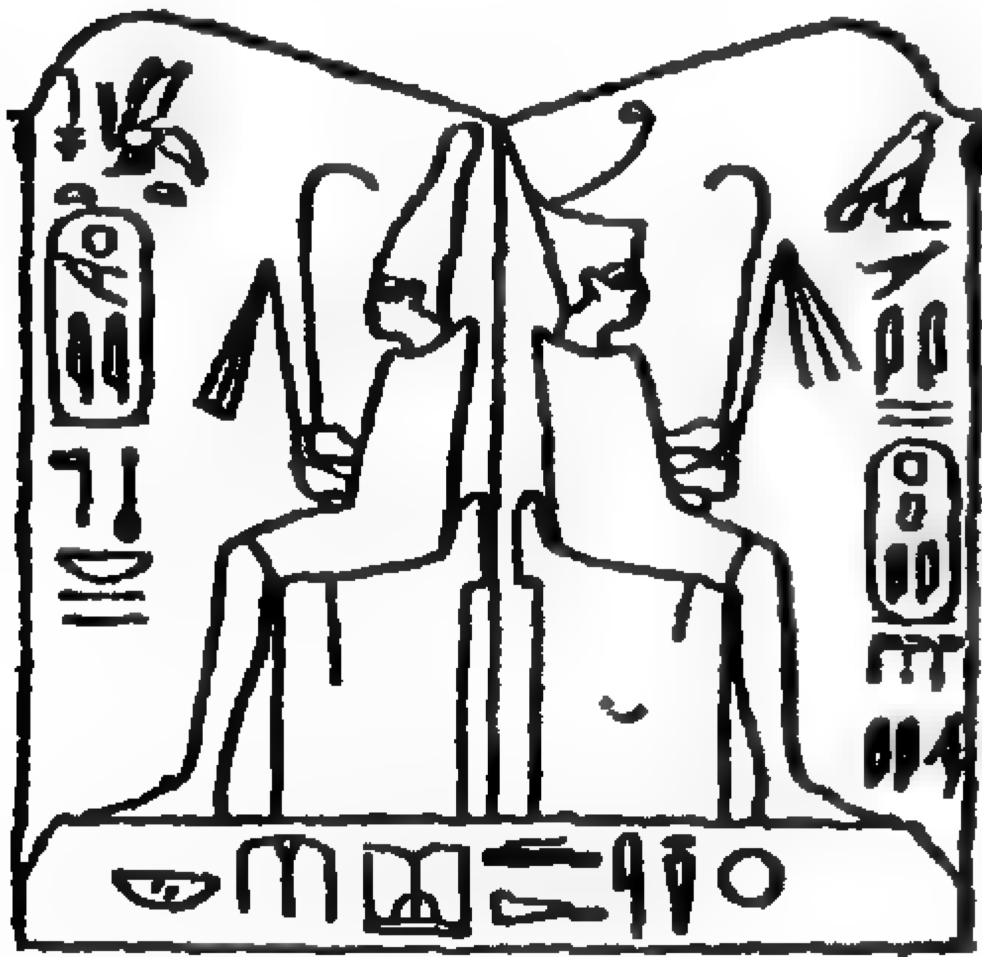
---

(١) Brugsch, Thesaurus p. 1190 ss.

(٢) Erman : Sitz. Ber. Berl. Akad (1911) p. 916 وقد تناول Sethe بالتفصيل هذه المسألة فى Dramatiche Texte, Leipzig, 1928

وكان للكلمات التى ينطق بها الكاهن أثناء تقديم قرابينه طابع درامى فى كثير من الأحيان . فحين يصرع ثورا مثلا ، فانه يمثل قتل أعداء الإله ، ويقول وهو يفكر فى ست : لقد قتلتَ أبي وصرعتَ من هو أكبر منك . وكإشارة إلى أوزوريس يقول : إنى ضربت لك من ضربك — كالعجل — لقد صرعت من صرعك — كحيوان المجزر [1] .

وفى الاتصالات القليلة التى تربط الملك بالعبادة ، نرى أعياد الملكية تتقارب من بعض الأعياد الإلهية . ومن بينها جميعا يكاد يكون العيد المعروف بـ « حب سد » أشهرها . وقد اعتادوا استعمال كلمة يوبيل لأداء معنى هذا الاصطلاح . والواقع أنه يراد بهذا الاحتفال انقضاء العام الثلاثين لارتقاء العرش ولإعلان الملك التالى وريثا للعرش . ويظهر الملك من جديد على عرش اليوبيل [2] وهو الذى سبق أن طلع عليه من قبل . ومن الطبيعى أن يدعو هذا إلى التفكير فى الملك أوزوريس الذى استمرّت حكومته عن طريق ابنه حوريس [3] ، ولم يكن ميسرا لكل ملك أن يحتفل بمثل هذا اليوبيل كما احتفل به — طبقا لمعتقدات المصريين — الإلهة بتاح تاتنن ورع وأوزوريس احتفالات متتابعة . ولقد كان يكتسى هذا الاحتفال ببهاء رائع إن أسعد الحظ الملك أن يقوم به .



٧٨ — الملك بيبى الأول (حوالى ٢٥٠٠ ق . م) فى بهو اليوبيل ، وهو فى اليسار كملك الوجه القبلى وفى اليمين كملك الوجه البحرى (من حمامات)

وفى هذه المناسبة كان يعاد بناء منازل اليوبيل فى المعابد كما أن صورها الإلهية — صاحبة اليوبيل — كانت تصنع من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وتكسى بالملابس الرقيقة ، وتمسح بالأدهنة ، وتسرّ بقرابين جديدة دائما [4] . وقد مثلت تفصيلات هذا العيد الكبير متتابعة على ألواح فى معابد مختلفة . ومنها نرى قرابين وتبخيرات وحاشية ، كما نلاحظ أية صور دينية تقام فى هياكلهم وأيها تحمل ، وأىّ

---

(١) Pyr. 580 (٢) Edfou, I,4 4

(٣) Breasted, Development, p. 39 Möller, Æ. Z., 39, 71 ss.

(٤) Harris, I, 49, 10 ss.

كهنة أو أيّ كبار رجال المملكة يشاركون فى الاحتفال . وأخيرا كيف يأخذ الملك مكانه فى صالة العرش بصفة خاصة ، حيث يجلس أولا على عرش ثم على آخر .

وإذا جاز لنا تصديق الصور الممثلة على المعابد فان هذه الاحتفالات كانت تقام مرّتين : مرة لملك مصر العليا ، والأخرى لملك مصر السفلى ، مما يتفق والعقيدة التقليدية التى تكوّنت المملكة المصرية كأثر لها — حتى بعد التوحيد — من قطرين .

ومن المسلم به أن أعياد الملكية الكبيرة كان يكسوها فى نظر المصرى طابع دينى . أو ليست تستقر فكرة الدولة فى نظره على مبدأ أن الملك إله ؟ على هذه الفكرة تقوم العبادة كلها ، وهى التى تضع الملك على اتصال مباشر بالآلهة[1] . من هذا يتضح هذا الخروج عن المألوف الذى يظهر فيه الملك كأنما يمثل الشعب كله فى المعابد . فالملك يقيم للآلهة معابدهم ويقدم لهم القرابين . والآلهة بدورها تعطى لابنها العزيز لقاء هذه التقوى حياة من ملايين السنين عن طريق النصر الذى يكسبه على أعدائه ، وعن طريق مجده الأبدى .



٧٩ — الملك أبريس يقدم القربان لآلهة منف ، على أن الكتابة تخلد ذكرى هدية أهداها أحد حراس

وليست الآلهة بعد للشعب ، بل هى لفرعون ... ابنها ... وحتى هذه الصلة ... صلة الملك بالآلهة قد بعدت كثيرا عن هدفها الأول : فحين يقيم الملك معبدا ، فانه لايقيمه — طبقا للقرار الرسمى — حبا للمعبود ، بل رغبة فى شهرته الشخصية ... إنه أقام هذا الأثر لنفسه ... هكذا تبدأ منذ زمن طويل كل النقوش التذكارية ، وبعد هذه الصيغة فقط يطلق اسمه على المبنى الذى أقامه الملك لأبيه الإله. وهذه فى الحقيقة صيغ تقليدية ، ولكن فقر هذه الديانة الرسمية ، يتجلى فى أن أمثال هذه العبارات والعادات تكوّنت فى العصور الأولى للشعب . وليس من شك أن الملوك قدموا أشياء عظيمة للمعابد ، ولكن العباد الأتقياء لم يتأخروا هم

(١) Ed. Meyer, I², 53

كذلك عن تقديم هداياهم وعطاياهم ورغم ذلك فالنقوش لا تذكر عنهم شيئا . وقد حدث ذلك فى كل عصر ، حتى إن الملوك اليونانيين والأباطرة الرومانيين كانوا يعتبرون البنائين الوحيدين لكل المعابد التى شيدت خلال حكمهم .

وكنتيجة طبيعية لوجهة النظر هذه لم ترسم كذلك صور الكهنة فى المعابد ، وإنما استبدلت صورهم بصور الملك . فعلى كل الجدران كانت تمثل مناظر تقديم القرابين وكل الاحتفالات التى تحدث أمام الآلهة ، ولكن الشخص الذى كان يقوم بجميع مراسمها كان الملك بشخصه دائما . وإننا لو جاز لنا أن نقبل أن فرعون نفسه كان لديه وقت كاف للقيام بأعماله الدينية ، فإن مشاركته فى العبادة فى كل معابد القطر ليست إلا شيئا نظريا . كما أن المحتفلين الحقيقيين فى مصر كانوا رجال الكهنة حتى وإن هم لم يذكروا أنفسهم فى الطقوس إلا كنائبين عن الملك [1] .



٨٠ — الملك يقدم النبيذ
(من معبد الدير البحرى)

وحتمت الظروف الطبيعية أن يكون شرف إدارة المعابد منذ أقدم العصور من حق الأسرات الكبيرة القديمة. وكان المنصب الدينى فى الامبراطورية الوسطى كذلك وراثيا فى عائلات معينة كان أفرادها يقومون بهذا العمل كوظيفة ثانوية فقط . وما دام الكاهن قد ورث وظيفته عن أبيه الذى كان كاهنا فى المعبد [2] فانه يستطيع عمل كل التقدمات وأداء كل الاحتفالات . وإلى جانب هذا فإننا نجد من قديم مجموعة أخرى من الكهنة من بينهم عدد يشغلون وظائف معينة . فى الامبراطورية القديمة كان كبار رجال القضاء هم فى نفس الوقت كهنة إلهه .. الحق كما كان الأطباء كهنة سخمت ؛ وأما الممتازون من الفنانين فكانوا كهنة بتاح .

وكلمة كاهن نستطيع أن نفهم من ورائها أمورا شديدة التباين . فيجب أولا

---

(١) Mar. Abydos I, tabl. 24 (Rituel)

(٢) Idem, tabl. 1

(٣) Litt. p. 153

التفرقة بين هؤلاء الذين يقومون بعملهم بصفة دائمة ، وأولئك الذين يحملون لقبا مؤقتا . ثم إن هناك اختلافا آخر فى هاتين الفئتين بين الكهنة الذين يقومون بأعمال كهنوتية معينة ، فهناك أولا « خدم الإله » وهؤلاء هم كهنة العبادة الحقيقيون ، ثم يليهم الـ « خرحب » أى العلماء [1] وكتّاب كتاب الإله ، ويركن إليهم مثلا فى منح الاسم للطفل الملكى [2] ، وهم كذلك الذين يقومون خلال الاحتفالات بتلاوة الصيغ القديمة ، والذين يعرفون أسرار السحر . . . هم السحرة ، وإذا أراد أحد أن يحتفظ سرّا بتعويذة لايعرفها غيره فإنه يستطيع مع ذلك أن يطلع عليها أحد الـ « خرحب » وهم متخصصون فى فن الأدهنة ، وهم يمارسون هذا العمل بصفتهم أطباء كذلك [3] .

وأما أصل وظيفة الكهنة المسمين « وعب » فنحن نعرفه عن طريق اسمهم المأخوذ عن الكلمة التى تعنى « طاهر » أو « تقى » ، والواقع أنهم فى نقوش الدولة القديمة يعطون رأيهم ونصيحتهم عن الحيوانات التى تذبح ، فهم يفحصون دماءها ويقولون « إنها نقية » — [4]

وقد اعتبر — فيما بعد — كهنة « وعب » فى أسفل السلم الكهنوتى [5] ، أو بمعنى آخر ، أصبح اسمهم يعنى كاهن فحسب .

وهناك لقب آخر متداول « أب الإله » أو « محبوب الإله » وهو يعتبر لغز بالنسبة إلينا ، وربما يكون المراد منه تخصيص أرفع طبقات الكهنوت [6] .

وكلما ارتفعت أهمية المعبد ازدادت قيمة الكهنة الذين يخدمونه . ولدينا وثائق معبد كبير من الدولة الوسطى استطعنا بفضلها أن نكوّن فكرة صادقة عن

---

(١) Urk., IV, 261 (texte ancien)

(٢) Totb. éd. Budge 190,5

(٣) Pap. med. Berlin, VIII, 10

(٤) Erman : Reden und Rufe, p. 13

(٥) مثلا باك ان خنسو .

(٦) كذلك Urk. IV, 349 حيث يكوّن آباء الإله ورجال البلاط حاشية الملك . وفى Urk, IV, 106 وكذلك idem 100 يكاد هذا اللقب يعنى « الأنبياء » .

الظروف التي كانت تنظمه .

وقد وجد كذلك في مدينة تقع إلى جانب هرم سنوسرت الثاني عند مدخل الفيوم مبد لإله الموتى أنوبيس [1] ، وكان عدد موظفي إدارته أكثر من خمسين شخصا لم يكن بينهم من يشغل وظيفة دائمة سوى ستة في الواقع هم : الأمير أو رئيس المعبد : أي الرئيس الأعلى ؛ ثم « الخرحب » الأول مدير العبادة ، ثم الأربعة حراس للأبواب وهم موظفون أقل درجة . وأما باقي كهنة وموظفي المعبد الآخرين ، فكانوا يتناوبون الخدمة الإلهية ولم يكونوا يعملون إلا في شهورهم فقط . وكانوا مقسمين إلى أربعة طبقات [2] ، وكانت كلما بدأت طبقة منها عملها كانت تتسلم من سابقتها المعبد وكل مايتصل به . وكان يكتب محضر لإخلاء طرف الفريقين ، وهذا يسهل فهمه جدا في مصر حيث كان للبروتوكول أهمية كبيرة .

وفي معبد آخر [3] يرجع إلى نفس العهد وهو معبد « أوب ْواوت » في أسيوط نرى رجال الكهنوت الدائمين يتكوّنون من أمير المقاطعة الذي كان في نفس الوقت كاهنا أكبر ، ثم من تسعة كهنة . وكان هؤلاء العشرة يكوّنون هيئة المعبد وكانوا كهنة بالوراثة . وكان إلى جانبهم كذلك كهنة يتناوبون ، وكان يطلق عليهم اسم الكهنة المؤقتون ، نستطيع أن نرى فيهم من غير شك موظفين للملك أو للمقاطعة ، يفخرون غالبا في نقوشهم بأنهم كهنة هذا الإله أو ذاك . وفي الوقت نفسه كان يستطيع أفراد من طبقة أدنى أن يشاركوا كذلك في الكهنوت ، ومن هنا نجد مرة – في معبد يوشك على الفناء – أن كبير الصيادين للأسماك والطيور كان في الوقت نفسه رئيس كهنة معبده [4] .

ولم يكن يكفي فقط الانتماء إلى أسرة كهنة لكي يستطيع المرء الحصول على مرتبة الكهنوتية . ونستطيع أن نتخيل أنه كان يجب أن يكون هناك مايثبت – على الأقل بالنسبة للمراكز العليا – وجود ثقافة خاصة ، وربما تكريس خاص . فإن بعض

---

(١) ما يلي مأخوذ عن Borchardt : Æ. Z. 37, 89 ss.

(٢) تسمى طبقات الكهنة هذه قبائل ، وذلك حسب التسمية الإغريقية .

(٣) Erman, Æ. Z. 20, 159 ss.

(٤) Schäfer : Priestergräber, P. 34

النصوص الأكثر حداثة على الأقل تذكر أمثال هذا التكريس والتطهير ، فنحن نقرأ أن كاهنا جديدا استحم فى البحيرة المقدسة بالكرنك وتطهر عن طريق النطرون [1] ويقص علينا كاهن آخر فى تفصيل أكثر وضوحا قائلا : إننى تقدمت أمام الإله وكنت شابا ممتازا . وحين أدخلونى إلى أفق السماء خرجت من «النون» وتخلصت من كل شائبة كانت بى . وخلعت ملابسى وتدهنت كما يتطهر حوريس وست . ثم تقدمت نحو الإله فى قدس الأقداس وأنا أحس بالرهبة أمام قدرته [2] .

وإذا كان الكثيرون من الكهنة يفخرون بمعرفة الأمور السرية « مثل أسرار السماء والأرض والعالم السفلى » فإن علمهم كان قاصرا من غير شك على معرفة الصور الدينية والتقاليد المقدسة [3] ، لأن هذه التقاليد تعتبر سرية كذلك . وحتى فى الدولة القديمة نحن نعرف أن « كتاب فن الحرحب » الذى كان يجب العمل به أثناء عمل التقدمة يحتوى على أمور سرية [4] .

ولم تُبعد السيدات فى أىّ عصر من العصور عن خدمة المعبد . ففى الدولة القديمة نراهن يتباهين بأنهن كاهنات (خادمات للإله) لنوت وحاتحور . . . « واحدة تمجد حاتحور كل يوم » [5] . ومن اليسير أن ندرك أن النساء كن يملن إلى خدمة حاتحور إلهة الحب ، وسنرى فيما بعد كيف اكتسب دور الكاهنات أهمية أكبر فيما بعد .

لم نتعرّض حتى الآن فى كل ماقلناه عن الكهنة المصريين لذكر شىء عن الطبقة العليا الروحية التى نسميها كبار الكهنة . وليس هناك اصطلاح خاص فى اللغة المصرية للتعريف بهذه الوظيفة . وفى المعابد الكبرى كانت لهم ألقاب ترجع إلى أصل بالغ القدم . ومن هنا كان يسمى الكاهن الأكبر فى هليوبوليس باسم

---

(١) Brugsch : Thes., 1071

(٢) ويعنى هذا إذا تجردنا من العبارات المصرية أنه أعد فى المعبد وأنه اغتسل وتدثر عندما قبل فى عداد الكهنة ، وعند ذلك سمح له بدخول قدس الأقداس — انظر تمثال حور فى القاهرة (W. B. 426) وانظر كذلك Legrain - Naville, L'aile nord pl. 11 B. حيث مثل تطهير كهنة وكاهنات من الطبقة الراقية .

(٣) Pap. ex. Louvre, c. 218 XIX dyn.

(٤) L. D. II, Erg. Tafelband 7;M ar. Mast. p. 10

(٥) Brit. Museum, 528.

« كبير الرائين » والكاهن الأكبر فى شمون باسم « كبير الخمسة » ، ولكن كاهن منفيس الأعظم الذى كان فى خدمة إله الفنانين بتاح ، فقد كان يسمى « الكبير لإدارة الفنانين » ولقد كان يشغل فى الواقع هذه الوظيفة أيضا فى مدلولها الدنيوى ، وكان فى الدولة القديمة كذلك يعتبر رئيسا فعليا لكل أعمال النحاتين والأعمال الأخرى المماثلة . ويظهر أنه فى الأصل كانت هناك شخصيتان توزع عليهما أعمال هذه الوظيفة النصف روحية والنصف دنيوية ، ولكن فى أواخر الدولة القديمة نرى ملكا ينقل كل شيء إلى إلهى . وكل ما يجب أن يؤديه الكاهنان الكبيران إلى رجل يدعى تيتى — سابو الذى كانت له فيه ثقة خاصة [1] .



٨٠ — الكاهن الأعلى فى منف بحليته على صدره وخصلته على جانب رأسه (برلين ١٢٤١٠)

وكان رؤساء هذه الهيا كل الكبرى أشخاصا من أرفع الطبقات . ولقد كانوا فى الدولة القديمة أبناء الملك عادة . وأما فى المقاطعات التى كانت تحت نفوذ أمرائها المحليين فإن أولئك كانوا كذلك رؤساء خدم الإله : أى الكهنة الكبار . . . ولقد اعتبر أحد هولاء نفسه مديرا لكافة الوظائف الدينية ، العارف بالكلام والأشياء الإلهية ، وهو الذى يعطى للكهنة التعليمات لإدارة الحفلات . وله صوت ملو حين يسبح الإله ويد طاهرة حين يحضر الزهور ويقدم الماء والطعام على المذبح [2] .

وتسترعى مكانة الكهنة الكبار النظر بسبب الملابس الكهنوتية التى يرتدونها فى بعض الأحيان ، والتى ترجع من غير شك إلى عصر بعيد جدا ، وكان الشيء الوحيد الذى يطلب من كل كاهن ، وكذلك من كل من يقترب من الأشياء المقدسة هو الطهارة . ونقرأ فى قبر يرجع إلى الدولة القديمة ما يلى : كل من يدخل هنا يجب

---

(١) Mar. Mast. E. 3

(٢) Siout, I, 237-239

أن يكون نقيا ، وعليه أن يتطهر كما يتطهر عند دخوله معبد الإله الكبير [1] ، ويبينون دائما أولا بأوّل أن أيدى الكهنة يجب أن تكون مطهرة . وكذلك نرى فى الدولة الحديثة المؤمنين وهم يهدون إلى المعابد أحواضا كانت تستخدم للتطهر من غير شك[2]. وقد اتخذ هذا الاتجاه نحو التطهر صورا عجيبة كما هى الحال فى كل أنحاء العالم . وكان على كل من أراد أن يردد صيغة سحرية ألا يغتسل فحسب، بل ألا يلمس كذلك امرأة ، بل لا يجب عليه أن يأكل لحم الماشية أو السمك [3] . وفى بعض المقابر القديمة الجميلة حيث يدعى الزوّار إلى التحقق من طهارتهم فإنهم يطالبون كذلك ألا يكونوا قد تناولوا أسماكا . وسنرى فيما بعد – فى الفصل الثامن عشر أن ملكا مخلصا للآلهة المصريين كان يقف بعيدا عن الناس الذين كانوا يأكلون السمك . والواقع أن هـذا المنع الذى حرم الشعب من أحد أطعمته الرئيسية لم يستوجب أن يساهم فيه الجميع بالضرورة .



٨١ – حوض ماء أهداه أحد الأفراد ويدعى حوى لمعبد سخمت فى أبو صير .

ولقد رأينا فيما سبق أن العبادة المنظمة كانت تتضمن تقدمات يومية هى من الطبيعى أقلّ أهمية من تقدمات أيام الأعياد . ولكن بما أنها كانت دائما مستمرّة طيلة العام فإنها كانت تحوى كمية ضخمة من الخبز واللحم . ولنا أن نتساءل إلام كانت تصير تلك الأطعمة بعد أن يشبع الإله – طبقا للتعبير الرسمى – .

ومن المفهوم أننا لم نستطع الوصول إلى إجابة حاسمة فى هذا الموضوع ، لأن هذه الأشياء كان يستطيع المصرى أن يصل إلى فهمها من تلقاء نفسه ، ولكن شيئا

---

(١) Urk. I, 173-147 (cf. Urk. I, 87, 202)

(٢) Brit. mus., 28

(٣) Totb., éd Naville, 64 Copie en Ca.

واحدا كان يهمه ، وهو أن يسر الإله بهذه التقدمات . ونحن لانستخفّ بعقولنا إن أكدنا أن الكهنة كانوا يتناولون هذه الأطعمة ، وأن كل ماكان يؤتى به إلى الإله كان يعتبر بالنسبة لهم دخلا . وبالمثل كان كل مايملكه الإله من أملاك ثابتة كان يطلق على اسم « التقدمة الإلهية » وكان الكهنة يتمتعون بثمارها .

ومن بين المنح التى كان الملوك أو الأفراد يقدمونها بصفة قرابين نستطيع أن نميز أمرا خاصا ، وهو أن قرابين معينة كان لايستحبّ أن يستمتع بها الإله وحده بل يجب أن يستمتع بها كائنات أخرى مبجلة . وهكذا مثلا يقوم فى معبد ما تمثال رجل صالح أقامه الملك فى هذه الناحية حتى تكون له كذلك حصته من تقدمات الإله . وفى هذه الحالة كان يوضع أمام هذا التمثال كذلك بعض الأطعمة المأخوذة من التقدمات ، وهنا لنا أن نتخيل كذلك أن الكاهن المختصّ بهذا التمثال هو الذى يستمتع بالأطعمة . وبالمثل فإن صورة رجل مقامة فى مقبرته تستطيع المشاركة فى التقدمة المقدمة إلى الإله . وعند ذاك تنتقل هذه الأطعمة إلى الكاهن الجنزى المختص بالقبر وذلك بعد أن يشبع المتوفى.

ونستطيع اعتبار هذه التقدمات التى كان يستفيد منها الكهنة بصفة دائمة بمثابة مرتب لهم . وعلى ذلك فلم يكن همهم الوحيد تموين الإله بالأطعمة هو الذى يدفعهم إلى تقبل العطايا الملكية فى سرور ، وإنما كان طعامهم الشخصى هو هدفهم الأسمى . وهم يمدحون الملك لأنه يملأ المذابح أطعمة ويجعل موائد القرابين زاخرة ويكثر من التقدمات [1] .

وتدلنا أسماء أبواب المعابد كذلك على الأهمية التى تتصل بالقرابين ، فهم يذكرون أن الملك يأتى بالأطعمة [2] عند ما يعبر هذه الأبواب .

ولم يكن الكهنة يفيدون من مأكولات الإله فقط لأنه كان يتخلى كذلك عن ملابس . ولقد كان شيئا طيبا أن يأخذوا فى مناسبة الدفن شرائط من الكتان يلفون بها

---

(١) Westcar, litt. p. 73

(٢) Deirel Bahari, 95; Karnak, Temple de Khonsou «727» Abydos «447»; Chassinat, Mammisi, 155

الميت كان الإله قد تخلى عنها [1] ، ولنا أن نتخيل أنه من الطبيعى أن تلك الشرائط كان لها قوّة حافظة جاءتها عن طريق الإله الذى كانت تلمسه . وبالرغم من أن الكهنة كانوا لايألون جهدا فى أخذ القرابين ، فإن هناك حالات كانت ترفض فيها هذه القرابين — ولو نظريا — وواحدة من صيغ اللعنات تذكر أن الآلهة لاتتقبل قرابينها .

---

(١) Urk. IV, 112. cf. aussi Lacau, Textes Rel. No 20 (texte ancien)

الفصل الثالث عشر

العبادة فى الدولة الحديثة

لعل ماقمنا بعرضه حتى الآن عن عبادة الآلهة المصرية قد زوّد القارئ بفكرة تكاد تكون كاملة عن هذه العبادة ، وهذا فى الحقيقة بالنسبة إلى العهود والظروف الطبيعية . أما فى عصر الدولة الحديثة فإن كثيرا من الأمور أصبح ليس ذات قيمة . لأن فى هذا العصر اتخذ كل شىء نسبا معينة حتى أصبح يتعذر معها المقارنة مع ظروف العبادة السابقة واللاحقة . وتنطبق هذه الملاحظة بصفة خاصة على عبادة آمون الذى لايكرّم عبثا كملك للآلهة والذى كانت معابده الطيبية تعتبر رمزا للدولة الحديثة بقدر ما كانت الأهرام رمزا للدولة القديمة .

ويكفى للتحقق من عظمة المبانى الدينية لهذا العهد أن نلقى النظر برهة على معبد الكرنك ، فبهو الأعمدة فيه يشغل مساحة قدرها ٥٠٠٠ متر مربع ، ولا يقل عدد أعمدتها عن ١٣٤ عمودا ، يفوق ارتفاع الاثنى عشر عمودا منها الكائنة فى الصحن الأوسط عن ٢١ مترا ، وقطر كل منها ٣٧و٣ متر . أما الأعمدة فى الجانبين فيبلغ ارتفاع الواحد منها ١٣ مترا .

ويبدو كما يتضح من النقوش أن هذه الصالة الفخمة والصرح الذى يتقدمها شيدا فى الأسرة التاسعة عشرة وخلال حكم رعمسيس الثانى على الأخص ، وهما يكوّنان معا مجموعة واحدة . ولكن مادام المعبد كان قد بدئ العمل فيه ، حسب هذا الرأى بقاعة الأعمدة . فانه من الممكن أن نفترض أن البهو الكبير الذى أقيم أمام الأبنية فيما بعد كان جزءا من المشروع الرئيسى . وليس من المستبعد أن يرجع هذا التصميم الرائع إلى ذلك العهد الذى أعقب العصر الهرطقى حين لم يكن هناك شىء مما يمجد آمون يعتبر مبالغا فيه . ولقد صرف النظر بعد رعمسيس الثانى عن تنفيذ هذا التصميم لأنه اعتقد أنه لايمكن تحقيقه . وذلك لأن سيتى الثانى أقام معبدا أصغر فى الفناء المزعوم كما بنى رعمسيس الثالث معبدا كبيرا كرّسه للآلهة الطيبية وأقامه بطريقة تقترب

من التصميم المذكور . ولم يشرع فى إنهاء الفناء إلا فى عهد الملوك الليبيين والأثيوبيين ، ولعل منحدر اللبن القائم حتى اليوم والذى استخدم فى بناء الصرح يقوم دليلا واضحا على أن العمل لم ينته تماما .

ولكن هذه المبانى الضخمة التى تمتدّ على طول ١٨٠ مترا ليست إلا مجموعة معمارية تتقدم معبد أمون الحقيقى الذى يمتد ببوّاباته وإبهائه وممرّاته وصالاته التى شيدها ملوك الأسرة الثامنة عشرة . وبجوار معبد أمون الكبير يقوم معبدا زوجته وابنه وهما معبد موت (الذى يرجع إلى عصر أمنوفيس الثالث) ومعبد خونسو . ولبتاح منفيس كذلك هيكل مهم .

وتتصل هذه المبانى ببعضها عن طريق ممرّات وأبواب تذكارية وتكوّن فى مجموعها مدينة مقدسة حقيقية طولها أكثر من كيلومتر ، ولسنا نستطيع إلا أن نفترض عدد المبانى الأخرى التى كانت تقوم فى هذه الناحية ، لأن منازل السكنى وصوامع الغلال والإسطبلات والورش كانت تبنى كما جرت العادة من قبل من اللبن ، وهى من أجل ذلك لم تصل إلينا . وليس من شك أن مئات من الأهلين كانوا يعيشون فى هذه الناحية لخدمة أمون .

وعلى بعد يزيد قليلا عن الكيلومترين إلى الجنوب ، يقوم معبد أمون الثانى فى الأقصر ، وقد أقامه أمنوفيس الثالث ووسعه توت عنخ أمون ، وأضاف رعمسيس الثانى مبنى كبيرا أمام المبانى القديمة عبارة عن بهو يتقدمه صرح رائع ومسلتان وتماثيل ضخمة .

ولكن هذه المعابد الشامخة فى الكرنك والأقصر لاتكفى للتعبير عن مدى الخشوع الذى كان يحسه ملوك الدولة الحديثة نحو إلههم ، وهم أولئك الملوك الأتقياء الذين كانوا يسهرون دائما من أجل المعابد [1] . فهناك على الضفة المقابلة للنيل تقوم معابد أخرى كبيرة كان يعبد فيها أمون كذلك ، والواقع أنه لم يكن يعبد هناك وحده ، بل

---

(١) Urk IV, 363

فى صحبة إله أو آخر من آلهة الموتى [1] ، كما يستوجب ذلك قيام هـذه المعابد فى مدينة الأموات . وهناك المعبد الرائع للملكة حتشبسوت وهو الذى كان يستخدم فى الوقت نفسه كمعبد جنزى للملكة . وهناك كذلك كان يقوم المبنى الشامخ الذى أقامه أمنوفيس الثالث ، والذى يكاد يتلاشى فى يومنا هذا وإن ظهرت عظمته فى تمثالى ممنون . وكان يقوم هناك كذلك معبد لـ « آى » الذى تهدم تماما . . . وكذا المعبد الضخم الذى شيده رعمسيس الثانى ، والذى نعرفه اليوم باسم الرمسيوم . وبعد قرن من الزمان نرى رعمسيس الثالث الذى كان قد أقام لأمون فى الكرنك معبدا كبيرا يقيم هنا كذلك معبد مدينة حابو ، « ذلك المنزل العجيب الذى سيبقى ملايين السنين فوق جبل نب عنخ »[2] ، وليس من شك أن تسمية طيبة بالعبرية باسم نو — أمون ، أى مدينة أمون ليست تسمية خاطئة .

أما باقى مدن المملكة فلم تكن تنقصها كذلك معابد تكرّس لأمون رغم كل المنشئات الضخمة التى أقامها ملوك الدولة الحديثة فى كل مكان للآلهة القديمة ، وليس من شك أنه ليس من المبالغة أن نذكر أنه لم يقم فى بلد ما ملك ما فى أىّ عصر بنشاط فى أعمال البناء يعدل نشاط رعمسيس الثانى أكبر بنائى هذا العصر [3] . ولم يقنع مبنى من مبانى الدولة الحديثة بالضرورى فقط ، بل أنهم أرادوا أن تثبت هذه الأبنية بضخامتها وفخامتها عظمة الإله الذى يسكنها .

ويتمشى مع هذه الأهداف الإفراط فى الزهو داخل المعبد . وكانت تنصب أمام البوّابات التى لاتلوح اليوم إلا فى صورة كتل ضخمة من الحجر ساريات ذوات أعلام متعددة الألوان وأطرافها مذهبة . وكانت البوّابات من النحاس السورى المكفت بالذهب [4] . ولم يكتف فى داخل المعابد باللوحات المتعددة الألوان ، بل كانت

---

(١) هذا ما أخبرنى به بورخارت ، على أن تفاصيل هذه المسائل لاتزال مبهمة . ومما يلفت النظر أن الملوك أنفسهم كانوا يعبدون كذلك فى هذه المعابد .

(٢) Harris, I, 3, 11

(٣) cf. Ed. Meyer II². p 497

(٤) Urk. IV, 56 ss.; Annal. idem 169

الأعمدة وإطارات الأبواب تلتمع بالذهب [1] ، بل إن الأرض كانت تكفت فى بعض الجهات المقدسة بالذهب أو الفضة [2] .

وكانت اللوحات الكبيرة من الحجر تزين كذلك بالذهب وتزخرف علاوة على ذلك بحلىّ من الذهب السورى . وهى تستقرّ فوق قواعد مكفتة بالفضة وحلىّ ذهبية وهى ثقيلة حتى لتكاد الأرض تنطوى تحتها [3] . ويتألق داخل المعبد كذلك بكل الأدوات المصنوعة من الذهب والفضة « التى تغمر مصر بضوئها كما تفعل النجوم تحت بطن آلهة السماء » [4] . وهذه كلها هدايا من الملوك . فتحوتمس الثالث يقدم إناء من الذهب ارتفاعه سبعة أذرع (٣و٥ متر) [5] ، ورعمسيس الثالث يضع فى الحوش الخارجى لمعبد أمون حاملا كبيرا لجرّة مزين بالذهب والأحجار الكريمة . وأما الأوانى فمصنوعة من الذهب وهى تحوى النبيذ والجعة لتقدمة الصباح [6] . ويقدم نفس الملك كهدية مائدة قربان من الفضة [7] وإناء كبير — كاحركا — من الفضة كذلك بغطاء من الفضة له حافة ذهبية [8] .

ولم تعُد أوراق البردى واللوحات البسيطة تكفى لكتابة حوليات المعابد ، فهى الآن تسجل على ألواح من المعدن الثمين . وهكذا يقدم رعمسيس الثالث إلى أمون لوحات ذهبية صغيرة تحوى أدعية ، وأخرى من الفضة خاصة بأوامره للمعبد ، ثم عددا كبيرا من اللوحات الفضية بها مراسيم وكشوف ومحتويات المعبد التى قام بتحريرها وإعلانها خلال حكمه [9] .

---

(١) Harris I, 4,12

(٢) Urk. IV, 423; Borchardt, Baugeschichte, 46; Sixtemples, 12,3.
ولقد يميل المرء إلى الظن فى المغالاة فى هذه المعلومات ولكن كما يلاحظ — بورخارت — توجد آثار التكفيت بالمعادن الثمينة — بل ما زالت ترى — فى بعض الجهات على الجدران .

(٣) Harris I, 71

(٤) Urk. IV, 173

(٥) Idem

(٦) Harris I, 6,1

(٧) Idem, I, 5,12

(٨) Idem I, 6,11. Kaherka وهناك عيد اسمه

(٩) Harris, I, 615-6

وهناك أدوات أخرى ذات طابع أقل أهمية وإن كانت دقيقة الصنع وكان الملك يكرّسها للمعبد . . . وهكذا نرى رعمسيس الثالث يمنح معبد هليوبوليس ميزانا فخما من الذهب لم ير أحد له مثيلا منذ عهد الإله . ويجلس تحوت عليه فى صورته كقرد عظيم — مصنوعا من الذهب — كما لو كان منوطا بالميزان .[1]

وهكذا كان المعبد من ذلك العصر يعتبر صورة رائعة للفخامة وحسن الرونق ، ونحن نعرف تماما أن المصريين كانوا يقارنونه دائما بالقصر السماوى لإله الشمس .

وأخيرا ، فإن صورة الإله وكل ما يختصّ به كانت تزين فى رسوم رائعة بها الكثير من الإفراط ، ولذلك كانت المعابد تمتلك بيوتا للذهب ومصانع يمكن فى داخلها صنع الأشياء التى تتطلب سرية كاملة فى إتقان . ولنذكر من بين التماثيل التى كرّسها رعمسيس الثالث فى المعابد الطيبية تمثال أمون فى مدينة هابو ، « فهو مزين بأحجار حقيقية تتألق مثل الأفقين والمرء يسعد برؤياه إن هو خرج »[2] . وتقوم فى محاريبها فى نفس المكان تماثيل آلهة منفيس وتاسوع آلهة السماء والأرض ، وهى مصنوعة من الذهب الخالص ومحلاة بالأحجار الكريمة[3] وقد التحقت بها صورة ذهبية للملك نفسه[4] ، وبالعكس لم يكن لازما أن تصنع تماثيل لموت وخونسو ، إذ أعيد صنعهما من جديد فى بيوت الذهب وكسيا بالذهب الخالص ، ثم حليا بالأحجار الكريمة وألبسا عقودا من الذهب تتدلى من أمام ومن خلف بدلايات من الذهب السُورى . وحينئذ — كما يقول الملك — تستقر وتسر[5] . ويتسلم أمون كذلك قلادة مماثلة من الملك بها دلايات ذهبية تثبت إلى جانب تمائم مقلسة تعلق إلى جسمه حين يظهر[6] .

---

(١) Idem, I, 26, 11 - 12

(٢) Idem, I, 4,6

(٣) Idem, I, 4,9 - 11

(٤) Idem, I, 6,4

(٥) Idem, I, 6,12

(٦) Idem, I, 6,3

ولم يكن قارب أمون ، المسمى أوسرحات ، أقل روعة . كان من خشب الأرز وطوله ١٣٠ ذراعا ، وكان يغطى بالذهب الخالص ، وكان المحيط ينثنى تحت ثقله كما لو كان قارب رع وكانت الحياة تعود إلى العيون حين تتطلع إليه ، وكان محرابه من الذهب النق ومزينا بكل أنواع الحجارة الثمينة [1] .

وكانت القوارب الأخرى للآلهة ، الذين يستعملونها فى النيل ، تجهز فى روعة بالغة . ولنذكر من بينها قارب «نشمت» الشهير الخاص بأوزوريس أبيدوس فإن تحوتمس الأول أعاد صنعه من جديد من خشب الأرز اللبنانى الحقيق . وكان مقدمه ومؤخره مكسوّان بالذهب . وحين كان يسرى فوق الماء كان يحدث به تألقا سحريا كالعيد[2] .

وإذا كان من العسير علينا اليوم أن نقدر ذلك البذخ المفرط الذى يسود داخل المعابد ، فإننا نستطيع فى يسر أن نتفهم نوعا آخر من الزينة وهى الحدائق . فمثلا رعمسيس الثالث يفخر بأنه غرس فى طيبة أشجارا خضراء وزهورا ونبات البردى عسى أن يسرّ أمون برائحتها [3] . وفى مدينة رعمسيس بالدلتا نرى نفس الملك يجعل طريق الإله يتألق بزهور جميع البلاد ونبات والبردى [4] .

وقد أقام الكاهن الأكبر باك – ان – خونسو من عهد رعمسيس الثانى حدائق فى طيبة ، ولقد كان ذوقا خاصا بهذه الفترة أن تستنبت فى المعابد من أجل الآلهة – الذين كانوا يسرون بالمر والبخور – الأشجار التى تنتج هذه الأطياب [5] . وهكذا استنبتت فى طيبة بونت جديدة (بلاد البخور) فغمرت السماء والأرض معا بأريجها .

ورغم فخامة معابد الدولة الحديثة التى قمنا بتصويرها هنا ، فان العبادة ظلت تحتفظ طوال هذه الفترة بطابعها القديم . وظلت طقوس الخدمة اليومية على حالها . كما لم يتغير شىء مما كان يحدث فى أيام الأعياد بمحافلها ومشاهدها . وكل ماحدث

---

(١) Idem, I, 7,5 ss.
(٢) Urk., IV, 98
(٣) Harris, I, 7,12
(٤) Idem, I, 8,4
(٥) Urk. IV, 346; Harris, I, 7,7

أن كل شيء ازداد ثراء وروعة وفخامة عما كان من قبل . ولقد رأى القارئ فى الفصل السابق أن الأضياف الممتازين كانوا فى العهود القديمة لايتسلمون سوى عشرة رغفان بدلا من خمسة كان يتناولونها الآخرون ، وذلك فى مناسبة عيد مونتو .... فليعقد القارئ الآن مقارنة بين ذلك وبين ما كان يعطى لنظرائهم فى عيد أقيم تمجيدا لأمون خلال حكم رعمسيس الثالث [1] .

وكان ما يقدم للإله وما يأكله المشتركون فى الحفل يتضمن وجبات حقيقية من « الخبز الجيد واللحم والكعك والرقاق . وكان ذلك كله مكوّما فى سلال مختلفة الأشكال تتفق ومقام الأضياف . وكانوا يحتاجون فى كل عام إلى خمسة عشر سلة احتفالية ، وأكثر من خمسة وثلاثين سلة ذهبية وحوالى ٣٦٥ سلة طعام ، وعلاوة على ذلك مائة وعشرين كأسا للأمراء — أى كبار الموظفين — . ولسنا نستطيع أن نجزم بمقدار كمية الخبز التى كانت تخصص للمشتركين فى الاحتفال ، ولكنها كانت تتعدى الآلاف من غير شك .

وتبين أعمدة معبد الأقصر التى قام بزخرفتها الملك توت عنخ أمون استمرار حفل كبير فى ذلك العهد وتنوّعه . ونرى فيه كيف ينتقل أمون رع من الكرنك إلى الأقصر ليحتفل بعيد أوبت المشهور الذى أخذ شهر « بابه » اسمه عنه — ولا تقدم اللوحات لنا سببا لهذا العيد ، بل إنها تشير فقط إلى انتقال الإله إلى الأقصر وعودته إلى الكرنك . ولما كان اسم « أوبت » الذى يحمله معبد الأقصر يعنى فى الوقت نفسه كلمة « حريم » فإنه يظن أن ذلك قد يؤدى إلى أن الإله كان يذهب إلى هناك كل عام ليحتفل بزواجه .

ويبدأ الاحتفال بتقدمة يرفعها الملك أمام قارب أمون - أى أمام محرابه المحمول (المتنقل) قبل أن يغادر هذا المحراب معبد الكرنك . وتقدم القرابين كذلك أمام قوارب آلهته التى تكوّن أسرته موت وخونسو وأمام قارب الملك كذلك .

ثم يخرج الموكب من صرح المعبد والكهنة يحملون القوارب فوق أكتافهم ، ويجب ألا يقلّ عدد الذين يحملون قارب أمون عن ثلاثين . . . ثم يتقدم الملك

---

(١) Harris, I, 17, 1 ss.

نفسه خلف قارب أمون ، وكان يصحب الموكب الغناء ودق الطبول ، ويتقدم المشهد جندى ينفخ فى النفير .

وعند وصولهم إلى النيل كانت تنزل المواكب وركبها وكان قارب أمون يتلوه قوارب محملة بالقرابين ، ويصحب الملك والملكة الآلهة فى قواربهم الخاصة الفخمة .

وأما على الشاطئ فكان هناك موكب طويل يرافق الحملة المقدسة ، والناس تصيح صياح الغبطة والتهلل . وكان هناك منهم المكلفون بسحب القوارب فى اتجاه مضاد للتيار ، ومهما تكن صعوبة ذلك العمل فإن أولئك الذين كانوا يقومون به كانوا يؤدونه وهم مملوءون سرورا — كما تدل على ذلك النقوش — وذلك لقيامهم بخدمة الإله فى عيده . وفى مكان آخر نرى جندا مع ضباطهم كما نرى فى الموكب كذلك ليبيين وزنوج ، وهؤلاء يظهرون سرورهم طبقا لعادات بلادهم عن طريق الرقص والقفز . زد على ذلك ضجيج هؤلاء المتبربرين مضافا إلى ضرب الصلاصل وترتيل أنشودة قديمة ترددها جماعة من المغنيات والكهنة . وترى فى الموكب مركبتان للملك ، وحين تصل القوارب إلى الأقصر يتجه الموكب بعينه نحو المعبد وعلى رأسه الكهنة ومعهم قارب أمون وخلفه الملك وحاشيته . ثم تحمل كذلك قوارب موت وخونسو . وفى وسط الحاشية العسكرية تندس جماعات فرحة من الموسيقيات والراقصات لابسات ملابس رقيقة ويقمن بحركات فيها كثير من الجرأة . . . وعلى الطريق تقام أبنية صغيرة يقدم فيها الكهنة القرابين . وفى المعبد يقوم الملك بنفسه بمراسم القربان فى الوقت الذى تنتظر الحاشية من الكهنة ورجال البلاط أمام باب قدس الأقداس .

أما العودة إلى الكرنك فتتم طبقا لنفس البرنامج وإن اختلفت من ناحية أن القوارب فى عودتها لاتحتاج لأن تسحب . وتتقدم نفس الحاشية من الجند المصريين والليبيين والزنوج على الضفة فى الطريق الذى رش باللبن وهم يرددون ويمتدحون جلالته الذى سرى بأمون على الماء .

وحين تصل الآلهة إلى الكرنك يختم الاحتفال بتقديم القرابين العظيمة .

ومن الوصف الذى قدمناه معتمدين على النقوش التى وصلتنا يظهر أن الاحتفال كان يستمر يوما واحدا فقط ، ولكن الواقع أن هذه الحفلة كانت تستغرق مدة طويلة . ولدينا من عهد تحوتمس الثالث ما ينبئنا أنها استمرّت أحد عشر يوما ، كما أنها ظلت مدى ٢٤ يوما فى حكم رعمسيس الثالث [1] .

ولقد رأينا من قبل أن الكهنة كانوا أصلا فى العصور القديمة من بين سكان المدن ، ونستطيع أن نقرّر أنهم لم يكونوا منفصلين عن الشعب بصفة قاطعة . أما فى الدولة الحديثة فقد تغير هذا أيضا ، إذ أننا نعرف الكاهن الآن من مظهره الخارجى ، فهو لايلبس الملابس الحديثة لعصره ، وهو يجتنب أن يرتدى ملابس فضفاضة مثنية تغطى الجزء الأعلى من الجسم ، مما كان يفرضه الذوق العصرى على أصحاب الطبقات الرفيعة ، وبدلا من ذلك فاننا لانراه يأتزر بغير مئزر قد يطول وقد يقصر طبقا لما كان ساريا فى الدولتين القديمة والوسطى ، كما لو كان يريد الإشارة إلى أصله الذى يرجع إلى ماض وقور . وبالمثل لم يكن الكهنة يزينون رءوسهم بشعر مستعار مصفف بطريقة فنية كما كان يتفق والطراز السائد فى الدولة الحديثة ، بل نراهم يحلقون رءوسهم . كما أن حلاق المعبد كان موظفا من أهمّ موظفيه . أما سبب هذه العادة الغريبة فمأتاه — كما فعل المصريون فى العصور المتأخرة — الميل إلى الطهارة الخالصة . وهكذا أصبح الكهنة الآن طبقة معينة ، وكلما ازداد عددهم فى المعابد الكبيرة ازداد شعورهم بأنهم طبقة خاصة .


٨٢ — كاهن من الدولة الحديثة حليق الرأس وعلى ظهره فراء نمر (برلين ٧٢٧٨)

ونستطيع أن نتبين بالقرب من أكبر الآلهة جميعا — أمون [2] — ثلاثة مجاميع من الكهنة : الطبقة الدنيا وهى مكوّنة من كهنة « وعب » الذين يصحبون الإله فى مواكبه

---

(١) كل ما قدمناه من وصف مأخوذ عن Walter Wolf: Das Schöne Fest von Opet Leipzig, 1931

(٢) ما يلى مأخوذ عن Lefebure: Grands Prêtres P. 14 ss.

ويحملون قاربه ، وتدخل كذلك بعض الأعمال الضئيلة الشأن فى اختصاصهم . ولكنهم لم يكونوا يشتركون فى طقوس العبادة ذاتها ، رغم أن بعضهم من ذوى المرتبة المرتفعة كان يسمح لهم بالدخول حتى قدس الأقداس . وفوق هؤلاء تأتى طبقة الكهنة العلماء الـ « خرحب » وهم كذلك طبقات مختلفة .

وعلى قمة الكهنوت يوجد هنا كذلك خدم الإله وآباء الإله الذين نسميهم الأنبياء وهم الذين يفتحون أبواب السماء : أى الذين يدخلون إلى قدس الأقداس ويعرفون كل أسرار الإله . ويمكن أن نميز من بينهم عدا آباء الإله المعتادين أربعة طبقات أكثر سموّا : النبيّ الأوّل ، وهو الكاهن الأكبر الذى لايحمل هنا — بعكس أمثاله عند الآلهة الكبار — أىّ لقب خاص . وله نائب لكل ماهو دنيوى يسمى بالنبي الثانى .

وإلى جانب الكهنة كان للآلهة فى الدولة الحديثة هيئة من الكاهنات لم يشغلن سوى دور ثانوى فى العبادة وهن مغنيات الإله . وكان عددهن كبيرا فى خدمة أمون ولقد كانت سيدات العائلات الكريمة يتشرفن بالانتماء إلى هذه المجموعة . ولما كانت الفنون التى يدخلن بها السرور إلى قلب الإله هى نفس المتع التى تمارسها فتيات الحريم أمام مولاهن ، فإن هؤلاء السيدات كن يعتبرن كأنما هن حريم الإله . ولقد رأينا منذ نهاية الدولة الوسطى هذا الاصطلاح فيما يختصّ بالإله مونتو . ولقد انتصرت وجهة النظر هذه خلال الدولة الحديثة فيما يتصل بأمون . وكما هى الحال فى حريم أى أمير أرضى لم تكن النساء جميعا فى مرتبة واحدة ، ونستطيع أن نتبين فى حريم أمون كذلك مراتب متفاوتة ، فعلى رأسهن « الأكثر عظمة بين المحظيات » وهى عادة زوجة الكاهن الأكبر ، تلك التى يسبغ عليها هذا الشرف . ولكن توجد على رأس النساء سيدة من الأسرة المالكة ، هى زوجة الإله أو عابدة الإله ، أى الزوجة الحقيقية للإله ممثلة الإلهة موت [1] .

وكانت أول سيدة عرفناها ارتفعت إلى هذه المرتبة هى « إيحموزه — نفر إيرى — والدة الملك أمنوفيس الأوّل التى اختيرت فيما بعد حامية لمدينة طيبة

---

(١) وقد ذهب إلى أبعد من هذا حتى أن العبارة « يد الإله » التى نشأت من أسطورة تلقيح إله الشمس نفسه بنفسه (صفحة ١٠٤)، والتى وجدت سبيلها إلى موت، قد استخدمت كذلك لقبا لزوجة الإله على الأرض

الجنزية . ولقد كانت الملكة حتشبسوت كذلك زوجة إلهية قبل اعتلائها العرش ، وحينما ارتقت العرش أسبغت هذا الشرف على طفلة هى ابنتها نفرو – رع ، وعلينا أن نلاحظ أن وظيفة زوجة الإله لم تكن تتطلب التزامات قاسية ممن يشغلها ، وسنرى فى الفصل الثامن عشر كيف أصبح لهذه الوظيفة أهمية بعد ذلك ثم كيف اختفت .

ولنتساءل الآن ماذا كانت مهمة كاهن أمون ؟ إن سجل حياة باك – أن – خنسو الكاهن الأكبر خلال حكم رعمسيس الثانى (١٢٩٢ – ١٢٢٥ ق . م) تدلنا على ذلك [١] ، لقد كان ابنا لنبىّ ثان ، وقد تلقى تعليمه الأول فى مدرسة معبد موت . ومن السنة العاشرة من عمره إلى السنة الحادية والعشرين تلقى تعليما من نوع مختلف نستطيع أن نصفه بأنه عسكرى ، إذ أنه ألحق بالإسطبل الملكى ، وإن من يعرف ماذا كانت تعنى العربات والخيل يستطيع أن يدرك لأول وهلة أنه كان عضوا فى فرقة الممتازين . . . وعقب هذا الاستعداد العلمانى وهذه التربية فى البلاط دخل خدمة أمون بصفته كاهنا « وعب » ، ولكن بعد أربع سنوات فقط انتقل إلى كهنات اسمى ظلّ فيه أبا للإله مدى اثنتى عشرة سنة . وفى سنّ السابعة والثلاثين صار نبيا ثالثا ، وفى سن الثانية والخمسين أصبح نبيا ثانيا ، وأخيرا جعل منه أمون وهو فى سن الرابعة والستين نبيه الأوّل ، أو بمعنى آخر كاهنه الأكبر . وقد ظل يشغل هذه الوظيفة مدى سبعة وعشرين سنة . وقد استطاع أن يردّ للإله فضله – كخادم أمين ومحترم للإله الذى نشأه كابن له – وذلك عن طريق المبانى الفخمة التى نفذها باسم الملك . وهو يفخر بأنه كان أبا لمرءوسيه ، وأنه كان يمدّ يده للبؤساء ، وأنه كان ينال تقديره الفقراء كالأغنياء ، وأنه كان يعطى لكلّ ما يستحقه ، وأنه اهتمّ بجنازة من لاأولاد له ، وحمى الأرامل والأيتام ، وثبّت للابن وراثة أبيه ، وأنه أصغى إلى من كان يقول الصدق ، وأنه أبعد ذوى السيرة السيئة .

ولقد كانت هذه هى الفضائل التى اعتاد أمراء المقاطعات أن يفخروا بها فى كل

---

(١) مأخوذ من تمثال ميونخ الذى قارنه **Lefebure** بتمثال آخر فى القاهرة .

عصر ، والتي كان يستطيع كاهن أمون الأكبر أن يباهي بها . ألم تكن تحت إمرته إدارة متسعة جداً ؟ ومهما كان ناقصا ما لدينا من سجلات فاننا نعرف مالا يقل عن مائة لقب لموظفين وخدم أمون [1] .

وكان الناس الذين يديرون ثروة أمون وحقوله وقطعانه وثرواته من طبقة عالية جدا ، وكان لكل منهم كتابه وموظفوه الخاصون ، وكان هناك كذلك المعمارون والنقاشون والنحاتون ، كما كان هناك قائد جيوش أمون وضباطه وكل الموظفين المكلفين بتجهيز التقدمات والأطعمة من خبازين وطباخين وحلوانية وصناع الجعة والكرامين والمزارعين ومجهزى الزيوت والبخور . وكان هناك النساجون والغزالون والصباغون والحلاقون والأطباء . ويجب ألا نهمل ذكر الموظفين المكلفين برعاية وإدارة عقار أمون كموظفى المساحة ووكلاء صوامع الغلال ورؤساء الفلاحين والطحانين وصيادى الوحوش والسماكين ، وبالاختصار كان هناك فى الواقع جيش حقيقى فى خدمة أمون .

وإننا نستطيع أن نكون فكرة صحيحة عن ثروة أمون ، طبقا لأرقام مستند عجيب وضع فى قبر رعمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٦ ق . م) [2] وكان أمون يملك طبقا لهذه البردية من بين ما كان يملك من أشياء أخرى : ٨١٣٢٢ عبدا . ٤٢١٣٦٢ رأسا من الماشية ، ٦٥ مقاطعة ، ٤٣٣ حديقة ، ٨٦٨١٦٨ أورورا من الحقول ، ٩٣ قاربا . ٤٦ مصنعا ، ويأتى بعد ذلك ٥١٦٤ تمثالا إلها . ومما يدعو إلى الدهشة أنها كانت تعتبر ضمن هيئة الإدارة .

ويمكننا أن نضيف إلى رأس المال المذكور الثابت الضرائب السنوية المفروضة على ما يلى : خلال الـ ٣١ سنة من حكم رعمسيس الثالث زادت ثروة الإله بمقدار ٥١ كيلوجراما من الذهب . ٩٩٧ من الفضة و ٢٣٩٥ من النحاس . وكذا ٣٧٢٢ قطعة من الملابس الخ . . .

وفى الحقيقة ليس من السهل تقدير هذه الأرقام ، لأننا نجهل إن كانت العائلات

---

(١) قارن La liste dressée par Lefebvre : Grande Prêtres P. 41 ss.

(٢) Pap. Harris; cf. pour les passages auxquels il est fait allusion ici; Erman : Sitz, Ber. Berl. Akad. (1903) p. 14 ff.

كانت تحصي بكامل أفرادها، أم أن هذه الأعداد تمثل الرجال وحدهم . وبالمثل فإننا لانعرف المعنى الذى تشير إليه كلمة « مقاطعة » ، ونفس الصعوبة نلقاها فيما يخصّ الحقول والماشية . ومع ذلك فإننا نستطيع أن نذكر أنه كانت هناك ثروة طائلة ، لأن الحقول لم تكن تقلّ مساحتها عن ٢٣٩٣ كيلو مترا مربعا [١] .

ولعل الأمر يكون أكثر وضوحا إن نحن قارنا ثروة أمون بما يتصل من إشارات للمعابد الأخرى الكبيرة ، فلم يكن لهليوبوليس سوى ١٢٩٦٣ من الرعايا ، ١٦٠٠٨٤ أورورا من الحقول . كما أن منفيس كان لها من الرعايا ٣٠٧٩ ، ومن الأورورا ١٠٠٤٨ . وهكذا كان أمون يمتلك ستة أمثال رعايا هليوبوليس وستة وعشرين ضعفا لمنف . وبالنسبة للحقول كان لأمون خمسة أمثال هليوبوليس ، و٨٦ ضعفا أكثر من منفيس ولم تكن هذه الثروة هائلة بهذه الصورة دائما ، بل إن كثيرا من العطايا التى كانت تقدم لأمون كانت تفقد ، مثل المدن السورية الثلاثة التى أهداها إياه تحوتمس الثالث فى غزواته . وبالمثل كانت سلطة الكاهن الأكبر تحدّها الدولة أحيانا . ونستطيع أن نتصوّر أن السلطة المدنية كانت تتعارض دائما مع السلطة الدينية. فكان الكهنة مكبوتين حين تقوم حكومة قوية . . . وأما فى عهد الحكومات الضعيفة فان سلطة الكاهن الأكبر كانت تزداد [٢] . ومن المؤكد أن الأمر لم يكن محض صدفة إن نحن وجدنا فى فترة المشاحنات على العرش التى أعقبت موت تحوتمس الأول (١٥٠١ ق . م) كاهنا أكبر لم يكن نبى أمون الأول ومدير كل أعماله وأملاكه فحسب ، بل وأكثر من ذلك رئيس المعابد وكل أنبياء البلاد جميعا . . .

---

(١) لسنا نعرف على التحقيق فى أى عصر بالغ الملوك فى زيادة أملاك آمون إلى حد الإفراط على هذا النحو ، على أن هناك أمرا واضحا ، وهو أنه منذ الأسرة التاسعة عشرة لم يبق هناك مساحة كبيرة من الأرض فى مصر يستطاع أن توهب إلى الآلهة حتى إنه حين أقام سيتى الأول (حوالى ١٣٠٠ ق . م) معبده الضخم فى أبيدوس اضطر أن يهبه أرضا فى النوبة (انظر الفصل العشرين) .

(٢) إن كل ما يلى منقول عن Lefebure, Grands Prêtres مادام ليس له ذكر فى مصادر أخرى

وبالتالى الرئيس الأعلى للكنيسة المصرية . وعلاوة على ذلك كان لهذا « حابوسنب » وظائف علمانية ضخمة جدا ، فهو وزير وحاكم الجنوب ، وهناك ألقاب أخرى فى البلاط ترينا أية شخصية عظيمة كانها ذلك الرجل .

وفى الواقع لم يكن لكل الكهنة العظام هذه السلطة الفائقة ، وكان الاستمتاع بثروة أمون محدودا فى بعض الأحيان ، ولم يكن لجميع الكهنة العظام السلطة العليا على مجموعة الكهنة [1] .

ويبين لنا أحد النقوش من عهد رعمسيس الثانى أن الملك كان له أن يبدى رأيه فى اختيار الكاهن الأكبر ، وهو اختيار كان يرجع من الناحية الرسمية ، إلى الإله وحده ، وفى السنة الأولى من حكمه ظلت وظيفة الكاهن الأكبر شاغرة ، وقد شغله الملك بنفسه [2] وأدار حفله عيد أويت بصفته النبى الأول ، ثم شغل باختيار كاهن أكبر جديد فدعى أمام أمون رجال البلاط جميعا وأنبياء كل الآلهة وكبار رجال بيته وقائد الجيوش ، وكل الذين كانوا مجتمعين أمام وجهه ، ولكن أمون لم يوافق على واحد من بينهم إلا حينما ذكر الملك اسم « نب — أوننف » أمامه فوافق أمون . وكان نب أوننف ، نبيا أول لأونوريس ، ونبيا أول لحاتحور دندرة . وعند عودته من العيد نزل الملك فى ثيس وأعلن لنب أونن اف اختياره ، فصار منذ ذلك الوقت نبيا أول لأمون ، وستكون إدارة أمون كلها بين يديه ، وقد انتشر هذا النبأ فى البلاد جميعا عن طريق رسول خاص . وقد منح الملك ابن نب أوننف وظيفة أبيه ككاهن أكبر لدندرة [3] .

ونحن نروى كيف أدار الملك أمر اختيار أمون . . . فقد وقع حقا على رجل كانت للملك فيه ثقة خاصة . وكان هؤلاء الذين يختارهم الملك يدركون تماما أن وظائفهم ترفعهم أكثر بكثير عن باقى الأفراد ، وأن لهم الحق فى تشريف أكثر مما يناله غيرهم .

---

(١) فى عهد المرطقة انتقلت هذه السلطة إلى الوزير ، انظر Lefebure, Grands Prêtres, p. 114

(٢) منقولة عن نقوش وجدها لجران فى الكرنك cf. Sethe ,Æ. Z., 58,54

(٣) Sethe : Æ. Z. 44, 30 ss.

وفى آخر الأسرة التاسعة عشرة نرى أن الكاهن الأكبر « روم » المسمى « روى » يفرض نفسه بطريقة غير معهودة ، فقد قام بتوسيع منزل الكاهن الأكبر الذى لايبعد كثيرا عن البحيرة المقدسة ، والذى كان قد قام ببنائه سيزوستريس الأول (١٩٥٠ ق م) وقد مثل نفسه فى هذا الجزء من المعبد حيث كان من المعتاد أن يسمح بصورة الملك وحدها أن تظهر فى المعبد ، وبعد نصف قرن تقريبا — فى عهد رعمسيس التاسع — نجد فى نفس الجزء من المعبد صورا تمثل كاهنا أكبر أكثر غرورا من هذا . وهى تبين الكاهن الأكبر أمنحتب يسبغ الملك عليه تكريما لاحدّ له ورعاية عجيبة [1] ، وهو يمثل — بعكس المعتاد فى النظام المصرى — فى نفس الحجم الذى للملك ، بينما تظهر الشخصيات الأخرى فى اللوحة صغيرة . ولنلاحظ كذلك أنه هو الكاهن الأكبر الذى يقوم بالتقدمة لأمون وليس الملك . وفى النقوش يفخر أمنحتب ببنائه مبنى ضخما ، وأنه جدد مسكن الكاهن الأكبر فى كل روعته وبهائه . بل هو يقصّ علينا أمرا أشدّ خطورة من ذلك ، هو أن كل ضرائب أمون التى كان يتسلمها حتى ذلك الوقت بواسطة الملك لم يعد الإله يتسلمها عن ذلك الطريق إذا استطعنا أن نفهم الموقف تماما كان هناك صراع من ناحية الكهنة يهدّد سلطة الدولة . والواقع إن خليفته الكاهن الأكبر حريحور وضع حدا لهذه الحكومة المزدوجة واستطاع أن يعتلى العرش كما سنرى ذلك فى الفصل الثامن عشر .

---

(١) وقد قدم له الملك كذلك هدايا ذات قيمة كبيرة .

الفصل الرابع عشر

العقائد الجنازية

لئن كان الشعب المصرى يختلف فى شىء عن غيره من الشعوب ، فإنما ذلك فى العناية التى كان يوجهها إلى موتاه [1] . فقد كان اليهود أو الإغريق لايتحدثون كثيرا عن مصير موتاهم ، بل لقد كانوا يتحرجون من الحديث عنهم ، على حين كان المصريون يفكرون فيهم بغير انقطاع ، ولا يدخرون وسعا فى العناية بهم والاهتمام بسعادتهم ، كما كانوا يودون ألا تفنى ذكراهم [2] . ومن المحقق أنه لم يكن لهذه العناية من سبب فى بداية الأمر غير السبب الطبيعى الذى تشترك فيه الإنسانية عامة ، ألا وهو حب الأهل وذوى القربى . فكما تجب رعاية المسنين والأطفال الذين لايستطيعون العناية بأنفسهم ، فإن من الواجب كذلك رعاية الموتى المساكين الذين لاعون لهم . حقا لم يكن فى الاستطاعة أن تكون قبورهم أكثر من حفر بسيطة لسكناهم ، ومع ذلك فقد كان فى الإمكان أن يودع فيها سائر ما يحتاجون إليه من طعام ، وما يدخل على قلوبهم البهجة والسرور ، وهو ما نجده فى مقابر ما قبل التاريخ فى مصر .

على أن الأمر فى مصر لم يقف عند حد هذه العناية البسيطة بالموتى . وإنما أخذت هذه العناية تزداد بازدهار الحضارة المصرية ، حتى بلغت حد المغالاة والسفه . أجل لقد شيدت شعوب أخرى لعبادة الآلهة أو للأغراض العملية من العمائر ما يمكن أن يضارع عمائر مصر الضخمة ، غير أنه ليس فى العالم مقابر تماثل الأهرامات العظيمة ، أو المقابر المحفورة فى الصخر فى طيبة ، كما أنه لم تودع فى مقابر الموتى فى أى مكان

---

(١) من الممكن أن تكون هذه العناية قد نشأت من استقرار المصريين فى بلادهم منذ أقدم الأزمنة .

(٢) لا ينبغى أن نسوى بين هذه العناية بذكرى الموتى وبين الفخر بالأجداد العظام مما يميز كذلك بعض الشعوب الأخرى ، وذلك لأنه منذ انتشار الكتابة فى مصر لم يكن حتى الصعلوك من الناس ليدخر وسعا فى « إحياء » أسماء ذوى قرباه ممن لم يكونوا أقل منه خمولا فى الذكر .

آخر ودائع وافرة قيّمة بمثل ما أودع فى مقابر المصريين . ولم يكن الشعب المصرى ليبذل مثل هذه الجهود مدى ثلاثة آلاف سنة ، لو لم تكن قد نشأت تدريجيا إلى جانب العامل الأصلى ، وهو التقوى ، عوامل أخرى تتجلى فيما تصوّره المصريون عن العالم الثانى وعن حياة الموتى ، وهى تصوّرات لايزال من الممكن ترسمها في الأدب الجنازى القديم الذى تخلف لنا بكثرة لاتكاد تحصى .

وهو فى الحق ليس أدبا بالمعنى المعتاد ، أو هو كذلك فى أصغر أجزائه فقط ، إذ أغلبه أوراد قصيرة أو طويلة ، جرت العادة بتلاوتها عند إعداد الجثة ودفنها ، وعند إطعام الميت وتقديم العطايا إليه ، وعند ما تراد حمايته من كل سوء بالدعاء والسحر .

وقد جرينا الآن على تقسيم هذه الأوراد إلى ثلاث مجموعات كبيرة ، وذلك بالنسبة لعهد كل منها وأسلوب كتابتها ، وهى « متون الأهرام »[1] التى ظهرت فى مقابر ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة ، و « متون التوابيت »[2] ، وكانت تكتب فى الدولة الوسطى على الجدران الداخلية لكثير من التوابيت ، و « كتاب الموتى »[3] ، وهو أوراد كانت تكتب على قرطاس من البردى توضع إلى جانب الميت منذ الدولة الحديثة . ومع أن متون التوابيت وكتاب الموتى يتضمنان — على وجه التأكيد — كثيرا من الأوراد التى يرجع عهدها إلى أقدم العصور ، إلا أن متون

---

(١) وهى معروفة منذ عام ١٨٨٠ ؛ وقد نشرها ماسپرو عام ١٨٨٢ ، ومعها ترجمة تدل على نبوغ كبير ، ولكنها بطبيعة الحال غير صالحة لأن يعتمد عليها فى الوقت الحاضر . وقد نشرها زيتا بتدقيق كبير Leipzig; Heinrichs,1908 ff. . ولا يزال الأمر يحتاج إلى ترجمة جديدة .

(٢) وقد نشر بعضها لبسيوس ولا كو وغيرهما ، انظر :

Lepsius, Aelteste Texte des Totenbuches, Lacau, Textes religieux

ويعمل طائفة من الأمريكان والإنجليز على نشرها كاملة

(٣) نشرها لأول مرة لبسيوس (سنة ١٨٤٢) ثم قام نافيل بطبعها طبعة كاملة وفق كتابات الدولة الحديثة . وفضلا عن ذلك فقد نشرت كثير من نصوصه . ودرس جرابو وزيتا بعض أوراده (Grapow, Religioese Urkunden, Leipzig 1915 ff Sethe, Æ. Z. 57, 1 ff.) وفى الدولة الحديثة كانت أوراد هذا الكتاب تكتب على أوراق برديه كأنها كانت تؤلف معا كتابا متسقا ، ولكن لم يكن لهذا من سبب ، كما لاحظ لا كو بحق ، غير أن الشكل العادى للتابوت فى ذلك الوقت لم يعد يسمح بمكان مناسب لهذه الأوراد الكثيرة

الأهرام هي التي احتفظت بالطابع الأصلي في أنقى وأصدق صوره . لهذا فإن علينا أن نتجه إليها قبل أيّ شيء آخر إذا أردنا أن نعرف أفكار المصريين في أقدم عصورهم عن الموتى وعن مصائرهم .

ومع هذا فلن تفيد من متون الأهرام جوابا واضحا غير مبهم عن كل مايعنّ لنا من أسئلة . وذلك لأن الأوراد التي تتألف منها — وهي أكثر من سبعمائة ورد ، قد نشأت في مناطق مختلفة من مصر [1] ، كما أنها ترجع بالتأكيد إلى عصور مختلفة جدّ الاختلاف [2] . بل لقد يشتمل الورد الواحد على موضوعات غير متجانسة ولا متسقة . وذلك لأن الكهنة الذين « كانوا يرتلون الكلم » [3] عند المقابر كانوا يجرون في ذلك على نحو ما يجرى في أيّ مكان آخر من العالم ، فكانوا يرتلونه من الذاكرة بحيث كانوا يجمعون بمحض اختيارهم بين الآيات والعبارات التي تجرى بها ألسنتهم في سهولة كبيرة ، وذلك تقريبا على نحو ما يجمع رجال الدين الآن بين آيات التوراة وبين الأغاني الدينية . ولم يكن من المهم أن تكون هذه الآيات متجانسة دائما في موضوعاتها تمام التجانس ، طالما هي في مجموعها تتحدث عن أشياء متشابهة ؛ وغاية ما كان يعنى به أن يكون لما يتلى جمال ورنين موسيقى . ولم يكن مما يعيب أن كثيرا من هذه الأوراد المختارة ليست — بالتحقيق — معدّة في الأصل للموتى ، فمن

---

(١) وعلى نحو مالاحظ برستد(Breasted, Development)يبدو أن معظم هذه الأوراد نشأ في الوجه القبلي ، وخاصة تلك الأوراد التي يعتبر فيها الوجه البحرى بلادا معادية (الأوراد ٢٣٩ ، ٢٧٤ ، ٥٧٤ ، ٦٨١) . وعلى عكس هذا نشأ الوردان ٢٢١، ٥٠٨ في الدلتا ، والورد ٣٠٧ (وغيره كذلك بالتأكيد) في هليوبوليس .

(٢) إن الأوراد المذكورة في الملاحظة السابقة التي لايزال ملوك الوجه البحرى وتيجانهم يبدون فيها كأنهم كائنات معادية ، لابد أن تكون قد نشأت في ذلك العهد السحيق الذى كانت فيه مصر لا تزال تتألف من مملكتين منفصلتين . أما عن أغلب متون الأهرام فيمكننا أن نقول إنها كانت في أواخر الدولة القديمة ذات ماض طويل ، تعرضت فيه لتغييرات كثيرة . ولقد ظن بحق أن هذه التغييرات قد حدثت كذلك في العصر الذى سجلت فيه في المقابر الملكية ؛ أجل إنه يمكن أن تكون بعض المتون التي وردت في هرم نفر كارع ، والتي تنقص في هرم أوناس قد نشأت في القرن الذى يفرق بينهما .

(٣) يوجد هذا النص في مقدمة كل ورد للدلالة على أن الغرض إنما هو تلاوته .

الأوراد ما تعلق بملك حي وبمدى سلطانه [1] ، ومنها ما يبدو أنه كان يختص بالاحتفال بمدينة شيدها الملك [2] ؛ ومنها أوراد ضد السباع التي لم يكن على الميت ألا يخشى بأسها [3] ، غير أنها اضلت طريقها بين عزائم السحر ضد الأفاعي التي ربما كان للميت أن يخشاها في قبره .

وتدور الأوراد في متون الأهرام في مجموعها حول الملك المتوفى الذي ينبغي أن تعنى الآلهة بشخصه المقدّس بعد موته ؛ على أن من بينها كذلك أورادا كثيرة تدل في الأصل على مصير أكثر تواضعا ، فهي تتضمن ما يفيد بأن الميت يرقد في الأرض والتراب أو في الرمل [4] ، أي أنه ليس له قبر من اللبن على نحو ما كان للملوك القدامى وغيرهم من الأشراف [5] . وهناك ورد آخر يمتدح فيه الميت بأنه لم يذنب في حق الملك أبدا ، وبهذا لايمكن أن يكون الميت نفسه هو الملك [6] .

وفيما عدا ذلك ، لقد حرفت متون الأهرام في بعض أجزائها بسبب ميول وأغراض خاصة ، فقد أخذ أوزيريس مكانة إله الشمس وإلهة السماء ، وقد كانا من آلهة الموتى الأقدمين .

ومع هذه الصعاب جميعا ، فإن الأوراد الجنازية القديمة لاتكشف إلا عن القليل من التصوّرات الأولى ، ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك ، لأن أقدم مانعرف من أوراد يرجع حقا إلى عهد ذي حضارة معينة .

وكان معتقدا أن الموتى يقيمون في مقابرهم أو في عالم خاص بهم ، وكان موتهم فسّر بأن قوّة خاصة كانت تلازمهم في حياتهم ، وتسمى « الكا » ، قد هجرتهم . يستقبل كل إنسان هذه « الكا » عند مولده ، وذلك بأمر من الإله رع [7] ،

---

(١) الفقرة ١٨٣٧ من متون الأهرام .

(٢) الورد ٥٨٧ ، هل المقصود من ذلك المدينة التابعة للهرم ؟

(٣) الأوراد ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ من متون الأهرام .

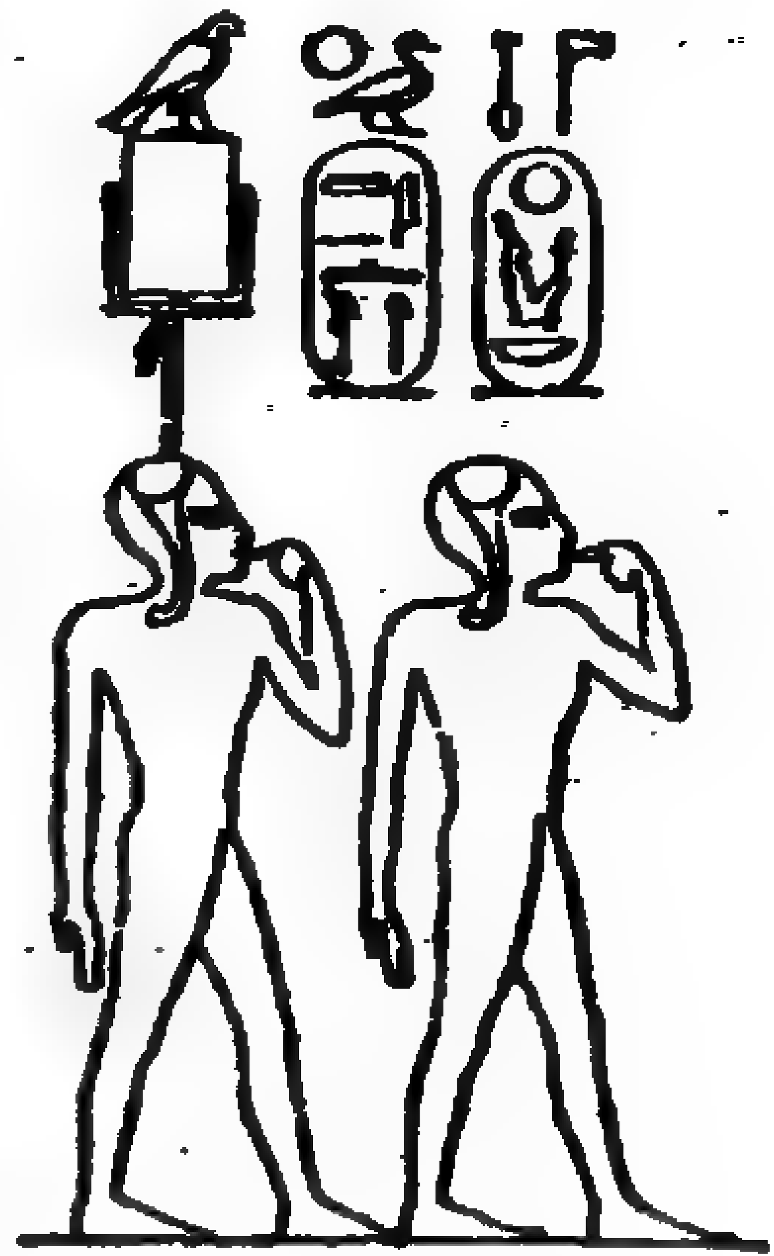
(٤) الفقرات ٦٥٤ ، ٧٤٧ ، ١٣٦٣ ، ١٧٣٢ ، ١٨٧٨ ، ٢٠٠٨ من متون الأهرام .

(٥) يبدو هذا شيئا مسلما به في الفقرة ٥٧٢ .

(٦) الفقرة ٨٩٢ من متون الأهرام .

(٧) Zauberspr. f. Mutter u. Kind, S. 26-27

وما دامت معه هذه الكا، وما دام هو « رب الكا » وأنه « يغدو معها » ، فهو حي يرزق [1] . ولئن كان أحد لايستطيع روئية هذه الكا ، فالمعتقد أنها تشبه صاحبها تماما



٨٣ — الملك امنحوتب الثالث طفلا ومن ورائه الكا (من معبد الأقصر)

وقد وزد أنه عند ما خلق إله الشمس في بداية نشأته أول الحين ، وذلك بأن تفلهما ، فقد « وضع ذراعيه من ورائهما » ، ففاضت عليهما الكا ، التي كانت له ، ودبت فيهما الحياة [2] . ولا بد أن وضع الذراعين على هذا النحو كان ذا صلة بمنح الكا ، لأن الذراعين الممتدتين كانا رمزا للكا منذ أقدم الأزمان . فإذا مات الإنسان هجرته الكا . على أنه كان يرجى منها أن تظل معنية بالجسد الذى سكنته أمدا طويلا ، وأن تكون إلى جانب الميت من وقت إلى آخر على الأقل ، وأن تبادر إلى مساعدته إذا دعاها [3] ؛ وقد جاء في كتابة متأخرة [4] : « إنك تعيش سعيدا أبدا وبجانبك الكا التى لك ؛ إنها لن تهجرك أبدا » .

لذلك كان ينعت القبر بأنه « دار الكا » ، كما كانت تقدم الأطعمة وفقا لصيغة القربان الشائعة إلى « كا » الميت . وقد طفقت تلك الفكرة الغامضة عن الكا تتطور فيما بعد ، فكانت الكا تعتبر تارة كأنها كائن إلهي ، كما يدل على ذلك رسم لفظها في اللغة المصرية القديمة ، وتارة كأنها الملاك الحارس ، الذى يهتم بالإنسان ، ويعنى بأمره ، وتارة كانت الكاهى التى تلد الابن [5] . وفى أحيان أخرى كانت « الكاوات

---

(١) انظر مثلا الفقرة ٩٠٦ من متون الأهرام (أصحاب الكاوات = الأحياء) L. D. III. 17 e كل الكاوات الحية = كل الناس) ؛ أثر سبك حتب فى اللوفر « إنه معافى وسعيد بما له من كا = إنه حى) .

(٢) Mar. Abyd. tabl. 16

(٣) فقرة ٦٣ من متون الأهرام .

(٤) Urk. IV 499.

(٥) Prisse 7, 11 (Litt. S. 91)

الحية » تعبيرا رشيقا يوصف به الناس [1] ؛ وتارة أخرى كانت الكاوات تعبر عن قوى الحياة ، أى عن الأطعمة [2] ، أو كانت سائر النعم التى يتصرّف فيها إله الشمس . وفضلا عن ذلك فقد كان لفظ الكا يحشر بكثرة فى مختلف التراكيب والجمل .



٨٤ — الروح
(برلين ٤٦٧٩)

وإلى جانب هذه الكا ، التى ظلت دائما كائنا غامضا غير محدود ، على كثرة دورانه على اللسان ، فكر المصريون فى الروح — وكانوا يسمونها « با » — وقد تصوّروها فى مختلف الأشكال . وهى إذ كانت تترك الجسد ، وتنفلت منه عند الموت ، فقد تخيلوها عادة كأنها طائر . وربما تمثلوا الميت المبكى عليه بين الطيور التى تستقرّ على الأشجار التى غرسها بنفسه من قبل . وقد فكر آخرون فى زهرة اللوتس التى تتفتح أكمامها وهى تطفو فوق سطح البحيرة أثناء الليل ، فراحوا يتساءلون عن الميت : ألا يتمثل فى هذه الزهرة ؟ وفكر فريق آخر فى الثعبان الذى يندفع من جحره فى غموض كأنه « ابن الأرض » أو فى التمساح الذى يزحف من الماء إلى الأرض كأنه ينتمى حقا إلى عالم الأرض . ومن ذا يعلم إن كانت الروح لاتستطيع أن « تتخذ هذه الأشكال » جميعا « وما تريد » من أشكال كثيرة أخرى . وأنها لاتستطيع أن تستقرّ اليوم هنا وغدا هناك « فى أىّ مكان تشاء » [3] ؟

أما من كان يسرح بفكره إلى أبعد من هذا . ويتفكر فى عالم الأحياء ، وفيما يمكن أن يكون إلى جانبه من عالم آخر مماثل للموتى ، فانه لم يكن ليلبث طويلا حتى يخطر بباله أين ينبغى أن يوجد عالم الموتى هذا . إنه كان يرى الشمس كل مساء تغيب فى الغرب لتبدو من جديد فى الشرق عند الصباح ، وعلى ذلك فلا بد أن تكون قد جابت فى الليل عالما سفليا ، أى سماء ثالثة من أسفل الأرض ، لذلك كان من

---

(١) Urk IV. 245

(٢) انظر مثلا : Tall Amarna II, 7; III, 16; Harris I, 44, 6

(٣) لا سبيل إلى الشك فى قدم هذه التصورات الشعبية وإن كانت لا تعرف إلا فى كتاب الموتى (الفصول ٧٧ — ٨٨) .

اليسير الادعاء بأن هذا العالم الذى لايدخله الأحياء هو عالم الموتى . وعلى نحو ماتصنع الشمس ذهب الظن إلى أن الموتى يهبطون فى الغرب ويعيشون فى عالم مظلم ، لايتألق فيه نور ، إلا إذا مضت من فوقهم الشمس فى رحلتها بالليل . وقد شاع هذا التصوّر بين المصريين فى وقت مبكر ، وأدى إلى تسمية عالم الموتى باسم « الغرب » ، وتسمية الموتى « بأهل الغرب » . وقد تصوّروا أحد آلهة الموتى القديمة حاكما على الغرب ، وهو « أوّل أهل الغرب » أو سكر من منف .

وواقع الأمر أن واحدة من هذه الصور التى للحياة بعد الموت لم تكن لتعتبر نهاية سعيدة ، فسواء قضى الإنسان حياته تحت الأرض أو فوق سطحها فى أشكال مختلفة ، فإن هذا لم يكن يعدو أن يكون وجودا محزنا وحياة غير صحيحة . لهذا تساءل منذ وقت مبكر ذووالأطماع الطامحون عن هذا المصير ، أهو نهاية كل إنسان حقا ؟ لئن كان إلى جانب الجمع الغفير من الفقراء والمساكين على سطح الأرض أغنياء وأصحاب سلطان ، فإن الجميع لايمكن كذلك أن يتساووا بعد الموت . حقا إنه لابد أن يكون هناك وجود أفضل ومقرّ أحسن للأرواح الممتازة « التى ينبغى أن تعيش وفقا لأمر الآلهة [1] » ، وخاصة للملوك الذين كانوا يعتبرون فى حياتهم كأنهم آلهة . لقد كان هذا المقرّ فى السماء حيث تصوّر المصريون عالما ثانيا للموتى ، أطلقوا عليه اسم دوات ، على أن هذا الاسم قد أصبح يطلق كذلك فى العصور المتأخرة على عالم الموتى السفلى .

وكان المصريون يرون النجوم تجوب الليل فى جلال سافر ، تتميز به سماء بلادهم ، وكانوا يعرفون منها بعضها ، مما كان له فى نفوسهم وقع خاصّ كالشعرى اليمانية والجبار ونجمة الصباح ؛ وقد ذهب الرأى بهم إلى أنها آلهة تركت الأرض على نحو ما فعل إله الشمس . أما هذا العدد الذى لايتناهى من النجوم التى لا اسم لها ، والتى تحيط بتلك النجوم القليلة فما عساه يكون ؟ لانزاع فى أن هذه النجوم ماهى إلا موتى أو أرواح سعيدة وجدت طريقها إلى السماء حيث ظلت فى سناء دائم إلى جانب الآلهة . لقد مدّ إليهم يده « الإله العظيم ، سيد السماء » (أى الإله رع) ، أو لقد

---

(١) متون الأهرام فقرة ٨٢١ .

أخذتهم إليها إلهة السماء [1] ونظمتهم بين « ما لايفنى » من نجوم جسدها ، وقد يتمثل الميت فى شكل « ذلك النجم الوحيد الذى يشرق فى الجانب الشرقى من السماء » [2] . والذى يجوب السماء فى صحبة الجبار والشعرى اليمانية [3] .

ولم يلبث أن شغل خيال الشعب فى حيوية وافرة بتزويق فكرة الوجود السماوى للموتى الممتازين . وفيما يلى من متون الأهرام مايعرض مدى مانشأ عن ذلك من صورة مرقشة متناقضة .

فالميت يطير فى شكل طائر إلى السماء : « إنه يغلو إلى السماء كالصقور وريشه كريش الإوز [4] ؛ إنه يندفع إلى السماء كالكركى ، ويقبّل السماء كالصقر ، ويقفز إلى السماء كالجرادة [5] . وهكذا يطير من بينكم أيها الناس ، إنه لم يعد على الأرض إنه فى السماء [6] ، إلى جانب إخوته الآلهة » ، حيث تمدّ إليه إلهة السماء يديها . « أى رع . إنه عند ما يصعد نحو السماء إليك برأس صقر وجناحى إوزّة . . . فإنه يحرّك الذراعين كالإوزّة . ويضرب بجناحيه كالطائر . أيها الناس ، إنه يطير من يطير هناك . وهذا يطير عنكم [7] . وفى السماء تقيمه الإلهة نوت عليها « نجما لايفنى [8] ، » إنها هى التى صنعت حياته . إنها هى التى ولدته ؛ إنه فى الليل يُحمل به ، وفى الليل يولد ؛ إنه ينتسب لأولئك الذين يقفون من وراء رع ، ولأولئك الذين يقفون من أمام نجمة الصباح [9] . إنه يبحر إلى الجانب الشرقى من السماء ، إلى المكان الذى تولد فيه الآلهة . والذى فيه يولد هو معهم . متجددة قواه ، عائدا إلى الشباب » [10] .

---

(١) ولما كانت نوت تعتبر كذلك حامية الموتى فقد كان يوجد فى الدولة القديمة كهنة « لأنوبيس ونوت » انظر L. D. II, 18 ff.; Kairo 1431

(٢) متون الأهرام فقرة ٨٧٧ .

(٣) متون الأهرام . فقرة ٨٢١ ، ٨٢٢ .

(٤) متون الأهرام ، فقرة ٩١٣ .

(٥) متون الأهرام ، فقرة ٨٩١ .

(٦) متون الأهرام ، فقرة ٨٩٠ .

(٧) متون الأهرام ، ٤٦١ ، ٤٦٣ .

(٨) متون الأهرام ، فقرة ٧٨٢ .

(٩) متون الأهرام ، فقرة ١٣١ — ١٣٢ .

(١٠) متون الأهرام ، فقرة ٣٥٣ .

أجل إنه يلتقى بضروب مختلفة من الآلهة والنجوم تستطيع اعتراض سبيله ، على أن أحدا لايستطيع أن يصدّه عنه : « فليس هناك إله يمسكه دون سبيله ، وليس هناك معترض يعترضه فى طريقه[1] » . وقد يسأله ثور عظيم وهو يهدده بقرنيه : « أين يذهب إذن ؟ » فيكون الجواب على ذلك : « إنه يذهب إلى السماء وقد ملىء بقوى الحياة ليرى أباه ، ليرى رع » ، وبهذا يدعه ذلك الكائن المخيف يمضى إلى سبيله [2] . ويتلقى إله الشمس ، ساكن السماء الجديد فى عطف ومودّة ، ويقول له : « إنى أمنحك منطقك وجسدك ، وإنك لتتخذ شكل إله [3] » « ويجعل جسده يضىء » كأجساد أهل السماء [4] ، ثم يدعه يجدف فى سفينته الخاصة [5] ، أو يهيئ له مكانا فى « مقدمها ويبحر به القائمون على الدفة الذين يبحرون برع » [6] ؛ وقد يجعله على رأس مجدفيه [7] ، بل قد يطرد كاتبه السماوى الخاص ، ويجعل الميت « فى مكانه » [8] ، « ليقضى ويكون فيصلا ، ويعطى الأمر إلى من هو أعظم منه » [9] . وهكذا يبحر عبر السماء رفيقا لإله الشمس ، « فيبتهج كل إله عندما يدنو » [10] . وحتى تحوت إله القمر فإنه يعين الميت مثل هذا العون ، فيأخذه فى سفينته بالليل وهكذا « يجوب السماء مثل رع ، ويجوب السماء مثل تحوت [11] » .

وهذه المغالاة فى تصوّر ما للميت الممجّد من سلطان فى السماء . كما يتجلى فى كثير مما سقناه من عبارات ، تطالعنا فى صورة أقوى فى أوراد أخرى من متون

---

(١) متون الأهرام . فقرة ١٢٣٧ .
(٢) متون الأهرام ، فقرة ٩١٤ ، ٩١٥ .
(٣) متون الأهرام ، فقرة ٧٦٢ .
(٤) دعاء الشمس فى Mar. Abyd. II, 14
(٥) متون الأهرام ، فقرة ٨٨٩ .
(٦) متون الأهرام فقرة ٧١٠ — ٧١١ .
(٧) متون الأهرام ، فقرة ٩٢٢ .
(٨) متون الأهرام ، فقرة ٩٥٤ ، ٩٥٥ .
(٩) متون الأهرام ، فقرة ٧١٢ ، ٧١٣ .
(١٠) متون الأهرام . فقرة ٩٢٣ .
(١١) متون الأهرام ، فقرة ١٣٠ .

الأهرام . فالملك المتوفى ليس بإنسان ، إذ « آباؤه ليسوا من البشر ، وأمهاته لسن من الناس »[1] ، وإنما هو بعبارة بسيطة إله ، إنه تحوت « أقوى الآلهة »[2] ، أو هو « أونج (أى شو) ابن رع ، الذى يحمل السماء ويزعم الأرض ويقضى بين الآلهة[3] . طوبى للذين يرونه وهو متوّج بحلية رع وعليه نقبته كحاتحور[4] . إنه يغدو إلى السماء فيجد رع واقفا . . . فيجلس إلى جانبه ، ولا يسمح له رع بأن يرتمى على الأرض ، لأنه يعلم حقا أنه أعظم منه »[5] ، كما يعلم أن هذا « الممجد الذى لا يفنى » هو ابنه ، فيبعث الرسل من الآلهة ليعلنوا إلى سكان السماء ، أنه قد ظهر لهم ملك جديد : « أى ست ونفتيس ! أسرعا وأعلنا إلى آلهة الجنوب وممجديهم : « قد أتى ممجد لا يفنى : إنه إذا شاء لكم الموت فإنكم تموتون ، وإذا شاء لكم الحياة فإنكم تعيشون ». وعلى نحو مماثل ينبغى أن يتجه أوزيريس وإيزيس إلى الشمال وتحوت إلى الغرب وحورس إلى الشرق ، ثم يقال بعد ذلك : « أى رع أتوم ، إن ابنك يغدو إليك ، إنه يغدو إليك ، إنك تسكنه عندك وتضمه بين ذراعيك ، إنه ابنك من جسدك إلى الأبد »[6] .

وتصحو الآلهة من نومها مذعورة : « من الطائر العظيم الذى يأتى من النيل ، من الإله ابن آوى الذى يخرج من شجرة الأثل »[7] ، وذلك لأن الميت قد ظهر بينهم فجأة كما يخرج الطائر من الماء ، وكما يمرق ابن آوى من الأجمة .

---

(١) متون الأهرام ، فقرة ٨٠٩ .

(٢) متون الأهرام ، فقرة ١٢٣٧ – إن من يرى فى هذه التمجيدات المسرفة للميت المبرور « رقى سحرية » ، من شأنها أن تحمل من الملك المتوفى إلها ، فإنه يخطئ فهم الطابع الشعرى لهذه النصوص . وتعاويذ الثعابين فى متون الأهرام تعرفنا بما فيه الكفاية كيف تبدو رقى السحر الحقيقية .

(٣) متون الأهرام ، فقرة ٩٥٢

(٤) متون الأهرام ، فقرة ٥٤٦ .

(٥) متون الأهرام ، فقرة ٨١٢ – ٨١٣ .

(٦) متون الأهرام ، فقرة ١٥٣ – ١٦٠ .

(٧) متون الأهرام ، فقرة ١٢٦ .

ويبلغ الإغراق فى المغالاة أبعد مداه فى النص التالى [1] ، الذى يصوّر فيه الخيال الجامح الميت كصائد يتصيد نجوم السماء ، ويلتهم الآلهة والممجدين : « إن السماء لتمطر ، وإن النجوم لتصطرع ، والسهام لتضل طريقها هنا وهناك ، وعظام اكرو ترتجف . . . وقد رأته يبدو وله روح كأنه إله ، يعيش على آبائه ويتغذّى بأمهاته . . . إن جلاله فى السماء ، وقوّته فى الأفق ، على نحو أبيه أتوم الذى ولده ، إنه ولده أقوى منه هو نفسه . . . إنه هو الذى يتغذّى بالبشر ، ويعيش على الآلهة ، يصيدها له القابض على الهامات والإميثكحاو ، ويحرسها ويسوقها إليه ذو الرأس الجليل ، ويقيد ها له حرى – تروت ، ويطعنها له ويستخرج مافى بطونها الراكض ذو السكاكين العديدة . . . ويقطّعها له شسمو ، ويطبخ منها فى قدور المساء إنه هو الذى يأكل سحرهم ، ويبتلع أرواحهم . إن كبارهم لطعامه فى الصباح ، وأوساطهم لأكلة المساء ، وصغارهم لعشائه بالليل . أما الشيوخ والعجائز منهم فلوقوده ، على حين يلقى عظماء السماء الشمالية النار من تحت القدور ، التى تحتوى على أفخاذ شيوخهم » . وهذا الطعام الكريه يفيده ، لأنه « يأكل أحشاءهم المكتظة » فينعم بالشبع ، ويأكل قلوبهم وتيجانهم . فيكسب بذلك قوّتهم ، « ويستقرّ سحرهم فى جسمه ، ويبتلع عقل كل إله » – وهذه كلها تصورات لها ما يماثلها عند أكلة لحوم البشر .

وهذه الأوهام بطبيعة الحال أمور شاذّة ، بل إنه لمن الصعب أن نعتبر الاعتقاد فى مصاحبة المتوفى للإله رع فى سفينة الشمس ، على كثرة وروده ، اعتقادا شعبيا حقا . فحسب العقيدة الشعبية يتخذ الممجدون فى الغالب مقرّا ثابتا « على الجانب الشرقى للسماء فى الجزء الشمالى بين ما لايفنى [2] » أو « عند الممجدين الذين لا يفنون والذين هم فى شمال السماء [3] » أو « فى شرق السماء [4] » . ولعلّ المصريين قد قصدوا

---

(١) متون الأهرام ، فقرة ٣٩٣ وما بعدها – أكرو هو إله للأرض ، أما الكائنات الأخرى المذكورة هنا فهى كما هو واضح بروج النجوم ، وربما كان المقصود بالأقواس قوس قزح .

(٢) متون الأهرام ، فقرة ١٠٠٠ .

(٣) متون الأهرام ، فقرة ١٢٢٠ .

(٤) متون الأهرام ، فقرة ٩١٦ .

بذلك منطقة القطب الشمالى الواقعة فى الشمال الشرقى ، والتى يمكن اعتبار نجومها مما « لايفنى » حقا ، لأنها لاتختفى كغيرها من السماء [1] .

وزاد الشعب فى صورة مقرّ الأبرار . فتصوّره كأنه مجموعة من الجزر تحيط بها المياه المختلفة ؛ ومن السهل أن يتصوّر الإنسان أن نهر المجرة الباهت اللون ، الذى تحيط شعابه مساحات قاتمة ، هو الذى أوحى بهذا التصوّر . وتسمى إحدى هذه الجزر « حقل الأطعمة » ، وهى بهذا الاسم إنما تدل على أن الطعام فيها وفير . ومن ثم يستقر فيها الآلهة والمخلدون . وأزكى منه شهرة « حقل يارو » ، وهو حقل الأسل الذى ظل المصريون حتى عصورهم المتأخرة يعتبرونه مقرّ الممجدين . ومما لايحتاج إلى بيان أن المصريين قد تصوّروا هاتين الجنتين على شاكلة بلادهم نفسها ، إذ يغمرهما الفيضان ويزدهر فيهما الزرع بما يوفر للموتى طعامهم ، وذلك لأن الآلهة والممجدين فى السماء لايستطيعون كذلك الحياة بغير طعام . وفى الشرق من السماء « شجرة الجميز السامقة ، التى تجلس عليها الآلهة [2] . وهى شجرة الحياة التى يعيشون عليها [3] ، والتى يغذّى ثمرها الأبرار أيضا . إلى جانب ذلك فإن إلهات السماء تزوّد الميت بطعام أصرح طهرا وبراءة . فإذا أتى إلى نوت أو الحية التى تحمى الشمس ، تحييه كل منهما كأنه ابنها . « وتعطف عليه وتدنى له ثديها لترضعه » ، وهكذا يعيش ويعود من جديد « طفلا » [4] . وهو يذهب « إلى والدتيه الرحيمتين ذواتى الشعر الطويل والثُدِىّ الناهدة ، واللتين تجلسان على جبل سحسح ، فتمدان ثديهما إلى فمه ولا تفطمانه أبدا » [5] . على أن الذى لا يستطيع التخلى عن عادات عالم الأرض ، له أن يطمع فى أطعمة أخرى وفى حياة طبيعية « إنه يتلقى نصيبه مما فى شونة الإله العظيم ، ويلبس من الثياب

(١) وفق ما أخبر به بورخارت .

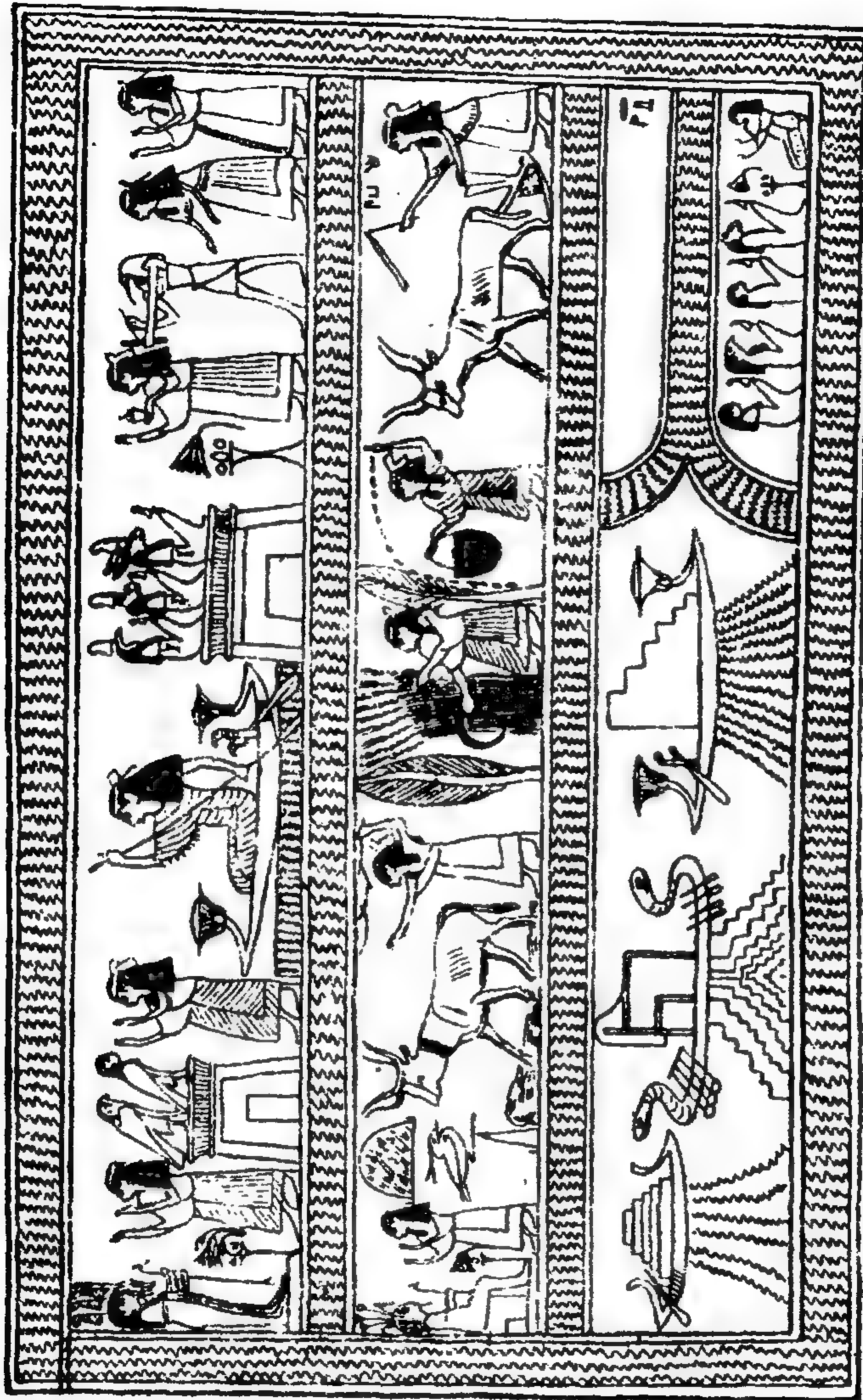
(٢) متون الأهرام ، فقرة ٩١٦ .

(٣) متون الأهرام ، فقرة ١٢١٦ .

(٤) متون الأهرام ، فقرة ٩١١ ، ٩١٢ ، ١١٠٩ .

(٥) متون الأهرام ، فقرة ١١١٨ .

ما لايفنى » ، وله من الخبز والجعة ما يبقى أبدا [1] : « وهو يأكل وحده خبزه » ، ولا يضطرّ لأن يعطى منه شيئا إلى « ذلك الذى يقف من ورائه » [2] ، « وطعامه بين



٨٥ — حقل يارو ، من بردية جنازية للسيدة وقد مثلت عليها وهى تفلح الأرض وتمخر عباب اللجة وتدعو الآلهة (برلين ٣٠٠٨)

الآلهة وشرابه النبيذ على نحو شراب رع » [3] « وإن يأكل رع يعطه ، وإن يشرب يعطه مما يشرب . إنه ينام كل يوم فى صحة وعافية . . . إنه اليوم أفضل منه أمس » [4] .

---

(١) متون الأهرام ، فقرة ١١٨٢ : ١١٧٧ .

(٢) متون الأهرام ، فقرة ١٢٢٦ .

(٣) متون الأهرام ، فقرة ١٣٠ .

(٤) متون الأهرام ، فقرة ١٢٣ ، ١٢٢ .

وهكذا يطيب الأمر « للممجدين أولى الفم الموهوب »[1] . إنهم لن يضطروا « لأن يأكلوا الجوع ويشربوا العطش »[2] ، ولن يخشوا أن يرغموا يوما على أن يأكلوا العذرة مما كان يثير عند المصريين دائما الخوف والفزع[3] .

على أنه لم يكن من اليسير أن يوفق كل إنسان فى بلوغ حقول الأبرار تلك ماراً « بالطرق الجميلة التى فى السماء »[4] ، وذلك لصعوبة اجتياز المياه التى تحيط بها ، لهذا كان من الناس من كان يأمل فى عطف الطيور المقدسة كصقر حورس وأبى منجل — وهو الطائر المقدس للإله تحوت — راجيا أن تنقله إلى هذه الحقول : « يا مخلبى حورس ، ويا جناحى تحوت ، اعبرا به ولا تتركاه دون أن يعبر ! »[5] . ومنهم من كان يرجو أبناء حورس ، الذين تحدثنا عنهم آنفا صفحة ٨٤ ، أن يأتوا له بقارب[6] ، أو يتجه إلى إله الشمس نفسه ليعبر به فى سفينته[7] . غير أن أغلبهم كان يعتمد على نوتى يسمى « الملتفت إلى ورائه » و « المستدير بوجهه » . ذلك لأنه إذا وقف فى مؤخر قاربه ليحرك المجداف اضطر إلى أن يدير رأسه . وهذا النوتى هو الذى يعبر بالآلهة فى قاربه[8] . وهو الذى يقوم كذلك للميت بهذا الصنيع . على أنه فى واقع الأمر لايؤديه لكل إنسان ، لأن « نوتى حقل يارو » هذا لاينقل غير « الرجل القويم الذى لاقارب له » والذى وجد مقسطا « أمام السماء والأرض » وأمام الجزيرة نفسها[9] . وفى هذا أثر ملحوظ للشعور الخلقى فى ذلك الزمن القديم ، ومع ذلك فهذا الأثر ليس بالوحيد من نوعه فى متون الأهرام . فإذا

---

(١) متون الأهرام ، فقرة ٩٣١ .
(٢) متون الأهرام ، فقرة ١٣١ .
(٣) متون الأهرام ، فقرة ١٢٨ .
(٤) متون الأهرام ، فقرة ٨٢٢ .
(٥) متون الأهرام ، فقرة ١١٧٦ .
(٦) متون الأهرام ، فقرة ١٢٢٧ .
(٧) متون الأهرام ، فقرة ٦٠٧ .
(٨) متون الأهرام ، فقرة ٣٨٣ .
(٩) متون الأهرام ، فقرة ١١٨٨ .

قيل عن الميت إنه « ما من شرّ ارتكبه » فإن هذه العبارة تصعد إلى إله الشمس ، فيستقبله استقبالا حسنا [1] . « وإذا لم يتقوّل السوء على الملك » ولم يحتقر الآلهة فإن فى هذا أيضا ما يزكيه فى السماء [2] . ومع هذا فإن الآلهة تتطلب عادة من الزميل الجديد فى السماء طهارة الجسد أكثر من غيرها ، وهى نفسها تساعده فى هذا السبيل . فالآلهة التى تشرف على المياه الجائشة فى إليفانتين تطهره بأربعة قدور من الماء [3] ، أو « إنه يغتسل مع رع فى بحيرة يارو ، ثم يجفف حورس جسده ، ويجفف تحوت قدميه [4] » .

وإلى جانب التصوّرات التى عرضناها هنا عن الحياة بعد الموت ظهر تصوّر آخر لم يكن له فى البداية إلا مركز ثانوى ، غير أنه لم يلبث مع الزمن أن ساد سائر ماعداه ، ألا وهو عقيدة الإله المتوفى أوزيريس ، الذى غدا ملكا للموتى أجمعين ، ومثالا يحتذونه [5] .

وقد رأينا فيما مضى ما حاكته الأسطورة حول إله أبو صير القديم وكيف أصبح مصيره المؤثر — من موته وبعثه — شائعا بين سائر المصريين ، عزيزا على قلوبهم ، حتى لقد برز أوزيريس فى كل مكان على آلهة الموتى القديمة أو حلّ مكانها ، وغدا الملك الوحيد للمتوفين جميعا وسيد مملكة الموتى . على أنه وجد فى أبيدوس وطنا ثانيا ، حيث أخذ يقوم بدور « أول أهل الغرب » ، ومن ثم غدت هذه البلدة مركز عبادته .

ولم يكن قيام ملك على الموتى بالأمر الجوهرى ، وإنما الأثر الحاسم على تطوّر العقائد الجنازية فى مصر يتجلى فى أن المصريين قد رأوا فى الوقت نفسه فى الإله

---

(١) متون الأهرام ، فقرة ١٢٣٨ .

(٢) متون الأهرام ، فقرة ٨٩٢ .

(٣) متون الأهرام ، فقرة ١١١٦ .

(٤) متون الأهرام ، فقرة ٥١٩ .

(٥) لم يعثر فى مقابر الأسرات الأولى على ما يشير إلى وجود هذه العقيدة على وجه أكيد ، على أن هذا لايدل بطبيعة الحال على أنها لم تكن إذ ذاك عقيدة شعبية .

الميت مثالا للشخص المتوفى [1] . فالرجل الذى كان يدفن فى الأرض إنما يلقى المصير نفسه الذى تلقاه الإله ، فقد اضطرّ هو كذلك رغم أنفه إلى أن ينفصم عن الحياة وأن يخلف وراءه زوجته وأولاده . ألم يكن لمثل هذا الرجل أن يرجو أن يكون ما يلقاه بعد ذلك مماثلا لما تلقاه الإله ؟ « فكما أن أوزيريس حىّ حقا ، فسيحيا هو كذلك ، وكما أن أوزيريس لم يمت حقا فإنه هو أيضا لن يموت ، وكما أن أوزيريس لم يمحق حقا ، فإنه هو أيضا لن يمحق » [2] . إنه سيبعث فى هيئة أوزيريس ثان إلى حياة جديدةِ سعيدة ، وسيشبّ ابنه كحورس ثان ، وسينتصر على العدوّ الذى أتلف حياة أبيه ، كما انتصر حورس على ست ، وسيحمى بيته ويصون شرف اسمه .

وأهم من هذا كله أن الميت سوف يصحو ثانية على نحو ما بعث أوزيريس للحياة من جديد ، لا على شكل شبح خيالى ، وإنما فى بعث بجسد ، ذلك لأن الآلهة « جمعت » [3] معا عظام أوزيريس ، ثم « ضمّ رأسه إلى عظامه وعظامه إلى رأسه » [4] . وعلى هذا النحو سوف يجرى الأمر مع الإنسان الميت إذا اعتبر كأوزيريس جديد . إن عظامه لا تزال مبعثرة لا حراك فيها ، غير أن نوت ، أم أوزيريس ، لا تلبث أن



٨٦ — نوت تبسط جناحيها على أوزيريس (برلين ١٠٨٣٢) .

تقترب منه لتضمّ عظامه من جديد : « إنها تعطيك رأسك وتجلب لك عظامك ، وتجمع لك أعضاءك ، وتضع قلبك فى جسدك » [5] . إن جميع أجزاء شخصك تجد

---

(١) ربما كان الاعتقاد فى اتخاذ الميت شخصية أوزيريس قد نشأ فى أول الأمر بين الملوك على نحو ما يظن زيتا .

(٢) متون الأهرام ، فقرة ١٦٧ .

(٣) متون الأهرام ، فقرة ٦٢٣ .

(٤) متون الأهرام ، فقرة ٥٧٢ .

(٥) متون الأهرام ، فقرة ٨٣٥ .

سبيلها إلى جسدك : « وروحك المجدة وعافيتك تأتيان إليك كأنك إله يمثل أوزيريس ؛ إن روحك معك وعافيتك من خلفك [1] » . وستصاحبك من جديد الكا التى لك ؛ « وتأتى لك حياتك . . . وتأتى لك روحك المجدة يا أول المجدين وعافيتك يا أول الأحياء ؛ إن لك روحا سويا ذا الروح » [2] . وإن الآلهة لتقف من حولك وتناديك : « قم ، قف » [3] « فتصحو » . وإن جب ليفتح فمك لتستطيع الكلام من جديد [4] . وتحوت وحورس يوقفانك ويضعانك فى وسط الآلهة [5] . ومن ثم « يدعو حورس تحوت بأن يسوق إليك عدوك ثم يضعك فوق ظهره . خذ مكانك من فوقه . اصعد واجلس عليه » [6] . وتصيح الآلهة التسعة بالعدو فى سخرية وهو من تحتك : « احمل من هو أعظم منك » [7] .

فإذا انتصرت بهذا النحو على مضطهديك . فإن رع وحورس ينصبان لك سلما . « يقف أحدهما على هذا الجانب ويقف الآخر على ذلك الجانب » [8] ، ومن ثم « ترقى عليه إلى السماء [9] . ويفتح لك باب السماء وتنزع لك المزالج الكبار [10] . فتجد رع واقفا . . . فيأخذك من يدك ويقودك فى قصر (؟) السماء ، ويجلسك على عرش أوزيريس [11] . على عرشك هذا لتتولى حكم المجدين » [12] عند ذلك تجلس كأوزيريس . « وصوبجانك فى يدك ، لتصدر الأوامر للأحياء ومحجنك ؟ وسوطك فى يدك لتصدر الأوامر لذوى الأماكن الخفية [13] . ومن ورائك يقف خدم الإله ،

(١) متون الاهرام . فقرة ٧٥٢ ، ٧٥٣
(٢) متون الأهرام ٨٣٣ .
(٣) متون الأهرام ٨٩٥ .
(٤) متون الأهرام ٦٢٦ .
(٥) متون الأهرام ٩٥٦ .
(٦) متون الأهرام ٦٥١ ، ٦٥٢ .
(٧) متون الأهرام ٦٢٧ .
(٨) متون الأهرام ٤٧٢ .
(٩) متون الأهرام ٩٧٤ .
(١٠) متون الأهرام ٥٧٢ .
(١١) متون الأهرام ٧٥٧ .
(١٢) متون الأهرام ٥٧٣ .
(١٣) متون الأهرام ١٣٤ .

ومن أمامك يقف نبلاء الإله وينادون : تعال أيها الإله ! تعال أيها الإله ! تعال ياصاحب عرش أوزيريس ! إيزيس تخاطبك ،ونفتيس تحييك ، والممجدون يسعون إليك راكعين ليقبلوا الأرض عند قدميك [1] . ها أنت ذا فى كنف الحراسة ، متحليا كإله ، متخذا شكل أوزيريس على عرش أول أهل الغرب . إنك تفعل مافعله بين الممجدين والمخلدين . أما ابنك فيقوم على عرشك متخذا شكلك . إنه يفعل ما اعتدت أن تفعل من قبل ، هو أول الأحياء كما أمر رع . إنه يزرع الشعير ويزرع القمح ويهدى إليك منهما [2] » . أما أنت فإنك « بجعل بيتك يزدهر من بعدك وتصون أبناءك من كل ضير » [3] .

هذا هو المصير الذى ينتظر الأتقياء الذين يعبدون أوزيريس ، حقا إنه لابد أن يغادروا هم أيضا الأرض ، ولكنهم « لايذهبون أمواتا بل يذهبون أحياء » [4] ، وهم لايحيون بعد الموت حياة الأطياف والأشباح فحسب ، وإنما يُبعثون لحياة حقيقية جديدة . يحرزون فيها أجسادهم وأرواحهم : « فلهم قلوبهم ، ولهم أرواحهم ، ولهم أفواههم . ولهم أرجلهم . ولهم أذرعهم ، ولهم سائر أعضائهم » [5] .

ولا يعرف متى بدأت هذه العقيدة تنتشر بهذا الشكل فى الشعب المصرى ؛ على أنه مهما يكن من أمر فانها ترجع إلى زمن قديم جدا ؛ وذلك لأن الأوراد التى يتخذ فيها الميت شخص أوزيريس توجد بكثرة فى أقدم ما حفظ لنا من أدب جنازى ألا وهو متون الأهرام . أجل هذه إن الأمثلة من متون الأهرام إن هى فى بعض أجزائها إلا حياكة جديدة لأوراد قديمة ، فقد اعتاد المصريون الصيغ القديمة حتى إنهم لم يشاءوا الاستغناء عنها فى العقيدة الجديدة . فإذا كان قد جاء فى ورد قديم ذى انتشار كبير : « تقول الآلهة : سعداء من يرون ، وطوبى لمن ينظرون ، كيف يصعد هذا الإله إلى السماء . . . وعليه روحه ومعه قوته وبجانبه سحره . إنك تصعد إلى السماء

---

(١) متون الأهرام ٧٥٤ ، ٧٥٥ .

(٢) متون الأهرام ٧٥٩ — ٧٦١ .

(٣) متون الأهرام ٨٢٩ .

(٤) متون الأهرام ١٣٤ .

(٥) Totb. ed Nav. 68, 4-5

وتدخلها » الخ [1] ، فقد جاء فى الصياغة الجديدة : « تقول إيزيس : سعيد من يرى الأب » وتقول نفتيس : طوبى لمن ينظر إلى الأب ، إلى أبيه ، إلى أوزيريس حينما يصعد إلى السماء بين النجوم ، بين المخلدين ، وعلى رأسه القلنسوة ومعه القوّة وبجانبه السحر . إنه يسرع إلى أمه نوت ويدخلها » الخ [2] . فالصيغة الأولى تعرض رحلة الملك المتوفى إلى السماء : كأنه إله جديد يدخل السماء ويثير دهشة الآلهة القدامى (انظر صفحة ٢٤١) . أما الصيغة الثانية فقد أضيف فيها إلى اسم الملك اسم أوزيريس، واستحالت السماء إلى أمه نوت ، وصارت الآلهة هى إيزيس ونفتيس ، وبهذا أصبح الورد يتعلق برحلة أوزيريس إلى السماء ، على أنه لم يفد من ذلك فى حقيقة الأمر جلاء أو جمالا .

وأسوأ من هذا طريقة التصرّف فى ورد قديم يشيد بإلهة السماء التى حملت معها الآلهة عند صعودها فى أجواز الفضاء . وقد جاء فى إحدى آياته : « أى نوت إنك متوّجة كملك ، لأنك تتسلطين على الآلهة وعلى أرواحهم وتراثهم وطعامهم وسائر ما يملكون [3] » ، فحرف هذا فى غير صعوبة وأصبح يقال : « أى أوزيريس ، لقد توّجت ملكا لمصر العليا والسفلى ، لأنك تتسلط على الآلهة وعلى أرواحهم » [4] ، مع أن أوزيريس الطيب لم يصعد بالآلهة من الأرض . عدا هذا يلاحظ أن فى هذا التحريف كان لابد للكلمة القديمة ، التى نشأت فى مصر السفلى ، والتى تعنى الملك أن تترك مكانها للقب الفراعنة الرسمى ، وفى هذا علامة واضحة على حداثة عهد هذا التحريف .

وفى غير هذا كذلك لم يكن لانتشار عقيدة أوزيريس أثر حسن على الأدب الجنازى . فقد كان هذا الأدب لايخلو من التصوّرات المتنوّعة المتعارضة ، ومن ثم غدا خليطا مشوّها تماما . والنصّ التالى يعدّ مثلا جيدا لهذا الخلط :

---

(١) متون الأهرام ٤٧٦ وما بعدها .

(٢) متون الأهرام ٩٣٩ وما بعدها

(٣) متون الأهرام ٨٢٤ .

(٤) متون الأهرام ٧٧٦ .

« أصبح لحورس وقف ضد ست ، انهض أيها الابن الأول لجب ، يا من يرتعد أمامه التاسوعان ، ومن أجله تنصب المقاصير ... ومن أجله يحتفل بالفصول ... إنك تجوب أبيدوس فى شكلك الممجد هذا ، الذى قضت الآلهة بأن يكون لك ، وإنك لتصعد إلى الدوات حيث يكون الجبار . إن ثور السماء ليقبض على ذراعيك ، وإنك لتأكل من طعام الآلهة ... (رع) يضعك كنجمة الصبح وسط حقل يارو . وإن باب السماء المؤدى إلى الأفق ليفتح لك ، وإن الآلهة لتبتهج (؟) عند ما تقترب كنجم يعبر البحر من تحت جسم نوت فى جلالك هذا الذى قضى به رع . إنك تجلس على هذا العرش النحاسى كأنك عظيم هليوبوليس ، وذلك لكى تقود الممجدين وترضى ما لا يفنى »[1] . فأىّ خليط هذا ! إن الميت فى الجزء الأوّل من هذا النصّ هو أوزيريس ، أما فى الجزء الثانى فانه يبحر إلى الجبار ، نجم أوزيريس ، وفى الجزء الثالث هو نجم بجوار رع ، وفى الجزء الرابع يجلس على العرش ملكا على الموتى وعلى النجوم .

وكان هذا بداية الاضطراب ، فقد زادت فيه ، بطريقة مختلفة جدّ الاختلاف ، القرون التالية ، التى يرجع إليها معظم ما يسمى بمتون التوابيت وكتاب الموتى . وإنه من العجب حقا أن توهب الحياة السماوية ، التى ابتدعت أصلا للملوك ، لأىّ ميت آخر ، على أنه أعجب من هذا أن يصبح كل ميت إلها فى العالم السفلى[2] . وقد امتزجت بهذه الأفكار وغيرها مما تواتر عن الأزمنة القديمة واستحال لونه وأسيء فهمه ، ضروب مختلفة مما استحدث من تصوّرات عن مصير الموتى ، وعن مملكة أوزيريس . وبهذا نشأ خليط قلما يجدى فى أغلب الأحيان ترسم خطوطه . يضاف إلى هذا ما تمتاز به نصوص كتاب الموتى من طابع ، فقد كان معظمها يعتبر كأنها صيغ سحرية ، فلكى يتمّ للميت هذا أو ذاك ، عليه أن يتلو وردا يتخذ فيه شخصية أىّ إله ، اعتقادا بأنه بهذه الوسيلة يكتسب صفاته . فمن كان يتلو مثلا الورد التالى : « لقد مُنحت اسمى فى البيت العظيم ، وذكرى اسمى فى بيت اللهب ،

---

(١) متون الأهرام ٦١٠ .

(٢) Litt. 8. 316

فى تلك الليلة التى أحصيت فيها السنوات ، وحسبت فيها الشهور . إلى هناك ذلك الذى يجلس فى شرق السماء ، وكل إله لايتبعنى فسأخبر باسمه ! » فانه كان « يتذكر اسمه فى مملكة الموتى » [١] .

وما الخوف من أن لايعرف الميت فى العالم الثانى شخصه ، إلا أحد الشجون الكثيرة الغريبة ، التى كان على ما فى كتاب الموتى من سحر أن يعالجها . ومما كان يخشاه الميت كذلك ألا يكون له فم يتحدّث به مع الآلهة [٢] ، وأن يسلب منه قلبه [٣] وأن تقطع رأسه [٤] ، وأن يفسد جسده بالرغم من تحنيطه [٥] ، وأن تنتزع بعض الكائنات المعادية منه « مكانه وعرشه» [٦] ،وأن يضلّ طريقه « فيقع على مذبح الإله » أضحية تعيسة [٧] . وقد يعوزه الطعام والشراب ، فيضطرّ لأن يأكل من عذرته ويشرب بوله [٨] . فإذا وجد الماء حقا فقد يحدث أن يغلى إذا أراد شربه[٩] ، وفضلا عن ذلك فقد يعوزه الهواء [١٠] . وكان من شأن أوراد كتاب الموتى أن تساعد على هذه الأخطار وما يماثلها . فمما كان يساعد مثلا ضد الثعابين التى يمكن أن تعضّ الميت ، أن يخاطبها على النحو التالى : « أيها الأفعوان ، لاتقترب ! إن جب وشو يقفان حيالك . لقد أكلت الجرذان وهذا ما يعافه رع ، وعلكت عظام قطة متعفنة » [١١] ومما كان ينفع ضد أكل الأقذار هذا الورد: « . . . أنا من له الخبز فى هليوبوليس . خبزى فى السماء بجانب رع ، وخبزى على الأرض بجانب جب . سفينة المساء وسفينة

---

(١) Totb. ed. Nav. 25
(٢) نفس المرجع ص ٢٢ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٧ .
(٤) نفس المرجع ص ٤٣ .
(٥) نفس المرجع ص ٤٥ .
(٦) نفس المرجع ص ٤٧ .
(٧) نفس المرجع ص ٥٠ .
(٨) نفس المرجع ص ٥٣ .
(٩) نفس المرجع ص ٦٣ب .
(١٠) نفس المرجع ص ٥٦ .
(١١) نفس المرجع ص ٣٣ .

الصباح للشمس تجلبانه إلىّ من بيت الإله العظيم فى هليوبوليس »[1]

طوبى إذن لمن يكون بجانبه هذا السحر ، ويعرف كيف يحتفظ به ، لأنه يعرف الورد الذى يفيد ضد التماسيح التى تسلب الميت سحره[2] . ومعرفة سائر هذه الأوراد يفيد أيضا فى الحياة : « من يتلو هذا الورد على نفسه كل يوم يسلم على الأرض ، ويخرج من كل نار ولا يلقى سوءا أبدا »[3] .

ولا تظهر كل هذه الشجون التافهة ولا هذا السحر كله فى متون الأهرام[4] إلا قليلا . على أنه لابد أن كانت تسود الأوساط والعصر الذى جمعت فيه أوراد كتاب الموتى[5] رغبة متهوّسة حقا لإفادة الميت عن طريق السحر . إذ كان يجمع كل ما كان يبدو أنه سحر على أىّ نحو حتى ولو كان مقصودا به فى الأصل شىء آخر مختلف جدّ الاختلاف . وقد بلغ الأمر أقصاه فى عزائم السحر الحقيقية القديمة . ومن أمثلة ذلك ورد قديم كان الغرض منه - كما يدلّ عليه مضمونه بوضوح - تيسير ولادة النساء . الا أنه أصبح يستخدم كذلك للميت دون عناء كبير ، وإذ قد ورد فيه الكلام عرضا عن أحد الصقور . فقد ظنّ لذلك أنه لابد أن يساعد الميت على « أن يتخذ شكل الصقر »[6] .

وفى هذا كله يدل كتاب الموتى على طابع شعبى أقوى مما تدل عليه متون الأهرام . ولهذا تبرز فيه كذلك تصوّرات قديمة جدا تكاد تختفى فى تلك المتون . ذلك لأنها لم تكن تتفقّ مع الوجود السماوى الذى كان السادة العظماء يرجونه لأنفسهم.

---

(١) نفس المرجع ص ٥٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٣١ .

(٣) نفس المرجع ص ١٨ فى نهايتها .

(٤) فيما عدا الشجون الخاصة بالجوع والعطش لاترد أمثال هذه الأشياء فى متون الأهرام إلا قليلا (انظر ماجاء فى متون الأهرام ٩٦٣ عن الأعداء الذين يحولون بين الميت وبين أوزيريس) ، وتكاد تكون الأوراد ضد الثعابين هى وحدها التعاويذ السحرية .

(٥) لست أعتبر أن كتاب الموتى يشتمل على النصوص التى تظهر صدفة على برديات الموتى فى الدولة الحديثة فحسب ، وإنما هو يشتمل كذلك على النصوص المماثلة التى نعرفها من توابيت الدولة الوسطى ، أى « نصوص التوابيت » التى سبق الكلام عنها .

(٦) انظر الفصل الوارد فى Lacau, Recueil 27, 56-58

فالميت ، أو على الأصحّ روحه تودّ أن « تستحيل إلى كل ما يهواه القلب »[1] : إلى العنقاء ، وإلى مالك الحزين (بلشون) ، وعصفور الجنة ، والصقر ، واللدودة ، والتمساح . وزهرة البشنين (اللوطس)[2] ، وحتى إلى الإله بتاح نفسه[3] ؛ ويجب أن تتحد الروح مع الجسد من جديد[4] ، وأن تجد باب المقبرة مفتوحا[5] . وما من شيء ينبغي أن يردّها عن سبيلها لكي « تستطيع الخروج بالنهار » في أيّ شكل يعجبها[6] . وهذه الأمنية الأخيرة بالذات — وهي إقامة الميت بعض الوقت على الأرض بالنهار عند ما تضيء الشمس — هي الأمنية التي تلعب دورا كبيرا في كتاب الموتى ، حتى لقد أطلق فيما بعد على كتاب الموتى بأكمله « كتاب الخروج بالنهار » .

وفي بعض الأحيان تعمد الأرواح التي تترك القبر على هذا النحو ، إلى التدخل في حياة من خلفتهم وراءها من الأحياء ، وبهذا يمكن « للممجد » أن يكون ضيفا غير مرغوب فيه في هيئة طيف كما سنرى فيما بعد . ولهذا فمن أمانيّ الميت كذلك أن « يرحّب به » في بيته عند عودته إلى عالم الدنيا . ومن اليسير أن ندرك سبب تمني الموتى « الخروج بالنهار » ، وذلك لأن النهار هو أسوأ وقت عندهم ، إذ لاتضيء الشمس لهم بأشعتها إلا في المساء حينما تغرب . « عندئذ يفتحون عيونهم عند ما يشاهدون الشمس فتطفح قلوبهم بالفرح حين يرونها ، ويهللون عند ما تكون من فوقهم . إنها تمنح أنوفهم الهواء » . ويفرحون إذ يستطيعون مساعدة الشمس بنورهم فيمسكون الحبل المعقود بمقدم سفينة الشمس[7] ، ويجرّونها في العالم السفلي الذي لاتهب فيه أيّ ريح — وذلك على نحو ما يجرّ السفن في النيل حين تسكن الرياح .

على أنّ أهم من هذا كله هي فكرة ضرورة تبرير الميت ؛ وهي فكرة حديثة

---

(1) Totb. ed. Nav. 64

(2) نفس المرجع ص ٧٧ — ٩٨ .

(3) نفس المرجع ص ٨٢ .

(4) نفس المرجع ص ٨٩ .

(5) نفس المرجع ص ٩٢ .

(6) نفس المرجع ص ١٨ ، ٦٤ .

(7) Totb. 15 B II

النشأة . لقد رأينا فيما مضى أن ست قاضى أوزيريس المتوفى ، وأن الآلهة اجتمعت فى هليوبوليس لمحاكمته ، غير أنها « أحقت كلامه » أى أنها وجدته بريئا ، فبرّرته (صفحة ٨٨) . ويبدو من كتاب الموتى أن مثل هذه المحكمة قد اجتمعت كذلك فى أبو صير وبوتو وأبيدوس وهيراكليوبوليس وفى معبد سكر فى منف وفى أماكن مقدسة أخرى ، وكان تحوت فى كل منها هو الذى « برره » . وقد أدّى هذا التصوّر إلى أن أصبح يرجى أن يبرّر تحوت الميت كذلك بصفته أوزيريس جديدا ؛ وكما أن أوزيريس قد وجد محقا، فقد وجب لهذا أن يثبت كذلك أن الميت فى مملكة الموتى طاهر مبرأ من كل إثم — وإلا فكيف يمكن استقباله فى مملكة ذلك الإله الذى كان يدين بسلطته لبراءته من الخطايا ؟ وفى هذا مظهر خلقى وجد سبيله من أسطورة أوزيريس إلى العقائد المصرية ؛ ومنذ ذلك الوقت لم يعد الرجل القوىّ والشريف هو الذى ينتصر فى الموت ، وإنما هو الرجل المحقّ البرىء من كل ذنب .

وكان تصوّر أوزيريس قاضيا أمرا معروفا فى عهد الدولة القديمة ، فقد ورد فى نصوص إحدى المقابر حديث عن « الإله العظيم سيد القضاء » [١] . وفى مقبرة أخرى يعد الميت أنه سيكون يوما عونا فى محكمة « الإله العظيم » لكل من يدخل مقبرته فى طهارة تامة [٢] . على أن هذا التصوّر لم يبلغ تطوّره التامّ ولم يحظ بالاعتراف العام إلا فى الدولة الوسطى ، التى أصبح من المعتاد فى عهدها كذلك عدم ذكر اسم الميت دون أن يضاف إليه لفظ « المبرر » .

وقد أشار كذلك إلى محكمة الموتى ذلك الملك الشيخ [٣] ، الذى ترك تعاليمه لابنه مريكارع ، إذ حذره فيها من « القضاة الذين يفصلون فى قضايا المظلومين . إنك لتعلم أنهم غير رحماء فى ذلك اليوم الذى فيه يقضى للمسكين » . وفوق هذا أوصاه بألا يظن أنه لايزال هناك أمد طويل إلى أن تحين المحاكمة ، وأنه حتى ذلك الوقت سينسى كل شئ : « لاتثق بطول السنين ، فأنهم ينظرون إلى أمد الحياة كأنها ساعة

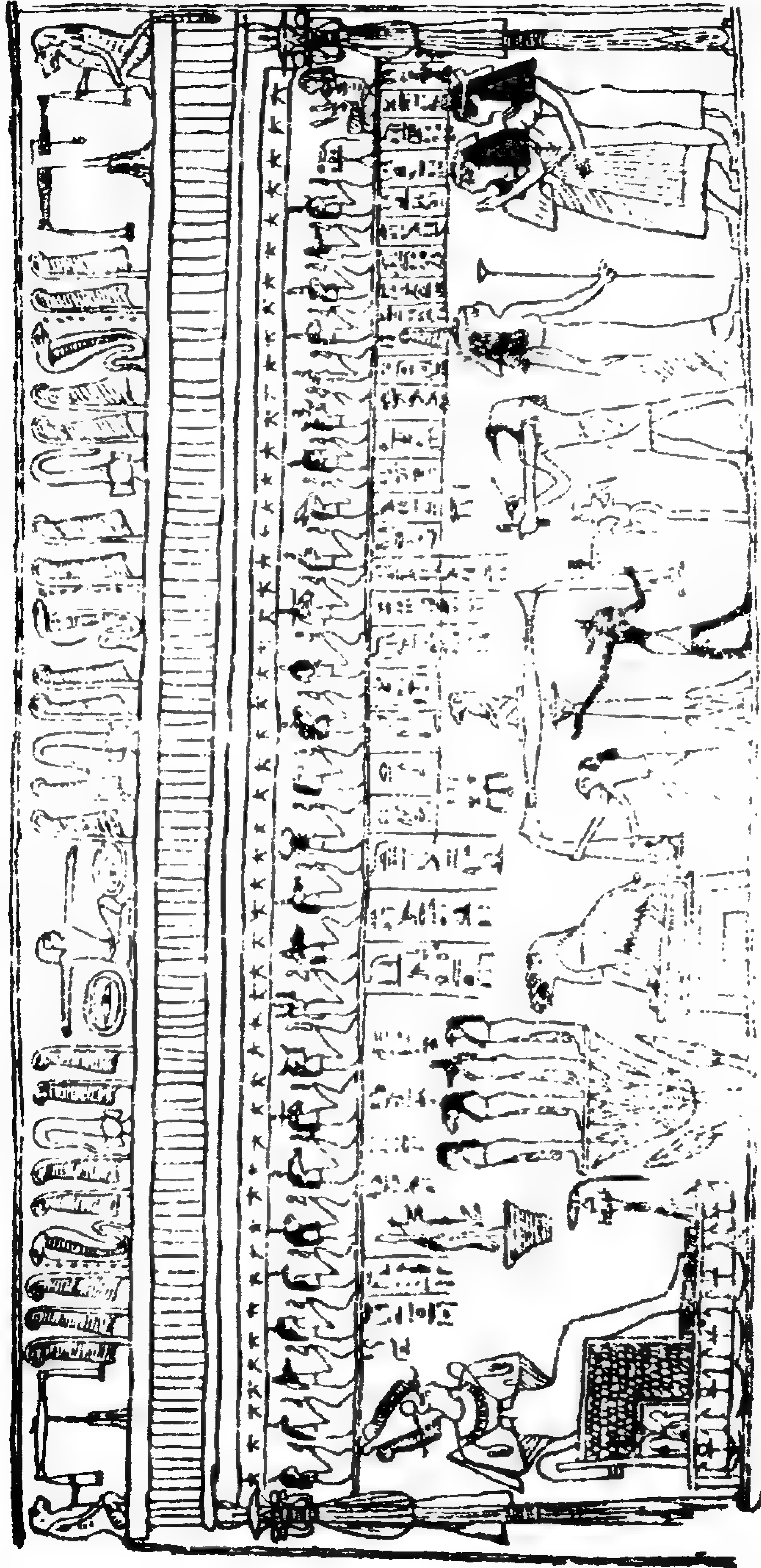
---

(١) Mar. Mast. D. 19

(٢) Urk. I 202

(٣) Litt. 8. 112.

وإن الإنسان ليبقى بعد الموت وستكوم أعماله إلى جانبه » . وستدوم إلى الأبد حياة الإنسان فى مملكة الموتى ، وإنه لأحمق من لايأبه بذلك . « أما من يأتى إلى قضاة الموتى مبرأ من كل ذنب فسيكون مثل إله ، ويسير حرّا طليقا كسادة الأبدية » .



٨٧ — محاكمة الميت . عن بردية جنازية لإحدى السيدات (برلين ٣٠٠٢) . من عهد متأخر ٢٠

على أن الشعب قد أفسد هذه الأفكار البسيطة الجميلة . وهو ما تدلّ عليه

الصورة والنصّ الحافل لما نسميه بالفصل ١٢٥ من كتاب الموتى . فى الصورة نرى بهوا كبيرا حُلِّيَ سقفه بلهب النيران وعلامات الحق ، وفيه مقصورة يجلس فيها أوزيريس على عرشه . ومن أمامه رمز أنوبيس وأبناء حورس وآكل الموتى ، وهو حيوان خرافى ، « تمساح من أمام ، وأسد من وسط . وفرس نهر من خلف » [١].
وفى أعلى الصورة ، أى فى مؤخرة البهو . يجلس قضاة أوزيريس المخيفون وعددهم اثنان وأربعون قاضيا ؛ ومن أسفل ، أى فى الجزء الأمامى ، الميزان العظيم يوزن فيه قلب الميت . وتستقبل إلهة الحق الميت وهو يدخل هذا البهو . ومن ثم يأخذ حورس وأنوبيس قلبه ويتحققان بالميزان إن كان أخف من علامة الحق . ويسجل تحوت كاتب الآلهة النتيجة على لوحة ، ثم يخبر بها أوزيريس . وأعجب من هذه الصورة ، ما ينطق به الميت عندما « يصل إلى بهو الحقيقتين هذا . وحينما يبرأ من كل سوء اقترفه ، وحينما ينظر إلى وجه الإله » . إنه يدعو الإله إذ ذاك على هذا النحو :
لك الحمد أيها الإله العظيم ، يارب الحقيقتين . لقد أتيت إليك سيدى لأشاهد جمالك ، إنى أعرفك وأعرف أسماء الآلهة الاثنين والأربعين الذين معك فى بهو الحقيقتين ، والذين يعيشون على المسيئين ويشربون دمهم يوم الحساب أمام ونفرى .
هأنذا أجىء إليك . أجلب الحقيقة وأطرد الإثم .
إنى لم أقترف إثما ضد البشر . . . ولم أفعل شيئا تمقته الآلهة ، ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوّع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل . ولم أدع إلى القتل ، ولم أسبب لأحد ألما ، ولم أقلل فى المعابد الطعام ، ولم أنتقص خبز الآلهة ، ولم أسلب طعام الممجدين ، ولم أفسق فى المكان الطاهر لإله مدينتى ، ولم أطفف مكيال الحب ، ولم أنقص مقياس الذراع ، ولم أزيف فى مقياس الحقل ، ولم أثقل فى مثاقيل الميزان ، ولم أزوّر فى لسان الميزان ، ولم أسلب اللبن من فم الطفل ، ولم أسرق الماشية من مرعاها ، ولم أصطد طيور الآلهة ، ولم أصطد الأسماك من بحيراتهم . ولم أمنع ماء (الفيضان) فى وقته ، ولم أسدّ على الماء الجارى . . . ولم أضرّ ما للمعابد من قطعان ، ولم أعترض الإله فى شىء من إرادته . ويلى هذا اعتراف ثان من نوع مماثل يدعى

---

(١) Totb. ed. Nav. 125; Vignette in Ag.

فيه لكل إثم بإله خاص — وما من شك فى أنه كان فى الأصل مستقلا بذاته ثم ألحق هنا فيما بعد . وبهذا أصبح الميت يقرّر براءته مرّتين : « يا صاحب الخطوة العديدة فى هليوبولس ! إنى لم أقترف ذنبا . يا حاضن اللهب فى خر — احاو ! إنى لم أنهب . أيها الأنف فى هرموبولس ، إنى لم أغش . يا آكل الظلال فى كررت ! إنى لم أسرق . يا صاحب الوجه المستدير فى روستاو ! إنى لم أقتل البشر . أيتها اللبوءة المزدوجة فى السماء ! إنى لم أطفف مكيال الحبّ . يا من عيناه سكينان فى ليتوبولس ! إنى لم أصنع شيئا معوجا . أيها اللهب فى ختخت ! إنى لم أسرق شيئا من ثروة المعبد . يا كاسر العظام فى هيراكليوبولس ! إنى لم أكذب » . ومن بين الذنوب الأخرى التى ينكرها الميت بعد ذلك أمام « صاحب الأسنان البيضاء ، وآكل الدم ، وآكل الأحشاء ، والضال » وغيرها من الكائنات المخيفة ، الذنوب التالية : « إنى لم أسرق طعاما . إنى لم أذبح الثيران المقدسة ؛ ولم أسترق السمع ، ولم أزن ، ولم أصمّ أذنى عن كلمات الحقّ ؛ ولم أدع أحدا يبكى ، ولم آكل قلبى (من الندم) ؛ ولم أسىء ؛ ولم أتكلم كثيرا ؛ ولم أسىء إلى الملك ؛ ولم يكن صوتى عاليا ؛ ولم أسىء إلى الإله » . وغير هذا كثير . ثم يقول الميت بعد ذلك للقضاة المخيفين : « الحمد لكم أيها الآلهة . إنى أعرفكم وأعرف أسماءكم ، ولا أقع أمام سيفكم . إنكم لن تبلّغوا عنى سوءا لهذا الإله الذى تؤلفون حاشيته ؛ إنكم لن تشغلوا أنفسكم بأمرى ؛ وإنكم ستقولون الحقّ عنى أمام سيد الكون ، لأنى عملت ما هو حقّ فى مصر ولم أسىء إلى الإله وليس للملك المعاصر ما يشغله بأمرى » .

« الحمد لكم أيها الآلهة ، يا من فى بهو الحقيقتين ، ومن ليس فى جسومهم بهتان . ويا من يعيشون على الحقّ . . . أمام حورس الذى يسكن فى قرصه . نجونى من باباى (انظر صفحة ٢٥٩) الذى يعيش على أحشاء العظماء فى يوم الحساب العظيم . هاأنذا أجىء إليكم بغير إثم وبغير سوء . . . . ؛ إنى أعيش على الحقّ وأتغذى على ما فى قلبى من حق . لقد عملت ما يقول به الناس وما ترضى عنه الآلهة . لقد أرضيت الإله بما يحب وأعطيت خبزا للجائع ، وماء للصادى ، ولباسا للعارى ، وقاربا لمن لاقارب له . لقد قدّمت القربان للآلهة ، والصدقات للممجدّين » .

«نجونى واحمونى ، إنكم لن تتهمونى أمام الإله العظيم . إنى رجل ذو فم طاهر ويدين طاهرتين ، يقول له من يراه « مرحبا مرحبا » » .

ومما يذكره الميت كذلك لتبرئته أنه « سمع تلك العبارة ، التى تبادلها الحمار مع القطة » . والغرض من هذا وغيره إنما هو التدليل على أن الميت كان خادما مخلصا لأوزيريس ، اشترك فى أعياده وتمثيلاته [1] .

والجائل بنظره فى هذه القائمة للذنوب التى لم ترتكب ، لايلبث أن يلاحظ أنه كان من الصعب على مؤلفيها أن يجدوا اثنين وأربعين إثما لعرضها على القضاة الاثنين والأربعين الذين حددت عددهم مقاطعات مصر الاثنتان والأربعون . ولهذا فكثيرا ما تتكرر هذه الآثام فى صيغ مختلفة ، أوتبدو فى عبارة عامة . والناحية الخلقية التى تنطق بها هذه الاعترافات بسيطة جدا على نحو ما أشرنا إلى ذلك من قبل (صفحة ١٧٨) .

ولا يدخل الموتى الذين يخفقون فى هـذا الامتحان فى مملكة أوزيريس ، وفى هذا حد الكفاية من البؤس والشقاء ، لأنهم يظلون فى مقابرهم يضنيهم الجوع والعطش ، ولا يشاهدون الشمس بنهار أوبليل . وكما أن المذنب يلقى فى محاكم الدنيا عقوبة خاصة ، لهذا تخيل المصريون — وإن يكن فى زمن متأخر على وجه التحقيق — بعض العقوبات للميت الذى لم يبرر . فالقضاة تحمل سيوفا لمعاقبة المذنب ، وكذلك تدل أسماؤهم على عقوبات مروعة ، والحيوان الواقف أمام أوزيريس « يلتهم الميت » ويمزقه ، وهو كائن مخيف بصفة خاصة يدعى باباى [2] ، لانعلم عنه خلا هذا شيئا . وفيما عدا هذا لانعرف شيئا كثيرا — إذ لم يكن ذلك موضوعا يميل إلى استقصائه خيال الشعب .

ولا نعرف كذلك شيئا كثيرا واضحا من كتاب الموتى عن مصير الميت المبرور . « إن له مقره أمام الإله العظيم . وإنه ليعرف ذلك الإله العظيم . . . وهو يخرج إلى

---

(١) من المحظورات الدينية الواردة على نصب رمسيس الرابع فى أبيدوس : « كسر البيضة وهى تتكون » و « صيد السباع فى عيد باستت » (وكان السبع حيوانها المقدس) . عدا هذا فن المحظور كذلك فى المعبد « القسم بتيس منديس » و « ذكر اسم بتاح تا ـ تنن » وذلك لأسباب لانعرفها .

(٢) ويسمى ببون بالإغريقية ، وهو زميل ست أو هو ست نفسه : Plutarch, De Iside, 49

حقل يارو . وهو يُعْطى الفطائر والخبز ، وحقلا طول الشعير والقمح فيه سبعة أذرع ، يحصدها له أتباع حورس (انظر الفصل السادس حيث أطلق عليهم الممجدون الأوائل) ؛ وهو يأكل من هذا الشعير وهذا القمح »[1] . وهو كذلك « يدخل ويخرج فى العالم السفلى ، ويسكن حقل يارو ، ويقيم وقتا فى حقل الطعام ، ذلك المكان الفسيح ، ذو الرياح الكثيرة ، حيث هو هناك قوىّ ممجد ، وحيث يحرث ويحصد ، ويشرب ويحب ، ويفعل سائر ما كان يفعل على الأرض »[2] .

وما تصوّره المصريون فى أزهى عصورهم عن مصير الموتى الأبرار ، تكشف لنا عنه الدعوات فى مقابر أشراف الأسرة الثامنة عشرة ، إذ يتجمع فى هذه الدعوات سائر ما يرجى للميت . فرئيس الشون خنمين يرجو لنفسه « مجدا فى السماء ، وقوّة فى الأرض ، وتبريرا فى العالم السفلى[3] ، ودخولا وخروجا فى قبرى — وأن أتبرّد فى ظله — وأن أشرب الماء فى كل يوم من بركتى — وأن تنمو أعضائى — وأن يمنحنى النيل الغذاء والطعام وسائر النباتات الطازجة فى إبانها — وأن أغدو وأروح على شاطئ بركتى كل يوم بلا انقطاع — وأن تحوّم روحى على أغصان الأشجار التى زرعتها — وأن أتبرّد تحت شجرات الجميز التى لى — وأن آكل الثمر الذى تنتجه — وأن يكون لى فم أتكلم به كأتباع حورس — وأن أصعد إلى السماء وأهبط إلى الأرض . لايعترضنى عائق فى الطريق — وألا يغلق أحد على الكا التى لى — وألا تحبس روحى — وأن أكون فى وسط أهل الثناء بين الموقرين — وأن أحرث مزرعتى فى حقل يارو — وأن أغدو إلى حقل الطعام — وأن يخرج الناس إلىّ بالقدور والخبز — وسائر أطعمة سيد الأبدية — وأن أتلقى غذائى من اللحم ، الذى على مائدة الإله العظيم » .

أما أهل باحرى ، أمير الكاب ، فهم يتمنون له ما يأتى : « إنك تدخل وتخرج بقلب جذلان وبما يكافئك به سيد الآلهة . . . إنك تغدو روحا حية ، ولك التصرف فى الخبز والماء والهواء . إنك تتخذ شكل العنقاء أو عصفور الجنة أو الصقر أو مالك

(١) Totb. ed. Nav. 99.

(٢) نفس المرجع ص ١١٠ المقدمة .

(٣) Louvre C. 55.

الحزين ، وذلك كما تشاء . إنك تعبر فى القارب ، ولن يردّك أحد . إنك تبحر على الموج إذا كانت هناك مياه . إنك تحيي من جديد ، فلا تغادر روحك جسدك ، إن روحك مقدسة مع الممجدين والأرواح الفاضلة تتحدّث معك . إنك بينهم وإنك (مع ذلك) لتتلّى ما يقدم على الأرض . لديك الماء ولديك الهواء ، ولك مما تهوى الشيء الوفير . لقد أعطيت عيناك لتنظر ، وأذناك لتسمع ما يقال ، وإن فماك ليتكلم ، وساقيك لتمشيان ، ويديك وذراعيك تتحرّك ، ولحمك ينمو ، وأوردتك سليمة ، وإنك لمعافى فى سائر أعضائك . إن قلبك الحقيقى بجانبك ، ولك قلبك القديم . إنك لتصعد إلى السماء وتدعى كل يوم إلى مائدة شراب ونفرى (صفحة ٩٠) . وإنك لتُلقّى الأطعمة التى تقدم إليه وصدقات سيد الجبانة » .

وإنهم ليرجون له فضلا عن ذلك : « إنك تأكل الخبز بجانب الإله عند السلم العظيم لسيد التاسوع ، إنك تروح وتغدو هناك وتصاحب أتباع حورس . إنك تصعد وتهبط دون أن يمنعك أحد . إن أحدا لايردّك عن باب الدوات ، وإن مصراعى باب الأفق ليفتحان لك ، والمزالج تتفتح لك من تلقاء نفسها . إنك تدخل بهو الحقيقتين ، فيحييك الإله الذى فيه . إنك تستقرّ فى مملكة الموتى وتجول فى « مدينة النيل » . إنك تفرح عند ما تحرث نصيبك من حقل يارو ؛ إن ما تحتاج إليه يوفره لك عملك ، ويأتيك حصادك قمحا . إنك تخرج كل صباح وتعود كل مساء ؛ ويوقد لك مصباح بالليل حتى تتألق الشمس (ثانية) على جسدك . إنه يقال لك « مرحبا » فى بيتك هذا ، بيت الأحياء . إنك تشاهد رع فى أفق السماء ، وترى أمون عند ما يشرق . إنك تصحو صحوا جميلا بالنهار وقد انتفى عنك كل سوء . إنك تجوب الأبدية فى ابتهاج ، ويثنى عليك الإله الذى فيك (أى ضميرك)[١] إن لك قلبك بجانبك وإنه لايتركك . إن طعامك حيث ينبغى أن يكون » .

ومن الدعوات الأخرى التى من هذا القبيل مايذهب إلى أبعد من هذا . فهى لاتكتفى بتمنى حقل فحسب يزرعه الميت بنفسه ، وإنما تتمنى حقولا وقطعانا وعبيدا من الرجال والنساء[٢] . ولا يكتفى الموتى فى هذه الدعوات بأن يبعث الجسد منهم

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر ص ١٧٧ .

(٢) Urk. IV 149, 15.

ثانية ، وإنما ينبغي أن يبعث فى شباب غضّ على نحو ما كان من قبل[1] . وإنهم ليرجون كذلك أن يسمح لهم – كما جرى الأمر فى حياتهم – بزيارة معبد إلههم المحلى رغبة فى الاستمتاع بالبخور وتقبل باقات الزهور التى تقدم للإله[2] .

وليس من اليسير كذلك على من يقرأ هذه الدعوات بعناية أن يصل إلى صورة واضحة عن حياة الموتى . وكل ما يمكن أن يستبين منها على وجه التقريب هو أن الميت يمضى فى القبر أو فى العالم السفلى ، وأنه يصحو فى الصباح ثم يترك قبره حينما يرى الشمس مشرقة ؛ وأنه يجثم على الشجر فى شكل طائر ، أو يتمتع فى أبيدوس بالحديث مع الموتى القدامى ؛ وأنه يقيم (على شاكلة الملوك من قبل) فى السماء حيث يصل بالزورق إلى حقل يارو ، وأنه يزرع أرضه هناك ، وأن أوزيريس يطعمه كذلك ، وأنه فى هذا كله يشعر من جديد بأنه إنسان حىّ ذو روح غضّ وجسد بضّ . فإذا أريد استقصاء التفاصيل فدون ذلك متناقضات من ضروب شتى ، فنصوص تختمين تتصوّر محكمة الموتى وتبرير الميت فى العالم السفلى ، على حين تجعل نصوص باحرى، تترّ هذه المحكمة أو بعبارة أخرى، مقرّ بهو الحقيقتين فى السماء . وكل من يبغى استيضاح الصلة التى بين الجسم والروح والكا – وإن كثيرا من النصوص فوق هذا لتذكر كذلك « ظل » الإنسان – فإنه يقع فى حيرة حيال النصوص المتأخرة أشدّ مما يجد بإزاء النصوص القديمة . وله أن يعجب كيف تحمل شعب ذكىّ هذا الخلط قرنا بعد قرن .

على أن الأمر هنا يتعلق بما وراء الحسّ ، وما يجوز لشعب أن يأخذ هذه المسائل بدقة تامة . لقد تأملها الخيال الأصيل الغضّ فى وقت ما ، وعبر عنها فى صورة حية ثم جاءت الأجيال الحديثة فألحقت بالتعبيرات والنعوت التى نشأت على هذا النحو أفكارا أخرى غير محدّدة . وإنا نحن فى الوقت الحاضر لنتحدّث عن « السماء » ولا نقصد من ذلك شيئا أكثر من مملكة الأبرار ، كما نتحدّث عن الروح والعقل والقلب ولا نكاد ندرك المعنى الأصلى لهذه التعبيرات .

فلنترك إذن للمصريين فى العصر التاريخى حقّ استخدام التعبيرات القديمة عما

---

(١) Urk. 497, 7.

(٢) Urk. IV, 150,3 . انظر كذلك : Harris I 42, 1

وراء الحس ّ وعما لايدرك دون أن يعبأوا بمعناها الدقيق . ولو أنه تيسر لنا فى الوقت الحاضر سؤال أحد المصريين عن هذه المتناقضات الواضحة، لأجابنا من غير شك بأن هذا لايكاد يدلّ على تناقض ما ، وقد يجيب كذلك : بأن من الخير ألا ينظر إلى هذه الأشياء المقدسة التى لاتقبل البحث بدقة زائدة . وذلك لأن الإنسان يجد فى هذا الغموض والإبهام سحرا خاصا لهذه المسائل . ولا يخطر إلا للاهوت محتضر متعمق عمل تصميم للعالم الثانى فى زهو وخيلاء . وحتى هذه المرحلة لم ينج الشعب المصرى منها ، وتدلّ على ذلك الكتب الغريبة التى تبين للميت طريقه ، وتعرفه بسائر الكائنات التى يمكن أن يقابلها فى العالم السفلى .

وترينا إحدى خرائط العالم الثانى [1] أن من يدخل مملكة الموتى ممن يكونون فى المكان المقدس روستاو بالقرب من الجيزة (انظر صفحة ٣٠) فإنه يجد أمامه سبيلين مفتوحين يؤديان به إلى مملكة الأبرار ، أحدهما عن طريق الماء ، والآخر عن طريق الأرض . وكلاهما يتعرجان ، غير أنك لاتستطيع أن تعرج من أحدهما إلى الآخر ، لأن بينهما بحرا من النار . وهناك كذلك طرق جانبية وإن كان «لاينبغى لك سلوكها » ، لأنها تؤدى بك إلى النار أوهى طرق طويلة ملتوية . وقبل السير فى أحد هذين السبيلين يجب أن يمضى الميت من باب من النار . وتوجد فكرة الأبواب التى تعترض الميت عدا ذلك فى كتاب الموتى [2] ، فنى حقل يارو خمسة عشر بابا أو واحد وعشرون بابا ، يقوم إلى جانبها حرّاس أشرار فى أيديهم النصال تعلوها الثعابين .

وقد تطوّر هذا الأدب بطريقه خاصة إلى كتابين حافلين ، ألحق فيهما سبيل الميت بالرحلة التى تقوم بها الشمس فى ساعات الليل الاثنتى عشرة عبر العالم السفلى ، وفى هذا تتجلى الفكرة القديمة التى تذهب إلى أن الموتى المساكين يرون كذلك الضوء فى مقرّهم المظلم ، ولكن ما أشدّ تفاهة ما صارت إليه هذه الفكرة الجميلة .

وينقسم العالم السفلى — وفقا لما جاء فى « كتاب العالم السفلى » الذى يسمى عادة إمدوات — إلى اثنى عشر قسما بما يوافق ساعات الليل الاثنتى عشرة ، وتسمى هذه

---

(١) « كتاب السبيلين » نشره جراف ثالث من تابوت من مجموعة الآثار فى برلين .
(٢) Totenb. 144-146.

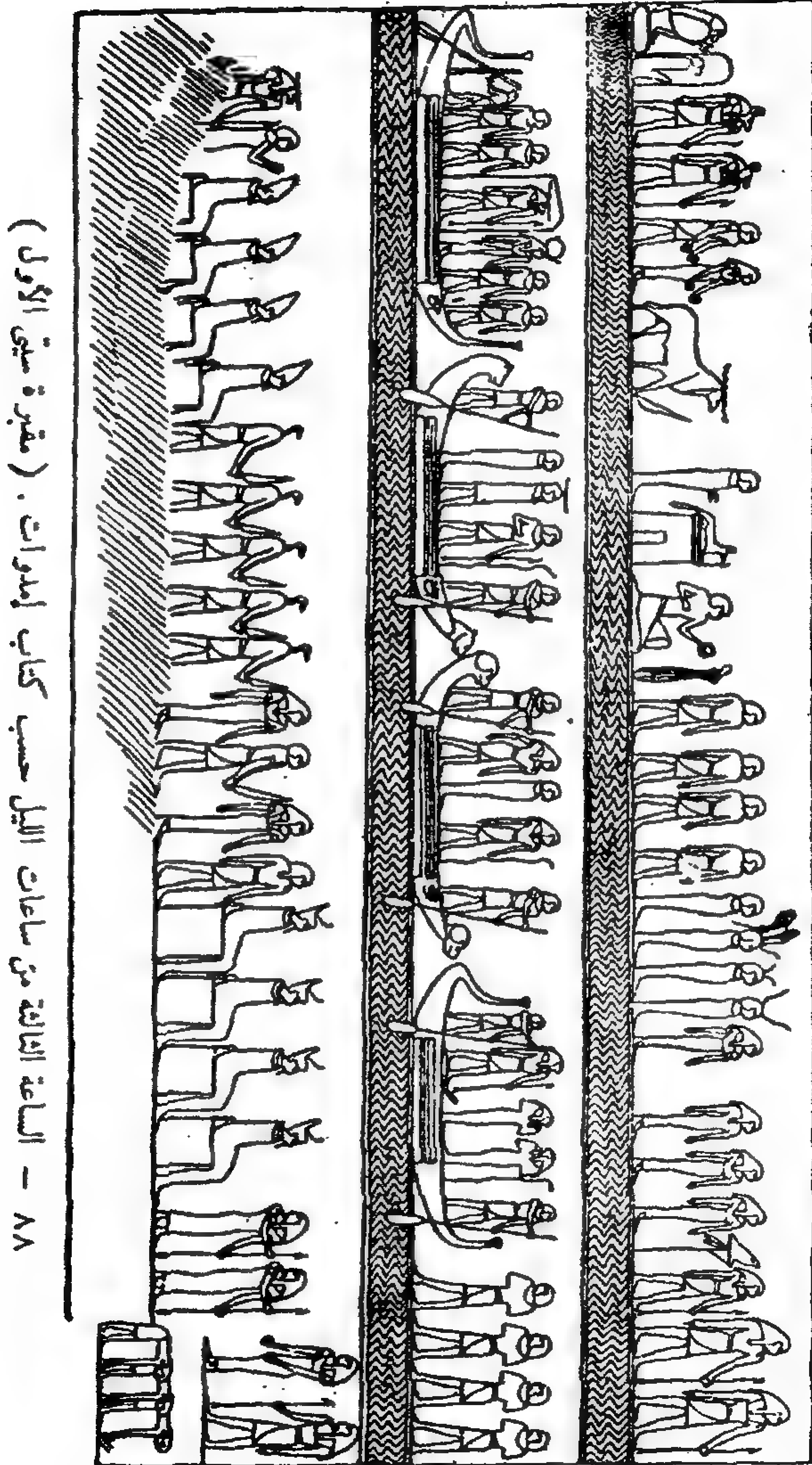
الأقسام « الحقول » أو « المغاور » ، وهى آهلة بالآلهة والأرواح والموتى ، وفى كل منها عادة مدينة يتولى السيادة فيها أحد الآلهة . وكما أن فرعون يجوب مقاطعات بلاده ، كذلك ينتقل إله الشمس من إحدى هذه المغاور إلى الأخرى ، « يلقى أوامره إلى الآلهة التى توجد فيها » ، ويوزّع الحقول بينها . وتتألف حاشية رع من آلهة شتى ، كما تصاحبه كذلك فى كل ساعة الإلهة الخاصة بها . على أنه فى حقيقة الأمر ليس فى هذه الرحلة إلا جثة أو مجرّد « لحم » كما يقول ذلك الكتاب ؛ ويتجلى مظهر هذه الحالة التعسة فى أنه يحمل إذ ذاك رأس كبش .

وفى الساعة الأولى يلج إله الشمس « فى الأرض ، فى الباب العظيم للأفق الغربى ، ويبلغ طول الرحلة ١٢٠ سخنا ، حتى يصل إلى آلهة العالم السفلى » . وتسمى الساعة الثانية « ورنس » ، وهى حقل يبلغ طوله ٤٨٠ سخنا وعرضه ١٢٠ سخنا ، ويستخدم الإله منذ هذه الساعة سفينة جديدة ، تقودها فى بداية الأمر أربعة زوارق غريبة . وحقل الساعة الثالثة ذو مساحة مماثلة ، ويقطن فيه أوزيريس مع حاشيته . وتتقدمه هنا كذلك طائفة من السفن كما أنه يستقبل استقبالا بهيجا .

أما الساعتان الرابعة والخامسة فتقودانا إلى منطقة غريبة ، إلى « السراديب ، أو مغارات الغرب السرية » حيث يسكن الإله العظيم القديم للموتى فى منف ، وحيث يسود الظلام و « لايرى رع من فيها » ، وإن كانوا يسمعون صوته حين يلقى أوامره . وهذه المنطقة صحراء رملية لاماء فيها وتسكنها الثعابين ، بحيث لابد لسفينة رع نفسها أن تستحيل ثعبانا لتجر خلال سرداب . . . « الطريق الذى دخلت منه جثة سكر » أسفل الكثيب الذى دفن فيه سكر ، والذى تطل منه رأسه الآن لتشاهد الشمس .

وفى الساعة السادسة تجد سفينة الشمس مرّة أخرى مجرى من الماء . وهى « فى هذا الحقل غير بعيدة عن جثة أوزيريس » . أما الساعة السابعة فتعرّضها لخطر كبير ، وذلك لأن تنين العواصف أبوفس « الذى مقرّه فى السماء » ، يتخذ مكانه كذلك فى العالم السفلى ، ويرقد على « رابية طولها ٤٥٠ ذراعا ، يملؤها بأثنائه » . ولكن « صوته يقود الآلهة إليه » ، فيجرحونه ، ولا يمرّ هذا الإله العظيم فوقه ،

وإنما يعرج بطريقه عنه . ولكنّ خطرا آخر يعرض فى « هذا الطريق الخفى الذى يبحر عليه الإله فى سفينته الفاخرة » . وذلك أنه خلو من الماء ، إذ قد جرعه كله التنين ، ولهذا فلا مناص من الاستعانة بسحر إيزيس والإله « القديم » لتسير السفينة إلى الأمام. وفضلا عن هذا ، فان هذا المغار يخصّ أوزيريس الذى نرى « لحمه » متربعا على



٨٨ — الساعة الثالثة من ساعات الليل حسب كتاب إمدوات . (مقبرة سيتى الأول)

العرش ملكا ، ومن أمامه أعداؤه مقطوعة رءوسهم أو مقيدين . وأغرب من هذا أن إله الشمس يصل فى هذه الساعة وفى الساعة التالية إلى رواب من الرمال قد دفنت من

تحتها آلهة شتى كأتوم ورع وخبرى وشو وتفنوت وغيرهم ، وبهذا يقابل نفسه ، وذلك فى أشكاله الثلاثة .

وفى الساعة الثامنة تنادى شتى الأرواح الإله رع ، حتى ليبدو لجيبهم كأنه عواء قط ، أو طنين جماعة من النحل ، أو كأنه بكاء البشر ، أو كأنه أيضا خوار ثيران ، أو صراخ صقر ؛ وقد يتخيل الإنسان كذلك أنه يستمع إلى زقزقة عشّ حافل بالطير ، أو إلى الصوت الأجشّ الذى يحدثه سقوط أجرف الشواطئ فى الماء .

وفى الساعة التاسعة ينزل مجدفو سفينة إله الشمس «فيستريحون فى هذه المدينة»؛ وفى الساعة الحادية عشرة ، حيث يشاهد تعذيب أعداء أوزيريس ، يستحيل الحبل ، الذى به تجرّ السفينة ، ثعبانا . وأخيرا فى الساعة الثانية عشرة يتمّ ما قد مهد له منذ الساعات الأخيرة ، فقد استقرّ فى الساعة العاشرة جُعْل إلى جانب رع ، والآن فى المغار الذى يطلق عليه « نهاية السَّحر » تجرّ سفينة الشمس من جوف ثعبان طوله ١٣٠٠ ذراع ، وعند ما تخرج ثانية من بين فكى الثعبان إذا بإله الشمس يصبح هذا الجعل . لقد تحوّل إلى خبرى ، إله شمس الصباح . وبينما يظلّ جسده القديم فى العالم السفلى يستقبل شو الجعل و « يخرج » الإله الجديد « من العالم السفلى ، ويستقرّ فى زورق الصباح ، ثم يصعد فى حضن إلهة السماء » . لقد ولدت الشمس من جديد وهى تبدأ رحلتها الجديدة .

هذا هو ما يتضمنه هذا الكتاب على وجه التقريب بقدر ما يتسنى عرضه . أما ما لم يتيسر عرضه ، وما أضفى على الكتاب طابعه الخاصّ ، فهى التفاصيل الغريبة العديدة ، التى شاء خيال مؤلفه المضطرب أن يملأه بها . لقد صوّرت مثلا ، فى الساعة الثالثة مملكة أوزيريس ، غير أنه ليس فى أشكالها الإيضاحية السبعة والتسعين شىء على الإطلاق مما يتصل عادة بإله الموتى . فليس فيها ما يصوّر موائد طعامه أو الحقول التى يزرعها الأبرار ، وليس فيها شىء عن محكمة الموتى أو عن إيزيس ونفتيس . وإنما يقف فيها على أحد الشاطئين آلهة ثلاثة فى أيديهم صوالج ، وإلى جانبهم صقر وأربع نساء « يبكين » أو « يندبن » وفق العبارة المكتوبة إلى جانبهن ، وأربع مومياءات

على رءوسها أجنحة وقرون ، وأربعة رجال يمثلون على ما يبدو «الموتى الأشراف» .
ويلى ذلك «وافر السحر» ، وهو غصن من بردى عليه قطعة من لحم ؛ ومن ورائه رجل ذكر عنه أنه هو «الذى يجلب العين ويرضى الآلهة» ، ثم أنوبيس ومن أمامه صولجان ، ثم مومياء لها يدان . أما الكبش ومعه السيف فهو «قاتل أعدائه» ، ويبدو أن «الجالبة» و «الجالب» يحملان مقلا . وخلف ست وأنوبيس – أخيرا – قردان يجلس أحدهما فى كن ، ويجلس الآخر «على رملته» كنصّ العبارة التى إلى جانبه . وممن يرى على الشاطئ الثانى إلهان فى رداءين طويلين ، يمثل أحدهما النجم الجبار ، ثم إله بنقبة قصيرة يسمى «المنتمى للغرب» ، والإلهة «التى فوق لهيبها» ، وإلهة الولادة ، و «الخماسى» وهى كائنات خمسة لها رءوس طير وفى أيديها نصال ؛ ثم كثير غيرها . ويجلس بين هذه الآلهة أربعة آلهة تتخذ تيجان الوجه البحرى ، وأربعة أخرى تتخذ تيجان الوجه القبلى ، ويمثل هؤلاء الثمانية جميعا أوزيريس الذى يملك هذه المنطقة ، وذلك بما يطابق أسماءه الثمانية المختلفة ، وهى : «أقوى الآلهة ، وملك مصر السفلى ، والجالس على عرشه ، وثور الغرب ، وغازى الأبدية ، والنائب ، وأول أهل الغرب ، وسيد الغرب» . ومن وراء هؤلاء جميعا رجل يصلى ثم الإله خنوم . فإذا اتجهنا إلى السفن التى ترافق سفينة الشمس ، وجدنا فيها الحيات المسماة : «الوجه ذو الشرر» و «النار فى الوجه» و «النار فى العين» ، كما نلقى «الصقر» و «الصقرة» و «صاحب الصولجان» و «ذلك الذى فى البلاد» ، والربابنة المسمين «وجه اللهب» و «النصل فى الوجه» و «مجدف المجدفين» .
فماذا يمكن أن يعنيه هذا كله ؟ إنه مما لاجدوى منه كذلك البحث عن تفسير لهذا كله فى الكتابات التى تصاحب هذه الصور . إنها تعرّفنا أن أشكال الصفّ العلوى «تخلق المحيط وتعمل على جريان النيل» ، على حين أن أشكال الصفّ الأسفل «تمزّق الأرواح وتسجن الظلال» وتعاقب الأعداء بالنار والسيف . وهى تعرفنا كذلك أن هذه الكائنات تعبد رع ، وأنه يتحدّث إليها فى مودّة وإخاء ، وأنه يسقيها ، فإذا ما تولى عنها ظلت تنوح . ولكن ماذا يفيدنا هذا كله لإدراك حقيقة كل من هذه الأشكال ؟ ومع ذلك فليس من شك فى أن الرجل الذى ألّف هذا

الكتاب الجميل على أساس أفكار مماثلة قديمة ، قد قصد بهذا كله إلى شىء ما ، وأنه كان له ما يسُرّه فى سائر هذه التلميحات والإشارات ، التى تكمن من وراء هذه الصور . على أنه ليس لنا أن نأسى لجهلنا ، لأن ما لانفهمه لايمثل تصوّرات شعبية ، ولا ينطوى على تفكير عميق ، وإنما هو أوهام لبعض أفراد ، ولم يكن الشخص الذى صاغها فى الشكل الذى تبدو لنا فيه الآن ، إلا صانع كتب فى السحر ، وهو ما تدل عليه الوعود التى ملأ بها الكتاب بأكمله . فمن « يعرف » هذه الصور وهذه الأسماء ، «فان ذلك يفيده الفائدة العظمى على الأرض ، كما يفيده فى العالم السفلى العظيم » ؛ أو « إن من يعرفها فإنه يحوز الأطعمة فى العالم السفلى ، ويشبع من صدقات أتباع أوزيريس ، على حين يقدم أهله كذلك الصدقات له على الأرض » ؛ أو أنه كذلك يسكن فى سفينة رع فى السماء وفى الأرض . « أما من لايعرف هذا » ، فإنه لن يستطيع اتقاء أبوفس . وبهذا فكل كلمة وكل صورة من هذا الكتاب إن هى إلا ذخر ثمين لصاحبها السعيد . ومن المحقق كذلك أن هذا الكتاب بهذه الصفة قد درّ ثمنا باهظا على الرجل الذى أخرجه لأوّل مرة ، وإن كان قد جاء أنه أخذ من « غرفة خفية فى العالم السفلى » ، حيث وجد مصوّرا على جدرانها الأربعة .

وقد حفظ لنا كذلك كتاب آخر ينافسه نسميه كتاب الأبواب . وذلك لأنه وفق ما جاء فيه تقوم بين الساعات بعضها وبعض حصون عالية تحرسها الحرّاس والتعابين التى تنفث النار . وهو أكثر رعاية للتصوّرات الشائعة من كتاب إمدوات ، كما أنه أقل منه احتفالا بالأغراض السحرية ، على أنه فيما عدا هذا فهو قريب الشبه جدا به فى خطته وطريقة عرضه .

وهناك ناحية لها أهميتها الخاصة بالنسبة لنا فى هذا الأدب كله ، وهى أنه قد أتى عليه هو أيضا فترة من الزمن كان فيها موضع التقدير وغاية تطلب . فلوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين - الذين حفروا مقابرهم فى طيبة فى القرنين الثالث عشر والثانى عشر . قد نقشوا هذين الكتابين على الجدران وعلى التوابيت . وإن من يجوب الآن الدهاليز المهيبة لهذه المقابر ليلقى أشكال الإمدوات وهى ترنو إليه بأبصارها من جميع الجهات ، كأن المصريين القدامى لم يتخيلوا شيئا عن الحياة بعد الموت أفضل من

هذه الأشكال الغريبة . وفى القرن التالى كانت توضع إلى جانب بعض الموتى أجزاء من كتاب الأملوات مكتوبة على قراطيس البردى لتجميهم ، ومع هذا فلم يغد هذا الكتاب فى أىّ وقت كتابا شعبيا ، وإنما ظل كما كان ، وكما ينبغى أن يكون ، سرّا لدى أهل الخبرة بالسحر .

وما ينبغى أن ينتهى هذا الفصل عند حدّ هذا الخلط المهوّش الذى اضطررنا هنا إلى التحدّث عنه ، فن الأدب المصرى وخاصة أدب العصور القديمة تصلنا أصداء نغم لها فى قلوبنا وقع أكثر من غيرها .

لقد كان حتى أتقى المصريين الذين كانوا يطمعون عن عقيدة قوية فى مملكة الموتى ، والذين « أعدّوا لأنفسهم مكانا جميلا فى وادى الصحراء » ، يفزعون من الموت ، ويرهبون رسول أوزيريس ، وذلك لأن لأوزيريس رسلا ذوى نظرات شرسة ، يطلبون الناس ولا يخشون أحدا من الآلهة (صفحة ٩٦) . ولا يعلم أحد ، متى يأتيه مثل هذا الرسول ، وذلك على نحو ما قال أحد حكماء الدولة الحديثة : فكر فى الموت لأن « رسولك يأتى إليك . . . لاتقل إنى لاأزال شابا ، ذلك لأنك لاتعرف موتك ، إن الموت يحضر ويقود الطفل ، الذى لايزال يجلس فى حجر أمه ، كما يقود الرجل الذى أسن »[1] .

وفى صراحة تامة يذكر أحد شعراء الدولة الوسطى ، أن الدفن لايجلب غير الأسى والدموع ، وأن سائر المقابر الجميلة تتهدّم بلا شك ، وأن المدفونين فيها ليسوا بأحسن حالا من الفقراء ، الذين يموتون مجهدين على رصيف الميناء .

وإنا لنقرأ حتى فى أحد نصوص كتاب الموتى[2] ، فى حديث بين أتوم وأوزيريس ، أن مملكة أوزيريس إن هى إلا أرض لاماء فيها ولا هواء ، ولا خبز ولا جعة ، ولا حبّ . حقا لقد أشار أتوم إلى أن أوزيريس يستعيض عن نعم الدنيا هذه براحة البال والتمجيد ، وإنا لنرجو أن يكون هذا البديل قد أرضى أوزيريس ، ولكن — من المحقق — لم يكن الأمر مع البشر دائما على هذا النحو ، وذلك لأن أغنية

---

(١) Litt S. 297 (Max D'Anii 3, 16)

(٢) Kees, Ae. Z. 65, 73.

الشراب القديمة تدعو ، وهى ترنو بنظرها إلى الموت ، إلى الاستمتاع بالحياة ؛ « لتبتهج ، ولتنس قلبك أن الإنسان سوف يمجد يوما » . إن المقابر كلها تتهدم وحتى مقابر الحكماء الأقدمين « قد غدت كأنها لم تكن . لاأحد يأتى من هناك فيحدثنا كيف حالهم ، وماذا يعوزهم ، ليطمئن قلوبنا حتى نغدو نحن كذلك إلى حيث ذهبوا » . لهذا فلتنعم بالحياة حتى يأتى يوم النديب ، ولكن « ذا القلب الساكن لايسمع صياحهم ، ولا ينجى النواح أحدا من العالم السفلى . ما من أحد يستطيع أخذ متاعه معه ، وما من أحد يعود بعد أن مضى »[1] .

أجل هناك أغنية أخرى تحتج على هذه التصورات ، وتجنح إلى مدح عالم الموتى كأنه شىء جليل . على أن ناظمها لايصدر فى ذلك عن إيمان تام وهو يقول : « ماذا ينطقون عند ما يشيدون بمدح الحياة على الأرض ويقللون من شأن مدينة الموتى — ماذا يفيد العمل ضد الأبدية على هذا النحو ، وهى البلد الحق العادل الذى لافزع فيه ؟ إنه يمقت الشقاق والخصام ، وما من أحد فيه يتخذ العدة ضد سواه . فى هذا البلد الذى يخلو من الأعداء يستريح أهلنا جميعا منذ العصور الأولى ، وسيغدو إليه كل من سوف يكون هنا فى ملايين الملايين من السنين . ما من أحد استطاع أن يبقى فى مصر ، وما من أحد لم يذهب إليه . إن الزمن الذى يقضيه الإنسان على الأرض إنما هو طيف خيال فحسب ، وعندئذ يقال لمن يصل إلى الغرب « مرحبا » »[2] .

وهكذا احتفظ الشاعر بالتجلة الواجبة لمملكة الموتى ، على أنه لم يطرها فى حقيقة الأمر بأحسن من أن الإنسان يجد فيها فى خاتمة المطاف راحة وسلاما .

ومع ذلك فلم يكن سائر الموتى ليفرحوا حقا بالراحة التى كان يرجوها لهم أخلافهم الأحياء ، وذلك لأن أفكار الكثيرين منهم ظلت تتعلق بالدنيا وبالحياة فيها ، كما ظل بعضهم يحتفظون بسخط صامت . يودون إرضاءه . على حين كان آخرون يتبرمون بحياة من خلفوهم من الأحياء . على أن الميت لم يكن ضيفا مرحبا به إذا زار أحيانا أحد البيوت حيث لايراه أحد على نحو ما رأينا من قبل (صفحة ٢٥٤) . ولا بد

---

(١) Litt. S. 178.

(٢) Litt. S. 317.

فى واقع الأمر أن كل شخص كان يشعر بأنه مهدد من قبل أمثال هذه الأشباح ، سواء أكانت من الأهل أو من الأرواح الشريرة الأخرى . ولم يكن هناك ما يقى شرّها غير تعاويذ السحر والتمائم ، ومع هذا فلم يكن أحد يوقن أنها تفيد حقا . على أنه قد يسعد الحال بالكشف عن قبر الميت المسيء ، وبهذا ربما استطاع المرء « ألا يدعه يهبط أو يصعد مع الريح » [1] . وهكذا خطر على البال أن من المستحسن الاتصال بالميت نفسه اتصالا مباشرا ، فلربما ثنته عن رأيه رسالة فينسى سخطه . وقد حفظت لنا أمثال هذه الرسائل من سائر العصور . وكان يفضل كتابتها على الصحفة التى تحوى طعام الميت ، لأنها ستصل إلى يديه بالتأكيد . وقد كتب رجل [2] إلى والديه يرجوهما أن يتوسطا لدى أخيه المتوفى ، فقد حمله إلى أرض الوطن حيث دفنه ، غير أنه لابد أنه لم يكن راضيا عن ذلك ، لأنه دائب على الإساءة إليه . وكتبت أرملة إلى زوجها تشكو إليه كيف سرقها بعض الأقارب الأشرار هى وابنها فى بيتهما . وجزعت أرملة أخرى لمرض أمتها ، فاتجهت إلى زوجها الميت ليقى الفتاة من الأشباح الشريرة ، التى أصابتها بالمرض ، فإن لم يفعل ذلك فسيخرب بيتها . ويفيض باليأس كذلك ما كتبه أحد الأزواج المترملين إلى زوجته . فهو فى يأس وبلاء ، ويعتقد أن امرأته هى السبب فى شقائه ، وإن لم يكن لها أن تشكو منه شيئا . وهو يبصرها بأن أطفالها كذلك يقاسون العذاب . فإذا كان السبب فى شقائه يرجع إلى غيرها من الموتى فعليها أن تطلب العون من أبيها ، لأنه رجل قوىّ النفوذ فى مملكة الموتى .

وإذا كان فى هذه الرسائل الساذجة ، التى يرجع أغلبها إلى الدولة الوسطى ، ما يؤثر فى الشعور ، فإن فى الرسالة التالية من ذلك نصيبا أوفى بكثير .

كان ذلك حوالى سنة ١٣٠٠ ق . م تقريبا ، حين كان يعيش فى منف موظف أو ضابط كبير ؛ وكان عمله يقتضيه التغيب عن بيته فترات طويلة . وفى إحدى هذه الفترات مرضت زوجته « عنخ – إيرى » ؛ وعلى الرغم مما كفل لها من العناية الطبية ، فقد ماتت قبل عودته . فثقل ذلك على نفسه كثيرا ثلاثة أعوام بأسرها . ثم أدرك

---

(١) Pap. Turin 124, 13.

(٢) كل مايلى هو كما جاء فى Gardiner and Sethe: Letters to the dead, London 1928.

آخر الأمر أنه لابد من أن تكون زوجته نفسها هى التى تحول بينه وبين استعادته مرحه . فكتب إليها رسالة ربطها فى تمثال خشبى لفتاة ، ووضعه فى قبر زوجته ليكون لها رسولا . وخط الرسالة وحده يدل على أنها كتبت فى ثورة نفسية ، وقد جاء فيها : إلى الروح الفاضلة عنخ – إيرى . أى مساءة اقترفتها إليك حتى أقع فى هذه الحالة السيئة التى أنا فيها ؟ ما الذى أفعله ضدك حتى تضعى يدك على ، مع أنى حقا لاأقترف ذنبا ضدك ؟ منذ أن كنت زوجك إلى اليوم – ما الذى فعلت ضدك مما أضطر إلى إخفائه ؟ – إنى لأعرض الأمر الآن بكلمات من فمى أمام آلهة الغرب ، وسيُفصل بينك وبين هذا الكتاب . . . .

لقد اتخذتك زوجة عندما كنت صبيا ، وقد كنت معك ، ثم تقلدت جميع الوظائف فبقيت معك ، ولم أهجرك ، ولم أُضن قلبك .

لقد أخذتك وأنا صبى ، وتقلدت جميع الوظائف العظيمة لفرعون ، ومع هذا لم أهجرك ، فقد قلت : لقد كانت دائما معى [1] . . . ها إن لم تدعى قلبى يبتهج فسأقاضيك ، وسيرى الناس ما هو الحق وما هو الباطل . ها انظرى ، حينما كنت أعلم ضباط جيش فرعون وضباط فرقة المركبات ، أرسلتهم ليسجدوا على بطونهم أمامك . لقد جلبوا شتى الأطايب ليضعوها بين يديك . لم أخف عنك شيئا أبدا طول حياتك . . . وما وجدت أبدا أنى غضضت من قدرك ودخلت فى بيت آخر كما يفعل الفلاح . . .

ولما أصبحت فى المركز الذى أشغله الآن ، لم أكن أستطيع الخروج كما كان الأمر من قبل ، فقمت بما يقوم به رجل فى مركزى حينما لايكون فى بيته ، ولم أوثر نفسى بالعطور والخبز والملابس ، فبعثت بها إليك ولم أبعث بها إلى أى مكان آخر ، فأنقص من قدرك . ولما مرضت المرض الذى أصابك ، بعثت إليك بأحد رؤساء الأطباء ، فأعد لك الدواء ، وقام بما كنت تطلبين جميعا . ولما رافقت فرعون فى سفره إلى الجنوب قضيت ثمانية أشهر بلا طعام أو شراب . فلما جئت منف ،

---

(١) كانت الزوجة على ما يبدو من أصل أقل شأنا ، وكان من المتوقع أن يطلقها زوجها عندما بلغ مركزا عاليا فيما بعد .

رجوت فرعون أن يمنحني إجازة . ثم ذهبت إلى مسكنك وبكيت مع أهلى أمام بيتك كثيرا . وقدمت ثيابا من الكتان الرقيق لتكفينك . وسمحت بصنع ملابس كثيرة ، ولم أدع شيئا طيبا لم أفعله من أجلك .

وهأنا قد قضيت ثلاثة أعوام إلى الآن وأنا هنا قعيد لاأذهب إلى بيت آخر . مع أن رجلا مثلى ليس فى حاجة إلى ذلك ، ولكنى فعلت هذا من أجلك . ها انظرى إذا كنت لاتعرفين الخير من الشرّ . فانك ستقاضين » .

وفى نهاية الخطاب أضاف هذه الحاشية : « ها انظرى : إن الأخوات [1] اللائى فى البيت . . . إنى لم أذهب إلى واحدة منهن » .

والموتى فى هذه الرسائل ليسوا هم أتباع أوزيريس الهادئين ، الذين غادروا عالم الأرض – حقا إن اسمه لايرد فى أىّ من هذه الرسائل – ولكنهم كثيرا ما يساهمون فى هذه الحياة ، فهم يحبون ويكرهون ، كما كان الأمر من قبل ، ومنهم الأقوياء ومنهم الضعفاء ، على نحو ما فى الحياة الدنيا . وفى هذا تتجلى التصوّرات الشعبية التى كثيرا ما نجدها فى غير هذه الرسائل . ولا تخلو متون الأهرام من الحديث عن الموتى الذين يسيئون إلى المتوفى أو يعتدون عليه [2] ، أو يتلفون قبره [3] . أما الفكرة المماثلة ، التى تذهب إلى أن الموت والموتى يجلبون للأحياء المرض والهلاك ، فقد ظلت فى جميع العصور ، كما سنرى فيما بعد .

---

(١) هذا هو التعبير عن الحبيبة فى اللغة المصرية .

(٢) متون الأهرام ٦٣ .

(٣) متون الأهرام ١٦٥٦ .

الفصل الخامس عشر

العناية بالموتى

منذ كشفت الحفائر فى عشرات السنين الأخيرة عن أقدم جبانات مصر ، ونحن نعلم أن الدفن كذلك فى هذه البلاد ، التى بالغت فى الاحتفال بموتاها ، كان فى بداية الأمر بسيطا جدا . فكانت الجثة توضع فى حفرة صغيرة ، بحيث ترقد على جانبها الأيسر على هيئة القرفصاء والركبتان مثنيتان. وقد كان يصيب الجثة التلف فى هذه الحفرة ، بحيث كان لايجد من يكشف فيما بعد عن مثل هذا القبر ، غير هيكل من عظام متناثرة . وقد احتفظت مصر فيما بعد دون أن تعلم ، بذكرى هذه الطريقة القديمة للدفن ، إذ ظل يرجى للميت فى الدعوات الجنازية أن تلتئم أعضاؤه من جديد ، وأن يلتحق رأسه بعظامه ثانية . ولم يفهم العصر التالى الذى عمل على حفظ الجثث فى شكل المومياء ، مثل هذه الصيغ ، وكثيرا ما كان يؤولها بالأسطورة التى فيها مزقت جثة أوزيريس . على أن الأقرب إلى الاحتمال فى واقع الأمر هو أن تكون هذه الأسطورة قد نشأت بالأحرى من مثل هذه الصيغ التى ضاع معناها .



٨٩ — قبر من أقدم الأزمنة
(من صورة فوتوغرافية من عمل ج . ريزنر)

ومن بعض قبور هذا العصر السحيق ما يدل فيه دفن الميت على عناية بينة بحفظ الجثة ، التى هى وإن كانت قد احتفظت بوضع القرفصاء ، كما كان الأمر من قبل ، فقد كان يخاط عليها جلد أو حصير ، أو كانت تودع فى قدرين كبيرين [١] ؛ على

(١) لاسبيل هنا إلى بحث ما إذا كانت هذه الطرق المختلفة للدفن ترجع إلى مجموعات مختلفة من السكان .

أنها لم تكن تلبث أن تكتسب فى الأرض الجافة يبوسة تغلو معها كمومياء طبيعية . وقد يحفر القبر على عمق أكبر ، وتكسى جوانبه باللبن ، ثم يوضع من فوقه لوح من حجر ، يحمى ما بداخله من أن يتحطم . وكان أصون من هذا وأسلم حفر بئر فى الصخر غير عميقة ، تتصل بقاعها غرفة صغيرة ، كانت تسد فتحتها بالبناء ، فاذا ردمت هذه البئر ، ثم جمع من فوقها كومة من الحجر ، كان فى ذلك ما يحمى الجثة من اللصوص وبنات آوى .

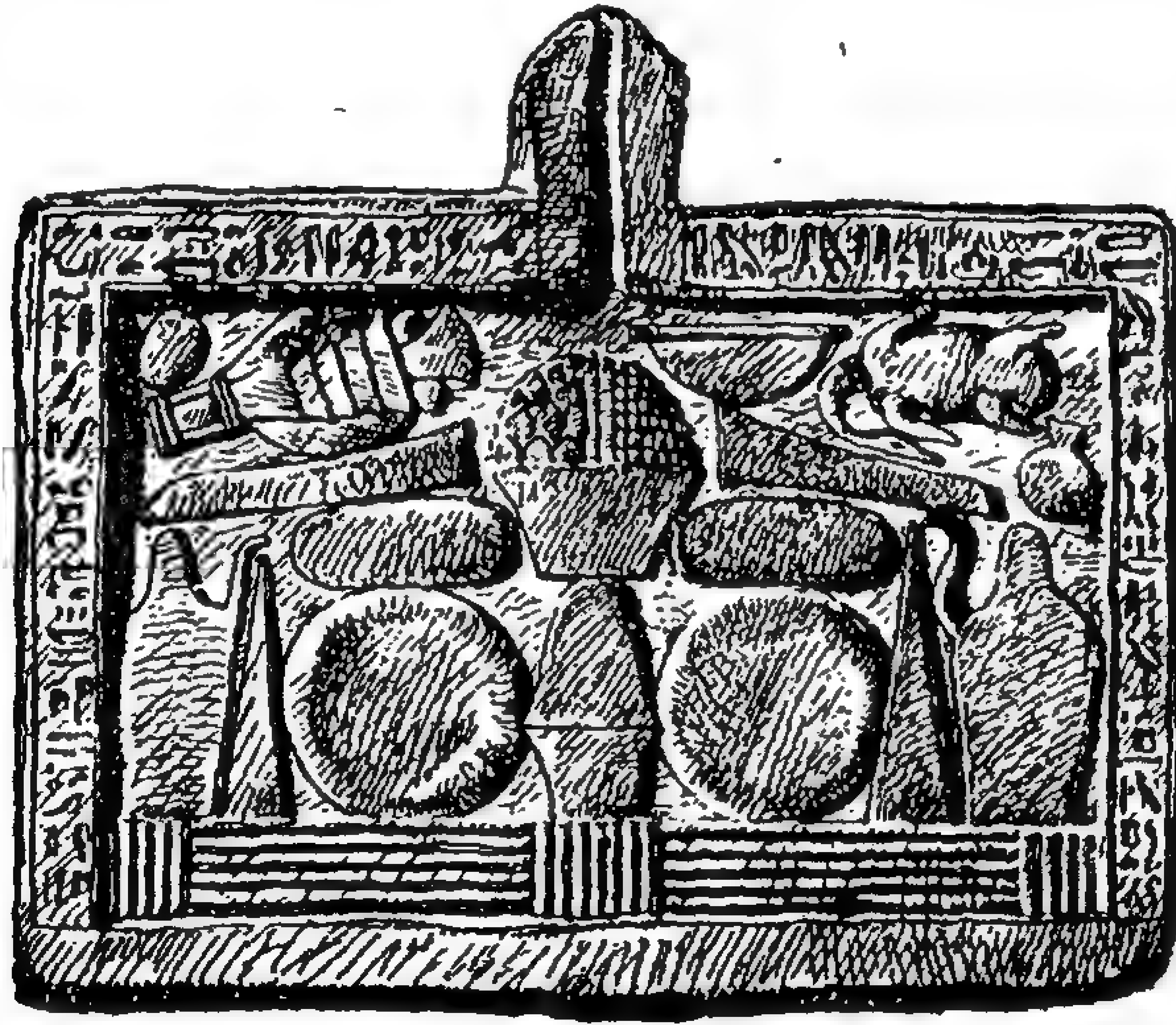
ولقد فطر الإنسان على ألا يترك أهله وأقرباءه الذين أحبهم وكرمهم فى الحياة دون رعاية بعد الموت . وليس يهم فى هذا تفاصيل ما تصوره الإنسان عن مصير الميت ، فالشعور الغامض نفسه ، الذى يوحى بأنه لايستغنى عن شىء مما استخدمه فى الحياة ، ليؤدى إلى تزويده بأهم الضرورات . لهذا لم يفت المصريين فى أقدم عصورهم تزويد موتاهم بما يلزمهم من أثاث جنازى . فكان يوضع إلى جانب الميت قبل كل شىء قدور وصحاف فيها طعام وشراب حتى لايجوع أو يعطش ؛ وكان يتلقى الخطاطيف والنصال من الحجر ، ليصطاد طعامه ويحمى نفسه ضد أعدائه ، ورقعة اللعب ليزجى بها وقته ، ودبابيس الشعر وصلايات من الحجر لصحن الصبغ الأخضر ، حتى يحسن ترجيل شعره وصبغ ما حول عينيه ، كما فعل من قبل فى حياته . وكانت تضاف إلى هذا أشياء أخرى لايمكن أن تفيده إلا عن طريق خارق للعادة . فمن شأن قارب صغير من صلصال أن ييسر له عبور المياه التى تحيط بحقول الأبرار فى السماء كما رأينا فيما مضى (صفحة ٢٤٣) ؛ كما أنه من شأن الثور من الصلصال أن يذبح له ، والخادمة من الصلصال فى الدن الكبير أن تعجن بقدميها عجينة الشعير ، لتعد له الجعة ، شرابه المحبوب . ويبدو كذلك أن تلك التماثيل الأخرى التى تمثل نساء جاثيات ، أنها إنما كانت لتمنح سيدها ملذات الهوى والحب ، ولهذا لونت بألوان مختلفة جميلة ، حتى لتبدو كأنها اتخذت زخرفها وزينتها ؛ ولهذا أيضا غلظت لديها الأفخاذ



٩٠ — تمثال امرأة من أحد قبور ما قبل التاريخ
(برلين ١٢٧٦٧)

والأعجاز ، ولا يزال يعتبر ذلك حتى اليوم عند سكان أفريقيا ذروة الجمال فى النساء .

وفى وقت مبكر كذلك ، تطرّق الشك فى أن ما يوضع إلى جانب الميت من طعام كان يكفيه على الدوام ؛ لذلك ذهب المتخلفون الأحياء إلى أن من واجبهم كذلك العناية بطعام الميت بعد دفنه . ولم يكن الغرض من هذا بطبيعة الحال إطعامه كل يوم ، وإنما كان ينبغى أن يحصل الميت المسكين على بعض الطعام على الأقلّ فى أيام الأعياد التى جرى الناس فيها على أن يأكلوا فى بيوتهم أطيب الطعام ، ويشربوا أحسن الشراب . لهذا كان يبسط أمام المقبرة حصير ، توضع عليها صحفة عليها رغيف [1] ، ثم يسكب الماء ، وعند ذاك ينادى على الميت : « قم خذ خبزك هذا منى » [2] . فيخرج من القبر وينعم بالطعام . ولم يكن فى مثل هذه المسائل التى تسمو على الطبيعة ، مايقلق شعور الإنسان ، ألا يرى الميت ، وألا ينقص الطعام .



٩١ – مائدة قربان من عهد الدولة الحديثة . من أسفل الحصيرة الأصلية وعليها صحفة الخبز ، ومن فوق ذلك كدست الرغفان وجرار الماء وسلة الفاكهة وإوزة مشوية وغيرها (برلين ٢٢٧٣)

وكان المصريون يسمون مثل هذا القربان الجنازى — أو إطعام الميت بعبارة

(١) مما يدل على أن قربان الميت فى الزمن القديم كان على هذا النحو علامة الكتابة التى كانت تستخدم للتعبير عن ذلك ؛ انظر أيضا الشكل ٩١ .

(٢) متون الأهرام ٢١٧ .

أصحّ – « الخروج على الصوت » ، وذلك لأن صوت الإنسان الحيّ هو الذى يستدعى الميت من القبر . وكان القيام بهذا من واجب الأبناء البررة [1] ، فإن الابن « يزرع الشعير ، ويزرع القمح ليهديهما إلى الأب » [2] . فإذا قُدم للأبوين القربان فانهما يجلسان فى سرور إلى مائدة الطعام على نحو ما كانا يفعلان من قبل فى الحياة ، وهو ما يدل عليه النقش القديم فى مجموعة الآثار فى برلين .



٩٢ – الطعام الجنازى على لوحة من الحجر من مقبرة زوجين ؛ وعلى الجانبين بعض أبنائهما (برلين ١٤٧٩٥)

وكانت المقابر الفخمة ، والعطايا الوافرة ، قاصرة أول الأمر على الملوك . فمقبرة نقادة الكبيرة فى مصر العليا ، التى دفن فيها أحد ملوك العهد العتيق [3] ، هى مبنى مستطيل من اللبن ذو جدران قوية مائلة إلى الداخل ، تتخللها مشكاوات متداخلة تضفى على البناء شكل القصر ؛ وكان السقف من جذوع النخل . وكانت تشتمل على غرفة كبيرة للجثة فى الوسط ، وعلى أربع غرف أخرى ، كانت تحتوى على كميات كبيرة من الأطعمة ، وقدور النبيذ ، والجعة ، وأرائك من العاج ، وأوانى فاخرة من الأحجار ، وما عدا ذلك من سائر الأثاث المنزلى ، الذى يحتاج إليه الملك بعد

(١) إن الفكرة التى تذهب إلى أن القربان كان يقدم للموتى عن خوف رغبة فى استرضائهم ، ليست فكرة مصرية بأية حال . ولا يعرف المصريون أيضا ما ينسب إليهم عادة من تقديس الموتى كآلهة ؛ أما ما وجد فيما بعد من دوافع لمثل هذا التقديس ، فقد نشأ من تصور الميت على شكل أوزيريس جديد ، ولم يكن لهذا معنى العقيدة .

(٢) متون الأهرام ٧٦١ .

(٣) لعله مينا المشهور . عما يلى انظر Ae. Z. ، مجلد ٣٦ ، صفحة ٨٧ .

الموت . وفى أبيدوس بنى ملوك هذا العهد الباكر مقابر مماثلة . وتتمثل فيها عادة غريبة : فنى الغرف الصغيرة القريبة من مقبرة الملك يرقد بعض حاشيته من نسائه وحرسه وأقزام البلاط وحتى كلابه ، وذلك وفق ما تدلّ عليه الشواهد الصغيرة للمقابر . ونحن لانخطئ حقا إذا فكرنا هنا فى تلك العادة التى نعرفها أيضا فى شعوب أخرى : فالمدفونون فى هذه الغرف كان لهم شرف مصاحبة سيدهم فى الموت عند وفاته ، إذ ما كان ينبغى أن يكون فى مملكة الموتى من غير خلصائه . ومثل هذه العادة تتجلى كذلك فى مقابر الأفراد من نفس العصر ، إذ كانت توضع فى بعض الأحيان إلى جانب الميت حيواناته المحبوبة كبطة ، أو ثلاثة حمير . وكانت تدفن فى توابيت على نحو ما يدفن الإنسان [1] .

وبعد ذلك بأربعة قرون نجد أنفسنا فى عالم آخر لايعرف شيئا من هذه العادات الهمجية القديمة . فقد عمل أشراف البلاط إذ ذاك ، على أن يدفنوا فى مقابر عظيمة ، ابتنوها من حول مقبرة الملك ، التى تسمو فى شكل هرم على سائر ماعداها . وأوّل ملك شيد بناء مدهشا على هذا النحو الملك زوسر .ولم ينس المصريون حتى فى الأجيال المتأخرة وزيره امحوتب ، الذى أقام البناء الضخم للهرم المدرّج من الحجر لامن اللبن.

ولا علاقة لهذه المبانى فى حقيقة الأمر بالفنّ المصرى ، الذى كانت الأهرامات تعتبر علما عليه فيما مضى ، ذلك لأن هذه الكتل الحجرية الموحدة الشكل ، ليست فى أساسها إلا كومة الحصى والتراب ، التى كانت تكوّم فوق الجثة لتقيها الدمار ، والتى زيد فى مجموعها إلى حدّ الإفراط . وليس من شكّ فى أنه قد أدّى إلى هذه المغالاة ذلك الاعتقاد الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق ، وهو الاعتقاد بأن الإنسان سيبعث لحياة جديدة إذا ظل جسده سليما يتصرّف به كيفما شاء .

وهكذا لايشتمل الهرم فى داخله على أية غرفة أخرى غير الغرفة الصغيرة التى يوجد فيها التابوت ؛ أما الدهليز الضيق الذى يؤدى إلى غرفة التابوت هذه ، فكان يغلق بعد الدفن إلى الأبد [2] . ولهذا فليس فى الهرم نفسه مكان ، يمكن أن تقدم فيه

(١) انظر Journal of Egyptian Archaeology المجلد الأول صفحة ٤٣ .

(٢) يشتمل هرم فى أوسر رع مثلا على ١٠٧٠٠٠ متر مكعب من البناء ، بينما لاتزيد سعة الغرف الداخلية على ٢٠٠ متر مكعب .

للملك المتوفى الأطعمة ، وتؤدى فيه الشعائر ، التى كانت تقتضيها الطقوس ، وإنما كان هذا كله يؤدى فى مبنى خاص كبير ، يقع من أمام الهرم ، نسميه الآن المعبد الجنازى .

وكان الملوك فى القرون الأولى من بناء الأهرام يتبارون فى تشييد الأهرامات الضخمة ، وكثيرا ما كان يستعاض فى أثناء الحكم عن بناء مشروع أول متواضع ببناء آخر أعظم وأفخم . وفى بعض حالات معينة يتبين أن الملك مات قبل أن يتمّ بناء الهرم والمعبد ، وفى هذه الحالات كان يقع على كاهل خلفه العمل على إتمامهما ، وهو عمل كان يؤديه فى كثير أو قليل من الإقبال .

وقد ادّخرت الأقدار للملكين من الأسرة الرابعة ، وهما خوفو وخفرع ، أن يبزا إلى حدّ بعيد فى مبانيهما سائر مبانى أسلافهما وخلفائهما . ولتكوين فكرة عما يسمى « الهرم الأكبر » للملك خوفو ، فليتصوّر المرء سطحا مربعا طول كل جانب منه ٢٣٣ مترا ، وهو مكان يعادل فى برلين حديقة النزهة ، أو ميدان فتّنبرج ، وقد أقيم عليه جرم من الحجر يفوق فى ارتفاعه ارتفاع كاتدرائية شتراسبورج . ولم يكن الإنسان الطبيعى ليتصوّر أن مثل هذا البناء الضخم قد يكون لحماية جثة واحدة ، لهذا شغل الخيال بالبحث عن سبب آخر لمثل هذا البناء . ولا زلنا نرى فى أيامنا هذه مدى الحماقات التى يتردّى فيها الإنسان فى هذا الشأن . فى كل البلاد الآن أناس يحلفون أن الهرم الأكبر ، إنما بنى ليخلد بمقاييسه أسرارا فى الرياضة أو الفلك أو الدين .

على أنه من اليسير علينا أن ندرك أن هذين الملكين اللذين كلفا شعبهما مثل هذه الأعمال الضخمة ، قد عرفا عند الأجيال المتأخرة بانعدام التقوى والصلاح بنوع خاص .

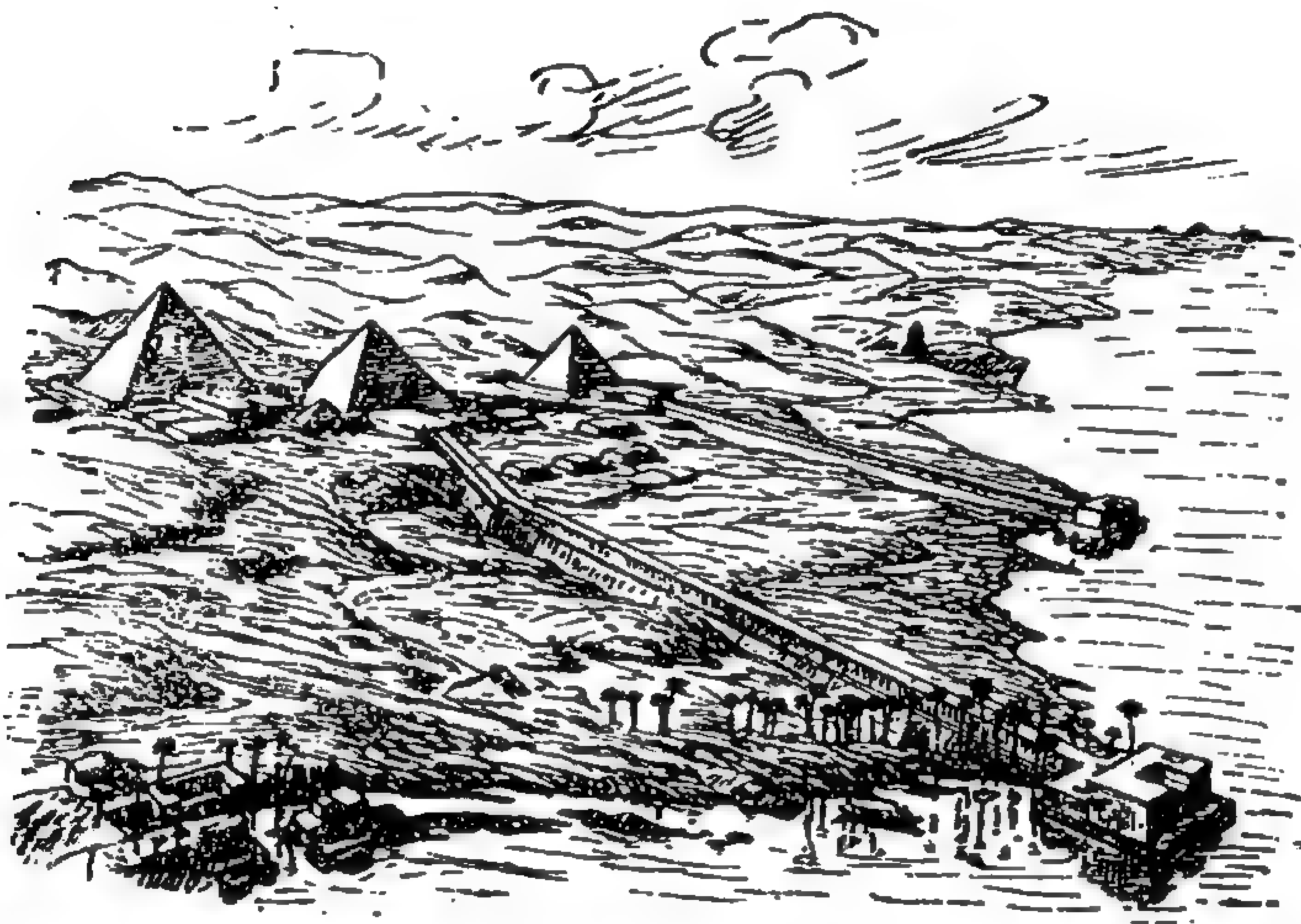
و هناك شيء آخر جدير بملاحظتنا فى هذه الأبنية الضخمة للأسرة الرابعة ؛ فالأهرام ومعابدها على حدّ سواء تخلو من الكتابات أو الصور ، إذ ما كانت تؤثر فى النفس إلا بضخامة جرمها ليس غير [٢] .

---

(١) كما هو الأمر فى المعبد الجنازى للملك نفر إير كارع . انظر Borchardt, Grabdenkmal des Koenigs Nefer-ir-ka-re صفحة ٤٩ وما بعدها .

(٢) نعرف اليوم أن هذه البساطة إنما كانت اتجاها مقصودا لذاته يناقض ما كشف عنه من فن سابق رشيق فى المعبد الجنازى للهرم المدرج .

وقد اختلف الأمر فى الأسرة الخامسة ، وبخاصة فى المعابد الجنازية . وإنا لنعرف الآن تفاصيل أجزائها الفخمة بفضل الحفائر الألمانية [1] . فعلى رصيف الميناء حيث كانت ترسو السفن ، مدخل فخم يخرج منه دهليز طويل مسقوف يبلغ طوله فى إحدى الحالات ٤٠٠ متر — يؤدى صعدا إلى سطح الهضبة ، حيث يقوم المعبد ، وفى مقدمته ردهة ، كان يجتمع فيها من كان لهم حق الاشتراك فى الاحتفالات ، ومن ثم يمضون إلى الفناء الواسع ذى الأساطين ، حيث كان يمكنهم إذا فتحت الأبواب رؤية تماثيل الملك المخلد . أما الجزء الخلفى فى المعبد فكان على نقيض هذا



٩٣ — أهرام أبى صير ومعابدها الجنازية. من أسفل فى الوادى المداخل ومنها دهاليز مسقوفة تؤدى إلى المعابد (عن بورخارت)

مخصصا للعبادة الجنازية بالذات . وهو ينتهى بما يسمى الباب الوهمى ، وهو ذلك المكان الذى يظن أن الميت يظهر فيه ليستقبل ما يقدم من طعام . وكذلك تتفق زخرفة المعبد الداخلية . مع الأغراض المختلفة من غرفه . فالنقوش المصوّرة فى بهو الأساطين وفى الجزء الأمامى من المعبد تتعلق بأعمال الملك وحياته . أما فى الغرف الداخلية فتحلى الجدران صور أنوبيس وغيره من آلهة الموتى .

وفى عهد آخر ملوك الأسرة الخامسة ظهر كذلك شىء آخر فيه فائدة علمية لنا

(١) يعتمد ما يلى على ما وجد فى معبدى فى أوسر رع وساحورع .

تفوق ما لسائر صور المعابد الجنازية كثيرا ، وذلك لأن جدران غرفة الدفن والدهليز فى هرم هذا الملك وأهرام خلفائه من الملوك تغطيها كتابات لاتنتهى ، تسميها الآن متون الأهرام ، وهى عبارة عن أوراد قديمة جدا نستقى من معينها بنوع خاص معلوماتنا عن أقدم ديانة للمصريين . ولقد سجل فى واقع الأمر للملك المتوفى هنا كل ما أمكن أن يساعد على سعادته فى الحياة الثانية .

وكان بناء الهرم يعتبر فى الدولة القديمة أعظم عمل فى حياة الملك ، ويدل على ذلك ما كانت تجرى به العادة إذ ذاك من تسمية مقرّ إقامة الملك باسم هرمه . وكان اسم كل هرم يتضمن الإشادة به باعتباره أثرا فخما خالدا ؛ فكان الهرم الأكبر فى الجيزة يسمى « الأفق » ، والهرم الثانى « العظيم » ، وهناك هرم آخر كان يحمل اسم « لأوسركاف المقاعد الطاهرة » .

ومن حول هرم الملك كان يدفن أولئك الذين أحاطوا به فى الحياة ، وهم الأمراء والأميرات وسائر عظماء بلاطه .

وكان الدفن حول هرم الملك يعتبر منة خاصة من الملك . وسنرى فيما بعد كيف كان الملك يساعد أصفياءه فى إقامة مثل هذه المقابر .

ولم يكن من اليسير دائما حتى على الرجل الموسر ، أن يشيد له قبرا فخما يتفق وما كانت تقتضيه مجاورة المقبرة الملكية . ويقصّ علينا أحد الرجال بصراحة أنه لم يقرّر ابتناء قبر له إلا فى مرضه ، وأنه عند ما عوفى قام ببنائه [1] . أما إذا لم يكن الميت قد استطاع إعداد مقبرته ، فقد كان أبناؤه هم الذين يقومون بهذا الواجب ، وهكذا يقول أحد الأبناء إنه « أنشأ هذا (القبر) لأبيه وأمه » عند ما « ارتحلا إلى الغرب » [2] . ومهما يكن من شىء فقد كان من واجب الابن الأكبر الاهتمام بمقبرة أبيه [3] .

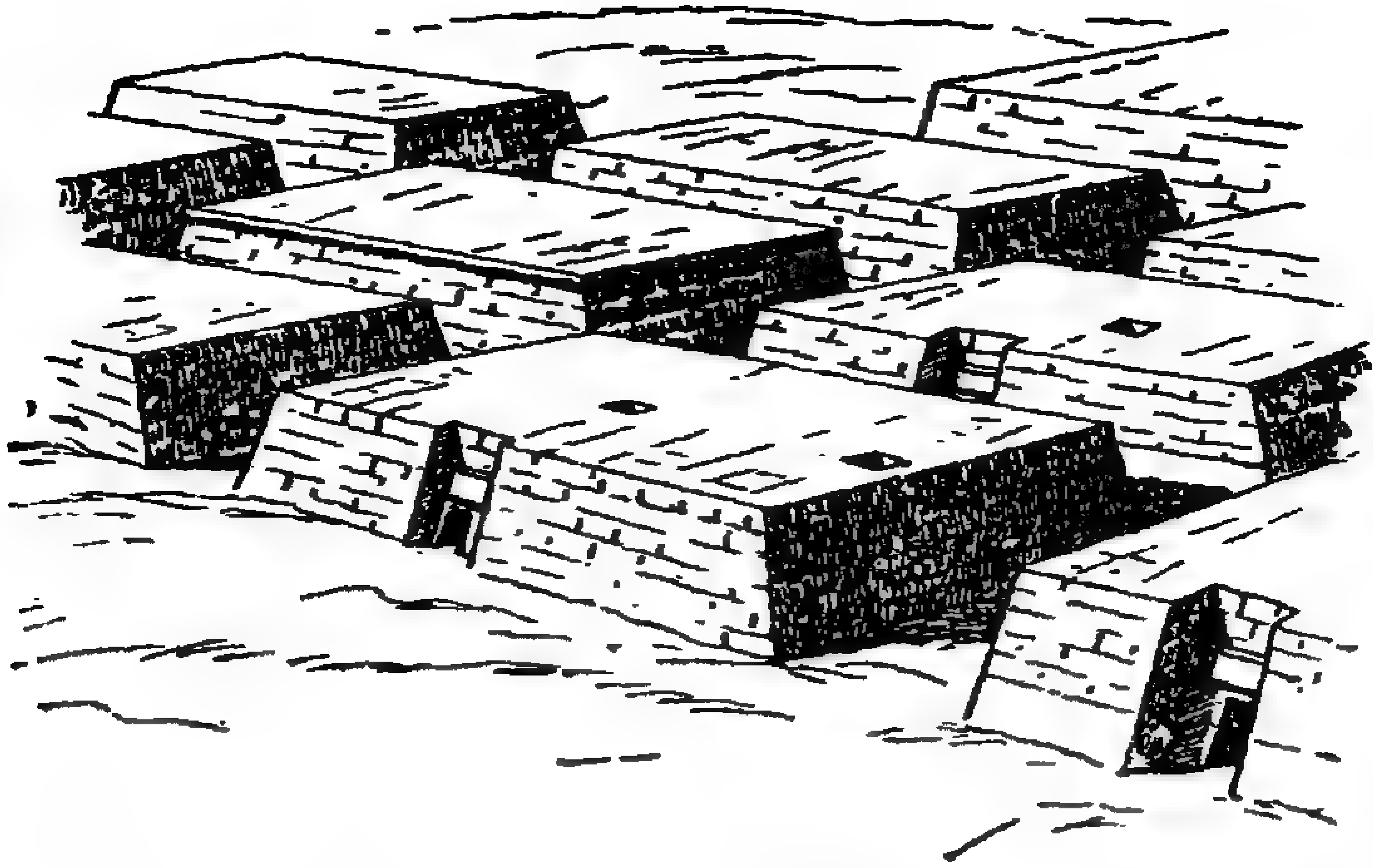
وكانت هذه المقابر تقع حول الهرم كأنها مدينة ذات شوارع منتظمة ، وهى تختلف كثيرا فى حجمها ، وفى مادة بنائها . وفى زخرفتها ، على أنها كلها فى جوهرها من طراز واحد ، أطلق عليه الفلاحون فى الوقت الحاضر اسما غير جليل . ولكنه

---

(١) Urk. I, 178 وفق تكلة زيتا .

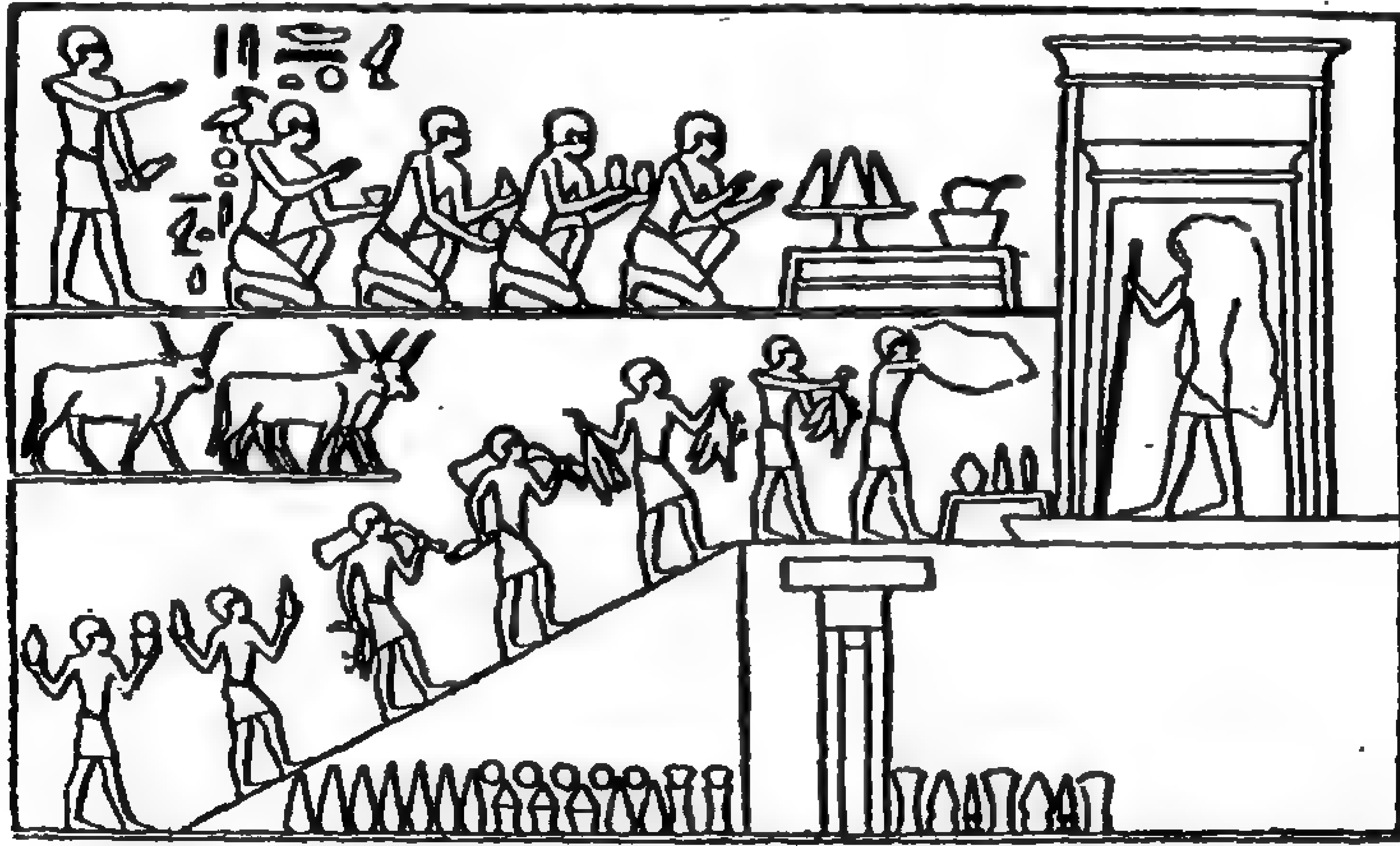
(٢) Urk. I, 161

(٣) Urk. I, 162 ثم انظر كذلك Sethe, Ae. Z. 61,69 ff.



٩٤ — مصاطب (عن برو – شيبى)

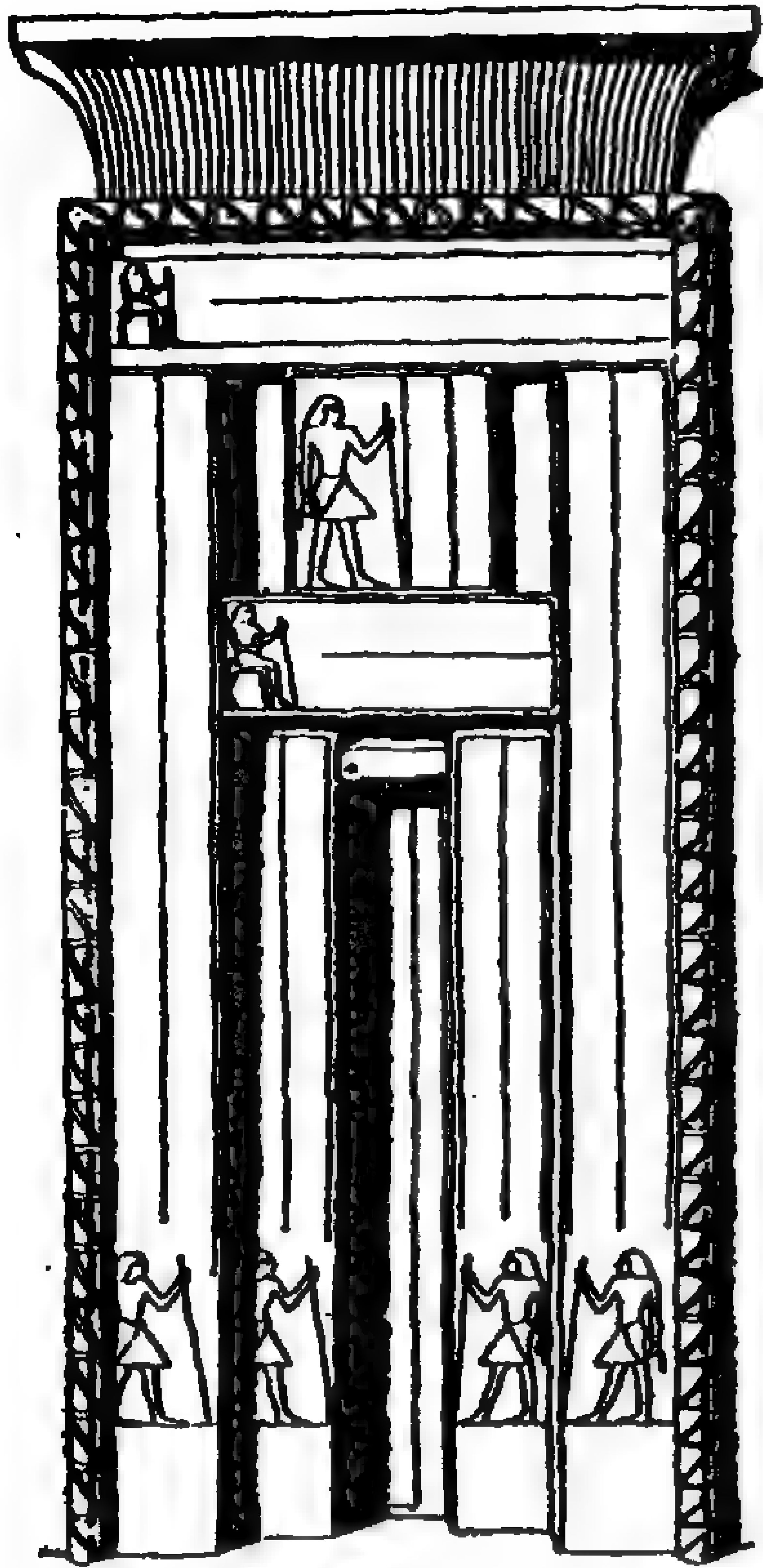
واف بالمعنى ، وهو « المصطبة » ، أى المقعد . وتبدو المصطبة فى مظهرها الخارجى على الشكل المستطيل الذى تتميز به أقدم المقابر الملكية ، غير أنها تجمع إلى هذا سائر



٩٥ — تقديم القربان أمام إحدى مقابر الدولة القديمة . وفى أعلى تمثال الميت فى ناووس (L. D: الجزء الثانى لوحة ٣٥)

الوسائل الاحتياطية ، التى ابتدعت حتى ذلك الوقت لوقاية الجثة . فكانت تحفر فى الأرض الصخرية حفرة عمودية عميقة (نسميها البئر) ، ثم تنقب فى نهايتها غرفة صغيرة جانبية ، كانت توضع فيها الجثة . ومن فوق البئر كانت تقام كومة مستطيلة من كتل الأحجار ، تكسى جوانبها بجدران من الحجر المنحوت ، وبذلك كانت المصطبة تبدو كأنها بناء مشيد له جدران مائلة . وكان يزاد فى ارتفاع البئر حتى يبلغ

سطح المصطبة ، إذ كان يجب إنزال الجثة منه يوم الدفن [1] فإذا تمّ هذا سدّ المدخل إلى غرفة الميت وملئت البئر حتى أعلاها بالأحجار وتقارة الأحجار .



٩٦ — باب وهمى حذفت من عليه الكتابات
(برلين ١١٠٨)

وإذ تصوّر المصريون أن مملكة الموتى كانت تقع فى الغرب ، أو أن الدخول إليها كان من جهة الغروب ، فهم لهذا كانوا يتجهون أيضا إلى هذه الناحية من السماء فى كل ما كانوا يأتون من أجل الميت . فكانت المقابر تأخذ مكانها على حافة الهضبة الغربية حيثما أمكن ؛ كما كان المكان الذى يقدّم فيه القربان للمتوفى [2] يتخذ أمام الجدار الشرقى للمصطبة ، بحيث كان مقدم القربان يتجه إلى الغرب عندما يخاطب الميت . وكان من المعتاد تمييز مكان تقديم القربان هذا فى المصطبة بما يسمى بالباب الوهمى ، وهو صورة تمطية للباب . وهو يمثل فى الوقت نفسه المدخل إلى داخل القبر ، والباب الذى يخرج منه الميت لاستقبال ما يقدمه الأحياء من تقدمات . وفى المصاطب الكبيرة كان يؤثر تعميق مكان تقديم القربان على شكل غرفة ، يقوم فى جدارها الخلفى الباب الوهمى . وكانت هذه الغرفة صغيرة فى بداية الأمر . فغرفة مقبرة متن ، التى توجد فى برلين ، والتى تنتمى إلى الأسرة الثالثة ، ليست فى حقيقة الأمر سوى مشكاة عميقة ضيقة ، يتسع مؤخرها على شكل الصليب أمام الجدار الخلفى . وهى لم تكن لتسع غير الشخصين اللذين كان عليهما أن يقوما

---

(١) لنقل التابوت إلى سطح المصطبة ، حيث كان يقام أيضاً الاحتفال الجنازى ، كان ينشأ طريق صاعد ، يزال فيما بعد ، انظر Schaefer, Ae Z. المجلد ٤١ ، صفحة ٦٥ .

(٢) فى المقابر الأقدم عهدا كان كثيرا ما يخصص للطقوس الجنازية مبنى إضافى من اللبن يحيطه فناء .

بالصلاة وتقديم القربان في المقبرة ، كما كانت تسمح فضلا عن ذلك لمقدم القربان بأن يضع الأطعمة على يسار الباب الوهمي ويمينه . وقد حليت جدران هذه الغرفة الصغيرة بشتى الصور المناسبة [١] ، فأهل الميت يقدمون له الأطعمة والأثاث المنزلى ، وكلابه (كان الميت رئيس الصيادين) تصيد له الحيوانات لقربانه ، والكهنة يؤدون له الطقوس . وعلى المدخل نصان طويلان يتحدثان عما أصابه متن في حياته من توفيق ، وعما شيده لنفسه من بيت جميل وحديقة كبيرة .

وفي عهد خوفو ، أي بعد بضع عشرات من السنين ، أصبح من المرغوب فيه أن تكون الغرف أكثر اتساعا ، والزخارف أكثر تنوّعا ؛ وأخيرا كان في الأسرتين الخامسة والسادسة أن ابتنى كثير من العظماء بيوتا حقيقية في مصاطبهم . فمقبرة مرروكا وزير الملك ببي (حوالى سنة ٢٣٧٥) تحتوى على ما لايقل عن إحدى وثلاثين غرفة خصص منها واحدة وعشرون غرفة للميت نفسه ، وستّ غرف لزوجه وأربع لابنه . ثم ماذا من الصور لم يصوّر في مثل هذه المقابر ؟ لقد صوّرت فيها زراعة الأرض ، وتربية الماشية ، وصيد الحيوان والطيور ، كما صوّر فيها الصناع ، والملاحون ، والموسيقيون ، والراقصات ، وذبح الضحايا من الحيوان ، وعصر النبيذ ، وسائر ما عدا ذلك مما كان يبدو سارا مشوقا للطبقة الممتازة من المصريين [٢] . حقا إن لمعظم هذه الصور صلة أيضا بالمقبرة — فالماشية ، والصيد ، والطيور ، والحبوب ، والنبيذ ، هي لما يقدم في المقبرة من قرابين ، والصناع إنما يعملون لتزويدها بما يلزمها من أثاث ، والملاحون ينقلون التقدمات إليها ، والموسيقى والرقص للترفيه عن الميت ، كما كان يرفه عنه في الحياة . على أن من يدقق النظر

(١) ليس هناك ما يدلل على صحة الرأى الحديث ، الذى يذهب إلى أن هذه النقوش إنما وجدت مكانها في المقابر ليكون لمن تمثله من الخدم والحيوان وما إلى ذلك نصيب مع الميت في البقاء بعد الموت ، وليقوموا أيضا بخدمته في الحياة الثانية . أضف إلى هذا أن هذا الرأى في حد ذاته قليل الاحتمال ؛ وإلا لكانت هذه الصور قد اختيرت بطريقة منظمة ، ولما كان للحرية والاختيار مجال كبير في رسمها . إن هذه الصور إنما ترجع إلى ماترجع إليه الزخارف في سائر العالم من أسباب ، ألا وهى فرحة الامتلاك ولذة العمل الفنى .

(٢) لقد سمح كذلك في بعض حالات معينة للفنانين الذين عملوا في المقبرة أن يمثلوا أنفسهم في صورها . ومن أمثلة ذلك أن رئيس المثالين « بتاح - غنخ - فى » الذى ندين له بالنقوش الجميلة في مقبرة بتاح حتب ، مثل نفسه وهو جالس في قارب ينعم بالطعام . انظر .Ae. Z مجلد ٣١ ص ٩٧ ، ٩٩ .

لايلبث أن يلاحظ أن هـذه العلاقة قد أخذت تغدو مع الزمان شيئا ثانويا ، وإلا لما كانت هناك ضرورة إلى تصوير الملاحين وهم يعتركون ، إذا كان المصريون قد تخيلوهم حقا يجلبون التقدمات فحسب ؛ ولم يكن من الضرورى كذلك أن يخلد على جدران المقابر ما يتنادى به الجزارون ، أو ما يغنيه حملة المحفات ، أو أسماء القفزات الجريئة للراقصات . فى هذا كله ندرك أن هناك محاولة واضحة لزخرفة المقبرة بطريقة فنية زاهية ، حتى ولو كان فى تعليل ذلك شيء من افتيات . وإنه لمن غير المحتمل أن يكون هذا التغيير قد حدث بغير سبب قوى ، لهذا يعتقد أنه قد سادت فى ذلك الوقت عادة إحياء أعياد الموتى بالمآدب البهيجة بما يناسب الغرف الكبيرة ذات الزخارف الزاهية أكثر مما يناسب الغرف الضيقة ذات الصور المملة .

وفيما عدا ذلك كذلك أصبح كل شيء يتصل بإطعام الميت فى الدولة القديمة أشد أناقة ، وأحفل بأطايب الطعام من قرن إلى قرن . أجل لقد كان يسر المصريين منذ وقت مبكر أن يغالوا على الطريقة الشرقية فيما كانوا يتمنون للميت من طعام ، إذ كانوا يتمنون له ألف رغيف ، وألف قدر من جعة ، وألف ثور ، وألف إوزة ، وألفا من كل شيء طيب طاهر ، على أن هذا لم يكن غير أمانى لايكلف نطقها شيئا ، وإنما كان المعتاد أن يضع ا. حيا. بضعة أرغفة على مائدة القربان أمام الباب الوهمى ، ثم ينضحونها بالماء ؛ فإذا أضافوا إلى هذا فى أيام الأعياد العظيمة الممتازة بعض الفاكهة ، وفخذ ثـ ر ، فإنهم كانوا يظنون أنهم قاموا بواجبهم بما يبلغ حد الكفاية . وكذلك لم تكن القائمة الطويلة للأطعمة التى كان يؤثر الإنسان كتابتها إلى جانب صور الميت ، وهو يتناول الطعام ، بما تشمله من أنواع النبيذ الخمسة ، وأنواع الفطائر الأربعة عشر ، وأ ـاع اللحم العشرة ، إلا أمنية طيبة فقط على وجه التأكيد [1] .

على أن ذلك قد غدا شيئا آخر فى تلك المقابر الكبيرة ، التى سبق الكلام عنها ، ويدل على ذلك عدد من كان يقوم بالعمل فيها من الموظفين من الدرجات الدنيا والوسطى والعليا ، وهم « خدمة الكا » ، أو كهنة الميت كما نسميهم . وحيثما كان

---

(١) ربما كانت هذه القائمة مأخوذة من المقابر الملكية ، التى كانت دائما نموذجا لمقابر الأفراد .

الأمر يقتضي عددا كبيرا من الموظفين لتقديم القرابين — فى مقبرة مرروكا أمكنني حصر ٤٧ كاهنا — لابد أن كانت كذلك القرابين المقدمة من كميات كبيرة . ولعلّ كثرة عدد الكهنة فى هذه المقابر إنما كانت على مثال ما جرى عليه الملوك ، فقد كان هؤلاء يستخدمون فى أهراماتهم عددا كبيرا من الأشراف كهنة جنازيين . وبهذا لم يقدّر للنظام الطبيعى القديم البقاء ، ذلك النظام الذى كان يعهد فيه إلى الأبناء والأحفاد أمر الاهتمام بالموتى ، إذ كان على هؤلاء الأفراد — وكانوا من علية القوم — واجبات أخرى كثيرة ، لم تكن لتسمح لهم بالقيام كذلك بما كانت تتطلبه المقبرة من رعاية منتظمة . ولهذا لم يبق إلا غض النظر عن تقوى الأبناء ، والاهتمام بالموتى عن طريق العمل المأجور . فكانت الاتفاقات تعقد مع بعض الأقارب أو بعض خدم الأسرة أو مع بعض الأشخاص من غير الأهل والأقارب ، يمنحون فيها ملكية بعض الأراضي أو بعض الدخول ، على أن يتكفلوا مقابل ذلك بتزويد الميت بالقربان وتأدية الطقوس الضرورية ، وأن يحفظوا المقبرة فى حالة جيدة .

وفى المقابر الكبيرة كان هؤلاء الكهنة الجنازيون يؤلفون جماعة من مراتب مختلفة لها قوانينها الخاصة . ومما تتميز به هذه القوانين ، أن قد روعى فيها أيضا حساب المنازعات بين أفراد الكهنة الجنازيين؛ وفيما عدا ذلك كان لهذا النظام مضارّه أيضا ، ولهذا عدل عنه فى الدولة الوسطى ، إذ فضل إذ ذاك تخصيص كاهن واحد فقط للميت ، يزوّد بالدخل الضرورى ، ولا يجوز له أن يورث وظيفته ودخلها إلا لابن واحد من أبنائه

ويلاحظ كذلك فى الدولة القديمة ، أن هذه العادة التى استحدثها العظماء لم تلبث أن انتشرت بين الطبقات المتواضعة ، فهاهو ذا رجل ، لم يكن إلا كاهنا جنازيا ، قد ترك لنا لوحا [٢] أحصى عليه مختلف الأشخاص الذين ألحقهم بمقبرة ابنته . فإذا جاز لنا أن نستنتج حالة مركزه المالى من رداءة كتابة هذا اللوح ، فانه لم يكن ليستطيع أن يسخو فى العطاء على هؤلاء الأشخاص ؛ ومع ذلك فلعل الملك

---

(١) Ae. Z. 60, 83

(٢) برلين ١٤١٠٨ .

أن يكون قد ساعده فى ذلك على نحو ما كان يفعل كثيرا فى ذلك الزمن القديم .

وقد أدّى هذا التدخل من قبل الملك إلى تصوّرات غريبة ، لايمكن لنا التجاوز عنها هنا . فى الطبقة العليا من المصريين ، التى كانت فى كثير من الوجوه تعيش على كرم الملك « وتأكل مما يعطيه من فاخر الطعام » فى البلاط [1] ، كثيرا ما كان الملك يساعد كذلك بعض الجديرين من أفرادها فى تجهيز مقابرهم والإنفاق عليها [2] . وإنا لنسمع عن الكثير من هذه الحالات ، فمن الأشخاص من ابتنى له الملك مقبرة كاملة ، ومنهم (وكان طبيب الملك الخاص) من منحه الباب الوهمى على الأقل [3] ، ومنهم فريق ثالث كان يستجلب لهم التوابيت الحجرية [4] ، ومنهم كذلك من كان يتمنى فى مقبرته « أن يكون من المستطاع أن يورد إليه القربان الجنازى من الشون ، ومن بيتى المال ، ومن مصانع الزينة الملكية . . . ومن كل مكان للبلاط ، يرد منه قربان جنازى »[5]. وإذا كان هذا قد حدث فى الدولة القديمة فى بعض الحالات ، فلعله كان القاعدة تقريبا فى العهود الأولى ، حيث كانت المقابر الحسنة لاتزال تقتصر على طائفة صغيرة من أسمى الشخصيات ، وهكذا كان يرجى لكل ميت أن يضع الملك الأطعمة أمام قبره . وكما كان يرجى من أنوبيس ، إله الموتى القديم ، أن يوفر للميت غذاءه ، فقد كان يرجى ذلك كذلك من الملك ، وكانت أكثر الدعوات تلاوة فى المقبرة « ما يعطى الملك من قربان ، وما يعطيه أنوبيس ! ألف من خبز ، ومن جعة ، ومن ثيران ، وإوز ، ومن كل شىء طيب ! » وقد ظلت هذه الدعوة إلى العصر الذى غدت فيه فاتحتها غير ذات معنى تقريبا ، ولكنها ظلت الدعوة الجنازية المثلى عند المصريين . فقد كانت هذه الدعوة : « ما يعطى الملك من قربان »

---

(١) Westcar 7,21

(٢) وكان يحدث كذلك أن يكرم الملك من مات من الرجال الجديرين ، وذلك بمنحه فى مقبرته مرثية أسمى ما ناله فى حياته (Deir el Gebrawi الجزء الثانى ، صفحة ٣٥ وما بعدها) — وهذه عادة نجد كذلك ما يماثلها فى الصين .

(٣) Mar. Mast. D. 12

(٤) نصوص أوف .

(٥) Mar. Mast. E. 12 ؛ انظر أيضا العبارة الواردة فى Ae. Z. 39, 85 (من الدولة الوسطى) التى تنص على أن الملك يسمح بتقديم القربان للآلهة والقربان الجنازى للميت (برستد) .

هى أمّ الدعوات عند المصرى القديم، كما أنها ظلت باقية طوال آلاف من سنين، ولئن كانت قد أوّلت وحرّفت ، فقد احتفظت دائما بفاتحتها القديمة ، وكانت تستخدم للآلهة نفسها فى معابدها . وكانت تكتب طوال عهد الديانة المصرية فى المقابر جميعا ، وعلى سائر مايوضع فيها ؛ وإنا لنرى علاماتها الهيروغليفية على الآثار المصرية بكثرة تورث الضجر والملل ، مما يدعونا إلى إهمالها وغضّ النظر عنها . على أننا إذا أردنا الخير للمصريين ، فإنه لاينبغى أن نتغاضى عنها بهذا الشكل ، وإنما ينبغى أن نقرأها بصوت عال وفى ورع وتقوى ، لأنها هى التى يرجوها أصحاب المقابر المصرية من الخلف دائما . إنهم يرجون منا « نفحة من الفم ، تفيد الميت ولا تثقل »[1] على من يلفظها ، ولا تكلف أحدا شيئا[2] ؛ إنهم يرجونها منا بكل ماكان مقدسا عندهم : « بحقّ ما تودون أن تحبكم آلهة بلادكم وتجزيكم ، وتخلّفوا وظائفكم لأبنائكم ، أو بحق ما تحبون الحياة وتكرهون الموت » . وأخيرا أصبحت عبارة « ما يعطيه الملك من قربان » التى « ينبغى أن تتلى كما هى فى الكتابات القديمة » ، وكذلك عبارة « الخروج على الصوت » (صفحة ٢٧٦ — ٢٧٧) التى ينبغى تلاوتها بنصّ « ألفاظ الأجداد »[3] ، تعويذة سحرية ، فى مجرّد تلاوتها مايوفر للميت غذاءه بأسلوب خارق للمألوف . وهكذا انتهى الأمر بالدعوة القديمة أن غدت رقية بكثرة الاستعمال كما هو الشأن فى العالم فى كثير من الأحيان[4] .

عدا هذا ، كثيرا ما تخاطب كتابات المقابر زوّارها فى مستقبل الأيام . من ذلك أن أحد أصحاب المقابر يؤكد لنا أن له كل الحقّ فى احترام الخلف إياه ، لأنه كان رجلا طيبا « لم يأت سوءا ضد أىّ إنسان » ، وأنه « ابتنى مقبرته هذه من موادّ

---

(١) برلين ٧٣١١ وفى مواضع أخرى كثيرة . وقد يزاد على ذلك ، أن هذا يفيد من يفعله أكثر مما يفيد من يعمل من أجله (انظر مثلا فلورنس ١٥٤٠) ـ وذلك لأن الآلهة تجزيهم خيرا عن مثل هذا العمل الصالح .

(٢) Ae. Z. 45,67 (Spiegelberg)

(٣) Paheri 9,41

(٤) إن من يعتبر هاتين الصيغتين مجرد تعويذتين سحريتين منذ البداءة ، كما هو الشائع الآن ، يجب أن يعتبر على هذا النحو كذلك منذ البداءة : « أبانا الذى فى السموات » و « السلام لك يا مريم » ، وذلك لأنهما يتليان الآن على نحو مماثل لسعادة الأرواح المسكينة .

جديدة ، ولم يأخذ لها شيئا مما يملكه إنسان »[١] . ويقول آخر : إن ما يقدم له « هو ملكه الخالص » ، وأن « ماعزه (الخاصة) تذبح » له فى قبره ، الذى بناه « بيده »[٢]. ويذكر رجل ثالث أن « سائر من سيدخلون هذه المقبرة ويرون ما فيها ويصونون كتاباتها . . . ، سيصبحون شيوخا فى مدينتهم، وأشخاصا محترمين فى مقاطعاتهم »[٣]. ولكن الويل لكل من يتلف المقبرة : إن الميت سوف « يدعوه أمام المحكمة » ، وهو وإن لم يعد يستطيع اللجوء إلى أية محكمة على الأرض ، فهو مع ذلك يستطيع الأخذ بتلابيب المسىء أمام الإله « العظيم » الذى يقيم عنده[٤] .

ومع ذلك فلم تق هذه اللعنات ، ولا الأوقاف الثابتة ، المقابر المصرية من القضاء المحتوم ، الذى لم يكن مناص من تعرضها له بما يتفق وطبائع الأشياء ؛ فما فى ميسور الشعوب ، حتى أغناها ، أن تتحمل دائما أبدا ما تقتضيه الرعاية المتصلة لموتاها من تكاليف . وماذا عسى أن يفيد ما كان عند الملك الحاكم من رغبة طيبة فى أن يؤدى مخلصا واجب البر والتقوى نحو « الملوك الأجداد » ، ونحو سائر الملكات والأمراء الأقدمين؟ إنه لامفر من يوم يأتى ، يعلن فيه مستشاروه أن من الصعب إنشاء وقف يكفى لمقبرة الملك الخاصة ، وأن من المحال إرضاء مطالب سائر أقرباء الملك بما فيه الكفاية . ولذلك فلم يكن بد ، من الاستيلاء على وقف أحد الأجداد ممن غمرهم النسيان بعض الشىء ، والانتفاع به فى المطالب القائمة . فإن الملك ساحورع لما أراد أن يسر قلب برسن ، موظف القصر العجوز ، بهبة خالدة ، لم يجد أصلح من الاستيلاء على وقف الملكة القديمة نفر حتس ، ونقل الفطيرتين والزيت ، وهو ما كانت تحصل عليه تلك الملكة كل يوم لمقبرتها من معبد بتاح ، إلى هذا الرجل الجدير[٥] . ولا بد أن ما لم يكن من الميسور تجنبه بالنسبة للملكية ، على كثرة وسائلها وعظم

---

(١) برلين ١٥١٢٦ ؛ يماثل ذلك القاهرة ٢٠٧٤١ .

(٢) القاهرة ١٥٩٦ (نهاية الدولة القديمة) .

(٣) Siut I, 225 ff.

(٤) برلين ١٥١٢٦ وكثير غيره .

(٥) برلين ١١٤٠٦ =(Mar. Mast. D. 45)

شأنها ، قد وجد سبيله على مدى أوسع فى أسر الأفراد ، ولم يكن بدّ أن تضطرّ حتى أغنى الأسر إلى استخدام دخول المقابر القديمة للإنفاق منها على مقابر العصر القائم . ولم يكن كهنة الموتى ليعنوا إلا بالمقابر الحديثة ، التى كانوا يجزون عن العمل فيها ؛ أما المقابر القديمة فكانت تغلق وتترك وشأنها . ويدلنا مثل من مصر الحديثة على ما كان لابد من حدوثه إذ ذاك ، فنى القرن الخامس عشر بعد الميلاد ، أنشأ سلاطين المماليك فى القاهرة مقابر لهم تنافس فى فخامتها مقابر مصر القديمة ؛ وكانت عبارة عن مساجد مزوّدة بمدارس وغرف للطلبة ، خصصت لها أوقاف غنية للإنفاق عليها وعلى مرتبات عدد كبير من الموظفين ممن كانوا يعملون فيها . وقد ألغيت هذه الأوقاف فى بداية القرن التاسع عشر ، وبهذا غدت هذه المساجد الجنازية فى الوقت الحاضر خرائب متهدمة ، تستحقّ الرثاء ، بعد أن انتزع منها وسرق كل ما يستحق السرقة . ويقيم فى بعضها جماعة من الشحاذين ، هم أحفاد موظفى الجوامع ، الذين كانوا يقيمون فيها فيما مضى ، أما البعض الآخر فقد استفادت به الحكومة باتخاذه مخازن [1] . وليس هناك من سبب يدعو إلى الظنّ بأن الأمر فى مصر القديمة قد كان على خلاف ذلك ، إذ لابد من أن كل مقبرة يهمل أمرها ، قد كانت تنتهى سريعا إلى الدمار . وإنا نعلم اليوم من الحفائر الألمانية فى أبو صير ، كيف كان يتدرج مثل هذا الدمار .

فنى الأسرة الخامسة شيد فى هذا المكان معبد جنازى بالغ الفخامة ، ولكن كل شىء فيه قد خرب بعد قرون قليلة ، وأصبحت تقطن فيه بعض الأسر ، التى كانت تدّعى أن أفرادها هم الكهنة الجنازيون للملك القديم — على أنه يبدو أنها كانت من ذرية أمثال أولئك الكهنة — وكانت هذه الأسر فقيرة ؛ وكانت تدفن موتاها فى خرائب المعبد القديم . وحدث بعد ذلك أن حظيت صورة منقوشة للإلهة سخمت ، تبقت بهذا المعبد ، بشهرة كبيرة من التقديس عند سكان المناطق المجاورة ، وهكذا قدّر لهذا المعبد أن يعيش من جديد فى الدولة الحديثة معبدا متواضعا لهذه الإلهة (صفحة ١٦٣) . ومما يدل على مدى نهب المقابر التى أهملت رعايتها ، ما وجد من

---

(١) يبدو أن الحكومة المصرية قد أخذت فى الوقت الحاضر تهتم من جديد بهذه المبانى التى خربها الإهمال .

أشياء عديدة فى المقابر المتأخرة . وقد كان يمحى منها اسم الميت الذى سرقت منه مقبرته فى الزمن القديم ، ويثبت مكانه اسم المالك الجديد ؛ وعلى هذا النحو تحمل كثير من التوابيت والتماثيل وما إليها من الأثاث الجنازى آثار هذا الاستخدام المزدوج . وتدل المقابر نفسها دلالة واضحة على ذلك ، فكلها — أو جلها — اغتصب ونهب فى الزمن القديم . وكثيرا ما يلاحظ أن الكتابة فى إحدى المقابر قد طمست بطلاء ثم حلّ مكانها كتابة لميت آخر ؛ وأكثر من ذلك شيوعا ما كان من استخدام المقابر القديمة استخداما سيئا فظا ، حيث كانت تهدم فى بساطة ، ويتخذ ما يصلح نقله من أحجارها مادة سهلة للبناء . ومن ثم طفقت الرياح تحمل إلى أطلال هذه المقابر رمال الصحراء دون أن يعترضها حائل ؛ وطفقت الرمال تتجمع وتعلو دائما حتى تكوّن آخر الأمر مستوى جديد ، أقام عليه جيل متأخر مقابره من جديد ، وهكذا توجد فى سقارة فوق المقابر الخربة من عهد الملك تتى ، غير بعيد من هرمه ، مقابر أخرى من الدولة الحديثة ، تعلوها مقابر أخرى أقامتها مصر فى العهد اليونانى ، وقد خربت هذه المقابر جميعا ونهبت . وإن منظر هذه المنطقة الآن لمنظر محزن ، وإنه ليذكرنا بالأبيات القاتمة ، التى يرثى فيها شاعر مصرى قديم عقم الأبنية الجنازية جميعا : « هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر ، وأولئك الذين بنوا فى هرم بهوا ؟ ، وأولئك الذين أبدعوا شيئا جميلا فى هذا العمل الجميل . . . إن موائد قرابينهم خالية كموائد « المكدودين » الذين يموتون على رصيف الميناء دون خلف » [1] .

ومن حين لحين ، كان أحد الأحفاد الأتقياء يشعر بأن من واجبه إعادة بناء مثل هذه المقابر ؛ وهكذا يفخر إنتف ، أمير أرمنت فى الدولة الوسطى : « لقد وجدت غرفة قربان الأمير نختى — إقر مهدمة ، وكانت جدرانها قديمة ، وكل تماثيلها مهشمة ، ولم يكن من أحد يهتمّ بها . فشيّدت من جديد ، وزيد فى رقعتها ، وصنعت تماثيلها من جديد ، وأقيمت أبوابها من الحجر ، وذلك لكى يسمو مقرّه على مقرّ الأمراء العظام الآخرين » [2] . وكان ما أداه انتف يعتبر فى حقيقة أمره واجبا

(١) Gespraech eines Lebensmueden 60 ff. (Litt. S. 125)

(٢) برلين ١٣٢٧٢ ، وقد حدث كذلك أن رجلا أصاب نجاحا فى حياته فعمل على بناء مقابر جميلة لأجداده بدلا من مقابرهم المتواضعة (القاهرة ١٦٥٢ من نهاية الدولة القديمة) .

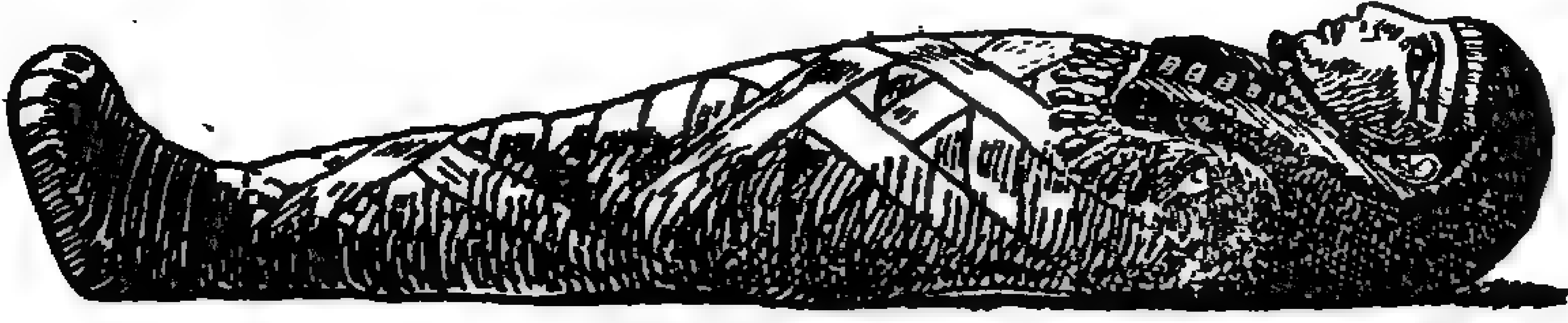
دينيا ؛ ولكن ما أكثر الذين يفخرون بأنهم « جدّدوا ما كان مهدما » ، وما أقلّ من عملوا جديا على ذلك ! على أن الأمر قد كان مستحيلا حقا . ومع ذلك ففيم كان يفيد تجديد بناء المقابر المتهدمة ، إذا كان اللصوص ، كما كان الأمر فى كثير من الحالات ، قد اقتحموا غرفة التابوت نفسها ، وانتزعوا الجثة وهشموها ؟ لقد كان هذا بالذات هدفهم المعتاد ، لأنهم كانوا يجدون فى غرفة الدفن سائر ما كان يمكن الانتفاع به بسهولة . أما ما كان يوجد فى غرفة القربان فوق سطح الأرض من موائد للقرابين ، وقصاع حجرية ، وقواعد وغير ذلك ، فقد كان قليلا حقا بالنسبة إلى الغنيمة التى كان يتوقعها لهم خيالهم فى غرفة التابوت ، وما كان للجثث أن يقلق راحتها أحد ، إلا أن يكون فيما أودع بجانبها من أثاث ما يغرى .

ولسوف نرى فى الفصل الثامن عشر كيف كانت المقابر تنهب بأسلوب منظم ، حتى اضطرّت الحكومة آخر الأمر إلى الاستسلام أمام اللصوص ، إذ لم تعد تستطيع حماية مقابر الملوك ، ولم تجد من وسيلة أخرى غير إخفاء الجثث نفسها ، التى لما يعبث اللصوص بها ، وذلك فى شِعْب بالجبل . وقد بقيت فيه زمنا لا يهتدى إليها اللصوص حتى عام ١٨٧٥ .

وإذا كان المصريون قد ظلوا يتمسكون بعادة دفن موتاهم بعناية ونفقات كثيرة رغما عن الأحداث المتكرّرة المخيبة لآمالهم ، فان هذا لم يكن حبا فى التقاليد القديمة فحسب ، ولكنهم لأنهم كانوا كذلك ينسبون إلى سائر عادات الدفن هذه أهمية كبيرة لسعادة الميت ، إذ لم يكن القربان والدعاء وحدهما بكافيين . وقد تطوّرت هذه العادات كثيرا فيما بعد ، على أنها كانت كذلك فى الأزمنة القديمة بيّنة التعدد ، وذات خصائص مميزة ، حتى إنه لا يجوز أن يفوتنا أن نعرضها هنا فى خصائصها الجوهرية .

كان المصريون عند علاجهم الجثة يعملون جهدهم على أن يحفظ الجسد سليما ، وأن يصان له مظهره الطبيعى . فقد كانوا يعتقدون أن الروح سوف تجد فيه مقرها المعتاد كما كانوا يعتقدون أنه سيبعث من جديد . لذلك كان يعالج بالنطرون والقار ثم تلف سائر الأعضاء فى الكتان ؛ وكان يوضع على الوجه قناع من الكتان والجص

من شأنه أن يضفى عليه مظهرا طبيعيا بقدر الإمكان [1] . وكانت المومياء توضع بعد ذلك فى هيئة النائم على الجانب الأيسر ، ورأسها على مسند خاص (انظر الشكل



٩٧ — مومياء من الدولة الوسطى (من رسم بسالاكا)

صفحة ١٦٧) ، وذلك من داخل تابوت يغلق عليها ؛ وهو صندوق مستطيل من حجر أو خشب ، جدرانه قوية تحمى الجثة من العبث . أما كيف لاتحد جدران التابوت هذه من حرية الميت ، وكيف يستطيع الميت مع ذلك « أن يدخل ويخرج دون أن يعوقه شىء لكى يشاهد الشمس » ، فذلك ما يجب ألا يرجو أحد فهمه ، لأنه ينتمى إلى عالم ما وراء الطبيعة . ومع هذا فقد شعر المصريون أنفسهم بما فى ذلك من تناقض ، وذلك لأنا نجد على كثير من التوابيت ، أنهم قد اتخذوا من التدابير ، ما كانوا يظنون أنه يعالج هذه الصعوبة . فبالقرب من الرأس ، على الجانب الذى يتجه إليه وجه الميت ، صوّروا من الخارج عينين كبيرتين [2] ، « كى يرى » الميت بهما « سيد الأفق ، وهو يجوب السماء » [3] . وعلى جدار التابوت صوّروا فى بعض الأحيان بابا يسمح للميت بمغادرة تابوته . وفيما عدا ذلك كان شكل التابوت فى الأزمنة الأولى بسيطا جدا ، فهو عبارة عن صندوق أملس ذى غطاء مسطح أو صندوق ذى أربعة أعمدة مرتفعة فى أركانه وغطاء مقبى (وهكذا كان يظن شكل تابوت أوزيريس) . وفى الدولة الوسطى — إذ فضل التصوير على التابوت بألوان مختلفة — كان من المعتاد تغطية سطوحه الداخلية بفصول شتى من

---

(١) حفظ لنا من الدولة القديمة نص يدل على مدى ما كان يبذل من عناية فى التحنيط ، وهو يدل كذلك على أن التحنيط كان إذ ذاك لايستغرق أقل من عشرة أشهر (Urk. I 156/157) أما فى العهد المتأخر فكان يستغرق سبعين يوما .

(٢) وكانت العينان اللتان ترسمان على الجزء الأعلى من كثير من شواهد القبور تهدفان إلى تحقيق مثل هذا الغرض ، انظر ما كتب إلى جانب العينين على الشاهد رقم ٢٠٢٤٩ بمتحف القاهرة ، وهو من الدولة الوسطى .

(٣) Steindorff, Grabfunde aus d. Koen. Museen II, 5.

الأدب الجنازى القديم (انظر صفحة ٢٣٣) ؛ ومع هذا فإن أهمّ ما كان يكتب على التابوت هى السطور التى على الجدار الخارجى ، والتى يعهد فيها بالمتوفى لكنف الآلهة الذين يحمون الموتى : لأنوبيس ، وأوزيريس ، وجب ، ونوت ، وإيزيس ، ونفتيس ، ولأبناء حورس بصفة خاصة ، فهؤلاء ساعدوا فيما مضى أوزيريس الميت ، وفتحوا له فمه (انظر صفحة ٨٤ـ٨٥) ، حتى يستطيع أن يأكل ويتكلم من جديد . ولهذا ينبغى أن يساعدوا الإنسان المتوفى كذلك ؛ وفى الواقع لقد أصبح واجبهم الأول حمايته من الجوع والعطش ، مما أدّى إلى عادة غريبة ، بدأت منذ نهاية الدولة القديمة ، غير أنها لم تنتشر انتشارا عاما إلا بعد ذلك بكثير : وهى عادة استخراج الأحشاء من الجثة ووضعها فى صناديق أو قدور خاصة [1] تحت حماية تلكم الأرواح ، وذلك لكى لاتثير الأحشاء أحاسيس مكدرة للميت .

وكان الميت ــ إلى جانب ذلك ــ يوقى شرّ الجوع والعطش على النحو الذى اتبع فى العصور الأولى ؛ فكان يوضع إلى جانبه فى غرفة التابوت بعض الخبز واللحم والشراب ؛ بل لقد كانت العناية به تتجاوز هذا الحدّ وذلك بتزويده بنماذج تمثل حاجياته الضرورية ، فهناك بيت من الصلصال ذو فناء فيه أطعمة شتى ، وها هى ذى شونة فيها تماثيل صغيرة للعمال ، تمثلهم وهم يفرغون فيها أكياس الحبوب . وهذه غرفة يغزل فيها الخادمات وينسجن ؛ وتلك تماثيل صغيرة وكبيرة تمثل خدما وخادمات قائمين على خدمة سيدهم على نحو ما كان الأمر فى حياته ، فمنهم خادم يحمل زوجا من النعال خلف سيده ، وفتاة وافرة الزينة تأتى لسيدها بمرآته وصندوق من طعام ، وامرأة تطحن حبا بين حجرين ، وأخرى تصنع الجعة . وتؤلف ــ فى بعض الأحيان ــ مثل هذه التماثيل الصغيرة مناظر كاملة [2] . فالسيد والسيدة يجلسان تحت عريشة يشاهدان مايساق أمامهما من قطعان ، أو هاهى ذى فرق الجنود المختلفة ، مثلت وهى تسير فى خطوات منتظمة .

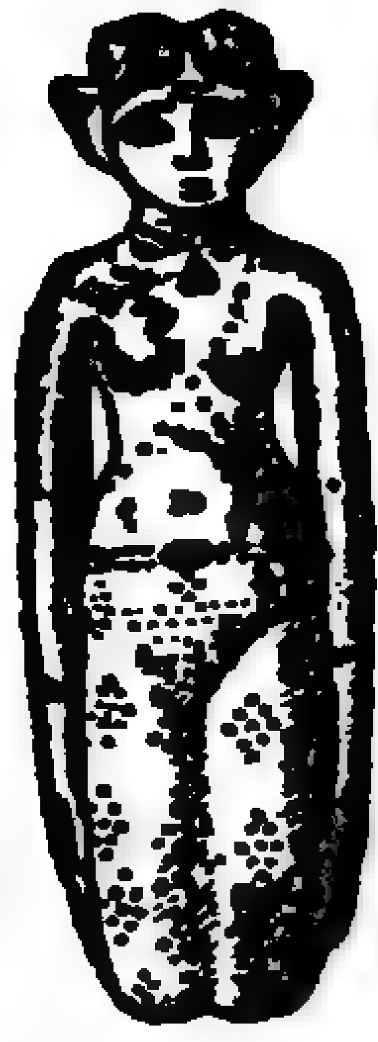
---

(١) فى بداية الأمر كانت الأحشاء تستخرج من الجثة لتيسير التحنيط . وتسمى هذه القدور الآن « القدور الكانوبية » ، وهو اسم يرجع إلى تفسير خاطئ قديم .

(٢) Metrop. Museum, New York, Egyptian Expedition 1918/1920, p 16 ff.



٩٨ — خادمة تطحن (برلين ٧٧٠٦)



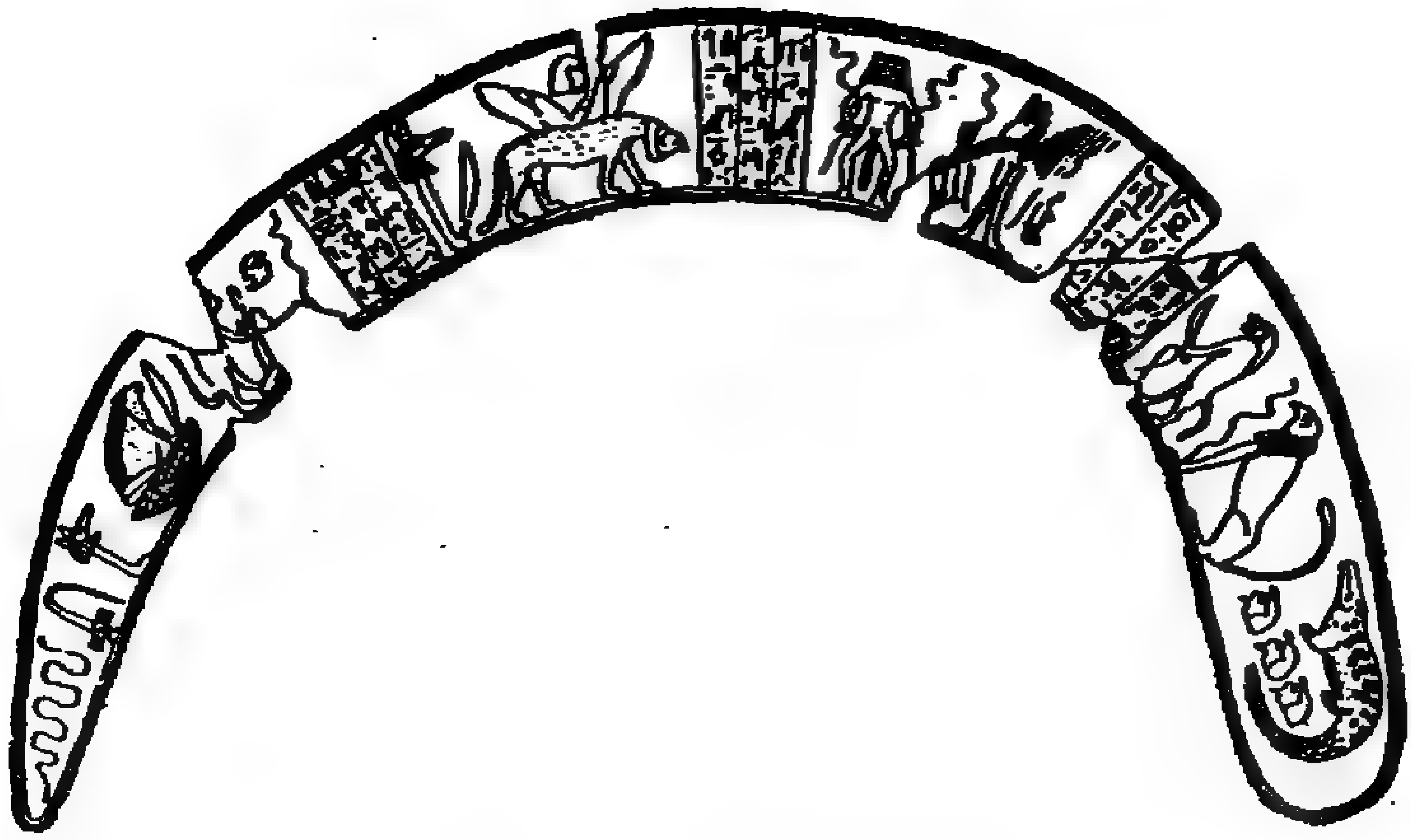
٩٩ — تمثال امرأة من القاشانى الأزرق
(برلين ٩٥٨٣)

ومن الأشكال الغريبة تماثيل صغيرة لفتيات عاريات ينقصهن الجزء الأسفل من الأرجل (١)؛ وهى خاصية لاحظناها من قبل فى تمثال المرأة من عهد ما قبل التاريخ، وهو المنشورة صورته آنفا (صفحة ٢٧٥)، وكأنما أريد بذلك منعها من الهرب من المقبرة. ونحن لا نخطئ إذا دعانا هذا إلى التفكير فى مقابر أقدم الملوك (صفحة ٢٧٨) التى كان يدفن فيها مع الملك حاشيته. حقا لقد استبدل عصر لاحق، دمث الشعور، هذه الدمى بأولئك الضحايا المساكين من أفراد الحاشية.

وقد ظلت كذلك إلى الدولة الوسطى تلك العادة القديمة، عادة تزويد الميت بالسفن حتى لا يكون تحت رحمة نوتى السماء. بل لقد دفن إلى جانب هرم سيزوستريس الثالث فى دهشور سفن حقيقية فى الرمال، على أن الموتى العاديين كانوا يكتفون بطبيعة الحال بنماذج صغيرة. ولكن إذا كان الميت فى هذه النماذج الصغيرة للسفن يرقد فى هيئة المومياء تحت مظالة ومعه نادبتان وكاهن يتلو من كتابه الآيات القديمة، ثم إذا كان ثمة سفينة أخرى كذلك ذات مجاديف تجر سفينة الميت، فان فى هذا ما يبين بوضوح كيف تلاشى الغرض الأصلى من هذه السفن، لأنها، على ما هو واضح، لم تعد تمثل غير عبور النيل إبان الموكب الجنازى.

ولم يكن للتمائم والرموز المقدسة أىّ شأن فى العصر القديم؛ أما بعد ذلك، فقد

(١) ترك تمثيل القدمين أمر شائع فى تماثيل النساء الشبيهة بالدمى. وفى مجموعة الآثار فى ليبزج رجل من هذا القبيل كذلك، يحمل فوق رأسه كيسا من الحب.



١٠٠ — قطعة من العاج نقشت عليها صور تمائم (برلين ١٤٢٠٧)

كانت المومياوات تزوّد بعدد وفير منها لتقيها المخاطر . وإنا لنكتفى هنا بذكر عُصى العاج التى حفر عليها شتى الأشكال الغريبة ، مما كان يسمى « التمائم الكثيرة الواقية » . ويسمى أحد هذه الأشكال المحارب ، ويبدو أن الغرض منه هو حماية الميت من الثعابين والعقارب . ومما يدلّ على مدى ما كان يخشى على الميت من خطر هذه الهوامّ ، تلك التعاويذ التى لا تحصى فى متون الأهرام ضدّ الثعابين . ويدلّ على ذلك كذلك . أنه كان يخشى حتى من الثعابين المصوّرة على جدران المقابر فى علامات هيروغليفية عادية . ولهذا فقد كتب فى كثير من المقابر حرفا ف، ز ، اللذين يمثلان ثعبانين . وكأنهما قطعا إربا ؛ وعلى هذا النحو كذلك اجتنب ضرر المقطع « رو » الذى يمثل أسدا . ويصعب مع ذلك على إدراكنا فى الوقت الحاضر تعليل السبب الذى من أجله كان على الطير أيضا أن يتخلى عن أرجله فى بعض المقابر الأخرى .

أما تجنب العلامات التى تمثل السمك فى متون الأهرام ، فهو يرجع إلى أن هذه الحيوانات المسكينة لم تكن تعتبر طاهرة (صفحة ٢١٤) .

وكان ما يودع إلى جانب الميت من أثاث وأدوات ، يتوقف — بطبيعة الحال — فى نوعه ومقداره على ثراء الأحياء وميولهم ، فكان فى هذا القبر أو غيره كل شىء من أسلحة وعصىّ ، ومقاعد وصناديق ، وأدوات للتجميل والزينة ، وملابس

وزيوت ذات رائحة زكية . وكان إلى جانب الأشياء الحقيقية ، التى كانت توضع فى غرفة التابوت أشياء أخرى تزوّد بها المقبرة فى شكل صور ليس غير . فى أقدم المقابر نجد قوائم قصيرة ، تحصى مختلف أنواع الزيوت والكتان ، مما ينبغى أن يكون لدى الميت ، ومنذ نهاية الدولة القديمة كان يصوّر ويكتب على جدران التابوت سائر ما كان يمكن أن يحتاج إليه الميت من دمالج ، وعقود ، ونعال ، وعصىّ ، وأسلحة ، وأدوات للعمل ، ومن كثير غيرها . ولا بد أن تكون قوائم العطايا هذه قد جمعت فى الأصل للمقابر الملكية ، وذلك لأنها تتضمن أيضا تيجانا وأشياء أخرى لايمكن لغير الملوك استخدامها [1] ، وواقع الأمر أن مقبرة الملك كانت مثالا يحتذى فى سائر ما يتعلق بأمور الدفن .

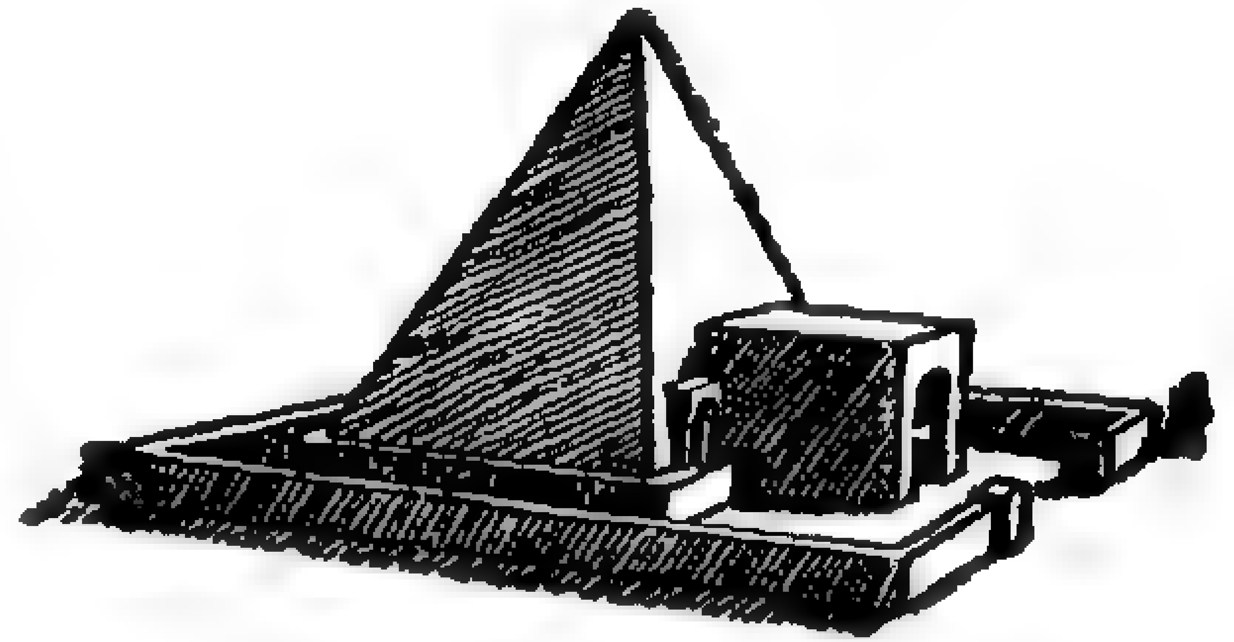
وأعجب ما كان يوضع إلى جانب الميت جميعا تماثيله ، ويمكن معرفة الغرض منه من المكان الذى كان يقام فيه عادة فى المصاطب ؛ فقد كان يوضع فيما يسمى بالسرداب ، وهو غرفة صغيرة محوطة كلها بالجدران ، تقع إلى جانب غرفة القربان ، ويصل بينهما شقّ ضيق فى أكثر الأحيان . وهكذا يشهد الميت ممثلا فى تماثيله على الأقل ما يؤدى له من تمجيد ، فهو يسمع الكاهن وهو يرتل ، ويجد السبيل إليه عبيق البخور ، وشذا الطعام ؛ ولعل المصريين قد ظنوا أن روحه إذ ذاك إنما تترك الجثة فى غرفة التابوت ، وتحلّ فى هذا التمثال كأنه جسد ثان . وحتى المقابر التى لم تكن على شكل مصطبة ، ولا تشتمل على سرداب ، كان يقام فيها فى أغلب الأحيان تمثال للميت على نحو من الأنحاء ، فيتجلى فى المقبرة الصخرية مكشوفا للنظر فى نهاية آخر غرفة ، أما فى المقابر الصغيرة من عهد الدولة الوسطى ، فقد كان يوجد تمثال واحد على الأقلّ للميت فى تابوته .

ولا تكاد المقبرة الصخرية ، وهى أحد النوعين السابقين من المقابر ، أن تكون أحدث عهدا من المصطبة نفسها ، فقد حفر عظماء الأسرة الرابعة مقابرهم فى بعض الأحيان فى الجدار الصخرى لهضبة الجيزة ، بدلا من بنائها فوقها . على أنّ هضبة منف ، التى شيدت عليها معظم المقابر الكبيرة فى الدولة القديمة ، هى أكثر صلاحية

---

(1) Schaefer, Ae. Zeitschrift 43,66.

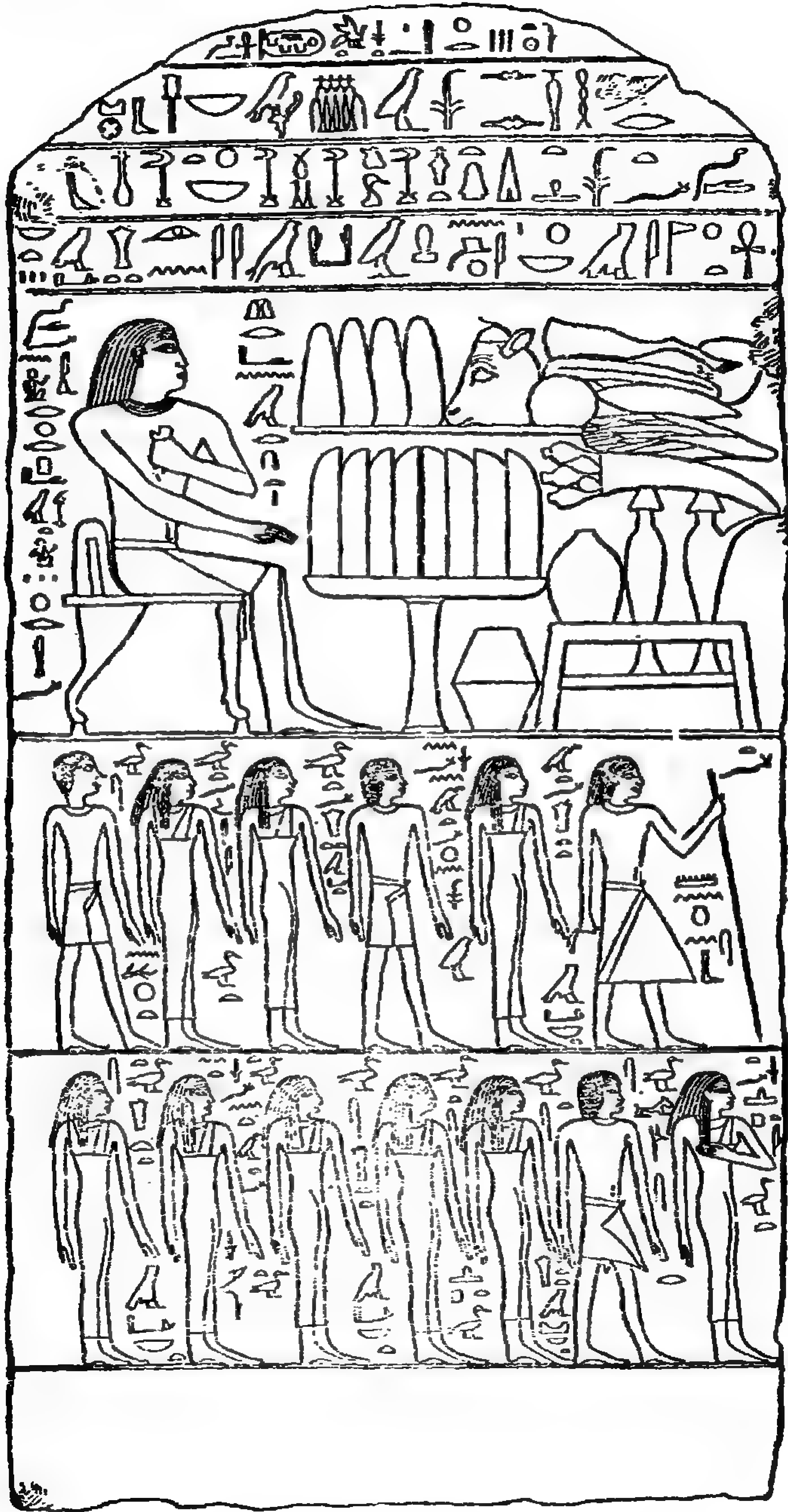
لبناء المصاطب ، ولهذا ظلت المقبرة الصخرية فيها على الدوام أمرا نادرا . على أن أنسب الأماكن للمقابر الصخرية هي المناطق الجنوبية ، التي يحفّ فيها وادي النيل جداران مرتفعان ، شديد انحدارهما ، حيث كان من أبسط الأشياء حفر المقبرة في الصخر في اتجاه أفقي . وتحلى كذلك هذه المقابر الصخرية الكتابات والصور على نحو المصاطب ، ويوجد فيها كذلك باب وهمي وبئر ، تقع عند قاعها غرفة التابوت ؛ ومع هذا فقد أخذ نظامها يتطوّر في وقت متأخر طبقا لوجهة نظر أخرى . فقد تصوّر المصريون أن المقبرة الصخرية كأنها بيت الميت ، ولذلك ، فهي كمسكن الشخص الحيّ ، تحتوي من أمام على بهو عريض للاستقبال ، ومن خلفه قاعة كبيرة يليها مسكن الميت الخاص ، وهو مشكاة يستقرّ فيها تمثاله .


١٠١ — هرم من اللبن أعاد تصميمه برو — شبيي

وأما الأهرامات الصغيرة من اللبن ، تلك التي غدت منذ الدولة الوسطى الطراز العادي للمقابر في مدن المقاطعات ، فهي بطبيعة الحال تقليد لأهرام الملوك الكبيرة . على أن الذين قاموا ببنائها إنما كانوا من أوساط الناس وذلك لأن هذا النوع من المقابر كان أبسط الأنواع ، وأقلها كلفة ، على الرغم من فخامة النموذج الأصلي الذي اتخذه مثالا . فغرفة التابوت عبارة عن حفرة منقورة في الأرض الصخرية ، سقفها على شكل القبو ، ومن فوقها كان يبنى هرم صغير من اللبن على قاعدة منخفضة ، ثم يطلى بطلاء أبيض . وفي الناحية الشرقية كان يعين المكان الذي يجب تقديم القربان فيه شاهد عليه صورة الميت وحده أو مع زوجته وهما يتناولان الطعام ، وإلى جانبهما في كثير من الأحيان صفوف طويلة من الأبناء والأقارب يكرمون فقيدهم . ومن أمام الشاهد على الرمل مائدة القربان التي كان عليها يوضع الطعام ويسكب الماء .

يضاف إلى هذه التدابير ، التي عرضناها هنا جميعا ، الطقوس العديدة التي كانت تؤدى عند إعداد الجثة ودفنها ، وعند إطعام الميت بغرض زيادة سعادته . وهي طقوس كان يظنّ أنها إذا أدّيت حقّ أدائها جعلت من الميت شخصا مبرورا

ممجدا » على حدّ تعبير اللغة المصرية . وهى من نوع الطقوس التى عرضنا لها



١٠٢ – شاهد مقبرة من الدولة الوسطى ، أقامه لنفسه فى أبيدوس كاى ، رئيس بيت المال

(برلين ١١٨٣)

آنفا (صفحة ١٩٤ — ١٩٥) عند الكلام عن عبادة الآلهة . وتصاحب كل عمل فيها، على نحو ما كان الأمر فى عبادة الآلهة، تلاوات تثير ذكرى أى حادث من عالم الآلهة، وهى تلاوات لاتنتهى ولا تدلّ على ذكاء ولا تحليها التوريات الكثيرة المستعملة فيها،

ولم تحفظ لنا شعائر التحنيط فى مجموعها إلا فى صيغة متأخرة جدا ، على أننا لانخطئ إذا ذهبنا إلى أن المحنط ومساعده ، وهو الحكيم « خرحب » (صفحة ٢١٠) قد كان ينظر إليهما كأنهما الإلهان اللذان حنطا جثة أوزيريس ثم أحاطاها باللفائف[1].

وأكثر من هذا وأدقّ ما نعرفه عن الطقوس الجنازية ، التى كانت تؤدى عند المقابر ، وذلك على الجثة نفسها يوم الدفن أولا ، ثم على تمثال الميت فى أيام الأعياد بعد ذلك . وكان الشخص الرئيسى فى هذه الطقوس كاهنا يدعى « سم » ، على أن « الخرحب » وأشخاصا غيره آخرين قد كانوا يشتركون فيها كذلك ، وكان إذا رشّ الميت بالماء ، وبخر بالبخور ، دخل إلى المقبرة ثلاثة نفر يوقظون الكاهن « سم » ، الذى كان قد رقد فيها من قبل ملفوفا بالأربطة . فإذا ما نهض متثاقلا على نحو معلوم ، قام الأربعة معا بدور أبناء حورس ، الذين كانوا قد اعتنوا بأوزيريس من قبل . وفى مرحلة تالية من مراحل هذه الطقوس الجنازية يتحلى الكاهن « سم » بحلية غريبة على صدره ، ويحمل عصا فى يده ، ويمثل حورس بن أوزيريس ، ويصيح بعض الأشخاص : « أى إيزيس ، لقد أتى حورس ليحضن أباه » ، فيصيح « الخرحب » : « أسرع لترى أباك » . عند ذاك يستبدل الكاهن « سم » بحلية الصدر جلد النمر ، وبينا تقطّع الضحية ، التى إلى جانبه ، يعلن إلى الميت : « لقد خلصت عينى هذه من فمه ، لقد قطعت فخذه » — وذلك لأنه يقدم للميت فخذ الثور على نحو ما قدّم حورس من قبل لأبيه عينه ، التى كان قد انتزعها

---

(١) لقد كان ينسب إلى أنوبيس « تمجيد » كل من أوزيريس والموتى (القاهرة ١٥٧١ ، نهاية الدولة القديمة) ، ولهذا نسب أيضا إذ ذاك إلى فن أنوبيس ، أى إلى إعداد الجثة إعدادا صحيحا، أنه قادر على تمجيد الميت .

منه ست (صفحة ٨٣) غير أنه ينبغي قبل أن يتمكن الميت من التمتع بهذا الطعام ، أن يؤدى له طقس « فتح الفم والعينين » ، وهو أهم سائر الطقوس جميعا . فكان وجه الميت يمس مرتين بفأسين صغيرتين مستعرضتين ، ومرة بمنحت ، فاذا تم هذا مع ما كان يتخلله من طقوس أخرى عديدة ، وإذا فتح الكاهن « سم » الفم والعينين بالخنصر ، فقد استعاد الميت قدرته على تناول طعامه . ويرفع الكاهن « سم » عصاه ويحيل الطعام إلى الميت ؛ ثم يبخره آخر الأمر ، ويعطره ويمنحه غطاء للرأس، ويكسوه باللفائف ، ويعطيه عصا وسوطا على نحو ما يحمل أوزيريس .

وإلى جانب هذه الطقوس كان هناك الطقس الجنازى الخاصّ بالقربان أو « كتاب حرفة الحرحب » [1] ، وهو أوراد لاحصر لها ، تسمى فيها القرابين « عين حورس » وفقا للتورية التى سلف ذكرها : « إنى أجلب لك عين حورس التى انتزعتّها من ست » ، أو « إنى أجلب لك عين حورس بعد أن أحصيتها » وهلمّ جرّا ؛ وما يقال عند تقديم العين من هذا أو ذاك يتوقف على اسم ما يقدم من قربان ، لأنه يجب أن تكون هناك تورية بينه وبين ما يقال

وفيما عدا المقبرة كان ثم مكان آخر يعنى فيه بإطعام الميت إذا كان من الطبقة الراقية . فكما أنه كان يحضر فى حياته توزيع القرابين فى أيام الأعياد بعد تقديمها على مذبح الإله (صفحة ٢٠٢) ، فإنه كان يرجو أن يكون له كذلك فى مماته نصيبه من هذه الوجبات . وكما كان يأخذ كذلك نصيبه من الزهور التى كانت تقدم للإله ، فقد كان يرغب كذلك أن يحصل فى مقبرته على « باقة إلهه » من المعبد [2] . لهذا كان يؤثر منذ الدولة الوسطى إقامة تمثال للميت فى المعبد ، وكان يرجى له « سائر مايقدم على مذبح الإله » . على أن الحريصين لم يكونوا يقتصرون على هذا الدعاء فحسب ، وإنما كانوا يشترون من الكهنة توريد عدد معين من الرغفان فى الأعياد على الدوام ، توضع أمام تماثيلهم ، ثم تكون بعد ذلك على وجه التحقيق من نصيب كهنة مقابرهم . ومن جهة أخرى أتاحت هذه العادة فى كثير من الأحيان للملوك فرصة الاعتراف

---

(١) LD II 71-72

(٢) Urk. IV, 136

بالخدمات الصادقة ؛ إذ نقرأ على كثير من تماثيل الأفراد ، التى وجدت فى أحد المعابد ، أنها منحت « مكافأة من الملك »[1] .

وفضلا عن ذلك ، فقد تيسر للمصريين أن يجدوا مكانا ثالثا يعقدون عليه آمالهم فى الحياة المستقبلة ، وهو مدينة أبيدوس المقدسة . فمنذ أن أقام ملوك الأسرة الأولى فى أبيدوس ودفنوا فيها ، نشأ الزعم بأن أوزيريس « أول سكان الغرب » ، وكان يعبد فى هذه المدينة ، إنما هو - بنوع خاص - إله مقدس رحيم . وفى أبيدوس كذلك كانت أهمّ أشلائه ، وهى رأسه ، مدفونة فى صندوق صغير ، كما كان يحتفل بجانب مقبرته بأعياده العظيمة . ولهذا طوبى للموتى الذين كانوا يدفنون غير بعيد من درج الإله العظيم . إنهم كانوا يؤلفون حاشية ملك الموتى ، وكان يطلق عليهم « عظماء أبيدوس » و « رجال حاشيته » . « وكانوا يظفرون بمكان فى سفينة الإله ، ويقول لهم عظماء أبيدوس « مرحبا » ، كما كانوا يتلقون الأطعمة الطاهرة ، التى كانت تقدم للإله العظيم ، وذلك بعد أن ينعم بها »[2] .

لهذا فلا بد أن كانت أعزّ أمنية لكل مصرىّ تى أن يدفن فى أبيدوس . وواقع الأمر أن كثيرا من المصريين من سائر الطبقات قد آثروا منذ نهاية الدولة القديمة أن تكون مقابرهم فى هذا المكان المقدس على أن تكون بالقرب من بلاط الملك أو فى موطنهم . فأما من لم يكن يستطيع بناء قبره فى أبيدوس ، فانه كان يحسن به - على الأقل - أن يزور الإله فى أبيدوس ، وأن يقيم فيها حجرا « عند درج الإله العظيم » ، وأن « ينقش اسمه فى مقرّ إقامة الإله »[3] ، وبهذا كان يضمن لنفسه حقا مكانا بين الممتازين من الموتى . وتدلّ مجموعات الآثار فى العالم على ما كان لهذه العادة من انتشار ، فأغلب الشواهد والنصب الصغيرة للدولة الوسطى قد وجدت فى أبيدوس . ويحدثنا الكثيرون من هؤلاء الزوّار بأن أعمالهم أفضت بهم إلى هذه المدينة المقدسة ، على أن آخرين إنما زاروها حجاجا ، ولكن غيرهم لم يحجوا إليها

(١) حفظ لنا نص من عهد أمنحوتب الثالث يبين بوضوح طريقة تنظيم ما ترتب على هذه العادة فى كثير من الأحيان من فوضى واضطراب Petrie, Tarkhan

(٢) ولهذا ما يماثله أو يشبهه كثيرا على شواهد الدولة الوسطى .

(٣) المتحف البريطانى ٥٧٤ .

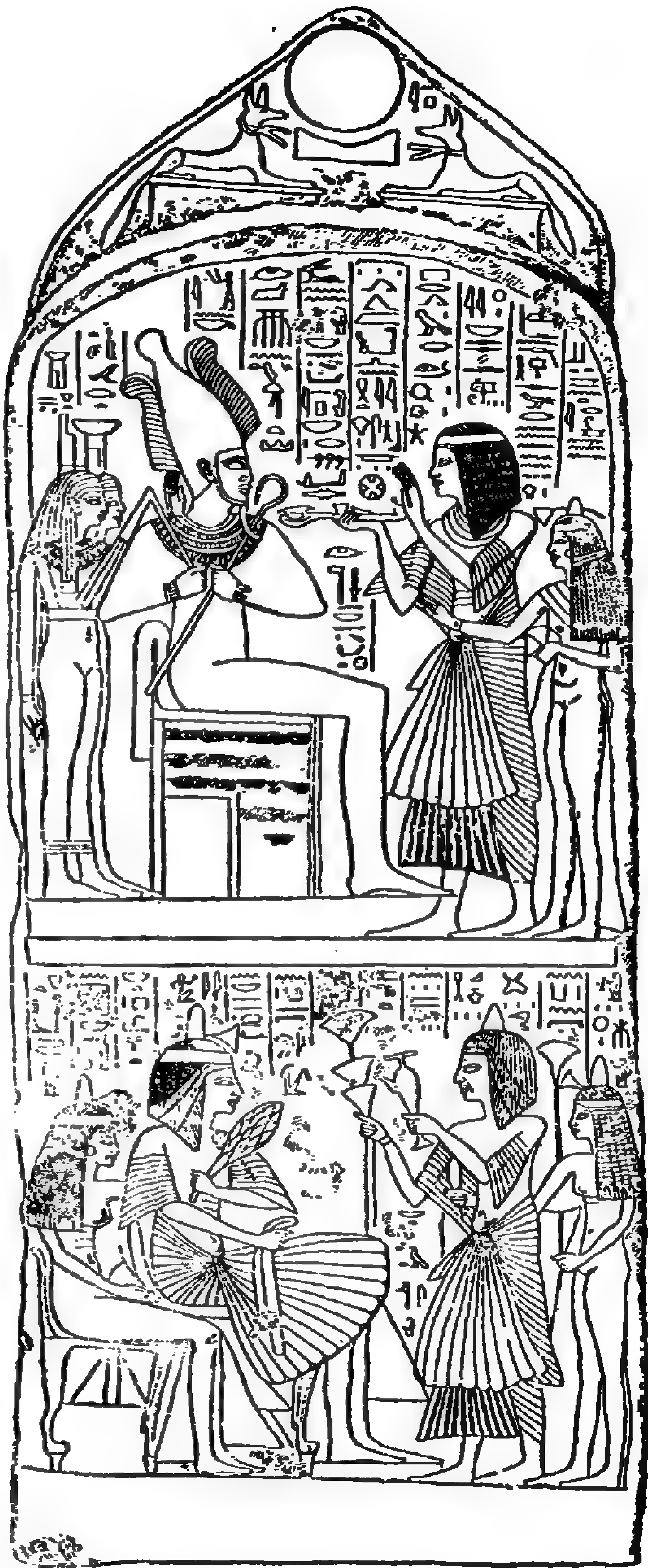
إلا بعد موتهم . والذى يمعن النظر فى مقبرة الأمير خنوم حتب فى بنى حسن ، يلاحظ فيها صورة كبيرة تمثل — على نحو ما كتب فوقها — كيف أنه صعد فى النيل « ليتعرّف شئون أبيدوس » . وترى على السفينة جثته تحت مظلة وإلى جانبها الكاهن « سم » و « الخرحب » لايغادرانها طوال الرحلة . وفى المدينة المقدسة يتقدم لإله الموتى كأنه فرد جديد من أفراد رعيته ، ثم يشترك فى حفلات أعياده ؛ فيرى « ذلك الذى يخطر فى جمال مثل أوبوات » ، ثم « كيف يبرّر أوزيريس أمام الآلهة التسعة »[1] ؛ ثم يعود إلى موطنه تصحبه نساؤه وأبناؤه ، ويحلّ فى مقبرته العظيمة فى الجدار الصخرى لبنى حسن .

ولقد بقيت فى الدولة الحديثة أغلب العادات الجنازية التى عرضناها حتى الآن ، ولئن كانت بعض العادات القديمة قد اختفت فى هذا العصر أو تخلفت إلى الوراء ، فان غيرها قد تطوّر تطوّرا كبيرا بدلا منها ، كما أن وسائل جديدة قد ابتدعت تفيض على الميت بالنعم .

وقد ظلت المقابر تبنى على الطرازين اللذين آثرتهما الدولة الوسطى ، فكان أوساط الناس يكتفون بأهرامات صغيرة من اللبن ، أما الطبقات العالية فكانوا يحفرون مقابرهم فى الصخر . وقد بنى الملوك مقابرهم على هذا الطراز أيضا ، غير أن الشكل الذى أضفوه عليها كان شكلا جديدا ؛ فهى تتألف عادة من دهليز ضيق طويل ، قد تلحق به غرف جانبية ، على أنه يؤدى إلى قاعة ، كانت تسمى « بيت الذهب » ، كان يستقرّ فى وسطها التابوت من الحجر وفيه جثمان الملك . وتغطى سائر الجدران نصوص وصور دينية ، ولما كانت هذه النصوص والصور مشتقة فى جوهرها من أوصاف مملكة الموتى ، تلك التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، فقد ذهب الظن — وهو ظنّ له ما يرجحه — إلى أن العالم السفلى نفسه هو الذى كان يتراءى أمام نظر بناة هذه المقابر الغريبة ، وقد كان يظن أنه يشتمل على دهليز طويل يزداد ظلاما باطراد حتى يبلغ المكان الذى يستقرّ فيه أوزيريس ، الملك . ولا يعرف مدى استخدام هذه المقابر الملكية ، التى تقع فى وادى بيبان الملوك فى الصحراء

(١) وهى مسائل كان الميت يرغب فى رؤيتها فى أبيدوس ، وقد وردت على الأثر ٥٨ فى المتحف البريطانى . أما عن هذه الأعياد فانظر صفحة ٢٠٥ .

القاحلة ، للعبادة الجنازية ؛ ومع ذلك فليس فى غرفها ولا فى بعد موقعها ما ينطق بشىء من هذا القبيل . وإنه ليبدو من المحتمل أن القرابين والطقوس إنما كانت تؤدّى للملوك المتوفين فى الدير البحرى والقرنة وفى سائر المعابد التى شيدها هؤلاء الملوك لأنفسهم على الشاطئ الغربى لطيبة ، والتى كانوا يعبدون فيها بمنزلة الآلهة والزملاء لآلهة طيبة . أما المقابر نفسها فقد كان ينبغى أن يكتنفها غموض شامل ، ولم يكن من العبث أن يفخر إنينى [1] ، أحد كبار موظفى تحوتمس الأول ، بأنه أشرف على إقامة مقبرة الملك « فى عزلة دون أن يرى أو يسمع أحد بذلك » . ولم يكن مكان المقبرة الملكية يعتبر كأنه سرّ عميق لسبب دينى خفى فحسب ، وإنما كان ذلك يرجع إلى سبب مادّى أيضا : فقد كان يجب أن تصان المقبرة من لصوص المقابر . ومنذ أن عرفنا من المقبرة الملكية الوحيدة ، التى حفظت لنا



١٠٣ — شاهد من الدولة الحديثة . ويرى من أعلى الضابط وزوجته يعبدان أوزيريس ومعه إيزيس وتفتيس . ومن أسفل يتقبل خاى وزوجته تكريم أبنائهما (برلين ٧٢٨١)

(١) Urk IV, 57

سليمة ، وهى مقبرة توت عنخ أمون (الفصل الثامن) ، أية ذخائر هائلة كانت تودع إلى جانب فرعون ، فإنا نفهم أنه لم تكن هناك غير وسيلة واحدة لحماية مثل هذه المقبرة من اللصوص ، وهى وجوب إخفائها . ومع هذا فسنرى فيما بعد أن إخفاء المقبرة لم ينقذها كذلك من النهب .

وفضلا عن هذا فقد ظل كذلك فى الدولة الحديثة الاعتقاد فى أن الميت يحظى ببركة خاصة إذا انضمّ إلى أوزيريس فى أبيدوس ، المدينة المقدّسة . ولكن المصرى القديم من ناحية أخرى قد كان يودّ أن يدفن فى موطنه الخاصّ ، لهذا كان يرجو أن تكون له مقبرة ثانية أو مقبرة تذكارية فى أبيدوس . وعلى هذا النحو بنى الملك أحمس لجدّته التى دفنت فى طيبة مثل هذه المقبرة الوهمية [1] ، كما أن الملكة ياح حتب كرمت موظفها الأمين كارس بهذه الطريقة نفسها [2] . ولابد مع هذا الانصراف إلى العناية بالموتى أن كان هناك شعور بأن الجبانة مهما تكن أجمل الجبانات ، فإنما هى



١٠٤ – مقابر على حافة الصحراء المزروعة بالأشجار ؛ وبين الأشجار مائدة قربان ، وأمام المقابر امرأة تندب .

مكان حزين موحش . لهذا فإننا كثيرا ما نسمع عن الحدائق التى كانت تنشأ غير بعيد من المقبرة ، بل إننا لنجد مثل هذه الحديقة حتى فى الدولة الوسطى [3] . ولما بنى الملك أحمس لجدته تلك المقبرة التذكارية فى أبيدوس حفر لها كذلك بركة وغرس أشجارا [4] .

---

(١) Urk. IV, 27.

(٢) Urk. IV, 45.

(٣) Siut I, 316/317.

(٤) Urk. IV, 28.

وفى مقبرة إنينى ، الذى أعدّ قبر تحتمس الأول كما رأينا من قبل ، وصف شامل « لحديقة الغرب » بكافة أشجارها حيث كان الميت يرجو أن يتريض مع زوجته وأن يتبرّد فى ظلال أشجاره [1] .

وفى مقابر الأفراد وعلى شواهد مقابرهم نستروح عبير عهد جديد . حقا إن من يستعرض الشواهد التى لاتحصى من العهود السابقة ، فإنه يقرأ عليها جميعا شيئا عن أوزيريس ، الذى كان الميت يضع أمله فيه ، غير أنه يندر أن يتجه الميت إليه بالعبادة ، أو يمثل أمامه وهو يتعبد له ، فقد كان حتى هذا الإله الودود يبتعد عن الأفراد ، ولم يكن لأحد أن يتعبده غير الملوك[2] . أما فى الدولة الحديثة فقد تغير الحال وأصبح المتوفى على شواهد المقابر يتعبد حقا لأوزيريس ورع . وفى هذا تتمثل سمة التقوى الشخصية التى نجدها كذلك فى نواح أخرى من هذا العهد (صفحة ١٥٨) . وما يقال عن شواهد المقابر يقال بحقّ كذلك عن صور المقابر . فإذا كانت هذه الصورفى جوهرها تدور حتى هذا العصر حول إطعام الميت ، وهو موضوع لم يكن ينضب معينه ، أو بعبارة أخرى حول التقدمات التى يجلبها إليه من خلّفهم من بعده من أهله وخدمه ، فقد أخذت هذه الصور تتراجع ، وأصبحت الجدران تحلى بدلا عنها بالصور الدينية ، وإلى جانبها مناظر وافية من حياة الميت على الأرض ، وهى بالأحرى مناظر تتطرّق إلى عرض ما لاقاه الميت فى حياته من حظوظ . فهى تصوّر حياته المجيدة ، وكيف كان يقوم بوظيفته ، وكيف ميزه الملك وكافأه . وأصبحت حتى صور الدفن والاحتفالات الجنازية ذات طابع شخصى ، لم يكن لها من قبل . وكما أن الشعور الشخصى قد جرؤ على التعبير عن نفسه بحرّية فى الشعر الدينى فى هذا العصر ، فإنه قد برز كذلك بوضوح فى هذه المقابر ، التى لم يعد الميت فيها ذلك الممجد ، الذى يكرم ويطعم دون شعور شخصى ، وإنما هو الأب والزوج المحبوب والصديق والسيد ، الذى انتزع من ذويه ، والذى يبكونه ويندبونه . حقا لقد كان

---

(١) Urk. IV, 73 ، لاعلاقة هنا بالحدائق التى كان يقام فيها الحفل الجنازى ، والتى كانت ملحقة ببيت الميت على وجه التأكيد ، انظر : Madsen, Ae. Z. 41, 110 ff.

(٢) Borchardt, Ae. Z. 55,62.

الكاهن « سم » يفتح فمه ، وكان « الخرحب » يتلو أمامه دعواته وصيغه ، كما كان الأمر دائما ، وذلك لأن هذا كان ضروريا لسعادة الميت ، غير أنه كان يمتزج بهذه الأحاديث الجافة نديب الزوجة التى تحتضن المومياء قبل إنزالها إلى الأبد فى المقبرة : « أجل إنى أختك ، أيها العظيم ، فلا تتركنى . . . ماذا يعنى بعدك عنى ؟ يامن كنت تؤثر المزاح معى ، إنك تصمت ولا تتكلم » . ومن خلفها هى والكهنة ، يندب عليه أهله ، والنساء والأطفال الذين أحسن إليهم : « وافجيعتاه ، وافجيعتاه . . . آه من هذه المصيبة ! لقد ذهب الراعى الطيب إلى أرض الأبدية . يا من كنت ذا عشيرة كبيرة ، ها أنت ذا الآن فى الأرض التى تحب الوحدة ! إن من كان يحب أن يفرج مابين قدميه هو الآن مغلق عليه ، ملفف بالأكفان ، مضيق عليه . إن من كان له الكتان الرقيق الوافر ، وكان يحب ارتداءه ، هو هذا الذى ينام الآن فى ثياب الأمس المنبوذة » . وإذا كان السادة من الطبقة العليا ، الذين يشيعون جنازة زميلهم ، لايساهمون بأصواتهم فى هذه المراثى ، فقد كان يسرهم مع ذلك أن يساهموا مساهمة عامة : « ما أجمل مايحدث له . . . ؛ لقد أحب إلهه كثيرا » ، ولهذا « فانه قد سمح له كذلك بأن يصل إلى الغرب ، يصحبه جيل بعد جيل من خدمه » [1] .

وفى أثناء هذا كانت تجلب الموائد حافلة بالأطعمة ، والحوامل عليها القدور ، وذلك لأن الدفن كان يقترن بوضيمة تقام فى المقبرة نفسها ، أو تحت عرائش من الأزهار والأغصان . وكثيرا ما تمثل مقابر الدولة الحديثة بما فيه الكفاية ما كان يجرى فى يوم الدفن (وكذلك على وجه التحقيق فى الأعياد الكبيرة التى كان يقدم فيها القربان للموتى) . فهؤلاء أهل الميت وأصحابه يرتدون لباس العيد ويتحلون بالزهور ويأكلون ويشربون ، ويشاهدون الراقصات ، ويسمعون أغنية العازف على الطنبور [2] :

---

(١) and Customs III, pl. 67   Wilkinson، انظر أيضا :. Erman, Ae. Z. 33,20.

(٢) من مقبرة نفرحتب فى طيبة (Litt. S. 314) ؛ ولهذه المراثى ما يشبهها فى Kees. Ae. Z. 62,76.

«ما أهدأ ما يرقد هذا الأمير العادل، لقد حلّ المصير الجميل. تذهب الأجسام إلى هناك منذ عهد الآلهة، ويأخذ مكانها النشء الجديد». وطالما «يبدو رع فى الصباح ويغرب أتوم فى الجبل الغربى، فستظل الرجال تنسل، والنساء تحبل، والأنوف جميعا تنشق الهواء. غير أن كل من يلدون يذهب فى وقت مبكر إلى المكان الذى قدّر له».

ثم يخاطب المغنى الميت نفسه، كأنه يجلس بين الطاعمين، ويدعوه إلى التمتع مع زوجته بالحياة القصيرة: «احتفل باليوم السعيد! تضمخ بالطيب. وادهن أنفك بفاخر الزيت، وضع الأكاليل وأزهار اللوتس على جسد أختك الحبيبة التى تجلس إلى جانبك. وأمر بأن يغنّى ويعزف أمامك. والق بكل حزن وراء ظهرك، وفكر فى المسرّة حتى يأتى اليوم الذى فيه يبلغ الإنسان الأرض التى تفرض الصمت على الناس». وتثب الراقصات فى عنف متزايد. وفى أوضاع مثيرة على الدوام، على حين يقدم الخدم فى حماس أوعية النبيذ: «اشرب حتى تثمل!» وهذه سيدة تطلب من النبيذ المزيد. فقد غدا كل ما فيها «هشيما»[1]. وهذه أخرى قد بلغ بها السكر حدّا أكبر، فهى تجلس على الأرض نادبة وقد انزلق ثوبها من فوق كتفها: وتدلّت زهرة اللوتس من على ذراعها، على أن الخادمة التى أسرعت فى جلب الإناء المشئوم وصلت متأخرة جدا.

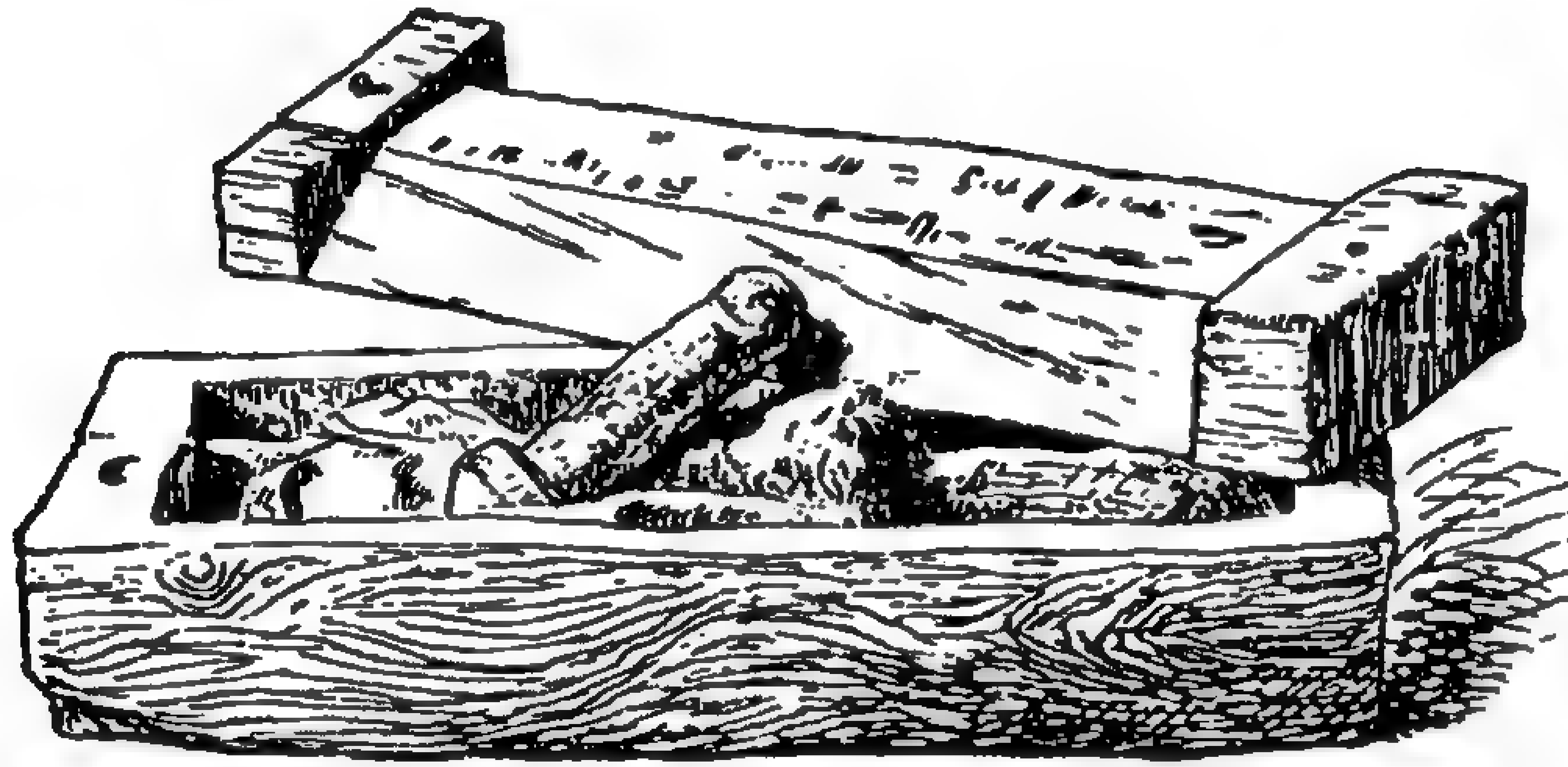
وبينا كان يحتفل بموت الأشخاص من الطبقة العالية بمثل هذا الترف فإنه لم يكن يؤبه كثيرا — بطبيعة الحال — لأشخاص الطبقات الدنيا. ومع هذا فقد كان يتاح لهؤلاء كذلك تهيئة دفن مناسب لأنفسهم، وذلك لأنه منذ أخذت الرغبة فى الدفن وفق الشعائر الصحيحة تتطرّق إلى الطبقات الدنيا للشعب، قام الطامعون فى الربح بالعمل على إرضاء هذه الرغبة: فكانوا يحصلون على مقبرة قديمة خالية محفورة فى الصخر، يزيدون فى سعتها، ثم يؤجرون الأماكن فيها. حقا لم يكن مثل هذا المكان جميلا. فقد كان يوضع أحد التوابيت فوق الآخر حتى السقف، ومع ذلك فقد كان قبرا حقيقيا، يمكن للسمّاك، والفلاح، والصانع، والراقصة، أن يدفنوا

---

(١) Paheri, pl. 7 وما يلى يعتمد على Wilkinson I, 392,393

فيه [1] . وكانوا يرقدون فى توابيت حقيقية ، كما كان فى إمكان أعقابهم أن يضعوا إلى جانبهم أدواتهم وغير ذلك من العطايا على نحو ما كان يحدث مع الأثرياء .

ومع هذا فقد كان لايزال هناك من هم أشدّ فقرا ، ممن لايستطيعون إيجاد مكان لهم ولو فى مقبرة عامة . وإنا لنجهل أين ووريت جثثهم فى الرمال ، غير أنه يبدو أنهم حاولوا كذلك أن ينالوا شيئا مما تتيحه المقابر من نعم . فقد صنعوا دمى صغيرة من خشب [2] ، تشبه المومياء من بعيد ، وكانوا يستكتبون عليها أسماءهم ويلفونها فى خرق من الكتان ، ثم يضعونها فى تابوت صغير ، فاذا دفن هذا التابوت بعد ذلك أمام مدخل مقبرة كبيرة ، فقد كان يرجى أن ينال الميت بفضل تلك الدمية التى تمثله من الخشب ، من السعادة التى ينعم بها الميت المدفون فى هذه المقبرة .



١٠٥ — صندوق بداخله دمى من الخشب كبديل عن دفن الميت

(برلين ٩٥٠٦)

ولئن بدت لنا هذه الحيلة التى عمد إليها الفقراء غريبة ، فهى لم تكن كذلك عند المصرى القديم على وجه التحقيق ، بل إننا لنرى فكرة مشابهة عند أصحاب المناصب العليا . فعند ما ابتنت الملكة حاتشبسوت معبدها الجنازى المسمى بالدير البحرى ، أقام أقوى أصفيائها سنموت — وقد كانت له مقبرة إذ ذاك — مقبرة ثانية غير بعيد من هذا المعبد . وهى وإن لم تتمّ فإنّ فى طوعنا أن نتبين أنه كان فى النية أن يؤدى دهليز

---

(١) هناك قبر عام من هذا القبيل من عهد رمسيس الثانى ، انظر : **Berlin, Ausfuehrl. Verzeichnis S. 190 ff.**

(٢) نفس المرجع ص ١٨٤ .

طويل إلى ما تحت المعبد . وبهذا كان لسنموت أن يصير إليه كذلك نصيب من النعم التي كانت من حقّ الملكة [1] .

وفى شكل التوابيت تتجلى كذلك القيمة التى كانت تسند فى الدولة الحديثة لمظاهر الدفن الخارجية . فلم يكن التابوت حتى ذلك الوقت إلا على ما كانت تقتضيه الغاية منه : أى صندوق قوىّ يحمى الجثة من التلف . أما فى الدولة الحديثة فكان لابد أن يتخذ شكل المومياء نفسها ، وهو أمر غير طبيعى إلى حدّ كبير ، غير أن المصريين فى ذلك العهد كانوا يعتبرون المومياء شيئا خارقا للعادة مقدسا ؛ ولهذا كان يجب أن يتخذ التابوت الخارجى من الجرانيت شكل ما يحتويه ، حتى ولو وضعت المومياء فى أكثر من تابوت ، رغبة فى حسن حمايتها ، وهو ما كان يحدث كثيرا منذ الدولة الوسطى . ويبدو التابوت المومياوى الشكل فى بداية هذا العصر كأنه محاط بجناحين فى كثير من الأحيان . ويجب أن يكون المرء مصريا ليفهم ذلك ، فكما أن إيزيس قد أخذت بين جناحيها جثمان أوزيريس حماية له (صفحة ٨٦) ، فهى تفعل ذلك أيضا لأوزيريس الجديد الذى تمثله هذه المومياء .

وحوالى نهاية الدولة الحديثة عمد المصريون إلى التعبير عن قداسة المومياء بتصوير المناظر الدينية التى لاتحصى على التابوت ؛ وكان لابد من الاستعانة فى ذلك بصور الآلهة والحيوانات والرموز المقدسة . وإنه ليتجلى بوضوح كيف كان المنتجون يصدرون فى عملهم بدون تفكير وبطريقة آلية . وأقول هنا عن قصد « المنتجون » ، وذلك لأنه مما يميز الجنائز فى الدولة الحديثة أن حاجياتها كانت تنتج جملة وتعرض للبيع . ومن اليسير التدليل على ذلك : فقد كان المنتجون يتركون فراغا حيثما كان يجب ذكر اسم الميت فى الكتابات التى تدوّن على مثل هذه الأشياء ، وذلك لكى يستطيع الشارى أن يدوّن فيه الاسم المطلوب ، وهو ما كان يحدث عادة ، على أنه كثيرا ما كان يُنسى كتابة هذا الاسم ، وهذا السهو هو الذى يكشف لنا كيف أصبحت

---

(١) انظر Metropolitan Museum ot Art, The Egyptian Expedition 1930 - 31, p. 22.

الواجبات القديمة تؤدى عن طريق البيع والشراء . وحتى التمثال — وهو دون غيره من سائر ما كان يودع إلى جانب الميت ، لايتفق بأية حال مع الإنتاج التجارى — قد شمله ذلك العمل ، إذ كان يتم صنعه فيما عدا ملامح الوجه الدقيقة ، وتفاصيل الرداء ، وما كان يكتب عليه من نقوش ، ليقوم الشارى بهذا كله وفق هواه . على أن هذه الأشياء كانت فى بعض الأحيان تترك دون أن تتم ، كما يدل على ذلك أحد التماثيل فى مجموعة الآثار فى برلين .



١٠٦ — أوشبتيات من الدولة الحديثة : (ا) للكاتب حوى فى ثياب الأحياء ؛ (ب) للسيدة تاميت (حـ) لإحدى الملكات (برلين ٤٦٥٢ ، ٤٤٠٦ ، ٨٥٢٨)

وأكثر التقدمات الشائعة فى مقابر الدولة الحديثة هى ما يسمى بالأوشبتيات ، وهى تماثيل صغيرة على هيئة المومياء ، تزحم متاحفنا فى الوقت الحاضر . وقد ظهرت بضعة أمثلة قليلة منها فى الدولة الوسطى حيث يجوز التشكك فى الغ ض الذى من أجله وضعت هذه التماثيل فى المقابر [٢] إذ لم تكن تحمل غير اسم الميت . أما ماكان

---

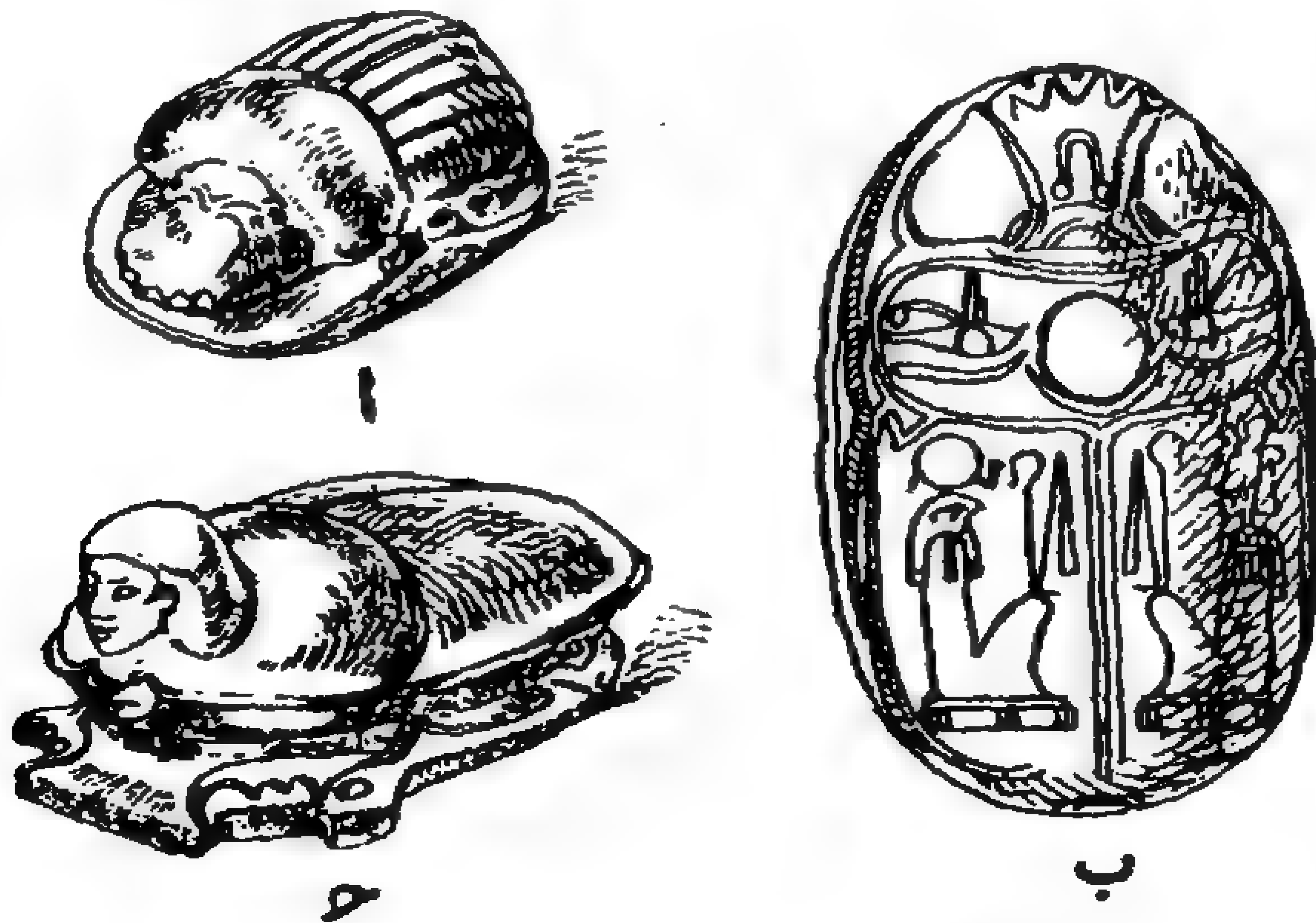
(١) Ausfuehrl. Verzeichnis, S. 141.

(٢) أجل، لقد كانت فى بداية الأمر صورا للبيت نفسه ينذرها له أهله . انظر بورخارت فى Ae. Z. مجلد ٣٢ صفحة ١١١ وما بعدها ، على أنه من جهة أخرى قد سمى تمثال من هذا القبيل فى الدولة الحديثة خادم سيده » . انظر بيزر (Boeser) فى Ae. Z. مجلد ٤٢ صفحة ٨١ .

يظن أن تؤديه للميت فى الدولة الحديثة ، فتدل عليه الأداتان اللتان فى يدى كل منها : وهما المعزق لعزق الأرض ، والزنبيل . وتدل عليه كذلك الكتابة التى تحملها عادة : « أنت أيها الأوشبتى ! إذا نودى على ، وإذا أحصيتُ للقيام بشتى الأعمال التى تؤدى فى العالم السفلى . . . وإذا أحصيتُ فى أى وقت لاستنبات الحقول ، ورى الشطآن ، ونقل الرمل من الشرق إلى الغرب ، فلتقل عندئذ : هأنذا » . ولسنا نعلم معنى هذه الأعمال الخاصة ، غير أنه من الواضح أن الميت يخشى أن يزج به فى مملكة الموتى فى مختلف الأعمال الزراعية الجافية . وتتجلى فى هذا فكرة قديمة تعود للظهور من جديد . فقد كان الشعب فى الزمن القديم ، عند ما كان لايزال شعبا من الفلاحين يحلم بجنة لموتاه ، يبلغ ارتفاع الشعير فيها سبعة أذرع ، وطول سنابله ذراعان . وكان العمل فى مثل هذا الحقل يعتبر أجمل مصير يمكن أن يتصوره الإنسان . ولقد ظل هذا التصور باقيا حتى إن المصريين عند ما بدأوا يعتبرون أوزيريس ملكا على مملكة الموتى ، ظنوا أنه سيصنع مع موتاه ما كان الملك يصنعه على الأرض مع رعاياه . وأنه سيعمل قوائم بهم ، وأنه سوف يختار — اعتمادا على هذه السجلات — هذا الميت حينا ، وذاك حينا آخر لأعمال الفلاحة والرى وإقامة الجسور . ولم تكن وجهة النظر هذه مما لايسر الفلاح ، إذ كانت تمنيه فى بساطة ويسر باستمرار حياته الدنيوية ؛ أما الطبقات العليا فلا بد أنها فكرت فى ذلك على نحو آخر . فالموظف والكاهن والصانع والجندى والسيدة — هؤلاء جميعا كان يبدو لهم توقع مثل هذا العمل الجافى فى الآخرة أمرا سيئا . فى هذا التوقع المقلق خطر على أحد العقول المبتدعة خاطر غريب : هو أن يزود الميت بمثل هذه الدمى ، لتكون بدائل له ، تقوم بالعمل عنه . بل إن الملوك أنفسهم لم يستطيعوا الاستغناء عنها . ولا بد لمن يشاهد مجموعة الملك سيتى الأول من التماثيل الجنازية الموجودة فى متاحفنا أن يعتقد أن قد صنع له منها آلاف وآلاف . وقد تكون بين أوشبتيات الأفراد فى بعض الأحيان بعض التماثيل التى لقيت عناية فى صناعتها ، والتى عولجت كأنها صورة صادقة للميت ؛ وكانت هذه التماثيل بنوع خاص توضع فى تابوت صغير ، على حين كان على التماثيل العادية الجافية أن

تكتفى بصندوق من خشب ، يوضع فيه منها عدد وافر . ولما كانت الخرافة تنمو وتزدهر دائما ، فقد ارتبطت بهذه التماثيل مخاوف جديدة ، إذ ما العمل إذا حدث بين الأوشبتيات ما يحدث بين الخدم من عراك ، أكانت نوبة أحدهم اليوم فى العمل أم غدا ؟ لذلك كان من الخير أن يكتب على كل منها اليوم الذى عليه أن يشتغل فيه من أيام العام [1] . ثم ما العمل إذا قابل الميت فى الآخرة عدواً يغوى الأوشبتيات ، على نحو ما كانت الخدم تُغوى فى الحياة الدنيا ؟ لهذا كتب أحد الرجال الحريصين على تماثيله الجنازية بعد الصيغة المعتادة العبارة التالية : « أطع فقط من صنعك ولا تطع عدوّه » [2] .

وكما أن هذه التماثيل فى المقابر إنما كانت فى حقيقتها لتجنب ما يقدر فى مملكة الموتى . فقد حاول المصريون كذلك تحقيق ما يماثل هذا بوضع ما يسمى بجعل القلب إلى جانب الميت . لقد رأينا فيامضى (صفحة٢٥٧) كيف اقتضى تصوّر أوزيريس ملكا على الموتى طهارة الميت الخلقية ، وكيف أنه كان يُعتقد أن هناك محكمة للموتى ، يمتحن فيها قلب الميت بوزنه . ومن اليسير أن ندرك أن وجهة النظر هذه لم تكن مغرية جدا ؛ ومع هذا فمن الصعب أن تتفق مع أفكارنا تلك الطريقة التى توقع بها المصريون تجنب الخطر المنذر ، وذلك بمحاولة التأثير فى الشهود المرهِقين . فعلى



١٠٧ — جعلان القلب (ا) من الشكل العادى ، (ب) عليه صور رع وأوزيريس والقمر ، (حـ) برأس إنسان (برلين ٣٩٠١ ، ٣٤٥٦ ، ١٠٧٠٩)

(١) Erman, Ae. Z. 44, 131.

(٢) Ausfuehrl. Verz. S. 182 (108 ff.)

صدر الميت فوق مكان القلب كان يوضع جعل كبير من الحجر (وكان رمزا مقدسا باعتباره صورة لإله الشمس) وكان يكتب عليه العبارات التالية: «أيها القلب، الذى لى من أمى! أيها القلب الذى ينتمى إلى وجودى! لاتنهض شاهدا ضدى، ولا تدبر لى أية معارضة أمام القضاة، ولا تناقضنى أمام صاحب الميزان. إنك روحى الذى فى جسدى . . . لاتجعل اسمنا كريه الرائحة . . . لاتفترِ علىّ الكذب عند الإله».

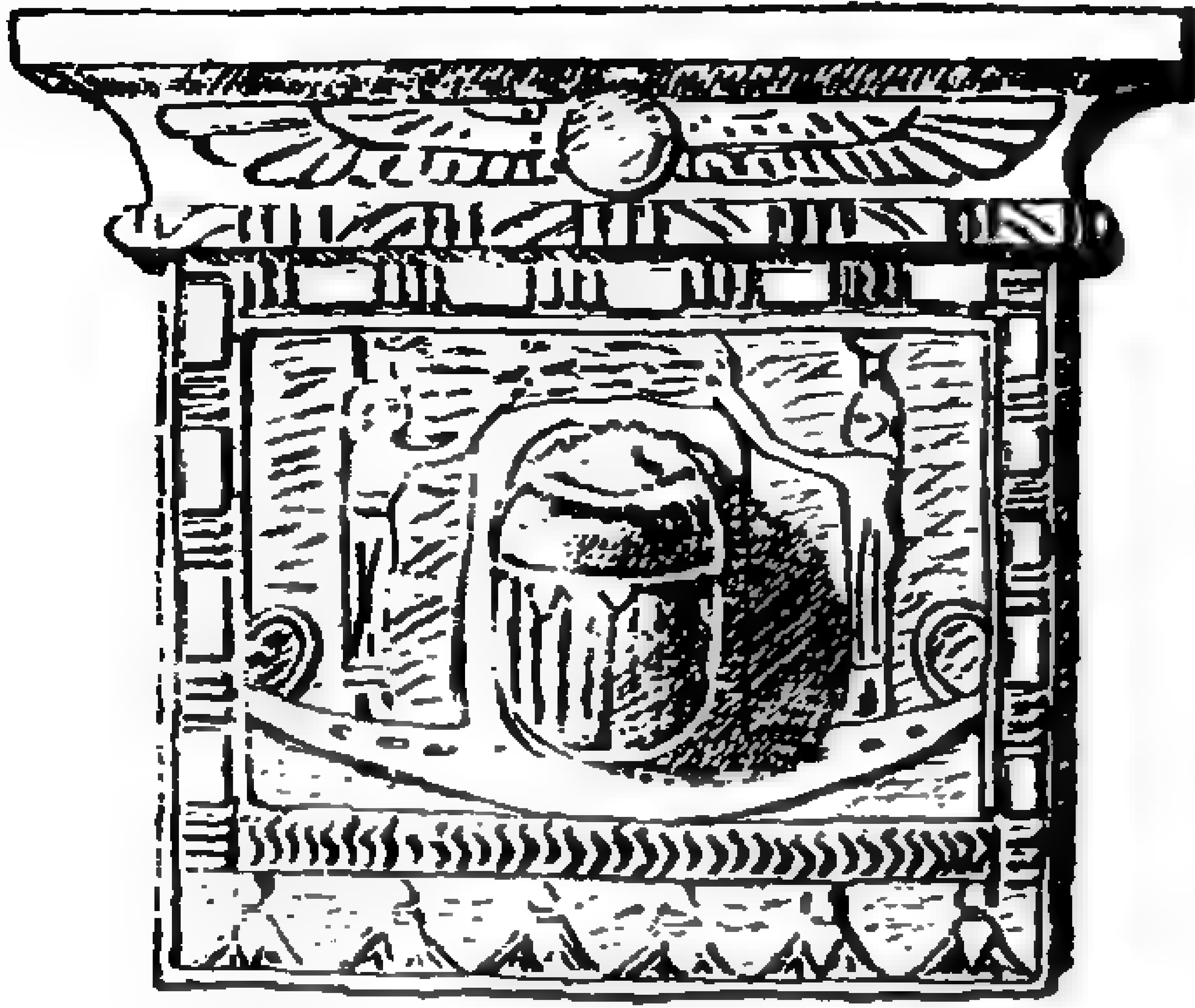
أما الأهرامات الحجرية الصغيرة التى توجد بكثرة فى مدن الموتى، فهى تتجه إلى الصديق الآخر للميت، وهو إله الشمس، وليس بعضها فى حقيقة الأمر سوى القمم الحجرية للأهرامات الصغيرة من اللبن، التى ذكرناها من قبل. وعلى الهرم المنشور هنا صورته نجد بتاح موسى — الذى كان الكاهن الأعلى فى منف فى عهد تحتمس الثالث — يركع مرتين وهو يتعبد للشمس: شمس الصباح على الجانب الذى كان يتجه إلى الشرق، وشمس المغيب على الجانب الآخر. ومن الواضح أنه كان يرجى أن تساعد هاتان الصورتان الميت على أن يخرج إلى باب مقبرته فى الصباح وفى المساء ليشاهد الشمس. وفيما عدا هذا كثيرا ما توجد كذلك على الداخل الحقيقية



١٠٨ — هرم لبتاح موسى، الكاهن الأعلى لمنف (برلين ٢٢٧٦)

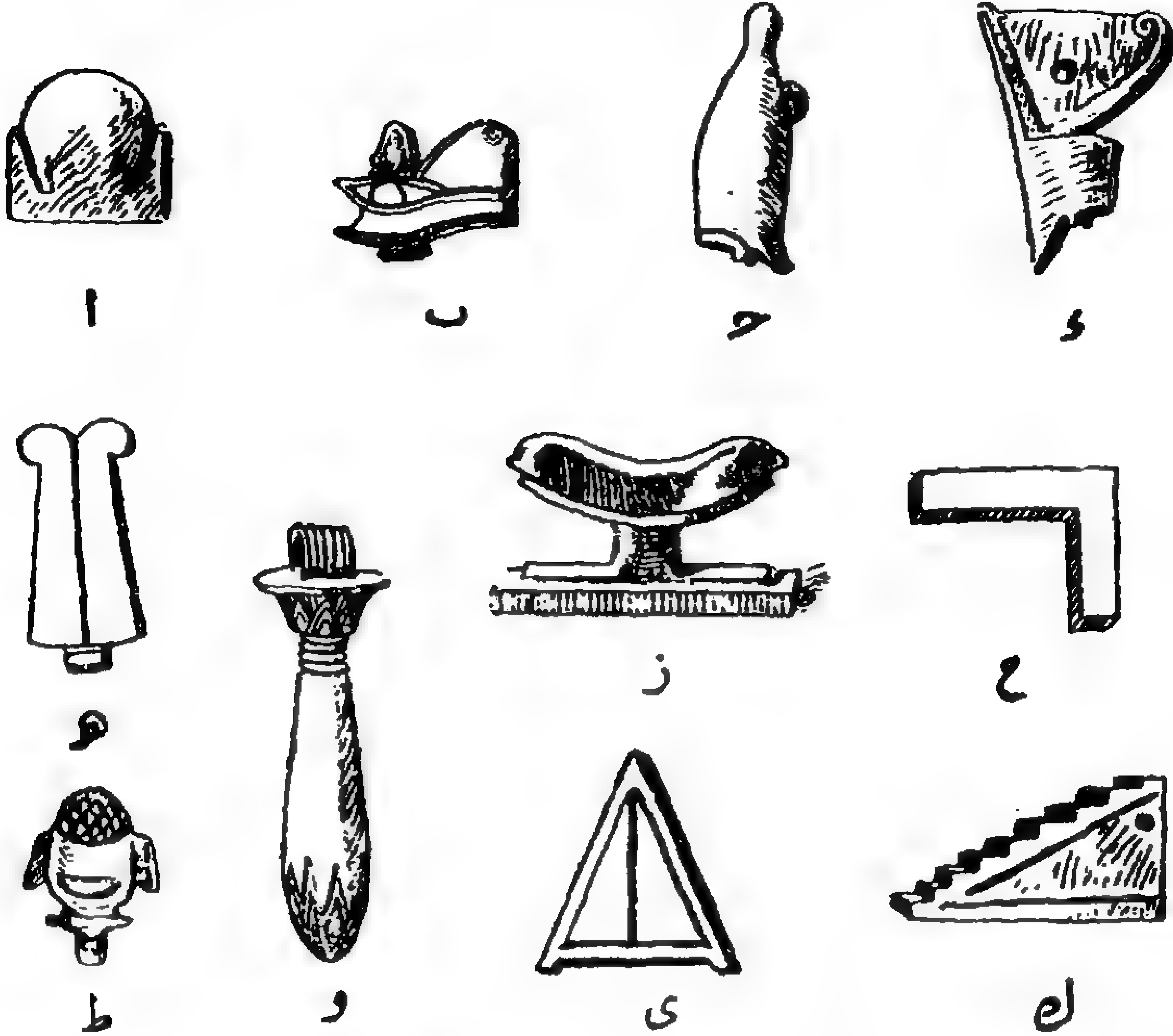
المقابر دعوات للشمس أو للشمس وللقمر ، كان على الميت أن يتلوها فى هذه الأماكن .

ولا يتضح لنا ماذا كان يهدف إليه من أغراض ما يسمى بصدريات الموميات ، وهى لوحات صغيرة على شكل المعبد تشبه عادة ما كانت الآلهة والملوك تحمله . على أنه بينما كانت هذه الأخرى تتضمن اسم حاملها ، فإن صدريات الموميات تظهر الميت وهو يبتهل إلى إله الشمس أو تظهر كذلك صور آلهة الموتى . ولعلها كانت تعبر — على نحو ما — عن أن الميت إنما هو فى حماية هذه الآلهة . ولا يفضل هذا كثيرا ما نعرف عن الأشياء الكثيرة التى كانت تعلق على الموميات على شكل التمائم كالعيون والجعلان والقلوب والصوالج والتيجان وغيرها . أجل تحدثنا بعض أوراد كتاب الموتى بأن من حمل « چد » ، رمز أوزيريس ، أذن له بأن يدخل مملكة الموتى ، وأن يأكل من أطعمة أوزيريس ، وأنه يبرّر ؛ أو أن من يعلق رمز إيزيس فإن إيزيس وحورس يحميانه ، وأنه يرحَّب به فى ابتهاج . على أن هذه المزاعم المبهمة المضطربة إنما ترجع إلى عصر لم تعد لديه فكرة واضحة عن المعنى الأصلى للتمائم ، ولهذا فليس لنا إلا أن نركن إلى الحدس والتخمين . ومع هذا فمن الواضح أن الجعل الذى كان يوضع كذلك من داخل بطن الموميات ، إنما كان لجلب البركة ، باعتباره صورة لإله الشمس . كما أن من السهل كذلك أن نرى أن الرمزين القديمين لأوزيريس وإيزيس (صفحة ٥١) اللذين كانا يوضعان عادة فى يدى المومياء ، إنما كانا للتوصية بالميت فى مملكة أوزيريس ومن المحقق أن الغرض من الشمس المشرقة إنما كان لتسمح للميت بأن يشاهد الشمس . أما العين — وكانت أكثر التمائم شيوعا —



١٠٩ — صدرية عليها قارب الشمس ؛ وفيه الإله على شكل جعل تتعبد له إيزيس ونفتيس (برلين ١٩٨٣)

فإنها تأبى كل تفسير : ترى هل هى عين حورس ، المثال الأول لكل هبة طيبة ؟ ولعل الغرض من القلب الصغير ، أن يعمل على نحو ما يعمل جعل القلب الذى سبق عنه الكلام ، على حين أن الرءوس المقطوعة للثعابين قد تكون لإرهاب الهوامّ ، التى

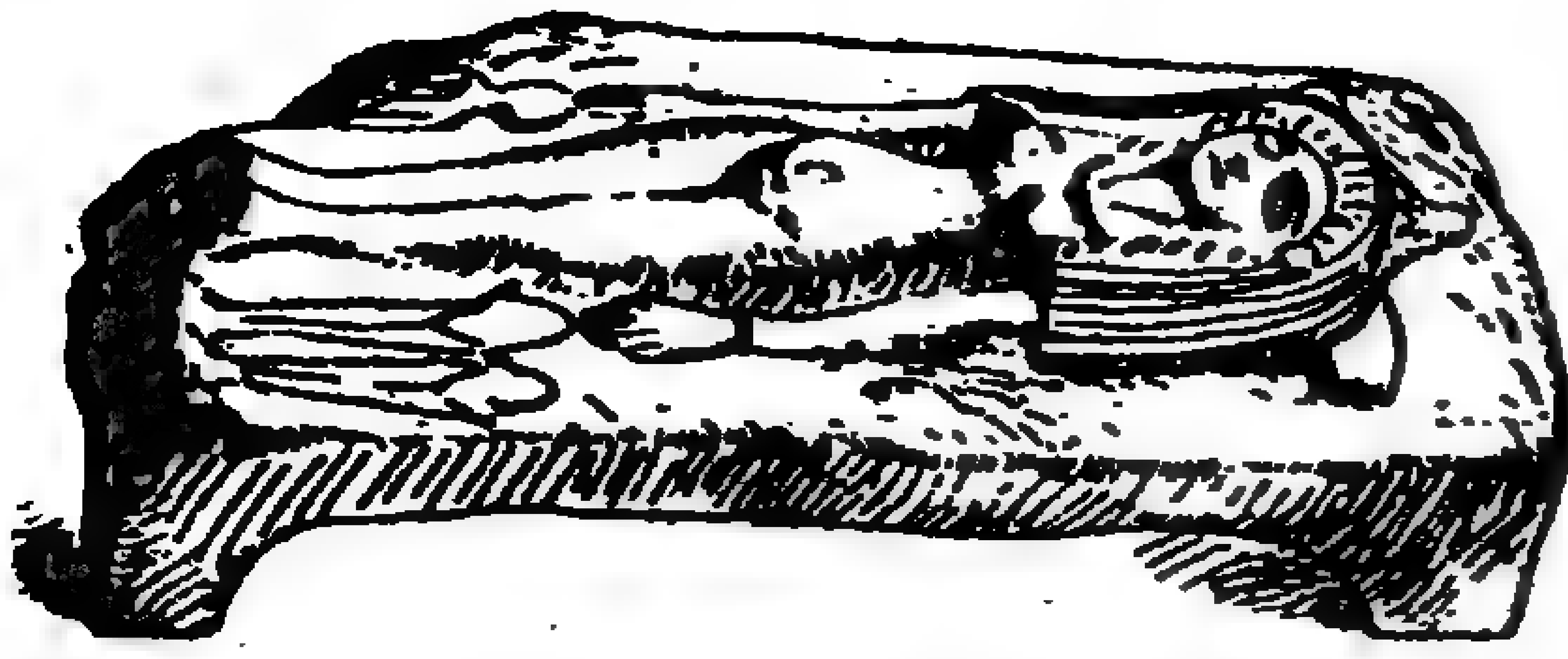


١١٠ — تمائم من موميات (ا) الشمس المشرقة ، (ب) العين ، (ج ، د) تاجان ، (هـ) ريشتان : (و) صولجان على شكل البردى للآلهات ، (ز) مسند الرأس ، (ح) الزاوية ، (ط) القلب (ى) الشاقول ، (ك) الدرج .

تهدّد الموتى فى مقابرهم . — ومن التمائم الأخرى ما قد ثبت حديثا أنه لم يكن يعتبر فى الأصل على هذا النحو [١] ، إذ لم يكن سوى نماذج صغيرة لسائر ما كان يوضع إلى جانب الموتى فى مقابرهم فى الزمن القديم (صفحة ٢٧٥) . وقد اكتفى فى الدولة الوسطى بتصوير هذه الأدوات على السطوح الداخلية للتابوت ، ثم خطر على البال فيما بعد عمل نماذج صغيرة توضع إلى جانب الميت . فمسند الرأس الصغير من حجر الدم إنما ينوب عن مسند الرأس الكبير الخشبى الذى ينبغى أن ينام عليه الميت ؛ أما الزاوية والشاقول فهما من أدوات العمل ، التى كانت توضع إلى جانبه ؛ وتنتمى التيجان والصوالج لزينته الملكية . إلى جانب هذا لقد أسىء فهم

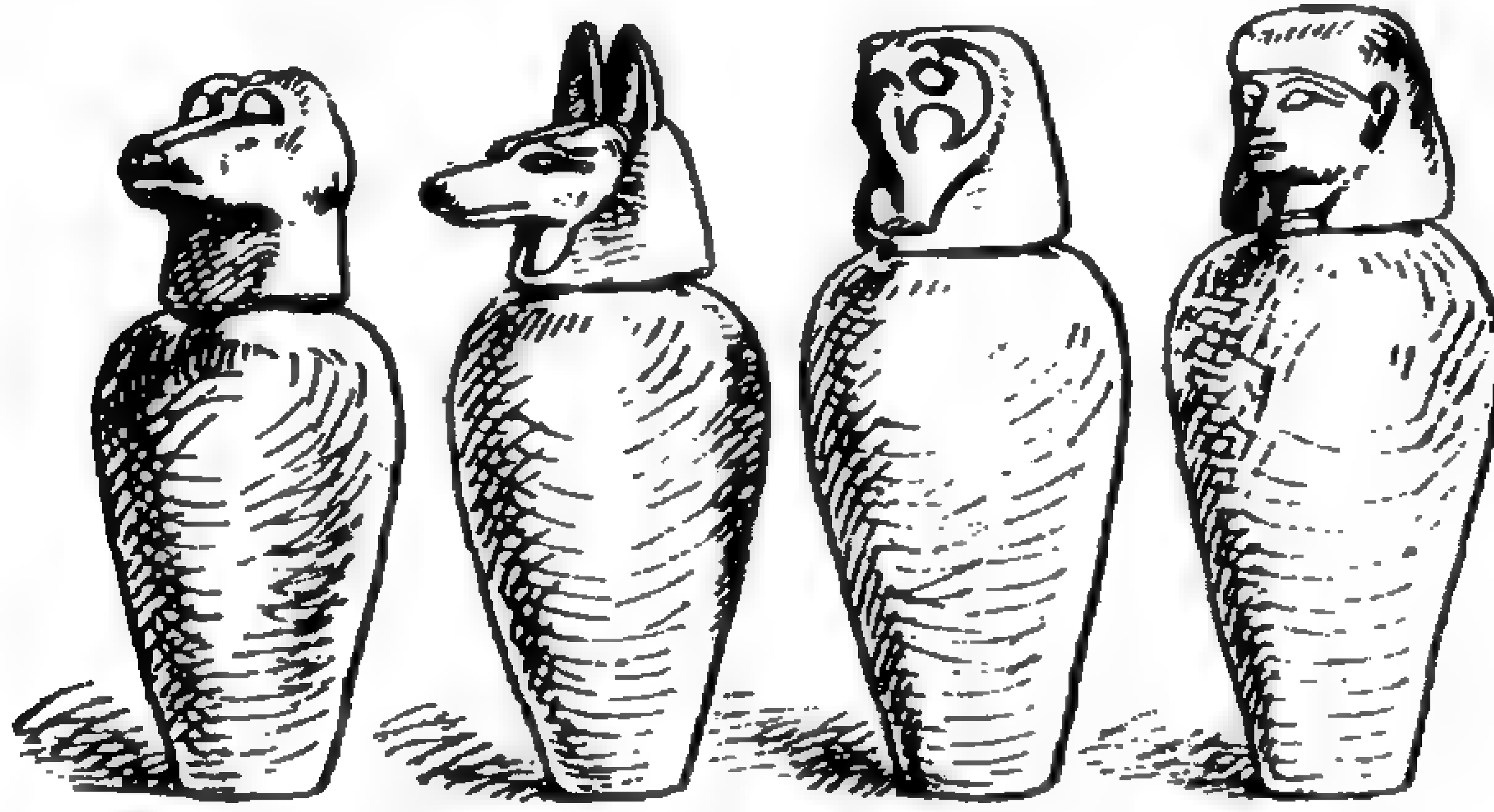
(١) Schaefer, Ae. Z. 43, 66 ff.

كثير من التمائم ، فليس السلم إلا محفة فقدت شكلها بالتدريج ، وكانت الريشتان فى وقت من الأوقات سكينا من الحجر من شكل خاص .



١١١ — امرأة على سرير وعند قدميها طفلها ونعلاها
(برلين ١٢٦٦١)

وبينما ظلّ يوضع إلى جانب الميت فى مقابر الدولة الحديثة ما يكفى من الأثاث والأدوات واللباس والحلىّ ، وبينما كان لا يستحى من تزويده بتمثال امرأة عارية جريا على عادة قديمة جدا ، وإن أصبح تمثالها يمثلها راقدة على سرير ، فقد أخذت



١١٢ — قدور الأحشاء (برلين ٧١٩٣ ، ٧١٩١ ، ٧١٨٩ ، ٧١٨٨)

العناية بإطعام الميت تقلّ بعد أن كانت أهمّ شيء فيما مضى . حقا لقد كان يوضع هنا أو هناك فى القبر أوان من خشب تحاكى القدور الحجرية ، وإوزا مشويا من خشب ، وتمرا من خشب كذلك ، على أنه كان يعتمد بصفة عامة على القوّة السحرية التى لقدور الأحشاء ، والتى تحدثنا عنها آنفا ، والتى غدت من جملة الضرورات فى المقابر . وكان يصنع منها عادة أربع قدور من المرمر المصرى ، غطاء كل منها كهيئة رأس واحد من أبناء حورس الأربعة ، وبهذا كان يقتسم الحراسة على الميت رجل وقرد وابن آوى وصقر .

ونحن إذا أردنا الآن أن نجمل سائر ماعرضناه، فإنه يمكننا أن نقول إن المسائل المتعلقة بالموتى فقدت فى الدولة الحديثة طابعها القديم الساذج ، على حين برز فيها

الجانب الديني والعنصر السحرى . ويتجلى ذلك كذلك فى استخدام الأدب الجنازى القديم، فقد رأينا كيف تزوّد الملوك فى أواخر الدولة القديمة بمجموعة من هذا الأدب فى نقوش أهراماتهم ، وكيف عمل الأفراد كذلك فيما بعد على أن تكتب هذه الأوراد القديمة على توابيتهم . ولم يقتصر الأمر فى الدولة الحديثة على تحلية جزء كبير من جدران المقابر بمثل هذه النصوص ، وإنما كانت توضع كذلك إلى جانب الميت أدراج من بردى تحتوى مثل تلك الأوراد ، التى اعتبرت معرفتها مفيدة له على نحو خاصّ ، والتى يقرأ فى نهايتها : « إن من يعرف هذا الورد فانه » ينعم بهذه البركة أو بتلك . وهذه الأدراج هى التى تسمى « كتب الموتى » ، والتى استقينا منها فى الفصل الرابع عشر الكثير من التصوّرات الحديثة عن مملكة الموتى . وإلى جانبها ظهرت فى نهاية الدولة الحديثة برديات أخرى تحتوى على كتاب الأمدوات ، الذى كان يطلب فى بداية الأمر ليكون حماية نافعة للمقابر الملكية (صفحة ٢٦٣) . وفضلا عن ذلك فقد كانت سائر هذه البرديات الجنازية تصنع جملة كغيرها من الحاجيات الأخرى للمقابر ، ومن اليسير أن نتصوّر ما يؤدى إليه هذا . فهذه المخطوطات تبدو فى ظاهرها بصورها الجميلة ، الملوّنة فى كثير من الأحيان ، متقنة ، منسقة ، غير أنها تعجّ بالأخطاء والكلمات الساقطة سهوا . وكثيرا ماتلحق بالنصّ صور غير صوره ، أو أن الكاتب ، وقد داعب الكرى عينيه ، نسخ سطور النصّ فى ترتيب معكوس . على أن هذا لم يكن فى الحقّ يحول دون اعتبار هذه الكتب الجنازية نفسها فى القرون التالية شيئا مقدسا ، وأن تعامل على هذا الأساس ، وذلك لأنها تتضمن عبارات قديمة مقدسة . وهكذا كانت تتسلل دائما عناصر جديدة فى العقائد والعادات الجنازية المصرية ، حتى ليظنّ أنه كان لا بد لهذه العقائد والعادات من أن تختنق فى الدولة الحديثة بما فيها من تناقض وهذر . على أن هذا لم يحدث ، وسنرى كيف ظلت تتطوّر على طريقتها نحو ألف عام .

الفصل السادس عشر

الموتى فى العصر المتأخر

على نحو ما تمسكت الحضارة المصرية فى عهد تدهورها بالتقاليد القديمة فى الديانة كأنّ فى مراعاتها الخلاص الوحيد ، فقد جاهدت كذلك فيما يتعلق بالموتى على تقليد واستبقاء ما ابتدعته القرون الماضية لسعادة الموتى . وقد أخذ المصريون يستقصون جميع ما وجد من مختلف أنواع الأدب الجنازى ، ويقدمونه للميت على البردى أو فى نصوص لا آخر لها على التوابيت أو على جدران المقابر . وبهذا عادت إلى الظهور مرّة أخرى متون الأهرام (صفحة ٢٣٣) التى كاد يغشاها النسيان منذ الدولة القديمة ؛ وجمعت نصوص كتاب الموتى (صفحة ٢٣٣) فى كتاب واحد ، يتطلب قرطاسا من البردى طوله عشرون مترا تقريبا ، كما أصبح كتابا رحلة الشمس يثبتان بكل صورهما على التوابيت الحجرية الكبيرة (صفحة ٢٦٣) . وإلى جانب هذا الأدب القديم ظهرت كذلك كتب صغيرة أخرى ، كانت تعتبر كلها قديمة أيضا ، وإن كان كثير منها حديث التأليف على وجه التحقيق . ومن هذه الكتب مراثى إيزيس ونفتيس لأخيهما أوزيريس ، وقد ذكرنا طرفا منها آنفا (صفحة ٨٦) ، ومنها كتاب التنفس ، وكان محبوبا فى طيبة بنوع خاص ؛ ومنها الرثاء على سكر ، وطقس التحنيط ، وكتاب الانتصار على أبوفس وكثير غيرها . ومن المحقق أن ليس لأحد أن يتوقع فهم الكثير من هذا الأدب القديم ؛ وذلك لأن النصوص قد صحفت فى أحيان كثيرة حتى لم يعد لها معنى . ومع ذلك فقد أجهد المصريون أنفسهم فى نقل الكثير منها إلى اللغة المتأخرة [1] . على أن الصعوبة فى فهم هذه النصوص قد كانت هى بعينها تضفى عليها كثيرا من الغموض ، وكان الغموض والإبهام علامة على كل شىء مقدس مبجل فى هذا العصر .

---

(١) انظر : Schott, Urk. VII, S. 60 f. ، وقد نُقل أيضا الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى (وهو يختص بمحاكمة الميت) إلى الكتابة الديموتيقية (Lexa, Das demotische Totenbuch, Leipzig 1910).

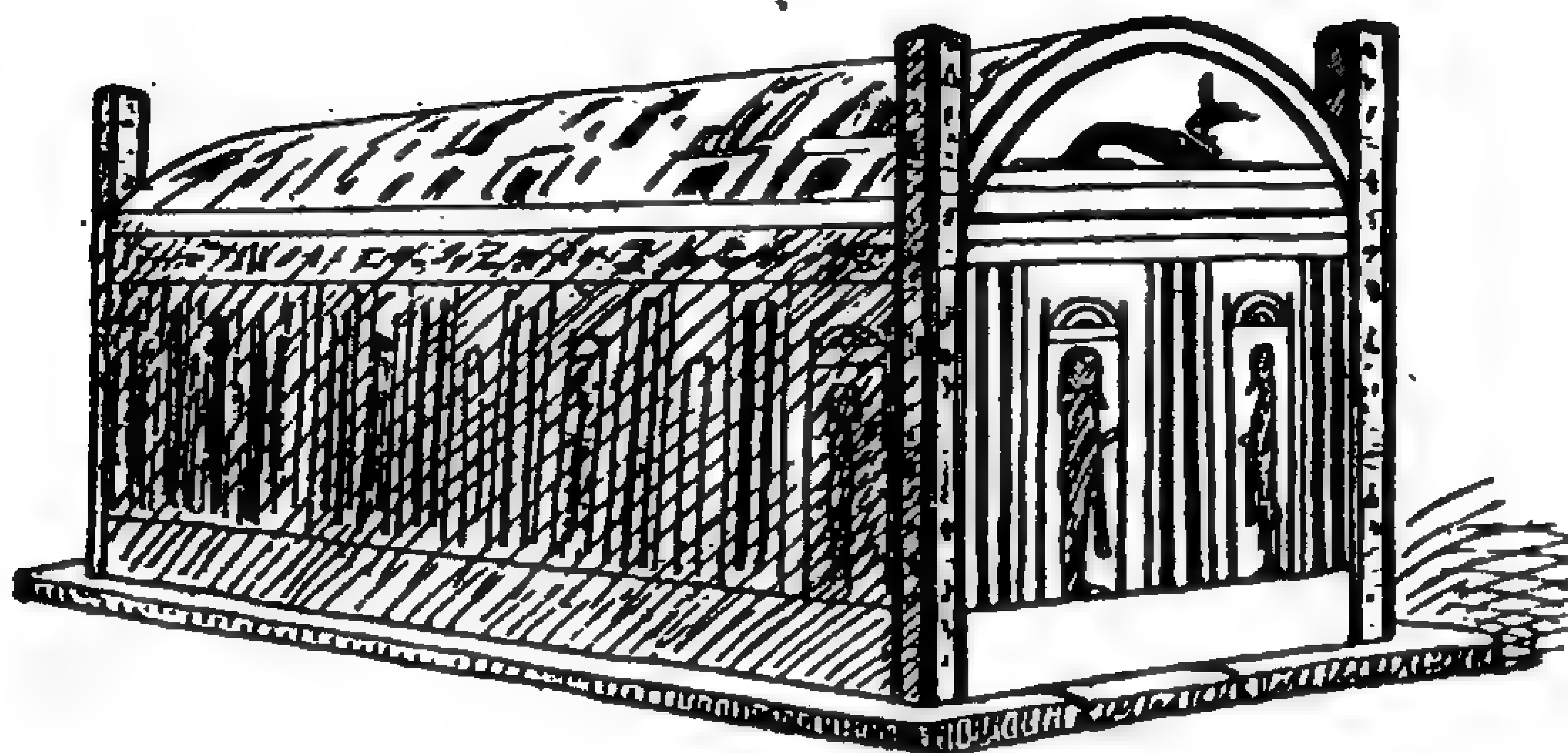
لقد ضاعت مقابر ملوك العهد المتأخر ، على أن مقابر الأثرياء من الأفراد تكفى لأن ترينا كيف تصوّر هذا العصر واجباته نحو الموتى ، فهى تفوق فى عظمتها سائر مقابر العهود السابقة ، وليس فى المقابر الملكية فى طيبة ما يجارى مقبرة بتامنوبى فى ضخامة مساحتها ، وقد كان صاحبها يعيش فى طيبة فى العهد الصاوى ، ويلقب برئيس «الخرحب» على الأسلوب القديم (صفحة ٢١٠) . يمرّ المرء أول ما يمرّ بفناءين أماميين ، زوّدا بصرحين ضخمين على نحو ما فى المعابد ، ومن ثم ببهوين محفورين فى الصخر ، يعتمد سقفهما على أعمدة مربعة ، ثم يلج من بعد ذلك إلى مجموعتين من الدهاليز والأبهاء والغرف . وفى نهاية إحدى هاتين المجموعتين كتلة من الصخر طولها ١٥ مترا ، وعرضها ١٠ أمتار ، شكلت على هيئة تابوت ضخم . وهى تعين المكان الذى يرقد الميت من تحته ؛ على أنه لابد للوصول إلى هذا المكان نفسه من أن يهبط المرء بئرا فى أحد الأبهاء المذكورة آنفا ، ثم يمرّ فى ثلاث غرف ، تتدلى من بعدها بئر أخرى ، تؤدى إلى بهو تقع من خلفه قاعة كبيرة كان يستقرّ فيها التابوت .

ولقد شيدت على نحو غريب كذلك المقابر التى خلفها لنا هذا العهد فى منف . ومع أن مبانيها العلوية اختفت الآن ، فقد بقى منها الجزء الرئيسى ، وهو البئر الواسعة العميقة ، التى تقوم على قاعدتها غرفة التابوت كأنها بناء مستقلّ . وليس من شكّ فى أن أسرارا عميقة تختفى وراء تصميم هذه المقابر ؛ فقد تحاكى تلك المقابر العالم السفلى وقد تمثل هذه قبر أوزيريس فى بئر روستاو .

وزخرفة هذه المقابر ذات طابع دينى بطبيعة الحال ، وهى مقتبسة من الأدب الجنازى . على أنه يظهر إلى جانب الصور الدينية فى كثير من المقابر صفوف من الصور ذات الطابع الدنيوى ، مما نلقاه مرحبين مسرورين ، وذلك لأن هذا العهد المتأخر لم يترك لنا فيما عدا ذلك صورا من أىّ نوع يمكن أن تعرض علينا حياته ونواحى نشاطه . على أن هذا السرور قصير الأجل ، لأن الصور الجميلة ، التى تمثل ذبح الضحايا من الحيوان أو تقديم الطيور ، قد نسخت بدقة مع جميع الحواشى من أية مقبرة من مقابر الدولة القديمة ؛ وقد نسخ الفنان الذى عمل فى مقبرة منتمحات فى طيبة صفوفا كاملة من الصور من معبد الدير البحرى المجاور [1] . بل إنا لنستطيع

(١) Erman, Ae. Z. 52, 90 f.

التدليل كذلك على أن الفنان ، الذى حلى مقبرة إيبى فى طيبة بتلك الصور العجيبة التى تمثل الصناع ، قد استخدم مصدرا فى مكان بعيد ، إذ نسخها من مقبرة قديمة فى مصر الوسطى ، شيدها رجل كان يحمل اسما مماثلا — ولعل أيبى المتأخر ظن أنه قد كشف فى سميّه هذا عن أحد أسلافه ، ولهذا استنسخ صور مقبرة سلفه ليحلى بها جدران مقبرته [1] . وكان ولع هذا العصر بكل قديم (انظر الفصل الثامن عشر) هو الذى أعاد هذه الصور من جديد ، وهو ولع يسود الفنّ والدين فى ذلك الوقت .

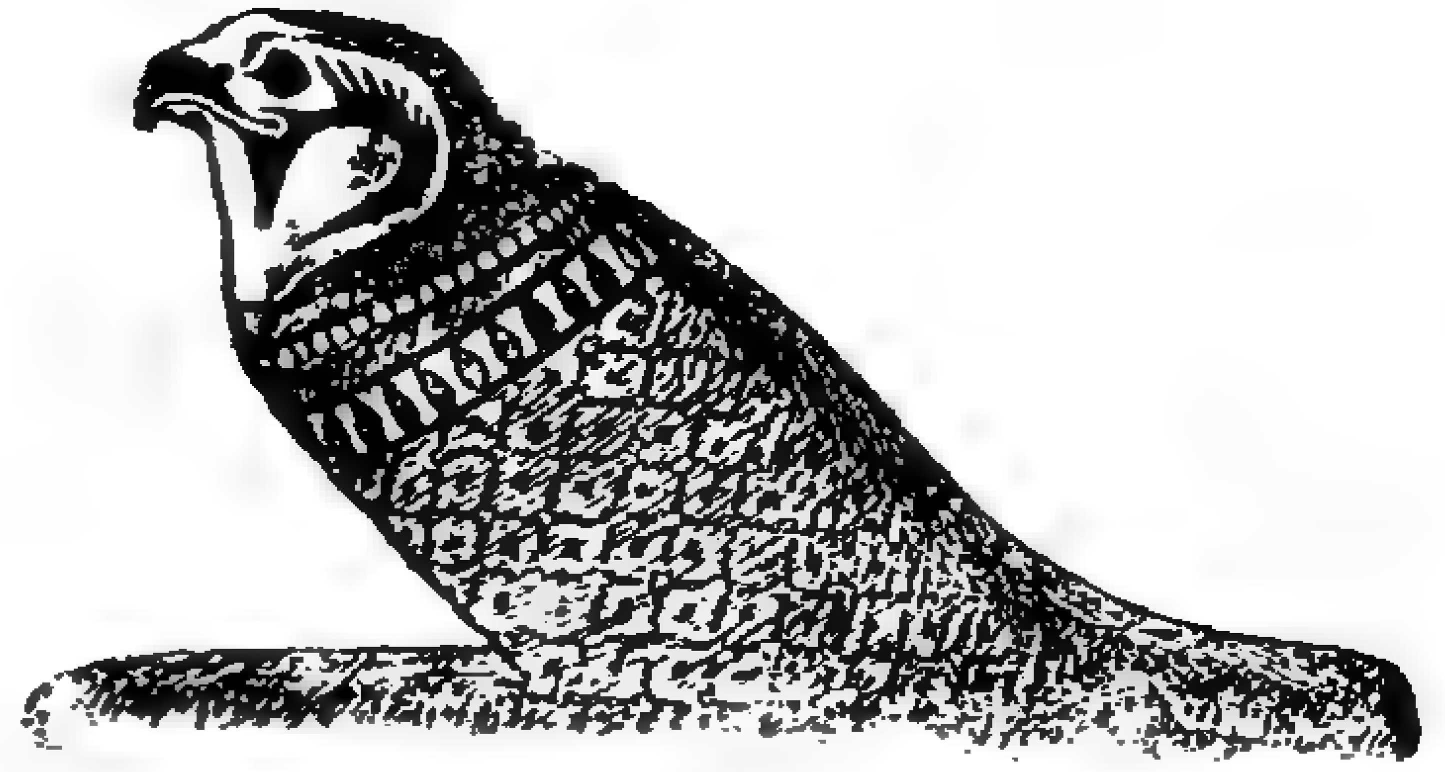


١١٣ — تابوت متأخر ذو أعمدة (برلين ٨٤٩٧) .

وتقابل فخامة المقابر فى العهد الصاوى روعة توابيتها ؛ فقد كان لابدّ لتوابيت الأفراد من الطبقة العليا أن تكون من الجرانيت القاتم أو البازلت الأسود ، وهى فى كثير من الأحيان أعجوبة حقا تدهش بكمال صنعتها . فبعضها فى هيئة المومياء ، كما جرت العادة منذ الدولة الحديثة ، وبعضها الآخر يحاكى التوابيت الصندوقية الشكل من عصور ما قبل الدولة الحديثة ؛ على أنها كلها تتميز حقا بصفة خاصة ، فبينما تقل النقوش على تلك التوابيت الحجرية القديمة ، رأى المقلدون المحدثون أنه لابد من أن ينقشوا كتبا كاملة من الأدب الجنازى بصورها على التوابيت . ولم يكن ليخفى على أعينهم كذلك أن هذا إنما يتلف الطابع الجليل الذى لهذه القطع النفيسة ، ومع ذلك فقد كان من الأهمية بمكان أن تكون للميت تلك النصوص المقدسة منقوشة بالقرب منه على مادة لا تفنى . ويدل على شدة الحاجة إلى مثل هذه التوابيت

(١) Davies, Deir el Gebrawi I, 36 ff.

أن المصريين عرفوا كيف يزوّدون بها كذلك العاجزين عن القيام بنفقات صنعها ، إذ كان يسرق لهم من أية مقبرة من مقابر العهود السابقة تابوت قديم ، تمحى من عليه نقوشه ثم تنقش مكانها النقوش التي كان يقتضيها العصر الحديث . وفى مجموعة الآثار فى برلين تابوت يدل على أن توابيت معيبة قد كانت تستخدم كذلك لهذا الغرض، أن المرء لم يكن ليضيق إذا كان الغطاء لايتفق مع الجزء الأسفل[1] .



١١٤ – صقر من أحد التوابيت (برلين ٤٦٨٧)

أما من لم يكن يستطيع اصطناع تابوته من الحجر ، فقد كان يؤثر فى هذا العصر المتأخر صنعه صندوقا من خشب، على شكل خاص كان يُظن أنه كان لتابوت أوزيريس: أى صندوق له فى الأركان أربعة أعمدة تعلو سطحه المقبى . وكانت توضع على هذه الأعمدة أربعة صقور ، نحتت أشكالها على أسلوب قديم ، كما كان ابن آوى يوضع على الغطاء ، على أن يتدلى ذيله من على التابوت ؛ وتمثل هذه الأشكال الخشبية ذات الألوان المختلفة الآلهة التى قامت بحماية تابوت أوزيريس . وكان على موضع الرأس من التابوت وعند قدميه تمثالان لإيزيس ونفتيس تبكيان الزوج المتوفى ؛ ومعهما كذلك أنوبيس يقبض على رمز أوزيريس أو يفرك عينيه باكيا[2] . أما فى التابوت الداخلى . فكان يوضع على المومياء أشكال تمثل جعلا ناشرا جناحيه ، وأبناء حورس الأربعة (صفحة ٨٤) ، وإلهة السماء ، وسائر ما ابتدع فى مصر من تمائم صغيرة ؛ وكان الأمر يقتضى مالايقل عن ١٠٤



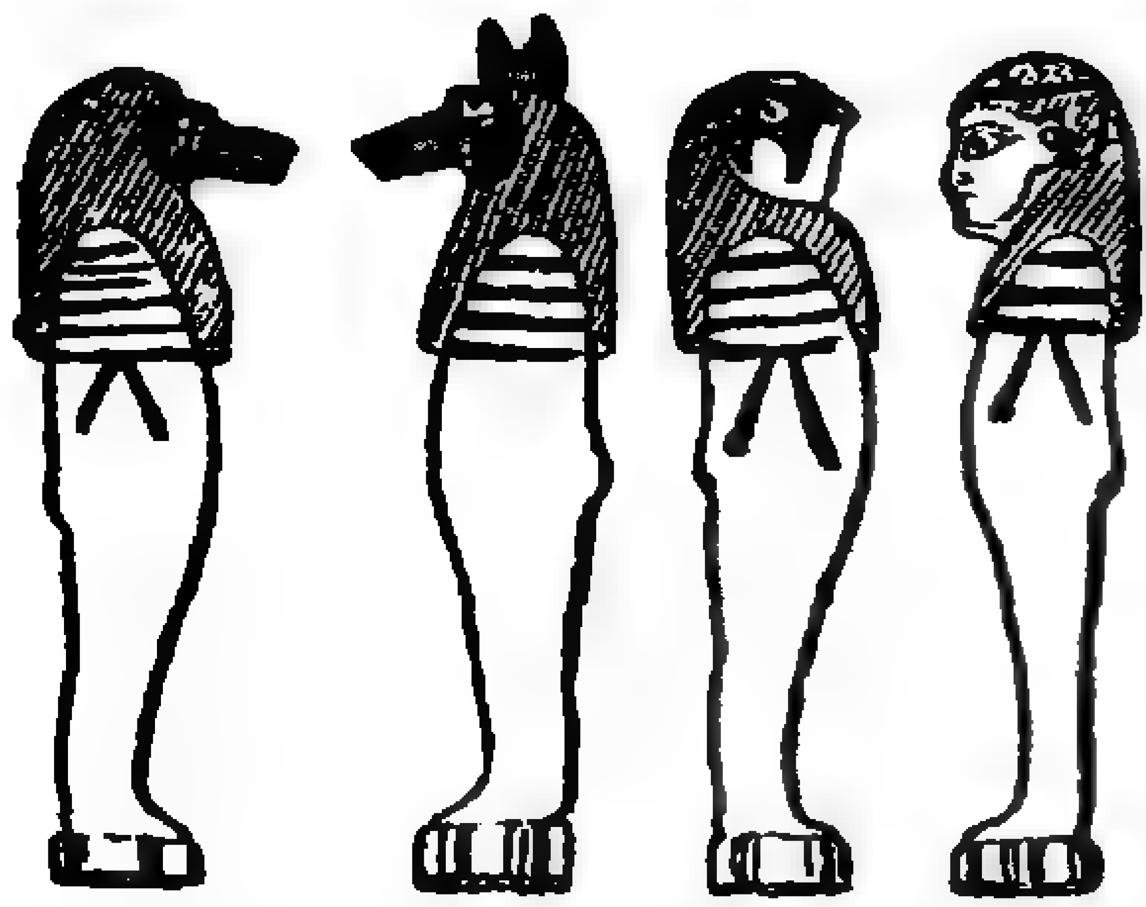
١١٥ – ابن آوى من أحد التوابيت (برلين ١٠٨١) .

---

(١) برلين ٤٩ (Ausfuehrl. Verzeichnis S. 270)

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٨ .

تميمة مختلفة ، إذا أريد صيانة الجثة كما صينت جثة أوزيريس من قبل [1] . وكلما زاد تصيب الميت من هذه الأشياء كان هذا خيرا له ، وقد أصبحت تصنع على أحسن شكل ومن أنفس المواد باعتبارها أشياء مقدسة . فتحت رأس الميت كان يوضع قرص مستدير من الكتان صوّرت عليه صور غريبة ، وقد جاء عنه أنه « يمنح الميت الدفء تحت الرأس » ، وذلك لكى لا يقرسه البرد فى النوم — وما زال الرأس حتى



١١٦ — أبناء حورس من أحد المومياات (برلين ١٢٦٣١ — ١٢٦٣٤) .

يومنا هذا جزء الجسم الذى يلفه المصرى ليلا بأكبر عناية . وبين ساقى المومياء كان يوضع فى بعض الأحيان تمثال صغير لأوزيريس من الطين ، مملوء بحبات قمح ، كان نموّها يشير إلى عودة الإله للحياة من جديد (صفحة ٤٩) . وكان يوضع إلى جانب الميت ، فضلا عن ذلك ، إصبعان من حجر أسود ، وصورة كبيرة للعين

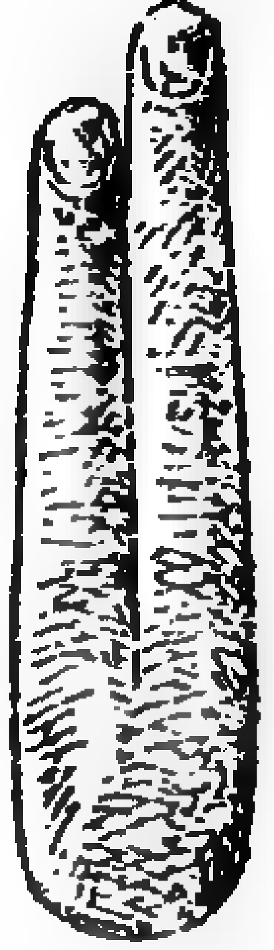


١١٧ — لوحة الرأس ، فى الوسط أمون رع تتعبد إليه القردة ، ومن أسفل حاتحور على شكل بقرة ، وغيرها . (برلين ٧٧٩٢) .

---

(١) Brugsch, Thesaurus S. 1402

اليمنى من الشمع أو المعدن ، وتماثيل صغيرة من الشمع لمالك الحزين (بلشون) أو لأبي منجل وأشياء كثيرة أخرى . هذا وقد يحدث ألا يجد الميت من هذه الذخائر ما يكفيه ، لذلك كان الحريصون يحملون معهم فى القبر قوالب من الحجر [1] ، حتى يمكنهم أن يصوغوا فيها الكثير لأنفسهم وقت الضرورة . وكانت الأحشاء توضع فى صندوق ، أو على الأرجح ، كما كان فى الدولة الحديثة ، فى أربعة قدور حجرية ، تحمل أغطيتها رءوس أبناء حورس الأربعة ، وتوضع فوق ذلك تحت حماية إيزيس ونفتيس ونيت وسلكت .


١١٨ — أصبعان من الحجر (برلين ٣٤١٧) .

وما كان لينسى كذلك شيء من الضروريات الأخرى للمقبرة . بل لقد زاد عددها . وهكذا أصبح كثير من المقابر يحتوى على سلم . لعل الغرض منه كان مساعدة الروح على الصعود من بئر المقبرة ، إن لم يكن للصعود إلى القبة الزرقاء وفقا للنصوص العتيقة عن سلم السماء (صفحة ٢٤٨) . وقد وجد فى إحدى المقابر تمثال لأبى الهول . فى خلقة أسد برأس إنسان ، « ليحمى المقبرة » . وذلك بطرد الأعداء عنها [2] . على أنه أيضا كان بمثابة صورة للملك يحرس الطريق إلى المعبد . وعثر فى مقابر أخرى على ألوية من خشب عليها تماثيل صغيرة للحيوانات المؤلهة ، على نحو الألوية التى كانت تتقدم المواكب « لإعداد الطريق » [3] . أما قرطاس البردى الذى كان يزوّد الميت به ، فقد أصبح إذ ذاك يوضع فى جوف قاعدة تمثال خشبى لأوزيريس ، وكان الغطاء الذى يغلق به هذا الجوف يشكل على هيئة تابوت الإله . وهكذا كان يستقرّ الكتاب فى تابوت إله الموتى نفسه بما يتفق وقداسته .

وأهمّ ما يسترعى النظر بين سائر ما كان يعتبر من مستلزمات المقابر تماثيل الأوشابتى ، التى كانت تقوم كما رأينا من قبل (صفحة ٣١١) عن الميت بأعمال

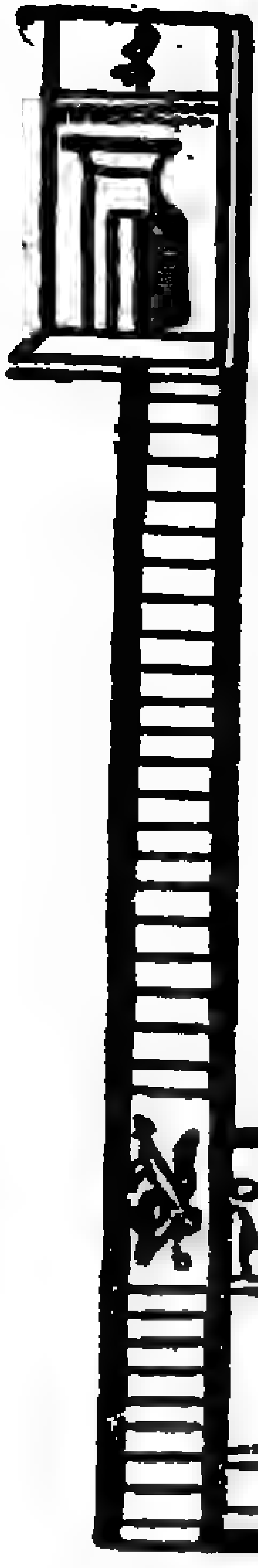
---

(١) Berl. ausfuehrl. Verzeichnis S. 280 وهى قوالب يستخدمها الموتى.

(٢) Bergmann, Ae. Z. 18, 50.

(٣) Mar. Denderah I, 9; IV, 16 ؛ وكانت فى الأصل تحمل أمام الملوك ، انظر : Quibell, Hierakonpolis, pl. 29

السخرة والتى تدل إحدى سماتها الخارجية على مدى ما كان لها من قداسة : فقد غدت تتخذ اللحية الخاصة بالآلهة (انظر الصورة صفحة٣٢٧) . وكانت التماثيل البسيطة منها ، وقد كانت تصنع من القاشانى الأزرق الفاتح ، توضع بكثرة فى المقبرة ، ولهذا حفظ لنا منها عدد وافر بحيث لايكاد يوجد فى الوقت الحاضر مجموعة صغيرة من الآثار إلا وقد وجدت بعض هذه التماثيل المتأخرة سبيلها إليها . وحتى التماثيل الجميلة ، التى كانت تنحت من الحجر الجيرى على نحو من الكمال لم يكن ليتسنى إلا للصانع المصرى وحده فى ذلك الزمن. فإنها كانت تصنع فى عدد أكبر ، وتوضع فى جدران غرفة الدفن ، وذلك فى مشكاوات سدّت فتحاتها بالبناء ، لتكون خير معين لصاحبها . وكان يحدث كذلك أن يزوّد الميت بخمسة وستين وثلثمائة أو شبتى يقوم كل منها بالخدمة مرة واحدة فى السنة :



١١٩ – هبوط الروح على السلم إلى القبر .

وهذا الذى اصطنعه الأغنياء والأشراف لسعادة أرواحهم قد قلده كذلك أفراد الطبقات الدنيا بقدر استطاعتهم ، ولهذا فإن فى الجبانات الكبيرة من هذا العهد توابيت وأثاثا جنازيا من كل نوع حتى من أحقرها .

وكان اللحادون الذين يقومون على دفن الفقراء يدفنونهم غالبا على أسوأ حالة فى المقابر القديمة . فقد حشرت أربعة توابيت مثلا فى غرفة لم تكن لتسع غير تابوت واحد . كذلك كانت بعض التوابيت توضع رأسية فى مدخل إحدى الآبار . وقد تدفن كذلك المومياوات فى بئر ، فإذا كانت ضيقة ثنيت المومياء ببساطة . أما الفقراء المُتربون فإنهم كانوا يدفنون فى الرمل بعد تحنيط بسيط . يشدون بعده ببعض الخرق إلى جذع نخلة [٢] . وكانت أنواع التحنيط تتميز كذلك بأسعارها .

---

(١) Rubensohn, Ae. Z. 41, 8 ؛ انظر ما سبق أن ذكر عن استخدامها .

(٢) Rubensohn, u. Knatz, Ae. Z. 41, 14.

وقد أوضح هيرودوت أن المحنط قد كان قبل قيامه بتجهيز الجثة يعرض على الطالبين ثلاثة نماذج خشبية للمومياوات ، تبين طريقة تجهيزها وفق الأسعار المختلفة [1] .

وتتجلى هذه الروح التجارية نفسها عند أولئك الذين كان يعهد إليهم برعاية المقابر ، وهم خلفاء الكهنة الجنازيين فى الأزمنة القديمة ، الذين اعتدنا تسميتهم باسمهم اليونانى وهو « الكواخيتيون » . ولدينا من العهد الإغريقى وثائق عديدة تبين لنا المعاملات التجارية التى كانت تقوم بها أسر هؤلاء الناس . ومنها نرى أن كل ميت قد كان يعتبر ببساطة رأس مال لهؤلاء القائمين على رعاية الجثث . فقد تعهد أحدهم بأن يقوم بتلاوة الأدعية بانتظام وتقديم القربان إلى ابْسِيناسِيخسن وزوجته وأولاده ، وأن ينال على هذا على نحو ما أجرا دائما ؛ وكان هـذا العمل وماله من جزاء مسألة مالية كأىّ شيء سواه من المسائل المالية ، حتى لقد كان يمكنه أن يوصى به لأبنائه أو يبيعه إلى شخص آخر من طائفته [2] . وكان يمكنه كذلك أن يستدين عليه مالا ، ولعل ذلك كله هو الذى أدى إلى الخبر الغريب الذى ذكره هيرودوت[3] والذى لاكته الألسن كثيرا ، من أن المصريين كانوا يستطيعون رهن جثث آبائهم . ومهما يكن من أمر فلنا أن نحترس من أن نستخلص من هذه العادة ومن هذا العمل التجارى للكواخيتيين أىّ شيء عن المشاعر الحقيقية للشعب نحو موتاه . وإذ كنا لانستطيع أن نرنو إلى هذه المسائل إلا من بعيـد بما يزيد على ألفى عام ، فإننا عرضة دائما لأن نحكم عليها من مظاهرها التى لانستطيع أن نراها إلا من بعيد كذلك . إننا نرى المقابر وأثاثها . ونرى حراسها المحترفين فى أعمالهم وفى صـلاتهم التجارية . غير أنه يجب على من يريد إدراك ذلك على حقيقتـه أن يفكر فى شيء آخر . لاتنطق به أية كتابة أو صورة ، ولكنه كان من بين ماشاهـده هيرودوت فى مصر ، وهو تلك الولولة الصاخبة يوم الوفاة . يوم كانت النساء يلطخن رءوسهن بالطين ،

---

(١) Herodot II, 86.

(٢) هناك مثال من هذا النص فى الكتيب Aus den Papyrus der Koenigl. Museen. ص ١٠٣ وما بعدها .

(٣) Herodot II, 136.

ويجبن المدينة لاطمات خدودهن مولولات ؛ ويجب أن يفكر كذلك فى تلك الفترة من الحزن الصامت ، إذ يرسل الرجال فيها شعورهم ولحاهم [1] ، كأنهم يريدون بذلك تجنب السعداء من الناس ، ثم أخيرا فى تلك الذكرى الطويلة الحزينة التى لم يذكر حتى هيرودوت عنها شيئا .

وهاك مسألة أخرى لنا أن ندرك منها أنه لاينبغى أن نعتمد فقط فى حكمنا على هذا الزمن المتأخر على ما خلف لنا فى المقابر . فقد رأينا فيما مضى كيف كان المصريون فى هذا العهد يرفعون من شأن الأدب الجنازى القديم ، ويرعون عادات أجدادهم الجنازية ، ولكنهم وقد صنعوا ذلك فهل كانوا يشاركونهم كذلك سائر التصوّرات والأفكار التى تعتمد عليها هذه العادات ؟ وهل ظلت الآراء حقا عن مصير الروح هى بعينها طوال القرون العديدة التى انصرمت منذ تصنيف كتاب الموتى أو كتاب الإمدوات ؟ لم يكن الأمر كذلك حقا ، ولكننا وقد حرص المصريون على اتباع التقاليد تماما فى كل ما كانوا يقومون به من عمل ، لا نستطيع بدورنا أن نلحظ التغيرات التى طرأت على عقيدة الشعب ؛ ولا نستطيع كذلك أن نحكم أكان هيرودوت قد أنبئ بالحقّ حين يروى [2] لنا أن المصريين إنما كانوا أوّل من بشّر بخلود الروح . وأنهم كانوا يعتقدون فوق ذلك فى تنقل الروح ، أى أنها عند الموت تمضى إلى كائن آخر يتلقى الحياة فى تلك اللحظة نفسها ، فإذا حلت فى خلال ثلاثة آلاف عام فى كل ما يعمر الأرض والماء والهواء من كائن ، فإنها تعود إلى الإنسان فى خاتمة ذلك المطاف . فهل انتهى الأمر حقا بذلك التصوّر العتيق ، الذى كان يذهب إلى أن الروح تستطيع أن تبدو طائرا أو زهرة أو « كل ما تريده من شكل » ، إلى أن تتخذ فى عقيدة الشعب مثل هذه الصيغة ؟ فى الحقّ لا بد أن كان هذا التصوّر غير ما زعم هيرودوت . ذلك لأنه



١٢٠ — أوشابتى من العهد الصاوى (برلين ٤٥١٣) .

(١) Herodot II, 85.
(٢) Herodot II, 123.

لو أن المصريين سلموا بمثل هذه الدورة التى لا تنتهى للروح ، لما كان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد فى أوزيريس ومملكته . على أن أوزيريس ، بصفته حامى الموتى ، ظلّ يرعى الأرواح طوال وجود الديانة المصرية بوجه عام.

وتفيدنا نصب مقابر الأجانب ، الذين عاشوا فى مصر ثم دفنوا فيها وفقا للعادات المصرية ، فى معرفة القليل عن العقائد الشعبية فى الزمن المتأخر . فقد دفن فى القرن الخامس فى منف بعض السوريين . وتدلّ شواهدهم على أنها من إنتاج صناع أجانب ، ولهذا لم تتأثر مناظرها بالتقاليد المصرية القديمة . وإنما لنرى عليها أن الميت يتعبد لأوزيريس . وأن أنوبيس يبذل العناية بالمومياء . وأن أهل الميت يندبونه ؛ وفى النقوش السوريانية يرجو الولد من أوزيريس البركة لوالده . وهذا الذى تعبر عنه الصورة والنقوش هو فى جوهره ما كان يعتقده الفرد العادى عن الموت . أما المخاوف والآمال التى لا تحصى . وسائر الأشباح والآلهة ، التى يزخر بها الأدب الجنازى القديم ، فقد تلاشت من مخيلة الطبقات الدنيا من الشعب وغشيها النسيان .



١٢١ – شاهد مقبرة آخت أبوالسورية ، من منف من عام ٤٨٢ ق . م . (برلين ٧٧٠٧) .

الفصل السابع عشر

السحر

السحر نبت وحشى فى دوحة الدين . وهو عمل يهدف إلى التغلب على القوى التى تتصرّف فى مصير الإنسان . وإنه لمن الخير أن نتعرف كيف يمكن أن ينشأ الاعتقاد بإمكان القيام بمثل هذا العمل . قد يبدو أن الإله استجاب للدعاء تارة، ولم يستجب له تارة أخرى . عند ذلك يطرأ قسرا على الفكر أن العبارة التى صيغ فيها الدعاء أول مرة قد لقيت عند الإله قبولا خاصا، لذلك يعدّ هذا التركيب أفضل تركيب من نوعه، ويغدو صيغة لايلبث الإنسان أن يعتقد أن لها مفعولا لايخيب، وأنها تقهر القدر . عندئذ يسوق هذا الاستنتاج الخاطئ إلى أداء أعمال معينة ونبذ أعمال أخرى ؛ فقد نجحت اليوم فيما أخفقت فيه منذ زمن وجيز . ومن الواضح أنك قد أسأت إلى الإله أو إلى كائن آخر مجهول بهذه الوسيلة أو بتلك . أما اليوم فقد أرضيته . فإذا وفقت فى تعليل ذلك ، فلسوف تستطيع فى المستقبل تجنب ذلك الحظّ العاثر أو جلب هذا التوفيق . ومن يتدبر هذه الأشياء ويعرف طبيعة الآلهة فلن يلبث كذلك أن يدرك ما عسى أن يكون . ولذلك فإن من كان بالآلهة أعلم فهو يغدو كذلك خير ساحر . وكذلك كان الخرحب الرئيس (صفحة ٢١٠) فى اعتبار المصريين ، إذ هو أعلم الكهنة بالأسفار القديمة المقدسة .

فإذا حدث أن تطرّق هذا الاتجاه إلى تفكير شعب ما — والشعوب اليافعة الساذجة هى أول مايتعرّض لهذا — فلن يقف أمامه حائل ، وبذلك تزدهر الأعشاب الطفيلية التى تمثل السحر والشعوذة إلى جانب الدوحة الطيبة للدين . وفى الشعوب ذات المواهب المحدودة تخنق هذه الأعشاب آخر الأمر دوحة الديانة خنقا تاما ، ومن ثم تسود البربرية التى لاتدين بأى نظام ثابت فى العالم ، والتى تجعل من الطلسم ذى القوّة السحرية أسمى ما لديها ، والتى تستعيض عن الكاهن بالساحر وشعوذته .

ولا يرى أحد أن ينسب مثل هذه الحالة إلى شعب يافع كالمصريين القدامى — وإلا كان أشبه بمن يريد أن يسوّى بين خرافات العجوز المتكس طفلا ، وبين طيش صبيّ يبشر بكثير من رجاء . ومع ذلك فقد كان للشعب المصرى كذلك نصيب وافر من تلك الضلالات منذ عهد مبكر .

ومن المحقق أنه من الصعب هنا ترسم حدّ فاصل ، كما أنه لاينبغى أن تعتبر كل عادة تشير إلى ماوراء المحسوس من قبيل السحر [1] . فمن يزوّد الميت بالطعام أو يصوّر له على جدران المقبرة مناظر الحياة الرغدة ، لا يؤدى بذلك عملا من أعمال السحر ؛ وحتى ذلك الذى يتلو للميت الدعوة الجنازية إنما يتلو فى حقيقة الأمر دعاء ، وإن كان قد غدا دعاء أجوف وكان يعتقد أن له تأثير السحر . لهذا فلندع جانبا مثل هذه الحالات ذات العلاقة بعبادة الآلهة والموتى ، وفيما بقى بعد ذلك الكفاية وزيادة . وقد زادت العصور المتأخرة فى سائر ما تواتر عن أقدم الأزمنة من أعمال السحر . وما ينبغى أن يدهشنا ذلك ؛ حقا لقد بلغت ثقافة الشعب فى هذه العصور مستوى أرقى مما كان فى العصور الأولى ، غير أن الميل إلى السحر إنما يكمن فى كل إنسان ، فإذا ماتراخت قيود العقل ظهرت الحماقات الكبرى من جديد حتى فى أرقى طبقات الشعب المثقف .

وتعاويذ السحر مختلفة الصيغ . أبسطها ما خاطب فيه الساحر الشر الذى يودّ أن يطرده . وذلك على نحو ما ينطق به ضد الثعابين أحد الأوراد العتيقة ، التى حفظت لنا فى متون الأهرام : « يسقط الثعبان الذى يخرج من الأرض . ويسقط اللهيب الذى يخرج من البحر . فلتسقط ! » [2] أو قد يزعم الساحر للموتى ، الذين تجلب أشباحهم المرض فى البيت . أنه قادر على أن يفعل بهم السوء ، وأنه قادر على أن يخرب مقابرهم ، وأن ينتزع قرابينهم [3] . وهو يوضح للمرض أن من الخطر عليه أن يلمّ بهذا المريض حيث لاأمن له فى أىّ جزء من جسمه : فاللسان فى الفم ثعبان

---

(١) عن موقفى فى هذه المسائل انظر صفحة ٢٨٤ ملحوظة ١ وصفحة ٢٨٨ ملحوظة ٤ .

(٢) متون الأهرام ، ٢٣٧ .

(٣) Zauberspruechc f. M. u. K. S. 33 ؛ إنى أدين بالتفسير الصحيح إلى جراف شاك .

انى جحره ، والدبر منفرة للآلهة ، آما الأسنان فسوف تطحن المرض ، وسوف يهرسه القدم ، وقد يتلاشى فى الفم [1] . فإذا لم ينفع الأمر والتهديد والإقناع عمد الساحر إلى أسلوب أرقّ حاشية ، فيغرى المرض بأنه أفضل له أن يسكن إلى حريمه من أن يسكن فى هذا الطفل المسكين : « هلمّ اذهب لتنام ، واذهب إلى حيث نساؤك الجميلات ، اللائى وضع فى شعورهن المرّ ، وعلى أكتافهن البخور النّدىّ » [2] .

على أن الساحر يستنجد عادة بالآلهة . فهو يدعو رع ، الذى يرى كل شىء ، لرقابة أشباح الشرّ [3] ، أو يشكو الثعبان إلى رع لأعماله السيئة ، لأنه « عض الأرض ، عض جب » [4] ، أو يبين للمرض أن كل عضو من أعضاء الجسم تحت حماية أحد الآلهة . وكثيرا ما يتكلم كذلك كأنه هو نفسه الإله : « اخرج أيها السم ، أفِض على الأرض ! حورس يعزم عليك ، إنه يبيدك ، إنه يتفل عليك . إنك لن تقوم ، إنك تسيل على الأرض. إنك ضعيف لاحول لك ، إنك بائس ولاسبيل لك إلى المقاومة ، إنك أعمى لاترى ، إن رأسك ليتدلى ولن ترفع وجهك . . . بفضل ما يقول حورس الساحر القوىّ » [5] . أو قد يقول : « إنك لن تتسلط علىّ ، إنى أنا أمون . أنى أنا أنوريس ، المحارب الطيب . إنى أنا العظيم ، ربّ القوّة » [6] .

وإذا ذكر الساحر فى مثل هذه الرقى هذا الإله أو ذاك ، فان لهذا فى الغالب سببه فى أساطير الآلهة ؛ فالإله الذى انتصر بنفسه يوما ما على الثعابين ، يغدو أفضل منجد ضدها ، والإلهة التى تعهدت الرضيع بنفسها ، تصبح كذلك أفضل عون للأم من بنى الإنسان . ولما كان من الحكمة الاستفادة مباشرة من هذا المثال السابق ، فقد نشأ نوع من الرقى يعرض علينا حادثا من قصص الآلهة لتطبيقها بعد ذلك فيما بعد.

---

(١) نفس المرجع صفحة ١٩ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع صفحة ١٩ .

(٣) نفس المرجع صفحة ٤٠ وما بعدها .

(٤) متون الأهرام ٢٣١ ؛ لقد أخطأ الكاتب ، كما كان يحدث كثيرا ، بكتابة اسم الملك . والمقصود هو جحر الثعبان الذى ظن بأنه عضة فى الأرض .

(٥) Metternichst. 3 ff.

(٦) Pap. Mag. Harris. 8,5.

فى عزيمة تشفى من لدغ العقرب يتعلق الموضوع بالقطة المقدسة ، أى الإلهة باستت (صفحة ٤١) : « أى رع ! هلم إلى ابنتك التى لدغتها عقرب فى طريق منعزل ! إن صراخها ليصعد إلى السماء . . . وقد سرى السم فى أعضائها ، ويجرى فى لحمها . وهى تحوّل فمها نحوه » ، ومعنى هذا أنها تحاول أن تلعق مكان الألم . على أن رع يجيبها : « لاتخافى ، لاتخافى يا ابنتى الجليلة ؛ هأنذا أقف من ورائك . إنه أنا ، إنى أطرح السم الذى فى سائر أعضاء هذه القطة » [1] .

وكان يفضّل بطبيعة الحال ذكر الآلهة التى كانت تعتبر بصفة عامة مثالا إلهيا للحياة البشرية جميعا ، وهى أوزيريس وعشيرته . فإن التماسيح لترتدّ مذعورة إن تذكر الإنسان كيف لبثت جثة أوزيريس فيما مضى فى الماء فى حماية الآلهة : « أوزيريس فى الماء وبجانبه عين حورس ، ومن فوقه يبسط الجعل الكبير جناحيه . . . إن من فى الماء يخرج سليما ، ومن يقترب ممن فى الماء إنما يقترب من عين حورس . إلى الوراء يا حيوانات الماء ! . . . لاترفعوا وجهكم ياحيوانات الماء حين يمرّ بكم أوزيريس . . . أى سكان الماء . إنّ رع ليغلق أفواهكم . وسخمت تسدّ حناجركم ، وتحوت يقطع ألسنتكم ، وربّ السحر يعمى أعينكم . هؤلاء هم الأرباب الأربعة ، الذين يحمون أوزيريس . أولئك هم الذين يحمون من فى الماء ، وسائر من فى الماء من إنسان وحيوان . اليوم! » [2] . هذا ، ويساعد ضد لدغ العقرب تذكر الأم المسكينة ، تلك التى اضطرّت إلى الاختفاء فى مناقع الدلتا مع طفلها الصغير . « أنا إيزيس ، لقد ولدت حورس بن أوزيريس فى مستنقعات الدلتا فابتهجت لذلك كثيرا . . . لقد أخفيته وخبأته خوفا . . . غير أنى وجدته يوما ، وهو حورس الذهبى الجميل ، ذلك الطفل اليتيم ، وقد بلل الأرض بماء عينيه ورطوبة شفتيه . وكان جسمه منهوكا ، وقلبه ينبض بسرعة . . . فصرخت ونحت : « إن أبى فى العالم السفلى وأمى فى مملكة الموتى ، وأخى الأكبر يرقد فى التابوت

---

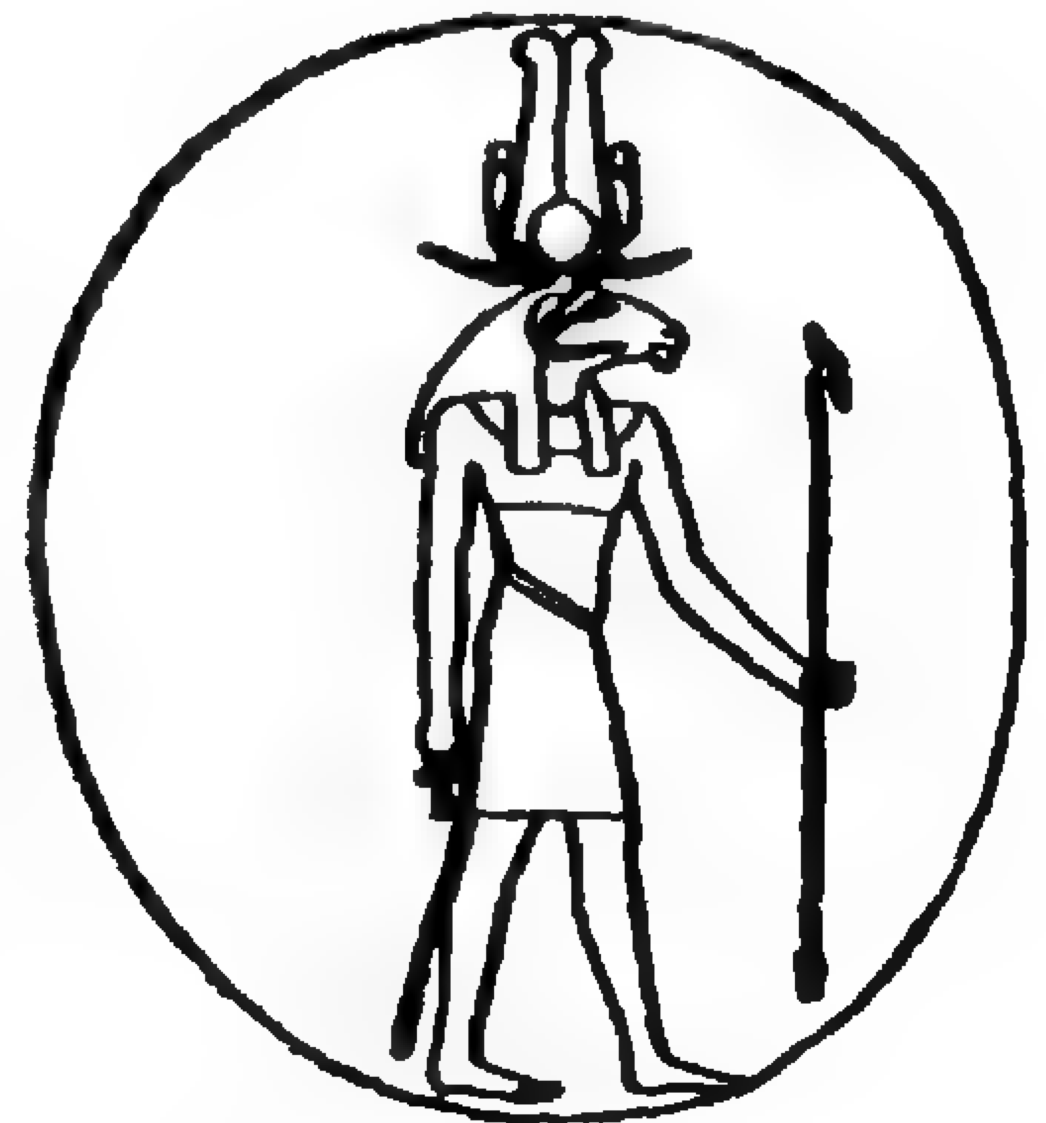
(١) Metternichst. 9. ff.

(٢) Metternichst. 38 ff.

. . . إنى لأودّ أن أدعو أيا من الناس لعل قلوبهم تتجه إلىّ » . فدعوت سكان المستنقعات فوجهوا قلوبهم سريعا إلىّ ؛ وترك الناس بيوتهم ، وهرعوا على ندائى . وقد ناحوا على فداحة مصيبتى » ، ولكن أحدا منهم لم يستطع مساعدتى .

« وجاءتنى امرأة كانت أكيس نساء مدينتها » . . . وقالت لى : إنّ ست ما كان يستطيع ارتكاب ذلك ، ولأن ست لايجىء هذه المقاطعة ، إنه لايجوب خمّس . . . لعل عقربا لدغته » . . . عند ذلك وضعت إيزيس أنفها على أنفه وتبينت رائحته . . . وأدركت ألم الوريث الإلهى ، وعرفت أنه مسموم ، فأخذته بين ذراعيها بسرعة . . . « أى رع لقد لدغ خورس ، لقد لدغ ابنك ، لقد لدغ حورس وارث ملكك » . . . . وجاءت نفتيس باكية تردّد المناقع نواحها . وصاحت سلكت : « ماذا حدث ماذا حدث ؟ ماذا حدث لحورس بن إيزيس ؟ ادع السماء فتقف حاشية رع ، ولا تعدو سفينة الشمس حورس » .

عند ذلك أرسلت إيزيس دعاءها إلى السماء . وصراخها إلى زورق الأبدية . فوقفت الشمس ثابتة لم تتحرّك من مكانها . وجاء تحوت مزوّدا بسحره وبالأمر العظيم لرع . وقال : « ماذا حدث ؟ ماذا حدث يا إيزيس ، أيتها الإلهة الجليلة ذات الفم الحصيف . أجل إنه لم يحدث للابن حورس أىّ سوء ؟ . . . لقد أتيت من سفينة الشمس من مكانها الذى كانت فيه بالأمس ، وقد انتشر الظلام واختفى الضوء حتى يشفى حورس من أجل أمه ، وكذلك كل عليل (آخر) . . . حارس حورس هو ذلك الذى فى شمسه ، والذى يضىء القطرين بعينيه المتألقتين — وهو كذلك حارس العليل . حارس حورس هو الشيخ الذى فى السماء السفلى ، الذى يصدر أوامره إلى كل ما يوجد وما لا يوجد — وهو كذلك حارس كل عليل . . . إن سفينة الشمس تقف ثابتة ، والشمس لا تغادر مكان الأمس حتى يشفى حورس



١٢٢ — « الذى فى شمسه »
(من معبد إسنا) .

من أجل أمه ، وحتى يشفى كذلك العليل من أجل أمه »[1] .

وعانى حورس مرة أخرى من حريق لعله التهم الكوخ الذى كان يرقد . منه فقيل إذ ذاك لإيزيس : « إن ابنك يحترق فى الريف » . — هل هناك ماء ؟ — « ليس هناك ماء » — « إن الماء فى فمى ، وإن نيلا لبين ساقى ، لقد جئت لأطفئ الحريق » . ثم كان أن رؤى فى عصر تال أن هذه الرقية الساذجة ضد الحروق يجب أن تصاغ على نحو أرق ، ولهذا أصبحت إيزيس تقول : « إن الماء لفى فمى ، وإن شفتى لنواتا فيض »[2] .

وفى مرة أخرى كان حورس يحرس ماشيته فى الحقل ولم تشأ أن توغل كثيرا حيث الحيوانات المفترسة بالقرب من ذلك المكان . لهذا صنعت له إيزيس ونفتيس بعض التمائم : « كُمّت أفواه السباع والضباع وسائر الحيوان الطويل الذيل ، مما يتغذى باللحم ، ويشرب الدم ، لطردها وقطع آذانها ، ومنحها الظلام وحرمانها الضوء ، ومنحها العشا وحرمانها النظر ، فى كل منطقة فى هذه الليلة . قف أيها الذئب الشرير ... اذهب إلى الجنوب ، إلى الشمال ، إلى الغرب ، إلى الشرق ؛ إن الحقل بأكمله حقلك ، ولن يردّك عنه أحد . لاتوجه وجهك نحوى وولّ وجهك شطر حيوانات الصحراء . لاتولّ وجهك إلى طريقى ، بل ولّ وجهك شطر طريق آخر »[3] . وفى هذه العزيمة الأخيرة لايتمالك المرء إلا أن يظنّ أن الساحر نفسه هو الذى ابتدع لحورس حياة الرعاة تلك ، التى لم ترد عنها أدنى إشارة فى أىّ نصّ آخر ؛ لقد كان حورس قبل غيره الطفل الإلهى ، ولذلك أمكن أن يسند إليه كل ما كان واجبا أن يفعله الصبية فى مصر . وعدا هذا يتضح كذلك أن صحة الأساطير التى تشير إليها هذه الرقى لاتتنزّه دائما عن الشك .

وبينما تبدو فى هذا كله نجدة الآلهة كأنها هدية يمنحونها إذا طلبها الساحر بالعبارات الصحيحة ، هناك ما يدلّ على مغالاة غريبة فى اتباع وسائل البشر العادية؛

---

(١) نفس المرجع صفحة ١٦٨ وما بعدها .

(٢) Schaefer, Aegypt. Zeitschr. 36, 129.

(٣) انظر Lange, Pap. Mag. Harris. S. 86 f.

إذ يهدّد الساحر أهل السماء حتى ينفذوا إرادته . وتوجد مثل هذه التهديدات فى الأدب الجنازى القديم ؛ فقد جاء فى أحد الأوراد التى حفظت فى متون الأهرام : « أنتم يا آلهة الأفق ! بحق ما تودون أن يحيا (سيدكم) أتوم ، وتضمخوا أنفسكم بالزيت ، وتلبسوا الملابس ، وتتلقوا أطعمتكم ، خذوا بيده وأنزلوه فى حقل الأطعمة »[1] . وأقوى من هذا ما جاء فى موضع آخر من نفس هذه المتون : « فإذا لم تسيروا بالزورق إليه . . . فستنزع لمم الشعر التى على رءوسكم كما تنزع براعم الأزهار على شواطئ البحار »[2] . وإذا لم تقودوا الميت مع أسرته تتعطل عبادة الآلهة ؛ « ومن ثم تسرق قطع اللحم الممتازة من على مذابح الآلهة ، ولن يقدم الخبز ، ولن يصنع خبز أبيض » ، ولن تقدم « أية قطعة من اللحم من وضم الجزار» إلى الإله[3]. بل إن الساحر ليقلب العالم أجمع ؛ إنه إن لم « يخرج مبرّرا ، فلن يرقى رع إلى السماء ، وإنما يرقى النيل إلى السماء ، ويعيش على الحق ، ويهبط رع إلى الماء ويعيش على الأسماك »[4] . وإذا لم يمنح الميت مكانته السامية فعلى السماء أن تبرق وتمطر ، وأن يُضرب ذراعا شو ، اللذان يحملان السماء[5] . على أنه لم يُذكر كيف تنفذ هذه التهديدات . ويعتمد الساحر فى حالات أخرى على أنه يعرف اسم الإله ، اسمه الذى ترتكز عليه قوّته . لهذا جاء فيما سبق من تهديد أصحاب لمم الشعر أنه سيذكر أسماءهم للناس . أليس لأسماء الآلهة قوّة رهيبة ؟ إذا « نطق » إنسان باسم منها « على شاطئ نهر ، امحى النهر (أى جفّ) ، وإذا نطق به على الأرض تطاير الشرر » ؛ وإذا هجم تمساح على ساحر يعرف هذا الاسم فإنه بفضله « يجعل الأرض تغور فى أمواج الماء ، ويصبح الجنوب شمالا ، وتدور الأرض »[6].

ولكن من أين عرف السحرة هذا الاسم المكنون الذى يعتمدون على معرفته ؟

---

(١) متون الأهرام ٨٧٩ — ٨٨٠ .

(٢) متون الأهرام ١٢٢٣ .

(٣) Lacau, Textes religieux, No. 2. ؛ انظر أيضا Grapow, Ae. Z. 49, 48 f.

(٤) Totb. ed. Naville, 65, 12

(٥) متون الأهرام الفصل ٢٠٥ .

(٦) Lange, Pap. Mag. Harris, S. 58.

هذا السؤال لابد أن يكون المصريون قد عرضوا له كثيرا ، وذلك لأن عزيمة من الدولة الحديثة تكفلت بالإجابة عليه فى إفاضة ، فهى تقص علينا كيف أفشى مرة اسم رع المكنون . ذلك أن رع لما كان يحكم « الآلهة والبشر أجمعين » على الأرض ، كانت إيزيس أمهر النساء جميعا ؛ كانت أمهر من البشر والآلهة والمبجلين ، « وما كان فى السماء ولا فى الأرض شىء لاتعرفه » ، غير أنها لم تكن تعرف الاسم الحقيقى لرع ذى الأسماء الكثيرة ، فعولت على معرفته . وقد غدا الإله شيخا عجوزا ، يرتجف فمه ، « ويتساقط رواله على الأرض ، فعجنت إيزيس بيدها منه ومن التراب الذى لصق به دودة عظيمة . . . وضعتها فى الطريق الذى يسلكه الإله العظيم إذا أراد زيارة قطرية » . وحينما كان رع « يتريض كعادته كل يوم » ، تتبعه الآلهة لدغته الدودة .

« وبلغ صوت جلالته السماء . وقالت آلهتها : ماذا حدث ؟ وقالت الآلهة (الأخرى) : ماذا جرى ؟ ولكنه كان عاجزا عن أن يجيب وكانت شفتاه ترتعشان وسائر أعضائه ترتعد ، وتملك السم جسده كما يتملك النيل الأرض » .

ولما هدأ قليلا نادى حاشيته : « تعالوا يا من نشأتم من جسدى ، أنتم أيها الآلهة يامن خرجتم منى ، تعالوا أخبركم بما حدث لى . لقد أصابنى ما يشبه المرض ؛ إنى لأشعر به ولكن عينى لاترىانه . . . إننى لم أذق ألما يماثله أبدا . . . إننى أمير ، وابن أمير ، إنى البذرة الإلهية ، التى غدت إلها . إنى أنا العظيم بن العظيم . لقد ابتكر أبى وأمى اسمى . إنى أنا ذو الأسماء الكثيرة ، وصاحب الأشكال العديدة . شكلى فى كل إله . إننى أدعى أتوم وحورس حكن . لقد أخبرنى أبى وأمى باسمى ؛ أنه كامن فى جسدى [1] منذ مولدتى ، حتى لا يكون لأحد ، ممن يريدون عمل السحر ضدى ، قوة سحرية . ولما خرجت لرؤية ماخلقت وللتريض فى القطرين اللذين خلقتهما ، أصابنى شىء لاأعرفه . إنه ليس بنار ، وما هو بماء ، ولكن قلبى يتقد ، وجسدى يرتعد ، وسائر أعضائى فى برودة الثلج » .

---

(١) انظر كذلك ما لوحظ عن اسم آمون (صفحة ١٥٢) وما ذكر عن خلق أسماء الأشياء عند خلق العالم (صفحة ٧٧) .

على هذا النحو جرت شكاية رع . وقد استدعى أبناء الآلهة « أولى الحديث الرائع ، والفم العارف » . فجاءوا جميعا مكروبين . وكذلك جاءت إيزيس ببراعتها ، وهي ذات الفم الممتلئ بنسيم الحياة ، والتي يطرد مقالها الداء . والتي يحيي حديثها من لاتنفّس له » . قالت : « ما الخبر ؟ ما الخبر أيها الأب الإلهي ؟ انظر إن كانت قد آذتك دودة ، أو رفع أحد مخلوقاتك رأسه ضدك . فإني أجعله يهوى إلى الأرض بفضل سحرى البارع » .

وفتح الإله الممجد فمه : « عندما كنت في الطريق أتريض في مصر والصحراء ، ودّ قلبي رؤية ما خلقت ، فجرحتني دودة لم أرها . إنه ليس بنار . وما هو بماء ، ومع هذا فإني أشدّ برودة من الماء ، وأشدّ حرارة من النار . إن كل أعضائي لتبضّ عرقا » .

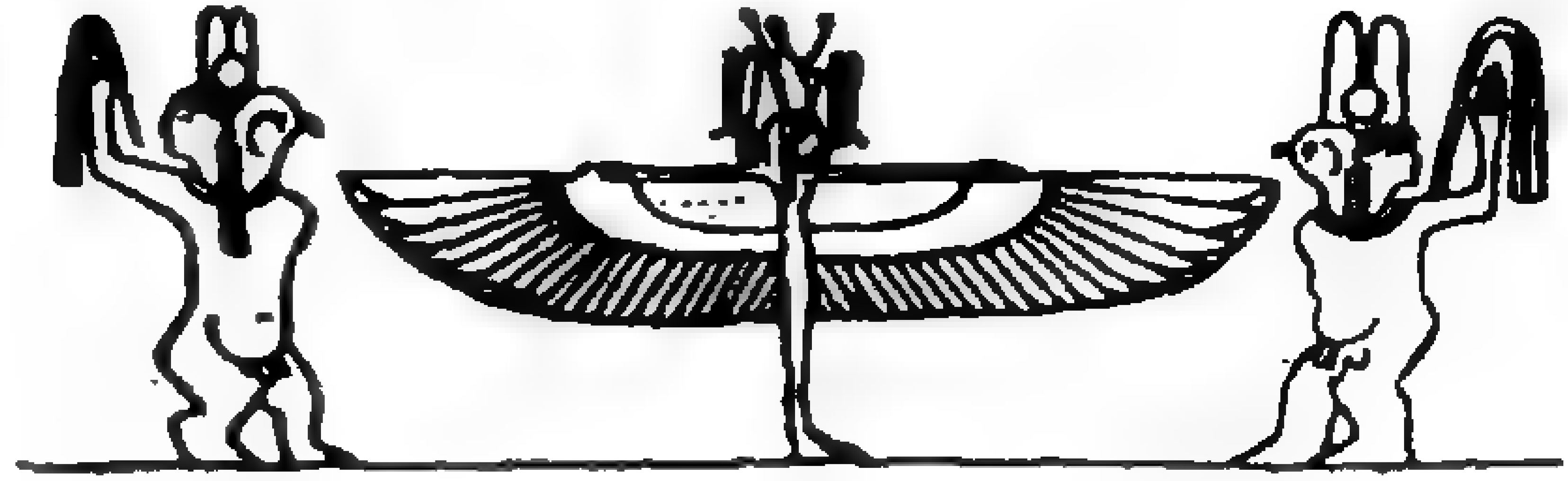
عند ذلك قالت إيزيس لرع : « أخبرني باسمك يا أبي المقدس ، إن الرجل الذي يذكر اسمه يظلّ حيا » . فأجاب الإله الكهل : « إني أنا الذي فطر السماء والأرض . وعقد الجبال وأنشأ ما عليها . إني أنا الذي صنع الماء ، وخلق لجج السماء . . . إني أنا الذي صنع السماء ، وجعل أفقها مكانا خفيا ، وأقمت فيه أرواح الآلهة . إني أنا من إذا فتح عينيه ضاءت الدنيا . وإن أغمضهما ساد الظلام ، ومن يجرى ماء النيل بأمره — ولكن الآلهة لاتعرف اسمه . إني أنا الذي قدر الساعات وخلق الأيام . إني أنا الذي يفتتح العام ويخلق الفيضان . أنا خبرى في الصباح وأتوم في المساء » .

ومع ذلك لم يتلاش السمّ ، فقالت إيزيس : « إن اسمك ليس فيما حدثتني به . أخبرني به ، وبذلك يخرج السم ، إن الرجل الذي يُذكر اسمه يظلّ حيا » . وطفق السمّ يتقد أشدّ من النار حتى لم يستطع الإله أن يصمد طويلا . فقال لإيزيس : « إنما ينبغي أن يمضي اسمي من جوفي إلى جوفك » . ثم أردف قائلا : ينبغي أن تخفيه . ولكن في طوعك إخبار ابنك حورس به ليكون حجابا قويا ضد كل سمّ [1] .

وإن القارئ ليرى أن الساحر يحتفظ لنفسه هنا كذلك بالاسم المكنون ولا يخبرنا

(١) Lefebvre, Aegyt. Zeitschrift 21, 27 ff.

به . على أن الأمر ربما جرى على خلاف ذلك فى ورد قديم جدا ، يضمن للميت استخدام معراج السماء (صفحة٢٤٨) : « تعال أيها المعراج (موكت)، أقبل يابوكت ، تعال باسمك . الذى تذكره الآلهة » [1] ؛ وربما كان المقصود هنا أن الآلهة لاتسمى المعراج موكت كما يفعل البشر . وإنما تسميه بوكت .



١٢٣ — أشكال سحرية لتصويرها على شريط من الكتان (كتاب الموتى ، طبع لبسيوس ١٦٤) .

وكذلك فان أغلب الكلمات الغريبة . التى تزخر بها رقى العصر المتأخر بنوع خاص كانت حقا تعتبر أسماء خفية للإله . وفى مواضع أخرى كان هذا الهذر يجرى على أنه لغة أجنبية . وإذن فالتعويذة الواقية من الأسود « إدر إدسن إدرجه إدسن متحدا مرم إدسن متحدا إمى إدسن » الخ . كانت تعتبر من المحقق تعويذة فينيقية . وذلك لأنها تتضمن بعد ذلك اسم الإله بعل [2] .

ولكى يكون للرقى أثرها الصحيح كان لابد من مراعاة أشياء كثيرة عند تلاوتها . فكان على من شاء لنفسه أن يتلو وردا يجلب له الحظ . أن « يتطهر » قبل كل شىء تسعة أيام . ثم كان عليه بعد ذلك أن يتضمخ بنوعين من الزيوت . وأن يتبخر ، بحيث تكون المبخرة من وراء الأذنين ، وأن يطهر الفم بالنطرون . وأن يغتسل بماء الفيضان . وأن يتخذ نعلين من الجلد الأبيض . وتقبتين جديدتين . وكان عليه آخر الأمر أن يرسم على لسانه علامة الحق بمداد أخضر . ثم كان عليه بعد ذلك - إذا كنت أحسن الفهم — أن يدخل فى دائرة لايجوز له أن يتركها طوال أداء الطقس السحرى . ولتلاوة ورد آخر تلاوة مجدية . كان يجب أن ترسم على الأرض صورة كاملة تمثل : امرأة إلهة « على وسطها » ثعبان منتصب على ذيله . وسماء وأشياء أخرى كثيرة [3] ؛ أو ترسم على اليد عين تضم صورة الإله أنوريس . ولهذا

---

(١) متون الأهرام ٩٩٥ .

(٢) Pap. Mag. Harris XII. ؛ لما كانت اللغة المصرية تنقصها الحروف المتحركة ، لهذا فلا سبيل إلى أن نتبين كيف تنطق هذه العبارات السحرية .

(٣) كلا هذين المثلين من Destruction des hommes سطر ٧٤ ، ٨٠ .



١٢٤ – بطاقة عليها رقية وأشكال سحرية (ليدن) .

علاقته بالتأكيد بما جاء فى الورد من أن الساحر يتخذ شخصية الإله « شو » صورة رع التى من داخل عين أبيه »[1] . وفى رقية أخرى ، كانت تتلى فى الماء ضد الحيوانات الشريرة ، وصف إله الشمس بأنه « بيضة الماء » . ذلك لأنه برز مرة فى بيضة وسط الأمواج (صفحة ٧٢) . ولهذا كان يجب على « الرجل الواقف عند مقدم السفينة أن يقبض على بيضة من الطين فى يده » . لأنه بذلك « يعتقد سكان الماء » أنهم يرون الإله نفسه . فإذا برزوا فوق سطح الماء ارتدوا فيه مذعورين[2] .

وكان من الخير فضلا عن هذا ألا تتلى الأوراد مرة واحدة ، وإنما أربع مرات[3] على نحو ما جرت به العادة مع كثير من الدعوات منذ القدم . فإذا ألحقت بها كذلك كلمة « اليوم ! » ، كان ذلك علامة على أنها يجب أن تؤتى أثرا سريعا . وكانت تضاف إليها فى بعض الأحيان هذه العبارة : « الوقاء من وراء ، الوقاء المقبل ، الوقاء ! »[4] .

ومما لا يحتاج إلى إيضاح ، أنه كان ينبغى أن تتلى الرقى فى صوت مهيب ، ومما يدل على ذلك أنها عادة منظومة شعرا . وليس من شك كذلك فى أنها كانت ترتل

(١) Lange, Pap. Mag. Harris, S. 58.

(٢) نفس المصدر صفحة ٥٤ .

(٣) Z. f. M. u. K. S. 52; Lange, Pap. Mag. Harris S. 60. f.

(٤) Z. f. M. u. K. S. 33, 35.

إنشادا ، ذلك أن مخطوطا يحتوى على رقى الدولة الحديثة قد وصفها بأنها « رقى جميل إنشادها » [1] .

وتتعدد الأغراض التى يستخدم فيها السحر على نحو ما تتعدد ضروريات الحياة . فهو يصرف العاصفة والزوبعة [2] ، ويحمى فى الصحراء ضد السباع ، وفى الماء ضد التماسيح ، وفى كل مكان ضد أشد أخطار مصر إزعاجا ، وهى الثعابين والعقارب ؛ أجل لقد زودت أهرامات الملوك القدامى بعدد وافر من الرقى ضد هذه الهوام . وفضلا عن ذلك فإنه يساعد على الولادة [3] ، ويتلى عند إعداد الأدوية ، وبه تحارب جميع السموم وجميع الجروح ، وجميع الأمراض ، كما يحارب به كذلك الذين يجلبون هذه المكاره وهم الموتى . وذلك لأنه من عقائد الشعب المصرى القديمة [4] كما رأينا من قبل (صفحة ٢٧٠) أن الموتى الأشرار يتركون مقابرهم ويتربصون بالبشر ، ولهذا ينبغى على الآلهة أن « تحبس ظل الميت والموتى الذين يسيئون إلينا » [5] . فقد ترى الأم الجزعة طيف امرأة ذات وجه مدبر تنسل إلى البيت فى الغسق تريد القيام من رضيعها مقام الحارس . عند ذلك تقول لها : « هل جئت تقبلين هذا الطفل ؟ لست آذن لك أن تقبليه . هل جئت تهدئين من روع هذا الطفل ؟ لست آذن لك أن تهدئيه . هل جئت تؤذينه ؟ لست آذن لك أن تؤذيه . هل جئت تنتزعينه ؟ لست آذن لك أن تنتزعيه منى . عند ذلك « يضيع » على الطيف « ما جاء من أجله » [6] . ولهذا أيضا تتلو الأم فى الصباح والمساء على التميمة التى تعلق لطفلها الصغير : « أى رع إنك تشرق . إنك تشرق . إذا رأيت هذا الميت يذهب إلى فلان ، والميتة ، زوجة . . . فإنه لا ينبغى لها أن تأخذ طفلى بين ذراعيها . إن رع ،

---

(١) Lange, Pap. Mag. Harris S. 12.

(٢) Budge, Nesiamsu 121 ff.

(٣) ويساعد كذلك البقرة عند ولادتها رعاة خبيرون بالسحر (مقبرة بتوزيرس ، صفحة ٤٦ ؛ انظر أيضا صفحة ٣٤٢) .

(٤) تتجلى هذه العقيدة فى متون الأهرام ، انظر (متون الأهرام ٢٩٠ - ٢٩٣) .

(٥) Totb. ed. Nav. 92, 10.

(٦) Z. f. M. u. K. S. 12

سيدى ، هو الذى ينجينى . إنى لأأسلم فيك ، إنى لاأسلم حملى إلى اللص واللصة من مملكة الموتى » [1] .

ويتربص الميت والميتة كذلك بالشبان اليافعين ، وكذلك ترى الكتابات الطبية فيهما أصلا للأمراض [2] .

وهناك فضلا عن ذلك كتب للسحر ، تمنح « القوّة والبأس » ضد الأعداء ، و « تنشر الفزع » ؛ وقد جاء فيها أنه إذا صنعت تماثيل الآلهة والبشر من الشمع ثم دست فى منزل الخصم فإنها « تشلّ فيه يد الإنسان » [3] . ونحن إنما ندين بهذه البيانات قبل كل شيء لوثائق قضية حكومية ، يدل ما جاء فيها من تقرير رسمى على أن هذه المسائل كانت تؤخذ بجدّ تام . ولحماية الملك (هذا إن كان لنا أن نثق فى بيانات أحد الكتب المتأخرة) كان يؤدى من أجله فى كل صباح ضرب من السحر يحميه من أعدائه . ويتضح لنا ذلك أيضا مما كشف من أشياء غريبة تبين لنا كيف كان المصريون يستعينون كذلك بفنّ الساحر فيما كان يهدّد الملك والحكومة من أخطار . فمن متون الأهرام نفسها نسمع عن تهشيم القدور [4] ، أما كيف كان يؤدى هذا الضرب من السحر فإنه يدلّ عليه تلّ من كسر الفخار [5] ، عثر عليه فى طيبة ومحفوظ الآن فى متحف برلين . وهو يرجع على ما يظنّ إلى العصر الذى حكمت فيه مصر الأسرة الحادية عشرة ، حتى قضى أمنمحات الأول على حكمها (حوالى ٢٠٠٠ ق . م) . وما من شك فى أن هذا السحر قد عمل لأحد هؤلاء الملوك . فقد كتب على عدد كبير من القدور والصحاف قائمة بأسماء كل من يخشى خطره على الملك ، مزوّدة ببيانات دقيقة عن كل فرد منهم ، ومرتبة بعناية وفق بلادهم ، وذلك لكى يسهل على « الآلهة والأرواح » ممن عليهم تأدية السحر الاهتداء إليهم . وفى بداية القائمة أمراء البلاد المجاورة الجنوبية مثل : « حاكم أوباتس ، باكواى ، الملقب زاى ، الذى ولدته

---

(١) Z. f. M. u. K. S. 43 ff.

(٢) كما جاء مثلا فى Ebers I, 4

(٣) Pap. Lee I, 4; Pap. Rollin I.

(٤) متون الأهرام ٢٤٩ .

(٥) Sethe, Aechtungstexte (Abh. Berl. Akademie 1926).

إيماسى ، والذى أبوه أونكات ، مع سائر خلصائه الذين بجواره » . ولكى لايترك أىّ شرّير أضيف إلى هذا « وسائر زنوج كوش ، وميجر ، وشات » ، وزنوج بلاد أخرى كثيرة، « أقوياؤهم وعدّاؤوهم، وحلفاؤهم وشركاؤهم، الذين سيصبحون أعداء . والذين سيتآمرون . والذين سيقاتلون، والذين يقولون إنهم سوف يقاتلون ، والذين يقولون إنهم سيصبحون أعداء فى هذه البلاد جميعا » . وعلى هذا النحو كذلك سردت سائر أسماء الأعداء من أمراء فلسطين ، تليها أسماء الليبيين فى فقرة موجزة ، تليها أسماء ألدّ الأعداء طرّا . وهم المصريون أنفسهم ، رجالا ونساء ، وكبار « المستشارين . الذين سوف يصبحون أعداء . والذين سيتآمرون » ... الخ فى هذه البلاد قاطبة . وقد ذكر ثمانية منهم بأسمائهم ، ونعت أربعة من هؤلاء بأنهم مربون لفتيات من الطبقة العليا ؛ وإن الإنسان ليميل إلى الاعتقاد بأنهم كانوا ينتمون إلى دار النساء ، وأنهم اشتبكوا فى مؤامرات الحريم . وقد جاء صراحة أمام أسماء هؤلاء المصريين الثمانية أنهم « يجب أن يموتوا »، على حين اكتفى فى حالة الأعداء الأجانب بإضافة علامة تعنى أنهم من عداد الموتى . ولقد كان الساحر يعتقد أن هذا المصير سوف يلحق بهم إن هو هشم القدور التى عليها أسماؤهم . وتدلّ كسر الفخار على أنه قد قام بدقة بهذا الأمر .

وفضلا عن ذلك . فقد حاول بهذه المناسبة أن يزيل شرّا آخر . فقد أضاف إلى قائمة الأعداء : « كل العبارات السيئة . وسائر الكلام السيء . وكل سباب سيء وسائر الأفكار السيئة . وسائر الدسائس السيئة . وسائر المنازعات السيئة . وسائر المشاجرات السيئة . وسائر التدابير السيئة . وسائر الأشياء السيئة . وسائر الأحلام السيئة . وكل نوم سيء » . وهكذا إذا امحى هذا كله . امحى كذلك كل ما يمكن أن يرهق الملك فى اليقظة أو النوم .

ونعلم عدا ذلك أيضا أن هناك فنا آخر . كان يقى الملك . ويختم على أفواه الأعداء ، الذين يتقوّلون السوء ضد الملك . فقد كان يصنع تمثال صغير من الطين أو الشمع تلحق به لوحة من البردى عليها اسم المجدف بحق الملك واسم أبويه . وكان يصنع بهذا التمثال أشياء شتى ، فكان يؤخذ به إلى حيث تنفذ الأحكام ، ويختم على

كل أعضائه كما ختم تحوت على فم المسيء ، أو كما ختم حورس على فم المذنب [1] .
وترجع هذه الطريقة إلى زمن قديم ، على أنه يتضح كذلك من ورودها فى هذه النصوص المتأخرة ، أنها كانت فى العهد المتأخر موضع تقدير كبير . وللوصاية بها ذكر عنها أنها « مجرّبة مرات كثيرة » . ولم يقتصر الأمر على وجوب حماية الملوك أنفسهم بالسحر ، إذ لم يكن للآلهة غنى عنه كذلك ليحموا أنفسهم من خصومهم . وقد كان من المعروف أن تحوت قرأ رقية بقرة السماء على رع لحمايته [2] ؛ وكان فى طوع البشر كذلك مساعدة إله الشمس بتلاوة الأوراد الخاصة بالانتصار على التنين أبوفس ، وذلك فى أوقات معينة [3] . وقد وجدت هذه التصوّرات سبيلها إلى عبادة الآلهة ، فكانت تماثيل الآلهة فى المعابد « تعوذ بالتمائم » (صفحة ٢٠٢) ، و « السحر والكلام البارع ، وليطرد من أجسادها كل سوء » [4] . وقد تكلمنا بما فيه الكفاية فى الفصول السابقة عما كان ينبغى أن يوفره السحر للموتى من حماية تامة ؛ فالخادمات ، والسفن ، والمواقد ، والشون ، وعصى العاج ، وتماثيل الأوشابتى ، وجعلان القلوب ، وألواح الرأس — كل هذا وكثير غيره إنما ينتمى للسحر أو يقاربه أتمّ قرابة . ولقد رأينا فيما مضى أن الأدب الجنازى نفسه قد أخذ يزداد طابعه السحرى مع الزمن ، وأصبحت أوراده فى الدولة الحديثة تماما بمثابة الرقى تسعد تلاوتها الميت أو الحىّ .

ويتفق هذا أيضا مع الكتابات الطبية ، على أنه فى الواقع لايكاد يكون للرقى فى المؤلفات القديمة الكبيرة فى الطب أثر يذكر ، ولكنها أخذت فى الدولة الحديثة تحلّ شيئا فشيئا محل « الوصفات » الطبية .

ويقابل التقدير العام الذى حظى به السحر ، أن القيام به لم يكن من شأن الأفراد ، وإنما كان له ممثلوه الأخصاء ؛ وهؤلاء هم الكهنة « الحرحب » ، « كتبة كتاب

---

(١) Schott, Ae. Z. 65, 35 ff.

(٢) Destruction des hommes 78.

(٣) Budge, Nesiamsu p. 146.

(٤) نصب رمسيس الرابع (Mar. Abydos II 54-55,25 f.).

الإله » ؛ وكان يشغل أعلى وظائفهم فى الدولة القديمة أبناء الملك بالذات ؛ وتحدثنا مجموعة طريفة من القصص من الدولة الوسطى كيف كانوا يستخدمون فنهم كذلك لأغراض دنيوية . فقد اصطنع أحدهم من الشمع تمثالا صغيرا لتمساح التقم فى الماء زانيا ؛ وشق آخر بحيرة طاويا أحد شقيها على الآخر ليستخرج لإحدى السيدات حلية سقطت منها . وقد سماهم كذلك العهد القديم بلفظ محرّف هو « خرطوم » باعتبارهم مفسرين للأحلام ورقاة فى بلاط مصر [1] . وكانت رعاية السحر كذلك من واجبات « دار الحياة » [2] . وهى مدرسة العلم فى مصر ، كما كانت كتب السحر تؤلف على منهاج منظم . وكان لها مكانها كذلك فى مكتبات الملوك [3] ؛ إذ كانت فى حقيقة الأمر تنتمى إلى الأدب كالكتابات الأدبية أو كتب الحكمة . وكانت جميعها تدّعى بطبيعة الحال بأنها قديمة جدا ، فقد ألّف أحدها إله الأرض [4] . وألف آخر إله الحكمة [5] ، ووجد كاهن من العهد الصاوى كتابا ثالثا فى قبر ثور منيفس [6] ؛ وجاء أن كتبا أخرى من نفس هذا العصر وجدت فى قدر بجانب إحدى الموميات ، وكان من بينها كتاب ابتدعه أمنحوتب بن حابو ، الوزير الحكيم لأمنحوتب الثالث ، لاستعماله الخاص [7] .

على أنه فى حقيقة الأمر من المشكوك فيه صحة أغلب العزائم السحرية . فقد كانت بضاعة نافقة ، تدفع من أجلها الأموال العظيمة ، وتقتنى قدر المستطاع . وكثيرا ماتتألف ببساطة من أوراد أو أغانى محبوبة قديمة [8] . فمن أغنية قديمة جدا للإلهة نوت

---

(١) من المحقق أن مؤلف كتاب دانيال ، الذى جاء فى عصر متأخر ، والذى أطلق هذه الكلمة على السحرة البابليين ، قد اقتبسها من قصته بتاتويش .

(٢) Pap. Mag. Harris 6, 10.

(٣) Pap. Amherst I, 3.

(٤) Destruction de shommes 58.

(٥) Griffith, Stories of the high priests p. 20.

(٦) Metternichst. 87.

(٧) Pleyte, Chap. supplém., ch. 167-174. pl. 126-167.

(٨) وذلك على نحو ما تتعمد سحرتنا استخدام آيات من الكتاب المقدس والسحرة العرب آيات من القرآن .

اختير بيتان محبوبان ، استبدل فيهما باسم نوت إلهة الولادة مسخنت ، ثم أضيف إليهما بضع عبارات أخرى ، وبهذا تمت الرقية الخاصة بتيسير الولادة [1] . وأضيف إلى قصة إفناء البشر التي ذكرناها من قبل (صفحة ٧٥) بضعة أحاديث للآلهة عن الثعابين . وبهذا أصبح هذا الكتاب رقية عجيبة ضد هذه الهوام ، وكان جديرا بأن ينقش بهذه الصيغة في إحدى المقابر الملكية [2] . وفي بعض الأحيان كانت تستخدم رقية لاشك في قدمها لغرض جديد إذا اقتضى الأمر . فقد كانت هناك رقية تتحدث عن حمل إيزيس . وعن مولد حورس . لأن الغرض منها إنما كان مساعدة الأمهات ؛ على أن رجلا من الدولة الوسطى احتاج إلى رقى للموتى فاستخدمها ببساطة رقية « للتحول إلى صقر » . وذلك لأن حورس سمي فيها بالصقر . على نحو ما جرت به العادة [3] . كذلك ابتُدع عدد كبير من الرقى في العهد المتأخر ؛ بل لقد وضع كثير منها في الدولة الحديثة نفسها ، ويتجلى هذا بوضوح في لغته وتصوّراته الدينية الحديثة . ويبدو أن الدولة الحديثة بصفة عامة هي العهد الذى ازدهر فيه هذا العلم الحوشي .

ويتجلى كذلك حرص السحرة على الاستفادة فيما كانوا يشيدون به من نتائج لما اصطنعوا من ضروب السحر . وقد سردنا من قبل بضعة أمثلة لهذه الإشادة عند الكلام عن كتب السحر في الأدب الجنازى (صفحة ٢٦٨)؛ وإليك من كتاب متأخر مثل يشيد بما للرقية من فوائد جمة . فمن كان يملك رقية أبوفس فإنه لم يكن ليذبّ هذا التنين عن سفينة الشمس، ويشتت السحاب ، ويطرد العواصف فحسب، وإنما كان « يكسب منها كذلك فوائد على سطح الأرض، وفوائد في مملكة الموتى »، وكانت تمنحه « القدرة على القيام بعمل رئيسه » ، وأخيرا « تخلصه حقا من كل سوء ». وكان الساحر يستطيع أن يعد عملاءه بهذا كله بضمير مطمئن ، لأنه « شاهد هذا كله بنفسه». [4]

---

(١) Z. f. M. u. K. S. 26.

(٢) Destruction des hommes, 56 ff.

(٣) Lacau, Textes religieux in Recueil 27,56-58.

(٤) Budge, Nesiamsu p. 122.

وكان مما اختص السحر به فى العصر المتأخر صناعة تماثيل وشواهد صغيرة ، كانت تقام فى البيوت أو تعلق فى الرقاب حماية من مختلف أنواع الحيوانات الشريرة . وكانت لبعض الكائنات المقدسة شهرة بأنها تساعد ضد هذا الخطر بنوع خاص — فهاك مثلا الإله القديم شو بن رع ، الذى يحمل السماء ، والذى كان يسمى فى أبيدوس أنوريس ، لقد أصبح المصريون يتصوّرونه فى هيئة « المحارب الجميل »[1] ، والمنقذ (شد) ، ويتمثلونه أميرا شابا يقتل وهو فى مركبته الأسود[2] . وقد أخذ هذا الدور نفسه النصف إله بس ، الغريب (صفحة ١٦٦) ، والطفل المشوّه الذى نسميه « باتيكا » ، ثم قبل كل شيء الطفل حورس نفسه ، الذى لايستطيع أىّ حيوان شرير أن يمسه بأىّ ضر . وكثيرا ما كانت تمزج عدة آلهة معا لتكون حمايتها أقوى[3] ، فكان حورس الصغير مثلا يعطى ، أس بس الحيوانية ، أو كان يؤلف من خنوم ورع ومين وحورس ، أو من خبرى وخنوم وتحوت ومين وأنوبيس وأوزيريس وموت وباستت شكل مركب ، يبدو مخيفا حقا . غير أنه كان يعتبر لهذا السبب أقدر على فعل العجائب . وفى إحدى الحالات سمى أحد هذه الأشكال المركبة باسم آمون رع ، مع أنه لايكاد يكون فيه من آمون شيء يذكر ، ويظن أن اللاهوت فى الدولة الحديثة . وقد خلط بين الآلهة ، إنما كان يلهو بهذه التسمية .



١٢٥ — شكل مركب من إيزيس وحورس وباستت وغيرهم يقهرون الأسود والتماسيح والثعابين (برلين ٨٦٧٧) .

وتقترن هذه الأشكال ، التى هى من عمل الدولة الحديثة كما ذكرنا ، بالتمائم العديدة التى حاول الإنسان وقاية نفسه بها منذ زمن قديم .

وكان يعد حماية جيدة ذلك الحبل الصغير . عقد به عدد معلوم من العقد ، فمثلا « إحداها

---

(١) Pap. Mag. Harris 8,5.

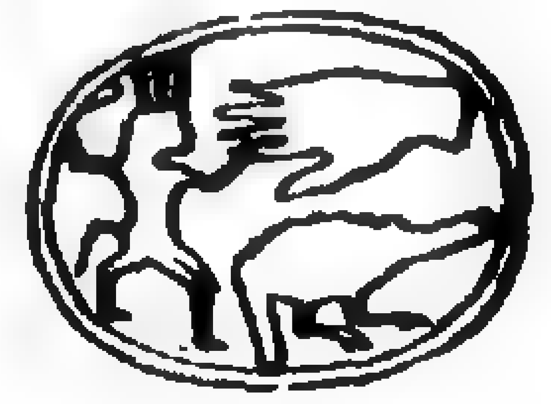
(٢) Berlin, Ausfuehrl. Verz. S. 205.

(٣) عما يلى انظر نفس المرجع ص ٢٩٩ .

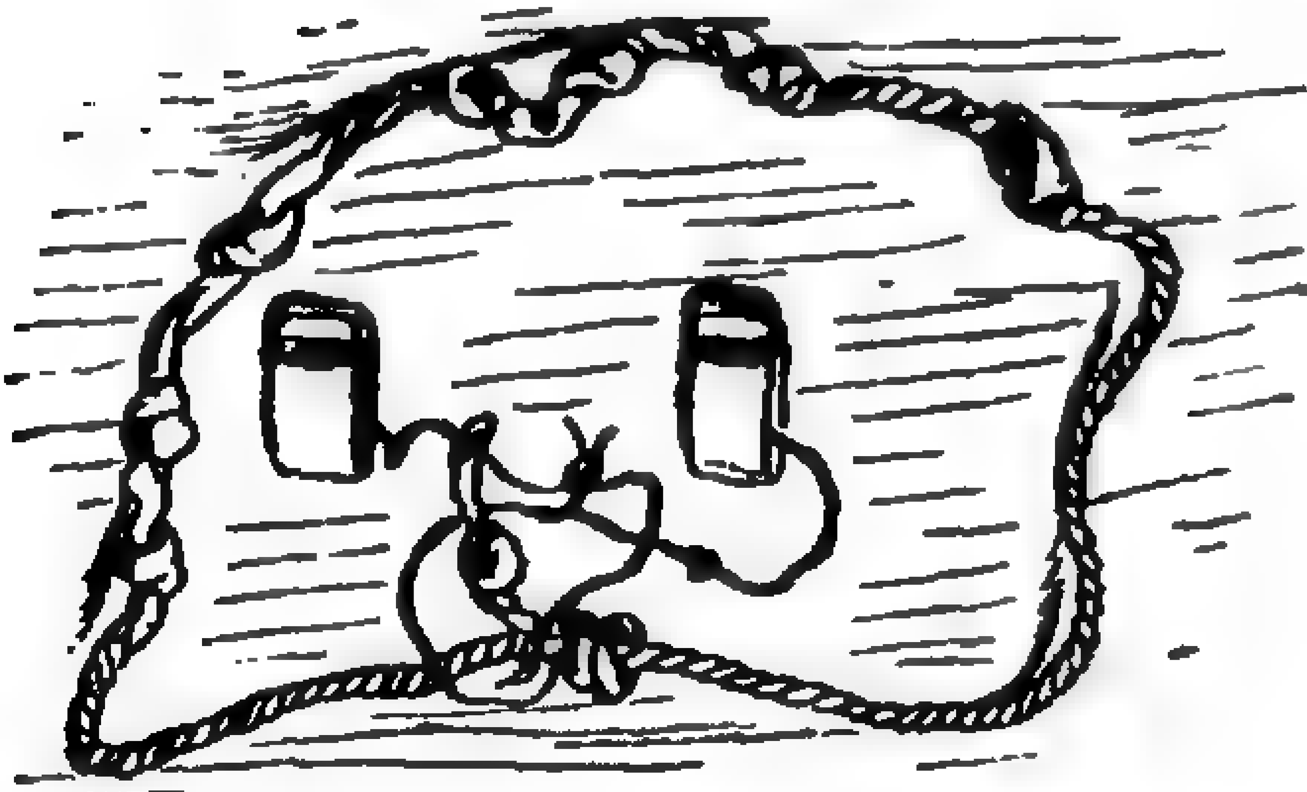
في المساء وأخرى في الصباح حتى يتم منها سبع عقد»[1] .
وكان من هذا القبيل كذلك أن تنظم سبع حلقات من الحجر وسبع حلقات من الذهب في سبعة خيوط من الكتان تعقد بها سبع عقد[2] . وكان من الممكن أن تضاف إلى هذا أيضا أية وسيلة خاصة ككيس صغير فيه عظام فأر [3] . أو كخاتم نقشت عليه صورة يد وتمساح[4] ، أو كلوحة صغيرة عليها طائفة من صور الآلهة . أو أي علامة أخرى مما يجلب الحظ . وإننا لنعرف الآن هذه الأشياء الأخيرة وخاصة من التمائم ، التي كانت تعلق على المومياوات كما رأينا من قبل . والتي تزخر بها مجموعات الآثار ، ولكننا لا نكاد نعرف عما كان ينسب لكل من هذه التمائم من كفاية . ولا عن الأساس التي كانت تعتمد عليه قدرتها على التأثير ، ولا يكاد المصريون أنفسهم في العصر المتأخر يحدثوننا عن ذلك بشيء واضح . وكل ما كان ممكنا أن يخبرونا به



١٢٦ – نصب صغير للوقاية من الحيوانات الشريرة : حورس برأس بس ، وعلى جانبيه أحد آلهة الشمس وزهرة نفرتم (برلين ٤٤٣٤) .

١٢٧ – تميمتان (برلين ١١٣٨٩ ، ١٣١٧٣) .



١٢٨ – خيط به سبع عقد معلق به حجابان عليهما رق (برلين ١٠٨٢٦) .

---

(١) Z. f. M. u. K. S. 41.

(٢) نفس المصدر صفحة ٥٢ .

(٣) نفس المصدر صفحة ٣٠ .

(٤) Schaefer, Aegypt. Zeitschr. 39,87 انظر كذلك Erman Z. f. M. u. K. S 39

هو أنه فى سائر هذه التمائم تكمن « الحكا » ، وهى القوة التى تسمو على الطبيعة والتى تملكها الآلهة ، والتى تستقر فى أسمائهم الخفية ، والتى يمكن كذلك أن تحل فى الأشياء المقدسة كتيجان الملك الزاخرة بالسحر [1] . ومن شأن التمائم والرقى أن تنقل إلى الإنسان نصيبا من هذه القوة التى كان يعتمد عليها فن الساحر .

وليس فى طوعنا هنا أن نتطرق بالتفصيل إلى الكلام عن الخرافات الكثيرة المختلفة . التى انتشرت فى مصر إلى جانب السحر ؛ على أننا نذكر هنا بعبارة صريحة أن النوعين اللذين سادا فى مصر فى العهد المتأخر ، وهما كشف الطوالع والكيمياء القديمة . لم يظهرا فى الدولة الحديثة مطلقا . ولم يظهر كذلك إلا فى العصر المتأخر – على وجه التأكيد – الاعتقاد فى العين الشريرة . الذى تؤمن به البلاد الجنوبية بأسرها . وإننا لنقرأ على لوحة صغيرة من الخشب كانت معلقة يوما فى رقبة بتموستوس . أن كل إنسان ينظر إلى الطفل « محيت » هذا نظرة شر ، فان الآلهة تكبه كما تكب التنين أبوفس [2] . وكان يستحب فى العصر المتأخر تسمية الأطفال بأسماء كان يظن أنها تقيهم العين الشريرة [3] . بل لقد كانت التعاويذ توجد فى مكتبة إدفو [4] « لصرف العين الشريرة [5] » .

ولقد كشف حديثا عن ضرب آخر من الخرافات وهو كتاب الأحلام . الذى ما زال يسمى فى أوروبا فى الوقت الحاضر « الكتاب المصرى الحقيقى فى الأحلام » [6] . وهو مؤلف على غرار كتب الأحلام فى زمننا هذا تماما ، وتشبه بعض تفسيراته

---

(١) المتحف البريطانى ٥٧٤ .

(٢) Schott, Ae. Z. 67, 106.

(٣) Spiegelberg, Ae. Z. 59,149 Folg.

(٤) نفس المصدر صفحة ١٥٣ .

(٥) ليس من المؤكد إذا كانت العينان الشريرتان اللتان جاء عنهما أنهما يخمان بابا مغلقا (متون الأهرام ١٢٦٦) لهما صلة بهذا الموضوع .

(٦) إنى لأدين بمعرفة هذا الكتاب لما تفضل وأخبرنى به ا . هـ . جاردنر .

ما لايزال شائعا بيننا من تفسيرات ؛ فمن يرى نفسه ميتا فهو يعيش حياة طويلة ؛ ومن يحلم بسقوط أسنانه فإن قريبا له يموت ؛ ورؤية المرء نفسه فى المرآة فأل سيء ، ومعناه زوجة ثانية . ومن يحلم بقطة كبيرة ، فإنه ينال محصولا وفيرا ؛ ومن يتسلق سارية سفينة رفع الإله من شأنه . أما من يحلم بأنه يأكل خيارا فسوف يشتجر ؛ فإذا رأى فى نومه أنه يأكل تينا وعنبا . كان فى ذلك دلالة على المرض . ويرجع تاريخ هذا الكتاب إلى الدولة الحديثة وأفكاره بسيطة ساذجة . على أن الأحلام لم يكن لها بصفة عامة شأن هام [1] . إلا فى العهد اليونانى حيث أصبح تفسير الأحلام يمارس بحماسة .

والأمر على نقيض ذلك فى اختيار الأيام . أو بمعنى آخر فى تصوّر أيام معلومة من السنة أياما سعيدة وأخرى غير سعيدة ؛ فلدينا من الدولة الوسطى تقويم عن شهر يعين ثمانية عشر يوما طيبة . وتسعة أيام سيئة . وثلاثة أيام بين بين [2] . ومن الدولة الحديثة لدينا كتاب كبير يزوّدنا ببيانات مماثلة عن جزء كبير من السنة . وكثيرا ما يحاول كذلك تدعيم هذه البيانات ، فاليوم قد يكون سعدا أو نحسا تبعا لهذا الحادث أو ذاك مما جرى فيه من قصص الآلهة . وإنا لنقرأ مثلا عن اليوم الثانى عشر من الشهر الأول للشتاء أنه سيء جدا وأن الإنسان يجب فيه أن يجتنب « رؤية فأر فى هذا اليوم » . وذلك لأنه اليوم الذى فيه « أعطى سخمت الأمر » والمقصود بذلك رع الذى أمر بقتل البشر (صفحة ٧٥) . أما اليوم الأول من الشهر الرابع للشتاء فهو يوم طيب تماما . وهو « عيد كبير فى السماء والأرض » ، وذلك لأن « أعداء سبك خروا فى طريقهم فى هذا اليوم » [3] . ويبدو أن هذه التفسيرات إنما نشأت عند ما حاول المصريون أن يسلكوا الخرافات الشعبية عن الأيام السعيدة والسيئة فى نظام واحد ؛

---

(١) جاء إلى جانب السحر فى النصائح لمريكارع ذكر الأحلام بالنهار والليل كنعمة وهبها الله البشر . انظر .Lit صفحة ١١٩ .

(٢) Kahunpap. pl. 25; Text p. 62.

(٣) Sallier IV, 14, 2; 21, 2.

وعند ما طفقوا يصطنعون من التمييز بين الأيام علما . ومن السهل أن نتبين أنهم اعتبروه على هذا النحو ، لأن البردية التي حفظت لنا هذا النص هي كراسة مدرسية لصبي ، نسخ فيها الكتاب كتمرين خطي . ومن الواضح أنه لم يكن يفهم منه الشيء الكثير . ومع ذلك فما من شك في أن هذا النموذج ما كان ليعطي للصبي لنسخه ما لم يكن يُعتقد في فائدته ومنفعته . وهكذا نرى على الدوام مرة بعد مرة كيف كانت الخرافة تنمو وتزدهر في عهد الدولة الحديثة ؛ ولهذا فلا غرابة إذا انتهى الأمر بأن أصبح هذا العشب الضار يسمو على كل شيء في مصر .

الفصل الثامن عشر

عهد الاضمحلال والعصر الصاوى

حينما كان كهنة طيبة يودعون رمسيس الثالث فى مقبرته الفخمة ، جعلوا إلى جانبه تلك الوثيقة العظيمة (صفحة ٢٢٨) ، التى تسجل كل ما قدّم الملك لمعابد مصر من خدمات ؛ ولهذا فقد كان على الآلهة أن ترعاه فى موته وأن تداوم على حماية مملكته . غير أنه يبدو كأنّ الآلهة لم تستمع لهذه الأمنية ؛ إذ يظهر لنا — كما نرى من الأحداث الآن — أن موت رمسيس الثالث بالذات إنما كان نقطة التحوّل فى تاريخ مصر . فقد أخذت البلاد فى عهد خلفائه تتهيأ لفترة طويلة من المحن . على أن كهنة طيبة أنفسهم كانوا يستطيعون بلا شك أن ينظروا إلى المرحلة الأولى من هذه الفترة من المحن . كأنها لاتزال مرحلة عظيمة فى تاريخ البلاد ، إذ تحقق فيها ما كان يلوح لهم منذ عهد بعيد كأنه من غير شك أسمى مثال ، فقد استولت السلطة الروحية على المُلك ، وارتقى العرش حريحور (حوالى سنة ١١٠٠ ق . م) الكاهن الأعلى لآمون . ولئن كانت مملكة الكاهن الأعلى وأسرته قد ظلت ذات طابع دنيوى ، فما من شك فى أن المبدأ الذى اعتمدت عليه إنما كان مبدأ السيادة الدينية . فقد كان آمون يحكم البلاد عن طريق كاهنه الأعلى . وعن طريق الزوجة المقدسة ، التى نتحدث عنها فيما بعد (صفحة ٣٥٦) . وسنرى كذلك فيما بعد ، عند ترسم مصير الديانة المصرية فى البلاد الأجنبية . كيف تطوّرت هذه الحكومة الدينية فى مكان آخر انتقلت إليه .

على أن من المحقق أن مملكة هذا الكاهن الأعلى لم تكن لتستطيع أن تجعل السيادة لها على البلاد كافة إلا بصعوبة ؛ فقد كان إلى جانبه ملوك آخرون . وكان سمندس ، وهو يؤمئذ أقواهم جميعا . يقيم فى تانيس عند حدود مصر الشماليه الشرقية ، حيث كانت الظروف فيها تختلف عنها فى طيبة ، تلك المدينة المقدسة فى أقاصى البلاد . ولسنا نعرف كيف حدثت هذه الانقلابات ؛ على أننا نرى أن العهد الجديد قد عمد

إلى التعبير عن نفسه بإقامة مبنى عظيم على نحو ماجرت به العادة فى مصر . وكان إله القمر خنسو ثالث آلهة طيبة فى حاجة إلى معبد جدير به . حقا لقد بدأ رمسيس الثالث بإقامة مثل هذا المعبد ، ولكنه لم يتمه .

وقد أتمّ حريحور هذا البناء ، وما من شك فى أن معاصريه قد ذهبوا إلى أن هذا العمل يضارع المعابد التى شيدها كل من أمنحتب الثانى والثالث ورمسيس الثانى والثالث فى القرون الخالية . على أن هناك فرقا بين تلك العمائر وبين هذا العمل الذى قام به حريحور . وهو فرق بيّن لايجوز لنا أن نتخطى ذكره هنا . لقد كان الفراعنة القدامى إذا أرادوا بناء معبد يعمدون قبل كل شىء إلى افتتاح محجر يمدهم بالحجر اللازم للبناء ، أما حريحور [1] فقد سهل على نفسه الأمر ، بأن هدم المعابد القديمة واستخدم أحجارها فى مبناه . وقد رصت الأحجار بحيث تختفى نقوشها فى البناء ، فاذا تعذّر ذلك أزيلت منها النقوش ، أو غشيت بطبقة من الجص [2] . وهكذا تلاشى فى المبنى الجديد ، الذى أقامه حريحور ، معبد كوم الحيتان الكبير الذى كان أمنحوتب الثالث قد شيده على الشاطئ الغربى (صفحة ٢١٩) . وقد استُخدمت إذ ذاك مبان أخرى كذلك محاجر بنفس هذا الأسلوب المحزن . حقا لقد حدث مثل هذا من قبل ، فإن حورمحب — على الأخص — قد استولى بهذا الأسلوب على مبانى عهد الزندقة ، ولكن الملك الكاهن فى هذه الحالة ، التى بين يدينا ، هو الذى هدم على هذا النحو أحد معابد إلهه الخاص .

وكذلك يبدو لنا عهد الرعامسة الأواخر وعهد حريحور كأنه عهد جديد ، غير أن الطريف فيه هو الانحطاط .

ولدينا كذلك من عهد حكم حريحور وثيقة أخرى تبسط أمام أعيننا حالته المحزنة ، كأن معبد خنسو لم يكن يكفى فى الدلالة على هذا العصر .

وهذه الوثيقة تقرير برحلة أونامون ، وهو يبين لنا أن قوّة مصر وسمعتها لم يعد لهما وجود ، وأن ثروة آمون لم يعد لها وجود كذلك .

---

(١) لايعنى هذا بطبيعة الحال أن رمسيس الثالث لم ينح كذلك على هذا النحو حين بدأ العمل فى معبد خنسو .
(٢) Borchardt, Ae. Z. 62, 37 ff.

وكان لابد لكي يشترى أونامون الخشب من فينيقيا ، من أن يد بر أولا المال اللازم لذلك بجمعه مما يهبه مختلف عظماء مصر ، كما كان يجب أن يتولى سمندس نفقات الرحلة نفسها بالبحر[1] . وكان العون الوحيد، الذى منح لأونامون فى مهمته ، تمثالا لآمون ، كما أنه تلقى الأمر بهذه المهمة عن طريق الوحى الإلهى ، ومع ذلك فلم يستفد حقا من كلا هذين الأمرين إلا قليلا فى رحلته الكئيبة. وقد شاهدنا حالات كثيرة من مثل هذا الوحى (صفحة ١٧٤) منذ بداية الدولة الحديثة ، ولكنها لم تغدو وسيلة منظمة ثابتة إلا فى عهد الانحطاط . وكان إذا أراد أحد الطبقة العليا التصرّف فيما سوف يخلف من أملاك ، فإن الإله يصدر – حبا له – أمرا بهذا الشأن : « هكذا يقول أمون رع ، الإله العظيم ، الإله الأول العظيم : إن قطعة الأرض هذه » التى لفلان ، والتى حصل عليها بالطريقة كذا وكذا ، والتى تقع فى مكان كذا – وقد كان هذا كله يبين على طريقة الأعمال التجارية – « إنى أثبتها لابنه . . . ومن ينزع هذا القرار » المقام بالمعبد ، « يكن غبيا ، بعيدا عن أن يصدّ كلامى ، وأنقم عليه فى الحال . . . ثم لألقينّ به فى البؤس ، وليكوننّ لغيره إرثه ، ولترينّ ذلك عيناه ، وليركعنّ أمام عدوّه ؟ ، ولتنزعنّ من جانبه امرأته » – ولسوف يحدث هذا كله لأنه « تخطى الأمر الذى أحنيت له رأسى »[2] .

فإذا كان الأمر يتعلق باستدعاء بعض المنفيين بعد ثورة سياسية ، جئ فى أحد أيام الأعياد « بجلالة هذا الإله المجيد ، سيد الآلهة ، آمون رع ، ملك الآلهة ؛ فيأتى إلى الأفنية العظيمة فى معبد آمون ، ويستقرّ . . . » ثم يقدم له القربان « وتقدم التحية » ، ويعرض عليه رئيس الكهنة أن أولئك البائسين منفيون فى الواحات ، وأنه يرجى أن يحرّم الإله نفى أحد بعد ذلك فى الواحات ، كما يرجى أن يكتب هذا القرار على نصب ، « فكان الإله يحنى رأسه كثيرا كثيرا » عند كل رجاء[3] .

---

(١) التقرير عن رحلة أونامون .Lit. S. 226. ff

(٢) Erman. Ae. Z. 35, 12 ff.

(٣) Brugsch, Reise nach d. grossen Oase, Tafel 22.

وفى حالة أخرى تعرّض تحوتمس، أحد كهنة آمون الخصوصيين، لاتهام قوى، وهو أنه ارتكب اختلاسات فى شون الإله . وفى صباح أحد أيام الأعياد ، عندما كان الكهنة يحملون الإله فى قاربه ، ويخرجون به « على الأرض الفضية فى بيت آمون » ، كتبت فى محضره رسالتان ، جاء فى إحداهما : « أى آمون رع ، ياملك الآلهة ، يا سيدى الطيب ! يقال إن تحوتمس هذا المشرف على الضياع ، يحرز شيئا مفتقدا » ، وعلى الأخرى : « أى آمون رع ، يا ملك الآلهة ، يا سيدى الطيب ! يقال إن تحوتمس ، هذا المشرف على الضياع لايحرز شيئا مفتقدا » . بعد هذا سأل الكاهن الأعلى الإله عما إذا كان يريد « أن يقضى . فأبدى الإله العظيم موافقته التامة، ووضعت الرسالتان بين يدى الإله العظيم . فأخذ الإله العظيم الرسالة التى جاء فيها « أى أمون رع ، يا ملك الآلهة ، يا سيدى الطيب ! يقال إن تحوتمس ، هذا المشرف على الضياع . لايحرز شيئا مفتقدا » . وقد تكرّر هذا مرة أخرى واختار الإله الرسالة التى تبرئ تحوتمس . وفى يوم آخر عرض الكاهن الأعلى مشافهة على الإله أشياء أخرى اتهم بها تحوتمس . فاذا أحسنت الفهم فقد كان الإله يؤيد براءته من كل تهمة . وأخيرا منح تحوتمس بهذه الطريقة عفوا عاما . وانتهى الأمر بأن اقترح على الإله . أن ينصب تحوتمس « فى وظيفة الأب المقدس لآمون ، والمشرف على الضياع . والمشرف على الشون . ورئيس كتاب أوامر آمون ، ورئيس كتاب الشون لضياع آمون » . وقد وافق الإله كذلك على هذا الاقتراح – وإنا لنرجو ألا يكون قد ندم على موافقته [1] .

وما من شك فى أن آلهة أخرى غير آمون كانت كذلك تحسم المنازعات بين البشر على هذا النحو . فقد كان فى الواحة الداخلة نزاع قديم على ملكية إحدى العيون، وقد فصل فيه آخر الأمر فى عهد الملك شيشنق ؛ إذ حدث عند خروج الإله المحلى سوتخ فى عيده أن قرّر هذا الإله أمام الشهود أن البيانات الواردة فى القوائم صحيحة ، وأن العين لفلان لا لغيره .

ومن ناحية أخرى فليس من شك فى أن السلطان الواسع الذى كان لسوتخ

---

(١) Naville, Inscr. histor. de Pinodjem III.

فى هذه الواحة ، إنما كان يعتمد على ظروف محلية ، إذ كان سوتخ فى هذا العصر مطرودا منبوذا فى غير ذلك من المواضع . لقد ظل المصريون آلافا من سنين يؤمنون فى اطمئنان أن ست قد قتل أوزيريس وأنه قاضاه بغير الحق ، ولكنهم على الرغم من ذلك قد ظلوا يعدّونه من بين الآلهة العظيمة . على أن الشهرة السيئة التى كانت تلصقها به أسطورتهما ، أخذت تبرز مع الزمن ، حتى إنه عندما شيد الملك سيتى (حوالى سنة ١٣٠٠ ق . م) مقبرته الصخرية العظيمة لم يعد يعتبر من المناسب أن يذكر فى هذه الغرف ، التى يسود فيها أوزيريس ، اسم قاتله . ولهذا اضطرّ الملك إلى أن يوافق على ألا يسمى فى مقبرته الخاصة باسم سيتى « المنتمى إلى ست » وإنما باسمه الأوزيرى . وقد ازدادت مع الزمن كراهية الشعب لست ، حتى لقد كان على من يكتب اسمه أن يمحوه بنفسه [1] . وإذا كان بين تماثيل أحد المعابد تمثال لست فقد كان رأسه [2] يشكل على هيئة رأس أنوبيس المشابهة . ثم كانت صورته تمحى — آخر الأمر — من نقوش المعابد ، فقد غدا الإله القديم شيطانا وعدوّا لسائر الآلهة ، واتخذ الدور الذى كان يقوم به تنين العواصف .

ولم تجلب حكومة آمون فى طيبة نعما كثيرة لمدينته ، وإنا لنجد مايؤيد ذلك فى الأحداث التى لايمكن أن تكون ، حتى من وجهة نظرنا ، إلا أحداثا وضيعة . ففى عهد خلفاء رمسيس الثالث بدأ الكفاح مع اللصوص الذين رنوا بأبصارهم إلى مومياوات الملوك بالذات وما كان معها من ذخائر . وإنا لنملك أوراق تحقيق أجرى فى هذا الشأن فى عهد رمسيس التاسع . وفى عهد الملوك الكهنة روئى أنه لاأمل فى هذا الكفاح ، فأخفيت مومياوات الملوك فى أماكن ، كان يرجى أن تكون فيها فى مأمن أوفى ، فنقلت مثلا مومياء رمسيس الثانى موقتا فى مقبرة سيتى الأوّل ، ثم بعد ذلك فى مقبرة أمنحوتب الأول . وأخيرا أخفى ما أمكن إنقاذه من مومياوات الملوك فى شقّ فى الصخر غير بعيد من معبد الدير البحرى . وفى هذا الشق نفسه أخفيت إذذاك كذلك مومياوات الأسرة المالكة الحاكمة . فإذا فكرنا فيما كان يعنيه — عند الشعب

---

(١) كما هو الأمر فى برديات برلين من عهد الأسرة ٢٢ .

(٢) تمثال فى اللوفر من مجموعة بوسنو ؛ وتمثال فى كوبنهاجن .

المصرى – سلب الملوك الموتى ذخائرهم وكراماتهم ، فلنا أن نقول إن هذا كان يعدّ من أسوأ ما كان يمكن حدوثه فى طيبة .

وإلى جانب قوّة الكهنة فى ذلك القرن ازدهرت قوة أخرى هى قوّة الجنود الأجنبية . فمنذ نهاية الدولة الحديثة أقام فى أماكن مختلفة من البلاد المحاربون من الليبيين . وفى حوالى سنة ٩٥٠ ق . م . استطاع أحد زعمائهم – وهو شيشنق – أن يقيم نفسه ملكا فى بوبسطة . وقد مكثت السلطة فى أسرته عهدا طويلا .

وبهذا غدت كذلك إلهة بوبسطة . وهى الإلهة باستت ذات رأس القطة . إلهة المملكة . كما لم تفت الآلهة الأخرى للدلتا أن تحظى بعطف ملوك هذا العهد .

ومن ناحية أخرى لم تضعف الهالة التى كانت تحيط العاصمة القديمة فى الصعيد وإلهها . فأبدى ملوك بوبسطة لآمون الاحترام والتبجيل . واستأنفوا من جديد تشييد المبانى الضخمة فى الكرنك . وبهذا برهنوا على أنهم كذلك من أتباع آمون . وقد كان لهذا أيضا أسبابه المادية . فقد كانت طيبة من الأملاك التى يجزى الاهتمام بها والجهد من أجلها . على أن أحدا من الأسرات الحاكمة فى العصر المتأخر لم يمتلك طيبة رسميا . إذ كان لابد لها جميعا من أن تعمل حسابا لخرافة غريبة ظهرت فى تلك القرون . وهى أن طيبة لن تتبع بعد هذا أميرا من البشر . فقد كان لها سيد إله . هو آمون ؛ ولم يكن ممثل سلطانه فى الأرض كاهنه الأعلى . كما قد يظن . وإنما كانت « الزوجة المقدسة » أى زوجة الإله فى الأرض (صفحة ٢٢٦) . وبهذا غدت طيبة أشبه بإمارة روحية تقوم بالحكم فيها سيدة من الطبقة الراقية . ولا بد أن كانت كل أسرة حاكمة تطمح فى الحصول لإحدى أميراتها على هذه الوظيفة السامية وما يرتبط بها من ثروة . ولما كان من حقها وفقا للقانون أن تورث منصبها الرفيع إلى ابنة خالصة لها . فلم يكن إذن مناص إذا اقتضى الأمر من أن تجبر السيدة الحاكمة على تبنى من تتطلب السياسة أن تخلفها . وقد حدث هذا كثيرا فى ذلك العصر وفى القرون التى أعقبته ؛ وإن الإنسان



١٢٩ – الزوجة المقدسة عنخ – نس – نفر – ايب – رع (برلين ٢١١٢) .

ليضحك إذا قرأ فى أحد نقوش أبسماتيك الأول ما يعلل به عملا من هذا القبيل . فإنه إقرارا بجميل آمون قد وجد أنه مضطر لأن يهب للإله ابنته نيتوكريس . وبهذا قدمها للزوجة المقدسة شب – إن – أوبت « لتكون ابنتها الكبيرة » . وأرسلها عام ٦٥٥ ق . م . إلى طيبة فى احتفال كبير . حيث استقبلها السكان جميعا . « فلما وصلت إلى الزوجة المقدسة شب – إن – أوبت . نظرت هذه إليها وسرت بها وأحبتها » [١] . وللمرء أن يظن أن النساء اللائى كن يشرفن على هذه الإمارة – سواء الشابات منهن والعجائز – لم يكن يدرنها بأنفسهن . إذ كان يقوم عنهن لهذا الغرض « المشرف على بيت العابدة المقدسة » . وهو رجل من الطبقة الراقية . كان بين كهنة آمون يحمل لقب الكاهن الرابع .

ويدل على مدى ما كان لهؤلاء الناس من ثراء . مقابرهم العظيمة التى تنافس فى اتساعها وفخامتها مقابر الملوك السابقين . كما يدلّ على ما كان لهم من مكانة أن ملك آشور أقام أحدهم . وهو منتمحات . أميرا لطيبة . ولم يذكر فى هذا شيئا عن الزوجة المقدسة نفسها ولا عن الكاهن الأعلى ؛ وبهذا لم يكونا ذوَى قيمة كبيرة عند فاتح البلاد . أما بالنسبة لمصر نفسها فقد كانت وظيفة الكاهن الأعلى جديرة بأن تشرئبّ إليها النفس . فنى حوالى عام ٨٠٠ ق . م . انتهز أوسركون . وهو أحد الأمراء الشبان من البيت المالك فى بوبسطة . وكان إذ ذاك قائدا يقيم فى طهنا ، فرصة الخلاف فى إدارة معبد آمون ، فسار على رأس جيش إلى طيبة . حيث اضطر آمون راضيا أو كارها الاعتراف به كاهنا أعلى . وقد استأصل شأفة الحزب المعارض فى إدارة المعبد بدعوى أنه « تخطى تقاليد السلف » ؛ وقد أحرق كل واحد منهم فى مكان جريرته » . بحيث غدا الأمر يبدو « كأنه مجامر النار فى عيد بزوغ الشعرى اليمانية » . ثم أقام موظفين جددا فى المعبد من « أبناء الأشراف » ؛ وقد قام بهذا كله « من قلب يفيض حبا . لكى يوطد أركان المعبد أحسن مما كان عليه من قبل » [٢] . وليس من شك إذن فى أن مصر قد تردّت فى هوّة سحيقة . إذ أمكن اغتصاب أسمى

---

(١) Erman, Ae. Z. 35, 24 f.

(٢) Erman, Ae. Z. 45, 1 folg.

الوظائف الدينية فيها على هذا النحو ، وإذ أباح الغاصب لنفسه فوق ذلك ذكر ضراوته على جدران المعبد .

وفى القرن الثامن قبل الميلاد قدّر على مصر أن تقاسى سطوة الملوك الأثيوبيين . وقد كانوا يعتبرون أنفسهم أنهم بعثوا العقيدة المصرية الصحيحة من جديد ، كما كانت طيبة المكان المقدس عندهم قبل كل شىء . وقد خضعت لسلطانهم معظم الوقت ، كما أن أميرات من الأثيوبيين تقلدن منصب الزوجة المقدسة . على أن بتاح إله منف قد نعم كذلك بالحظوة عند الأثيوبيين الأتقياء . وكان خصوم هؤلاء الملوك الأثيوبيين عادة أسرات صغيرة من أصل ليبى ، على أنه كان يقف من خلفهم ملوك آشور ، الذين استولوا على مصر مرتين . ولم تعد للبلاد الطمأنينة والرفاهية إلا عند ما نجح أحد أمراء سايس (صا الحجر) ، وهو أبسماتيك الأول (حوالى عام ٦٤٥ ق . م) فى تحرير مصر بالجنود المرتزقة الإغريق والكاريين من كل سيادة أجنبية .

وحوالى نهاية القرن الثامن نجد كذلك علامات غريبة لانقلاب مفاجئ فى تصوّرات الشعب . فإذا كان عصر رمسيس الثانى قد اعتبر حتى ذلك الوقت العصر العظيم فى مصر ، بحيث كان يحتذى به حتى فى المظاهر الخارجية ، فقد برز الآن مثل أعلى آخر وهو الدولة القديمة [1] . وإنا لنلقى هذا الاتجاه نفسه فى كل مكان ، سواء لدى الملوك الأثيوبيين الذين كانوا يحكمون فى مصر العليا ، أو لدى خصومهم من أمراء سايس . ولما استطاعت أسرة أبسماتيك هذه أن تجعل من مصر مرة أخرى حكومة مزدهرة ، كان هذا الاتجاه من القوة بحيث يعتقد الناظر فى آثار هذا العصر أنه قد ارتدّ إلى عهد خوفو . وأن الأمر ليبدو كأن الشعب وقد هرم ، راح يصبو إلى الشباب الضائع ، الذى عاش فيه لنفسه ، لايزعجه شىء من سائر المؤثرات الأجنبية ، وهو

---

(١) وصفت هذه الحركة الذهنية بأنها إحياء الشعب المصرى من جديد ، على أن هذا تعبير يمكن أن يقود إلى الخطأ ، لأن الأمر لم يكن يتعلق باتخاذ حضارة قديمة أرقى ، وإنما كان على النقيض من ذلك يتعلق بالرجوع عن قصد وإرادة إلى مرحلة من الثقافة تخطتها مصر منذ مدة طويلة . وهذه هى الظاهرة المحزنة التى تحدث فى بعض الأحيان عند الشعوب الأخرى فى عصور المحن والشقاء ، فيتخيل المرء أن الشعب قد كان أسعد حالا فيما مضى ، ويفضل كثيرون لو يستطيعون خلع المدنية الموروثة عن أنفسهم ظنا منهم أنها شىء غريب عنهم .

ذلك العصر ، الذى ظلت أهراماته تبدو شاهدة على عظمته . ومهما شاقنا ذلك البحث عن الفردوس المنشود ، فمن المحقق أن الأسلوب الذى تبدى فيه كان سقيما . فقد كان تقليد الماضى يحمل طابع الغرام العلمى بالأشياء القديمة كأن ذلك أمر طبيعى محض، فكان المرء يكتب بلغة الدولة القديمة وفى هجاء كلماتها، مع أن ألفى عام كاملة قد مضت عليها ؛ وكان المحدثون يمثّلون بالملابس العتيقة ، كما كان معاصرو أبسماتيك يمنحون ألقاب رجال بلاط خوفو وأسماءهم .

ولقد أفادت الديانة قوّة جديدة من هذه العودة إلى الحضارة المصرية القديمة ، كما أنها تغلغلت فى حياة الشعب بما لامثيل له من قبل ، كأن الديانة كانت موضوعه الوحيد . وبذلك نشأ أولئك المصريون الذين كانوا « أتقى الناس أجمعين » [1] ، والذين كانوا مثار دهشة معاصريهم من الإغريق ، والذين كانوا يراعون بدقة سائر العادات القديمة التى كانت من شأنها أن تضفى عليهم طابع الخدم الأطهار للآلهة القديمة ، وأن تفرق بينهم وبين الأجانب ؛ الذين أصبح المصريون ينظرون إليهم باحتقار . وكانوا يؤثرون بناء بيوتهم إلى جانب المعبد حتى « يسمعوا التسابيح من أفواه الكهنة » [2] . وقد قال أحد سكان منف : « أى بتاح . لقد أغلقت عليك فى قلبى ، وإن قلبى لممتلئ بحبك كحقل ممتلئ ببراعم الأزهار . لقد أقمت بيتى بجانب معبدك كخادم يمجد سيده » [3] . ويدلّ على تحمس الشعب إذ ذاك فى عبادة الآلهة كلها عدد لايحصى من التماثيل الصغيرة للآلهة وأدوات المعابد البرنزية التى



١٣٠ – فأر فرعون المقدس ، من البرنز (برلين ١٣٧٨٣) .

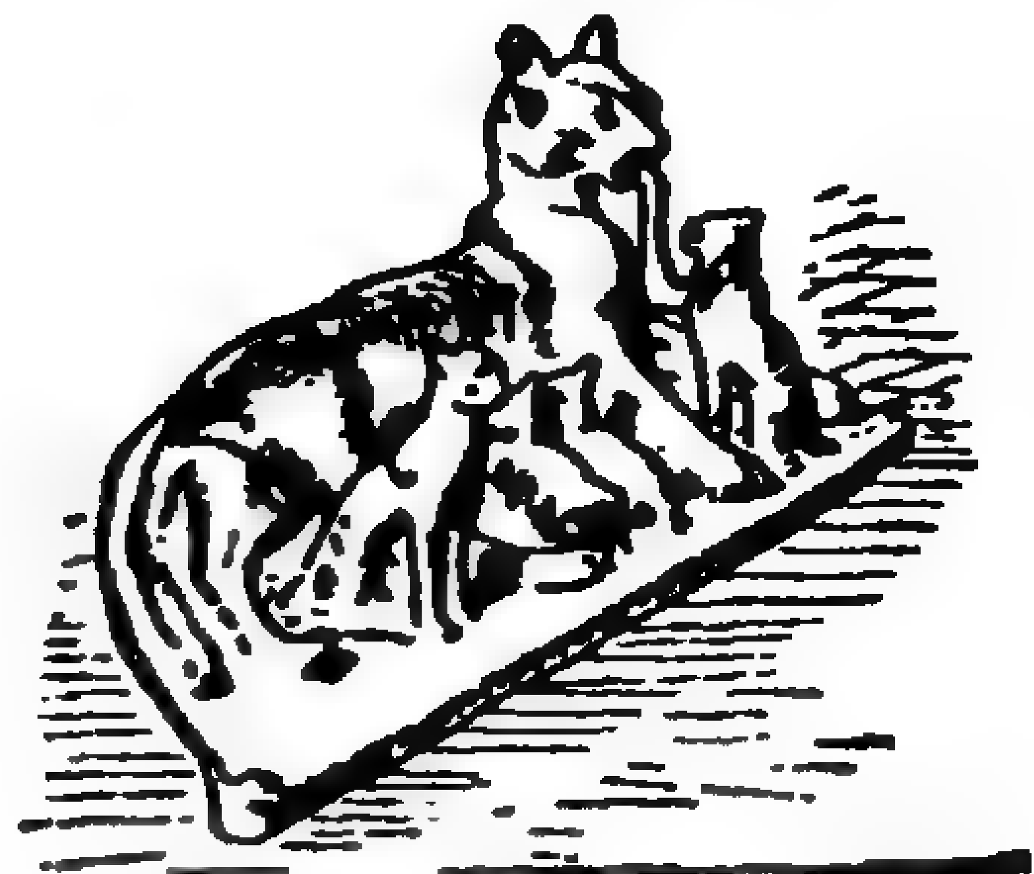
---

(١) Herodot II 37 a.

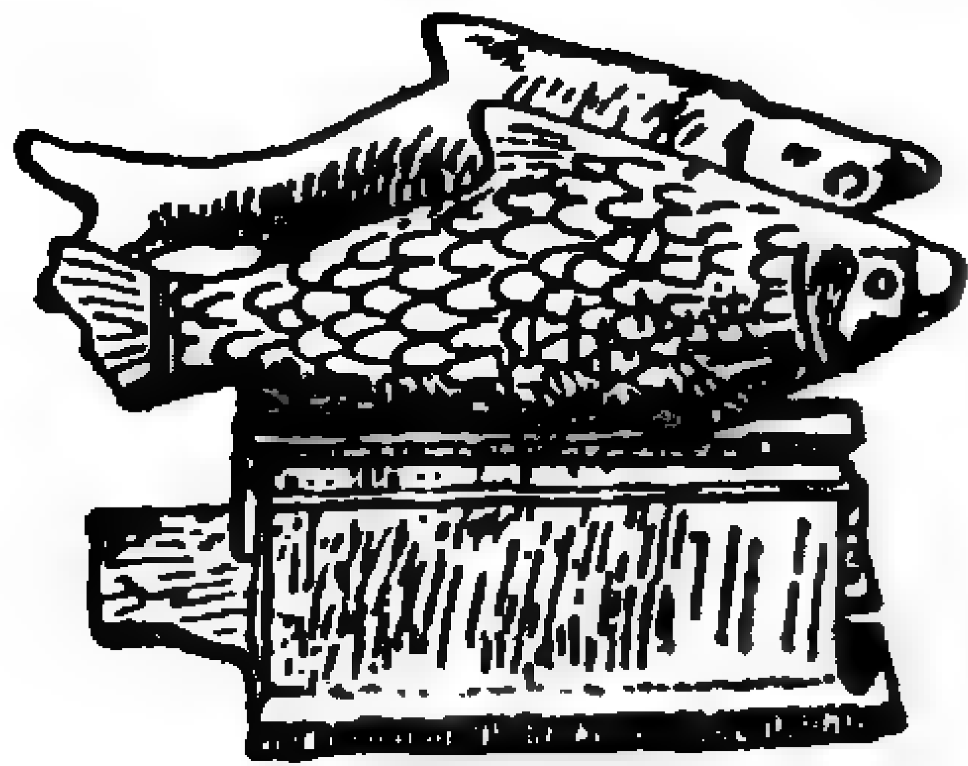
(٢) برلين ١٧٢٧٢ ؛ وقد ترجع هذه التقوى المفرطة إلى ذلك الاتجاه الذى نلقاه فى نهاية الدولة الحديثة (انظر ص ١٥٨ وما بعدها)

(٣) الوفر ٣٣ .

كان ينذرها أفراد الطبقات الدنيا فى هذا العصر للمعابد ، والتى تزخر بها مجموعات الآثار فى العالم . وفى هذه الروح بين أفراد الشعب ازدهرت أشد ما يكون الازدهار

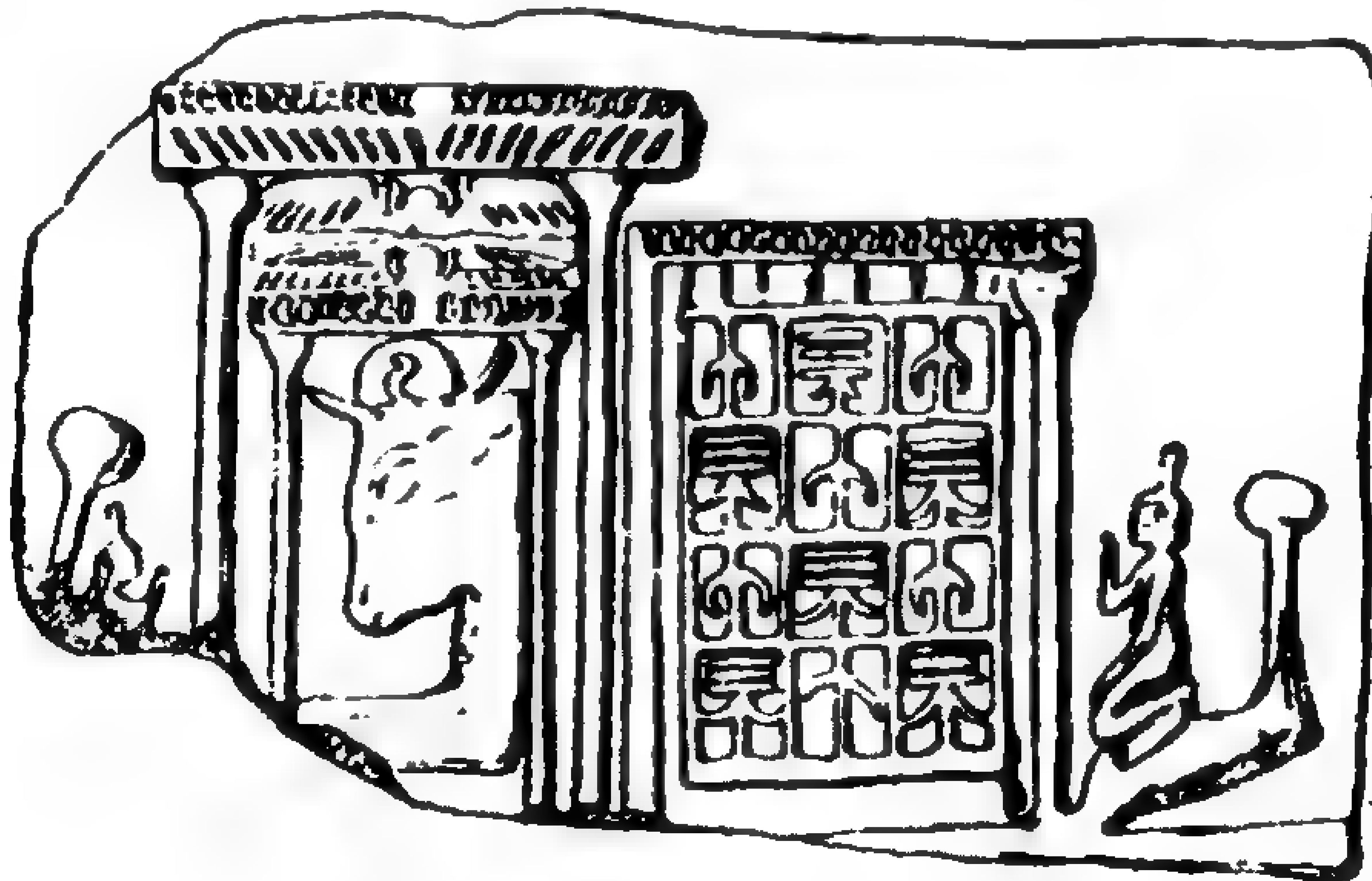


١٣١ — قطة مقدسة مع صغارها
من البرنز (برلين ١٣١٢٢) .



١٣٢ — سمكتان مقدستان
من البرنز (برلين ٢٥٧٠) .

النواحى الغريبة للعقيدة المصرية كعبادة الحيوان . فقد جاء العصر المجيد للثعابين والطيور والكباش والقطط المقدسة ، التى غدت أثيرة لدى الشعب ، والتى أصبحت العناية بدفنها من الأعمال التى يُنال عليها الثواب . فهاهى ذى سيدة تقية تقول عن نفسها فى زهو : « لقد أهديت ما تحتاج إليه الأرواح الحية (أى أرواح الحيوانات المتوفاة) ، حتى تكون لديها العطور والملابس الفائقة عندما تصعد أرواحها إلى السماء » . [1] وكان أشهر تلك الحيوانات جميعا أبيس [2] (صفحة ٣١) . وكان يحتفل



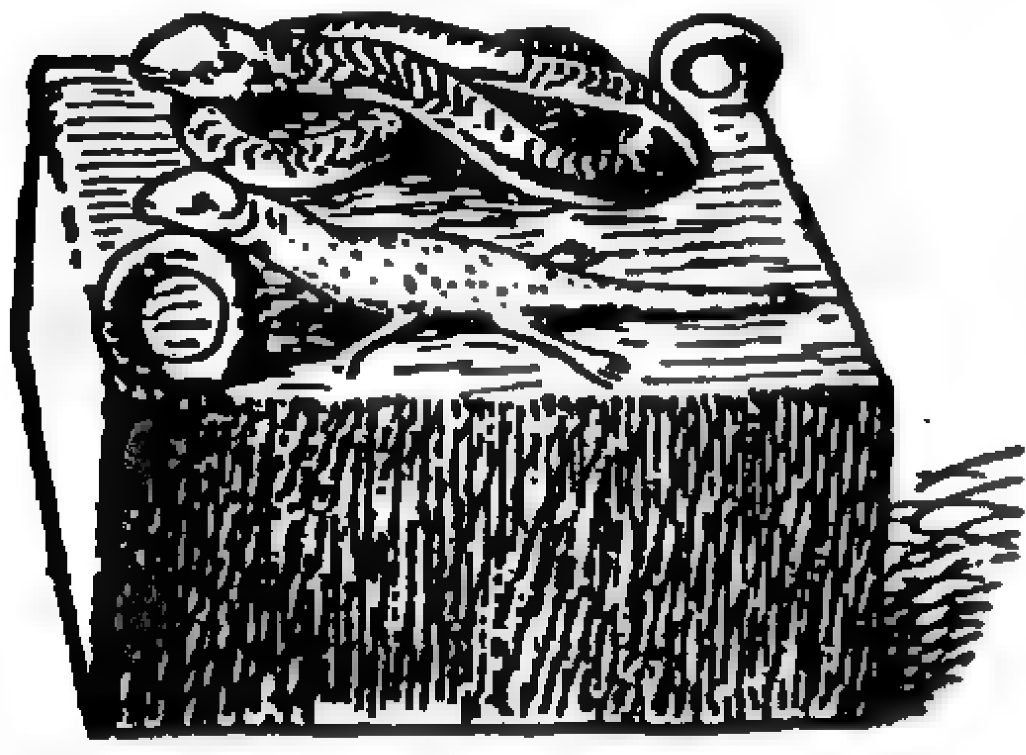
١٣٣ — أبيس الميت فى نعشه من داخل
سفينة ، تبكيه إيزيس ونفتيس (برلين ٧٤٩٤) .

---

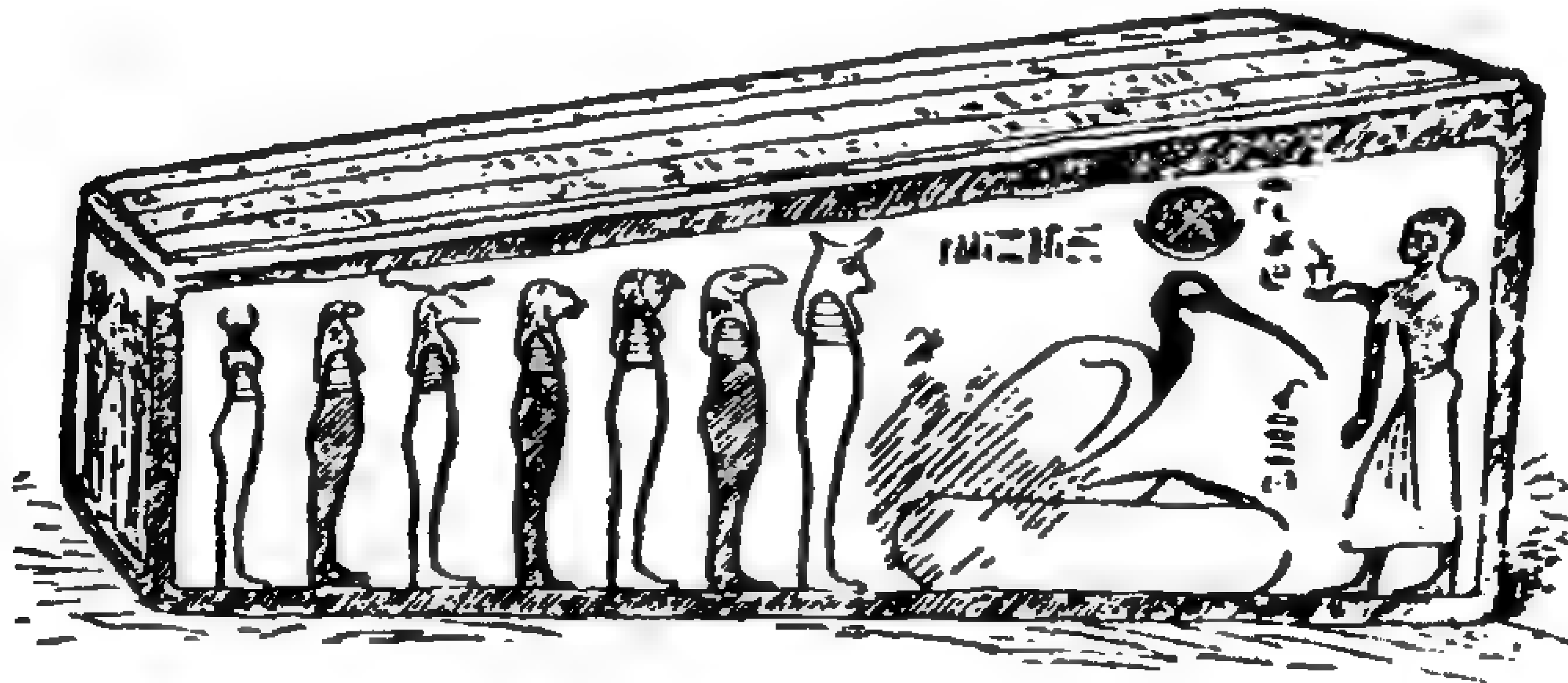
(١) نصب من عهد البطالمة فى مجموعة السيدة م .

(٢) جاء عن بلنيوس .Hist. nat فى الجزء الثامن صفحة ١٨٥ أنه كانت تساق إليه كل عام بقرة كان عليها أن تدفع حياتها ثمنا لهذا الشرف ، وأنه لم يكن يجوز أن يتجاوز هو نفسه سنا معلوما ثم يغرق بعدها ؛ وإنه من الصعب أن نقول أى هذا كله هو الصواب .

كل عام بعيد ميلاده سبعة أيام ، وإذا مات لبست عليه النساء ثياب الحداد ، و « لايدخل أفواههن شيء غير الماء والخضر » سبعين يوما حتى يتم دفنه [1] . وكان يحج إلى قبره ، ويقام له شاهد يكتب عليه ما شاق من تاريخ حياة هذا العجل : متى ولد ومتى جيء به « إلى معبد بتاح » . ومتى « فارق الحياة » و « حملة أيام حياته » . وفى بعض الأحيان يخبرنا المصريون بأية قرية شرفت بأن كانت وطنه ، وأى اسم كان لأمه . وكان دفنه يقترن بكل أنواع الترف والبذخ ، إذ كانت الدولة نفسها تعنى بذلك . وقد ورد أن أبسماتيك الأول لما أخبر عام ٦١٢ قبل الميلاد بأن « فى معبد أبيك أبيس . . . أثر القدم على توابيته . أمر جلالته بأن يجدد معبده ليكون أجمل مما كان من قبل . ودعا جلالته أن يصنع له سائر مايجب أن يصنع لإله فى يوم الدفن ، وقد قام سائر الموظفين بواجبهم . وحفظ الجسد بالزيت والشرائط من أرق أنواع الكتان وبملابس كل إله . وكانت توابيته من خشب « كد » وخشب « مر » وخشب الأرز ومن صفوة سائر الأخشاب » [2] . وفى عام ٥٤٧ جاوز الملك أمازيس . ظهير الإغريق ا تهوس . سائر



١٣٤ — تابوت ثعبان وعظاءة (؟) (برلين ٨٨٤٦)



١٣٥ — تابوت من الخشب لأبى منجل
ومن أمامه يبخر الرجل الذى قام بدفنه (برلين ٦٩٣٨) .

---

(١) انظر Rec. Trav. 21, 63; 22, 176
(٢) نفس المرجع ٢٢ ، ١٦٦ .

ما كان يؤدى لأبيس حتى ذلك الوقت ، « لأنه أحبّ أبيس أكثر من أىّ ملك آخر . فصنع له تابوتا كبيرا من الجرانيت الأحمر ، وذلك لأن جلالته لم يجد أحدا من الملوك فى أىّ عصر قد صنع له تابوتا من الحجر » . وجهزه بالأكفان « والتمائم وسائر الحلى من الذهب ومختلف أنواع الأحجار الفاخرة ، وكانت أجمل من كل ما صنع من قبل »[1] . وكان هذا التابوت أوّل تلك التوابيت الضخمة ، التى لازلنا نعجب بها اليوم فى مقابر أبيس فى صقارة ، وهى عبارة عن صناديق كل منها قطعة واحدة من الجرانيت طولها أربعة أمتار وارتفاعها يزيد على ثلاثة أمتار .

وفيما عدا ذلك تنافس الملوك الصاويون فيما بينهم فى العناية بالآلهة . وقد بدأوا من جديد المبانى الفاخرة والأوقاف الواسعة للمعابد ، وخاصة ما كان منها فى سايس ، العاصمة . التى أصبحت إلحنا نيت (صفحة ٣٩) تحظى بأسمى مقام . وقد عمل سائر ملوك هذا العصر المشغوف بكل قديم — سواء كانوا أثيوبيين أو صاويين — على ترميم آثار الماضى . وتجديد ما كان قديما من أهرامات إلى كتاب صنعه الأجداد . والتهمته الديدان . واستبدله شاباكو الأثيوبى بلوحة من الجرانيت الأسود[2] . ونظمت من جديد طوائف الكهنة التى اندثرت وغشيها النسيان . وإن القارئ فى إحدى نصوص العصر المتأخر للألقاب التى لا تنتهى للكهنة ليتبين فى دهشة مدى ما ابتعثت للحياة من أشياء مرة أخرى .



١٣٦ — جعلان متعانقان فما أذرع بدلا من الأرجل (برلين ١١٤٠٥) .

وقد جدّ المصريون كذلك فى البحث عن الأدب الدينى القديم . الذى كان فى سبات عميق فى مكتبات المعابد . وبهذا برز إلى النور من جديد مختلف الأفكار التى تقادم عليها العهد . وإذا كانت أغلب هذه الحكمة المكتشفة من جديد لم تنفذ إلى الشعب . فقد زادت فعلا فى اضطراب الديانة الرسمية . وقد كان هذا الاضطراب

---

(١) نفس المرجع ٢٢ ، ٢٠ .

(٢) Breasted. Ae. Z. 39, Tafel, 1. 2. ، وهو نفس الكتاب الذى سبق الكلام عنه صفحة ١٠٥ .

بغير هذا كبيرا حقا بدرجة كافية . على أن ازدياد الرصيد الديني كان مما يسُر رجال الدين فى العصر المتأخر ، لأنهم لم يكونوا ليشبعوا من الأشياء المقدسة . وقد جمعوا هذا كله ورتبوه فى نظام جميل ، ولا بد أن كان فى ذلك المتعة الكبرى لهؤلاء العلماء . وأقول : لابد ، وذلك لأن مؤلفاتهم الخاصة ضاعت ، بحيث لايمكن أن نكوّن صورة عن هذا العلم فى الحضارة المصرية المحتضرة إلا مما خلفه لنا خلفاؤهم ، كهنة العهد اليونانى . ففى هذه الكتب وفى نقوش معابد القرون التالية نجد قوائم بأسماء الآلهة كلها ونعوتها : فهى تحدثنا مثلا بالذى يجب أن تفهمه عن مسخنت إلهة الولادة « مسخنت العظيمة تسمى تفنت ، ومسخنت القوية نوت ومسخنت الجميلة إيزيس . . الخ »[1] . وعلى جدران المعابد نجد بيانات تبين كيف نظمت فى كل مقاطعة سائر المسائل المقدسة . وكانت مصر السفلى بالرغم من اختلاف شكلها تنقسم إلى عدد من المقاطعات يماثل تقريبا عدد مقاطعات مصر العليا ؛ ومن الغريب أنه كان فى سائر هذه المقاطعات أشياء متماثلة تماما ، فقد كان فى كل منها إله وأثر من أوزيريس ، وكاهن أعلى ، وكاهنة عليا ، وسفينة مقدسة ، وشجرة مقدسة ، وثعبان مقدس ، وأرض يعلوها الفيضان ، ومستنقع . وكان لهذا كله أسماء قديمة يجب على المرء أن يعرفها كما كان يجب عليه فضلا عن ذلك أن يعرف تاريخ عيدها الكبير ، وما كان يحرم فيه — فما كان أبهج من أن يتحقق الإنسان من هذا كله وأن يعمل على جمعه ، وما كان أنفعها من معرفة !


١٣٧ — خنوم فى هيئة الصقر (من معبد دندرة).

وليت الأمر كان مقتصرا على جمع وإحياء الأشياء المتعلقة حقا بالديانة القديمة والعبادة القديمة ! بل لقد كان يجمع بصراحة كل ما كان قديما ونادرا . ولم يكن يسأل عن مكان نشأته ، وعما إذا كانت له قيمة جدية إذ ذاك . وبهذا وجدت منتجات السحرة ، كالأشكال الخليطة للآلهة المختلفة ، سبيلها إلى الديانة[2] ، بل إنه لم تكن ترفض الخزعبلات الصبيانية .

(١) بردية برلين ٧٨٠٩ من العهد الرومانى ولكنها بطبيعة الحال نسخة من نص قديم

(٢) فى الواحة الخارجة : Hoskins, Visit to the great oasis, pl. 8

ولما كان كثير من الآلهة يمثل فى الغالب كهيئة الطير – مثل حورس صقرا ، ونخبت رخمة ، وتحوت فى شكل أبى منجل – فقد أصبح من الممكن كذلك أن تمنح الآلهة العظيمة للمقاطعات جسد الطائر . وبهذا أصبح خنوم صقرا برأس كبش ، وأوپوات صقرا برأس ابن آوى ، وباستت صقرا برأس قطة وهلم جرا ، ولكل من هذه الرءوس فضلا عن ذلك تاجها الخاص .

وتدل هذه الأمثلة بما فيه الكفاية على ما صارت إليه طبيعة عقائد المصريين فى العصر المتأخر . فقد كان كل شىء قديم عندها أهلا للتقديس وجديرا بأن يرفع من شأنه . على أنها هى نفسها لم تعد تبتدع أشياء جديدة كثيرة .

ومن هذا التقدير للحكمة القديمة نشأت كذلك فى هذا العصر عبادة من كانوا أنفسهم من القائمين بها فى الزمن القديم . وقد كانوا فى الزمن القديم فعلا أشخاصا مبجلين . فأصبح بعضهم الآن آلهة تقريبا . وأولهم امحوتب . وكان ينتمى إلى بلاط الملك زوسر ، إذ كان رئيس بنائيه . ولم ينس الشعب أنه كان أول من شيد هرما من الحجر المنحوت . إلى جانب هذا عرف عنه كذلك أنه كان عالما . وقد ورد عنه فى أغنية من عهد الدولة الوسطى أن كل شخص يلوك بلسانه أمثاله وحكمه [1] . ثم غدا بالتدريج حاميا لكل من يشتغل بالعلوم ، وكان الكاتب قبل أن يغمس قلمه فى إناء الماء الصغير ينثر القطرات الأولى من أجل إمحوتب [2] . وكان الأطباء كذلك يمجدونه باعتباره أول من ابتدع حرفتهم ؛ وأخيرا كان يعتبر عند الشعب إله الشفاء كما سنرى فيما بعد . وقد ذكر عنه أنه لم يكن ابنا لأحد من البشر ، وإنما كان ابنا لبتاح إله منف ، ولده من امرأة تدعى خروتى – عنخ



١٣٨ – الحكيم امحوتب يقرأ فى كتابه (برلين ٧٥٠٥) .

(١) Litt. S. 178.

(٢) Schaefer, Ae. Z. 36, 147.

ومع ذلك فمن المحقق كذلك أن هذا الإله الجديد قد ظل يمثل – حتى فيما بعد – فى هيئة إنسانية صريحة من غير تاج ولا صولجان أو لحية الآلهة ، كما كانت الطقوس ، التى كرّست له ، على شاكلة ما كان يؤدى فى مقابر الموتى المبجلين [1] .



١٣٩ – صورة صادقة لأمنحوتب بن حابو . من تمثاله فى القاهرة .

وقد تطوّر على نحو مشابه تقديس إحدى الشخصيات الشهيرة فى الدولة الحديثة . ففى أقصى عهود ازدهار مصر كان الوزير امنحوتب بن حابو يشغل المكان الأوّل فى بلاط امنحوتب الثالث العظيم . وكان رجلا عالما كما يتحدث بنفسه إلينا فى أحد النصوص : « فقد لُقّن الكتاب المقدس ، ورأى مآثر تحوت » . وكان يفهم أسرارها ويستشار فى أمرها [2] . وهو لم يكن متعلما فحسب . وإنما قام كذلك فى وظيفته السامية بعظائم الأمور ، وقد كسب شكر سيده . ولدينا اليوم ثلاثة تماثيل كان الملك قد أقامها له فى حياته . وقد اعتبرته كذلك الأجيال المتأخرة على نحو امحوتب « حكيما لاتبلى حكمه » [3] . وقد نسب إليه كتاب فى السحر . كما غدت مقبرته التى كانت تقع على شاطئ طيبة الغربى مكانا مقدسا ؛ وقد ارتفع شأن هذا المكان كثيرا فى العهد اليونانى ، حتى جعل منه بطليموس الرابع معبد دير المدينة . وفيه انضم امنحوتب بن حابو وزميله فى المصير امحوتب إلى الآلهة العظيمة .

واستطاعت هذه المقبرة أن تبقى زمنا طويلا . وذلك لأن الملك امنحوتب

---

(١) عن امحوتب انظر Sethe, Untersuchungen II 95 ff

(٢) Mariette, Karn. 36, 28 انظر Brugsch, Ae. Z. 14, 96 folg. وكذلك Sethe, Ebersfestschrift, S.107 folg.

(٣) Brugsch, Ae. Z. 13, 125; Erman Ae. Z. 15, 147.

وقف عليها الحقول والرقيق بوفرة . على أن ثروة هذا الوقف قد كانت تخفى بين طياتها بعض الأخطار ، وذلك لأن الموظفين فى القرون المتأخرة أدركوا أن من الممكن استخدام الرقيق فى مكان آخر ، بما هو أكثر نفعا ، وأجدى من استخدامهم فى حقول أحد الوزراء الذين ماتوا منذ أمد بعيد . فى هذا الحرج عمد كاهن المقبرة إلى وسيلة غريبة : فقد اصطنع وثيقة زعم أنها ترجع إلى عهد امنحوتب الثالث ، وأن هذا الأخير أصدر فى السنة الحادية والثلاثين من حكمه فى حضرة جميع كبار الموظفين مرسوما يضمن دوام هذا الوقف إلى الأبد . وفى هذه الوثيقة عهد بمقصورة المقبرة إلى أسمى من كان على سطح الأرض إذ ذاك ، وهو آمون رع ، ملك الآلهة ، وذلك لأنه « ملك الأبدية وحامى المدفونين »[1] . ثم جاء فيها بعد هذا : أن أىّ موظف كبير فى المستقبل لايعنى بهذا الوقف وبعبيده ، « ويستحوذ على أىّ رجل منهم لينسبه إلى أىّ من أملاك فرعون أو إلى عمل له هو نفسه ، أو لايتدخل من أجلهم إذا أضرّ بهم غيرهم ، فإنه سينزلق إلى مكان الإعدام لآمون رع ، سيد الكرنك. إنه لن يدعهم يشبعون فى وظائفهم . . . وسيلقى بهم فى لهيب الملك يوم مقته ، وسينفث تاجه النار على رءوسهم ... وسيغرقون فى البحر حيث تخفى أجسادهم » . ولن يمجدوا كذلك فى الموت ، وسيمكثون فى القبر بغير طعام ولا ماء . « ولن يعين أبناؤهم فى مراكزهم . وسيزنى بنسائهم أمام أعينهم » . وهكذا يستمرّ تهديد هؤلاء الموظفين ، على حين يوعد من ناحية أخرى كل من يعنى بالمقبرة ووقفها بكل النعم والبركات .

ولنا أن نذهب إلى أن هذا التزوير قد حقق الغرض منه ووقى المقبرة ، إذ ظلت هذه قائمة قرونا كبيرة . ولا بد أن كان الموظفون ، الذين كان مقدرا أن تخدعهم هذه الكتابة ، بسطاء حقا . ذلك لأن كل شىء فى هذه الوثيقة قد كان ينبغى أن يثير ارتيابهم ، فهى لم تنقش على حجر منحوت ، بل على لوحة جافية ، لعلها كانت بلاطة قديمة . وقد حفرت على هذه اللوحة فى كتابة رديئة زاخرة بهجايات وصيغ لغوية حوشية ، مما لا يمكن تصوّره فى كتابة رسمية من عهد امنحوتب الثالث [2] .

---

(١) يبدو من هذا أن آمون فى العصر الذى ارتكب فيه هذا التزوير قد أصبح ينظر إليه كأنه حامى الموتى شأن أوزيريس فى ذلك .

(٢) عن هذا النص انظر : Moeller, Sitz. Ber. Berl. Akad. 1910, 941 ff.

وفضلا عن ذلك فإن اللعنات لاتكاد تناسب المثقفين فى هذا العهد ، وهى بالأخرى من إنشاء العهد المتأخر . وفيما عدا ذلك لم يكن يعوز مصر فى العهد المتأخر تزويرات مماثلة للتزوير الذى ذكرنا . ومن التزويرات المشهورة ذلك التزوير الذى قام بعمله كهنة اليفانتين ليدللوا على حق إلههم خنوم فى المنطقة التى بين اليفانتين وفيله ، فقد اصطنعوا — حوالى العصر اليونانى — نصا يروى قصة محزنة عن مجاعة مروّعة . ففى عهد الملك القديم زوسر (حوالى ٢٧٠٠ ق . م) امتنع الفيضان سبع سنين . فأقبل الملك عند ذلك على وزيره الحكيم ، وهو إمحوتب نفسه الذى عرفناه من قبل ، وسأله الرأى ، فبحث هذا فى الكتب القديمة وتبين منها أن خنوم إله اليفانتين هو الذى يجرى الفيضان .

وظهر الإله إذ ذاك فى الحلم للملك ووعده بألا يتخلف الفيضان تارة أخرى ، لهذا أهدى الملك إلى خنوم وآلهة اليفانتين سائر منطقة الشلال الأول بخراج حقولها وجميع أنواع الضرائب والمكوس [1] .

ولا يقلّ عن هذا غرابة ، تزوير آخر من عصر أقدم بعض الشىء . وهو يقص علينا أن الملك رمسيس الثانى (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م.) كان قد تزوّج من ابنة أمير



١٤٠ — قارب خنسو الصغير الذى يطرد الشياطين ، ومن أمامه كاهن يحرق البخور (من نصب بنترش)

أسيوى ، كانت بلاده تبعد عن مصر كثيرا . وكان لهذا الأمير ابنة صغرى استولت عليها روح شريرة . لهذا رجا الأمير أن يرسل إليه الملك إلها يشفى الأميرة . فعرض

(١) Brugsch, Sieben Jahre der Hungersnot; Sethe, Untersuchungen II, 75 ff.

رمسيس هذا الرجاء على الإله العظيم خنسو نفرحوتب ، ورجا إليه أن يبعث خنسو الصغير « الذى يحكم فى طيبة » ، وأن يمنحه كذلك « قوته » .

وأحنى خنسو الكبير رأسه موافقا جدا على الاقتراحين . فلما وصل خنسو الصغير بختن ، حيث استقبل بإجلال عظيم ، نجح فى تخليص الأميرة من الروح الشريرة . على أن أمير بختن أراد أن يحتفظ بهذا الإله صانع المعجزات ، فاستبقاه ثلاثة أعوام وتسعة أشهر ، ولم يقتنع بأن يأذن له بعودته إلى مصر ، إلا بعد أن رأى رؤيا . وقد زود بالهدايا الفاخرة ، ودلل خنسو الصغير أنه غير محب لذاته ، لأنه أعطى كل شيء لخنسو الكبير ، ولم يحتفظ لنفسه بشيء[1] .

وقد وجد هذا النص فى الكرنك فى مبنى صغير من العصر المتأخر غير بعيد من معبد خنسو . ومن المحقق أن هذا المبنى كان مقصورة خنسو الصغير . ويبدو أن كهنته قد اصطنعوا هذا النص ليرفعوا من ذكر إلههم الخامل الشأن باعتباره إلها للشفاء[2] . ولم يكن هذا التزوير يرعى للقراء المثقفين حسابا ، إذ لم يبذل صانعه شيئا من عناية فى نسخ أسماء رمسيس الثانى صحيحة ، وقد كانت تقرأ فى كل مكان فى طيبة .

ومثل هذه التزويرات تتفق ومظهر الحضارة المصرية فى العهد المتأخر ، وهى تذكرنا بالتزويرات المشابهة من العصور الوسطى . ويمكن أن يقال هنا على نحو مايقال هناك من أن صانعيها لم يكونوا يرون فيها شيئا جائرا . لأن التفاصيل وإن جاز اختلافها عما تصوره هذه النصوص ، فإن هذه النصوص مع ذلك لم تكن كاذبة من حيث المعنى العام . ألم يكن خنوم يهب الفيضان حقا ، وخنسو يشفى المرورين ! لم يكن هناك إذن بد كذلك من أن يحتفل بمثل هذين الإلهين وأن يعطيا ما يحتاجان إليه لينعم البشر ببركاتهما .

---

(١) واضح أن هذه القصة تعتمد على رواية من نهاية الدولة الحديثة . وقد ذهب الظن إلى أن بختن هى باكترين ، التى عرفها المصريون فى العهد الفارسى . وقد رأينا فيما سبق (صفحة ١٧١) أن تماثيل الآلهة كانت ترسل حقا من بلد إلى بلد آخر ، وأنه كان يخشى ألا ترد .

(٢) لقد كان حقا يعتبر إلها للشفاء ، فى بعض النصوص من عهد بطليموس الثانى يثنى عليه بأنه يطرد الأمراض ، وينفى الأرواح والموتى ، وقد أنقذ كذلك الملك من العالم السفلى وحفظه من الطاعون (انظر : Sethe, Urk. المجلد الثانى ص ١٠٨ وطيبة ، باب الإمارة) .

الفصل التاسع عشر

العهد الفارسى

إن الصورة، التى عرضناها فى الفصل السابق عن عقائد مصر فى العصر المتأخر، يمكن أن تعتبر كذلك فى جوهرها صورة لعهد السيادة الفارسية . وكان استيلاء قمبيز على مصر (٥٢٥ ق . م) حقا نكبة للديانة بالذات ؛ ذلك لأن هذا الفارسى كان يقف من مصر وآلهتها موقف الساخر المحتقر . ولئن كان قد انتهب تماثيل الآلهة والكتب من المعابد ، فمن المحقق أن ذلك لم يكن لأنه كان يعتبرها شيئا مقدسا ، وإنما كانت عنده مجرّد غنائم تبين للفرس أىّ بلد عجيب استولى عليه . ألم يقتل فى حنقه أبيس ساخرا « ويخرّب معابد مصر جميعا » [1] ! ومع ذلك فهناك نص غريب [2] يدل كذلك على أن قمبيز لم يستطع أن يتجرد من كل اعتبار لرجال الدين . فقد كان لهم فى حقيقة الأمر ممثل فى محيط قمبيز ذومهارة خاصة ، هو طبيبه الخاص « أوزا — حر — رسنت » . وقد عرف هذا الطبيب كيف يثير اهتمامه من أجل سايس على الأقل . فقد « بين لجلالته مقدار عظمة سايس . . . ومقدار عظمة معبد نيت » ، وعرّفه جميع معابد سايس . وقد بلغ الأمر حدا أن دخل الملك الفارسى فى سايس نفسها « فى معبد نيت ، وركع أمام سيدته كما فعل كل ملك ، وقدم كذلك قربانا كبيرا من كل شىء طيب إلى نيت العظيمة ، أمّ الإله ، وللآلهة العظيمة فى سايس كما فعل كل ملك بارع » . ولما عرض أوزا — حر — رسنت على قمبيز أن الأجانب من مختلف الأجناس ، يسكنون على أرض المعبد ، مما يثير مقت المصريين الأتقياء ،

---

(١) هذا ما كتبته الجالية اليهودية فى اليفانتين عام ٤٠٨ إلى الحاكم الفارسى فى ذلك الوقت ، مهتمة بأن تبرز أن معبدها الخاص قد بقى سليما؛ وعلى هذا كان الاضطهاد موجها فى الواقع ضد الديانة المصرية . وكان الأقباط فيما بعد يعرفون كذلك أن قمبيز خرب أبيدوس ، انظر : .Lemm, Kleine kopt Studien صفحة ٦٤ .

(٢) تمثال فى الفاتيكان ، أما عن الخاتمة ، فانظر : Schaefer, Ae. Z. 37, 72

قام الملك الفارسى بما لم يكن قد قام به الملوك الوطنيون ، فقد أمر بهدم بيوت الأجانب ، وأجبرهم على الإقامة خارج سور حرم المعبد .

وفى عهد داريوس كذلك استمرّ هذا الطبيب الخاصّ يقوم بدور الوساطة هذه، وقد أقنعه باعتباره طبيبا « بفضل هذه المهنة (مهنة الطبّ المصرى) فى حفظ حياة كل مريض » ، فأرسله الملك إلى مصر ليعمل من جديد فى سايس ، ذلك المقرّ القديم لفنّ الطب الكهنوتى ، على رفع شأن « مدرسة الحياة » أى مدرسة الكهنة . وقد قام بهذا الأمر ، وزوّد المدرسة بجملة الكتب والأدوات التى كانت تملكها وفقا لما جاء فى النصوص القديمة . وهكذا عمل أوزا - حر - رسنت فعلا على خدمة مصالح الحضارة المصرية « فى غمرة البؤس الأعظم الذى حلّ بالبلاد جميعا » ؛ ولئن عرف كيف يحصل فى الوقت نفسه لأقاربه على وظائف الكهنة ، وكيف يغنيهم بالممتلكات من الأرض بفضل عطف ملوك الفرس ، فإن مواطنيه لاشك قد غفروا له ذلك عن رضا .

وفيما عدا هذا اهتمّ كذلك داريوس وخلفاؤه بمصر وآلهتها ؛ وعن داريوس بالذات تذهب الرواية التى حفظها ديودور عنه [1] ، إلى أنه هو نفسه قد اجتهد فى أن يصلح ما ارتكبه قمبيز من عنف . ألم يُذكر عنه كذلك أنه كان يميل إلى الحديث مع الكهنة المصريين ليلمّ بتعاليم الآلهة ؟ وواقع الأمر أن داريوس قد شيد حقا معبدا لآمون فى الواحة الخارجة ، تتفق نقوشه ومناظره مع الديانة المصرية فى العصر المتأخر . فإذا قصّ علينا ديودور بعد ذلك أن المصريين عبدوه فى أيام حياته إلها ، فقد يكون هذا صحيحا ، وذلك لأن شاهدا صغيرا فى متحف برلين يرينا داريوس وهو يعبد على شكل الصقر [2] .

وفى عهد داريوس الثانى اهتمت الحكومة الفارسية كذلك بأن تكون مقبولة لدى الكهنة . فقد كان معبد يهوا ليهود اليفانتين شوكة فى عيون كهنة خنوم . لهذا أمر الحاكم الفارسى بناء على شكواهم هدمه من أساسه وحرقه غير عابئ ببكاء اليهود .

(١) Diodor I, 95.

(٢) برلين ٧٤٩٣ .

الذين « ارتدوا ملابس الحزن ، وصاموا مع نسائهم وأولادهم منذ ذلك الوقت » [1] .

وما نعرفه من مصر نفسها عن العقائد فى العهد الفارسى ليس كثيرا ؛ على أن حظا سعيدا حفظ لنا من هذا العصر بالذات تقريرا حيا لأحد الإغريق . فى حوالى سنة ٤٥٠ ق . م جاب هيرودوت مصر ، وكان قوىّ الملاحظة شديد الانتباه لايكلّ . وقد اهتمّ بصفة خاصة بنفس الأشياء التى تهمنا هنا ؛ وذلك لاعتقاده الجازم بأن هذه الآلهة المصرية ليست شيئا آخر غير آلهته الخاصة : فأوزيريس وإيزيس عنده هما ديونيسوس ودميتر ، وحورس هو أبوللو ، وست عدوّ الآلهة إنما هو تيفون الجبار ، ونيت إلهة سايس إنما هى أثينا ، ومين هو بان ، وآمون هو زيوس ، بل إن باستت ذات رأس القطة إنما تتفق مع أرتميس . وعنده أن أوزيريس وإيزيس يشغلان المركز الأوسط للديانة ، وهو مايجب أن ننتظره فى ذلك العصر ؛ فهما الإلهان اللذان كان يعبدهما المصريون جميعا [2] . وهو يحسّ الزهو والفخر بأن الكهنة أتاحوا له إلقاء نظرة على أسرارهما ؛ وهو يذكر ذلك فى صراحة ، ولو أنه لايخبرنا بشىء عنه ، حتى يظلّ أمينا على وعده [3] .

وكانت الحيوانات المقدسة مما أدهشه كثيرا ، وفى أخباره عنها يبدو لنا كذلك ما كان لها من تقدير مفرط ، وهو يعرف عن أبيس ، الذى شاهده فى فناء أمام البوابة الجنوبية لمعبد بتاح ، أنه ينشأ من شعاع من السماء ؛ وأنه أسود ، وأن على جبهته غرّة مربعة ، وعلى ظهره صورة نسر ، وغير ذلك من الشيات . وكان إذا وُجد أبيس جديد ، احتفلت مصر جمعاء به فى ملابس العيد وبالأيام البهيجة [4] . ولم ير هيرودوت العنقاء (الفونقس) ، الطائر المقدس فى هليوبوليس ، لأنه لايظهر — كما حدثه الكهنة هناك — إلا كل خمسمائة عام ، ليجلب إلى المعبد جثة أبيه فى بيضة من المر [5] . وقد

---

(١) انظر : Ed. Meyer, Der Papyrusfund von Elephantine, Lpzg. 1912, S. 78 ff.

(٢) Herodot II, 42.

(٣) نفس المرجع ٦١ .

(٤) نفس المرجع ١٥٣ ؛ والكتاب الثالث منه فقرة ٢٧ ، ٢٨ .

(٥) نفس المرجع ، الكتاب الثانى ، ٧٣ .

أراه المصريون عند بحيرة موريس وفى مصر العليا تمساحا مقدسا محلى بالذهب والأحجار الثمينة فى أذنيه وقدميه الأماميتين [1] .

ولم تكن هذه الأمثلة المفردة ، التى كان يعنى بها فى المعابد ، ويقوم على خدمتها السدنة ، ويطعمها الأتقياء ، تعتبر وحدها آلهة ، وإنما أضفت قداستها منذ أمد بعيد على سائر أبناء جنسها ، على البقر والتيوس ، والكلاب والقطط ، وأفراس النهر والتماسيح ، والجرذان والفئران ، والصقور وآباء منجل ، والفرخ (القشر) من الأسماك ، وثعابين الماء . فكان إذا شبّ حريق . كان تفكير المرء فى إنقاذ القطط أشدّ من تفكيره فى إطفائها [2] . وكان من يلتهمه تمساح يعتبر بنوع خاص ميتا سعيدا [3] ؛ أما من كان يقتل [6] عامدا حيوانا مقدسا . فإنه كان يفرّط فى حياة نفسه بنفسه ؛ بل كان قتل أبى منجل أو صقر . حتى ولو خطأ . يعتبر خيانة عظمى [4] . وكان لكل نوع من هذه الحيوانات مكان ينبغى أن تنقل إليه جثته حيثما أمكن ذلك ؛ فكانت عظام القطط تحمل إلى بوبسطة . وجثث الفئران والبواشق إلى بوتو . وجثث آباء منجل إلى الأشمونين [5] . فإذا مات ثور دفن أمام المدينة . بحيث كان يترك أحد قرنيه بارزا فى الأرض علامة عليه . لأن أتقياء من أتربخيس فى الدلتا كانوا يجوبون البلاد ويجمعون عظام الثيران ليدفنوها فى بلدهم . على أن البقر الذى كان يعتبر أقدس الحيوان جميعا ، لم يكن يدفن على هذا النحو ، وإنما كان يلقى به فى النيل [6]. وقد يعدّ المرء هذه الصورة التى يعرضها هيرودوت مبالغا فيها . ولكنها صورة صحيحة حقا . وذلك لأننا نلقى فى كل مكان من



١٤١ — مومياء قطة (برلين ٦٩٤٢) .

(١) نفس المرجع ٦٩ .
(٢) نفس المرجع ٦٦ .
(٣) نفس المرجع ٩٠ .
(٤) نفس المرجع ٦٥ .
(٥) نفس المرجع ٦٧ .
(٦) نفس المرجع ٤١ .

مصر مثل تلك المقابر العامة للحيوانات المقدسة من العصر المتأخر ، كالمقابر التى دفنت فيها القطط بمئات الآلاف ، وكالمغارات التى دفنت فيها التماسيح مع بيضها وأفراخها الحديث فقسها ، وكمقابر آباء منجل ، ومقابر الصقور ، ومقابر الثعابين والسمك [1] .



١٤٢ – تابوت من البرنز لقطة (برلين ٢٠٥٥) .

ولم تكن هذه الحيوانات تدفن فى إيجاز واختصار ، وإنما كانت كثيرا ما تحنط على أدقّ طريقة وتدفن فى توابيت ، أو قدور ، أو تماثيل من البرنز . وهى توجد فى كثير من هذه المقابر فى جموع هائلة ، حتى إن الصناعة الحديثة استخدمت الجثث المقدّسة استخداما دنيويا : فقد استخدمت مقابر القطط فى بنى حسن فى إنتاج السماد الصناعى .

وقد شاهد هيرودوت كذلك الأعياد فى المعابد العظيمة فى الدلتا ، تلك التى اندثرت فى الوقت الحاضر ، والتى شاد بذكر عظمتها وجمالها . وتدلّ أخباره على أن هذه الأعياد كانت ترقى بها إلى الذروة إذ ذاك تمثيليات من أساطير الآلهة . فكان يوجد مثلا فى سايس فى حرم معبد نيت قبر أوزيريس تحيط به أجمة بها مسلتان وبجانبه بحيرة مستديرة ، كانت تمثل عليها آلام الإله [2] . وفى عيد آخر كان يؤتى بكاهن عصبت عيناه ، يرتدى ثوبا نسج خصيصا لهذا الغرض ، وذلك على الطريق الذى كان يؤدى إلى معبد إيزيس ، حيث يقوده إليه ذئبان ، هما على ما يبدو الإلهان أوبوات ، ثم يعودان به ثانية [3] . ولعل هيرودوت هنا وفى غير ذلك ، حيثما يتعلق الأمر بأوزيريس وإيزيس ، لم يبين أسباب هذه التمثيلية خشية ورهبة . ولكنه – عند ما يتعلق الأمر بآلهة

---

(١) عن مومياوات الحيوانات المقدسة انظر : Lortet - Gaillard, La faune momifiée (Lyon).

(٢) Herodot II, 170, 171.

(٣) نفس المرجع ١٢٢ .

أخرى – فأنه يتكلم بحرية أكثر . وقد روى أن الإله ، الذى يسميه هرقل، عندما اشتاق يوما إلى رؤية آمون ، لم يظهر له آمون إلا متخفيا فى رأس كبش ، ولذلك كان أهل طيبة يذبحون فى عيد آمون كبشا ، ويُلبسون تمثال الإله فروة هذا الحيوان ويجعلون من أمامه تمثال هرقل . وكانوا عند ذلك يضربون أنفسهم ثم يدفنون الكبش[1] . وفى بابريمس فى الدلتا دخل الإله الذى يسميه هيرودوت آرس ، يوما معبد أمه بالقوّة ليجعل منها زوجة له ، ولهذا كان يُخرج بتمثال الإله من المعبد فى ليلة العيد . وعند غروب الشمس كان الكهنة يعودون به على مركبة ذات عجلات أربع ، ولكنهم كانوا يجدون أكثر من ألف رجل مسلحين بالهراوات واقفين بالباب ليحولوا دون دخول الإله فى المعبد . وكان لابد لزمرة الإله أن تعمل على دخول الإله غصبا فى معركة مروّعة بالهراوات[2] . وكما كان الأمر فى هذه الحال لابد أن كان الشعب كذلك يساهم فيما عدا ذلك من أعياد بأكثر مما تسمح بالظن به نقوش المعابد . فقد كانت تضاء فى إحدى الليالى سايس بل مصر كلها إضاءة عامة ، وذلك باقامة المصابيح حول المنازل[3] . وكان النساء فى عيد أوزيريس يتجولن هنا وهناك ، يغنين على المزمار الأغانى عن الإله . ويحملن تماثيله بحيث يتحرك ذكره[4] . وفى المناحة التى كانت تقام لهذا الإله نفسه فى أبوصير كان سائر الشعب يضرب نفسه من وقع ما يشعر به من فجيعة ؛ وكان الكاريون المقيمون هناك يشتركون كذلك فى هذا الاحتفال – على أنهم لم يكونوا يكتفون بضرب أنفسهم ، وإنما كانوا كالهمج يمزّقون لحومهم بالمدى[5] . وكان فى العيد الكبير فى بوبسطة يتدفق إلى هذه المدينة سبعمائة ألف من الناس من كل صوب : « يبحر الرجال والنساء معا وعلى كل سفينة منهم عدد كبير . ومع كثير من النساء الصنوج يصفقن بها ، ويزمر كثير

(١) نفس المرجع ٤٢ .
(٢) نفس المرجع ٦٣ .
(٣) نفس المرجع ٦٢ .
(٤) نفس المرجع ٤٨ .
(٥) نفس المرجع ٦١ .

من الرجال طوال الرحلة ، على حين يغنى بقية الرجال والنساء ويصفقون بأيديهم . فإذا مرّوا بمدينة أرسوا السفينة ، وظل بعض النسوة يعملن على نحو ماذكرت ، ويسخر بعضهن صائحات بنساء المدينة ، ويرقص غيرهن ، على حين يرفع البعض الآخر ثيابه إلى أعلى . وكذلك يفعلون عند كل مدينة تقع على النهر ، فإذا بلغوا بوبسطة أحيوا العيد بالأضحيات العظيمة ، واستهلك من النبيذ فى هذا العيد أكثر مما يستهلك فى بقية العام كله[1] .


١٤٣ – تمثال لباستت من العهد المتأخر ، ويمكن معرفتها بقططها وسلالها . وهناك قردان يتسلقان كتفيها بينما ينفخ ثالث المزمار إلى جانبها (برلين ١٢٤٢٤) .

وكان الشعب يشترك كذلك فى العبادة عن طريق تقديم الأضاحى . وإن كان هذا تحت إشراف الكهنة . وكان أحد هؤلاء الكهنة – وهو الكاهن « وعب » بلا شك – يفحص أوّلا الأضحية . فإذا لم تكن بها شعرة واحدة سوداء ، وإذا كان شعر الذيل ناميا نموّا صحيحا ، وإذا لم يكن باللسان شىء غريب . علق خاتما بقرنها . وبهذا كان يعلن أنها طاهرة[2] . « ويساق الحيوان الموسوم على هذا النحو إلى المذبح ، حيث تكون التضحية . فتوقد النار ويسكب على الأضحية النبيذ ، ثم يذكر اسم الإله ، وتذبح ويقطع رأسها . ويسلخ الجسم ، أما الرأس فيستنزلون عليه اللعنات . . . راجين إن كانت هناك مصيبة توشك أن تنزل بهم أنفسهم أو بمصر ، أن تقع على هذا الرأس[3] . ولهذا لم يكن المصريون يأكلون رءوس الحيوانات ، وكانوا فى المدن التى يعيش فيها الإغريق يبيعونها إليهم . أما فى البلاد الأخرى فكانوا يلقون بها فى النهر .

وفى هذا الجزء من رءوس الأضاحى من الحيوان ما هو غريب عن العادات المصرية القديمة . فلقد كان رأس الثور الصغير وفخذه بالذات القطعتين اللتين كانتا

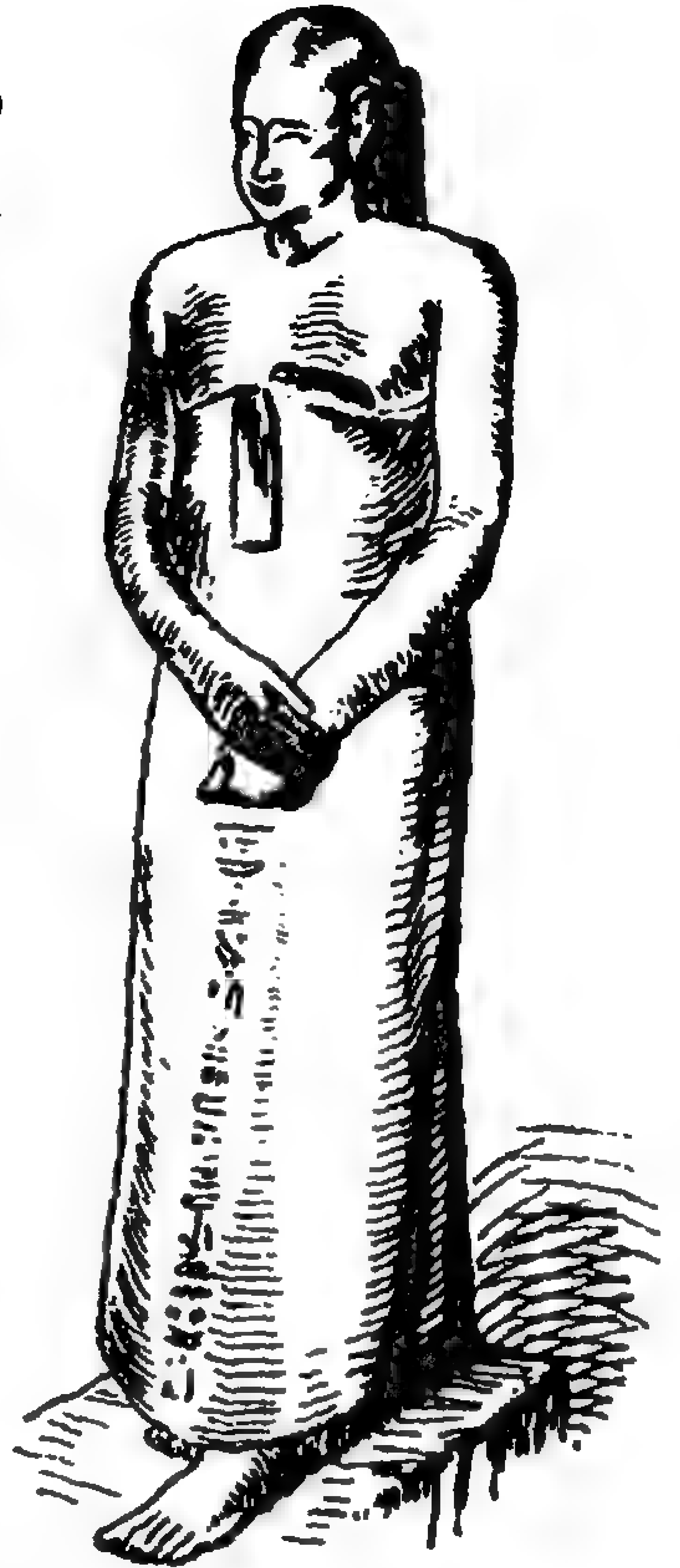
(١) نفس المرجع ٦٠ .
(٢) نفس المرجع ٣٨ .
(٣) نفس المرجع ٣٩ .

توضعان على سائر موائد القربان فى العهد القديم . ومما يرجع كذلك على وجه التحقيق إلى التأثير الأجنبي حرق القربان وكان أمرا استثنائيا محضا فى مصر من قبل (صفحة ١٩٨) ، فأصبح الآن طقسا عاديا [1] ؛ ومما يؤيد هذا أيضا أن حرق القربان كان يتخذ فى اللغة المتأخرة اسما مشتقا من كنعان وهو « جليل » .

ولعله كان من الأمثلة الأجنبية كذلك أن الوحى بالغيب ، الذى كان له دور كبير فى العالم الإغريقى فى ذلك الوقت ، قد بلغ تمام ازدهاره فى مصر أيضا . وقد عرف هيرودوت على ضفاف النيل ما لا يقلّ عن سبعة آلهة ، كانوا يوحون بالغيب . وكان مهبط وحى الإلهة بوطو فى البلد المسمى باسمها يعتبر من أكثر مهابط الوحى تمتعا بثقة الناس [2] . وكانت الآلهة فى بعض الأحيان تعلن عن مقاصدها عن طريق بعض الأحداث المفردة الغريبة : وكان المصريون يلاحظونها بعناية ويدوّنون مايليها من نتائج [3] . وكانوا يذهبون كذلك إلى أن حظ كل إنسان إنما يتقرّر وفقا ليوم مولده . لأن كل يوم إنما ينتمى لإله معلوم[4] . وكانوا بصفة عامة أتقى البشر جميعا[5] . كما أنهم كانوا يتميزون عن غيرهم بكثير من العادات : ومنها الختان الذى كانوا أوّل من سنه . وكان ذلك حقا بقصد النظافة والطهارة [6] ؛ ومنها كذلك نفورهم من الخنازير [7] (ومن المحقق أن لذلك علاقة بما ورد من أن ست وهو فى هيئة « خنزير أسود » قد جرح حورس) [8] . وأخيرا وقبل كل شىء تلك الرهبة التى كانوا يحسون بها نحو البقر ، حتى إنهم كانوا لا يأكلونها ، ولا يضحون بها ، كى لا يسيئوا إلى إيزيس ذات قرنى البقرة « ولهذا لا يقبل أىّ مصرى أو مصرية إغريقيا أبدا ،

(١) نفس المرجع ٤٠ .
(٢) نفس المرجع ٨٣ ، ١٣٣ ، ١٥٥ .
(٣) نفس المرجع ٨٢ .
(٤) نفس المرجع ٨٢ .
(٥) نفس المرجع ٣٧ .
(٦) نفس المرجع ٣٦ ، ٣٧ .
(٧) نفس المرجع ٤٧ .
(٨) انظر الأسطورة فى كتاب الموتى فصل ١١٢ .

ولا يستعمل سكينه أو سفوده أو مرجله ، ولا يأكل من لحم ثور طاهر قطع بسكين إغريقى »[1] . وكان الكهنة يتميزون عن الشعب بشدة رعايتهم لتلك « العادات التى لاتحصى » . وكانوا يرثون وظائفهم عن آبائهم[2] ، ويحصلون كل يوم على جراية وفيرة من الخبز ولحم الثيران والأوز والنبيذ ، غير أن السمك كان محرّما عليهم ، بل لم يكن يجوز لهم حتى النظر إلى الفول[3] . وكان حتما عليهم الاغتسال مرّتين ليلا ومرتين نهارا[4] ، وأن يحلقوا رءوسهم كل يوم وأجسادهم كل يوم ثالث . وكانوا طبقا لعادة قديمة يتخذون نعالهم من البردى ، وثيابهم من الكتان — لأن الثياب الصوفية تمقتها الآلهة[5] .



١٤٤ – حارى ، كاهن فى هليوبوليس فى عهد السيادة الفارسية (برلين ٧٧٣٧) .

والقارئ اليوم لوصف هذا الرحالة الإغريقى يرى أنه قد أولى مصر الاحترام الذى يمكن أن تطالب به حضارة قديمة جدا ، غير أن نظرته إلى الشعب التقىّ لم تكن فى حقيقة أمرها لتختلف كثيرا عن نظرتنا اليوم إلى الصينيين والهنود . فكان المصريون عنده بقية من عصر راحل من عصور البشرية ؛ وكانوا ينظرون فى ترفع وتعصب إلى الشعوب الأخرى ، التى كانت غير طاهرة ، وغير قريبة من الآلهة قربهم منها .

---

(١) هيرودوت نفس المرجع السابق ٤١ .

(٢) نفس المرجع ٣٧ .

(٣) نفس المرجع ٣٧ ؛ لانستطيع أن نخمن سببا لذلك المنع الذى يرجع بالتأكيد إلى زمن متأخر .

(٤) وكان الكاهن إذا قلد وظيفته اغتسل فى « البحيرة الطاهرة » للمعبد ثم يطهر بالنطرون (Brugsch, Thesaurus 1072) انظر كذلك الفصل ١٢ ص ٢١٢ .

(٥) Herod. II, 81 ويرجع سبب ذلك حقا إلى أن زمن التقى السحيق الذى تنسب إليه ملابس الكهنة ، كان لا يعرف غير ملابس الكتان .

وما كانوا يستطيعون ، بل لم يشاءوا الأخذ بأىّ نصيب فى الحياة التى ازدهرت فى هذه القرون ، وإنما أرادوا أن تستمر حياتهم على ما كانت عليه حتى ذلك الوقت فى خدمة آلهتهم وتحت حمايتها . فإذا تحقق لهم ذلك فإن سائر ما عداه لم يكن ليغنى عندهم كثيرا .

ولم تكن مصر فضلا عن ذلك إبان زيارة هيرودوت لها بالبلد الهادئ المطمئن ، كما يمكن أن يبدو من وصفه لها . فقد نجح المصريون مرارا فى التخلص من نير الفرس ، حتى إنه ليبدو طوال بضع عشرات من سنين فى منتصف القرن الرابع كأن الدولة الفرعونية القديمة كانت تريد أن تنهض من جديد . ومما له ميزة خاصة أن يقظة مصر هذه تتجلى كذلك فى الديانة المصرية بالذات ، وإنه لتتبدى لنا فى كل مكان فى مصر تقوى ملكى القرن الرابع اللذين نسميهما مع الإغريق نقطانب ، فأنه على قلة أمن مركزهما السياسى — إذ أخضعهما كذلك فى الواقع الفرس — قد بنى فى عهدهما من المعابد ما يجعل الأمر يبدو كأن مصر امنحوتب ورمسيس تنهض من جديد . وقد استخدمت فى هذه المبانى أصلب المواد وأثمنها ، وإن ابتناء معبد بأكمله بالجرانيت الأحمر من أسوان ، على نحو ما قام به نقطانب الأول فى بهبيت مسقط رأسه ، إنما كان من الإسراف الذى يعدّ من المسائل النادرة فى تاريخ البناء فى مصر [1] .

وفى نقوش هذين الملكين يلاحظ المرء كذلك الاهتمام ذاته بإرضاء الكهنة . ففى أبيدوس وجد المتدينون ما يسيئهم فى قطع الأحجار من الجبال المحيطة بالمدينة المقدسة مهما كان البناء . فأصدر نقطانب الأول استجابة لشكواهم سنة ٣٧٨ مرسوما يحرّم أىّ إتلاف بعد ذلك فى الجبل . وجعل عقاب ذلك بتر أعضاء الجسم [2] . ولما اعتلى العرش نقطانب الثانى سنة ٣٦١ أبدى فى الحال حبه لآلهة بلاده وكرهه للأجانب . وكان سلفه قد فرض ضريبة العشر على جملة الواردات والمصنوعات ؛ ولم يكن نقطانب كذلك فى مركز يسمح له بالتخلى عنها ، ولكنه منح جزءين كبيرين منها للإلهة نيت

---

(١) وفى اليفانتين بنى هذا الملك نفسه لخنوم معبدا فخما ، حفظت لنا منه حتى اليوم أعتابه الضخمة ومقصورته العظيمة (انظر Ae. Z. المجلد ٤٦ صفحة ٥٦) .

(٢) برلين ١٤٣٩٩ ؛ انظر : Burchardt, Aegypt. Zeitschrift 44,55

من أجل قرابينها وهما : الضريبة التى كانت تؤديها الواردات من بحر الإغريق ، والضريبة التى كانت تجبى من الصناع فى المدينة الإغريقية تقراطس [1] . وإذا لم يكن لأحد من فراعنة القرن الرابع أن يستغنى عن هؤلاء الأجانب الصناع المهرة ، وأن يمنع سكناهم بأرض مصر المقدسة ، ألا يقتضيهم هذا جزاء يؤدونه للآلهة ! ولكن أىّ كراهية هذه نحو الأجانب تلك التى يتيحها هذا الإجراء لدى المصريين الأتقياء ! على أنها كانت كراهية الشيخوخة الضعيفة ، التى لابد أن تخمد بسرعة . فبعد قليل من عشرات السنين خضع الكهنة أنفسهم فى ذلة للإغريق الذين سادوا البلاد.

وفى عهد الانتقال هذا حفظ لنا أثر يبدو لنا كأنه حلقة اتصال بين عهدين ، وهو قبر أحد الكهنة العظام من المدينة المقدسة الأشمونين (هرموبوليس) (صفحة ٧٢) . وقد خبر هذا الكاهن الفترة السيئة من أواخر العهد الفارسى ، وقدّر له كذلك أن يشهد العهد الطيب للسيادة الإغريقية . ذلك هو بتوزيرس كاهن الأشمونين الأعلى الذى كشف لفقر عن مقبرته الرائعة .

وقد خدم « منذ الطفولة » بإخلاص إله الأشمونين ، « وحفظ فى قلبه » أفكاره ، ولذلك اختاره تحوت أيضا ليدير معبده ، وقد ظلّ مديرا لأملاكه سبع سنين . وكانت إدارته لها مبرأة من كل عيب على رغم الزمن السيئ الذى كان عليه أن يقوم بها فيه . وذلك لأن مصر كان يسودها إذ ذاك « أهل البلاد الأجنبية » ، أى الفرس ، « ولم يعد شىء فى مكانه القديم » ؛ وكانت الحرب تضطرم فى مصر ، والفزع يسود الوجه القبلى ، والهياج فى الوجه البحرى . وكافة الناس فى حيرة وارتياك . ولم يبق لأىّ معبد سدنته ، ولم يعد الكهنة يحسنون معرفة شىء . غير أن بتوزيرس لما أصبح مدير أملاك « جعل معبد تحوت كما كان من قبل . وجعل كل شىء (مرتبا) من جديد . وكل طقس مقدس يؤدى فى وقته . وزاد من شأن الكهنة ، وعظم كهنة معبده العلمانيين . ورقى خدمه أجمعين . وأعطى الإرشادات لسدنته . ولم يقلل من الأطعمة فى المعبد . وملأ أهراءه بالشعير والقمح ، وخزانته بكل شىء طيب ، وقد أعطى أكثر من ذى قبل . حتى شكره أهل المدينة جميعا . وأعطى الفضة والذهب

(١) Erman, Aegypt. Zeitschrift 38, 133.

وسائر أنواع الأحجار الثمينة ، وأفرح الكهنة (؟) وكل من كان يشتغل فى مصنع الحلى » . وهكذا أعاد كل « ما وجد مخرّبا » إلى الازدهار من جديد [1] . وقد اهتمّ قبل كل شئ كذلك بكافة الأماكن المقدسة التى كانت موجودة فى هذه المدينة الجليلة . وكان منها ذلك المكان الذى كان يسمى « البحيرة العظيمة » ؛ وقد كانت « المكان الذى نجم فيه رع منذ النشأة الأولى ، عند ما كان المحيط لايزال يحيط بالأرض » ، وكانت مكان مولد سائر الآلهة ، وقد نشأ فيها كل ما نشأ » . وكان هذا المكان الأجلّ ، الذى ظل « مدفونا فيه نصف البيضة » ، التى نشأ منها إله الشمس ، مهملا تماما . « فكان الأشرار يطأونه . وكان الناس يأكلون الفاكهة من أشجاره . وكان الغاب يؤخذ منه إلى كافة الأنحاء » . وإلى هذا يرجع السبب فى الشقاق والشقاء الذى أصاب مصر .

على أن بتوزيرس « مدّ النراعين حول « البحيرة العظيمة » »؛ ولم يسمح للعامة بالدخول فيها ، وبنى فيها ، بما يناسب هذا المكان ، معبدا لرع من أحسن أنواع الحجر الجيرى ، وبأبواب من خشب الأرز ، مصفحة بالنحاس [2] .

ولم يكن أقلّ سوءا حال معبد حقت ، تلك الإلهة الفطرية القديمة ، التى فى هيئة الضفدعة . وكان يقع فى شمال الأشمونين مكان ظل « يسمى على أفواه الشعب « بيت حقت » ، ولكنه كان مخرّبا منذ أمد بعيد ، تجرفه المياه كلّ عام فلم تبق منه لبنة واحدة أو حجر . وكان يبدو كأن لم يحفر له أساس أبدا . . . وما كان فيه إلا العشب والنبات . وفى أوان الفيضان كانت السفن تجرى من فوقه ؛ أما فى الصيف فكان يتخذ جرنا تدرس فيه الثيران » . عند ذلك حدثت أعجوبة ، فإن بتوزيرس بينما كان يشترك فى عيد الإلهة ، ويمضى أمامها فى الموكب – هذا إذا صحّ فهمى – ظلت هى قائمة فى هذا المكان المقفر ، فأدرك ما كان يعنيه ذلك ، وعزم على أن « يشيد أثرا جميلا » . فدعا كاتب المعبد وأعطاه فضة « بغير حساب » ؛ وأقام فضلا عن ذلك جدارا يحيط بالمكان لحمايته من الماء ، ثم أعطى لبِنا ليبنى به . وتشاور مع كافة

---

(١) Lefebvre, Le tombeau de Petosiris النص رقم ٨١ ، ٢٢ – ٤٧ .

(٢) نفس المرجع ٨١ ، ٥٠ .

الحكماء ليبحثوا ما يقضي به العرف القديم « منذ أن عرفه الإنسان » للأيام التي فيها تزور الإلهة هذا المكان وتقيم فيه [1] .

وقد سرّت الإلهة لهذه الأبنية وغيرها . « ورفعه تحوت على سائر نظرائه ، مكافأة له على ما فعل . وأغناه بكل شيء طيب ، بالفضة والذهب ، والحبوب . . . في الشون ، وبالحقول والقطعان ، والكروم وحدائق الفاكهة ، والسفن تجري في الماء ، وبكل أطايب الخزانة » .

إلى جانب هذا « امتدحه حاكم مصر وأحبه رجال بلاطه » . وكان له أن يتمنى لنفسه حياة طويلة بهيجة ، وقبرا إلى جانب أبيه وأخيه ، وبيتا مليئا بالولد ، يتبع فيه الولد غيره من الأولاد [2] . وهذا كله ليس إلا صدى الماضي ، حتى إن من يقرأ ما سقناه من نصوص ليتصوّر بتوزيرس مصريا تقيا من طراز عتيق ، على أن هذا التصوّر إنما هو نصف الحقيقة ليس غير . فقبره بالذات يدل على أنه عاش عند مفترق عهدين.

وبناء القبر على شكل المعبد يبدو في حدّ ذاته أمرا جديدا ، على أنه أغرب منه تلك الصور التي حليت بها جدرانه . فكما أن أمراء الزمن القديم عملوا في مقابرهم على تصوير سائر ما كان يحيط بحياتهم ، فصوّروا قطعانهم وحقولهم ، وصناعهم



١٤٥ — صياغ من مقبرة بتوزيرس .

(١) نفس المرجع ٨١ ، ٧٠ وما بعدها ؛ ٦١ جـ (C) .

(٢) نفس المرجع ٨١ ، ٨٣ وما بعدها .

وموظفيهم ، فقد أراد كذلك أن تكون له مجموعة مماثلة من الصور فى مقرّ راحته الأخير . غير أنه لم يطلب من الفنان ، الذى أدى له هذه الصور ، أن يرتبط بالأمثلة القديمة منها ، وإنما تركه على حريته . على أن مثل هذا الفنان قد اتصل فى المدرسة بالنحاتين الإغريق ، وكان يحاول تقليد فنهم . وبهذا نشأت صور من طراز خليط غريب ، تنتمى من حيث موضوعها إلى آلاف السنين الغابرة ، غير أن كل شكل فيها إنما هو شكل أجنبي غير مصرى . إلى جانب هذا فإن التفاصيل أجنبية غير مصرية أيضا ، فالناس يتخذون الملابس الحديثة ، والحبوب تدرس بأداة مستحدثة هى مضرب الدرّاس [1] . وإنه ليبدو لنا غريبا حقا ، إذا شاهدنا فى هذه الصور ما يصنعه الصائغون من أوان على الطراز الإغريقى . وعلى غطاء إحداها يجلس إيروس (إله الحب) فى شكل بديع [2] .

ويبدو هذا كله فى مجموعه كأنه من المساخر ، التى لايتوقعها أحد فى مثل هذا المكان المقدس . ومع ذلك فلم يكن الأسلوب الجديد هو وحده الذى فرض هذا على بتوزيرس ، ولكن لابد أنه هو نفسه قد وجد مسرّة فى مثل هذا التجديد ، وإلا لما غير كذلك فى حرية كبيرة تلك النصوص الملحقة بالصور ، التى لم يكن لأىّ إغريقى أن يستطيع قراءتها [3] .

فإلى جانب الأشخاص الذين يجمعون العنب نجد العبارة التالية : « تعال يا سيدنا ، وانظر إلى حدائقك التى يبتهج لها قلبك . إن البستانيين يعصرون (العنب) . وعلى الأغصان عنب كثير له عصير أوفر من عصير أىّ سنة أخرى [4] . اشرب واسكر واعمل ماتحبّ » . ويقول أحد الملاحظين لأحد الحاصدين وهو يشرب : « لم يتلق أحد بعد شيئا من يديك . لاتشرب اليوم قبل أن تعمل [5] » .

---

(١) نفس المرجع لوحة ١٣ .
(٢) نفس المرجع لوحة ٨ .
(٣) ظهر ما يشبه هذه النصوص حقا فى المقابر المصرية القديمة ، على أن كتابات بتوزيرس ليس لها مثال سابق مماثل ، وهى بالتأكيد من اختراعه الشخصى .
(٤) نفس المرجع ٤٣ .
(٥) نفس المرجع ٥٢ .

حقا لقد كان بتوزيرس رجلا من عصر جديد ، وهو وإن ظلّ مخلصا لعقيدة آبائه القديمة ، فقد تقبل مع ذلك الحضارة الإغريقية التي نجحت في أن تكون لها السيادة في مصر وفق إرادة الآلهة . ولذلك فإنا نفهم جيدا أنه كان محبوبا لدى « حاكم مصر » [1] ، أي في بلاط الاسكندرية .

وثمّ شيء آخر في مقبرة بتوزيرس جدير بالانتباه ؛ ففي كثير من نصوصها تتجلى روح طليقة ذات صفات خاصة ، ليس لها أدنى صلة بأيّ تأثير إغريقي ، مما يبدو مثلا في الصور التي سلف ذكرها ، وإنما تنبض تلك النصوص بذلك التدين العميق . الذي عرفناه في الدولة الحديثة والعصر الذي تلاها (صفحة ١٥٨) . فالذي يملأ حياة بتوزيرس إنما هو شعور التقوى الذي يربطه بإلهه ، وهو « تحوت العظيم مرتين » . وكان هذا الإله رائده طوال حياته . وهو الذي هداه إلى أن يكون مخلصا له . ولهذا فهو يهيب بمن يزور قبره في المستقبل : سأرشدكم إلى طرق الحياة ، ومن ثم سوف ترسون في العالم الثاني تحدوكم ريح رخاء . لقد وضع ثقته في الإله منذ الطفولة إلى اليوم . فكان يفكر بالليل فيما عسى كانت إرادة الإله ، ويعمل في الصباح ما يحبه الإله . وكان يقول الحقّ وينفر من الظلم ، ولم يتعامل مع من لم يكونوا يعرفون الإله . ولم يعتمد إلا على المخلصين للإله ، وذلك لأنه كان دائم التفكير في أنه سوف يذهب بعد الموت إلى الإله ، وأن سادة الحق سوف يجلسون لمحاكمته .

هكذا كانت تقريبا عقيدة بتوزيرس [2] . وليس من الصدفة بالتأكيد أن نجد في تعاليم أمون إم أوبي (صفحة ١٨٢). شعورا تقيا مماثلا. يتجلى كذلك بشكل واضح في تلك الدعوات الموجهة إلى تحوت . والتي ذكرناها من قبل (صفحة ١٥٩) . ويتعلق الأمر في كلتا الحالتين ، كما في حالة بتوزيرس ، بأشياع تحوت الذين يعلنون، عقائدهم هذه . ولا يمكن أن يكون هذا من قبيل الصدفة . فقد كان الموظفون والكتبة

(١) لقد كان هناك كثير من أمثال هؤلاء الكهنة المثقفين ، وسنتعرف على أحدهم ، وهو مانيتو ، في الفصل الحادي والعشرين .

(٢) وربما يتصل بهذا أن بتوزيرس قد وصف فيما خلفه الزوار من كتابات في المعهد اليوناني ، الذي كان يحج فيه إلى قبره ، بأنه « حكيم بين الحكماء » (انظر Lefebvre, Le Tombeau de Petosiris الجزء الأول ص ٢٤) .

الذين يخدمون تحوت ، من الطبقة العالية المثقفة من الشعب ، التى كانت تحيا فيها حقا روح عالية ؛ ومن المحقق أن هذه الروح قد عاشت بعد ذلك ، وخاصة عند ما أصبح تحوت هو هرمز ، الذى كان يعتبر ممثل الحكمة السامية . وسنتكلم فيما بعد عن هرمز هذا وعن أتباعه . حقا لقد غدت التعاليم التى يمثلونها شيئا آخر غير تعاليم جماعة تحوت القديمة ، على أنهم ورثوا الاعتقاد بأن إلههم هو الإله الذى يعلم الحكمة العميقة .

وحيث ذكرنا هنا هذا الازدهار الثانى للروح المصرية ، يجب أن نفكر فى كتاب ينطق عن روح الحضارة المصرية القديمة نفسها ؛ وقد ازدادت دماثة وصفاء . لقد حفظت لنا هذا الكتاب بردية أنسنجر الديموتيقية [1] ، وهى وإن كانت قد كتبت فى القرن الأول بعد الميلاد ، إلا أنه من المحقق يقينا أن ماجاء بها يرجع إلى ماقبل ذلك. ولسنا نستطيع مع الأسف فهم الكثير من تفاصيل هذا الكتاب فهما تاما ، على أنه ليس مجرّد مجموعة من آداب السلوك ،ولكن من المحقق كذلك أنه لاتنقصه هذه الآداب ، وذلك لأن هذا الكتاب يحذّر كذلك من رذائل الغضب والشهوة وعدم الاعتدال ، وينبه إلى عواقبها المهلكة وهو يمتدح الزوجة الطيبة والطفل المحبّ للمعرفة . وينصح الإنسان بأن يظلّ فى موطنه ، وذلك لأنه فى البلاد الأجنبية ليس له أهل يساعدونه ، كما أن إلهه المحلى بعيد عنه . ولا ينبغى أن يغضّ من قدر أىّ شىء ، فالإله الصغير يمكن أن يكون له أثره . والتميمة الصغيرة يمكن أن تقى ، وقليل من المسرة يحيى القلب . والفضيلة مهما تكن يسيرة لاتخفى على الإله .

على أن هناك فكرة أساسية تتخلل تعاليم هذا الكتاب جميعا ، كما أنها تؤلف نهاية كل فصل من فصوله الكثيرة : « يجرى القضاء والحظ ، والإله هو الذى يجريهما » .

وينظر الكتاب إلى حياة الإنسان فى علاقتها بالإله . فالإله هو الذى يعرف التقىّ كما يعرف الأثيم . وهو يحمى أحدهما فى أوان الشدّة ، ويعاقب الآخر . والقوىّ والضعيف أمام الإله سواء . ولا ينبغى أن نرى فى كلمة « إله » إشارة إلى آلهة

---

(١) نشرها ب . ا . بيزر Boeser ، ليدن ١٩٢٢ .

العقيدة المصرية كل على انفراد – وإن كان يرد فى بعض الظروف ذكر تحوت وحاتحور وموت وتويرس – وإنما الإله هنا هو حاكم العالم كما هو الحال فى أقدم الكتابات ذات الاتجاه المماثل . وعلى من ينكر هذا الإله أن ينتبه إلى ذلك الخلق ، إلى الشمس والقمر ، والصيف والشتاء . إنه هو الذى يمنح الهواء والماء ، ويرزق الأحياء الطعام . وهو يجعل الأرض تلد الملايين ، ثم تعود فتلتهمهم ، ثم تلدهم من جديد . وهو يصدر أوامره إلى الناس ؛ وهو الذى يفرض القانون ويحقق العدل دون محكمة ، ولكنه يظل خافيا .

وفى هذا يتجلى لنا ناحية غريبة من تاريخ الفكر المصرى . وعلى المرء هنا أن يسلم بأنه من الممكن كذلك أن تكون هذه الحكمة قد أثرت فيما بعد على فلسفة التصوّف لبويماندر [1] وهرمس ترسمجستوس .

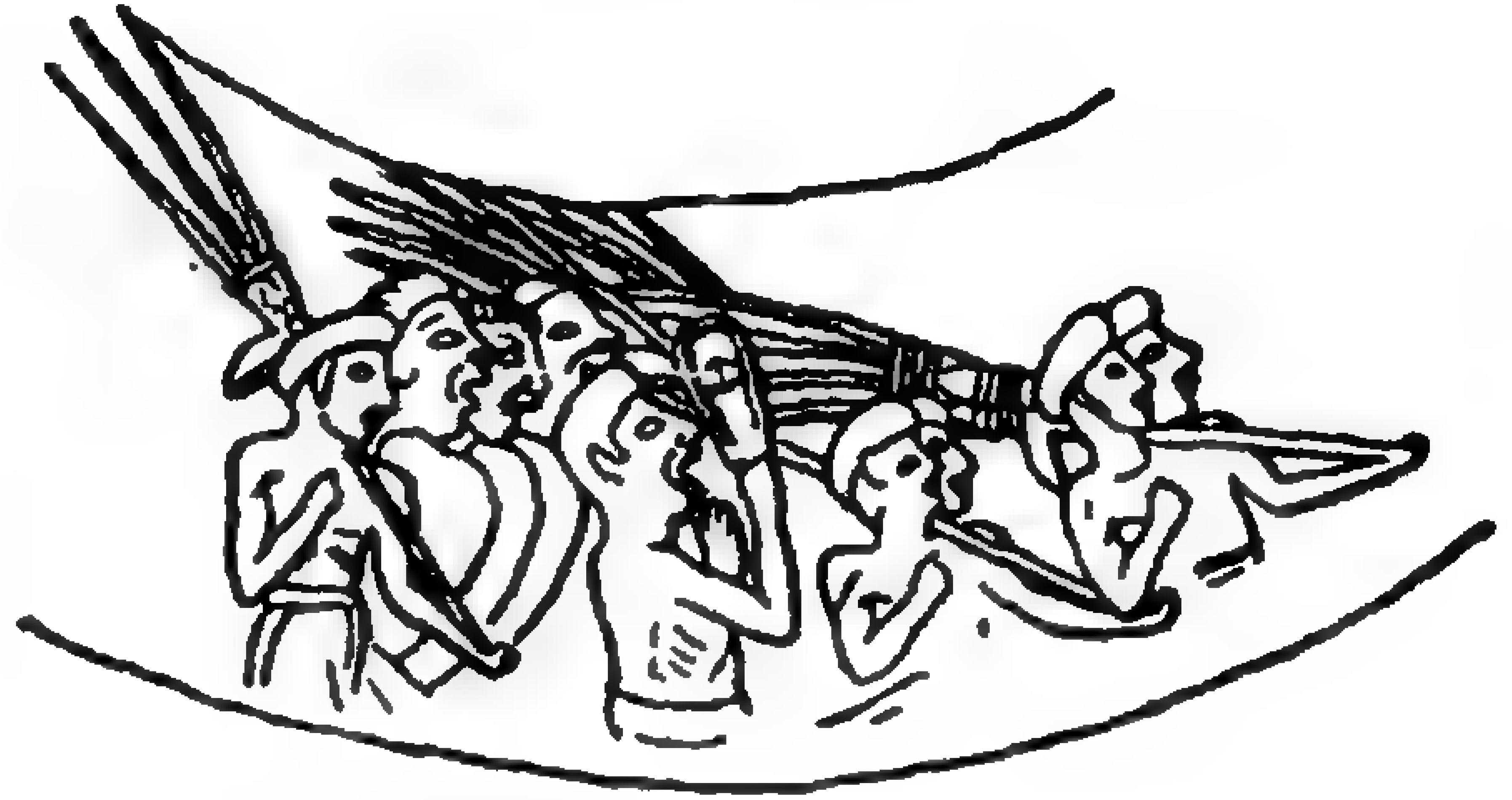
---

(١) أشار بيزر (Boeser) إلى أن من المواضع ما يشبه ما جاء عن بويماندر .

الفصل العشرون

الديانة المصرية فى البلاد المجاورة

قبل أن نستعرض المصائر الأخيرة للديانة المصرية ينبغى أن نلقى نظرة على ما كان لها من انتشار فى فترة ازدهارها الطويلة فى البلاد المجاورة ، وعلى ما كان لها من تأثير فيها .



١٤٦ — من أحد الأوانى من الحجر من كريت القديمة .

لم يكن للحروب والغزوات أثر فى انتشار الديانة المصرية بقدر ما كان للاتصال السلمى بين شعب وشعب . والمصريون أنفسهم وإن لم يكونوا شعبا تجاريا ، فهم لم يكونوا ليستطيعوا الاستغناء عن مثل هذا الاتصال . فقد كانت بلادهم ، على غناها ، تفتقر إلى بعض المنتجات الهامة ، التى لايمكنهم إلا أن يستوردوها من الخارج . فكانت العطور والبخور تجلب من البلاد الواقعة فى جنوب البحر الأحمر ، والأحجار الثمينة والنحاس من سينا ، وأخشاب البناء — وكانت أهمّ الواردات جميعا — من لبنان . ومن كان يذهب إلى هذه البلاد ، مخترقا الصحارى والبحر المخيف ، كان يستودع نفسه عند قيامه برحلته آلهة مصر ، وفى عودته آلهة البلد الأجنبى ، وذلك لأنها تحكم المناطق التى عليه أن يخترقها .

ولا مراء فى أنه كان هناك اتصال قوىّ مع كريت ؛ وهناك ما يدلّ أيضا فيما نعتقد على أنه كان لهذا الاتصال أثره كذلك على ديانة كريت ؛ فعلى إناء من حجر يرجع تقريبا إلى بداية الألف الثانية قبل الميلاد ، صورة موكب أقيم لتمجيد إحدى آلهة الحصاد هناك . ويقود المغنين الكريتيين ، الذين يسيرون فى هذا الموكب ،

رجل صغير يتضح من رأسه الحليق ومن الستروم أنه كاهن مصرى ، وهو يقوم على ما يبدو بين البرابرة بدور رائد المرتلين [1] .

وهناك قرينة أخرى وإن تكن أقلّ دلالة . فقد رأينا أن العقائد الجنازية القديمة للمصريين تعتمد قبل كل شيء على فكرة وجوب إطعام الخلف للموتى . وتتجلى هذه الفكرة فى المقابر كلها فى الصور الأساسية التى تمثل الميت وحده أو مع زوجته وهو يتناول الطعام . ومن الصعب أن تكون الصدفة هى السبب فى أن نجد هذه الصورة نفسها فى نقوش المقابر القديمة فى شمال سوريا ، تلك التى ترجع بالتحقيق إلى الألف سنة الثانية قبل الميلاد ؛ وأن تعود تلك الصورة التى تمثل الميت طاعما ، مرة أخرى على نقوش المقابر الإغريقية القديمة . وعادة دفن الجثة فى تابوت أو فى تابوتين لحمايتها ليس لها كذلك معنى إلا عند شعب يعتقد أن من الضرورى حفظ جثة الميت . وعلى هذا فان هذه العادة التى نجدها فى أوروبا وفى الشرق إنما هى مقتبسة من مصر . وكذلك المقابر الإتروسكية بصور جدرانها إنما تبدو لنا تماما كأنها تقليد للمقابر المصرية . وإلا فكيف كان من الممكن أن تظلّ الأعمال العظيمة ، التى قام بها المصريون من أجل موتاهم ، دون أثر على الشعوب التى اتصلت بهم ؛ ومع هذا فن الحق أنه لايزال مشكوكا فى أن يكون فى هذا أكثر من اتخاذ عادة أجنبية من الناحية الشكلية ليس غير ، إذ من الجائز أن تكون الشعوب الأخرى قد شكلت مقابرها طبقا لما جرت به العادة فى مصر ، دون أن تعرف تفاصيل العقائد الجنازية للمصريين . وأولى بهذا الشكّ هو جميع ماوجد



١٤٧ — شاهد مقبرة ملكة سورية من سند — جرلى (برلين) .

(١) يدل أحد النصوص المصرية القديمة جدا على أن الجثث كانت تحنط فى كريت كما فى مصر Erman, Lit. صفحة ١٣٥ .

من أشياء ذات طابع مصرى فى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، فى شمال أفريقيا أو فى غربى آسيا، لأنه إذا كان قد استخدم على الآثار الرمز المصرى للحياة ،أو الإله ذو رأس ابن آوى ، أو الشمس المجنحة ، أو تيجان الآلهة ، فما كان هناك ما يدعو إلى أكثر من الظنّ بأنها رموز المصريين الأتقياء ، وأنها أشياء من المحقق أنها قد تعجب الآلهة الخاصة .

وإننا لنقف على أساس أشدّ متانة فى فلسطين وفينيقيا ، حيث نجد العبادات المصرية والوطنية جنبا إلى جنب . فنى بيت شيان مثلا شيد ملوك الدولة الحديثة ، أو بالأحرى حكام الحصون، معبدا للإله المحلى مِكِر وزوجته حيث كان يعبد كذلك رشف وعنات إلى جانب آمون رع وحراختى .

وإلى الشرق من بحيرة طبرية صخرة منعزلة جاء عنها أن أيوب اعتمد عليها ، وقد مثل عليها رمسيس الثانى وهو يمجد إلها متبربرا . يبدو أنه كان يسمى « . . . للشمال » . وقد افتخر رمسيس الثالث كذلك صراحة بأنه شيد فى فينيقيا معبدا لآمون ، كان « بيتا مليئا بالخفايا والأسرار ، وكان يشبه الأفق السماوى الذى فى السماء » . وكان اسمه « بيت رمسيس فى كنعان . وقد صنع الملك كذلك تمثالا كبيرا لآمون يستقرّ فيه » يسمى « آمون رمسيس تأتى إليه شعوب سوريا بتقدماتها ، وذلك لأنه إلهى » [1] .

وعلى الجملة فلنا أن نذهب إلى أن الحضارة المصرية فى عهد الدولة الحديثة كان لها تأثير كبير فى هذه البلاد وكذلك على الديانة فيها . وقد أصبحت الأختام تحمل صور الآلهة المصرية ، كما أصبحت المقابر تحلى على الطريقة المصرية [2] . على أن الأمر لم يبلغ حقا عند هؤلاء الشعوب أن تكون للديانة الأجنبية السيادة على الديانة الوطنية وعلى ما ورد إليهم قبل ذلك من عقائد من بابل . ولم يحدث ذلك حتى فى جبيل ، تلك المدينة الواقعة على الساحل التى كانت منذ الأزمنة السحيقة على صلات قوية بمصر من أجل تجارة الأخشاب . فقد كان ملوك الدولة القديمة ومن

---

(١) Harris I 9,1 ff.

(٢) فى مجموعة كنارد (Kennard) فى لندن جزء من صورة من جدران مقبرة مماثلة .

بينهم منكاورع (بانى الهرم الثالث) يهدون إلى معبد هـذه المدينة التقدمات ، التى ما زال يكشف عنها فيه . ولم تنقطع هذه الصلة الدينية مطلقا ، وقد وجدت جبيل سبيلها كذلك إلى أسطورة أوزيريس[1] ، وكذلك ذكرها أحد كتاب الدولة الحديثة ، كأنها مدينة مليئة بالأسرار ، يمكن أن يقال الشيء الكثير عن إلهتها [2] . وكانت هذه الإلهة ، وهى بعلة جبيل أو « سيدة جبيل » كما تسمى فى اللغة المصرية ، الحامية العظيمة للملاحين ، ومنهم كذلك الملاحون المصريون . وقد سوّى هؤلاء بينها وبين إلهتهم حاتحور ، ولهذا كانت حاتحور تسمى منذ ذلك الوقت « سيدة جبيل » [3] .

وكانت حاتحور تعتبر كذلك حامية الملاحين وإن كانوا لايبحرون إلى جبيل وإنما فى البحر الأحمر . بل إن السفينة التى كان الميت يبحر فيها إلى السماء كانت تقودها حاتحور سيدة جبيل [4] . وأخيرا كان أهل جبيل أنفسهم يعبدون إلهتهم فى شكل حاتحور ؛ وحوالى عام ٤٠٠ ق . م . كانت الإلهة التى كان ملك جبيل يقدم لها دعواته تشبه تمام الشبه حاتحور المصرية وإن كانت هى بعلة جبيل .



١٤٨ – يهوا ملك جبيل ، أمام إلهة جبيل .

وهكذا كانت جبيل فى الواقع مدينة مقدسة لديانتين . وفى العهد الرومانى نسمع كذلك أن رأسا مصنوعة من لحاء البردى يدفعها الريح كل عام بطريقة عجيبة تحت إرشاد الآلهة من مصر إلى جبيل [5] .

وكان آمون يعبد فى الدولة الحديثة فى جبيل أيضا . على أن جذور عبادة آمون فى حقيقة الأمر لم تتأصل فى جبيل . وذلك لأنه عند ما سافر أوناموں . أحد الموظفين

(١) انظر صفحة ٩٩ .

(٢) Anastasi I ; Litt., 288.

(٣) وفى الدولة الوسطى نفسها كان يطلق اسمها على الفتيات الصغيرات .

(٤) Lacau, Textes religieux no. 20.

(٥) Pseudolucian, De Dea Syra.

فى معبد طيبة ، حوالى سنة ١١٠٠ ق . م . إلى جبيل (صفحة ٣٥٢) ، ليجلب منها الخشب اللازم لصنع سفينة مقدسة جديدة ، لم يكن فيها شىء من احترام الديانة المصرية . ولم يكن هناك أثر كبير لإيفاده رسولا لآمون حاملا له تمثالا . وكان من العبث أن يستشهد بأن أبا أمير جبيل وجده كانا يعتبران آمون « سيدهما » ، وأنهما « قضيا حياتهما يقدمان له القرابين » ، وأن الأمير نفسه « خادم آمون » . وقد اعترف الأمير بهذا كله وسلم كذلك بأن الفنون والتعاليم إنما وردت من مصر إلى فينيقيا ؛ ولكن هذا كله لم يحرّك فيه ساكنا ، إذ لما كان آمون لم يرسل مالا . لهذا لم تكن رغبة الإله تساوى عنده شيئا [1] .

وفى واحات الصحراء الغربية كان يعبد فى الزمن القديم الإله آش ، الذى كان يشبه ست [2] عند المصريين . وقد حلّ محله فيما بعد ست [3] وسوتخ [4] . وفى الدولة الحديثة أصبح آمون الإله الرئيسى للمعابد فى الواحات ؛ وكذلك فى العهد المتأخر ، الذى أخذ فيه آمون فى مصر يتقهقر تدريجا إلى الوراء ، تمسك الليبيون فى الواحات به فى إخلاص . وفى القرن الخامس ازدهرت عبادته فى الواحات بطريقة ملحوظة .

وفى عهد ملوك الفرس بدئ بإقامة معبد كبير فى الخارجة . كما أن إقامة المعابد فى الواحات الأخرى ترجع إلى العصر المتأخر جدا . ولما لم يكن سكان هذه الواحات من الثراء بحيث يستطيعون تشييد مثل هذه المبانى بوسائلهم الخاصة ، لهذا فإن لنا أن نعتقد أن المال اللازم ورد إليهم من مصر . وإنه ليظن أن هذه المعابد فى الصحراء كانت تعتبر عند المصريين مقدسة حافلة بالأسرار بنوع خاصّ . وأنها لهذا قد استفادت من الاعتقاد فى التنبؤ بالغيب فى العصور المتأخرة . وليس من شكّ فى أن الأمر كان على هذا الحال فى تلك الواحة التى تقع أبعد ما تكون عن مصر . وهى واحة جوبيتر ــ آمون ، التى تسمى الآن سيوة . وكان لمهبط وحى آمون فى سيوة بين الإغريق النازلين فى برقة ، والذين كانوا يعيشون على بعد سفر أيام قليلة منه . جمهور عارف بفضله نشر شهرته فى عالم البحر الأبيض المتوسط . فكان الناس يقصدونه

(١) Erman, Litt. S. 233 ff.

(٢) Royal Tombs II 22, 179, 178: 23, 199, 200.

(٣) Sethe, Sahure II, 74; Israelinschr. 11 (Litt. S. 343); Rougé, Inscr. 144.

(٤) عن سوتخ ، انظر صفحة ٤٥ ، ١٢٠ .

من آسيا الصغرى ، ومن بلاد الإغريق ، وقرطاجنة لاستشارته . وقد رفع من مجده كذلك مناسبة خاصة حسنة ، فإن الإسكندر عند ما ذهب إلى مصر عام ٣٣٢ راقه أن يشاهد هذا المكان ، فقام بتلك الحملة فى الصحراء التى كان لها على الإغريق أثر كبير . ولما حياه الكاهن الأعلى وفقا للعادة المصرية كأنه ابن للإله ، أعجب الملك أن يرى فى هذه التحية ما هو أكثر من مجرد عبارة تقليدية ؛ فقد كانت العبارة عنده قرارا من الإله يمنحه به السيادة على العالم . ومنذ ذلك الوقت أصبح مهبط وحى جوبيتر ــ آمون إحدى العجائب العظيمة فى الزمن القديم ؛ وغدا معبده ومصدر الشمس فيه من الأشياء الشهيرة التى تستحق المشاهدة . وإذا كان آمون قد طفق يصير بسرعة زيوس عند الإغريق ــ وقد مثل على هذا النحو على النقود القديمة فى برقة ــ فلقد احتفظ الأهالى أنفسهم بالتقاليد المصرية . فكان إلههم يشبه آمون المصرى ، وكان يخبر بالغيب بالطريقة التى كانت متبعة فى طيبة . وينتمى معبدا سيوة حقا إلى القرن الرابع قبل الميلاد . وقد شيدهما الزعماء الوطنيون ، وكانوا على ما يبدو يعتبرون الملوك المصريين فى العصر الفارسى ملوكا عليهم [1] ؛ وقد حلى أقدم المعبدين على نحو المعابد المصرية ، ولكن بطريقة سيئة إلى حد كبير . ويشغل آمون وموت وخونسو باعتبارهم آلهة طيبة المكان الأول بين النقوش بطبيعة الحال . أما صور الآلهة الأخرى فيبدو أنها أضيفت دون نظام ثابت . ويرجع المعبد الأحدث عهدا إلى عصر « نقطانب الثانى » ؛ فلم يكن عمره على هذا يزيد على بضع عشرات من سنين عند زيارة الإسكندر . ولقد حفظ لنا فضلا عن ذلك قبر لأحد الكهنة هناك . وهو قبر « الكاهن . كاتب كتاب الإله باتحوت» . الذى كان « عظيما فى بلدته » [2] . وهو من عمل ردىء أيضا . غير أن نقوشه تتضمن فصولا من كتاب الموتى .

على أن الديانة المصرية قد وجدت أرضا شكورة وانتشارا واسعا فى البلاد التى فرضت فيها على قبائل ذات حضارة منحطة ومواهب محدودة جدا ؛ وهى بلاد النوبيين والزنوج . وإذا كان ملوك الدولة الوسطى عند ما غزوا بلاد النوبة قد تركوا

(١) Steindorff, Ae. Z. 69, 17 ff.

(٢) Steindorff, Ae. Z. 61, 94 f.

لما إلهها ددون[1] ، فقد ضموا إليه خنوم، إله الشلالات المصرى . وفى الدولة الحديثة التى فيها امتدّ الغزو كثيرا إلى الجنوب ونظمت بلاد النوبة كولاية تابعة ، تمصرت فيها العبادة أيضا .

وقد شيد تحوتمس الثالث نفسه فى أحد الحصون الذى كان يحمل الاسم الحربى « نحر الشعوب الأجنبية » ، معبدا لآمون رع ، معبود الكرنك ، وقد استحال هذا المعبد فى القرون التالية إلى معبد آخر شبيه بالكرنك [٢] . وكان يقع حيث يبرز فى هضبة النوبة العليا جبل وحيد صعود، كان يسمى « الجبل الطاهر »، ويدعى الآن جبل بركال . وفى هذا المكان نفسه كانت تقع نباتا عاصمة النوبة ومقرّ الملوك الأثيوبيين فيما بعد .



١٤٩ – المعبد الصغير فى أبى سنبل حيث ترى على جانبى الباب تماثيل رمسيس الثانى وزوجه .

وإلى جانب آمون رع انتقل كذلك إلى بلاد النوبة الإلهان المصريان بتاح . ورع حراختى ، وكذلك إيزيس وحاتحور ؛ وقد أضيف إليهم الملوك المصريون كآلهة للبلاد أيضا . ففى سمنة كان على النوبيين أن يعبدوا الملك سيزوستريس الثالث ، وهو

(١) ورد ددون فى متون الأهرام نفسها كجالب البخور : متون الأهرام ٩٩٤ ، ١١٠٧ .

(٢) Reisner, Ae, Z. 69, 35.

الفاتح الأوّل لبلادهم، وكذلك تحوتمس الثالث، الفاتح الجديد؛ وفى صولب فرض أمينوفيس الثالث نفسه إلها، وفى أبى سنبل جلس رمسيس الثانى بجوار الآلهة فى قدس الأقداس فى المعبد الكبير، على حين كانت زوجه تعبد مع الإلهة حاتحور فى المعبد الصغير. وفيما عدا هذا كان من عادة النوبيين كذلك عبادة الأشخاص [1].

وقد شُيد فى هذه البلاد القليلة السكان المعبد تلو المعبد – حتى فى عهد الإلحاد. وفى عهد رمسيس الثانى خاصة شيدت هنا المعابد الكبيرة فى أبى سنبل وجرف حسين وبيت الوالى وغيرها. ولما كان الوادى الضيق لايهيئ مكانا فسيحا لهذه المبانى، فقد اتخذت هنا الوسيلة التى اتبعت فى هذا العهد بالذات فى المقابر الملكية الضخمة. فنحتت المعابد فى باطن الصخر، وبهذا ابتدعت أعمال مدهشة يمكن أن تقارن بالمبانى ذات الشهرة العظمى فى الأراضى المصرية. ومن الواضح أن كهنوت هذه المعابد قد تلقوا أوقافا مناسبة من حقول ودخول – وإن كانت مثل هذه المنح لاتتفق مع فقر البلاد. بل لقد كان يعتمد على هذا القطر الفقير فى النفقة على بعض المعابد التى لم تكن فى بلاد النوبة. فعند ما أقام سيتى الأول لأوزيريس معبده الكبير فى أبيدوس منحه إقليما فى بلاد النوبة. ويدهشنا أن نقرأ المرسوم الملكى الطويل بكافة ما ينذر به فى جزئياته من عقوبات لتأمين الكهنة على دخلهم [2]. ومن اليسير أن نقدر أن هذا التوسع العظيم للديانة المصرية قد خلف تأثيرا دائما على السكان الفقراء فى البلاد الجنوبية. فعند ما انفصم الرباط الذى كان يجمعهم بمصر بعد نهاية الدولة الحديثة كان لابدّ أن تتخلى اللغة المصرية بسرعة عن مكانها للغة الشعبية. غير أن الديانة المصرية بقيت وعظمت قوّتها بين النوبيين والزنوج إلى حدّ تجاوز مدى قوّتها فى وطنها الأصيل. وقد تحققت بين ظهرانى هؤلاء البرابرة على أوسع مدى تلك المملكة المقدسة التى لم يتمكن كهنة طيبة من إقامتها فى مدينتهم الأصلية إلا لأمد قصير (صفحة ٣٥١).

---

(١) وهكذا كانوا يعبدون فى الدولة الحديثة فى دبود «وى» الياور الذى ربما كان ضابطا فى الدولة الوسطى. وقد حدث مايماثل هذا مرة أخرى فى العهد المتأخر، انظر : Brugsch, Thesaurus 1425

(٢) نصب نورى : انظر Griffith, Journ. Egypt. Arch. XIII

وكان الحاكم الحقيقى لبلاد النوبة هو آمون نباتا برأس الكبش [١] . فبوحيه كان الملك يُختار أو يُعزل أو يؤمر بموته [٢] ؛ وبأمره خرج الملك لاستخلاص الأراضى المصرية المقدسة من الأيدى النجسة . ذلك لأن الأثيوبى فى هذا العهد كان يعتبر نفسه الممثل الحقيقى للعقيدة المصرية الصحيحة [٣] ، بينما كان يعتبر المصريين أنفسهم أنجاسا مرتدين. ولما ذهب عظماء المصريين المغلوبين ليقدموا خضوعهم للملك الأثيوبى ، لم يسمح ذلك البربرى إلا لواحد منهم بدخول سرادقه . أما الآخرون فكانوا « غير مختونين ، ويأكلون السمك . وهو رجس عند القصر » [٤] . وكان الملك فى كل مدينة تقهرها له شراذمه المتوحشة ، يزور الآلهة ويهب لها الهدايا . وذلك لأن آلهة مصر كانت آلهته أيضا . وقد حظيت طيبة قبل غيرها بمكان ملحوظ باعتبارها المدينة المقدسة فى نظر الأثيوبيين . وقد ظلت مدة طويلة فى قبضتهم وحكمتها أميرات أثيوبيات بصفتهن زوجات الإله (صفحة ٣٥٦) .

ولما أشرقت أيام أبسماتيك المجيدة على مصر فى القرن السابع وتمّ إجلاء الأثيوبيين عنها ، ارتدّ وادى النيل الأعلى إلى الهمجية القصوى تارة أخرى . والذى يقرأ النصّ الكبير الموجود فى متحف برلين ، حيث يقصّ الملك ناستسن [٥] — الذى اتخذ مروى فيما يبدو حاضرة له فى عهد قمبيز — أعماله العظيمة . فانه لايدرى أيعجب أكثر لبربرية اللغة والكتابة . أم لبربرية ما تحتويه . ولكن هذا الزنجى لصّ البقر . كان قبل كل شىء . رجلا تقيا مؤمنا بالآلهة المصرية . وكان يقدّم إلى الآلهة جزءا وافرا ينتهبه فى غزواته من قبائل الصحراء ، كما كان يدين قبل كل شىء أيضا لآمون نباتا بالجميل ، إذ استدعاه يوما من مروى ونادى به ملكا . وقد أقرّت

---

(١) Erman, Ae. Z. 35, 15.

(٢) Diodor 3, 6.

(٣) تذكرنا وجهة النظر هذه بأن أسرة مانشو فى الصين كانت أشد من غيرها تمسكا بالعقائد الدينية . وكلا الفريقين أنصاف برابرة . وقد كانا يريدان أن يخفيا ذلك بشدة تدينهما
O. Franke. Z. D. M. G. 1923. Neue Folge Bd. 2. S. 11, 12.

(٤) نصب بيعنخى ١٥٠ .

(٥) Diodor 3,6.

الآلهة الأخرى قرار رئيس الآلهة ، حين طفق يزورها فى مدنها عقب اعتلائه العرش.

وفى القرن الثالث قبل الميلاد تفككت حقا عرى مملكة آمون هذه التى قامت بين الزنوج والنوبيين ، وذلك عندما « اقتحم » الملك إرجامينس « ذو الثقافة الإغريقية . بجنوده قدس الأقداس، حيث كانت المقصورة الذهبية . وقتل الكهنة »[1]. ومع ذلك فلم يتغير الطابع الدينى للمملكة الأثيوبية كثيرا . ولم يكن لثقافة الحاكم الإغريقية أىّ تأثير على شعبه . وقد حلت مروى مكان نباتا مدينة مقدسة ، وهى أكثر توغلا فى الداخل . وتقع إلى الشمال قليلا من الخرطوم ؛ وبهذا غدت الآلهة أكثر بربرية وأكثر أفريقية فى طابعها . والذى يرى صور معبدى بجراويه وبنّاجا



١٥٠ – إله مصرى من معبد ناجا وهو يمسك بذراعى ملك وملكة يتعبدان.

وما تمثله من متوحشين فى أكداس من الحلىّ وهم يتعبدون بطريقة الفراعنة لآلهة جافية فى لباس نصف مصرى ، يلاحظ إلى أىّ حدّ من التدهور انحطت هذه السلالة

---

(١) Schaefer, Die aethiopische Koenigsinschrift des Berl. Museum Leipzig 1901.

من الديانة المصرية . وإذا قدّر لنا التوفيق يوما فى فهم نصوص هذه الملكية الأثيوبية المتأخرة ، وهى مكتوبة بلغتها وخطها، فإنه يصعب أن نخرج منها بصورة حسنة عنها.

وكان هؤلاء البرابرة يعاملون أيضا موتاهم وفق التقاليد المصرية ؛ فكانت تقام لهم الشواهد الجنازية وموائد القرابين ، وتبنى للملوك أهرامات بشكل مشوّه غريب . وكما يبدو من صورها كان لأوزيريس وأنوبيس وإيزيس ونفتيس السلطة على الموتى أيضا .



١٥١ – شاهد اثيوبى ، وعليه الميت يتعبد لأوزيريس وإيزيس

وقد عُنى العالم اليونانى الرومانى بهذا الشعب التقىّ فى أقصى الجنوب . وصدّقه عند ما ادّعى أن بلاده هى مصر الحقيقية . وأنه الشعب الذى أخذ عنه سكان مصر دينهم وفنهم وكتابتهم [1] . وعند ما جعل الشاعر الرومانى الناقد السيدة النبيلة تحجّ إلى « حدود مصر » لتجلب من هناك الماء الحقّ لمعبد إيزيس ، فقد استبدل بينابيع إليفانتين . وهى المقصودة بطبيعة الحال . بغير عناء « مروى الدافئة » . التى كانت أكثر استثارة لشوق قرائه [2] .

ونحن لا ندرى مدى ما عاشت الديانة الأثيوبية . ومع ذلك فإنه يظنّ أن الوثنية قد عاشت فى هذا الركن القصىّ من العالم زمنا أطول مما عاشته فى الأمبراطورية الرومانية ، ولو أنه من المعروف أن خصيا للملكة الأثيوبية كنداكى كان من أوائل المؤمنين بالدين المسيحى . على أنه من المقطوع به أن العقيدة الوطنية استمرّت أمدا طويلا فى النوبة الشمالية . التى خضعت لسيادة روما والتى لعبت دورا خاصا فى حياة مصر الدينية إبان العهد المتأخر .

وكانت منطقة الحدود بين بلاد النوبة ومصر مما يلى الشلال الأوّل جنوبا تدين فى بداية الأمر للإله العظيم خنوم . الذى كان يحمى منابع النيل فى إليفانتين . وقد جاء

---

(١) Diodor 3,3.

(٢) Juvenal, 6, 527.

أن الملك زوسر اعتمادا على مشورة الحكيم إمحتب (صفحة ٣٤٦) وهب لهذا الإله منطقة المراحل الاثنتى عشرة على ضفتى النهر بكافة مواردها ومكوسها ، ليُفيض من جديد نيلا غزيرا إلى مصر ، التى كانت إذ ذاك فى السنة السابعة من المجاعة .

وعندما سيطر أوزيريس وإيزيس على قلوب الناس شيئا فشيئا ، بلغ هذان الإلهان أيضا أسمى اعتبار لدى النوبيين ، وطفق معبد إيزيس فى جزيرة فيلة الصغيرة الواقعة عند الطرف الأقصى للشلال ، يبرز أكثر فأكثر على هيكل إليفانتين المجاور . وفى عهد بطليموس فيلادلفوس بدئ بتشييد المعبد الجديد ، الذى كان يعتبر بحالته السليمة وبموضعه فى بيئة مهيبة من أجمل ما عرف زماننا ، ولكن برابرة أوروبا أغرقوه فى خزّان من المياه.

وكان لهذا المعبد الواقع عند حدود البلاد المصرية مركز خاصّ ، لأنه كان يكفل الحاجات الدينية لشعبين فى وقت واحد . وكان سادته هم ملوك الإغريق وأباطرة الرومان ، غير أنه كان يُسمح للأثيوبيين كذلك بدخوله والانتفاع به . وقد شيد فيه الملك الأثيوبى إرجامينس بالاشتراك مع بطليموس فيلوباتور هيكلا لإلهه أرسنوفس . وتدلّ النصوص العديدة باللغة الأثيوبية على مدى ما أبداه أهل الجنوب من حماس فى الحجّ إلى فيلة . وفى هذا المعبد وجدت آلهة البرابرة أيضا مكانها ، ومنها أرسنوفس وإله الشمس مندولس ، وكان محله المقدس فى تاليس ، التى كانت تقع كذلك من داخل منطقة الحدود ، وكان المتعبدون الوطنيون يطلقون عليه فى الأناشيد الإغريقية « الربّ مرسل الأشعة » .

وكان بدو صحراء بلاد النوبة ، البليميون ، يحجون إلى إيزيس فى فيله ، ولم يكن للحكومة الرومانية ، التى سبب لها هؤلاء الرحل كثيرا من المتاعب ، إلا أن تسمح لهم بممارسة عباداتهم فى فيلة . ومع أن المسيحية كان قد كتب لها الفوز فى مصر منذ أمد بعيد ، فقد ظلت عبادة إيزيس فى فيلة حبيبة للنوبيين والبليميين . وعندما عقد القائد مكسيمينوس عام ٤٥٢ ب . م . معاهدة سلام مع الشعبين ، سمحت بيزنطة التقية لأولئك الوثنيين بحرية الحج إلى معابد فيلة ، وأن يستقدموا منها تمثال إيزيس كل عام

للاحتفال به . وبعد قرن كامل ، عند ما انقضت هذه المعاهدة ، أمر جستنيان بإيصاد معبد فيلة كذلك ، وحبس كهنته ، ونقل تماثيل الآلهة إلى القسطنطينية . وهكذا كانت فيلة آخر مركز للديانة المصرية ، وفيها نجد آخر آثارها ، التي خطتها يد مصرى بنصوصها اليونانية والديموتيقية والهيروغليفية المتأخرة . وإننا لنجهل أصحاب هذه النصوص القصيرة المحفورة ، ولكننا لن نبخل بعطفنا على « الكاهن سمت » وعلى « سمتخم » القيم الأول على ملابس الإله ومظهره الخارجي، لأنهما كانا آخر من عرفنا من كهنة الآلهة المصرية .

الفصل الحادى والعشرون

فى العصر اليونانى الرومانى

فى العهود التى سيطر فيها على مصر الملوك الصاويون ثم الفرس وخصومهم الملوك المصريون، ظهر عنصر جديد فى بلاد الشرق، وهو الإغريق . وقد ظهروا جندا مرتزقة فى خدمة أهل الشرق . كما استقرّوا تجارا وصناعا فى مدنهم . وساعدهم جدّهم وكفايتهم فى كل مكان نزلوه على التقدّم . وقد تسرّبوا إلى الشرق فى هدوء . وذلك على نحو ما يحتلونه من جديد فى أيامنا هذه . مشتغلين بالتجارة والربا على كره من الشرقيين . غير أنهم يتصلون بهم بألف وسيلة من وسائل الاتصال التجارى . وقد سمح لهم فى عهد أمازيس بتأسيس مدينة إغريقية فى مصر . وهى نقراطس الغنية الآهلة بكافة القبائل الإغريقية . وعند ما جاء هيرودوت مصر . كان المصريون قد ألفوا تماما رؤية أمثاله من الضيوف . ولا ينبغى أن يُظن أنهم اكتسبوا حقا رضاءهم ، ذلك لأن الإغريقى العادى كان لايشعر بأىّ احترام نحو الشعب القديم ولا لبيئته المقدسة . وكانوا. على نحو ما يفعل الأوروبيون اليوم فى الصين ، يرون لأول وهلة فى كل شئ ما يثير الضحك . فقد سموا مقابر الملوك فى منف الرغيف [1] لما بدا لهم من شكلها . وأسموا مقابر طيبة الناى ؛ أما الأعمدة الحجرية الكبيرة الماثلة أمام المعابد فقد كانت فى نظرهم سفافيد ؛ وكانت حيوانات النيل الضارية تسمى بما تسمى به العظايا فى بلادهم . وقد سموا أقاليم مصر وآثارها بما كان مألوفا لديهم من الأسماء ، وذلك فى الغالب لوجود أىّ وجه شبه مع ما لديهم منها . وبهذا تمثلوا كذلك على ضفاف النيل طروادة . وأبيدوس . وبابيلون . واللابرنت . وأبو الهول . وتمثال ممنون . وكانوا يشعرون بأنهم الشعب الممتاز . وهذه الغطرسة الساذجة هى التى ساعدت فى الواقع على نجاحهم .

---

(١) P. Diels, Ztschr. f. vergl. Sprachwissenschaft 47, 193 ff.

ولما جعلت حملة الإسكندر عام ٣٣٢ من الإغريق سادة للبلاد ، لم يكن منها إلا أن أتمت من الناحية السياسية ما كانت روح الإقدام عند الهيلينيين قد أعدته منذ أمد بعيد . ومنذ ذاك أضحوا الفئة المسيطرة فى مصر ، وغدت الحكومة وجزء من سكان المدن إغريقيا . على أن الغالبية العظمى من الشعب قد ظلوا أوفياء لقوميتهم ، أوفياء قبل كل شيء لعقيدتهم الموروثة عن الأجداد ، وظلوا هم المصريين الأتقياء كما كانوا من قبل . بل لقد اشتدّ تمسكهم بعقيدتهم أكثر مما كان من قبل . ومع أن هذه العقيدة قد تأثرت على مرّ القرون بالروح الإغريقية ، فإنها بقيت فى الحقيقة على ما كانت عليه قبلا ، وبدلا من أن تتقلص وتتقهقر ، أخذت تبرز إلى أمام ، فقد وجدت الآلهة المصرية لها عبادا كذلك من بين السكان الإغريق مع فارق واحد ، وهو أن الإغريق قد تحاشوا بقدر الإمكان استعمال أسمائها البربرية . فعبدوا عن عقيدة بتاح وآمون وحورس وحاتحور ونيت ، ولكنهم آثروا تسميتهم هيفستوس وزيوس وأبوللو وأفروديت وأثينا . وأصبح تحوت يُسمى كذلك هرمس بما يتفق وطبيعته ، كما كان لابد لإله القمر خنسو ، وهو ابن آمون ، أن يسمى تبعا لذلك هرقل . بيد أن هذه التسميات قد ظلت من غير شك تتعلق بالشكل دون الجوهر ، ولم يكن أحد ممن يتعبدون فى معبد الكرنك أو فى معبد صا الحجر يتصوّر آلهة هذين المعبدين فى صورة الأولمبى (زيوس) « وابنته ذات العيون الزرقاء » .

وبلد كمصر فى ذلك العهد ، تحظى الديانة فيه بمركز السيادة ، لايمكن أن يحكم على الدوام ، إلا إذا كانت القوّة الزمنية على وفاق مع الزعماء الروحيين للشعب . ولهذا جعل الملوك الإغريق والأباطرة الرومان « السلطة الدينية » تحت حمايتهم على أن تؤيد من ناحيتها « السلطة الزمنية » . وهذه العلاقة التى استمرّت زهاء الخمسمائة عام ، قد هيأت للعبادة المصرية خاتمة سعيدة ، فقد ظلت باقية فى معابدها حتى النهاية يحفها الجلال والعظمة ، وظلت الحكومة تحميها حتى فى الوقت الذى بدأ فيه أهلها أنفسهم يهجرونها . ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن القوّتين ، اللتين عرفتا كيف تعيشان معا ، لم يحدث بينهما كذلك كفاح خفى دائم ، فقد كان هناك نزاع بشأن ما يسمى حقّ حماية اللاجئين ، إذ كان الكهنة فى مصر وكذلك فى البلاد الأخرى من العالم المعروف إذ ذاك يعتقدون أنه ليست هناك سلطة فى المكان المقدّس لأىّ إله غير

سلطة هـذا الإله نفسه ، ولم يكن للحكومة قول نافذ فيـه ، فإذا ما التجأ مذنب أو مدين إلى المعبد أصبح تحت حماية الإله . وبهذا لم تكن تصل إليه أيدى رجال الإدارة ، وذلك طبقا لوجهة نظر الكهنة على الأقلّ . وكان هذا الحقّ يثير بطبيعة الحال خلافات دائمة ، ومع ذلك فلم تكن الحكومة لتجسر على أن تنكره إنكارا تاما ، وإنما كانت تجتهد فى الحدّ منه فقط . وكان الملك يمنح هذا الحقّ بأسلوب صريح معابد معينة ، كانت تمارسه فى حدود دائرتها الضيقة ، أى فى نفس بناء المعبد وفى محيطه المباشر . وكانت تقوم على حدود هذه الحكومة الحرّة أساطين كان يمكن أن يقرأ عليها المرسوم الملكى الذى كان يعترف للإله بهذه الحكومة الحرّة [1] .

وكان النزاع حول ثروة الآلهة أشدّ من النزاع المستمرّ حول حماية اللاجئين ، لأن الحكومة كانت تودّ بداهة أن تسيطر عليها ، وأن تكفل فى مقابل ذلك للكهنة دخولا وفق ما تشاء هى . وقد وفق فى هذا إلى حدّ ما الملوك الأول الأقوياء فى البيت البطلمى ، فقد خفّضوا الضرائب والعوائد التى كانت المعابد تتسلمها ، واحتفظوا لأنفسهم بحقّ التصرّف النهائى فى ممتلكاتها العقارية ، بحيث أضحى الكهنة فى واقع الأمر تحت رحمة الحاكم [2] . غير أن قوّة الكهنة وثروتهم فيما أعقب ذلك من اضطرابات قد طفقت تنمو من جديد ، حتى قضى أغسطس على هذه الدولة التى فى داخل الدولة ، وبهذا لم يكن الكهنة فى ظلّ الإمبراطورية الرومانية سوى موظفين تحميهم الحكومة ، وكان كبار رجال الدين دون البيروقراطية الرومانية . ولكننا — تارة أخرى — لانجد أثرا صريحا لهذه المنازعات إلا فى الأوراق البردية الإغريقية ، أما الآثار الرسمية فإنها تبهجنا بما تدلّ عليه من ولاء للكهنة وشعور التقوى عند الملوك .

أجل لقد عُبد الملوك الإغريق مع الآلهة المصرية ، فقد غدا الإسكندر الأكبر الإله الرسمى للمملكة ، كما مُجدّت كآلهة الخلفاء اللاحقون من الملوك والملكات والأباطرة الرومان — على أن هؤلاء الملوك لم يكونوا بطبيعة الحال آلهة للأفراد من

---

(١) انظر ما كتب بإسهاب فى : Schubart, Aegypten, S. 301 ff.

(٢) Schubart, Papyruskunde, S. 346, 347.

الشعب – وإنما كانوا آلهة الحكومة ، وربما كان أهمّ شيء فى هذا كله هو أنه قد غدا فى إمكان الكهنة أن يضيفوا إلى سائر ألقابهم الأخرى لقب كهنة « الآلهة المحبة لأخوانها » أو كهنة « الآلهة الخيرة » [1] .

ولم تعوز الملوك المناسبات التى يدللون فيها على حسن شعورهم نحو المعابد . فقد عثر البطالمة الثلاثة الأوائل فى حملاتهم الأسيوية على تماثيل الآلهة وأدوات المعابد والكتب التى اغتصبت من المعابد فى العهد الفارسى ، وقد أبهجهم أنهم استطاعوا « أن يعيدوها إلى المعابد التى سلبت منها » [2] . وكان للمعابد ادعاءات قديمة على قطع من الأرض . فقامت تطالب بها . فقد أهدى مثلا الملك خبّاش ، أحد الملوك المناهضين للحكم الفارسى فى مصر ، لمعبد بوتو منطقة كاملة قريبة منه . ولكن اكسركسيس ، بعد أن غلبه على أمره ، ألغى هبة هذا الثائر . وقد انتقمت آلهة بوتو من اكسركسيس وهيأت له ولابنه خاتمة مشينة ، ولكنها لم تعوّض أبدا عما سلبه منها عند ما أبطل هبة خبّاش . ففرض كهنة بوتو أمرهم على أول البطالمة ، وقد وجد هذا الإغريقى الماهر أن من المفيد أن يجيب رجاءهم .

ومما خلفه الملوك المناهضون للحكم الفارسى كذلك من واجبات أخرى من هذا القبيل إتمام المعابد التى بدأوا بناءها ولم يتموها . فقد شيد نخت حرحب (نقطانب الأول) مبنى ضخما من الجرانيت فى بهبيت فى الدلتا لإيزيس . ولكنه لم يتمه . فتعهده بطليموس الثانى وأتمه . وإذا كان الملوك قد ساعدوا أحد الآلهة على هذا النحو . فهل كان لهم أن يغضوا النظر عن رغبات إله آخر لم تكن مكانته تقلّ عنه . وكانت مقصورته فى حاجة سريعة إلى بناء جديد ؟ وهكذا ابتدأ ببداية العصر البطلمى

---

(١) عدا هذا لقد كان لعبادة الملوك هذه ناحيتها العملية أيضا ولكن لمصلحة الملوك أنفسهم . فقد كانوا يستطيعون أن يبرروا استيلاءهم فى بعض الأحيان على ثروة المعابد ، إذ كانت من الثروات التى لهم فيها كآلهة نصيب .

(٢) Kanopus 10 : 5; Pithomstele Ae. Z. 32, 74 ff. كان من الأفكار الثابتة فى مصر فى العهد المتأخر أن البرابرة يسرقون الكتب ؛ انظر Nesiamsu 109 حيث صبت اللعنة على الزنوج والأثيوبيين والسوريين الذين يفعلون ذلك .

عهد جديد عظيم فى بناء المعابد امتدّ حتى العصر الرومانى ، ولا تزال منشآته العظيمة تطالعنا اليوم فى كل مكان فى مصر . فمن بين ما أنشئ فى عهود الحكام الإغريق والرومان نكتفى بذكر معابد دندرة وإدفو وكوم امبو وفيلة ، وإن كان إنشاؤها قد استغرق أزمانا طوالا . فمعبد إدفو بنى فى فترات متقطعة فى الفترة من ٢٣٧ إلى ٥٧ قبل الميلاد ؛ واستغرق بناء كل من معبدى دندرة وكوم امبو حوالى قرنا من الزمان ؛ وابتدأ العمل فى معبد فيلة فى عهد بطليموس الثانى ، وكانت بعض الأعمال لاتزال تجرى فيه فى عهد ماركس أورليوس . وفى عهد الإمبراطور دكيوس كان البناء لايزال يجرى فى معبد إسنا . ومن الطبيعى أن بعض ما كان يلزم من أموال للبناء كان من الخزائن الملكية ، على أنه من الثابت كذلك أنه كثيرا ما كانت الإنشاءات ، التى يُبدأ بها بفضل هبة ملكية ، يستمرّ العمل فيها على حساب موارد المعبد الخاصة[١] . ولكن إذا كان قد أمكن استخدام ثروة الإله لهذا الغرض ، فقد كان الفضل فى ذلك للملك . ولهذا كان الأمر أكثر من مجرّد صيغة عند ما كان الملوك الإغريق والأباطرة الرومان يُذكرون كبناة للمعابد ، وعند ما كانوا يمثلون فيها كمتعبدين بررة ، يقدّمون القربان متضرّعين عابدين . وسواء كانوا لايعبأون شخصيا بالتمساح ، إله أمبوس ، أو بإلهة دندرة ذات قرنى البقرة ، أو كانوا يعتبرونهما من الخرّق ، فقد كانوا مع ذلك هم الذين يعملون على أن يظلّ هذان الإلهان فى بهاء وعظمة .

ويتيح لنا النظر فى هذه العلاقة بين الحاكم ورجال الدين نصب كبير أقامه كهنة مدينة منديس بالدلتا تكريما لبطليموس الثانى . فهم يمدحونه بأنه زار معبدهم عقب توليه العرش مباشرة ، وبهذا كان كبشهم أوّل حيوان مقدّس مجدّه جلالته . وقد سيّر سفينة هذا الإله على المياه الخاصة بمعبده « كما فعل الملوك من قبله ، وأدّى له جميع مناسك الزيارة ، كما هى مسجلة كتابة » . وقد رأى فى نفس الوقت أن العمل يجرى لإصلاح الأضرار « التى كان البرابرة العجزة قد ألحقوها به » ، فأمر فى الحال

---

(١) وكانت الجمعيات الخاصة التقية تساهم كذلك فى بعض الأحيان فى بناء المعابد ، ومن أمثلة ذلك جمعية حاعور فى إدفو ، وجمعية حار-سمتوس فى دندره — وكلاهما فى عهد أغسطس .
(Spiegelberg Ae. Z. 50, 36 ff.)

أن يكمل بناء المعبد . « ثم عاد جلالته إلى مقرّ ملكه يملؤه الحبور بما أسلف من عمل لآبائه ، كباش منديس العظام الأحياء » . وإذ توفيت الملكة أرسينوى فى السنة الخامسة عشرة من حكمه، وقد كانت أيضا كاهنة الكبش المقدّس ،أقيمت لها فى منديس حفلة جنازية ، فيها « هلل الإنسان وأيقظت روحها للحياة إلى جانب الكباش الأحياء ، كما يحدث لأرواح كافة الآلهة والآلهات منذ البداية حتى اليوم الحاضر » ؛ وذلك لأن منديس « هى مدينتهم التى يستعيدون فيها شبابهم . وقد أمر جلالته بإقامة تمثال لها فى سائر المعابد ، مما أرضى كهنتها » . أما فى منديس فقد أخرج تمثالها مع الكباش المقدسة فى حفل ، وسمى « أرسينوى فيلادلفوس حبيبة الكبش » . وقد مُنح معبد منديس كذلك منناً حقيقية ، فأعفيت مقاطعة منديس من ضريبة المعابر التى كانت تجبى فى كل مكان آخر فى البلاد ، وذلك لأن الكهنة « قالوا لجلالته ، إنهم لم يدفعوا ضريبة حتى ذلك الوقت، وأن كل مايدخل مدينتهم أو يخرج منها إنما يخصّ إلههم » ، وأن رع إنما خلق البلاد لتموين إلههم . وإذ كان واجبا فى أىّ مكان آخر توريد جزء من جملة موارد المقاطعة إلى خزانة الملك ، فقد سمح الملك بألا يحصّل هذا الجزء من مقاطعة منديس ، إذ ادّعى الكهنة أن تحوت نفسه أصدر مرسوما لملوك المستقبل ، بأن يعملوا على توفير القرابين «للكبش الحىّ» ، «فإذا ما أنقص من هذه القرابين فستنشأ بين الناس مصائب لا آخر لها » .



١٥٢ – بطليموس فيلادلفوس وأرسينوس وأحد الأمراء يتعبدون كبش منديس (نصب منديس).

وفى السنة الحادية والعشرين من حكمه تمّ بناء المعبد ، وقد احتفلت البلاد بأكملها

بتدشينه ، وأناب الملك ابنه عنه فى هذا الحفل . وبعد الاحتفال سار الكهنة من وراء رجال البلاد إلى مقرّ الملك يحملون باقات الورود والدهون ليدخلوا السرور على قلب الملك ؛ « فتضمخ جلالته بالمرّ » ، وتشبعت ملابسه بالعطر ، « وأمر جلالته بأن يحمل بعضه إلى القصر ، وحذا حذوه كافة الأمراء » . وأخيرا جدّ فى عهد هذا الملك حادث آخر سعيد من أجل منديس : فقد اهتُدى إلى كبش مقدّس جديد . وقد أُعلن هذا الخبر للملك ، ليستدعى جماعة الحكماء لفحصه ؛ فاستدعاها من كافة معابد مصر ، ونظرت فى الكبش ووجدت أن شكله يطابق ما ورد فى الكتابات القديمة . وقد لقب : « روح أوزيريس الحية »، وذلك كما جرت العادة منذ عهد الأجداد . ولما أخطر الملك بهذا ، أمر بأن يوضع الكبش الجديد على عرشه ، وأن يقام احتفال عظيم « لملك حيوانات مصر »، حظى فيه تمثال أرسينوى بشرف مصاحبة تمثال الكبش .

وبينما تشيد النصب التى من هذا النوع بما قام به الملوك للآلهة من أعمال، فإن هناك نصبا أخرى تبين لنا كيف كان الكهنة يصوغون شكرهم . ففى مناسبات خاصة كان الكهنوت أجمع يجتمعون فى مصر فى مجمع حافل فى أحد المعابد ، ويقرّرون مايودّون أن يخصوا به الملوك من تكريم غير عادى . هذا إلى جانب ما كانوا يولونهم من شرف عظيم : فقد كانوا يعترفون بهم فى حياتهم آلهة ، أو بعبارة أخرى « آلهة محبة لإخوتها » أو « آلهة تعمل الخير »، على نحو ما كانت تقتضيه عادة البلاط الهيلينى . فمثلا عند ما كان الكهنة فى الإسكندرية عام ٢٣٨ ق . م. بمناسبة عيد ميلاد الملك، فقد اجتمعوا فى كانوب، المدينة المجاورة ، للنظر فى جملة ما قدمه « الإلهان المحسنان »، بطليموس الثالث وزوجته ، من أعمال للمعابد . « فهما قد أحسنا للمعابد فى البلاد ، وزادا كثيرا فى إجلال الآلهة ، وأوليا أبيس ومنيفس وسائر الحيوانات المقدسة الجليلة (على أن منها كذلك حيوانات غير جليلة) اهتمامهما بكل وسيلة ، وفى إسراف وبذخ كبير » . وقد استرجع الملك فى حملاته الحربية « التماثيل المقدسة ، التى اغتصبها الفرس »، وردّها إلى المعابد . وأخيرا لقد وفر لسكان البلاد السلام، ووقاهم العوز فى سغب المجاعة . ولهذا كان ينبغى أن تزاد مظاهر تكريم الملوك فى المعابد ،« وينبغى

كذلك أن يسمى كهنة كافة معابد البلاد « كهنة الإلهين المحسنين » ، وأن يسجل ذلك هكذا فى سائر الكتابات ، وأن ينقش على الأختام التى يحملونها أنهم « كهنة الإلهين المحسنين » . ويجب أيضا أن يضاف إلى الطوائف الأربعة ، التى يتألف منها الكهنوت المصرى وفق التقاليد القديمة ، طائفة خامسة من كافة الأشخاص الذين أصبحوا كهنة فى عهد هذا الملك ومن أعقابهم ، كما ينبغى أن تسمى هذه الطائفة باسم « الإلهين المحسنين » . وإلى الأعياد الشهرية الثلاثة ، التى قررت من قبل للإلهين المحسنين ، ينبغى أن يضاف عيد كبير فى كل سنة يحتفل به فى المعابد وفى البلاد كافة، وذلك فى رأس السنة من السنة القديمة . ولكى تقع دائما فى هذا اليوم من التقويم الأعياد الأخرى كما فى هذه السنة التى تقرّر فيها هذا العيد ، ينبغى أن يعدل التقويم ويجعل ثابتا . ولما كانت الأميرة برنيكى الصغيرة قد توفيت أثناء هذا المؤتمر ، فينبغى أن يقام لهذه الإلهة الجديدة تمثال فى معبد كانوب إلى جانب تمثال أوزيريس . وإذ كانت قد توفيت فى شهر طوبة . وهو نفس الشهر الذى فارقت فيه ابنة رع الحياة (صفحه ٧٨) . والذى كان يحتفل لها فيه فى معظم المعابد بموكب كبير ، فإنه ينبغى أن تكرم برنيكى كذلك ، على نحو تكريم هذه الإلهة ، بموكب حافل فى جملة المعابد فى طوبة . وينبغى أن يكون لها تمثال من الذهب مرصع بالأحجار فى المعابد الكبيرة . وأن يطاف به فى الأعياد مع سائر تماثيل الآلهة ؛ وينبغى أن يكون لها تاج من سنبلتين وحبة وساق بردى تلتفّ من حوله أفعى . وينبغى أن تقدم بنات الكهنة وغيرهنّ من الفتيات القرابين لتمثال آخر لبرنيكى فى عيد أوزيريس فى شهر كيهك ؛ وينبغى أن تنظم لعيدها الأناشيد وتسجل فى الكتب المقدسة . وينبغى أن يخلد هذا كله وكثير غيره فى كتابة من ثلاثة خطوط باللغة القديمة ، واللغة الشعبية، والإغريقية .

ولنا أن نتساءل عما كان يجول بخاطر الملك الإغريقى من أفكار ، وهو يتقبل مثل هذا القرار من أيدى الكهنة شاكرا . وعما كان يعتور العناصر المؤمنة من رجال الكهنوت من مشاعر وهم يتفكرون فى أن هذين « الإلهين المحسنين » ورجالهما العظماء ليسوا إلا من كانوا يُدعون من قبل « البرابرة البائسين » . حقا لقد كانت حالة غير طبيعية أن يبدو أكثر حكام ذلك الوقت استنارة أصدقاء للكباش والثيران المقدسة، وأن تكرم

أقدم هيئة دينية فى العالم ملوك شعب أجنبي أكثر مما كرّمت الملوك الوطنيين . لقد تنازل كلا الفريقين عن كثير من آرائهما ، ولكن كان لكل منهما ما يفيده من ذلك .

وكانت السلطة، التي حظى بها الكهنة لدى الشعب ، تعتمد فى جوهرها على أنهم كانوا يُعتبرون حماة الأشياء المقدسة القديمة . ولهذا لم يكن لهم أن يسمحوا بإدخال أىّ تغيير ، وخاصة على المظاهر الشكلية للديانة بنوع خاصّ ، وهى التى كان الشعب يراها ؛ وإذا كان العهد الجديد قد أشاع فى مصر الطراز الإغريقيّ للبناء ، فما كان ينبغى لهذا الطراز أن يجد سبيله إلى ما يستجدّ من عمارة المعابد . وقد ظلّ الكهنة يشيدون المعابد على نحو ما تصوّروا من تخطيطها فى الزمن السحيق . فكان يجب « أن يكون ارتفاعها جميلا ، وعرضها صحيحا . وأن تقدر فى مجموعها على أساس صحيح من جهاتها الأربع طبقا لحكمة تحوت ، ووفقا لما هو ثابت فى الكتابات المقدسة » [١] . وقد أنشئ معبد دندرة وفق تخطيط من عهد خوفو ، وجاء أن امحوتب المؤله (صفحة ٢٧٨) هو الذى خطط بنفسه معبد إدفو . على أن هذه المبانى الجديدة تتميز عن المعابد القديمة حقا بأنها بنيت بأكملها وفق فكرة واحدة ، على حين تتمثل عادة فى المعابد القديمة تصميمات قرون مختلفة . وهذا الفارق هو نفسه الذى يميز فى الوقت الحاضر بين كاتدرائية حديثة عن أخرى من العصور الوسطى . ويمكن من الناحية الفنية أن يجد المرء هنا كما يجد هناك نفس العيوب فى المبانى التقليدية الحديثة ، وهى المغالاة فى الأشكال والزخارف الباهظة .

أما المناظر التى تزين الجدران ، فهى فى موضوعاتها نفس مناظر المعابد القديمة ، فهنا على نحو ما هناك ، نرى الملك يقدّم للإله النبيذ والجعة والخبز ، أو يذبح له الأضحية ، أو يحمل إليه من الهدايا ناووسا ، وحليا وشخاليل وغير ذلك . ولكن المناظر هنا أكثر استطالة وتنوّعا منها فى المعابد القديمة . ومن خلف الملك تقف آلهة أخرى ، وتصاحب المناظر نصوص ضمنت طرائف شتى ينبغى ألا تهمل . من ذلك مثلا أن الملك عندما يقدّم تقدمة من قلائد أو مرايا أو « شخاليل » ، فإن النص ينعته بأنه « ابن » أو « وارث الإله بتاح » ؛ وذلك لأن هذا الإله هو الفنان بين

---

(١) Duemichen, Resultate 38 - 41.

الآلهة ، وهو الذى يعرف كيف يصنع الأشياء الجميلة بما يشبه ما يقدّمه الملك . وإذا قدم الملك جعة ، فانه يفعل هذا باعتباره « ابن منكت » ، إلهة الجعة .

وهذه إنما هى كنايات دقيقة ، كان يعجب بها كهنة هذه المعابد . ولم تكن هذه الكنايات تنسى عند ذبح الأضاحى ، فجزّار المعبد يسمى « الشجاع ذو السكاكين الكثيرة . . . العظيم فى المذبحة ، البطل المغوار بين الأشرار »[1] ، كأنه كان محاربا فتاكا وسط الأعداء ، فى حين أن هؤلاء الأعداء إنما هم فى حقيقة الأمر تلك الحيوانات الوديعة التى يطعنها ويقطع أوصالها .

بيد أن هناك ما هو أهمّ من هذه الكنايات . حقا إن من يجيل بصره فى كتابات أحد معابد الدولة الحديثة ، وليكن أبيدوس ، وينظر بدقة فى جملة المناظر ، فإنه لن يستخلص من هذا كله سوى الطفيف جدا من الحقائق الواقعية ، وهى : أسماء ما يعبد من الآلهة ، وبعض الشعائر ، وقائمة بالقرابين ، ثم فى أحسن الظروف ، نصّ أحد الطقوس . أما ما عدا هذا مما كان يجرى فى المعابد ولا بد أن كانت تجرى فى مثل هذه المنشآت أشياء كثيرة ، فقد حجب عنا ، أو بالأحرى لم يذكر لأنه كان يعتبر شيئا واضحا أو غير ذى بال . أما فى هذا العهد المتأخر فقد كان الأمر مختلفا ، إذ لم يعد هذا العهد يتبين كيف يجهِّز البخور للإله . وذلك لأن أحدا من تجار التوابل خارج المنطقة المقدسة لم يعد يجهزه – بالتأكيد – على النحو المطلوب. وإذ كانت الأعداء تسمى فى المعبد « الأقواس التسعة » ، فقد كان يجب أن يتعلم الإنسان أولا أىّ الشعوب المقصودة ، وذلك لأن أحدا لم يكن يتحدّث إلا عن الإغريق والرومان والسوريين والفرس فى ذلك العالم . وكان يجب أن يتعلم المرء أىّ الكتب تودع فى المكتبة ، وأىّ تماثيل الآلهة يمتلكها المعبد ، وكيف تسمى الساعات والأيام وفق العادات القديمة ، وأىّ الأحداث فى زمن الآلهة أعطى اسمه لما فى داخل المعبد وخارجه من أشياء . وكان يجب كذلك أن تعرف جميع الأعياد الكبرى وكافة تفاصيل العبادة ، ومتى يصعد المرء هذا الدرج ، ومن يجتاز ذلك الباب ، وفى أىّ

---

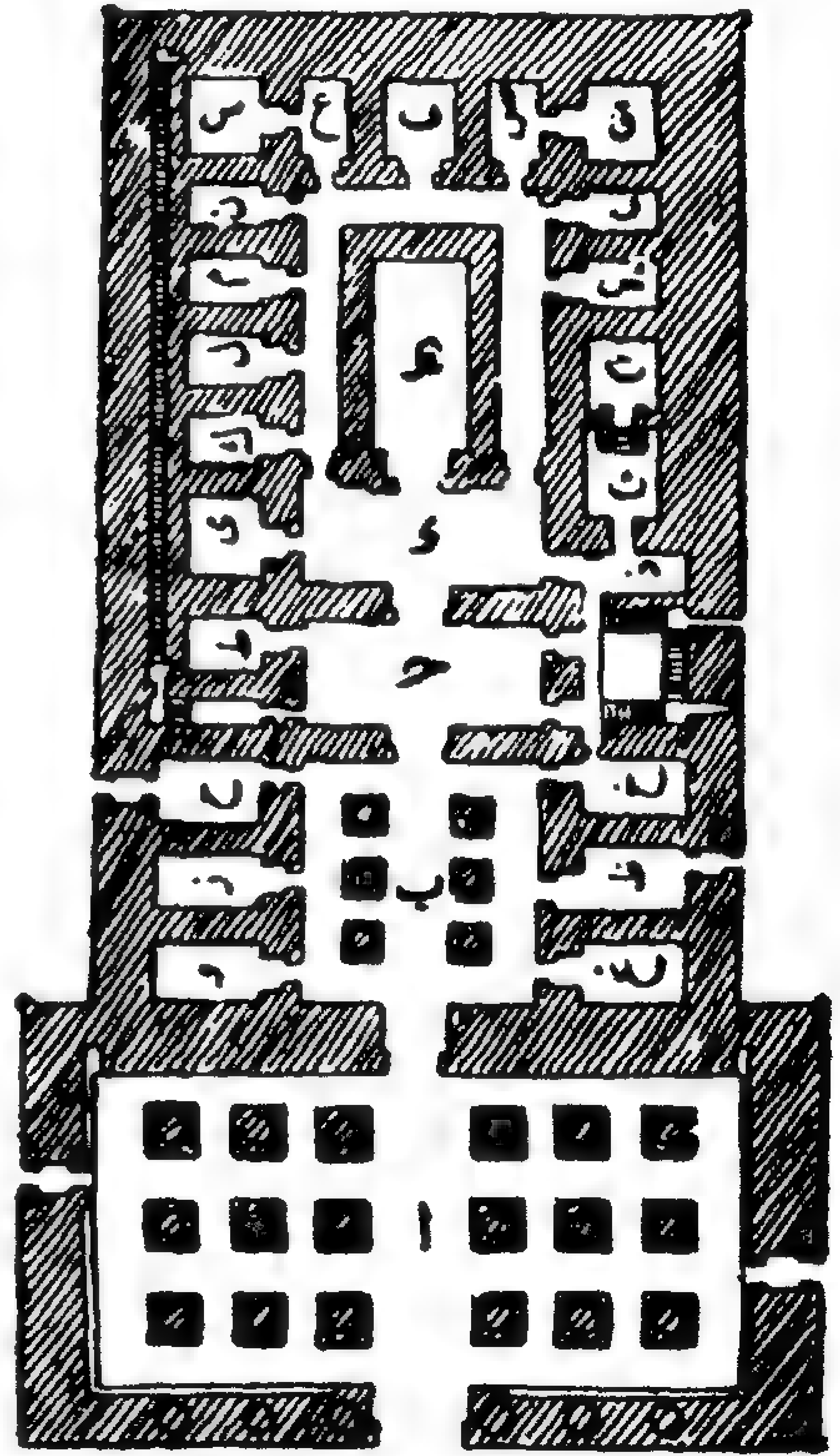
(١) Mariette, Denderah II, 16.

المواضع ينبغى أن يقف الموكب ؛ كما كان يجب أن يعرف أيضا جميع ما ينشد من أغان وما يتلى من صيغ . ولعلّ هذا كله كان مما لايؤبه له فى البداية ، غير أن القرون أضفت عليه قداسة كبيرة ، حتى إنه لم يعد ينبغى لأخلاف الكهنوت أن يحيدوا عنه حتى فى أبسط الأشياء . ولم يكن يكفى أن يعهد به إلى قرطاس هش من البردى ، وإنما كان لابد أن ينقش فى الحجر ليبقى إلى آخر الدهر . ولهذا تغطى جدران المعابد البطلمية نصوص تنبئنا بكل ما كان الكهنة أنفسهم يعرفون ، مما يتصل بالمسائل المقدسة أو المسائل العملية ، سواء كان من الأمور الهامة ، أو مما ليس بذى بال ، مما يؤلف مكتبة منقوشة بكل ما يتعلق بالمعبد . ولم يكن الكهنة ليخشوا أن يقرأ العلمانيون هذه الأسرار العظيمة ، ذلك أنهم استبدلوا بالهيروغليفية القديمة نوعا جديدا من الكتابة تحكموا فيها وفق هواهم ، حتى إنه كان لايمكن أن يقرأها إلا من درّب عليها . وفضلا عن ذلك لم يكن أحد غيرهم يستطيع أن يفهم اللغة التى كانوا بها يكتبون حتّى فهمها ، وذلك لأنهم هذّبوا لغة الكتابة القديمة التى كانت لآبائهم ، بما يدلّ على سعة اطلاع لاحدّ له . فقد جمعوا تعبيراتهم من آداب ثلاثة آلاف سنة ، وكانوا فى كتاباتهم كلفين باستخدام هذه التعبيرات التى لم يعد أحد يعرفها . وإنه لمن الممتع أنهم كانوا يكتبون نصا واحدا عشر مرّات جنبا إلى جنب ، مستخدمين فى ذلك تعبيرات مختلفة فى كل مرّة . وتتجلى سعة الاطلاع هذه فى شىء آخر اشتقوه من كتابات أجدادهم . فقد كان يقال مثلا عن حاتحور « إنها تملأ القصر جمالا »[1] ، وذلك تعبير جميل من غير شكّ ، غير أنه للأسف لايتفق مع هذه الإلهة بنوع خاصّ ، وإنما يتفق مع الملكة على الأرض التى تعيش فى القصر . وكذلك أصبحت تستخدم كافة التعبيرات التى كان يشاد بها بأعمال الملك وبأسه . فنى إدفو ودندرة نقرأ أن الأعداء جميعا قد أسلموا القياد ، وأن الشعوب كافة تحمل ذخائرها إلى الملك ، وأن البرابرة بأسرهم تحت قدميه . غير أن الملك الذى يشاد به على هذا النحو هو فى بعض الأحيان حاكم إغريقى أو رومانى ، ممن لاينطبق عليه هذا إلا قليلا ، أما إله المعبد ، فهو عادة الذى تلقى إرث الفراعنة القدامى .

---

(١) Mar. Denderah II, 74 b.

أما كيف كان يخطط أحد هذه المعابد ، فخليق أن يشرح ذلك معبد دندرة للإلهة حاتحور « العظيمة ، سيدة دندرة ، عين الشمس ، سيدة السماء ، سيدة الآلهة كافة ، إبنة رع ، التى لا شبيه لها » . وقد كانت إلهة فرحة جذلانة ، فهى « ربة الابتهاج ، وسيدة الرقص ، وربة الموسيقى ، وسيدة الغناء ، وربة الوثب ، وسيدة ضفر التيجان »[1]. وكان الشعب بأسره يحبها ووليدها الصغير ، إيحى « ملك الأطفال »[2] . وعند ما كان تمثالها ينقل إلى المعبد ، كان الشبان يغنون « عند زوايا الطرق ، وأيديهم مليئة بالأزهار ، يمهدون لها السبيل »[3] . ولم يتمّ بناء معبدها الذى كان يوصف بأنه « مقرّ النشوة » ، ومكان « الحياة الراضية » وغير ذلك من نعوت لا تحصى ، فهو ينقصه صرح المدخل والفناء الكبير ؛ وكان يقوم مقام هذا الأخير ميدان طليق أمام المعبد ، كانت الجماهير تتجمع فيه فى الأعياد الكبيرة . أما ضيوف الأعياد الممتازون من أصحاب الحظوة فكان مكانهم فى البهو الأمامى الكبير (ا فى التخطيط المجاور) الذى يبدأ به المعبد الآن ، والذى يقوم فيه أربعة وعشرون أسطونا يتوجها وجه حاتحور تبتسم لنا[4] .



١٥٣ – تخطيط معبد دندره .

وإذا كان البهو الأمامى معبدا لأوساط الناس ، فإننا فى البهو الكبير التالى (ب) ، « بهو التجلى » . ندخل قاعات العبادة الحقيقية . ففيه كانت مواكب « الأعياد الجميلة تأخذ مكانها ، على حين كانت القاعة التالية (ج) « مقصورة القربان » لمثل تلك الأيام ، حيث كان « الإله يقاد إلى أقواته » . ويؤدى بنا الباب التالى إلى القاعة الوسطى (د) ؛ وكانت

(١) نفس المرجع ٤٥ ، ٤ .
(٢) Mammisi d'Edfou. 87.
(٣) Duem. Baugesch. 39.
(٤) كل ما يلى هو وفق ما تفضل فأخبرنى به د . يونكر

بمثابة ردهة تبدأ منها المواكب ، وهو ما تدلّ عليه المناظر والمتون على جدرانها ، وفيها نرى حملة الألوية ، الذين يتقدّمون الآلهة عندما تغادر مسكنها فى الأعياد . ومقصورة الأعياد هذه (هـ) ، أو « الكرسى العظيم » ، هى قاعة مظلمة محاطة بجدار ، تتسع للنواويس وما يمكن حمله من زوارق الآلهة المختلفة ، والكاهن الذى يؤدى قبالتها مراسم الطقوس، على نحو ما تصوّره المناظر على الجدران . ومن خلف هذه القاعة يقع قدس الأقداس الحقيقى (ف) ، الذى كان يضمّ التمثال الرئيسى لحاتحور ، الذى كانت تقدّم له فروض العبادة فى كل يوم ؛ وكان يحمل اسم « البيت العظيم » . وهو إحدى غرفات صفّ طويل من الغرف تحفّ بالقاعات الداخلية للمعبد من جانبيها . فعلى يسار « بهو التجلى » الغرفة المعدة لطبخ الدهون والعطور (و) وغرفة الزهور (ز) . والغرفة التى كان يجلب إليها القربان بعد أن تكون حاتحور قد تمتعت به (ح) ؛ وفيها باب يؤدى إلى خارجها. ولعله كان يصل بينها وبين أهراء الغلال الواقعة من ورائها . وإلى اليمين بضعة غرف منها خزانة المعبد (غ) ، وغرفة الماء (ظ). التى كان يؤدى بابها الخارجى إلى البئر . وكانت الغرفة ط على صلة على نحو ما بقرابين « مقصورة القربان » الواقعة بجانبها ، بينما كانت توضع فى الغرفة ى ملابس الآلهة والدهون اللازمة لزينتها . أما غرف الجزء الخلفى من المعبد فأغلبها أماكن مقدسة . فالغرفة ل هى المكان الذى ولدت فيه الإلهة من أمها ؛ ولهذا تمثل مناظر جدرانها الملك وهو يقدّم لحاتحور العطايا التى يحتاج إليها طفل إلهى ، وهى لبن وكتان . والحجرتان م ، ن هما مقصورتا أوزيريس سوكاريس وحورس « موحد القطرين » . والغرفة ق هى مقرّ رع . أما الغرفتان المجاورتان لقدس الأقداس الثانى فهما تابعتان له ، ففى ع كان يطهر تمثال الإله بالماء ، وفى ص ، وهى « بيت النار » ، كان يحرق البخور والقربان . وبالقرب منهما الغرفتان س ، ر ، وكانت تحفظ فيهما آلات الموسيقى اللازمة للعبادة من شخاليل وعقود كبيرة ، كان يصلصل بها فى الرقص . وأخيرا تبدو الغرف ت ، ث ، ذ كأنها تؤلف هيكلا خاصا . إذ كانت المكان الذى يحتفل فيه بالأعياد الكبرى بمناسبة تغيير السنة ، فكان يحتفل فيها بما يسمى « يوم الطفل » فى العش ، وهو اليوم الذى ولدت فيه حاتحور ، وبالسنة

الجديدة وبأعياد أخرى كثيرة . وهى تتكوّن من معبد صغير مرتفع ، كانت الإلهة تجلس فيه على العرش وتدثّر وتدهن ، ومن فناء كانت تقدّم لها فيه القرابين ، ثم من غرفة أمامية ، كانت تحفظ فيها الأشياء الثمينة اللازمة لهذا العيد .

وللمعبد درجان يؤدّيان إلى سطحه ، أحدهما طويل وكان يستخدم فى مواكب الأعياد للصعود بتمثال الإلهة إلى السطح فى احتفال بهيج . وكان على السطح نفسه معبد خاصّ صغير لأوزيريس ، لم يكن يصحّ أن يخلو من مثله معبد كبير فى ذلك العصر ، وذلك لأن إلهه قد أصبح منذ زمن بعيد أقرب الآلهة جميعا إلى قلوب المصريين . وفى هذا المكان ، كان يجرى أداء ما يسمى بالأسرار الخفية ، التى سنتناولها بالكلام فيما بعد ؛ وليس من شك فى أن هذه الغرف التى نطؤها بأقدامنا الدنسة فوق سطح المعبد ، كانت تحوطها بغير شكّ أعمق الأسرار . ومع هذا فهناك أماكن أخرى يمكننا أن ندخلها فى الوقت الحاضر ، وقد كانت أشدّ خفاء وغموضا فجدران المعبد القوية تخفى فى باطنها دهاليز سرية ضيقة ، لم يكن يتيسر لأحد أن يتوهم وجودها فى الخارج ؛ فى هذه الأماكن الخفية « التى لايعرف أجنبىّ محتوياتها . والتى تخفى أبوابها »[1] ، كانت تودع تماثيل الآلهة والأدوات المقدسة ، التى لم يكن يحتاج إليها فى العبادة . ولعلّ النذور الوافرة قد وجدت فيها مكانا أيضا ، تلك النذور التى كان الأتقياء يهبونها للمعبد ، والتى كان من المستحيل إقامتها فيه جميعا . أما إذا كان هناك عدد أكثر من اللازم من هذه التماثيل البرنزية الصغيرة ، فقد كانت تدفن ببساطة فى مكان ما فى أرض المعبد المقدسة[2] .

وهكذا كانت هذه المعابد تسمو بزينتها الوافرة وسط الأزقة الملتوية للمدن المصرية ، تعلن للجمهور ، الذى كانت مواكبه تزدحم فى الخارج ، أنه وإن كانت الأزمنة تروح وتغدو ، فإن شيئا مّا لم يتغير على هذه الأرض المقدسة . فعلى نحو ما كان يحدث دائما كان الكهنة يؤدون طقوسهم اليومية فى قدس الأقداس ، وفى الأعياد

---

(١) Duemichen, Resultate 36.

(٢) وذلك على نحو ما جرى فى السرابيوم فى منف ، حيث وضعت آلاف التماثيل البرنزية تحت بلاط الطريق (Wilcken, Urk. I, 10) .

الخاصة ببعض الأيام . أما كيف كانت تجرى مثل هذه الأعياد والاحتفالات، وما هى الأغانى التى كانت تنشد ويردّد صداها المعبد ، فلعلّ فى الأمثلة التالية ما يوضح ذلك ، وهى بضعة أمثلة قليلة من ذلكم العدد الوافر الذى نعرفه من نصوص المعابد .

ففى يوم رأس السنة كان الكهنة يتجهون ومعهم ناووس تمثال الإله إلى الدرج الذى يؤدى إلى السطح ، فيرقونه فى حفل بهيج . وفوق السطح كانوا يضعون الناووس فى معبد صغير مكشوف ، ثم يفتحونه ليستطيع الإله أن « يبصر الشمس » . وكانت هذه العادة تجرى فى دندرة وإدفو[1] ، وفى معابد أخرى كذلك بطبيعة الحال، وهى تعنى فى ذلك الوقت بالتأكيد أن الإله « يقابل أباه » ؛ فهو يحييه فى بداية العام ، حينما كان الناس يحيون بعضهم بعضا . على أن هذه الشعيرة قد تكون فى الأصل شيئا آخر ، إذ يبدو أنها تنطوى على فكرة تتصل بالعقائد الجنازية نقلت إلى الآلهة . أجل لقد كانت أمنية الموتى دائما أن يخرجوا بالنهار من ظلماتهم وأن « يبصروا الشمس »؛ ولهذا فمن الجائز أن تكون هذه الأمنية وجدت سبيلها كذلك إلى الآلهة، وقد رأينا فى الفصل الخامس عشر كيف تطرّقت التصوّرات والطقوس المتصلة بعالم الموتى إلى المعابد .

وفى يوم آخر كان يحتفل بعيد نصر الإله ، الذى قهر أعداءه ، ثم استوى على عرشه . وكان يقدّم إليه إكليل النصر وتضرب مغنيات المعبد على الدفوف ويغنين :

أقبلوا فى ابتهاج يا آلهة البلاد ! أقبلوا مهللين ، أيها البشر ويأيها الشعب ! أقبلوا مسبحين بقلوب جذلة ! لقد استحوذ حورس على عرشه . . . ؛ وسيعمر ما كان قفرا ؛ وسيسبغ البهجة على القلوب الحزينة ، وسينجى البشر جميعا .

أجل أبصروا حورس ، وعلى رأسه تاجه .. . إنه يحثّ الخطى وإنه لحرّ طليق فى هذه البلاد ، وتاسوع الآلهة يقبل الأرض بين يديه . . . أنظروا إلى حورس أيها الآلهة ويأيها البشر ، وابتهجوا لتاجه . . . ، لقد حطم رءوس أعدائه .

(أجل انظروا إلى حورس ، أيها الآلهة) وأيها البشر ، وأبصروا كيف يعصف فى هجومه وكيف ينتصر . . . إنه كالنار إبان العاصفة ، إذا ما اجتاحت الأدغال . .

(1) Mar. Dend., IV, 3 = Duem., Kal. Inschr. 76; Edfu I, 563.

لاتبقى على شيء مماثلتهم . يأيها الآلهة ويأيها البشر مجدوا تاجه إذا جاء مهللا وقد قضى على الذعر . . . إنه كأسد سريع الجرى ، إنه يلتهم الأعداء . إنه كطير كاسر إذا انقضّ على خصومه ؛ إنه ينتزع قلوب الأشرار . إنه كثور إذا طعن من يهاجم ؛ إنه يقضى على من يحاربه .

ويمضى النشيد على هذا النحو ؛ وينبغى أن تفرح كذلك الآلهة والبشر بجماله وطيبة قلبه « فلتبتهجوا له ولتفرحوا أيها الرعايا يامن تكونون عبيده . . . إنه الملك وحياته باقية إلى الأبد »[1] .

ومن نافلة القول أن أذكر أن هذا النشيد الجميل لم ينظم فى العهد الإغريقى ، وأنه لم يكن أصلا مما ينشد فى أعياد الآلهة فى المعبد ، وإنما هو أنشودة النصر لأحد ملوك الدولة الحديثة[2] ، وأنه لم يغير فيه إلا قليلا عندما استخدم نشيدا للآلهة .

ومع هذا فان الأناشيد الجيدة نادرة . إذ أغلب الأناشيد إنما يتألف من مدائح ظلت تعاد منذ آلاف السنين. فاذا هى قد غدت أشبه ما تكون بجمل اصطلاحية، قلما تمتزج بها فكرة جديدة أو صورة مستحدثة . فقد ورد فى نشيد لإيحى ، صغير حاتحور ، معبودة دندرة ، يشيد به كأنه الشمس المشرقة[3] : « المجد لك . المجد لقرينك ، أيا إيحى العظيم ، ابن حاتحور ، يا من أشرقت على عرش أبيك رع ، واقتبس القطران جمالك .

أيها الطفل الجميل ، وليد الفاضلة ، القوية ، العظيمة ، سيدة دندرة . ياصورة حراختى ، ويا ولد أتوم . أيها الصبىّ الجميل ، المحبوب اللطيف ؛ إن البشر جميعا ليفرحون لمرآك ، ويهلل القطران لمحياك الجميل . إن التاجين ينعقدان على رأسك .

إن البلاد والأقطار الأجنبية تنحنى أمام جلالتك ، كما تنحنى أمام رع عند ما يشرق فى الأفق ، ولك يخلص الرجال والنساء معا ، وتجثو الأرض أمام روحك .

أيها الوليد الفاضل ذو الشكل المتألق . . . إنك تظلّ فى غرفتك فى دندرة

(١) Edfu, ed. Rochem I, 442, 1 ff.

(٢) ويتجلى هذا من نغمته ولغته . وفيما عدا هذا فان استخدام الأناشيد الملكية فى مديح الآلهة لم يكن من ابتداع العهد الإغريقى فحسب ، انظر ماسبق صفحة ١٥٠ .

(٣) Duem. Resulate 22, 5 ff.

كالشمس تشرق وتغيب ، إن قوّتك لتجوب مانحة الضوء ، وإنك لتهب الهواء لأنوف البشر .

أيا إيحى العظيم ، يا ابن حاتحور ، أمِل محياك الجميل للملك . . . ! ». على أن اسم الملك لم يذكر فى النصّ ؛ فنى ذلك العهد المضطرب لأواخر البطالمة ، كان من الحكمة عدم تخليد أىّ ملك قد يدعو الأمر إلى لعنه كعدوّ بعد قليل .

والنشيد التالى أوفر حيوية من نشيد إيحى هذا ، وكان المرنمون ينشدونه لحاتحور ربة دندرة حين كان يخرج بها من معبدها فى احتفال مهيب . ويحمل الترديد على الظنّ بأن هذا الموكب كان يحدث عندما يخضر النبات من جديد بعد الفيضان :

« فلنصح صيحات الفرح للذهبية حين تضىء فى دارها ! ولنمجد سيدة الآلهة ، ولندخل البشر على هذه الإلهة ! . . . هاهى الطرق تنفتح لك ، وهاهى السبل تنفتح لك فى بهاء وجمال . والسماء تسبح لك فى سعادة ، وكذلك البلاد والشطآن جميعا . إن لك يُنبت الناس الأشجار الحلوة . وإن من أجلك تخضر النباتات . وإن وجهك ليشعّ جمالا . وإن السماء لصافية وإنها لتبصر بعينيك ، والصحراء مضيئة من لحظك . إن البلاد قد عظمت بفضل عينيك . وإن محياك ليتلألأ .

أيتها الخضراء الجميلة . سيدة النضرة ، وسيدة الخضرة المتلألئة .

إن لك تعزف السماء مع آلهتها . وإياك تعظم الشمس والقمر . وإياك تمجد الآلهة والآلهات .

أيتها الخضراء الجميلة ، سيدة النضرة ، وسيدة الخضرة المتلألئة .

لك تعزف الأرض كلها ، ولك ترقص السماء فرحة طروبا ، وإياك تمجد البلاد والأقطار الأجنبية حتى عنان السماء عند أركانها الأربعة » .

أيتها الخضراء الجميلة سيدة النضرة ، وسيدة الخضرة المتلألئة [1] .

ويدلّ هذا النشيد على أن ذلك العيد ، الذى كان الناس يخرجون فيه على هذا النحو ، إنما كان عيدا بهيجا ، يتخذ فيه العزف والرقص لإدخال السرور على حاتحور . فقد جاء [2] : « إننا نعزف لقرينتك ، ونرقص لجلالتك . إننا نرفعك إلى

(١) Duemichen,Resultate 46, 7 f. انظر : Junker Ae. Z. 43, 101 f.
(٢) Duem. Resultate 45, 3 ff.

عنان السماء . إنك ربة الجلاجل والعقود [1] والشخاليل ، .. . إننا نمجد جلالتك كل يوم ، من المساء إلى النهار .

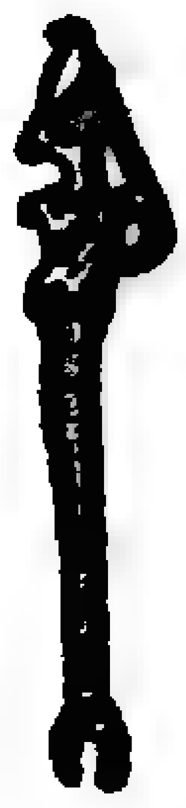
إننا نتهلل لطلعة محياك يا مليكة دندرة . . . أنت سيدة الحبور ، مليكة الرقص ، سيدة العزف ، مليكة الغناء ، سيدة القفز ، مليكة ضفر الأكاليل . . . هيا أقبلوا صائحين صيحات الفرح ، واقرعوا الطبول ليل نهار ! إن الرجال تقرع الطبول والنساء فى حبور . . . » . وليس صعبا أن نتمثل مثل هذا العيد الذى كان يقام لحاتحور بما كان يحفل به من رقص وهتافات الحشود الصاخبة ، وصيحات النساء ودوىّ الطبول ، وجلجلة الجلاجل ، وخشخشة الشخاليل، يتخلل هذا كله ما كانت تثيره أغانى الكهنة ذات النغمة الواحدة من هرج صاخب . إنها لصورة صادقة لأحد الأعياد فى الجنوب ، حيث تعبر العاطفة الدينية عن نفسها بالهرج والمرج .

على أن الأعياد الأخرى كانت تجرى حقا دون جلبة كثيرة ؛ ولئن لم ينقصها من الطعام والشراب والتهليل شىء كثير ، فقد كان هذا لفترة قصيرة مقبولة خلال المراحل الطويلة للطقوس المقدسة التى كان على الكهنة أن يقوموا بها طوال اليوم . فكان حورس معبود إدفو حينما يريد الاحتفال بعيده الكبير [2] ، حينما كان يزوره بهذه المناسبة إلها المعبدين الصديقين فى دندرة والكاب ، يترك فى اليوم السابق معبده فى صحبة رفيقه خنسو والحراب الأربعة التى بها حارب الآلهة ست ، ثم يتجه تلقاء الإلهين اللذين جاءا من بلدين آخرين لزيارته ، وهما حورس معبود الكاب وحاتحور معبودة دندرة . وكان على هذه الآلهة أن تحيي معا عيدا يستغرق عدّة أيام ، تحتفل فيه بانتصارها على ست ورفاقه وباعتلاء حورس العرش . على أن الأمر لم يكن يقتصر على هذه المسائل دون غيرها ، وإنما كانت هناك سلسلة لانهاية لها من الشعائر ، كانت تقتضيها « التقاليد » المرعية لهذه الأيام ؛ مثال ذلك أنه عندما كان إلها إدفو يريدان صعود سفن الوافدين ليدخلا المدينة فى احتفال مهيب ، كانت تتلى

(١) كان النساء يصلصلن فى الغناء بعقود كبيرة .

(٢) يعتمد ما يلى على Brugsch, Festkalender von Edfu. ، ويتضح من لغة هذا النص أنه يمثل مناسك أحد أعياد الدولة الحديثة .

أولا « الأوراد التي تحمي السفينة » ، ثم تقدّم القرابين ، و « يهدى النبيذ » ، و « توهب الأرض » ، ويطلق الأوز كأنه رسل ، وتقدّم باقات الزهور ، وتؤدّى أشياء أخرى كثيرة . وما تكاد الرحلة تبدأ حتى تتوقف بعد ذلك بسرعة مرة أخرى ، وذلك لأن السفن كانت تمرّ على « مقرجب » ، وكان يجب أن ينزل الركب « ليحرق قربانا عظيما بين يدى هذا الإله المجيد » . وكان لابد أن يؤدى من جديد « طقس ركوب السفينة . والطقس الذى يحمى السفينة ، والذى يُجرى السفن » ، ومن ثم « يبحر الركب مصعدا نحو إدفو » . وفضلا عن ذلك كان يراعى بإحكام أىّ كبار الموظفين فى مصر العليا يجب أن يسهموا فى الحفل نيابة عن الملك ، وأىّ نظام يجب أن تتبعه السفن . وكانت الموسيقى تأخذ مكانها فى سفينة أمير إدفو ، كما كان على أمير الكاب ، عند رسوّ السفن عند المعبد ، أن يمسك سفن الآلهة من مقدماتها على حين يجذبها من مؤخراتها أمير مدينة أخرى . وكان على أمير دندرة « أن يجلب هو ورجاله الهدايا » ، وعلى أميرين أن يقدّما ثور الأضحية . وعلى آخر أن يؤدّى خمسمائة رغيف ، ومائة قدر من الجعة ، وفخذ ثور . وثلاثين عنزا لطعام أهل المدينتين الأخريين ، الذين رافقوا آلهتهم لهذا العيد . فإذا ما وصل هؤلاء إذا هم « يجلسون ويشربون ويحتفلون بالعيد بين يدى هذا الإله الجليل ، ويشربون ويتضمخون بالدهون ويهللون فى صوت صاخب مع سكان المدينة » .



١٥٤ - حربة حورس . نموذج مصغر كان بمثابة تميمة (برلين ١٠١٢٠)

وفى أوّل أيام العيد كانت الآلهة تصعد مع مرافقيها ، الذين أمضوا ليلتهم بجانب المعبد . إلى « معبد علوى » . كان يقع فى مكان ما على حافة الصحراء . وهنا كان يستقرّ الجمع على الأرض ، ويقدّم شىء من القربان ويقام طرف من الشعائر ، ثم تعرض الآلهة ويحتفل « كاتب كتاب الإله » بانتصار حورس . وكان يهتف أربع مرات : « لقد عاد حورس منتصرا ، وتمّ كل ما عهد به إليه . إن أمه إيزيس فرحة لأنه نال وظيفته هذه بقلب مبتهج » . وكانت آلهة إدفو ، « الأرواح الحية ، تجلس على عروشها » وترنو ببصرها إلى « سيد الآلهة » ، وكان « الفرح يعمّ إدفو » . أما الكهنة

فكانوا « يجيبون مردّدين : « افرحي أيتها الأرواح الحية ! لقد انتصر حورس وتمّ كل ما عهد به إليه » . وفى غمار هذه الهتافات كان الموكب يستأنف مسيره إلى « قاعة المدرسة ، حيث تجلب أولا عنزة حمراء وثور أحمر ، تنزع أحشاؤهما ، ويحرقان قربانا بعد أن يحشى جوفهما بكافة الأعشاب العطرة ، ويصب عليهما عصير العنب الطازج والنبيذ » . ومن ثم كان كاتب كتاب الإله يتلو كتاب « تمجيد حورس الذى ثبِّت له إرثه »، ثم أربعة كتب أخرى ؛ وكان القربان يقدّم لرع ، بحيث « يدعى بأسمائه جميعا » ، وكان يجلب له مائة رغيف ومائة رغيف أبيض ، وقدور خمسة من الجعة ، وفطائر وبلح ولبن وإوز ونبيذ . وكان الكهنة يرتلون أثناء ذلك : « الحمد لك يا رع ؛ الحمد لك يا خبرى ، بسائر أسمائك هذه الجميلة ! إنك تُقبِل قويا شديدا . وقد أشرقت فى جمال وبهاء . وقهرت التنين . أمل محياك الجميل إلى الملك ! ». ثم كانت تطلق مرة أخرى أربع أوزات. لتنبئ الآلهة بأن « حورس ملك إدفو ، والإله الأكبر . سيد السماء أخذ التاج الأبيض وأضاف إليه التاج الأحمر » ؛ ثم كان يقوم رجل ، يمثل « الابن المحبوب » فى هذا العيد . فيرمى عن قوسه نحو جهات السماء الأربع . ليردى بذلك أعداء الإله . وكانت باقات الزهر تقدّم للإله ويذبح ثور يلقى بفخذه الأيمن بين الحشد حيث يتلقاه « رجل ، يسمى حورس » . وعند ذلك كان رجال حورس يقرعون الدفوف . كذلك كانت طائفة من الشعائر تؤدى بتمثال لفرس البحر من الشمع ، تكتب عليه « أسماء أعداء المقاطعات جميعا » ، وبتماثيل للتماسيح من صلصال ، ثم تطرح على الأرض أسماك يطؤها الكهنة جميعا ويطعنونها بالمدىّ ، وهم يغنون : « اثخنوا أجسامكم بالجراح . وليقتل بعضكم بعضا ، إن رع ينتصر على أعدائه ، وحورس معبود إدفو ينتصر على جميع الأشرار » . وكانوا يعلنون بعد ذلك « تفسير » هذه الطقوس الأخيرة : لقد قاموا بإبادة أعداء الإله والملك . وبهذا ينتهى الاحتفال بالعيد فى المدرسة لذلك اليوم ؛ فيتسنى للقائمين بمراسيم العيد أن يركنوا إلى الراحة ؛ وكان المرء « يشرب فى المساء بين يدى هذا الإله ، ويقضى ليلة جميلة فى هذا المكان » . وكان الأمر يستمرّ على هذا النحو ثلاثة عشر يوما حتى تئوب فى النهاية الآلهة الغريبة إلى مواطنها ، وآلهة إدفو إلى معبدها ،

ومن ثم يسود الهدوء المدينة تارة أخرى . ولم يكن الجمهور الذى اشترك فى العيد ليستبين كثيرا من وقائعه على الرغم مما كان يقدّم من « تفسير » فى بعض الأحيان ؛ كما أنه لم يكن ليفهم معانى ما كان الكهنة يتغنون أو يبتهلون به باللغة العتيقة . ومع ذلك فقد كان ذلك الغموض يزيد فى الأثر الكلى لهذا العيد على مشاعر الإنسان ، وكان من شأن التباين الواضح بين ما كان مقدسا ، جديرا بالتكريم ، وبين ما يتصل بالحياة الدنيوية الحديثة إذ ذاك ، بين الكهنة فى زينتهم القديمة ، وبين رجال الشرطة الإغريق والموظفين الرومان ، أن يقوّى شعور الإجلال لدى الشعب لعقيدته القديمة .

وقد غدت عبادة أوزيريس ذات صبغة سرية خاصة . فقد كسب هذا الإله لنفسه مكانا فى كل معبد كبير فى مصر ، وخاصة بطبيعة الحال فى المدن الست عشرة ، التى كانت تفخر بأن فيها مثوى عضو من أعضائه : وقد ذكرنا من قبل المعبد الصغير الذى شيّد فى المنشآت الجديدة فى إدفو ودندرة وفيلة فوق سطح المعبد لأعياد أوزيريس . وإننا لنعلم الشىء الدقيق عن أحد هذه الأعياد ، وكان يحتفى به فى شهر كيهك ، وذلك لأن نصا طويلا فى دندرة يحدثنا كيف اعتاد المصريون أن يحتفلوا به فى المدن المختلفة ، فى أبو صير وأبيدوس وسايس وغيرها . ويتضح من مجموع هذا النص أن الكهنة كانوا يعنون بأداء مراسيمه حتى فى أدق تفصيلاتها ، وكانت شعائره الأساسية واحدة فى سائر المدن . ولهذا لنا أن نظن أن الشعائر فى أحد المعابد كانت مثالا احتذته الشعائر فى المعابد الأخرى . ومن اليسير علينا أن نفهم الشعيرة التى كان يبلغ بها هذا العيد ذروته . لقد كان أوزيريس واهب الخصب ، ولذلك كانت الأرض والماء ، الذى يخصبها ، من بين ماتشمله قدرته . لهذا كان يصاغ من الرمل والشعير فى هذه الاحتفالات شكل للإله الميت ، ثم كان يروى بالماء . فإذا ما نبت الشعير واكتسى جسد الإله بخضرة نضرة ، فقد كان هذا لدى المؤمنين دليلا على عودة الحياة للإله ، وهو وإن ظل يبدو ميتا ، غير مخصب ، فلقد عاد إلى الحياة من جديد لخير البشر . هذا هو بهرة الاحتفال كما ذكرنا ، أو بهرة الخافية الدينية ، على نحو ما نسميها الآن على غرار الإغريق . ولكن لما كان الكهنة المصريون هم الذين كانوا يقومون بها ، فقد كان لابد أن يحيط بها كثير من الشعائر الثانوية .

إلى جانب هـذه الاحتفالات الأوزيرية ، التى كان يحتفى بها فى كلّ مكان كانت تؤدى لهـذا الإله بطبيعة الحال شعائر أخرى كانت وليدة ظروف محلية محضة . وإننا لنعرض هنا أخيرا إحدى هذه الشعائر التى نلمّ بها إلماما تاما .

فهناك على حدود بلاد النوبة ، حيث يخترق النيل آخر حواجز الأحجار الصلبة ، التى تفصله عن مصر ، يقع عدد من الجزر الصخرية بالقرب من الشلال . وعلى إحدى هذه الجزائر يقوم معبد فيلة الفخم ، الذى اشتهر فى العالم بأسره فى العهد الإغريقى بأنه أهمّ معابد إيزيس ، والذى ظلّ باقيا على حالته تماما حتى عصرنا الحاضر ، ولكنه تعرّض للدمار فى الأيام الأخيرة .

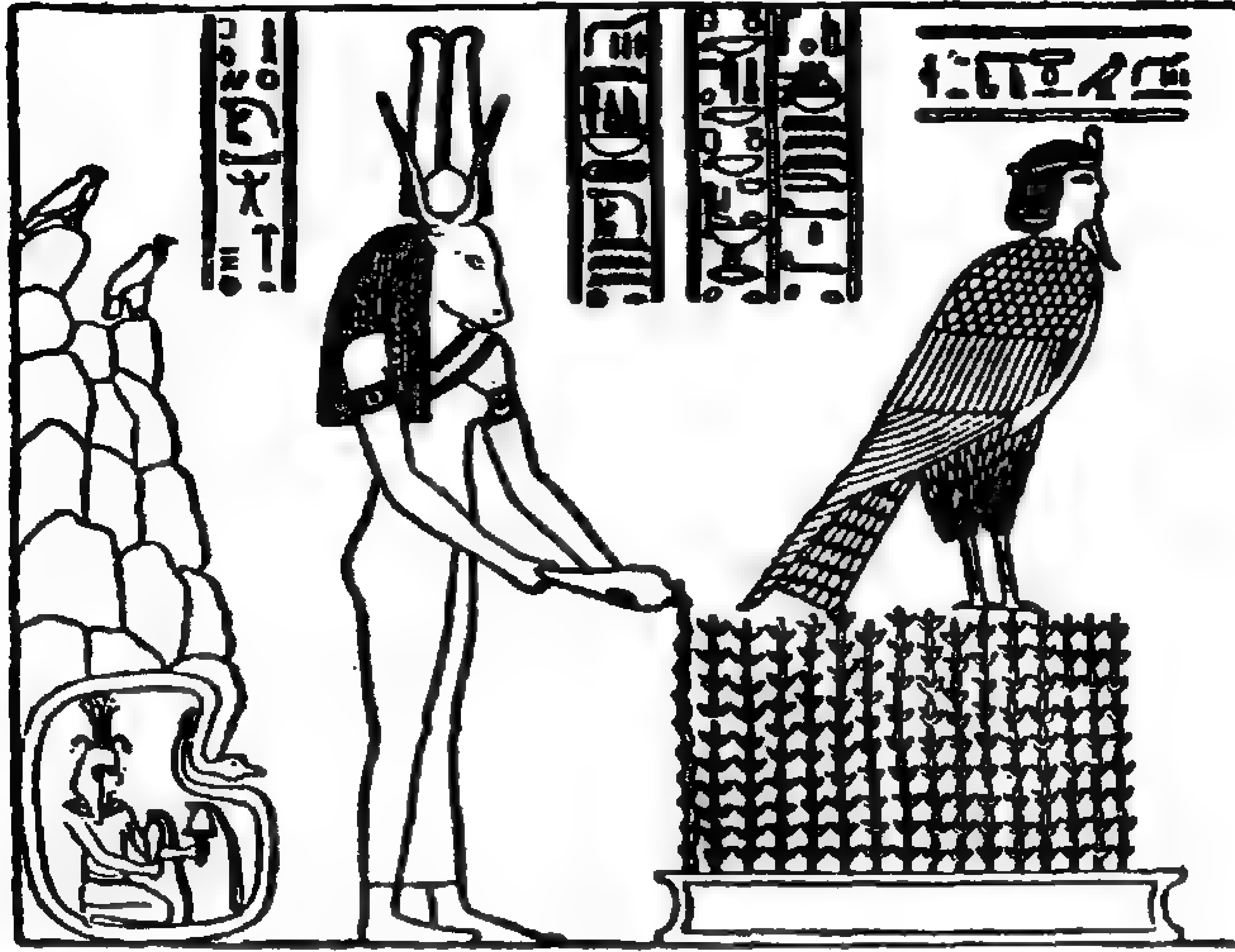
وتقع بالقرب من جزيرة فيلة هذه جزيرة أخرى ، هى بجة الحالية ، وكانت تعتبر كذلك من الأماكن المقدسة للديانة المصرية . فمن جهة لقد كانت المكان الذى وطأته مرة أخرى الإلهة الوحشية تفنوت من أرض الوطن واستحالت فيه إلى حاتحور الودودة ، وفقا لأسطورتها القديمة (صفحة ٧٩) . ومن جهة أخرى كان يوجد فى بجة قبر أوزيريس ، وكان يعتبر فى العهد الإغريقى فى مقدمة الأماكن المقدسة ، ولم يكن فى مصر العليا إذ ذاك قسَم أعظم من أن يقسم الإنسان « بأوزيريس الثاوى فى فيلة »[1] . وكان هذا المكان الذى يضمّ قبر أوزيريس يسمى « أباتون » ، أى الحرم ، وذلك لأنه لم يكن يجوز فى هذا المكان أن يقلق راحة الإله أحد . وكأن الطبيعة قد قدّرت أن يكون هـذا المكان بالذات معبد أوزيريس ، وذلك لأن المصريين كانوا يعتقدون أن فى الماء الجائش هنا يوجد أحـد الينبوعين اللذين يتفجر منهما ماء الفيضان ، جالب الخصب والنماء ، وقد كان يسمى « ماء بجة النقى »[2] . ولما كان أوزيريس يشرف على كل ما يكفل الخصب ، لهذا كان يعتبر أيضا أنه هو الفيضان نفسه . وكما كان يقول كهنة فيلة ، لقد كان أوزيريس « النيل الكبير الذى يخلق الحبّ بفضل مافيه من ماء » ، والذى « ينبت الأشجار والأزهار من رشحه (عرقه) »

---

(١) Diodor I 22, 3.

(٢) Junker, Das Goetterdekret ueber das Abaton. (Denkschr. der Wiener Akademie 1913), S 39. وكذلك يعتمد كل ما يلى على كتاب يونكر فيما عدا الحالات التى أذكر فيها مرجعا آخر .

لهذا كيف يمكن أن يكون لأوزيريس قبر أفضل مما كان له فى « أباتون »، حيث كان يمكن أن يعود للظهور فى هيئة فيضان جديد ؟ فهو كالنيل « يولد فى حينه ، وتتجدد



١٥٥ – أوزيريس كإله للنيل فى كهف بجة ، وروحه تستقر على شجر الغيضة المقدسة وتسكب لها إيزيس اللبن (Champ. Mon. 93).

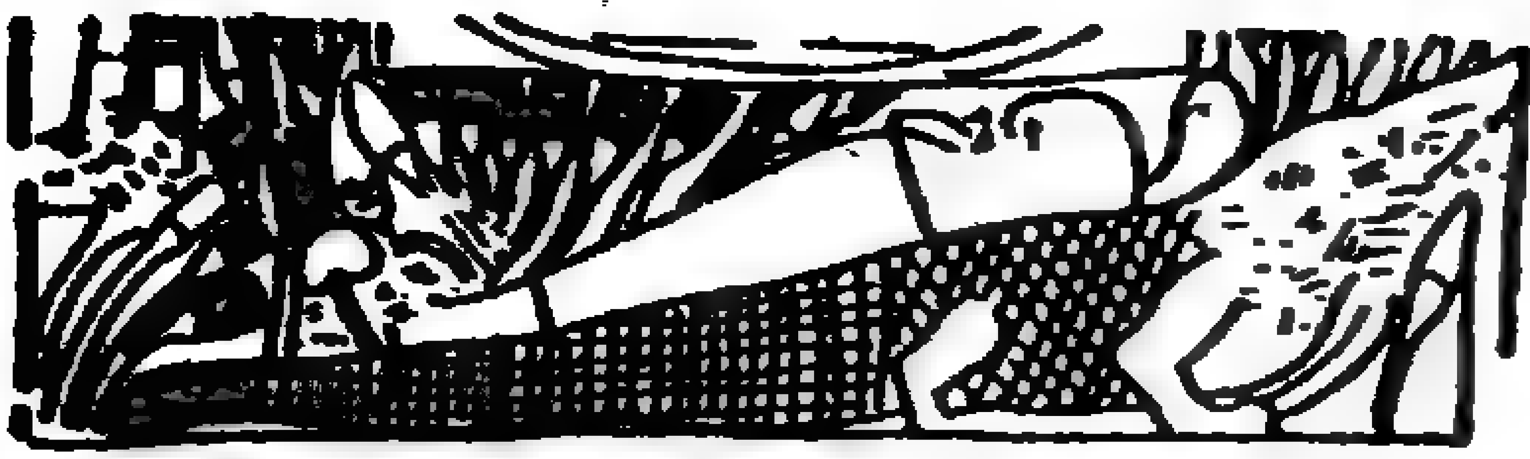
أعضاؤه كل عام » . وإذا كانت الأسطورة تذكر أنه لم يدفن فى « أباتون » إلا جزء من أوزيريس، وهو ساقه اليسرى، فلم يكن من ذلك بأس، وذلك لأن الكهنة ظنوا أن هذه الساق هى أحد ذلكم الينبوعين ، وتمثلوا كيف ينبثق الماء منها فائرا متفجرا . أما « أباتون » نفسه بأكمله فقد تمثلوه جبلا به كهف غائر ، يقرّ فيه أوزيريس على هيئة النيل ويحرسه ثعبان . ولسنا نعرف كيف كان شكل القبر فى حقيقة الأمر ، على أننا نعلم فقط أن إحدى الأشجار كانت تظله على نحو ما كان فى مقابر أوزيريس الأخرى – ولعلها كانت تلك الشجرة التى جاء فى الأسطورة المتأخرة أنها نبتت من حول تابوت أوزيريس فى جبيل (صفحة ٩٩) . وإلى جانبه – كما كان الأمر كذلك فى أبو صير وأبيدوس – أجمة كان يظن أن روح أوزيريس تحطّ على أغصانها فى شكل طائر برأس إنسان . ومن السهل معرفة منشأ هذا التصوّر ؛ أجل لقد كانت أمنية الأشراف فى الدولة الحديثة أن تستقرّ أرواحهم بعض الوقت على أشجار حدائقهم، لهذا عمد المصريون أيضا إلى إقامة حديقة لروح أوزيريس [1] .

(١) جلب رع الروح إلى فيلة عند ما وجدت الجثة ، أما قبل ذلك فقد كانت فى القمر فى السماء .

وفى هذه الأجمة وضعت ٣٦٥ مائدة للقربان ، كان الكاهن الكبير المختصّ بالعمل فى النَّوبة الشهرية يقدّم عليها قربانا من الماء واللبن . ولكنه لم يكن وحده الذى يقدّم هذا القربان ، وإنما كان تمثال إيزيس يبحر إلى هنا كل عشرة أيام ويقدّم للزوج المتوفى ولروحه قربانا من لبن ، يرده « شابا » من جديد . وكانت هذه الأيام ، التى « تعتلى » فيها إيزيس « العرش العظيم » فى « أباتون »، تعتبر أياما لها قداستها الخاصة لأباتون ، فما كان لأحد أن يجاهر بالكلام فيه . وكانت لهذه الإلهة أيام أخرى تقضيها فى « أباتون » ، من ذلك مثلا عند ما كان يحتفل بدفن أوزيريس ؛ وإذ ذاك كانت تتبعها الآلهة الأخرى ، وترافقها فى سفينتها تماثيل أمون [1] وخنوم وبتاح وغيرها . وعلى نحو مماثل كان يحدث كذلك فى اليوم الذى تقتاد فيه إيزيس روح أوزيريس إلى « أباتون» . حيث كانت أرواح الآلهة الأخرى تبحر كذلك ثم تأخذ مكانها مع روح أوزيريس فى الغيضة . ومن السهل فهم هذه العادة التى كانت تقضى بأن يصحب الإله الميت بتمثال لروحه . فقد كان لابد من أن يعود إلى الحياة من جديد . ولهذا فقد كان ينبغى أن تكون روحه بجانبه . غير أن هذه العادة كانت تفسر بأسطورة خاصة . فعند ما عثرت إيزيس على جثة زوجها ذهبت إلى إله الشمس فى هليوبوليس . وكانت له به رعاية وعناية سابقة . وقد ساعد هذه المرّة كذلك فأرسل سائر الآلهة إلى « أباتون » ليدفنوا فيه جثة الإله (أو بالحرى ساقه فقط) بعد أن حملها إلى هناك حورس متخذا شكل تمساح . وقد زاد الآلهة على ذلك بأن أصدروا مرسوما لحماية مقبرة الإله . وقع عليه رع وشو وجب . وهم أسلاف أوزيريس وكتبه تحوت بنفسه بصفته كاتب الآلهة . وفى هذا القرار الذى كانت منه نسختان فى معبد فيلة أعلن الآلهة أن « أباتون » يجب أن يكون على الدوام لأوزيريس وإيزيس ؛ وقد سنوا الشعائر التى يجب أن تؤدى فيه . وعنوا قبل كل شىء . بما يكفل الهدوء فى هذا المكان المقدس . فما كان لأحد فيه « أن يقرع الطبول أو يغنى على صوت الجنك أو الناى . وليس لأحد أن يطأه فى أىّ وقت » . أو « يصيد الطير والأسماك » من حوله . وفى الوقت المقدس . الذى فيه تستقرّ إيزيس فى « أباتون » لايجوز لأحد أن يجاهر فيه بصوته .

(١) وبهذا يرجع هذا الاحتفال إلى الدولة الحديثة .

أجل إنه لمما يتفق وشعور الإنسان أن يزعى المرء الهدوء حيثما يبكى على الميت ، ولهذا فمن المعقول أن الهدوء كان مطلوبا منذ البداية فى أماكن أوزيريس . ولكن إذا كان كهنة فيلة قد أكدوا هذه المسألة الواضحة وأبرزوها فى شكل خطير فى مرسوم للآلهة ، فإن هذا ليشير إلى أنه كانت لديهم أسباب خاصة لذلك . ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر أنه كان يجاور مقبرة أوزيريس مكان لم تكن الأمور تسير فيه على الدوام بغير ضوضاء ، مما كان يتنافى مع ماينبغى أن يراعى من أجل هذه المقبرة . فقد رأينا أن جزيرة بجة كانت كذلك المكان الذى اغتسلت فيه الإلهة تفنوت عند عودتها من بلاد النوبة . ومن ثم استحالت إلى حاتحور الودودة الضحوكة ، التى كانت تحيى أعيادها بدقّ الدفوف والغناء والرقص . أى بسائر مالم يكن مستحبا فى جوار أوزيريس .



١٥٦ – التمساح الذى حمل جثة أوزيريس إلى البر
(Junker, Abaton, S. 42)

ويؤيد الظنّ بأن شعائر كل من العبادتين كانت تزاحم الأخرى نصّ عجيب [١] من القرن الثانى قبل الميلاد، عثر عليه فى إليفانتين . وهوعبارة عن كتاب وجهته جمعية دينية إلى أحد أعضائها إذ ذاك تبلغه إنذارها الأخير ، وذلك باسم إلهها اسميتّى ، « الصبىّ المولود فى اليفانتين » ، أحد القديسين المحليين ، وكان يعرف كيف يلزم أتباعه حدّ الأدب وحسن الخلق . وكان هذا المذنب ، الذى وجه إليه الإنذار ، رجلا ثريا ، كان من أخطائه أنه أقام لنفسه بيوتا شاهقة ، ولذا كان عليه أن يهدمها ثانية ؛ على أن هذا لم يكن ذنبه الرئيسى ، وإنما كانت أكبر سيئاته ما ارتكبه ضد أوزيريس. « لقد اجترح ما تشمئزّ منه إيزيس ، وشرب النبيذ فى الليلة التى ارتدت فيها الإلهة ثياب الحزن . لقد شرب النبيذ فى الغيضة وفى الحديقة ، المنذرتين للملك أوزيريس »، وسمح بالغناء هناك وبذلك أيقظ « روح أوزيريس من سباتها » . بل لقد بلغ به الأمر أنه فى سكره عبر إلى « أباتون » مع ضيوفه — وكانوا بالإضافة إلى هذا من البليميين

(١) Griffith, Proceedings 31, 100 ff., 289 ff.

البرابرة . وعند ما نصحته امرأته بأن يقلع عن هذه الخطايا صاح فيها : « إنها لتفنوت ، وإن أحدا من الآلهات لايمكن أن تقف فى وجهها » ؛ وهكذا أراد أن يعتذر بعيد تفنوت عن الخطيئة التى ارتكبها ضد إيزيس وقت حدادها .

غير أن القديس اسبميتى لم يكن ليخدع بهذه السهولة ؛ لقد « كان يعلم (مكنون)، قلبه » ، ولذا أعلن إليه أولا أنه لن يدعوه مذ ذاك بالاسم الذى حمله منذ الطفولة ؛ إذ لم يعد أهلا لأن يتسمى بتوزيرس ، أى « عطية أوزيريس » .

ويبدو أن هذه القصة القصيرة قد حدثت على نحو ما ذكرنا فى جمعية دينية [1] ؛ وليس من محض الصدفة أن نجد مثل هذه الجماعة تتألف من أجل أوزيريس ،وذلك لأن عبادته كانت تحوطها هالة خاصة فى كل العصور . ولم يكن يسمح لكل فرد أن يشترك فى هذه العبادة ، أما الصفوة ، الذين كان يسمح لهم بهذا الاشتراك ، فكانت تنعقد بينهم وبين الإله صلة قوية . ومهما يكن من شىء فقد كان عليهم أن يلتزموا الصمت المطبق عن سائر ما كانوا يخبرونه أثناء الاحتفال بالأعياد الأوزيرية . ولقد رأينا فيما سبق (صفحة ٣٧١) كيف أن هيرودوت ، الذى كان له هذا الحظ ، قد تحاشى عن رهبة سرد ما يتصل بأوزيريس من تفاصيل ، وقد كان يعرفها حقا ولكنه لم يكن يجوز له ذكرها .

فهل كان ما يصونه الكهنة بهذه الحيطة البالغة سرا فى حقيقة الأمر ، يستحق مثل هذا الاهتمام ؟ إن كل مانستطيع قوله هو أنه فيما نعرفه من النصوص من أشياء كثيرة عن الاحتفال بأعياد أوزيريس ، لايكاد يوجد شىء لم يكن من الواجب أن يعرفه كل مصرى . كان يهتم بأمر آلهته ؛ وذلك لأن ما كان يعرض فى هذه الأعياد على المشتركين فيها ، إنما كان ، على نحو ما جرى فى الزمن القديم وما سبقه (صفحة ٢٠٥). تمثيليات من قصة الإله ، تمثل موته ، والبحث عن جثته ، والعثور عليها ، وإحياءها ، ثم النظام الجديد للعالم ، وفيه يتولى أوزيريس حكم الموتى ، وحورس حكم الأحياء . وكانت هذه المسائل تختلف فى تفاصيلها بعض الشىء من

---

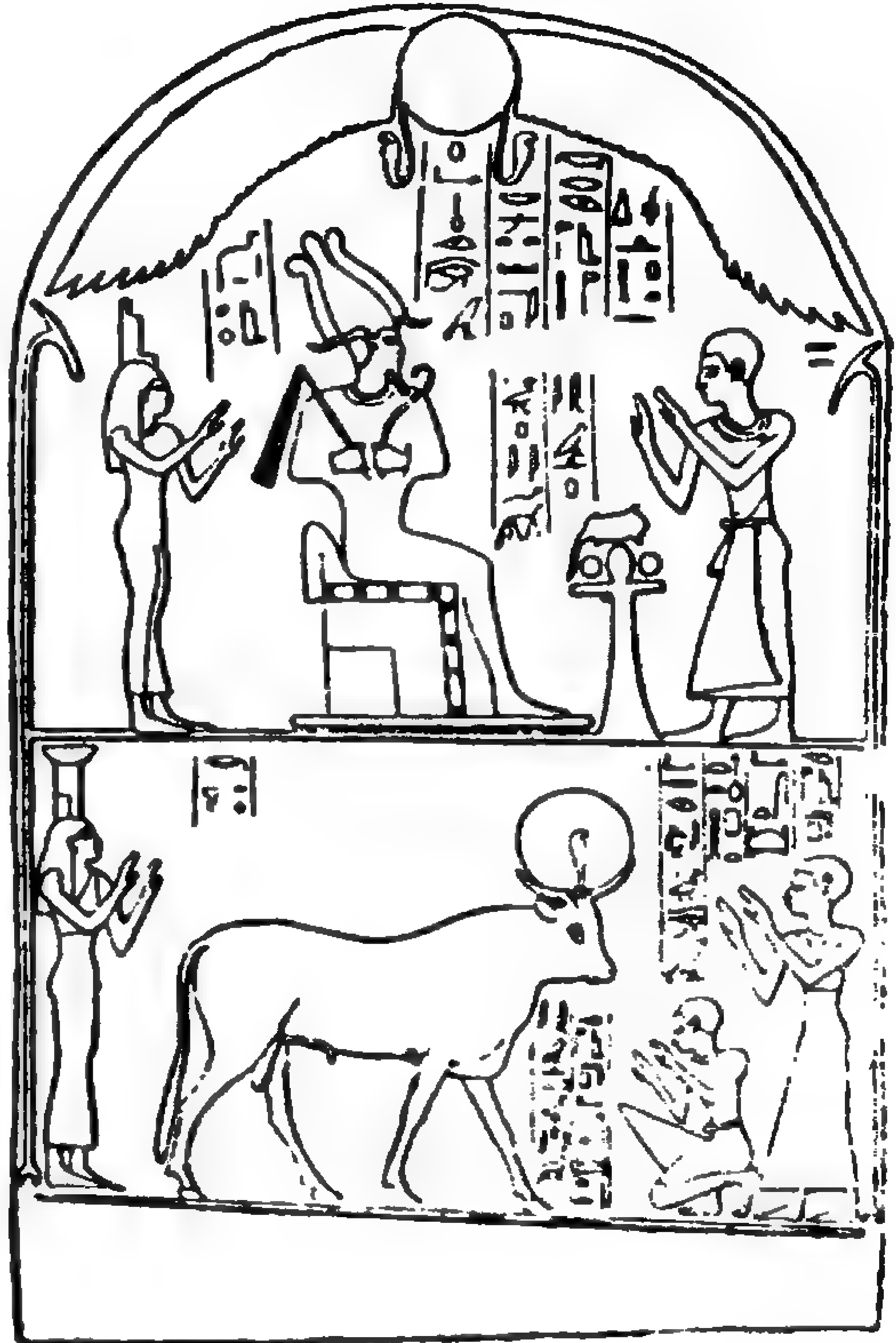
(١) مثل هذه الجماعات من العلمانيين الأتقياء الذين يعبدون أحد الآلهة كانت توجد كذلك فى أماكن أخرى فى مصر فى ذلك العهد (انظر .Otto, Priester und Tempel, S. 125 ff) .

معبد لآخر ، ومن الواضح أن الكهنة كانوا يعلقون أهمية خاصة بالذات على ماينفرد به معبدهم من تفاصيل . وإذ كان يروق لهم أن يروا فى سائر ما يجرى فى المعبد سرا من الأسرار ، فقد قدّروا بطبيعة الحال أن لهذه الشعائر الخاصة أسبابها الخفية ، وأنها ترجع فى نشأتها إلى ما قد حدث من قبل لدى الآلهة . وكانوا يسِرّون بمثل هذه الأسباب إلى المؤمنين ، عند ما كانوا يشرحون لهم الطقوس كلا على انفراد ، وذلك عن طريق تلك « التفسيرات » التى خبرنا أمرها عند الكلام عن عيد حورس . وإلى جانب هذا فلعلهم أسرّوا إليهم كذلك بهذه الفكرة أو بتلك مما يتجاوز قصص الآلهة بعض الشيء ؛ على أنه لم يكن فى هذا كله أدنى أثر لما فى التصوّف الإغريقىّ المتأخر من عقائد سرية عن الإله والعالم والإنسان ، وهى العقائد التى يميل البعض إلى إرجاعها إلى الخفايا المصرية . ولم تكن الاحتفالات السرية لأوزيريس فى العهد المتأخر بأحسن كثيرا مما كانت عليه من قبل ، ولئن كان المؤمنون قد عظموها كأنها أسرار عميقة . فقد كان ذلك لأنها عرضت عليهم بهذه الصفة ، وما ذلك فى حقيقة الأمر غير وهم يحدث فى العالم فى كل زمان ومكان .

وكان فى طوع الديانة المصرية ، على الصورة التى عرضناها فيها ، أن تعيش مدة أطول بنفس صيغها وبنفس تصوّراتها الضحلة ؛ وكان يمكن أن تكثر تفصيلاتها وتزداد خلطا واضطرابا ، ولكنها لم تكن لتستطيع أن تأتى بجديد قيِّم . بيد أنه برغم شدة جمود كهنتها وشدّة تعلق معتنقيها بها فقد أثر فيها مع الزمن احتلال الإغريق لمصر . وأن سكانها المتجانسين استحالوا بالتدريج إلى خليط من الأقوام .

وأول تأثير اعترى الديانة المصرية من الناحية الإغريقية يبدو لنا الآن كأنه من عمل رجل حاذق . كان يقوم بدور الوسيط بين الملك والكهنة . فى بلاط بطليموس الأول والثانى كان يعيش الكاهن مانيتو الذى يرجع منشؤه إلى سمنود فى الدلتا ، وقد كان واحدا ممن أكسبتهم ثقافتهم مكانة فى معسكرين متضادّين ، فكان يشبه بذلك الأفندى المحدث الذى تعلم فى باريس . ورغبة فى أن يعرف سادته تاريخ وطنهم الجديد ؛ كتب لهم تاريخ مصر بالإغريقية ، وكان كتابا تافها ، ولكنه عرف كيف يعلى من شأنه بجداله الرخيص لهيرودوت . ولما رأى الملك فى منامه سيرابيس إله

سينوب الغامض يرجوه جلب تمثاله إلى مصر ، كان مانيثو هو الذى فهم معنى هذه الرؤيا ، ومعه رجل خبير بالشئون الدينية هو تيموثيوس الإغريقى ، الذى يرجع أصله إلى أسرة من الكهنة من إلويـنسِس . وقد أدرك كلاهما أن الإله الذى يودّ المجىء إلى مصر لا بد أنه يوجد فيها أيضا ، وإن كانت هيئته فى وادى النيل تختلف تماما عن هيئته على ضفة البحر الأسود . وبهذا لم يكن سيرابيس إله سينوب ، ذو اللحية والشعر الأشعثين ، سوى أوزرحاب ، أى أوزيريس — أبيس ، الثور المقدس أبيس المتوفى ، الذى كان الشعب كله يعظم مدفنه كثيرا . هـذا ما كان من شأن الكاهنين الحكيمين . أما الملك فهو وحده الذى كان سيفيد من ذلك ، فهذا الإله ، الذى كان على الإغريق والمصريين على حدّ سواء أن يقدّسوه . إنما كان الإله المناسب لمملكته الجديدة . التى يعيش فيها الشعبان . ومنذ ذلك الوقت أصبح سيرابيس الإله الرئيسى فى مملكة البطالمة . وأصبحت الأيمان الرسمية تعقد على النحو التالى : « باسم سيرابيس وإيزيس والآلهة الأخرى » [1] ، وكان مما يرضى الملك أن تشيد المعابد لسيرابيس فى خارج مصر أيضا [2] .



١٥٧ — شاهد شخص يدعى امحوتب ، يرى فى أسفله وهو يتعبد لأوزيريس — أبيس ، أى سيرابيس (برلين ٧٣٠٤) .

ولنا أن نقدّر أن هذا التأويل الجرىء من مانيثون لم يجد أية معارضة عند زملائه

---

(١) Wilcken, Urk. I, 84.

(٢) نفس المرجع .

الكهنة ؛ فقد كانت رغبة الملك كفيلة بإقناعهم بأن سيرابيس لم يكن سوى أوزيريس أبيس . ومنذ ذلك الوقت كان سيرابيس هو التسمية الإغريقية لأوزيريس . وبطبيعة الحال كان الاسم القديم الذى أضفى الزمن عليه قداسته ، هو الذى يستخدم فى النصوص المصرية فى المعابد وفى مناظرها ، أما لدى الشعب فقد أصبح سيرابيس مذ ذاك إله الموتى وزوج إيزيس ، وحلّ تماما محلّ أوزيريس .

وكان أعظم معابد هذا الإله الجديد يوجد فى عاصمة البلاد بطبيعة الحال ، أى فى الإسكندرية ، وكان معبدا ضخما يستوى فيه الإله على عرشه فى الهيئة التى شاهده الملك عليها فى رؤياه ، ولهذا صاغ المثال برياكسيس صورته بشعر ولحية أشعثين وعلى رأسه مكيال الحبوب ، وإلى جواره الكلب كربروس .

وفيما عدا ذلك لابد أن سيرابيوم الإسكندرية كان على طراز إغريقى ، حتى وإن ذكرتنا كل التفاصيل الإضافية فيه بالطابع المصرى وإنه كان يحتفظ فيه بثور مقدّس . وظلّ سيرابيس إبان القرون الخمسة ، التى كانت فيها الإسكندرية عاصمة العالم الكبرى ، يعتبر لدى سكانها أنصاف الإغريق هو الإله الأعلى ، وكان أتباعه الذين يعتقدون فيه على صلة وثيقة به ، فما كانوا يقدمون قربانا إلا ويدعونه إليه [1] . وفى عهد تراجان أوفدت بعثة إلى روما فاصطحبت معها تمثال سيرابيس صانع المعجزات [2] .



١٥٨ — سيرابيس فى هيئة زيوس سيرابيس بقرنى كبش الإله أمون .

وقد قام إلى جانب سيرابيوم الإغريق هذا سيرابيوم آخر ، ربما لم يكن يضارعه عظمة ، ولكنه كان يفوقه فى القدم والقداسة ، وذلك فى صحراء منف حيث كانت تدفن الثيران المقدسة . ومن هذا المكان خرجت

(١) Schubart, Aegypten usw. S. 83.

(٢) نفس المرجع ٨٢ .

عبادة أوزيريس – أبيس ، ولهذا ظلّ كعبة الحجاج من عباده .

ولقد رأينا فيما مضى أية رعاية أحيطت بها الثيران المتوفاة فى العصر الصاوى – الفارسى (صفحة ٣٦٠) ؛ أما الآن فى عهد الملوك الإغريق فلم تكن هذه العناية تعرف لها حدّاً .

وقد وصلت لأيدينا القواعد الوافية لدفن ثيران أبيس [1] ، كما أننا نعرف تماما ما كان يجب أن يقوم به فى فترة التحنيط الطويلة الكهنة الخمسة الذين كان يعهد إليهم بأداء هذه القواعد ؛ فنعرف كيف كان ينبغى لفّ الأعضاء باللفائف ، أو حشو بعض الأعضاء : الرأس والفم والعينين والأنف . وكيف كان يجب تغطية القرنين . أما الساقان فكانت تمدّان . وكان تجويف البطن يغسل ويحشى ، ثم كان أبيس ينتصب قائما بدعائم خاصة . وكان الرأس يلفّ آخر الأمر بحيث يتخذ وضعه الأصلى . وكانت تلى ذلك الشعائر الجنازية الحقيقية : فكانت الجثة توسد على نعشها فى داخل التابوت بينما تنوح النائحات . ثم توضع فى زورق يمخر بها بحيرة على حين تتلى النصوص المقدسة . وآخر الأمر كانت تؤدى لهذا الثور الميت شعيرة فتح الفم على نحو ما كان يؤدى للأموات من بنى الإنسان . وكان هذا كله يستغرق سبعين يوما ، كانت فترة حداد وصيام لمصر قاطبة . وفى متحف برلين شاهد [2] من مقبرة ضابط من جماعة البوليس المصرى الفينيقى ، يفخر فيه بأنه قد عهد إليه حراسة الجبانة فى تلك الفترة الخطيرة .

ولا يتيسر من هذا الوصف تصوّر فداحة نفقات مثل هذه الجنازة التى كانت تقتضى مائة تالنت كان الملوك يتكفلون بها أو يقرضونها المعابد . أما الأباطرة (الرومان) فلم يحملوا أنفسهم عبء هذه النفقات ، وإنما ألقوه على المعابد [3] – فراحت تستعين

---

(١) ما يلى عن Spiegelberg, Ae. Z. 56, 1 ff.

(٢) Stern, Ae. Z. 22, 101; Schaefer, ebda 40, 31.

(٣) Schubart, Aegypten S. 258.

على ذلك بجمعها . وقد كان عليها بنوع خاص أن تحصل بهذه الوسيلة على الكميات الوافرة من الكتان الرقيق الفاخر ، ولدينا صك بإعانة اختيارية من هذا القبيل قام بها معبد سُكْنُو بايوس الصغير [1] (صفحة ٤٤٣) . بل – أكثر من ذلك – لقد ذهبت السلطة الرومانية بأن عاقبت كاهنا تهرّب من مثل هذه الإعانة [2] . على أن الأمر لم يقتصر عند حدّ هذه النفقات فى دفن أبيس ، وإنما كان يجب أن تعنى الحكومة والمعابد كذلك بطريقة مشابهة بنفقات الثور المقدّس منيفس الذى كان يحتفظ به فى هليوبوليس . وقد احتاج الأمر كذلك إلى مائة تالنت أخرى فى عهد بطليموس فيلادلفوس لدفن بقرة إيزيس المقدسة فى مقاطعة أفروديت بولس [3] ، وذلك لأنه كان يعنى بالأبقار المقدسة عناية لاتقلّ عما كانت تقتضيه الثيران الشهيرة ؛ وكانت بقرة إيزيس إذا ماتت أعلن حارس حظيرتها فى أسى للكاهن الأكبر « إن روح إيزيس قد طارت إلى السماء » [4] . وكان يتبع معها ما يتبع مع أبيس [5] وبوخوس ، ثور أرمنت . والتمساح المقدس [6] ، إذ لم تكن تتمّ لها القداسة الكاملة إلا بعد موتها فتصبح عند ذلك أوزيريس أبيس ، وأوزيريس بوخوس ، وأوزيريس سوخوس .

وفوق المدفن العام ، الذى كانت توسد فيه العجول توابيتها الحجرية ، كان يقوم منذ أمد بعيد معبد كانت تزوّد فيه هذه العجول بالأقوات أسوة بالموتى من البشر . وكان ثمة أبنية أخرى ؛ من ذلك معبد لأنوبيس الذى كان ينتمى لهذا المكان باعتباره حامى الموتى ؛ وكان لعشترتى (صفحة ١٦٩) هى الأخرى معبد هناك ؛ ويظنّ أن الفينيقيين ، الذين كان لهم حىّ خاصّ فى منف ، قد عملوا على أن يكون لإلهتهم الأثيرة عندهم مكانها كذلك فى السيرابيوم . ومن معبد أنوبيس كان هناك طريق مقدس يتجه إلى الغرب ، ويؤدى إلى الصحراء بين صفين من تماثيل أبى الهول ،

---

(١) Otto, Priester u. Tempel, S. 392.

(٢) Schubart, Ae. Z. 56, 94.

(٣) Pap. greci e latini della società italiana 4,328.

(٤) Spiegelberg, Ae. Z. 43 129.

(٥) Schubart, Aegypten, S. 258 f.

(٦) Wilcken, Urk. I, 19.

وكان يجتازه الموكب الجنازى الفخم ، وذلك عند نقل رفات العجل المتوفى إلى المعبد ثم إلى القبر .

وكان ينزل فى المنطقة المحيطة بالمعبد نزلاء مختلفون ، وتقوم فيها مبان من كل نوع منها الدينى ومنها الدنيوى ، على نحو ما يحدث عادة فيما تكثر زيارته من أماكن الحجّ . فكانت هناك نُزل لحجاج البقاع المختلفة ، كما كان يقطن هناك مختلف الصناع والخبازين وتجار الملابس ، وكذلك الأطباء ومفسرو الأحلام ، وبذلك كان الطريق المقدّس المؤدى إلى السيرابيوم أشبه بالسوق [1] .

وقد احتفظ سيرابيوم منف فى مجموعه بالطابع المصرى ، حتّى بعد أن استحال معبوده أوزيريس أبيس إلى سيرابيس العظيم . غير أنه بانتشار شهرته فى العالم الهللينى أخذ يتطرّق إليه التأثير الإغريقى . فعلى الطريق الذى كانت تحفّ به تماثيل أبو الهول أضيفت إلى هذه الكائنات الخيالية المصرية أشكال أخرى من خيال الإغريق كالسيرينات ، بل لقد كانت تقوم فى موضع آخر منه تماثيل افلاطون وبروتاجوراس وبندار [2] . ويعلم الله وحده ما الذى كان يبحث عنه هؤلاء الفلاسفة فى ذلك المجتمع الخليط من حول مدافن العجول .

وتتيح لنا بعض الوثائق الخاصة من منتصف القرن الثانى قبل الميلاد أن ننظر إلى ما كان يعترك فى ذلك المكان العجيب من حياة . فنجد أوّل الأمر فتاتين فقيرتين دفعتهما قسوة الحاجة إلى الالتجاء إلى السيرابيوم . حيث كان يقطن صديق قديم لأبيهما الراحل . وقد جعل كهنة المعبد منهما « توأمتين » . تقومان فى مدفن أبيس بدور إيزيس ونفتيس اللتين بكتا أوزيريس الشهيد . وقد قامت الفتاتان بذلك ، كما أنهما كانتا فضلا عن ذلك تقومان بأداء « الطقوس فى المعبد » [3] . وكانتا تحصلان أول الأمر على دخل ضئيل . غير أن كهنة المعبد لسوء الحظّ لم يكونوا يوفون لهما به دائما [4] . فكان أن دفعهما العوز إلى كتابة الشكاوى تلتمسان فيها إلى الملك عونه

---

(١) Otto, Priester u. Tempel, S. 283f.

(٢) Wilcken, Urk. d. Ptolem. I, 11 f.

(٣) نفس المرجع ١٩٤ ، ٢٤١ ، ٢٥٣ .

(٤) نفس المرجع ٢٠٠ .

حتى لاتضطرا بدافع الحاجة إلى هجر المعبد[1] . ولم يكن فى وسع الرجل الذى آواهما بالمعبد أول الأمر – وكان يعنى بهما عناية أبوية – أن يساعدهما مساعدة جدية ، إذ لم يكن كاهنا ، وإنما كان من المستبقين ليس غير ، أولئك الذين كانوا يأوون إلى السيرابيوم [2] ، ويعيشون فيه عاما بعد عام ، ولا يسمح لهم بمغادرة منطقته[3] دون أن يأذن لهم الإله سيرابيس الذى استبقاهم . ولسنا نعرف كيف كان يتمّ هذا الاستبقاء ، وأىّ الأعمال كانوا يقومون بها للإله فى المعبد . لقد كان الإله يبعث إليهم بالرؤى ، وكانوا يعرفون كيف يؤوّلونها ، وكانوا على اتصال به ، ولذلك كان أصحاب السلطة والملك ذاته يخشون الإله فى معاملتهم [4] ، على أن هذا لم يكن ليمنع حقا من أن يكون هؤلاء المستبقين شحاذين[5] ، يعيشون على استجداء زوّار المعبد ؛ بل فيهم من كان يستعين ببنية صغيرة تعاونه فى عمله هذا . وكانوا يعيشون فى هيكل عشترتى ، ويحصلون على دخل ضئيل من المعبد [6] . غير أن من يقرأ الشكاوى التى وجهها المستبق بطليموس بن جلاوكياس إلى الملك والموظفين يرى أنه لم يكن لأفراد هذه الجماعة من الحياة حظ زاهر . فقد كان الجميع يسيئون معاملته [7] . سواء كانوا خدم المعبد أو الطبيب أو تجار الملابس ؛ وكانوا جميعا يريدون اقتحام مسكنه عليه واغتصاب متاعه ، وقد نهبته إدارة الشرطة التى كانت توجد بالقرب من معبد أنوبيس . وقد ادّعى أن الكهنة سمحوا بهذا كله ، لأنه إغريقى لامصرى . على أنه الأقرب إلى الظنّ حقا هو أن كهنة المعبد لم يكونوا ينظرون بعين الرضا إلى هؤلاء الرعاع الأتقياء ، الذين حلوا بين ظهرانيهم فى كنف الإله .

---

(١) نفس المرجع ٢٦٠ .

(٢) عن المستبقين فى السيرابيوم وغيره ، انظر Wilcken, Urk. d. Ptol. I, 50 ff. وعمن كانوا فى برين . انظر صفحة ٦٨ ، وفى أبيدوس صفحة ٥٩ ، وعن الزهاد صفحة ٧١ .

(٣) نفس المرجع ص ٥٥ .

(٤) Wilcken, Urk. d. Ptol I 53; 173.

(٥) نفس المرجع ١١٨ .

(٦) نفس المرجع ٦٧ .

(٧) نفس المرجع ١٣٠ ، ١٣٨ .

ويدل ظهور سيرابيس على بداية عقيدة جديدة يمكن تسميتها بالعقيدة الإغريقية المصرية . وكانت دينا خليطا لم يكن لينشأ إلا حيثما يعيش جماعة من شعبين معا على اتصال قوىّ ، بحيث لايكاد يعرف الكثير من الأفراد إلى أىّ فريق ينتمون . فهم يتصاهرون فيما بينهم ، ويتكلمون اللغتين معا ، وإذا ما حزبهم أمر تولوا إلى ذلك المعبود الذى كان يعتبر أفضل مساعد فى منطقتهم ولو انتمى إلى الشعب الآخر . وقد تمّ هذا الامتزاج فى مصر بسرعة نسبية ، ودون أن تعوقه المظاهر الخارجية الغريبة للمعبودات المصرية ، بل لقد جذبت هذه المظاهر بالذات إليها الإغريق المثقفين أيضا ، وذلك لأنهم كانوا ينشدون فى التصوّف عوضا عن عقيدتهم الخاصة التى لم يبق لها معنى عندهم . ومنذ العصر الرومانى ، لم يكن هناك سوى دين واحد . على أن ذلك لم يكن فى حقيقة الأمر صحيح إلا بالنسبة لعقيدة الجمهور وحده ، أما فى المعابد فقد ظلّ الاعتقاد القديم فى الآلهة المصرية ثابتا لايتغير ، ولم يؤثر فيه العصر الحديث أى تأثير يذكر . وهكذا كان للدين صورتان : إحداهما صورة حديثة للحياة العادية ، والثانية صورة قديمة لعبادة الآلهة فى المعابد . ولم يكن الأمر يخلو من اختلاف وتناقض بينهما ، على أن هذا قلما كان يضير المؤمنين : حقا لقد كان كل شىء فى المعبد يبدو عتيقا مختلفا عما كان يوجد خارجه ، فماذا كان يمنع من أن يسمى سيرابيس فيه كذلك باسم أوزيريس ؟ ولماذا لايكون له كذلك شكل آخر مختلف تماما ؟ ففى المعبد كان يتخذ شكل المومياء بتاج عال ولحية مضفورة ، أما فى خارجه ، فقد كان فى هيئة إغريقية جميلة على شكل رجل قوىّ له شعر ولحية أشعثين وعلى رأسه المكيال . وكان الشعب يتمثله على هذه الصورة عند ما كان يتجه إليه بالعبادة .

ومع الزمن أخذت الآلهة القديمة التى كان الشعب لايزال يعبدها تفقد خصائصها شيئا فشيئا . أجل لقد حدث فى العهد السابق للعصر الإغريقى أن أخذ يختلط الكثير من الآلهة المصرية بعضها ببعض ، وقد زاد ذلك الآن فامتزجت الآلهة المختلفة فيما بينها ، كما امتزجت مع آلهة الديانة الإغريقية . وإذا كانت إيزيس بإخلاصها لزوجها وحبها لابنها قد ظلت شخصية واضحة المعالم ، فقد جرت العادة على رغم ذلك

بالخلط بينها وبين حاتحور وغيرها من الإلهات، وبذلك أصبحت شخصية مبهمة غير واضحة ، بحيث يمكن أن يقال تقريبا إنها غدت الإلهة بصفة عامة ، وقد سميت فعلا فى إحدى المرات « الجوهر الجميل للآلهة جميعا » [1] ، وفى نشيد من العصر الرومانى أصبحت تعتبر بصفة عامة إلهة كل مدينة ، وأصبح على كل من نيت وباستت وبوتو وغيرهن أن تقنع بأن تصير إيزيس .



١٥٩ — إيزيس — حاتحور — أفروديت
(برلين ١٣٧٩١)



١٦٠ — إيزيس ومعها الدفة وبوق الوفرة

إلى جانب هذا أصبح لإيزيس إذ ذاك دور جديد ؛ فهى بوصفها إلهة ثغر الإسكندرية قد أصبحت حامية الملاحة ، وبهذه الصفة كانت تمثل ومعها الدفة وبوق الوفرة وعليها رداء يكاد يشبه طراز أردية النساء من الدولة الحديثة ذو طيات كثيرة وعقدة على الصدر . أما حيث كانت تقوم بدور حاتحور — أفروديت ، فقد كان ينبغى أن تبدو عارية حبا لهذه الرفيقة الإغريقية ، وإن كان فيما تتخذه من حلية رأس مصرية ما لايكاد يتفق مع هذا العرى . وكانت فى الأدوار الكثيرة التى كانت تقوم بها كإيزيس — تيشى ، وإيزيس — أثينا ، وإيزيس — أرتميس ، وإيزيس عشترتى [2]

(١) Oxyr. Pap. XI, 1380. سطر ١٢٦
(٢) Schubart, Papyruskunde S. 340-341.

تتخذ كذلك أشكالا خاصة وإن كنا لا نستطيع تمييزها . وفى مساكن العصر الرومانى نجد بين تماثيل الآلهة من الصلصال أشكالا صغيرة متنوّعة لإيزيس ، كانت تعتبر عند العامة من الناس تماثيل مقدسة ، وكثيرا ما كانت تزوّد بمصابيح تضاء فى عيد المعبود تكريما له . وفى هذه التماثيل الصغيرة يتجلى الشغف بإبراز الجانب الإنسانى فى إيزيس . فقد كان يستحبّ تمثيلها مع رضيعها وهى تعطيه ثديها ، فى وضع يذكّر فى بعض الأحيان بتماثيل السيدة العذراء بما يثير الدهشة .

وكان المصريون — منذ عهد سحيق — يتمثلون إيزيس فى نجم الشعرى اليمانية (سوتس) [1] . الذى كان ظهوره فى الأفق الشرقى ينبئ بالفيضان ، وإذ كان الإغريق يدعون هذا النجم « الكلب » لذلك أصبحت إيزيس — سوتس تمتطى كلبا يلمع على رأسه النجم . وقد تمثلها المصريون كذلك على هيئة الأفعى ، المدافعة القديمة عن رع (صفحة ٧٨) ، ولإرضائها اتخذ أوزيريس صورة الأفعوان أيضا . ويدلّ على إيزيس فى هذه الحالة السستروم، وهو الآلة الموسيقية القديمة للنساء



١٦١ — إيزيس (برلين ٨٧٠٤ ، ٩٩٥٦ ، ١١٤٨٧) .

(صفحة ٢٠١). ثم الجرّة التى كان يراق منها فى المعبد الماء قربانا لها . أما أوزيريس فتدلّ عليه كإله للموتى ، يستدرج الناس إلى النوم ، ثمرة الخشخاش ، وذلك حسب

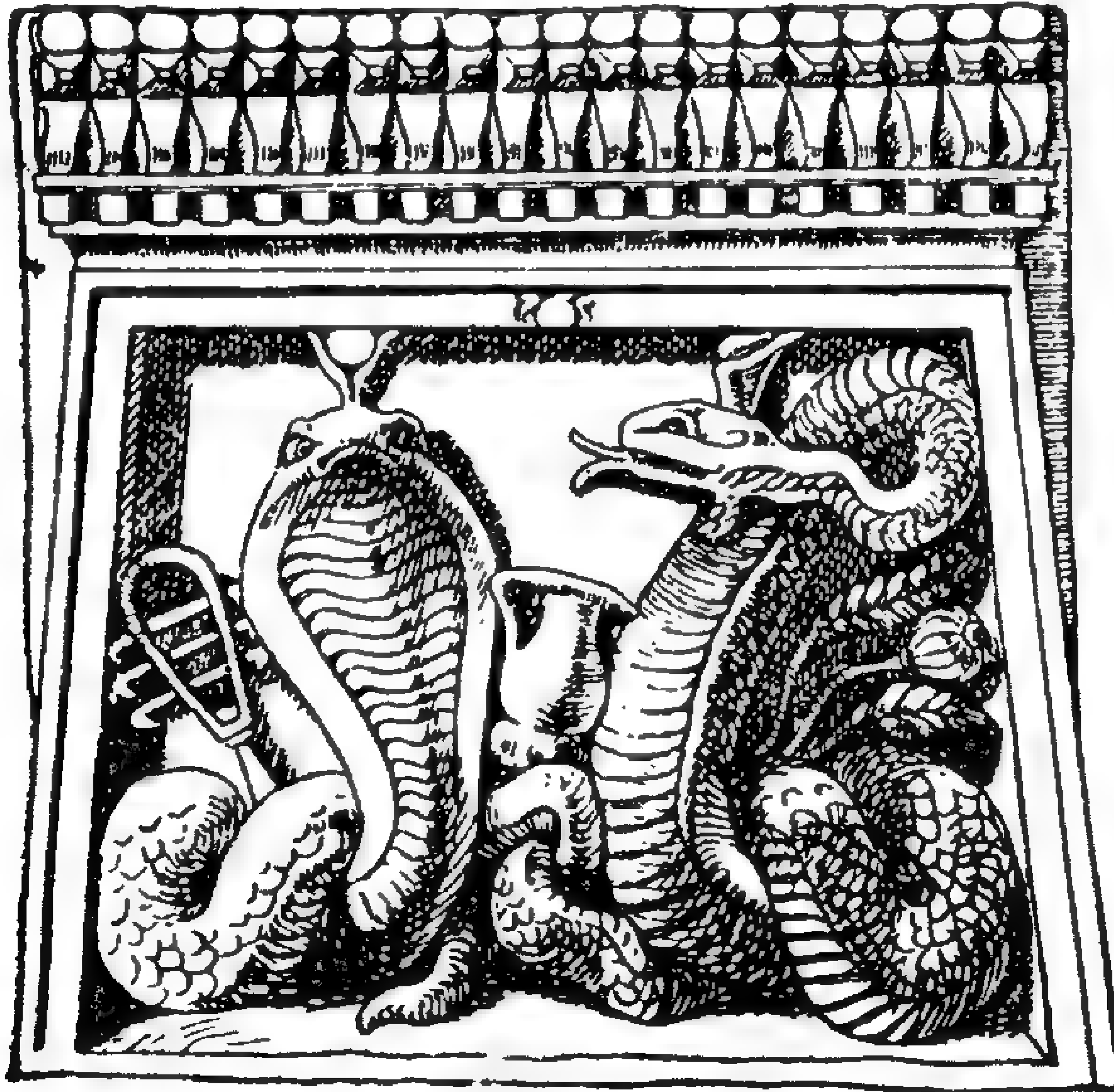
---

(١) كان أهل مصر فى العصر اليونانى يخلطون أحيانا بين إيزيس سوتس وساتس إلهة اليفانتين .
Roeder, Ae. Z. 45, 22.


١٦٢ – أوزيريس فى هيئة المومياء (برلين ٩٣٦٨).

أحد الرموز الإغريقية . وفيما عدا ذلك كان أوزيريس يبدو على شكل مومياء متوّجة طفقت تتخذ مع الزمن شكل آنية . بيد أنه كان يفضل تمثيله فى هيئة سيرابيس على عرشه كحاكم العالم السفلى وإلى جواره كلبه .

ولكن لم يكن ثمة إله أحبّ إلى قلب عامة الشعب من « حورس الطفل » (حرباخرد) ، أو كما يسمى فى الإغريقية حربوقراط . وكان يمثل بهيئة طفل سمين ، يمصّ أصبعه أو يلعب ، ومن هذا يتضح ما كان يعجب المصريين أن يتمثلوه بصفة خاصة فى هذا الطفل الصغير . على أنه إلى جانب ذلك كان يبدو كذلك ككائن إلهى ، فقد كان يجلس كأنه خليفة إله الشمس فى السفينة (صفحة ١٩) ، أو فى الزهرة (صفحة ٧٣) ، وقد يمتطى كبش آمون . وقد وجدت


١٦٣ – إيزيس وأوزيريس فى مقصورة (برلين ٨١٦٤) .

الأوزة ، التى كانت تعبد فى طيبة منذ الدولة الحديثة كحيوان مقدس لأمون ، طريقها كذلك إلى حربوقراط ، فهو يمتطيها أو يطعمها فى حنان لفتة . وإذا كان



١٦٤ – حربوقراط بتاج القطرين (برلين ٢٤١٠).

هذا الإله الصغير قد مثل فى بعض الأحيان وقضيبه منتصب ، فانه يبدو أنه قد أخذ ذلك عن مين ؛ ولكننا لانعرف سبب اتخاذه كذلك هيئة الرجل العجوز يحمل سلة فى ذراعه . وقد يحمل حربوقراط أحيانا ، جريا على العادة الإغريقية ، بوق الوفرة ، يوزّع منه عطاياه ، على أنه كثيرا ما يستبدل بهذه الأداة الشعرية قدرا قد تحتوى فى الأغلب على الغذاء الذى يهبه الإله للناس .

وقد نافس هذه الآلهة الثلاثة فى مكانتها وشهرتها إله آخر ، هو بس ، الذى لم تكن له من قبل غير أهمية ثانوية (صفحة ١٦٦) . وقد ظلت هيئته هزلية كما كانت من قبل . ولكنه كان يؤثر أن يتخذ هيئة المحارب ينتضى السيف ويمسك بالترس (انظر شكل ١٧٠) . وثمة آلهة أخرى من أصل قديم كانت تبدو كذلك فى هيئة الجند ، ومنها أنوبيس وأوبوات . وهو ابن آوى القديم ، ويمثله تمثال صغير فى مجموعة برلين فى هيئة جندى ملتح يمتطى صهوة جواده . أما حورس



١٦٥ – حربوقراط (برلين ، ٩١٠٩ ، ٨٧٩٤ ، ٩١٠٦ ، ٩١٨١) .

برأس الصقر فإنه يبدو لنا على هيئة المحارب الراجل أو الفارس يقذف برمحه نحو عدوّه الذى يبدو أحيانا فى هيئة التمساح من تحته ، وذلك تماما على نحو ما يبدو القديس



١٦٦ – معبد صغير فيه حربوقراط (برلين ١٢٤٦٠) .

جورج فى الفن المسيحى . ولم ينس ذلك العهد كذلك العجل أبيس والبقر المقدس والقردة والقطاط والتماسيح والصقور .

وإلى هذه المعبودات القديمة انضم زيوس وهليوس وأرتميس وأفروديت وديونيسيوس وهرقل وبرياب . وفى الحق لقد تمصرت هذه المعبودات فى أكثر الأحيان ، حتى كان على هليوس نفسه أن يحمل على يده تمساحا . ولكن ما كنه الأشكال الأخرى التى نجدها بجانب هذه الآلهة ؟ وما كنه أبو الهول المجنح الذى يضع كفه على عجلة [1] ؟ ومن تكون هذه المرأة العارية بتاجها الكبير ؟ ومن تلك الحسناء الماثلة ذات الذراعين العاجزتين ؟ ومن هى تلك الثالثة فى المجموعة . التى تبدو كمارد بطين يربض على الأرض بساقين منفرجتين ؟



١٦٧ – حورس المحارب (برلين ١٧٥٤٩) .

وكل ما نستطيع أن نذكره هو أن ديانة العصر الإغريقى – الرومانى كانت تزداد على الدوام ابتعادا عن الديانة القديمة . وكانت تتجه نحو البساطة بادماجها المعبودات القديمة المختلفة معا ، على أنها كانت تضيف إليها دائما مخلوقات صغيرة جديدة . لعل أحدا لم يكن يعرفها خارج مناطق عبادتها ، وإن كان لها فى مناطقها شأن يذكر . ولسنا نعرف عنها عادة غير أسمائها ، ومن العبث التساؤل عمن

(١) وإنا لنجده كذلك على نقش كبير فى متحف برلين ، وقد تألف جسده من أجزاء آلهة مختلفة (متحف برلين رقم ٢٠٨٤٠) .

تكون الإلهة تريبس أو الإله فنوير بالفيوم [1] ، ومن هو كولانتس بإخميم ؟ ثم من هو ذلك الإله الكبير أنطايوس ، الذى خلع اسمه على إحدى مدن الصعيد ؟ وكان يمثل على هيئة رجل ملتح ، وفى قدميه حذاء طويل وعليه درع وسلاحه السيف والرمح ، وفى يده غزال ، من المحقق أنه كان ، على مثال ما كان عليه الأمر فى العهود القديمة (صفحة ١٩٨) ، يكنى به عن الكائنات الشريرة التى يقهرها ، وإلى جانبه رفيقته نفتيس [2] . وبصفة استثنائية يمكننا أن نقول من أين أتى الإله الجديد برامارس ، الذى كان يعبد فى الفيوم فى القرن الثانى [3] ، حيث كانت توجد إحدى العجائب الكبرى لمصر ، وهى ما يسمى اللابرنت . وهو المعبد الجنازى لأمنمحات



١٦٨ — بس المحارب الحامى (برلين ٨٤٤٢) .



١٦٩ — أنوبيس المحارب . من البرنز (برلين ١٤٤١٨) .



١٧٠ — حورس المقاتل (برلين ٩٦٨٥) .

الثالث ، الذى كان يسمى فى العهد الإغريقى لامارّس [4] . وقد أصبح هذا الملك يعبد باسم الإله « برامارّس » فى هيئة الإله التمساح . وقد أدت عبادة هذا الملك القديم إلى أكثر من هذا . وذلك لأنه إذا كان يحتفل به إلها ، فما كان ينبغى أن يصنع أقلّ من

---

(١) Berl. Griech. Urk. Nz. 471 : Scharff, Ae. Z. 62, 90.

(٢) Golenischeff, Aeg. Zeitschr. 20, 135; 32, 1.

(٣) Rubinsohn, Aegyp. Ztschr. 42, 111.

(٤) كانت الصيغة القديمة لهذا الاسم قريبة الشبه فى جرسها من لفظ لاموريا ، وقد أدت بالإغريق إلى تسمية هذا المعبد باسم اللابرنت .

ذلك بذلك الذى شاد ذلك المعبد الهائل ، وقد جاء فى إحدى الأساطير المتأخرة أنه كان مهندسا يسمى بتى سوخوس[1] . وبذلك أصبح بتى سوخوس هذا إلها ، واكتسب من الشهرة ما جعله يختلط مع الإله التمساح سوخوس ـ سبك ، المعبود القديم لهذه المنطقة ، حتى لقد كان هذا الإله يسمى أيضا بتى سوخوس[2] .

وكذلك أولئك الحكماء القدامى ، الذين كانوا على نحو ما رأينا (صفحة ٣٦٤) يمجدون كأنهم قديسون ، لقد أصبحوا على نحو صريح من الآلهة[3] ، الذين يتمتعون فى بعض الأماكن بعبادة رسمية . وأولهم جميعا المهندس إمحوتب ، أو إموتس كما سماه الإغريق ، وكان يعتبر ابنا لبتاح ، وقد أضحى الآن إلها شافيا ، فهو : « ربّ الحياة يهبها لمن يحبّ وربّ الصحة »[4] . وقد سوّى الإغريق بينه وبين أسكلبيوس تماما . ولسوف نعود فيما بعد إلى الكلام عنه وعن الكتاب الذى يقال إنه صنفه (صفحة ٤٤٧) .

وإلى هؤلاء جميعا يضاف مختلف الآلهة الأجنبية ، وذلك لأن الدعاية الدينية قامت فى مصر كما قامت فى سائر أجزاء الإمبراطورية الرومانية . وقد أصبح فى مصر كذلك أتباع لأدونيس وللأم الكبرى ولميترا[5] .

من هذا يستبين المرء أن اضطرابا كبيرا كان يسود هذه الديانة المتأخرة . وقد كانت الآلهة كثيرة حقا بما فيه الكفاية ، وإنه لمن المضحك شيئا ما أن تنعم الحكومة الرومانية كذلك على البلاد بإلهها جوبيتر الكابيتولى وبربتها روما . على أن هـذه الديانة الرسمية لم تظفر فى حقيقة الأمر بأشياع كثيرين ، وإنما زادت فقط فى عدد الأعياد وفى نفقاتها التى كان على الجماعات أن تحمل عبأها ، وبالإضافة إلى سائر الاحتفالات الأخرى كان يجب عليها أن تحتفل كذلك بعيد ميلاد روما وعيد ميلاد الامبراطور .

---

(١) لابد أن كانت هذه الأسطورة حديثة جدا ، تدل على ذلك صيغة اسم بتى سوخوس .

(٢) انظر : Schubart, Papyruskunde S. 351

(٣) هكذا كان أيضا أمنحتب بن حابو على نحو ما جاء فى إحدى الكتابات الديموتيقية المنشورة . (Spiegelberg, Ae. Z. 50, 47).

(٤) هكذا فى فيلة ، حيث كان له معبد خاص أيضا .

(٥) فى متحف برلين نقش ردىء لميترا من مصر ؛ انظر أيضا Schubart, Papyruskunde S.353.

وكما أن لدينا عن الفترة السابقة للعهد الإغريقي ما كتبه هيرودوت ، الذى ينبئنا بما لم يرد عنه شيء فى نقش أو بردية ، فلدينا عن العصر الإغريقي الروماني ما كتبه استرابو الذى جاب مصر حوالى عهد أغسطس . وقد كانت مصر إذ ذاك بالنسبة للعالم الرومانى ما أصبحت عليه الآن ، أى كانت بلاد العجائب التى كان يجب أن تشاهد فيها الأهرامات وتمثالا ممنون وقبور الملوك بطيبة ، والتى كان السائح يكتب اسمه على آثارها القديمة . ولا يعنينا هنا ما وجد فيه استرابو مثارا للدهشة من هذه العجائب . غير أن فيما كتبه ما لاينبغى أن نغضّ الطرف عنه . فهناك أولا ما يرويه عن عبادة الحيوان . وهو يخصها بدور كبير من الأهمية ، يفوق مايخصها به هيرودوت حتى ليبلغ به الاعتقاد أن يقرّر أنه لم يكن بالمعابد المصرية تماثيل للآلهة ، وإنما كانت فيها تماثيل لحيوانات مقدسة ليس غير [1] . ولعلّ فى هذا ما يشير إلى أن هذا السائح الأجنبى قد وجه جلّ انتباهه إلى هذه الناحية الغريبة من الديانة المصرية . أجل إنه لاسبيل إلى الشك فى أن عبادة الحيوان قد زادت أهميتها منذ هيرودوت . ولقد كان ذلك العهد هو العهد الذى نظم فيه نصّ جنازىّ حافل بالمشاعر القوية وذلك فى أبيات إغريقية رثاءً لثعبان سام مقتول : « بنواح عال ابكنى أنا الثعبان المطهر ، ذا العمر المديد . الذى ساقته يد أثيمة إلى العوالم السفلى » [2] . وهو ذلك العهد الذى فيه أهلك العامة رومانيا لأنه قتل هرّة عفوا [3] ، وتقاتلت فيه مقاطعتان متجاورتان لأن إحداهما كانت تعبد سمكة وكانت الأخرى تعبد كلبا [4] . على أنه كان يتصل بعبادة الحيوان ما لم يكن بسيطا ساذجا . فإذا كان أهل دندرة كانوا يكافحون التماسيح ، فقد كان ذلك عملا صالحا طالما كان يحدث عن تقليد دينى ؛ ولكنهم فطنوا كذلك إلى ما يمكن أن يجنوه بذلك من ربح ، فطفقوا يعملون فى روما مروّضين للتماسيح [5] . وكانت الحيوانات المقدسة فى المعابد تعتبر حقا مما يستحقّ

(١) Strabo 17, 28.
(٢) Berl. Ausf. Verz. S. 339.
(٣) Diodor I, 84.
(٤) Plut. Is. et Os. 72.
(٥) Strabo 17, 44.

الرؤية ، ولهذا كان أبيس وأمه يقيمان فى هيكلين صغيرين يشرفان على فناء . وكان يسمح بالتطلع إلى أبيس من خلال الباب ؛ ومن أجل الأجانب كان يسمح له بأن يرتع برهة فى الفناء ، وذلك على وجه التحقيق لقاء أجر كاف [١] . وكان يسمح كذلك بتقديم الطعام له ، فإن لم يتقبله الثور المقدّس كان فى ذلك فأل سيىء [٢] .

وفيما عدا ذلك كانت لأبيس أيام كثيرة يخرج فيها ليشاهده الشعب ؛ وكان رجال الشرطة يفسحون له الطريق ، بينا تجرى من حوله جموع الصبية تتغنى بمدائحه حتى يأخذهم الذهول فيتكهنون [٣] — وهذه سمة غريبة ، وذلك لأن الهيام المذهول كان غريبا عن المصرى الرزين .

ولندع استرابو يقصّ بنفسه كيف شاهد التمساح المقدّس سوخوس فى أرسينوى ، « وهو يطعم خبزا ولحما مما يأتى به الأجانب دائما عند ما يجيئون لشهوده . وقد مضى بنا مضيفنا ، الذى كان من علية القوم ، والذى كان يجوب بنا هناك ، إلى البحيرة ، وقد أحضر معه من طعام الغداء فطيرة صغيرة وشواء من لحم وإبريقا صغيرا من شراب العسل . وقد وجدنا الحيوان راقدا على الشاطئ فاقترب الكهنة منه ، وفتح بعضهم فاه وألقمه أحدهم الفطيرة واللحم ، ثم سكب فيه بعد ذلك شراب العسل ؛ ومن ثم قفز التمساح فى البحيرة وسبح إلى شاطئها الآخر . ولما جاء أجنبى آخر يحمل هدية أخرى جرى بها الكهنة سراعا حول البحيرة وألقموه إياها » [٤] .

وكان إطعام التمساح مما يجب أن يشاهده السياح فى مصر ؛ وهو بعض ما يتمثل من مناظر مصرية على قطعة من الفسيفساء فى متحف الكابيتول ؛ وكان عند تقدير تكاليف زيارة رسمية ، يعمل كذلك حساب ما يقدّم للتمساح المقدس من طعام [٥] .

وكان الرجل المثقف فى مصر يرجو كذلك أن يشاهد الكهنة الحكماء الذين قيل

---

(١) نفس المرجع ١٧ ، ٣١ .

(٢) Plin. H. Nat. VIII 185.

(٣) Plin. H. Nat. VIII 185.

(٤) Strabo 17, 38.

(٥) Schubart, Aegypten, S. 222 . يتعلق الأمر هنا بزيارة لمبعوث رومانى فى القرن الثانى قبل الميلاد .

عنهم إن الإغريق تعلموا عنهم كثيرا . وقد شاهد استرابو دورهم بهليوبوليس ؛ أما « الفلاسفة والفلكيون » أنفسهم فلم يَعُدْ لهم وجود؛ وقد قابل استرابو كذلك « مقدمى القربان والأدلاء » [1] . أما كهنة طيبة فقد كانوا لايزالون يُعتبرون أهل علم يحسنون إجادة تلك المعارف [2] . وقد عرف استرابو أيضا كاهنات طيبة . وما يقصه عنهن [3] لاينبغى أن نغفل عن ذكره . فقد جاء أنه كان ينبغى أن تنذر لآمون أجمل الفتيات وأعرقهن أرومة ، وكان لها أن تهب نفسها شهرا بأسره إلى من يروق لها ، ومن ثم كانوا يبكونها بعد ذلك ويزوّجونها . هذه الرواية تدعو إلى التفكير فى الزوجات الإلهيات [4] وأوليات المحاظى والمغنيات اللائى كن يؤلفن فى الدولة الحديثة حريم آمون ؛ ولا يملك الإنسان إلا أن يتساءل عما إذا كان هؤلاء النسوة كن أساس هذه الرواية الغريبة . ولكن من يدرى إذا كان استرابو لم يسىء تماما فهم النظم القديمة . إذ ما من مصدر آخر لدينا يعرف شيئا عن هذه العادة المزعومة .

ومع ذلك فإن معرفتنا بظروف الكهنة فى هذا العهد المتأخر لاتكاد تعدلها معرفتنا بظروفهم فى أىّ عهد آخر . ذلك لأنه يضاف إلى كل ما خلف هؤلاء الكهنة من نصوص . البرديات الإغريقية التى تشرح كذلك هذا الجانب من الحياة المصرية .

وإنا لنعلم من شواهد القبور المصرية . ومن التوابيت والنقوش التى نذرها هؤلاء الكهنة . أى آلهة كانوا يتعبدون لها فى معابدهم الخاصة . وأيها كانت تعبد فى المنطقة المجاورة . وإنا لنقرأ فيها أنهم كانوا كهنة عند هذا الملك وعند تلك الملكة . وأنهم كانوا يشرفون على حراسة الابن الإله لمعبدهم . ويقومون برعاية حيوانه المقدس . وكانوا يضمون إلى مراتبهم الكهنوتية أرفع ألقاب دولة الفراعنة القديمة . ويعددون لنا فى زهو وفخر أن الأب والجد والأسلاف جميعا من قبل الآباء والأمهات كانوا كذلك

---

(١) Strabo 17, 28.

(٢) نفس المرجع ١٧ ، ٤٦ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) فى عهد بطليموس فيلادلفوس كان لايزال هناك سيدات من البيت المالك بمثابة زوجات إلهيات لآمون Brugsch, Thesaurus 907

كهنة ممتازين [1] . وكثيرا ما كان يصحب هذا المركز الرفيع الجليل دخل وفير ، وذلك لأن معبدا كبيرا فى ذلك العصر كان فى مركز يضمن فيه لأتباعه حياة رغدة . وفى معبد إدفو مثلا نص يرينا مدى ما كان يمكن أن تبلغه ثروة معبد مماثل ، فهو يحصى فى تفصيل واف جميع ما يمتلكه المعبد من حقول فى القرن الأول قبل الميلاد ، ولايزال كثيرا مما يتضمنه غامضا علينا ، على أن من الواضح أن ما كان يدعيه حورس معبود إدفو أنه من أملاكه الخاصة كان لايقل عن ٣٣ كيلو مترا مربعا ، موزعة على قطع صغيرة وكبيرة فى الوجه القبلى . ويجب ألا يفوتنا أن هذا الإحصاء لايشمل غير الممتلكات العقارية . وأنه لاسبيل إلى تكوين فكرة عما كانت تبلغه بقية ثروة المعبد من أموال معدّة ومن دخول وفوائد [2] .

ولا ينبغى أن يغيب عن الذهن أيضا أن المعابد كانت تدع صناعها ينتجون مختلف الأشياء لا لسدّ حاجتها فحسب ، وإنما من أجل الكسب أيضا . وكان من أهمّ المنتجات الكتان الرقيق والزيوت . وكانت المعابد تنشئ كذلك الحمامات والمخابز ومصانع الجعة لاستثمارها [3] .

ومهما يكن من شيء فلم يكن من الحظّ السيء الانتماء فى العصر الإغريقى إلى أحد المعابد الكبيرة .

على أن الناظر فى أوراق البردى يجد كذلك معابد أخرى كانت موارد الرزق فيها محدودة جدا [4] . فعلى حافة صحراء الفيوم كان يقوم على بحيرة موريس معبد « سبك معبود الجزيرة » ، أو سكنو بايو ، كما كان يسميه الإغريق . وكان لهذا المعبد كاهن أعلى يتقاضى مرتبا ضئيلا لايعدو ٣٤٤ دراخمة ، أما سائر كهنته الآخرون فقد كانوا يتقاضون مجتمعين حوالى ٣٠ لترا من الحنطة يوميا لقاء ما يبذلونه من جهد

---

(١) هكذا ظلت وظيفة الكاهن الأعلى لمنف ثلثمائة عام تقريبا فى أسرة واحدة من عهد بطليموس الأول حتى كليوباترة الأخيرة (Otto, Priester u. Tempel I 204 ff.)

(٢) لقد أقرض مثلا معبد جوبيتر الكابيتولى ، الذى كان ينتمى تماما إلى المعابد المصرية ، إلى ٢١ شخصا مختلفا مبالغ كبيرة وصغيرة فى مرة من المرات .

(٣) Otto, Priester u. Tempel 291 ff.

(٤) كانت الحكومة الإغريقية تجعل المعابد على ثلاث درجات .

وعناء . ولم يكونوا يعفون من أعمال السخرة فى الجسور ، فإذا أعفاهم منها مواطنوهم فإنما كان ذلك من قبيل الجميل فحسب . وفيما عدا ذلك كان ما يدخل للمعبد يصرف على العبادة فيه . فقد كان يجب فى كل عيد الحصول على كتان رقيق لكسوة التماثيل الثلاثة المقدسة ، وكانت تبلغ نفقة ذلك كل مرّة مائة دراخمة ؛ هذا فضلا عن عشرين دراخمة لتضميخ التماثيل المقدسة بالدهن وزيت المرّ كل مرة . وخمسين دراخمة للبخور فى الأعياد، وكانت أعياد ميلاد الأباطرة تقتضى كذلك ٤٠ دراخمة للقرابين والبخور[١].

وعلى الرغم من ظروف هذا المعبد السيئة فقد ظل هؤلاء الكهنة – وكانوا من الفلاحين وصغار الطبقة الوسطى – يعنون بألا يتلاشى ما لوظيفتهم من قداسة قديمة . وقد جعلوا من أبنائهم فى سنّ الصبا خلفاءهم فى طبقتهم الكهنوتيـة . وكذلك ظلت بناتهم حتى بعد الزواج تنتسبن إلى طبقة آبائهن . أما من كان يحيد من هؤلاء الكهان عن تقاليد طبقته . فيرتدى ثيابا من صوف أو يسمح لشعره بأن يطول فقد كانت السلطة العليا تستعدى عليه . وذلك لأن لباس الكتان والرأس الحليق كانا من علامات الكهنة الخاصة منذ أمد بعيد[٢] . وقد كان الختان عاما بين المصريين جميعا من قبل دون أن تنسب إليه حقا أية أهمية خاصة . على أنه أصبح كذلك عادة للكهان . ولم يكن يسمح بأدائه لأبناء أسرهم إلا بإذن من الكاهن الأعلى . وكان ذلك فقط عند ما كان يثبت قدماء الكهنة أن الصبيّ يخلو من أية علامة تجعله غير صالح لأن يكون كاهنا . عدا هذا لقد كان هذا الكاهن الأعلى أكبر موظف لشئون العبادة فى منطقة كبيرة . وهو بذلك كان الممثل للموظف الرومانى الكبير الذى كان بوصفه « الكاهن الأعلى للإسكندرية » و « مصر جميعها » له الإشراف الرسمى على معابد وادى النيل .

مما سلف عرضه جميعا . يبدر إلى الذهن ان ما كان يبذل من عناية بعبادة الآلهة فى هذا العصر كان يفوق ما بذل لها من قبل ؛ ولبيان ذلك نسوق هنا مثلا واحدا ؛

---

(١) ويدل على ضآلة الطاقة المالية للمعابد الصغيرة أنه قد دعا الأمر فى إحدى السنين فى تبتينس إلى عدم إقامة الموكب العظيم للسنة الجديدة . وذلك لأن ملابس الطائر أبى منجل والصقر سرقت عند غسلها (Schubart, Aeg. S. 285)

(٢) وكانت عقوبة مثل هذه المعاصى لا تقل عن ١٠٠٠ دراخمة Schubart, Ae. Z. 56, 89

وهو أن ناحية صغيرة من الفيوم ، لايزيد تعداد أهلها عام ١١٥ ق . م . عن بضعة آلاف ، قد كان فيها ما لايقلّ عن معبدين كبيرين و ١٥ معبدا صغيرا [١] ؛ وكان لابد أن تقوم على رعايتها جميعا الكهنة ، وإذ كان فى معبد واحد ، هو معبد تبتينس [٢] ما لايقلّ عن خمسين كاهنا كانت تعترف بهم الدولة ، فلا مبالغة حقا فى تقدير عدد كهان مصر جميعا من نظاميين وعلمانيين بمائة ألف على الأقل . ولو أن هذا العدد الكبير كان تحت سلطة موحدة لكان له قوّة هائلة ، ولكنه لم يكن كذلك ؛ وفى بعض المناسبات فقط كان رجال الدين يتحدون معا ، وكان أهمّ ما يشغلهم إذ ذاك ابتداع تكريمات جديدة للبيت المالك [٣] .

وإذا ما غضضنا الطرف عن الفوارق التى كان وجودها طبيعيا بين كهنة المعابد الكبيرة والمعابد الصغيرة ، ألفينا أن فى المعبد الواحد كانت مراتب الكهان تتدرّج تدرّجا كبيرا . فقد كان هناك أولا الكهنة الأعلون ، وهم رؤساء الكهنة والعرّافون ، الذين كانوا سادة المعبد حقيقة ؛ وكان لهم حظ حمل تمثال الإله فى الموكب . ويليهم قبل غيرهم القائمون على لباس الإله وعلى المظاهر الخارجية الأخرى للعبادة . أما كهنة الطبقة الدنيا فكانوا يتألفون من العلمانيين ؛ وكان أعلاهم طبقة هم حملة ناووس الإله ، وقد أبت عليهم السلطات الرومانية أن يسموا أنفسهم كهانا [٤] .



١٧١ — كاهنان يحملان تمثال حر بوقراط
(برلين ١٢٤١٧) .

وهناك فارق آخر ، فقد كان رجال الدين يقسمون إلى أربع طوائف وفقا لعرف قديم ؛ ويرجع هذا على مايبدو إلى أن كهنة النوبات القدامى (صفحة ٢١١) كانوا ينقسمون وقتا ما إلى أربع طبقات ، تتولى كل منها

---

(١) Schubart, Papyruskunde, S. 348.
(٢) Schubart, Aegypten, S. 296.
(٣) تتمثل قرارات مثل هذه المجامع فى مرسومى كانوب ورشيد .
(٤) Schubart, Ae. Z. 56, 92.

إدارة المعبد ثلاثة أشهر . على أن أحدا لم يعد يدرك معنى ذلك ، ويدل على هذا أنه فى سنة ٢٣٨ ق . م . زيدت فى كثير من بساطة طائفة خامسة ، كان عليها أن تعنى بتمجيد البيت المالك .

وليس من المستطاع هنا بحث المصادر التى كان الكهان يستقون منها دخلهم فى مختلف العصور ؛ غير أنه من الطريف أنه فى معبد لم يكن يضمّ سوى كاهن أعلى واحد . كان هذا الكاهن يحصل على مالا يقلّ عن خمس مجموع دخل المعبد [1] . ومما هو جدير بالملاحظة كذلك أن الكهنة كانوا يتناولون مرتبات عن قيامهم بأعمال معينة . وكانت هذه المرتبات ثابتة ، بحيث كان يمكن أن يوصى بها كأنها دخل خاصّ ، أو أن يُنتفع بها فى وفاء حساب أو دين [2] .

على أن الشرف التليد والرداء العتيق الخاص لم يكونا ليصنعا كاهنا حقيقيا ، وإنما كانت هناك أشياء أخرى تطلب ممن يسمح له مجلس الطوائف الخمس بأن يكون كاهنا فى حضرة الإله [3] . فقد كان يجب أن يجيد معرفة الكتابات المصرية الثلاث إجادة تامة . وأن يكون ضليعا فى الكتب المقدسة [4] . وكان يجب أن يعرف الأيام والساعات المحدّدة للشعائر المقدسة . وكان عليه قبل هذا وذاك أن يعرف كيف يتخلق بالأخلاق الفاضلة . وكان يجب « أن يكون ذا فم قويم وشفتين عذبتين » [5] . حتى يكون لتسابيحه التى يترنم بها عند تقديم القرابين جرس جميل . وما كان ينبغى له أن يعجل فى خطوه . ولا أن يتحدّث مع آخر بصوت عال [6] .

ومع هذا فإن من يبتغى الحكم على الديانة المصرية فى العهد الإغريقى الرومانى اعتمادا على ما تعلن عنه معابدها فى صورها ونقوشها فحسب ، فلن يفيد من ذلك إلا صورة غير كاملة عنها ؛ وذلك لأن من حولها قد نشأت صنوف مختلفة من الخرافات أخذت تنمو وتنتشر وتبلغ غاية ازدهارها أكثر من قبل . أجل لقد ازدهر التصوّف

(١) Schubart. Ae. Z. 56. 90 (فقرة ٧٩) .
(٢) Schubart, Papyruskunde, S. 355.
(٣) Glanville, Journ. of Eg. Arch. 10, 34 ff.
(٤) Clemens Alexandrinus Stromata V, 4.
(٥) Edfu, II 34.
(٦) Morgan, Ombos II, 245, 878.

وازدهرت الخرافة كذلك فى البلاد الأخرى فى ذلك العصر ، ولكنهما وجدا فى مصر تربة صالحة بنوع خاص ؛ وبذلك شغلت الآلهة إذ ذاك أكثر من قبل بإعلان تنبؤاتها وشفاء الأمراض . وكان الرجل إذا ابتغى الغوث نام فى المعبد ، فينبئه الإله عن مشيئته وقضائه ، وذلك عن طريق رؤيا يفسرها له الكاهن . وقد يحدث حقا أن فى مثل هذا التفسير ما يضلل السائل ويعود عليه بالضرر ، حتى إنه ليقول فى غضبه للمفسر « إنه يكذب كما تكذب آلهته » ، وإن « الآلهة ضللت به فى إيمانه بالأحلام »[1].

غير أن آخرين غيره كانوا يعتقدون فى ذلك اعتقادا قويا ، وكانوا يجمعون ما كان ينسب إلى سيرابيس والآلهة الأخرى من قصص الشفاء ، وذلك فى كتب كانوا يبتغون بها تمجيد الآلهة وفائدة الأتقياء . وقد حفظت لنا مقدمة كتاب من هذا القبيل يشيد بمعجزات الإله إموتس ، وهو الحكيم القديم الذى غدا إلها (صفحة ٤٣٩) ، والذى سوّى الإغريق بينه وبين أسكلبيوس . وفيها يقصّ المؤلف بأن هناك نصا مصريا قديما ، يروى كيف أن الملك منكاورع ، بانى الهرم الثالث ، كان يخصّ إموتس بتمجيده . وأن هذا النصّ ظهر من جديد فى عهد نقطانب ، آخر الملوك الوطنيين ، غير أنه كان بالخط المصرى ، ولهذا لم يكن يفهمه غير الآلهة . وإذ كان مؤلف هذا الكتاب يدين بالجميل لإموتس ، لأنه أبرأ أمه ، فقد آلى على نفسه لهذا الإله أن يترجم النصّ القديم إلى الإغريقية . على أن هذا العمل كان صعبا ، ولهذا أجله . فبعث إليه الإله بأحد الأمراض . وفى الليل « إذ ينام كل شىء عدا المرضى » تملكه الحمى وضيق التنفس والسعال . وكانت أمه تجلس إلى جانب فراشه محزونة « وإذا بطيف إلهى مخيف يظهر فجأة ، ولم يكن ذلك حلما . وكان أكبر من الإنسان وفى ملابس باهرة ، وفى يسراه كتاب ، وقد نظر إلى المريض مرّتين أو ثلاثا من رأسه إلى قدميه . . . » . ولما تمالكت الأمّ نفسها ، أيقظت ابنها فوجد نفسه معافى من الحمى . وفى بحر من العرق . ومن العجيب أن كل ما شاهدته قد رآه هو أيضا فى نومه . وقد قدم للإله الشافى القربان شاكرا ، ولكن الكاهن الذى كان قائما على

---

(١) Wilcken Urk. I 333.

تقديم القربان أشار عليه بأن إنجاز الوعد أحبّ إلى الإله من القربان . وبهذا كتب المبرأ من مرضه كتابه ليعظم من مجد الإله : « ولسوف يروى كل لسان إغريقى قصة إموتس ، ولسوف يمجده كل إغريقى »[1] . ولا يكاد الإنسان يغمط حقّ ذلك الكتاب ، الذى يبدأ على هذا النحو ، إذا اعتبره كتابا للدعاية لوحى إموتس فى منف ؛ وإنا لنعلم ماكان يجرى فى مثل أماكن الوحى هذه مما كتبه لوسيان عن العراف إسكندر الأبونوتيخى ، إن لم نكن نعرف ذلك من مصادر أخرى .

وفى مصر نجد كذلك استلهام الوحى بطريقة رقاع الأسئلة ، التى استغلها بمهارة فائقة صانع الأعاجيب هذا . وقد وجدت أمثال هذه الرقاع فى هيكل سكنوبايو أيضا . ذلك المعبد الصغير الذى كان يقع على حافة صحراء الفيوم ، على الشاطئ الآخر من بحيرة قارون، والذى بقى لنا فيه الكثير من العجائب . وكان أصحاب هذه الرقاع من الفلاحين وصغار الطبقة الوسطى فى هذه المنطقة ، وهى تكشف لنا عن رغباتهم وآلامهم . فهذا أحدهم يسأل الإله عما إذا كان عمدة القرية قد باع بقرة ؛ وهذا آخر يريد أن يعرف هل يفحص حاكم المقاطعة الوثائق ؛ وتلك امرأة ترجو أن تعرف هل لها أن تشترى عبد امرأة أخرى . وآخر يكتب على رقعته : «أيقدّر لى أن أتزوّج تابتويس . وهل لن تكون زوجة رجل آخر . بين لى ذلك وحقق لى هذا الرجاء المكتوب . لقد كانت تابتويس زوجة لحوريون من قبل »[2] . ومن الواضح أن السائل قد أضاف العبارة الأخيرة حتى يتضح للإله تماما ، أىّ امرأة بهذا الاسم هى المقصودة بالذات . وقد ازدهرت هذه الطريقة فى المعابد الكبيرة أيضا ، كما فى أبيدوس حيث كان بس يجيب على رقاع الأسئلة[3] ، وكما فى هليوبوليس ، حيث كانت تقدم للإله رسائل مختومة ، كان يجيب عليها كتابة[4] .

وكان معبد سكنوبايو من أماكن الحج أيضا ، يزوره الحجاج من الأماكن القاصية ، وذلك لأن إلهه كان قريبا من الناس بصفة خاصة ، وكان يستمع فيه

---

(١) Oxyrhynchus Pap. XI 1381. سطر ٢٠٠ .

(٢) Schubart, Papyruskunde S. 357.

(٣) Schubart, Ae. Z. 67, 114 وذلك طبقا لما جاء فى Ammianus Marc. 19. 12, 3

(٤) نفس المرجع طبقا لما جاء فى Macrobius Saturn I, 23

إلى الدعوات أكثر مما كان الأمر فى أىّ مكان آخر . وكان من أمثال هذه الأماكن السيرابيوم فى منف ، ومعبد أبيدوس ومعبد إيزيس بفيلة فى العصر الرومانى بنوع خاص ، حيث نعرف مما لايحصى من كتابات ، أن هؤلاء أو أولئك قد تعبدوا هنا لإيزيس فى ورع وتقوى — وذلك تماما على نحو ما تطلب إحدى الكتابات فى بلاد النوبة من التقىّ : « زر كل معبد للتعبد والدعاء » [1] .

بيد أن ما كان يقدّم للآلهة من دعوات لم يكن لسعادة الغير دائما ، إذ كانت تقدّم إليهم كذلك تمنيات أقلّ ودّا وإخلاصا . فقد وضعت امرأة تدعى ارتميزيا رقعة أمام سيرابيس ضمنتها شكواها ضد زوجها تتهمه بأنه يسرق قرابين مقبرة ابنتها ، فإذا رأى الإله أنه مذنب فليحرمه وأبويه من الدفن وليمحق حياته وحياة كل من ينتمى إليه طوال قيام هذه الشكوى أمام الإله . وقد حرصت أن تضيف إلى هذا أن يعاقب الإله [2] كذلك كل من ينزع هذه الرقعة [3] .

وكان الإنسان يؤثر أن يتجه بالرغبات الخبيثة لا إلى الآلهة العظيمة وكهنتها وإنما إلى الساحر الذى كانت طوعه الآلهة والشياطين على حدّ سواء ، فمن كان يرغب مثلا أن يشلّ عدوّا فقد كان يأخذ رأس حمار ويلطخ قدميه بالطين ، ثم يتجه إلى الشمس ورأس الحمار بين القدمين . وكان يدهن يديه وفمه بدم حمار ، ويمدّ إحدى يديه إلى أمام والأخرى إلى خلف ، ثم يقول : « إنى أدعوك يا من تقطن الفضاء ، يامخيف ، يا خفىّ ، ياقوىّ ، ياإله الآلهة ، يامتلفا ويامخربا ، يامن يكره بيتا يسوده النظام . إنك حينما طردت من مصر سميت « محطم كل شىء ، والذى لايقهر » . أيا تيفون ست إنى أدعوك ، إنى أتمّ رقيتك ، لأنى أدعوك باسمك الحقّ ، الذى به لايمكنك إلا تصيخ السمع : يو — إربت ، يو — باك — إربت ، يو — بُلخو — ست ، يو — يو — باتاتناس ، يو — سورو ، يو — نبوتو سوالت ، اكتيوفى ، إرشيجال ، نب — أبو سوالت ، أبى — رامتون ، لرتكس — أناكس ، إترليوت ، نماربا ،

---

(1) Schubart, Aegypt. S. 312.

(٢) لايزال الإله يسمى أزيرأبيس ، ولهذا فإن هذه الرقعة قديمة جدا .

(3) Wilcken, Urk. I 102.

إمينال ! تعال إلىّ وادن منى ، وأصب هذا أو تلك بالقشعريرة والحمى . لقد أساء إلىّ ، وأهرق دم تيفون . . . ومن أجل ذلك أفعل هذا » [١] . والإله الذى يدعوه الساحر على هـذا النحو هو ست القديم ، الذى سوّى الإغريق بينـه وبين المارد تيفون ، وقد تمثل المصريون منذ عهد مبكر حيوانه المقدّس على شكل حمار (صفحة ٤٦) ؛ وعلى هذا التصوّر تعتمد هذه التعويذة السحرية ، وإليه أيضا يرجع لفظ « يو » المتكرّر ؛ وذلك لأنه هو الاسم المصرى للحمار . ويبدو أن « أناكس » إن هى إلا كلمة إغريقية . أما « إرشيجال » فتدلّ على أن بعض هذه الأسماء قد وردت إلى مصر من مناطق بعيدة ، وذلك لأنها ليست إلا الاسم السومرى القديم لإلهة العالم السفلى [٢] . الذى لابد أن أدخله إلى مصر سحرة بابل . وفيما عدا هذا فإننا نجـد كذلك فى الصيغ السحرية من ذلك العصر صنوفا مختلفة مما لا ينتمى إلى مصر ولا إلى بلاد الإغريق . وهى بالأحرى ذكريات متخلفة عن الديانة اليهودية ، فإن الساحر يذكر فى نفس واحد أوزيريس وسباوت (أى زباوت) . ورؤساء الملائكة وآلهة الإغريق . وكان الساحر إذا أراد أن يظهر له الإله فى الرؤيا جنح إلى الاستعانة بموسى « الذى تجليت له على الجبل » ، ثم يؤكد له بعد ذلك مباشرة بأنه « سيمجده فى أبيدوس » و « فى السماء أمام رع » [٣] . وكانت مثل هذه الأسماء والكلمات الأجنبية كثيرا ما ترد كذلك على قطع الأحجار المنحوتة ، التى كان من المعتاد حملها كتمائم . وكان لابد من أن تمثل عليها آلهة مصرية أو إغريقية أو آلهة نفيلة جمعت بين النوعين فى أشكال غريبة . وإلى جانب ذلك ألفاظ مثل ياو [٤] أبرا ساكس . ياو سباوت أو سمس إيلام (أى الشمس الصغيرة) أوباى إن خوخ (روح الظلام) [٥] .

ودخلت مصر فى ذلك العصر كذلك صنوف جديدة من الخرافات . وقد ازدهرت

---

(١) Thompson, Demot. Magical Papyrus, p. 145.

(٢) Thompson, Demot. Mag. Papyrus, p. 61.

(٣) Thompson, Dem. Mag. Pap. S. 47.

(٤) ياو هو يهوى .

(٥) انظر : Berl. Museum Ausf. Verz. S. 378 ff.

فيها كثيرا ، وهي التنجيم والكيميا وغيرهما ، مما لم يكن له على ما يبدو أصول فيما كان للمصريين من سحر قديم . على أن الأهمية الرئيسية قد ظلت لفنون السحر القديمة وهي : شفاء الأمراض والجروح ، وتعاويذ الحبّ ، ورقى جلب السلطة والهيبة ، وكل التعاويذ الغريبة التي تثير الجنون والمرض . وكان يعتقد أن الساحر في ذلك العصر



١٧٢ – تمائم من الحجر ، تسمى عادة جواهر أبر كساس (برلين ٩٨٦٥ ، ٩٧٩٩ ، ٩٨٥٨) .

يستطيع أن يفهم منطق الطير والزواحف ، وأن يفتح السماء والأرض والعالم السفلي ، وأن يستدعي الموتى من عالمهم . وقد بلغ من انتشار كل فنون السحر هذه في مصر أن أصبح العالم المصري يعتبر في تصوّر العامة في العصر الروماني – في بساطة ويسر – ساحرا أيضا . وترينا قصة لوسيان الطريفة كيف كان الرجل نصف المثقف يتصوّر إذ ذاك الحكيم المصري . فهي تروى لنا كيف أن شابا حمله أبوه على السفر رغبة في تثقيفه ، قد زار مصر أيضا ، فركب النيل مصعدا ، إذ كان لابد من أن يثير تمثال ممنون إعجابه . وفي عودته تعرف في السفينة على رجل مسنّ ، يسمى بنكراتس ، وهو اسم إغريقي ، وقد كان يجيد الكلام بالإغريقية ، على أنه كان مصريا من منف. وكان رجلا كثير الإطراق والتفكير ، له ساقان نحيلتان وأنف أفطح وشفتان بارزتان. وكان رأسه الحليق وقميصه الكتاني يدلان على أنه كاهن ؛ وكان من الكتبة المقدسين ، بل كان « صاحب حكمة رائعة ، خبيرا بالثقافة المصرية جميعا ». وقد قضى ثلاثة وعشرين عاما طوالا في أماكن خفية تحت الأرض ، تعلم فيها السحر من إيزيس نفسها . ولهذا كان يأتي في كل يوم بمعجزة يدهش لها رفيقه في السفر ؛ من ذلك أنه كان إذا توقفت السفينة امتطى التماسيح وطفق يعوم بين الحيوانات ، وهي تأتي إليه خاضعة تهزّ أذيالها ، حتى إن العالم أجمع اعترف له بأنه رجل قديس . ولم يكن بحاجة إلى أن يصطحب معه من يخدمه ، وذلك لأنه حين كان يحتاج إلى من يعاونه في المساء ، كان يتناول أية أداة فيتمتم عليها مقاطع ثلاثة من صيغة سحرية فتستحيل في الحال

خادما يجلب له الماء ، ويقوم له بغير ذلك من خدمات . وعلى الرغم مما أبداه الفتى من صداقة ، فقد كان يحتفظ بسحره هذا سرّا لايبوح له بشيء منه . على أن الفتى عرفه صدفة ، ولم يتوان فى محاولة تجربته بنفسه . ولست بحاجة إلى أن أبحث هنا ماجرّته عليه هذه المحاولة من شرّ ، وذلك لأن « صبيّ الساحر » من تأليف جيتا قد أشاعت هذه القصة بيننا جميعا [1] .

ويتصل كذلك بعالم السحر هذا ، ذلك الأدب الذى نسميه كتب هرمس ، وذلك لما يظن من أنها تتضمن تعاليم هرمس العظيم ثلاثا ، وهو تحوت إله الحكمة القديم ، أو هرمس ترِسمجِستس . وقد اجتذبت هذه الكتب الصوفية وما يماثلها من كتابات بويماندر أشياعا كثيرين ، وفى هذا ما يميز ذلك العصر ، الذى لم يعد فيه المثقفون يؤمنون بالآلهة القديمة ، والذى فيه أخذوا يبحثون فى قلق عن وحى جديد . أجل لاتزال بعض آثار التقاليد القديمة هنا وهناك فى هذه الكتابات (صفحة ٣٨٥) ، ولكنها فى جملتها تنمّ عن روح غريبة ؛ وإنها فى أغلبها لتأملات فلاسفة متصوّفين ، لاضابط لها .

فى هذا العصر ، الذى تبدّلت فيه التصوّرات الدينية كثيرا أو قليلا ، لم تسلم كذلك من تأثير التصوّراتُ المتعلقة بالحياة بعد الموت ، وهى التى يمكن أن تعتبر فى مصر ثابتة لاتتغير . حقا لقد ظلت الطقوس من الناحية الشكلية هى هى بصفة عامة كما سنرى ، ولكن المرء أصبح يتمثل مصائر الموتى على نحو يختلف فى كثير من جزئياته عما كان يتصوّره من قبل ، وتدلّ على ذلك إحدى قصص هذا العهد . لقد كان الكاهن الأعلى خعمواس يرجو أن يكون له ولد ، فأرسل إليه أوزيريس ميتا خبيرا بالسحر ، ولد له كابنه . وكان هذا الابن واسمه سى أوسر رع يعاون أباه بفنونه السحرية ، وقد أدخله يوما إلى العالم السفلى ، وكان ماشاهده الكاهن الأعلى فى هذه الرحلة غريبا جدا ، لاينبغى لنا هنا أن نغضّ عنه النظر .

وقبل أن يلج الرجل وابنه فى جبانة منف إلى العالم السفلى ، قابلا فيها جنازتين ،

---

(١) Lucian, Philopseudes – وإلى هـذا يرجع أيضا ما جاء من أن كفنا العظيم تلقى حكمته « فى أعماق المقابر المصرية » .

أولاهما لرجل ثرىّ تشيعه باكية إلى مقرّه الأخير حاشية كبيرة فى ملابس فاخرة ، والثانية لرجل فقير يُحمل إلى قبره ملفوفا فى حصير ولا يشيعه أحد . وعندما اجتازا الأبهاء المختلفة فى العالم السفلى شاهدا فى الخامس منها « الممجدين الأجلاء » ، وفى السادس كان يجلس أوزيريس نفسه على عرشه الذهبى وإلى جانبه أنوبيس وتحوت مع مستشاريه . ومن أمامه كان الميزان الذى فيه توزن أعمال البشر (صفحة ٢٥٧) ؛ « فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته فإنه يسلم إلى الملتهمة فى العالم السفلى ؛ وتفنى روحه وجسده ، ولا يجوز أن يحيا بعد ذلك . ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته فهو يُتقبل بين المستشارين المقدسين لسيد العالم السفلى على حين تذهب روحه إلى السماء ، مع الممجدين الأجلاء ، وقد شاهد . خعمواس كذلك شتى طوائف المعذّبين ؛ وكان بعضهم فى البهو الرابع » . وقد علق فوق رءوسهم الخبز والماء ، وهم يمدون إليهما أيديهم ، ولكن الأرض تهوى من تحت أقدامهم فلا يستطيعون إدراك الطعام . وكان فى باب البهو الخامس رجل يدور فى عينه اليمنى محور الباب ، وهو يتوسل وينتحب . وقد قال سى أوسررع لأبيه ، إن هذا المعذّب لهو ذلك الرجل الغنىّ ، الذى شاهدا جنازته الفخمة ، فقد كانت سيئاته أكثر من حسناته . وبالقرب من عرش أوزيريس كان يقف رجل عظيم متدثر بملابس فاخرة من كتان ملكى ، وهو نفسه ذلك الفقير الذى نقل إلى قبره فى الحصير . لقد كانت حسناته أكثر من سيئاته ، ولهذا منح متاع الرجل الغنىّ « وجعل بين الممجدين الأجلاء ، بصفته وليا للإله ، يرافق سكر » . وذلك لأن « من يك على وجه الأرض خيّرا يجد فى العالم السفلى خيرا ، ومن يك شريرا يلق شرّا » [1] .

وقد بين سى أوسر رع أمورا أخرى لأبيه ، ولكن معرفتنا للأسف لم تبلغ بنا حدّ فهم عباراته حقّ فهمها . على أنه يبدو أن العالم السفلى فى هذا العصر المتأخر كان يختلف عنه فى العهود القديمة . لقد كان أوزيريس ما يزال يقيم فيه مع آلهته وأطيافه ، ولكن أعمال الإنسان غدت وحدها هى التى تقرّر مصيره ، فمن كان مذنبا فلن تفيده التوابيت والتمائم والأوشبتيات جميعا ، ولسوف تنزع منه وتعطى للفقير ،

(١) ومما يتعلق بهذا أيضا أن شخصا يشكو إلى أوزيريس على أحد شواهد القبور بأنه قتل وألقى به فى إحدى القنوات دون أن يقترف ذنبا . ومعنى هذا على وجه التأكيد أنه ينبغى لأوزيريس أن يعاقب المذنب المجهول . Spiegelberg, Ae. Z. 45, 97 .

الذى كان رجلا طيبا . وكان ذلك المارد الذى يلتهم الأرواح ، لايزال يقوم بعمله فى العالم السفلى ، وكان لايزال يقال عنه إنه يُفنيها ، ولكن خيال الشعب اصطنع كذلك عقوبات للأشرار ، كان عليهم أن يقاسوها بالرغم من فنائهم .



١٧٣ – شاهد مقبرة من العهد الرومانى ، يضرع فيه الموتى أمام أوزيريس على الطريقة الإغريقية (برلين ٢١٢٣) .

وإلى جانب ما حدث فى عالم الموتى من تحوّل . كان فى حقيقة الأمر تطوّرا طبيعيا ، طرأ عليه كذلك تغيير آخر من قبل الأفكار والتصوّرات الإغريقية : فأوزيريس – سيرابيس غدا بلوتو . وتحوت الذى كان يزن القلب أصبح منذ الآن يعتبر هرمس . الذى يقود أرواح الناس إلى الجحيم . وكان يحمل مثله مفتاحا [١] .

وغدا بس يحمى كذلك الموتى . كما كان يحمى الأحياء . وإذ ذاك أصبح يحمل كذلك مفتاحا [٢] . أما حاتحور التى كانت من قبل إلهة الغرب (صفحة ٣٦) ، فقد صارت صنوا مؤنثا لأوزيريس . وبينما كان الموتى حتى ذلك الوقت ينعتون بأوزيريس أصبح يؤثر تسمية الموتى من النساء بحاتحور . عدا هذا . فهناك مسائل أخرى يحوطها الغموض ، ومن ذلك مثلا الإله الذى تمثله صورته على أحد الآثار [٣] .

(١) Berlin, Ausf. Verz. S. 356, Nr. 11651 – وفى حمل الإله الميزان ما يرجح أنه الإله تحوت .

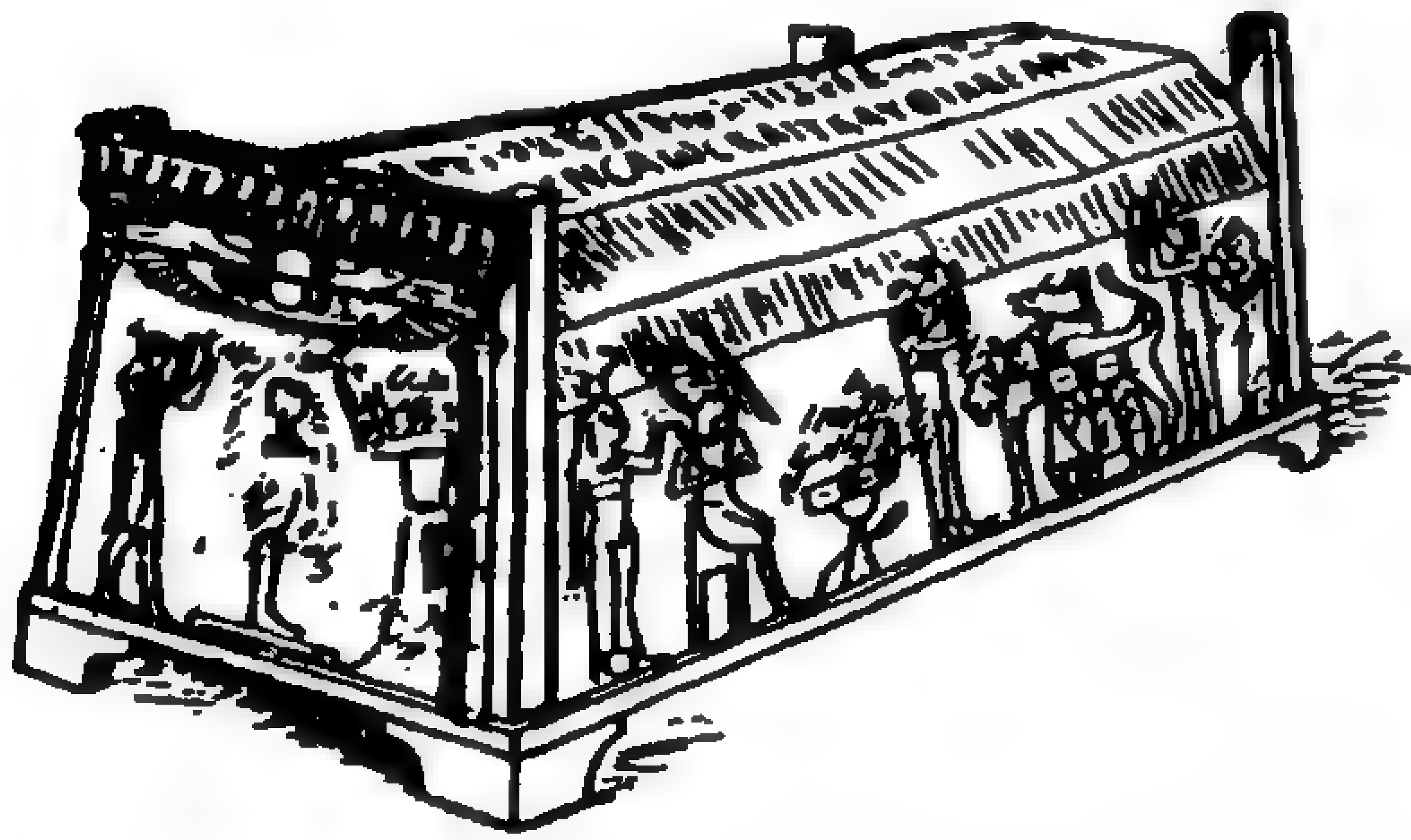
(٢) نفس المرجع ص ٣٤٥ رقم ١٤٢٩١ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٥٦ رقم ١١٦٥١ .

وهو يدلى دلوا ؛ أليحصل بذلك للميت على « الماء البارد » ، الذى أصبح يعتبر حينئذ خير ما يقدمه أوزيريس ؟

وفى العصر الإغريقى الرومانى كذلك ظلت الصيغ الشكلية للدفن فى جوهرها على ماكانت عليه ، بل لقد ازداد فيها الطابع التجارى . وكان هناك أولا المحنطون المتخصصون، الذين يسمون التاريخيتيين الذين تشهد لهم المومياوات إلى الوقت الحاضر بجودة أعمالهم أو رداءتها . ولم تكن نفقات الدفن حقا بالقليلة ، إذ كانت تبتلع دخل سنة تقريبا[1] وبخاصة أن تحنيط طفل قد استغرق اثنين وسبعين يوما ، وفق ما يتضح من عقد حفظ لنا[2] . وكانت الحكومة تفرض كذلك ضريبة على اللفائف اللازمة للتحنيط ، كما كانت فوق ذلك تفرض المكوس على نقل الجثة ، ولم يكن يعفى من الضرائب غير عبور النيل[3] .

وإلى جانب التاريخيتيين النجسين ، كانت هناك جماعة نصف كهنوتية ، يسمون الكواخيتيين « مانحى الماء » ، الذين كان أهل الميت يتعاقدون معهم على رعاية الخدمة الجنازية ، ولهذا كان كل ميت ، يقومون على رعايته ، بمثابة رأس مال لهم ، يحصلون منه على فائدة ثابتة ، وإنه لمن المضحك أن نراهم يتنازلون عن بعض الموتى أو يبيعونهم .



١٧٤ – تابوت الطفلين سنساوس وتكاوق ، وعليه نقوش إغريقية من القرن الثانى بعد الميلاد (برلين ٥٠٥).

ولم يكن للموتى ، الذين يعاملون على هذا النحو ، بطبيعة الحال مقابر كبيرة خاصة على الشكل القديم . على أية حال لم يبق لنا من هذا العهد إلا القليل من هذه المقابر[4] . وكان أغلب الموتى يستقرون فى حفر وآبار بسيطة

(١) Schubart, Aegypten S. 307.

(٢) Spiegelberg, Ae. Z. S. 54, 112.

(٣) Schubart, Aegypten, S. 304.

(٤) ويوجد أعظم هذه المقابر فى الإسكندرية نفسها ، وتحليها صور من الطراز المصرى الإغريقى =

فى الجبانات ، أو يدفنون فى مقابر عامة ، كانت تعدّ فى بعض الأحيان فى المقابر القديمة من العصور السابقة [1] .

ولم يكن لأفقر المومياوات توابيت تدفن فيها ، وإنما كان يكتفى بشدّ جثثهم إلى ألواح من خشب ، أو إلى جذوع من نخيل حتى يكون لها شيء من ثبات . أما مومياوات الأغنياء وتوابيتهم فقد كانت تجهز فى فخامة بالغة وخاصة فى العهد الرومانى . ولم يسبق فى أى عصر أن لفت الجثث فى أكفانها بمثل هذا الكمال ، أو جهز غشاؤها الخارجى بمثل هذا الترف ؛ فكان القناع الذى يغطى رأس الميت يغشى بالذهب ، أو يشكل فى الطراز الإغريقى وبالألوان الطبيعية فى هيئة صورة صادقة للميت . وفى بعض الأحيان كان القناع يصنع ثم يرفع قليلا فوق الرقبة حتى ليبدو الميت كأنه يستيقظ على نحو ما فعل أوزيريس ذات مرّة . وكانت ملامح الميت تصوّر كذلك على لوح من خشب أو على طرف من الكفن ثم توضع هذه الصورة فوق وجه الجثة . وفى أحيان أخرى نجد صورة الميت بأكملها على الكفن ، وذلك كصورة الشاب ديون على قطعة قماش فى متحف برلين . وقد كان بستانيا كما يدل على ذلك « جاروف » وغصن فى يده . وكانت المومياء تزوّد فى أكثر الأحيان عند قدميها بنعلين صوّر على باطنهما أسرى مقيدون ، وذلك لأن الميت ينبغى أن يطأ أعداءه أسوة بأوزيريس . وقد تشكل قدما المومياء على هيئة معبد بحيث يبدو باطن القدمين كأنه قدس الأقداس — ولا يعرف إلا الله أى غرض يقوم عليه هذا التصوّر . وفى أحيان أخرى كانت الثياب تتخذ شكل الجسم . وعندئذ تتحلى اليدان والذراعان بحلية ثمينة أو تمسك تاجا صغيرا من الورد . وفضلا عن ذلك كان يفضل

= الخليط . ومع أن المدفونين فيها من الإغريق ، إلا أنه فى الموت كان « يؤثر اتخاذ العادات المصرية » (Schubart, Aegypten, S. 85)

(١) وكان يحدث أن تستبعد جثث أصحاب المقابر القديمة دون رعاية ، ثم تدفن فى الرمال المجاورة (انظر صفحة ٣٢٥) .



١٧٥ – مومياوات وأغشية مومياوات من العصر الروماني (ا) الميتة ممثلة في ثيابها الكاملة (برلين ١٣٤٦٢) ، (ب) صورة صادقة ملونة للميت (برلين ١١٦٧٣) ، (ج) الطرف الأسفل من غشاء المومياء وقد شكل على هيئة معبد (برلين ١٣٤٦٣) .



١٧٦ – مومياء فى صندوق (برلين ١٧٠٣٩).

فى مثل هذه المومياوات إضافة أشكال للآلهة على الغلاف نفسه أو على قطعة من الكفن تطوى فيها ؛ وهى تمثل إيزيس ترضع الميت أو تمثل أنوبيس وهو يحنطه ؛ ومهما تكن هذه الأشكال قبيحة مشوّهة ، ومهما تكن ضآلة ما بذل صانعوها من دقة ، فإنه كان يظنّ أنها على وجه التحقيق تجلب للميت النعيم .

أما هذا الإعداد الرائع للمومياوات الرومانية فلعله أن يكون مرتبطا بعادة عجيبة ، نعرف عنها يقينا أنها كانت قائمة فى ذلك العصر [1] . فقد كان المرء يحتفظ بمومياوات الأقارب فى البيت إلى حين ؛ كأنه لايقوى على فراقها ؛ وبهذا كانت تقام فى توابيت لها أبواب تنفتح كما تنفتح أبواب الصوان ؛ أو كانت تستقرّ على نعوش جميلة ذات جدران مثَقَّبة على نحو ما يوجد فى مقابر ذلك العصر .

وطبيعى أن هذا الطراز من الدفن إنما كان للأغنياء . ومع هذا لقد عملت كذلك السلطة الحاكمة إذ ذاك على دفن المعوزين دفنا مناسبا ؛ ولم يكن هذا الأمر يسيرا . إذ كانت رغبة كل امرئ أن يستقرّ فى جبانة بلده .

فقد أُرسلت – على سبيل المثال – مومياء إلى أهل صاحبها فى بلدهم . وألحقت بها الصورة التى كان ينبغى أن تزينها . ثم طُلب الإقرار بوصولها [2] . وفى مرّة أخرى ذُكر بأسلوب تجارى وأضح : « سلم المومياء فى بانوبوليس لأن ديديموس من بانوبوليس [3] . وقد يطلب باختصار أن : « تنزل فى ميناء إمّاو » أو « بومبى » . وبذلك كان يكلّف أحد الملاحين بتسليمها إلى القائم بدفن الموتى فى جبانة إمّاو

---

(١) Carl Schmidt, Ae. Z. 32, 56.

(٢) Spiegelberg, Ae. Z. 51, 89 ff.

(٣) Carl Schmidt. Ae Z. 34, 79.

أوبومي ، فيدفنها هذا فى الرمل حيث تثوى مئات من مومياوات أخرى قد أُحسن تنسيقها وزوّدت ببطاقات من خشب . وبذلك كانت تحشد فى مثل هذه المقابر العامة فى العصر الرومانى طائفة مختلفة من المومياوات : فإلى جانب « الكاهن سانسوس » و « السيدة زوجة الطبيب أبوللوتيوس» يضطجع «النجار بسنتيسس» ثم «إيا فريس عبد الفيلسوف يوليوس إيزيدورس » [1] . وثمة شيء آخر يقع فى خاطرنا ونحن نجيل النظر فى بطاقات مثل هذه الجبانة ، وهو اختلاف العبارات القصيرة التى تصاحب الاسم هنا أو هناك . وإنا لنجد من بينها الصيغ المصرية مثل « إن روحك لتحيا » أو « لترزقك حاتحور خبزا » و «لتمنحك منكت جعة » و « لتعطك حست لبنا » [2] . كما نجد كذلك الصيغ الإغريقية : « لاتحزنن » ، « ما من إنسان خالد » « أو « للذكرى الأبدية » . ولكن فيم يعنى أن يقال عن بعضهم « إنه قد أخلد إلى الراحة » ؟ أو إنه قد « ذهب إلى الضياء » [3] ؟ إننا ما كنا لنستطيع تفسير ذلك لو أننا لم نجد إلى جانب اسم آخر مختصر لفظ المسيح . ولو أننا لم نعرف من مصادر أخرى أن مثل هذه التعبيرات إنما كان يستعملها مسيحيو القرون الأولى . لقد كانت المسيحية تنتشر سرّا بين الناس . وإنا لنجد بين الدمى الصغيرة المقدّسة من الفخار ، تلك التى تكلمنا عنها آنفا (صفحة ٤٣٤) . الشكل المألوف للراعى الصالح . وعلى هذا فإن من بين الذين حنطوا وفق الطقوس الوثنية ثم دفنوا وسط قوم وثنيين ، من كانوا فى واقع الأمر مسيحيين ؛ ذلك أن المؤمنين بالعقيدة الجديدة قد احتفظوا فى أوّل أمرهم بالعادات الوثنية . وإنا لنجهل متى تغير ذلك . على أية حال لقد ظل التحنيط بعد ذلك أمدا طويلا فى مصر . وإن من يرى غشاء المومياء المصوّر هنا . فإنه يميل إلى تأريخه إلى القرن الرابع . أى فى عصر

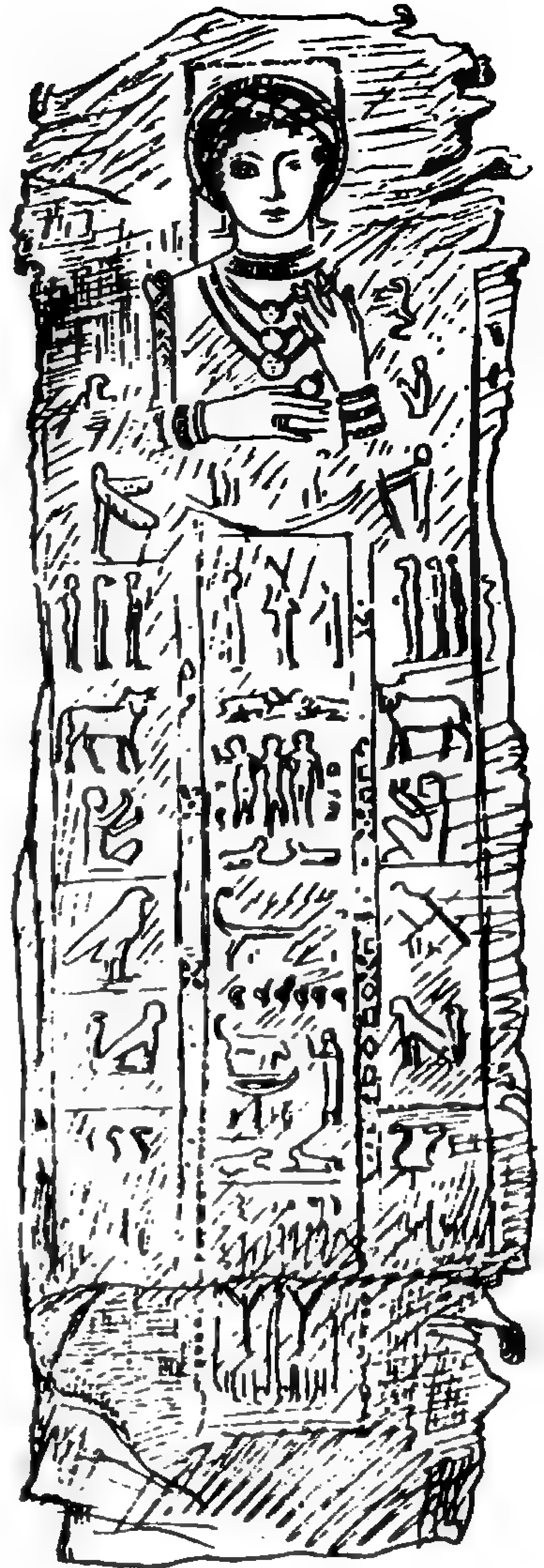


١٧٧ — الراعى الصالح ، وقد عثر عليه فى سنة ١٨٩٩ بجانب أشكال مشابهة فى اهناس (برلين ١٤٨٥٢ ، ١٤٨٦٦).

(١) Krebs, Ae. Z. 32, 36 ff.

(٢) Spiegelberg. Ae Z. 50, 42.

(٣) انظر مقالة كارل شمدت السالفة الذكر .


١٧٨ — غشاء مومياء من العهد المتأخر جدا (برلين ١١٦٥٩) .

كانت غالبية المصريين العظمى فيه إذ ذاك من المسيحيين . ومع ذلك فإن الذى من الجص المذهب التى تزينه ليست من المسيحية فى شىء ، وإنما هى من مظاهر الوثنية جميعا ، مثل نعش أوزيريس وسفينة الشمس وإلهات الجمال الثلاثة ؛ ولهذا فلنا أن نعتبر أن هؤلاء الموتى كانوا لايزالون وثنيين أيضا . وليس هذا بعيد الاحتمال وذلك لأنه وإن كان الشعب قد تحوّل فى مجموعه إلى المسيحية منذ أواخر القرن الثالث . فقد ظلت الوثنية مع ذلك باقية . وكان لايزال للمعبد المصرى تأثيره دائما فى الزائر . وهو ما يجلوه لنا وصف ناطق لرجل مسيحى شديد التحمس . وهذا الرجل إن هو إلا كليمنت الإسكندرى المتوفى عام ٢٢٠ بعد المسيح . فقد أخبر بأن « الفخامة المصرية تتجلى فى إقامة المقصورات والأبواب الضخمة والغابات فى مقدمة المبانى ، والبساتين والغياض . وتحيط بالأفنية أساطين كثيرة ؛ وتضىء الجدران بأحجار غريبة أو بتصاوير لاعيب فيها ؛ وتشعّ المقصورات بالضياء لما فيها من ذهب وفضة . وذهب غير ذى بريق . وتتلألأ بما فيها من أحجار ثمينة من الهند وإثيوبيا . ويظلّل قدس الأقداس أقمشة مطرزة بالذهب . فإذا أوغل المرء من داخل السور . وأراد أن ينظر إلى صورة القوّة ، وأن يبحث عن تمثال الإله الذى يقيم فى المعبد . تقدم أحد حملة الناووس (صفحة ٤٤٥) أو غيره ممن يخدمون فى المنطقة المقدسة . فيرجع فى هيئة مهيبة

وقورة أنشودة مديح باللغة المصرية ، ثم يزيح الستار قليلا ليكشف عن إلهه »[1] . من هذا نتبين أن تأثير هذه المعابد كان عظيما ، ولا يضعف منه ما لاحظه كليمنت فى نهاية كلامه من أنه من السخرية أن يعبد على هذا النحو قط أو تمساح أو أفعوان . على أن أكثر الشعب قد هجر مع الزمن العقيدة القديمة ؛ أما أهل الطبقات العليا من المجتمع ، وهم المثقفون بالثقافة الإغريقية ، فقد ظلوا مخلصين لها أطول عهد ، ومع ذلك لا ينبغى أن نظن أن العامة جميعا كانوا فى القرن الثالث والرابع مسيحيين ، وإن كان فى حقيقة الأمر لم يتواتر لنا إلا شىء ضئيل عن عقائدهم . وقد كان معبد سيرابيس فى الإسكندرية هو المعبد الأول . وفى منف كان يعبد أسكليبوس قبل كلّ شىء ، وهو الحكيم القديم إمحوتب الذى صار إلها[2] ؛ وكما أن هذا الإله قد حلّ محلّ بتاح ، فقد زحزح بس الصغير أوزيريس من مكانه فى أبيدوس وطفق يعلن نبوءاته ، وكان لها تقدير عظيم[3] . وفى منطقة أخميم بمصر الوسطى كان يعبد إله يقال له بتبى[4] ، وقد شبهه خصمه المسيحى بكرونوس وأسند إليه كل شىء يعرفه عن ذلك الإله الإغريقى . وعلى الجملة يبدو أنه كان للعنصر الإغريقى الغلبة تقريبا فى المرحلة الأخيرة من الديانة المصرية . فإنه إلى جانب بتبى وإلى جانب بتاح ذكر راهب القرن الخامس هذا نفسه فى حديثه كذلك ريا ، تلك التى كان كهنتها يُخصَون ، ثم أبوللو ، عازف القيثارة القذر البذىء . وزيوس وابنه آرس ، وذلك كأنها كانت الآلهة المعتادة لمواطنيه الوثنيين . ومما كان يسخط عليه كذلك عادات مصرية صميمة كعادة إضاءة مصباح فى « عيد المدينة » أو فى « عيد الدار » ، وكعادة توجيه « التحية » للشمس والدعاء « بالنصر » للقمر[5]

وقد كانت مثل هذه المواعظ هى التى أدّت بالوثنية إلى نهايتها ، فقد ظلت

(١) طبقا لما ذكره Schubart, Aegypten, S. 284.

(٢) Amm. Marc. XXXII, 14. 7. (٣) Ib. XVIII, 12، 3.

(٤) يتضح من أحد نصوص السحر المسيحية ، التى سيرد الكلام عنه فيما بعد ، أن اسمه الحقيقى هو « الرعد » ، وأن قدميه فى الماء الأزلى ورأسه تبلغ السماء ، وأن له من أمام رأس أسد ، ومن خلف رأس دب . على أية حال فإنه من خلق السحر فى العهود المتأخرة . انظر Lange, فى Studies for Griffith, p. 161 ff.

(٥) Leipoldt, Schenute S. 176

الحكومة على الرغم من أوامر التحريم الرسمية تجيزها فى واقع الأمر أمدا طويلا [1] ، وكان اتباعها قوما سماحا ، خليقين بأن يكونوا سعداء لو كان يخلى بينهم وبين عبادة آلهتهم القدامى فى هدوء وسلام . غير أن الزعماء من المسيحيين المتعصبين كانوا يثيرون دهماء الشعب بخطبهم ، وبذلك انتهى تاريخ المعابد ، الذى ظلّ عدّة آلاف من السنين ، إلى الفوضى والشغب ، وإنه لمن المعروف أمر تلك المشاهد البغيضة المنفرة ، التى كانت علامة على نهاية الدين العتيق فى الاسكندرية بما صاحبها من معارك الشوارع وهجوم على معبد سيرابيس (٣٩١ بعد المسيح) . والذى لدينا من روايات عن الأقاليم يدلّ على أن الأمر فيها كان مماثلا . فهناك شنودة ، قدّيس الأقباط الكبير [2] يشيد بأنه دمر بنفسه معبد أتريب بجوار ديره ، وأن ذلك الصنيع كان قدوة للآخرين . وفى مرّة أخرى توسل إليه الوثنيون ضارعين أن يبقى على معبدهم . غير أنه طاردهم وأباح كل شىء فى المعبد للنهب . ثم حمل إلى ديره منه غنيمة ثمينة من أوان وتماثيل مقدسة وأسفار . حتّى إذا استعاد الكهنة شجاعتهم وراحوا يقاضونه على نهبه معبدهم ماجت المدينة فى اليوم المحدّد للتحقيق بجمهور غفير من المسيحيين . فغدا من المستحيل الاستمرار فى الدعوى .

وفى مكان آخر نلقى ما نجده فى بقاع العالم أجمع حيث الأقلية هدف لمقت السواد الأعظم : فقد شاع بين المسيحيين أن كهنة أحد الآلهة ، ويدعى كوتوس ، يسرقون أطفالهم ويذبحونهم ، ثم ينثرون دماءهم على المذبح ويصنعون من أمعائهم أوتارا لقيثاراتهم . وعلى ذلك فقد دمر القديس مكاريوس التكوى معبدهم . وأحرق بنفس النار الإله كوتوس وكاهنه الأكبر هوميروس . وكان أن تنصر فى اليوم نفسه كثير من الوثنيين ، ولكن بعضهم لاذ بالفرار « فاحتلّ المسيحيون ديارهم » [3] .

هكذا انتهت الوثنية تلك النهاية المحزنة ؛ وقد كان الخوف الذى ساور آخر

---

(١) بقيت الوثنية فى فيلة حتى القرن السادس بسبب من كان يجاورها من البليميين الوثنيين ، انظر صفحة ٣٩٧ ، على أنه كانت تقوم إلى جانب ذلك كنيسة مسيحية .

(٢) Leipoldt, Schenute. S. 178 ff.

(٣) Mem. de la Mission IV 112 ff.

أتباعها على حياتهم هو الذى أدّى بهم إلى الكفر بها ؛ ومنذ ذلك الوقت أقفرت المعابد ؛ وقد استحالت إلى كنائس أو تركت خرابا . وبهذا فقد أصبح يظنّ أن هذه البقاع المهجورة تسكنها الأشباح ، وإنا لنسمع عن أحد المعابد أنه يسكنه « شيطان شرير يدعى بس » ، وقد رآه الكثيرون يتواثب فى المعبد ويتخذ كل ما يمكن من الأشكال ، وكان يخرج أحيانا فيضرب المارة فيصبحون عميا أو عجزة أو صما أو بكما[1] غير أن القديس موسى عرف كيف يخضعه . وهكذا غدت آلهة الديانة القديمة أشباحا فى الديانة الجديدة ، بل لقد أصبح لفظ « انتر » ، الذى كان يدلّ على الآلهة من قبل ، يعنى فى لغة المسيحيين الأرواح الشريرة[2] . ومع أن هذه الآلهة غدت أهلا مقت شعبها الأصلى . فقد ظلت مع ذلك تحتفظ فى وطنها مصر بمكان تلجأ إليه دائما ، وهو السحر . ولكن ما أتعسه من ملجأ . وقد رأينا من قبل ماذا كان سحرة الزمان القديم يصنعون بأسماء الآلهة القديمة وقصصها ، وكيف كانوا بعد ذلك يضيفون إلى أفانيهم أفانين اليهود والإغريق . ومنذ أن أصبحوا مسيحيين غالوا كذلك فى استخدام الأسماء والصيغ فى العقيدة الجديدة . على أنهم لم يهجروا لذلك تماما أسماء العقيدة القديمة وصيغها ، وقد بقيت مدة طويلة . فإذا شكا طفل مثلا وجعا فى بطنه ، فقد كان الرجل الذى يرقيه لايزال يفكر فى حورس الطفل ، الذى اضطرّ إلى مكابدة الكثير من الشرور فى وحدته . وكان يبدأ سحره بقصة طويلة ، تروى كيف أن الإله الصغير اصطاد طائرا ثم أكله نيئا فآذى معدته . لذلك أرسل « الروح الثالثة التى لأحرّب ذى العين الواحدة وابنه الواحدة إلى أمه إيزيس . وكانت « على جبل هليوبوليس » . اسطرها بألم . وعند ذلك قالت للروح : « إذا كنت لا تجدنى ، وإذا كنت لا تعثر منه على اسمى . ذلك الاسم الحقيقى ، الذى يحمل الشمس إلى المغرب ، والذى يحمل القمر إلى المشرق . والذى يحمل نجوم التكفير الستة القائمة تحت الشمس .

---

(1) Zoega, S. 533.

(2) حقا لقد ظل كثير من تفاصيل العقيدة القديمة باقيا دون أن يلتفت إليه أحد ، ومن ذلك أشكال إيزيس مع طفلها وأشكال حورس على هيئة فارس يقتل تمساحا (صفحة ٤٣٤) ، وقد عاش كلاهما فى أشكال القديس جورج والأم الإلهة . وكذلك لم يندثر الإخبار بالوحى ، وكان القديس فيلو كسنوس فقط هو الذى يتولاه بالوساطة عن الإله Schubart, Aegypten S. 367 .

فاعزم على الثلثمائة عرق المحيطة بالسرّة هكذا : إذن « لينبتّ فى الحال كل داء وكل ألم وكل وجع فى بطن هذا أو ذاك . إنى أنا السيد المسيح الذى يمنح الشفاء » . وبهذه الكلمات الأخيرة التى لاتتفق إطلاقا مع ما يسبقها يُرضى الساحر المسيحى ضميره . وفى تعويذة أخرى ورد عنها أنها تفيدُ فى حالة الأرق ذكرت « إيزيس ونفتيس » ، وهما « هاتان الأختان المحزونتان الأسوانتان » [1] .

ولقد كان أهل القرن الثامن ممن كانوا يستعيذون بهذا النوع من السحر إنما ينتسبون على ما يبدو إلى أحطّ الطبقات الاجتماعية ، وكان من أفانينهم أيضا أن يسحروا الكلاب ويفكوا القيود ، ولن يفيد هذا ممن كان يعيش فى مثل ظروف الحياة المصرية إلا من كان على صلة سيئة برجال الشرطة .

وهكذا وجدت آلهة المصريين القديمة ملجأ لدى المشعوذين واللصوص ، تلك الآلهة التى من أجلها شيدت من قبل معابد الكرنك ومنف ، والتى ظلت خلال آلاف من سنين تقود وتلهم شعبا عظيما .

---

(١) Erman, Ae. Z. 33,48 ff.

الفصل الثانى والعشرون

الديانة المصرية فى أوروبا

كانت شجرة الديانة المصرية العجوز فى سبيلها إلى الفناء حينما خرج من أصلها صنو وحشى ، كان من العجيب أن يمتدّ ظله إلى بلاد بعيدة ، فقد لقيت عبادة إيزيس وأوزيريس فى أنحاء الامبراطورية الرومانية الواسعة جماعات يتحمسون لها [1] .

ذلك أن الملاحين والتجار المصريين ممن أقاموا فى موانئ البحر الأبيض المتوسط أو فى مدائنه الكبرى قد عُرفوا وآلهتهم منذ أمد بعيد . فقد كانت تتألف منهم فيها جماعات مصرية ، كانت لأعيادها الحافلة بالأسرار أثر كبير فيمن كان ينزل معهم من الإغريق ، إذ كانت تجتذبهم وتستميلهم إليها . وإنا لنجد فى القرن الرابع قبل مولد المسيح فى بيرى معبدا لإيزيس ، وإن يكن فى حقيقة الأمر ذا طابع خاصّ . ولا يكاد الزمن يمضى يسيرا ، حتى نجد الآلهة المصرية كذلك فى رودس ولسبوس وثيرا وأزمير وفى أماكن أخرى ؛ وفى جزيرة ديلوس المقدسة [2] كان سيرابيس وإيزيس يعبدان على رأس غيرهما من الآلهة . وقد ساهم تأييد الملوك البطالمة وتشجيعهم مساهمة كبيرة فى هذا الانتشار للعقائد المصرية ؛ ولا غرابة فى ذلك فقد كان سيرابيس وإيزيس هما الإلهان الرسميان فى دولتهم فعلا .

وكان لمن يريد توكيد ولائه لملوك مصر الأقوياء ، أن يقيم كذلك فى بلده معبدا لآلهتهم [3] ؛ وبذلك وجدت هذه الآلهة لأسباب سياسية طريقها إلى قبرص وصقلية

---

(١) بل لقد وجدت عبادتهما ذلك أيضا فيما وراء حدود هذه الإمبراطورية ؛ فقد كان الساكيون ملوك الهند المتبربرون ، يعبدون كذلك سارابو إلى جانب بوذا و... (Mommsen, Roem. Gesch. V, 354, Anm 1)

(٢) فى بداية القرن الثالث شيد أحد كهنة سيرابيس من منف هيكلا صغيرا لسيرابيس فى بيته فى ديلوس ، وقد جعل منه حفيده سيرابيوم بناء على أمر الإله (Wilcken, Urkunden I 84.)

(٣) انظر كذلك الرسالة الغريبة ، التى ورد فيها ذلك صراحة . Wilcken, Urk. der Ptol. I 84

وأنطاكيا وأثينا . ولما تقوّضت بعد ذلك قوّة البطالمة ، كانت الآلهة المصرية قد تأصل غراسها فى العالم الإغريقى بحيث لم تكن فى حاجة إلى تأييد خارجى ؛ وغدت إيزيس وسيرابيس من عداد الآلهة العظيمة التى كان يعترف بها فى كل مكان ؛ بل إننا لنجد فى القرن الثانى قبل المسيح فى أرخومين وخيرونى تلك العادة الغريبة ، عادة نذر من كان يراد عتقهم من العبيد لإيزيس وسيرابيس ، كأنهما كانا الإلهين العظيمين الرئيسين لهاتين المدينتين .

وكثيرا ما كانت الآلهة المصرية تمتزج بالآلهة اليونانية ، فهذه إيزيس قد غدت تميزس وديكايوسينى ونيكى وهيجييا ؛ وفى ديلوس غدت تسمى إيزيس — سوتيرا أستارتى — أفروديت ، وكان إيروس — حربوقراط — أبوللو لها ولدا .

وشقت الآلهة المصرية فضلا عن ذلك طريقها إلى أبعد من ذلك غربا ، أى إلى إيطاليا الجنوبية ثم روما ، حيث نجد فى عهد سلّا جماعة مصرية ؛ ولئن كانت هذه الجماعة فى بداية الأمر من أرقاء أجانب ومن عبيد معتقين ، فقد أخذت الديانة المصرية تنتشر كذلك بين الطبقات العليا من الشعب . وليس فى هذا ما يدهش فى شىء إذ كانوا جميعا يقاسون نقصا روحيا . فقد غدت الديانة القديمة بالنسبة لهم جميعا شبه ميتة . ولم تستطع الفلسفة ، التى كان يحاول أن يجد فيها المثقفون عونا لهم ، أن تكون لها بديلا كاملا . وبذلك لم يبق هناك غير شوق كامن للتطلع إلى ما وراء الطبيعة . وكان كل ما يمكن أن يطفىء لظى هذا الشوق يلقى لقاء حسنا . وإنا لنستطيع أن نلاحظ ما يماثل هذه الحالة النفسية لدى كثير من معاصرينا فى الوقت الحاضر ، فقد فقدوا الطمأنينة التى تبعثها الديانة التقليدية ، ولهذا يبحثون عن بديل لها ؛ فمنهم من يقع على الروحية ، ومنهم من راح يتعلق بالبوذية أو أية عقيدة أخرى أجنبية . وتتشابه هاتان الظاهرتان كذلك فى أن المثقفين لم يتقبلوا الديانة الأجنبية على ما هى عليه فى يسر ، لأنها لم تكن لترضى نفوسهم المرهفة الحساسة ؛ « فالبوذية الخاصة » عند السيدة الحديثة ليست فى أساسها إلا خليطا من فلسفات مختلفة فى رداء بوذى ، وليس من شك فى أن كهنة منف وطيبة كانوا يهزّون رءوسهم دهشة لو أنهم استمعوا إلى ما كان يعتقده بلوتارك عن إيزيس .

وكما أنه إلى جانب البوذية يعرض فى الوقت الحاضر على كل نفس ثائرة حاملة
[illegible] ما يمكن تصوّره من شتى العقائد ، التى تدعى أنها فى استطاعتها أن تأخذ بيدها
[illegible] الخلاص ، فقد كان للديانة المصرية كذلك منافسوها العديدون إذ ذاك ؛ غير
[illegible] لم يقدّر « للأم العظيمة » فى آسيا الصغرى ، ولا لمثراس ، إله الشمس عند الفرس ،



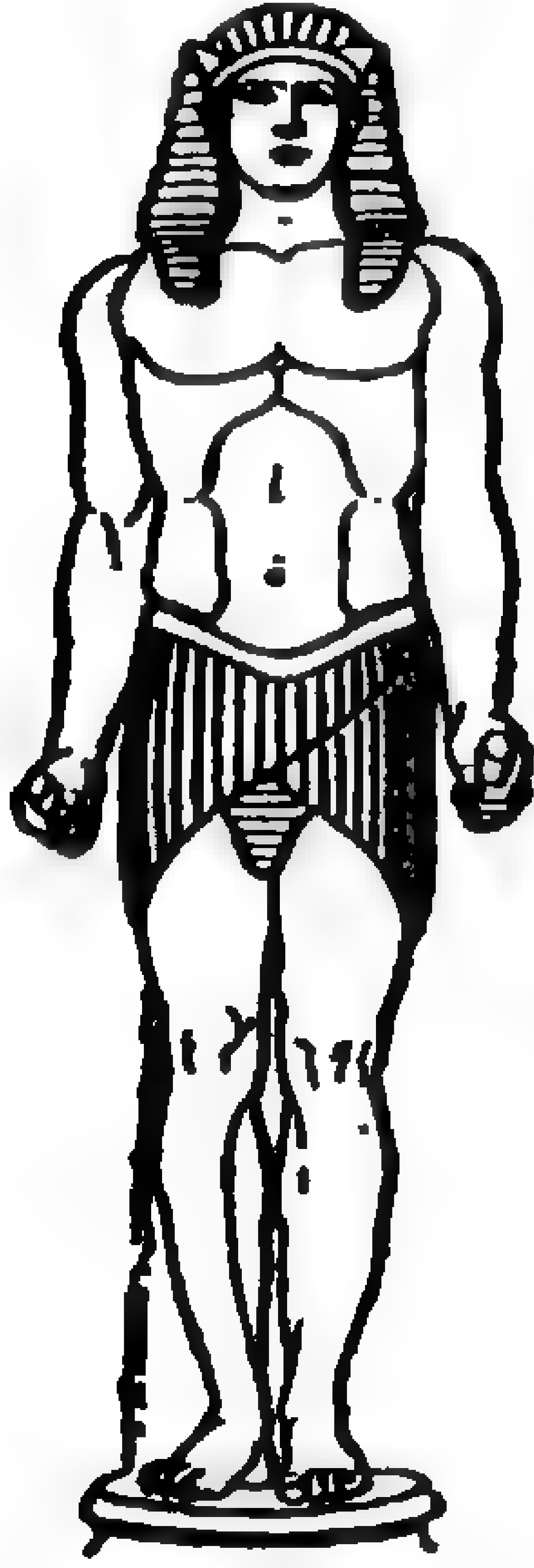
١٠[illegible] — منظر من وادى النيل ، وهو حفر رومانى على صلصال محروق (فى الانتيكواريوم فى برلين) .

[illegible]لا لإله اليهود أن ينتزع أىّ منها الأسبقية من الآلهة المصرية ، وذلك لأسباب كثيرة .
[illegible]كان من أوائل هذه الأسباب ذلك الإجلال الغامض ، الذى كان يحسّ به المرء نحو
[illegible]هذه البلاد ذات الحضارة القديمة والآثار العجيبة . حتى إن العالمَ الرومانى لم يكن
[illegible]يعجبه أن يرى من مناظر البلدان غير مصر بمعابدها وأكواخها من القصب وتماسيحها .
[illegible]كذلك كان يظن أنه كان للمصريين حكمة عميقة قديمة بل لقد كان يعتقد أن زعماء
[illegible]عالم المفكرين ، وهم الفلاسفة الإغريق ، قد تلقوا خير تعاليمهم عن الكهنة المصريين .
[illegible] تأتى بعد ذلك تلك الطقوس الخفية أجمع ، مما كان يؤدى فى أعياد إيزيس وسيرابيس ،
[illegible]التى كانت تكنى بطريقة مدهشة عن أفكار سامية طاهرة . وأخيرا — وهو ما كان

عند الكثيرين السبب الرئيسي – لقد كانت الديانة المصرية تقدّم لأتباعها عزاء أخيرا فى كافة المصائب ، وكانت تمنحهم الإيمان بحياة أخرى أفضل ، يقضونها فى مملكة أوزيريس . وبذلك لم تكن عبادة الآلهة المصرية عبادة سطحية ميتة ، كما كانت عبادة الآلهة الرومانية ، ولم تكن كذلك بديلا اقتضته الضرورة ، كما كانت الفلسفة وإنما كانت ديانة حقيقية ، تملأ قلوب البشر وتسمو بهم ، وكان كاهن إيزيس الفقير فى قميصه من الكتان يهيئ للنفس ما كانت تصبو إليه .

وهكذا أقبل الناس فى روما على العقيدة الجديدة فى حماسة ، حتى إنه ليبدو أنها استولت على طوائف بأكملها من الشعب ، كأنها حركة دينية عامة ، وإلا لما يتيسر على الأقل فهم السبب الذى من أجله انتهى الأمر بالدولة أن ترى فى عبادة الآلهة المصرية خطرا عليها ، فجعلت تدمر من وقت إلى آخر وباستمرار معابد إيزيس . وقد قامت بذلك خمس مرات فى أحد عشر عاما بين ٥٩ – ٤٨ ق . م . ، وأخيرا حرم أغسطس بناء شيء منها داخل المدينة بالذات ، ولم يكن يسمح بإقامة معابد لإيزيس إلا فى أرباضها . ومع ذلك كان للحكومة أسبابها فيما كان يعتورها من هلع بإزاء عبادة إيزيس وسيرابيس . فقد كان هذان الإلهان من آلهة مصر ، ذلك البلد الذى كان يعتبر إذ ذاك عدوّا بغيضا لروما . وفضلا عن ذلك لقد اشتهر عن هذه العبادة الفحشاء . وفى الحق لم يكن ذلك ظلما . وذلك لأن من يسلم نفسه إلى الوجد الدينى ويحرّر نفسه من قيود معتقداته الموروثة . فإنه يحلّ نفسه كذلك بسهولة من القيود التى كانت تتيد الغرائز البهيمية فى طبيعته . ومن المحقق أن ذلك لايبدو واضحا فى كل حالة . وذلك لأن ضروبا مختلفة من التصوّف تحجبه ، فإن السيدة الرومانية عندما كانت تسلم نفسها إلى الكاهن فقد كانت تفعل ذلك ليكون لها نصيب من القداسة . ونحن المحدثين لايشقّ علينا للأسف أن نجد أمثلة هذه الحماقات فى الوقت الحاضر . وإنه ليكفينى أن أثير ذكرى راسبوتين وسيدات الطبقة الراقية من الروسيات . ولم تنج عقيدة إيزيس كذلك من مثل هذه الأشياء . وإن المرء ليفهم كيف أن تيبريوس ، بعد حادثة جدّ فاضحة فى عام ١٩ بعد الميلاد ، صلب الكهنة المذنبين ودمر معبدهم وأمر بإلقاء تمثال الإلهة فى التيبر . ولم يكتف بذلك بل نو

فى الوقت نفسه آلافا من العبيد المعتقين، ممن نالتهم عدوى العقائد المصرية واليهودية؛ وقد أرسلوا إلى سردينيا ليحاربوا قطاع الطرق فيها . وكان على غيرهم أن يهاجروا من إيطاليا إن لم يرجعوا عن القيام بطقوسهم [1] . على أن هذا الإجراء الشديد لم يكن ذا أثر بعيد ، فلم يلبث أنْ قام فى حقول مارس معبد كبير جديد لإيزيس ، أقامه هذه المرّة أحد الأباطرة وهو كاليجولا ، وزاد فيه أمبراطور آخر، وهو دومتيان . وبهذا التكريم من قبل الأباطرة زال كل رجس عن الآلهة المصرية ، وبعد مائة عام أصبحت إيزيس وسيرابيس يُسميان « الإلهان المصريان قديما والرومانيان الآن » [2] ؛ وبذلك سادت الديانة المصرية العالم . وقد ساهم حكم هادريان كثيرا فى هذا التطوّر ، فقد زار مصر ومعه الامبراطورة ورجال البلاط . وكان من المتحمسين لهذه البلاد ولآلهتها . وكان قصره الريفى فى تيبور يشتمل كذلك على بستان مصرىّ . كان يسمى كانوب . على نحو اسم ضاحية مشهورة من ضواحى الإسكندرية.



١٨٠ — أنطينوس . تمثال فى باريس .

وكان مما يذكَّر بوادى النيل فيه تماثيل آلهة من حجر أسود على طراز نصف مصرى ؛ وأبهاء تحت الأرض ومعبد لسيرابيس. وإذ غرق فى النيل أثناء الرحلة أنطينوس . حبيب الامبراطور . فقد رأى هادريان أن أقصى ما يؤدّى من شرف لهذا الصبىّ المسكين هو أن يرفع إلى مصافّ « شركاء آلهة مصر » [3] . وكان مثل هذا التأليه أمرا قريب الاحتمال . وذلك لأن الغرقى فى النيل كانوا يعتبرون من القديسين [4] . وقد مثل هذا النصف الإله الجديد فى مدن بلاد الإغريق فى سيماء الشاب الحزين . أما فى معبده فى مصر فقد كان ينبغى أن يكون إلها مصريا ، وكان قبره الذى خصصه له الامبراطور فى روما على طراز مصرى ، ويحمل

---

(١) Friedlaender, Sittengeschichte I 502.

(٢) Minucius Felix 22, 2.

(٣) C. I. G. 6007.

(٤) Griffith, Ae. Z. 46, 132.

نقوشا هيروغليفية . ولا تزال مسلة مونت بنشيو [1] الجميلة ، تنبئنا حتى اليوم بأن « المتوفى أوزيريس أنطينوس ، الذى يستريح فى هذه البقعة ، التى تقع فى منطقة حدود روما السعيدة . معترف به كإله فى البقاع المقدسة فى مصر . وقد شيدت له المعابد . كما أن الطبقات العليا والدنيا من الكهنة وكافة المصريين يتعبدون إليه . وقد أطلق اسمه على مدينة » يقصدها الإغريق والمصريون ، « فيمنحون حقولا ليتهيأ لهم بذلك حياة طيبة . ويقوم فيها معبد لهذا الإله . الذى يسمى أنطينوس ، وقد شيد من حجر جيرى جيد . تحيط به تماثيل أبو الهول ، وبه تماثيل وأساطين كثيرة جدا ، تماثل ما كان يصنعه الأجداد من قبل . وما كان يصنعه الإغريق » . وفى هذا المعبد « تودع الأطعمة له على مذابحه » . ويمدحه الكهنة . ويحجّ إليه الناس . « وذلك لأنه يجيب دعوة من يدعوه ، ويشفى المريض بما يبعث إليه من أحلام » . وكان يحتفل له فى هذه المدينة أيضا بإقامة الألعاب على الطريقة الإغريقية من أجل « الأقوياء . الذين هم فى هذه المدينة ، ومن أجل المجدفين » ، وكانوا يتلقون « الجوائز والأكاليل على هاماتهم . ويجزون بكل شىء طيب » . هذه المدينة التى يحدثنا هذا النصّ عن تأسيسها هى أنطينوى ، المدينة الإغريقية المصرية [2] . وقد تأصلت فيها جذور عبادة هذا الصبىّ الإغريقى ، وفى القرن الثالث كان أنطينوس فى مصر إلها يبالغ فى تمجيده كثيرا ، لأنه كان يشفى المرضى ويصنع العجائب [3] . وهكذا قدّمت أوروبا من جانبها أيضا إلها إلى مصر ، وبذلك من كان يستطيع أن يسمى الديانة المصرية ديانة أجنبية ؟ على أنه فى حقيقة الأمر كان لايزال هناك كثيرون لايستطيعون التغلب تماما على ما كانت تثيره الآلهة ذات رءوس الحيوان من مقت ونفور [4] . وهذا ما يدلّ

(١) Erman, Roemische Obelisken (Abh. Berl. Akad. 1917; Mitt. d. Deutsch. Arch. Inst. Roem. Abt. XI 113).

(٢) وفى هرموبولس أقام هادريان كذلك تكريما لأنطينوس شارعا جديدا أسماه باسمه . ويبدو أن الأمبراطور الذى لم يكن يعنيه أن يتلف تخطيط هذا الشارع المنطقة المقدسة القديمة (Roder, Mitt. Deutsch. Inst. Kairo, Bd. II, S. 88.)

(٣) Origenes, c. Cels. III, 36.

(٤) هكذا كان فيلوستراتس ، معاصر جوليا دومنا ، فقد وصم الآلهة المصرية بأنها أهل للسخرية ، وأنها خرقاء. Ed. Meyer, Hermes, Bd. 52, S. 293.

عليه هجاء لوسيان التهكمى . فهناك الآلهة يجلسون للتشاور على جبل أولمب ، على أن اجتماعهم لايخلو من اضطراب ؛ وذلك لأن الآلهة الإغريقية الشيوخ لايستطيعون أن يكبحوا غضبهم على كل الجمع المريب ، الذى تسرّب إلى جماعتهم المبجلة ، وعلى رفاق ديونيسيوس الأفظاظ الجفاة ، وعلى آلهة البلاد المتبربرة ، وعلى الكائنات التافهة ، مثل « التضيلة » و « القدر » ، التى ابتدعتها الفلسفة . وإبان الوليمة يندفع متزاحما جمهور صاخب ، يتكلم بكل لغة يمكن تصوّرها ؛ ويسلك سلوكا غير لائق نحو الآلهة القدامى . فإذا طعام الآلهة ينفد ، وشرابهم يغلو ثمنه على الدوام . فيقوم موموس ، الذى كان يجعل من نفسه خطيبا للحانقين ، ويعرض الحالة المحزنة فى حديث طويل ، ويسبّ بصفة خاصة الدهماء البرابرة ، أتّس وسابازيوس ومتراس وسائر هذه الجماعة ، التى لاتعرف الإغريقية ، والتى لاتفهم متى يشرب الإنسان نخب صحته . وهو يقول : « كل هذا يمكن التجاوز عنه ، ولكنك أنت أيها المصرى الملفف فى الكتان ، يا صاحب رأس الكلب ، من عساك تكون ؟ وكيف يمكن أن تدعى أيها الكلب النابح بأنك إله ؟ ولماذا يعبد ثور منف المرقش ، ويعلن النبوءات ويكون له الكهان؟ إنى لأفضل ألا أقول شيئا عن آباء منجل والقردة والتيوس ، ولا كذلك عن ذلك الشيء المضحك الذى هرب بطريقة ما من مصر إلى السماء . أيتها الآلهة كيف تطيقون أن تروا هؤلاء يعبدون على نحو ما تعبدون أو أفضل مما تعبدون إذا كان إلى ذلك سبيل ؟ وأنت يا زيوس كيف تستطيع صبرا أن يحمّلوك قرنى كبش ؟ » ويسلم زيوس بأن هذه الأشياء المصرية كريهة ممقوتة ، ولكنه يضيف إلى هذا فى حيطة وحذر : « إن كثيرا منها ألغاز وأحاجى ، وما ينبغى أن يهزأ بها من لم يحط بأسرارها » [1] .

وما يعترض به زيوس على موموس ليس فى حقيقة الأمر سوى ما تعود أن يجيب به أشياع إيزيس المثقفون على من كانوا يهزأون بهم : إنكم لاترون سوى المظهر الخارجى الغريب لمعتقداتنا ، ولستم تعرفون ما يستتر وراءه . وقد قال بلوتارك

(1) Lucian, Deorum Concilium 10.

إن من يأخذ هذه الأشياء بحرفيتها، ولا يعبأ بمعناها السامى، « فانما ينبغى له أن يتفل وأن يطهر فمه » . إذ من هو أوزيريس ؟ إن أوزيريس هو عنصر الرطوبة وقوة الإخصاب فى التناسل . إنه فى الروح العقل ، وفى العالم كل رتيب متسق مع القانون ؛ أجل إنه باختصار عنصر الخير . أما تيفون (أى ست) فهو الجفاف والإمحال والعقم . إنه يمثل ما فى النفس من سفاهة وحماقة ، وما فى العالم من مرض وتدمير ، إنه عنصر الشرّ . وإيزيس هى جسداً الأرض الخصبة ؛ وهى فى العالم الجزء الأنثوى الذى يتلقى التلقيح ، وهى مادة الخير والشرّ ، غير أنها تميل إلى الخير طبقا لطبيعتها [1] . وكل شيء طيب، يتفق مع النظام ـ هو من عمل إيزيس. وهو صورة لأوزيريس [2]. ولا شيء أمتع لها من الطموح إلى الحقيقة والمعرفة الصحيحة لكل ما هو مقدّس ؛ إنها تشجع التعاليم المقدسة على حين يحاربها تيفون . فمن يخدمها فى معبدها فى جدّ ونظام واعتدال وعفاف ، فإنه يصل إلى معرفة الكائن الأول الأعلى . الذى يمكن إدراكه ؛ وإنها لتدعونا إلى ذلك عن طريق معبدها [3] . وليس فى ثياب الكتان ولا فى الرأس الحليق ما يجعل المرء من المؤمنين بإيزيس — وإن كان ذلك من العادات ذات المعانى العميقة — وإنما المؤمن حقا بإيزيس هو الذى يتعمق فى معانى الأشياء المقدسة ويتأمل فى حقائقها الخفية [4] . ذلك لأنه ما من شيء فى هذه الأمور لايؤبه له . فإذا كانت « الشخليلة » التى يصلصل بها المرء أمام الإلهة مستديرة عند ذروتها ولها قضبان أربعة كان فى ذلك لدى الحكيم العارف إشارة إلى « دائرة القمر » ، التى تحيط بكل شيء ، وإلى العناصر الأربعة ، التى تتحرّك فيها . وإذا آثر الإنسان تحلية ذروة الشخليلة « بقطة » ، فإننا نحن العلمانيين نعتقد أن ذلك إنما كان من أجل باستت ، الإلهة المرحة التى على هيئة القطة ، ولكن بلوتارك يعرف السبب الحقيقى لذلك : فالقطة ترمز أيضا إلى القمر ، وذلك إما لأنها متغيرة ، ومن حيوانات الليل ، وكثيرة النسل ، أو لأن عينيها تتسع فى ليلة البدر .

---

(١) Plut. Isis et Osir. 33, 38, 39, 49, 53.

(٢) نفس المرجع ٦٤ .

(٣) نفس المرجع ٢ .

(٤) نفس المرجع ٣

أما رأسا السيدتين ، اللذين على المقبض ، فهما عنده إيزيس ونفتيس ، ويرمزان هنا إلى الميلاد والممات . فاذا هزّت « الشخليلة » ، كان فى ذلك ما يدل على أن كل كائن إنما يجب أن يكون فى حركة دائبة .

على أن العقيدة فى إيزيس لو لم تكن أعمق من مثل هذه الأفكار المضطربة المختلطة ، لما أصبح لها بالتأكيد ذلك السلطان ، الذى كان لها . ومن المحقق أنه لم يمارس هذه العقيدة على هذا النحو غير أقلية صغيرة ، كان من الضرورى عندها أن توفق بين مشاعرها الدينية وبين آرائها الفلسفية ، بل لقد كان كل منها ينحو نحوه الخاص فى هذا الشأن . أما أغلبية المؤمنين فكانت لها أسباب أخرى ، تدعوها إلى عبادة الآلهة المصرية . فقد كانت ترجو منها أن تتيح لها حياة أخرى مبرورة ، كما كانت تجد فى عبادتها راحة لضمائرها ، وذلك لأن التطهر وتقديم القربان فى معبد إيزيس كانا يمثلان كذلك الطهارة الروحية . وكان المرء إذا تأمل فى طبيعة الإلهة ، يكتفى بتصوّرات غاية فى البساطة . وإننا لنعلم ذلك من مصادر مختلفة . فهناك أولا نصان من الجزر الإغريقية ، وهما متماثلان فيما يتضمنانه ، غير أن أحدهما يقص فى شعر هومرى ما يحكيه الآخر نثرا : « إننى أنا إيزيس ، عاهلة البلاد جميعا ، لقد تعلمت على يد هرمز ، وابتدعت بالاتفاق مع هرمز الكتابة الشعبية حتى لايكتب كل شىء بحروف واحدة . لقد سننت للناس القوانين ، وأبرمت ما لايستطيع البشر نقضه . إننى كبرى بنات كرونوس ، إننى زوج الملك أوزيريس وأخته . إننى أنا التى تشرق فى نجمة الكلب ، إننى أنا التى يسميها النساء إلهة . من أجلى قد شيدت مدينة بوسطة . إننى أنا التى فتقت السماء عن الأرض ، وبينت للنجوم مسالكها ، واخترعت الملاحة . . . وعقدت بين الرجل والمرأة . . . وقضيت بأن يحبّ الأبناء آباءهم . لقد وضعت مع أخى أوزيريس حدّا لأكل البشر ، وأريت الناس الأسرار الخافية ، وعلمتهم كيف يعبدون تماثيل الآلهة ، وحددت مناطق معابد الآلهة . لقد أذلت دول الطغاة ، وحملت الرجال على حبّ النساء ، وجعلت العدالة أقوى من الذهب والفضة ، وقضيت

---

(١) نفس المرجع ٦٣ .

بأن يرى الناس الحقّ جميلا . . . »[1] وقد قيل إن كتابة مماثلة تماما كانت على قبر لإيزيس فى بلاد العرب ، كما قيل كذلك إنه كتب على قبر لأوزيريس : « إن أبى هو كرونوس ، أصغر الآلهة أجمعين . وإننى أنا الملك أوزيريس . الذى أدار الحرب فى أنحاء الأرض كلها حتى بقاع الهند الخاوية ، وحتى مناطق الشمال إلى منابع الدانوب . ثم إلى المحيط . إننى أنا الابن الأكبر لكرونوس . وقد ولدت جنينا من بيضة جميلة شريفة . . .[2] وليس فى العالم مكان لم أبلغه . وقد منحت الناس أجمعين ما وجدته »[3] .

وقد حفظ لنا نص فى كيوس فى بثنيا أنشودة صغيرة. تلخص كلّ ما كان يتصوّره الإنسان عن هذه الآلهة[4] .

« يا مليك ما فى السموات جميعا . إنى
أحييك . يا أنوبيس . يا أزلى .
ووالدك أوزيريس . المقدّس . المتوج بالذهب .
إنه زيوس الكرونيدى . إنه أمون القوىّ .
الملك الخالد . ذو الاحترام السامى على نحو سيرابيس .
وأنتِ كذلك أيتها الإلهة المقدّسة . أيتها الأم إيزيس . ذات الأسماء العديدة .
يا من ولدتها السماء على أمواج البحر المتلألئة .
وأنشأتها الظلمة على نحو النور لسائر البشر .
يامن تحمل الصولجان على جبل الأولمب بصفتها أكبر الجميع سنا .
وتحكم الأرض والبحار كسيدة إلهية .
يامن ترين كل شيء — إنك تهبين البشر خيرا كثيرا » .

ويتجلى فى هذه الأنشودة كيف أن الديانة المصرية بسّطت إلى حدّ كبير ، فلم يتبقّ من مجموع الآلهة من غير إيزيس إلا إلهان . هما أوزيريس سيرابيس . وهو

(١) C. I. G. XII, 5, I. p. 217.
(٢) هذا تعبير مصرى مشهور . يدل وحده على أن هذا النص إنما يرجع إلى أصل قديم .
(٣) Diod. I, 27.
(٤) C. I. G. 3724.

فى نفس الوقت أمون ، ثم حورس ، وهو أنوبيس . أما إيزيس فهى منظمة الطبيعة ، وهى التى جمعت بين البشر . أما أوزيريس فقد كان فى مكان تال لها ، إذ على الرغم مما أسنده إليه أصدقاؤه الأوربيون من انتصارات ، فانه فى واقع الأمر لم يكن إلا الزوج المتوفى ، الذى تبكيه إيزيس . وقد قوى فى جميع هذه الآلهة الجانب الإنسانى الذى كان لهم فى الزمن القديم . حتى إنه من اليسير أن نفهم كيف كان غير المؤمنين يسخرون « بالرجل أوزيريس » [1] .

وإلى جانب التجلة التى كانت تقتضيها إيزيس من أجل آلائها على الإنسانية ، كان كل فرد يشعر كذلك بأنه مدين لها بالشكر ، فهى قبل كل شىء بصفتها إلهة لميناء الإسكندرية كانت تساعد ركاب البحر ، وكان كل من ينجو من العواصف ، ينذر لها صورة فى معبدها ، يصوّرها له أحد المصوّرين ، ولذلك كان يقال إن إيزيس « تطعم المصوّرين » [2] . وكان الحبيب إذا أزمع السفر ، ضاعفت الحبيبة من حميتها فى عبادة إيزيس ، فتهز لها « الشخليلة » ، وتتطهر من أجلها ، وتنام منفردة ، فإذا عاد سالما ، كانت تجلس أمام المعبد فى ثوب من الكتان وشعرها مرسل ، وتغنى مرّتين كل يوم بمدح الإلهة [3] . على أن إيزيس كانت كذلك تعاقب المذنبين ، فمن اختلس مالا ، فانه كان يخشى أن تضربه على عينه « بالشخليلة الغاضبة » ، فترده أعمى [4] . والسيدة التى لم تحافظ على عفافها « فى الأيام المقدسة ، التى يجب رعايتها » ، فإنها كانت تشعر بالضيق والحرج ، وكان يبدو لها كأن « الثعبان الفضى يحرّك رأسه » . حقا لقد كان الكاهن يهدئ من روعها ، إذ كان لايزال هناك أمل فى أن يعفو عنها أوزيريس ، إذا هى قدمت له أوزة أو فطيرة [5] . على أنه لم يكن من المستطاع على الدوام إرضاء الآلهة المصرية بمثل هذه النفقة الرخيصة ، إذ تتحدث نصوص النذور عن تقدمات قيمة من معادن ثمينة ، وعن ثعابين مرصعة بأحجار كريمة ، وشخاليل

(١) Lucan, Pharsal VII 832.

(٢) Juvenal 12, 28.

(٣) Tibull I, 3, 23.

(٤) Juvenal 13, 92.

(٥) Juvenal 6, 526 ff.

وصحاف من فضة ؛ وقد أهدت سيدة إسبانية إلى إيزيس أدوات من فضة تزن أكثر من ٧٠ رطلا ، وذلك علاوة على ثعبان مرصع بكثير من الأحجار الكريمة ، وحلىّ أخرى [1] .

وكان أرضى للإلهة بطبيعة الحال أن يعمد رجل تقىّ إلى تجديد بناء معبدها . ومن ذلك ما حدث فى مالسسين على بحيرة جاردا من أن رجلا يدعى ج . مناتيوس « أعاد بناء معبدها وشيد على نفقته الخاصة مبنى من أمامه » [2] . وفى بِنِفِنْت شيد رجل يدعى لوسليوس « قصرا فخما من أجل إيزيس العظيمة ، سيدة بنفنت ، ورفاقها الآلهة » ، ومن أمامه « أقام مسلتين من الجرانيت الأحمر » ، وقد حفظا لنا وعليهما كتابة هيروغليفية تنبئنا بذلك . وللآلهة أن تمنحه عن عمله هذا « حياة طويلة سعيدة » .



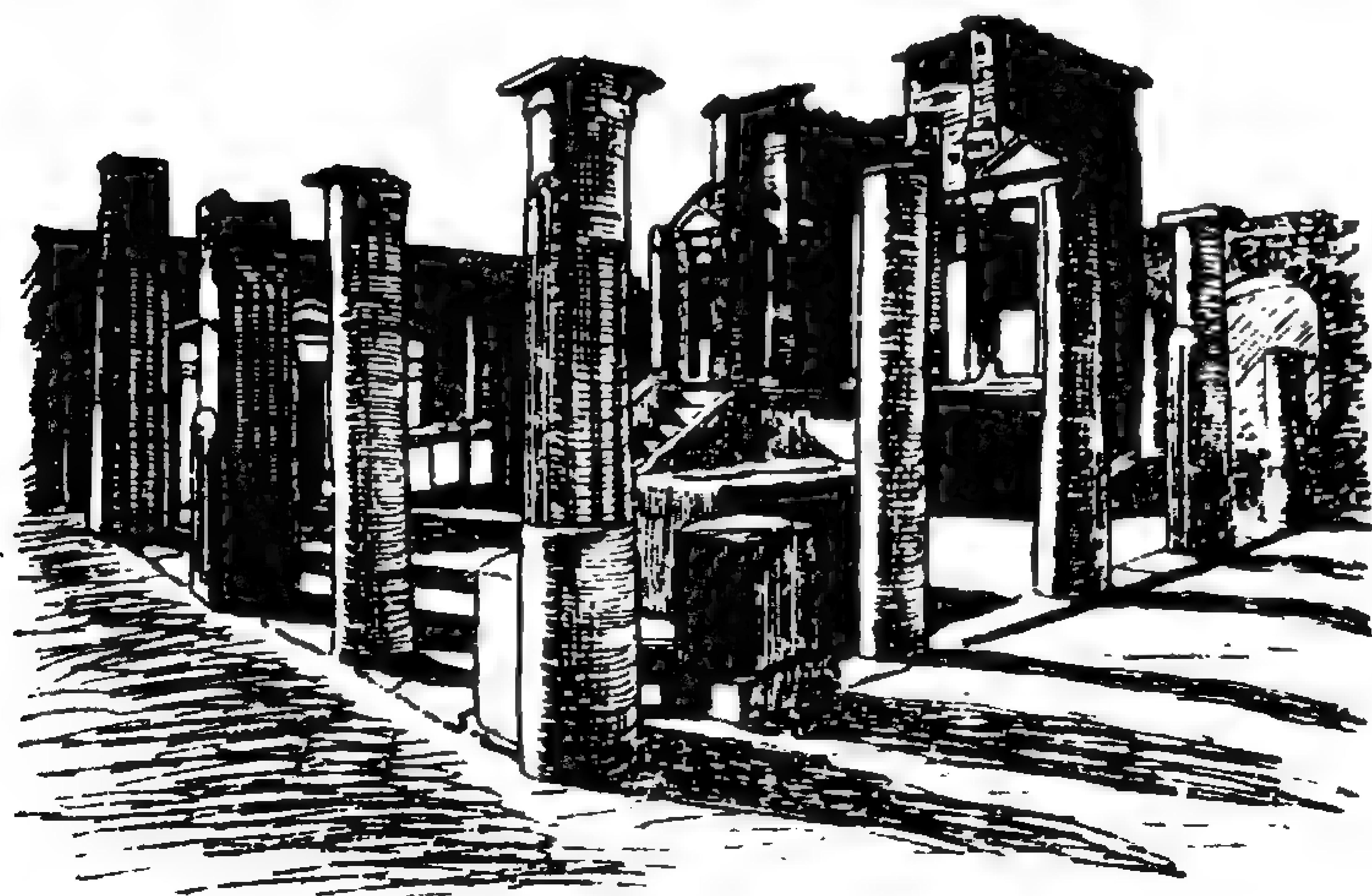
١٨١ — الاحتفال بالعيد فى المعبد (صورة على جدار من معبد إيزيس فى بومبى) .

وإذ كان فى نفس الوقت قد أقام هذا القصر احتفالا « بالعودة السعيدة » لدومتيان .

C. I. L. II, 3386. (١)
C. I. L. V, I, 4007. (٢)

« الذى عاد من الريف ومن البلاد الأجنبية المهزومة إلى مقرّه روما قاهرة العالم » ، فلا بدّ كذلك أن كافأه الامبراطور على صنيعه هذا [1] ، وبخاصة أن دومتيان ، كما رأينا ، كان نفسه صديقا لإيزيس وسيرابيس ، اللذين جدّد لهما معبديهما فى روما . وفى بومپى [2] ، حيث دمر زلزال معبد إيزيس فى عام ٦٣ بعد المسيح ، أعادت أسرة بوبديوس بناء ذلك المعبد ، وذلك باسم طفل عمره ستّ سنين ، هو ن . بوبديوس ؛ وهنا أيضا أضيف إلى المأثرة الدينية فائدة دنيوية ، وذلك لأنه كان على مجلس المدينة أن يتقبل فى صفوفه ذلك المحسن الصغير اعترافا له بجميله .

وعلى نحو ما يدلّ عليه معبد بومپى هذا ، لم يكن هناك ما يكاد يجمع بين معبد لإيزيس من هذا القبيل وبين معابدها فى مصر ، على أنه ربما كانت معابد الإسكندرية الأمثلة الأولى التى احتذاها مثل هذا المعبد . فى فناء تحيط به الأروقة ذات الأساطين كان يقوم المعبد الحقيقى ، يؤدى إليه سلم ؛ وكان يتألف من جزء أمامى ، يعتمد على ستة أساطين ، ومن غرفة قدس الأقداس . وفى ركن من الفناء كان يقوم مبنى صغير وبجانبه مذبح كبير . وكانت تكتنف الفناء من جانبيه غرف كانت تستخدم مساكن للكهنة ومخازن وما أشبه . وكانت زخارف هذا المعبد



١٨٢ — معبد إيزيس فى بومپى .

(١) Erman, Aegypt. Zeitschr. 34, 149 ff.

(٢) انظر عاما يلى : Lafaye, Hist. du culte des dieux d'Alexandrie, p. 173 ff.

وملحقاته كذلك خليط من زخارف مصرية وإغريقية ، دينية وغير دينية ، فإلى جانب إيزيس وأوزيريس وحربوقراط وأنوبيس والحيوانات المقدسة والكهنة كان يرى كذلك ديونيسيوس وتارسس وخيرون مع أشيل ثم القصة الجميلة لآرس وأفروديت . وكانت هناك صورتان تشغلان مركزا وسطا . وكانتا تمثلان قصة يو ، وذلك لأن الناس منذ مدة طويلة رأوا في حبيبة زيوس هذه المسكينة . التي فرت إلى مصر في هيئة بقرة . الإلهة المصرية التي على شكل البقرة (١) . بل إنهم أتوا من الخلط ما يضحك . فجعلوها تلد أبيس . وكانت المناظر الطبيعية تمثل أماكن مصرية بهياكلها وتماثيل أبو الهول . أو تمثل كذلك صورا بحرية بسفنها . وقد كانت إيزيس تعتبر حاميتها . وإلى جانب تماثيل إيزيس كانت توجد كذلك بين تماثيل المعبد الرخامية تماثيل لديونيسوس وأفروديت وبرياب . وفي خمسة تماثيل أخرى كان الوجه واليدان والقدمان وحدها من الحجر . أما الجسم فكان من الخشب ، ومن الجلي أنها كانت التماثيل التي كانت تكسى بالكتان وتحمل في مواكب الأعياد . وكان أكبرها يحمل في أذنيه قرطا من ذهب ويمسك في يده « شخليلة » .

وكانت المعابد في بنائها وصورها تبدو نصف إغريقية أو إغريقية تماما ، على أنه مع ذلك كان يعني كذلك بأن يكون الفن المصري الحقيقي ممثلا فيها . ولهذا كان يؤتى إلى بومبي . وبنفنت وروما وإلى أي بلد آخر . كان يشيد فيه معبد لإيزيس . بما كان يتيسر الحصول عليه من موائد قربان قديمة . وتماثيل أبي الهول . وتماثيل ومنحوتات مختلفة مما كان لاينقطع مدده من محتويات معابد مصر ومقابرها . حيث كانت تقام لبهجة إيزيس . ولم يكن ليهم أن تتحدث نقوش هذه الأحجار المنحوتة عن غرض آخر مختلف تماما . فما كان أحد من الجماعة ليستطيع أن يقرأ هذه النقوش الهيروغليفية . وبذلك انتقلت عبر البحر إذ ذاك آثار من جميع عصور مصر القديمة ، وربح الكهنة المصريون المال من بيع ما رأوا أنه يمكنهم الاستغناء عنه مما كانوا يمتلكون من مجموعات . ولم يجدوا في ذلك أدنى ما يريب أكثر مما كان يجد الكهان

---

(١) وذلك حسب ما جاء في Lucian, Dial. Deorum 3, 207. حيث تسمح يو ، باعتبارها إلهة مصرية ، بركوب النيل ، وحيث تتحكم في الرياح وتنقذ الملاحين .

الطليان فى القرن الثامن عشر ، الذين كانوا يبيعون مذابح كنائسهم للبلاد الأجنبية وإننا لنرى فضلا عن ذلك . أىّ نوع من الأحجار المنحوتة كان أحظى بالتقدير فى هذه التجارة : فقد كان ينبغى أن تكون قدر المستطاع من حجر أسود أو قاتم ؛ وذلك لأن هذا اللون . الذى كان يناقض لون التماثيل المحلية . إنما كان يبدو أوفق ما يكون للطبيعة الخفية . التى كانت تعزى إلى الديانة المصرية .

ولقد احتفظت الشعائر اليومية العادية فى المعبد الأوروبية لإيزيس بالصيغ القديمة التى كانت لها فى مصر . فى الصباح الباكر كان مرتل المعبد يخطو عتبة المعبد ويوقظ الإله باللغة المصرية القديمة [1] وعلى وجه التحقيق بنفس أنشودة الصباح (صفحة ٢٠٠) : « إنك تصحو فى سلام وتصحو لطيف » . التى كانت تنشد آلافا من سنين خلت لمثل هذا الغرض . ثم كانت تلى ذلك الشعائر المعتادة القديمة من تطهير لإله بالماء وتبخيره وتكسيته وتزيينه وإطعامه .

وكان نظام الكهنة كذلك كما كان فى مصر . فكان هناك رؤساء كهنة . وعرافون . ومشرفون على لباس الإله وعلى المظاهر الخارجية للعبادة . وكاتب ومجمع مقدس [2] من حملة الناووس . وذلك كما كان على ضفاف النيل تماما . وكانت النساء تأخذ كذلك بنصيب فى العبادة كما كان الأمر فى الزمن القديم . فيحركن الشخليلة أمام الإلهة . وكان من واجباتهن كذلك على ما يبدو التطهير بالماء . وذلك لأنهن كن يمثلن أنفسهن على شواهد مقابرهن بجرة الماء والشخليلة .

وكان من بين الأعياد الكبيرة لإيزيس عيدان يتمتعان بشهرة خاصة ؛ وكان أحدهما هو عيد نوفمبر . الذى كان يظل ثلاثة أيام ، يمثل فيها موت أوزيريس . والبحث عن جثته ثم العثور عليها . وتدل التلميحات والإشارات التى يتضمنها الأدب على مدى ما كان لهذا العيد من أثر على من كانوا يلاحظونه من بعيد . وهذا العيد هو

---

(١) Porphyrius de abstinentia, IV, 9.

(٢) Apulejus Metam., XI, 17.

المقصود عند ما يتحدّث أوفيد عن « أوزيريس الذى لم يُبحث عنه بحثا كافيا » [١] ، وعند ما يذكر جوفينال صياح الشعب « عند ما يُهتدى إلى أوزيريس » [٢] ، وعند ما يستعرض لوكان « الكلاب أنصاف الآلهة و « الشخاليل » المثيرة للأشجان » [٣] .

وإلى هذا العيد كذلك يرجع التصوّر العجيب ، الذى يذهب إلى أن آلهة المصريين تجد مسرّتها فى أناشيد البكاء والنديب ، لافى الرقص المرح ، مما كانت تؤثره آلهة الإغريق [٤] . ومن الجلىّ أن هذا العيد كان يحتفل به أمام الشعب كافة . ومع ذلك ربما كانت شعائره السرية قد احتفظ بها لدائرة ضيقة للغاية من الإيزيسيين ، أولئك المؤمنون حقا ، الذين كانوا يؤلفون إخوة صالحة . وكانت لهم « مدرستهم » بجوار المعبد .


١٨٣ — أمارلس ، كاهنة إيزيس ، عن شاهد مقبرتها فى أثينا .

أما عيد مارس الكبير ، الذى كانت تفتتح فيه إيزيس ملاحة العام ، فلدينا تقرير جلىّ من القرن الثانى بعد الميلاد يصف الاحتفال به على نحو ما حدث فى كنشرى ، الميناء الشرقية لكورنث [٥] . ويبدأ موكب الاحتفال بمجموعة فى ملابس تنكرية متنوّعة ، من بينها الجندى ، والصياد ، والمبارز ، والفيلسوف ، وحمار يمثل بجاسوس ، ودُبّة تقوم بدور سيدة ، وقرد يمثل جانيمد . فاذا استوفى الشعب متعته من هذه المساخر المضحكة ، فانه لايلبث أن يشاهد موكبا من نساء كاسيات بأثواب بيض ومتوّجات بأزهار الربيع ، ينثرن فى الطريق زهرا ويسكبن فيه العطور قطرة قطرة ، أو يحملن كذلك أمشاطا ومرايا يحركنها كأنهن يزين ضفائر الإلهة . ثم يتلو ذلك رجال

---

(١) Ovid, Metam, IX, 693.
(٢) Juvenal VIII, 29.
(٣) Lucan, Pharsal. VIII, 832.
(٤) Apulejus, de deo Socratis XIV.
(٥) Apulejus Metamorph. XI, 8-17.

ونساء معهم مصابيح ومشاعل ؛ ثم يأتى الموسيقيون ومعهم المزامير والناى ، وجوقة من مغنين شبان فى ملابس بيضاء ، يغنون أغنية نظمت بمناسبة هذا العيد . ويتبع هذه الموسيقى الحديثة الموسيقى القديمة المقدسة ؛ وعلى رأسها عازفو الناى لسيرابيس، يعزفون على آلة خاصة نغما ليس من المعتاد عزفه إلا فى المعبد ، ثم المكرّسون ، الذين يصلصلون بالشخليلة . وهم رجال ونساء من كل سنّ ؛ فأما الرجال فهم حليقون . وأما النساء فحول شعورهن قماش أبيض . ثم الرؤساء الستة ويحملون مصباحا ومذبحا وأدوات أخرى مقدسة . وتليهم الآلهة نفسها . وعلى نحو ما كان يقتضى الأمر فإنه يتقدمها جميعا أنوبيس . وهو أسود برأس مذهبة وشارتاه العصا ذات الثعبانين والنخلة . ويحمل خادم يمشى « بخطى مبرورة » ، بقرة واقفة ، وهى صورة الإلهة الولود الخصيبة ؛ أما الصندوق الذى يحمله خادم ثان فهو يحتوى « أسرار الديانة المجيدة » . فى حين أن شخصا ثالثا يضمّ إلى « صدره السعيد التمثال الجليل للإله الأعظم » ؛ وهو صورة لأثر مقدس . هو جرّة صغيرة من ذهب . مزينة بصور مصرية عجيبة . ومن ورائهم فى ختام الموكب أجمع يتقدم الكاهن وفى يده « الشخليلة » وتاج من الورود .


١٨٤ — أوزيريس على شكل جرة . من البرنز (برلين ٨٠٠٨) .

ويتجهون شطر البحر حيث تقف على أهبة الاستعداد سفينة جميلة محلاة بصور مصرية . ويتلو رئيس الكهنة « بفم عفّ صلاة تقية » . ويطهر السفينة ويكرّسها للإله . ثم يُنصب السارى ، ويفرد الشراع ويسكب الجمهور أجمع العطور فى السفينة . وبعد ذلك تقطع الحبال التى لاتزال تمسكها . فإذا شرعت تبتعد عن الشاطئ . يتبعها الناس بأنظارهم حتى تختفى . ومن ثم يعود الموكب إلى المعبد ويدخل الكاهن والمكرسون غرفة الإلهة . بينما ينتظر الجمهور فى الخارج . وبعد لحظة يظهر كاتب المعبد ويهتف للإمبراطور ومجلس الشيوخ والشعب الرومانى والبحارة وسفائنهم ؛ فيهلل الشعب ويتجمل بالزهر ، ويقبل قدمى تمثال الإلهة ثم ينصرف

وإذا كان يبدو فى هذا الوصف شىء من مبالغة . فلهذا سببه الواضح ؛ ذلك

أنّ لوكيوس ، الذى صاغ ذلك الوصف فى شكل قصة ، كان أحد السعداء ، الذين كانوا بصفة خاصة على صلة قوية بالإلهة ؛ وكان له مكانة بين أخلص المؤمنين بها . ولقد حضته إيزيس منذ مدة طويلة فى حلم أن يكون واحدا من أتباعها ، وهو الذى كان يدين لها بأنها أنقذته من محنة شديدة ؛ على أن متراس كاهن كنشيرى العجوز لم يكن ليجرؤ على قبوله . وذلك لأنه هو نفسه لم يتلقّ الأمر من الإلهة . ولما تمّ له ذلك آخر الأمر قاد فى الصباح ذلك المريد السعيد إلى المعبد . ثم أخذ من قدس الأقداس كتبا . كتبت بحروف على أشكال الحيوان وبتنميقات عجيبة (أى كتبت بالخط الهيروغليفى) . وقد تلى منها كل ما يلزم لتكريسه . وعندما اشترى لوكيوس ما كان يدعو الأمر إليه اقتيد فى صحبة الأتقياء إلى الحمام وطهر « بسكب الماء » عليه . وبعد الظهر فى المعبد أفشيت له الأسرار وذلك عند قدمى الإلهة . ثم فرض عليه أن يمتنع عشرة أيام عن أكل اللحوم وشراب النبيذ . ولما انقضت هذه الفترة اجتمع المؤمنون فى المساء . وكان هو يرتدى ثوبا بسيطا من كتان ، وقد اقتاده الكاهن إلى قدس الأقداس . أما عما حدث له هناك فلم يكن له أن يحدثنا عنه إلا تلميحا : لقد دخل عالم الموتى ثم عاد منه مارا بكل العناصر ؛ وقد رأى الشمس تضىء فى حلك الليل . ونظر إلى الآلهة الأعلين والأسفلين وعبدهم . وعلى ذلك فقد أُظهر على مملكة أوزيريس تحت الأرض . وسمح له برؤية الشمس وهى تعبر بالليل هذه المملكة مع حاشيتها . وهذه أشياء تشبه بعض مايعرضه كتاب إمدوات وما يشبهه من كتب (صفحة ٢٦٣) . وعندما [illegible] أصعد على مرقاة فى وسط المعبد أمام تمثال إيزيس ، ثم [illegible] الحيوان . وكان فى يده مشعل . ويحلى رأسه تاج من [illegible] من نور . وعندئذ رفعت الستائر ورآه الشعب وهو قائم [illegible] .

وبعد ذلك كُرّس لوكيوس مرة ثانية فى روما . وكان ذلك أيضا وفق مارأى فى بعض أحلامه ؛ وقد لقنه بعد صيام عشرة أيام الكاهن أسينيوس ماركلوس فى معبد إيزيس بحقول مارس « المسائل المقدسة للإله الأكبر ، الأب الأعلى للآلهة ، أوزيريس الذى لايقهر » . وقد ذكرته الآلهة مرّة ثالثة ؛ إذ رأت أن تصطفيه

بتكريس ثالث ، على حين كان غيره لايحصل على التكريس الأول إلا بصعوبة . وقد تطوّع هذه المرّة وأطال فى فترة الصيام النفل أكثر مما كان مفروضا ، وما كان أىّ بذل يأخذ نفسه به بالشىء الكثير عنده . وقد ظهر له أوزيريس فى هيئته الحقيقية وقبله فى عداد جماعة « حملة التماثيل المقدسة » . بل لقد جعله على رأسهم . وهى جماعة قديمة ، أسست فى عهد سلا ، وقد أسعد لوكيوس أن أصبح ينتمى إليها . وكان حيثما يذهب يكشف فى زهو عن رأسه الحليق ، ليرى بذلك أنه كاهن للآلهة المصرية [1] .

من هذه الرواية العجيبة ، التى سردناها هنا ، نعلم كذلك كيف كان الناس فى نهاية القرن الثانى بعد ميلاد المسيح يتصوّرون طبيعة الآلهة المصرية ؛ وإنه يمكن القول بأن الطابع المصرى فيها تقهقر وانحسر عنها تماما . فقد غدت إيزيس « أم الأشياء ، وسيدة جميع العناصر ، والبداية الأولى للأزمنة » . وهى « الإلهة العليا ، ملكة الموتى ورئيسة أهل السماء » . وهى « المظهر الموحد للآلهة والآلهات » . وهى « على تعدّد أشكالها واحدة وشخص بذاته . والعالم بأسره يعبدها » ؛ وإن كان « بطقوس مختلفة وأسماء متعدّدة » . وقد كانت تعتبر فى فريجيا أما مقدسة لبسّينوس ، وفى أثينا الإلهة أثينا . وفى قبرص أفروديت بافوس . وفى كريت أرتميس . وفى صقلية برسيفون استكس . وفى إلويسس دميتر . التى كانت أهلا للتقديس منذ أمد بعيد ؛ ويسميها البعض هيرا وبلونا . وآخرون يسمونها هيكات والإلهة الرامنوسية ؛ وكان الأثيوبيون ، الذين يسكنون أقرب ما يكون للشمس ، والمصريون ذووالخبرة بالحكمة القديمة ، يعرفون الطريقة المثلى لعبادتها « واسمها الحقّ : الملكة إيزيس » [2] . وهكذا نرى أن إيزيس ابتلعت جميع الآلهة ، التى كانت تعبد فى أوروبا ، على نحو ما صنعت من قبل بآلهة مصر ، وقد أصبح يظنّ بكل بساطة أنها تمثل الطبيعة .

وتتردّد هذه الآراء والتصوّرات فى أنشودة طويلة من القرن الثانى كشف عنها فى مصر [3] ، وترجع كذلك إلى الأوساط الإغريقية . ولا بد أن كان مؤلفها على

(١) Apulejus Metamorph. XI, 19 ff.

(٢) Apulejus Metamorph. XI, 5.

(٣) Oxyrh. Pap. XI, 190 ff.

دراية جيدة بمصر ، وذلك لأنه يسوق أكثر من ثمانين موضعا من هذا القطر ، وبعضها مجهول تماما ، كانت تعبد فيها إيزيس . وكانت لها فى كل مدينة صفات خاصة ، فهى « عظيمة ، طيبة ، مقلسة ، جميلة الشكل » ، وهى « الوحيدة ، الملكة ، المنتصرة ، سيدة البلاد جميعا ، حاكمة المدن » . وهى المخترعة ، الخبيرة بالكتابة ، الخبيرة بالحساب ، زعيمة آلهات الشعر » . وهى « سيدة البحار ، ومرشدة السفن ، والتى تعود بها إلى الميناء » ، وهى « تقود الأساطيل » . ومن الطبيعي أنها فى هذا كله قد حلت مكان آلهة أخرى قديمة ، فإيزيس صاحبة سايس إنما هى فى حقيقة الأمر نيت ؛ وإيزيس صاحبة بوبسطة هى باستت ؛ وإيزيس صاحبة بوتو هى أوتو وهكذا . وإذا كانت جميع هذه الإلهات المصرية قد تسمى كذلك أفروديت أو أثينا أو هيرا أو هستيا ، فقد كانت كلها مع ذلك تمثل إيزيس « ذات الأشكال المتعددة » وهو ما جرى كذلك مع إلهات سائر العالم . فمن روما وإيطاليا [1] إلى الهند وفارس ، ومن البحر الأسود إلى البحر الأحمر ، كانت السيادة فى كل مكان للإلهة « ذات الأسماء العديدة » ؛ فستون بلدا وقطرا وشعبا كانوا يعبدونها على أنها « الفضلى ، الجميلة ، الطاهرة ، المقدسة ، المتصوّفة ، حبيبة الآلهة » ؛ وفى روما وعند الأمازونيين كانت تعبد على أنها « محاربة » ؛ وفى بامبيكى فى سوريا على أنها أترجاتس ؛ وفى كريت على أنها دكتينّس . وفى صيدا على أنها عشترتى . ولها المعابد ، فى المدائن جميعا شيدت لكل الأزمنة . وقد تركت للجميع القوانين . وهى تريد أن يرتبط الرجال والنساء معا » . وقد أعطت هؤلاء ذات القوّة التى أعطتها لأولئك . وهى « الإلهة ذات الشكل الجميل فى أولمب . زينة النساء ، المحبة الرءوف » . وإن العالم ليدين لها بالنبيذ ؛ فهى أوّل من أحضره فى أعياد الآلهة . وهى التى « تقود الشمس منذ شروقها إلى غروبها » لبهجة جميع الآلهة وجميع الكائنات الحية . وهى التى « تجلب فيضان الأنهار ، وفيضان النيل » فى مصر . وهى النهر الكبير فى فينيقيا . والكنج فى الهند . وبفضلها يحيا كل شىء عن طريق الأمطار

---

(١) يلاحظ عدم ذكر الجزء الغربى من الإمبراطورية ، فيما عدا روما وإيطاليا ؛ وفى هذا يبدو أن العالم لدى هذه الأنشودة هو العالم الإغريقى والعالم الشرقى .

والينابيع والطلّ والثلج ؛ ولها السلطان على الرياح والرعد والبروق والعواصف الثلجية . وهكذا يمضى النصّ ، وما من شيء فى هذا كله يذكرنا بإيزيس المصرية ، لولا أنه ورد مرّة ذكر أوزيريس ، الذى دفنته ، وذكر ابنها حورس أبوللو ، الذى « نصبته كحاكم شاب على العالم كله » ؛ أما عن زوجها الذى جعلت منه شخصا خالدا فقد هيأت له أماكن لعبادته فى البلاد جميعا .

وفى هذا نرى أن أوزيريس يتخلف كثيرا عن زوجته . وكذلك كان الحال فى حقيقة الأمر فى سائر العقائد الإيزيسية . أجل لقد كان يسمى « الإله ، الذى له السلطان على الآلهة العظيمة ، والأعلى بين الأعظمين ، والأعظم بين الأعلين ، وحاكم الأعظمين »[١] ؛ وكان يسمى « الأب الأعلى للآلهة » . وكان يوصف بأنه « لايقهر » [٢] . وهو وصف كان يمنح فى هذا العصر فيما عدا ذلك إلى إله الشمس ، وقد اشتقه من الفرس ؛ كما أننا لنقرأ أكثر من مرّة[٣] « زيوس سرابيس هو واحد أحد» كأنه إقرار دينى بوحدانيته . ولكن ماذا كانت تعنيه مثل هذه العبارات وقد كان أتباع العقيدة المصرية الأتقياء ينسبون أنفسهم دائما إلى إيزيس لا إلى أوزيريس أو سيرابيس ؟ بل لم تعد مملكة الموتى له وحده ، وإنما غدا لإيزيس فيها نصيب . فقد كان لكل من استحقّ رضاءها « بتحمسه فى طاعتها وتقواه فى عبادتها وشدة زهده » أن يطمع فى أن تطيل عمره إلى ما يزيد على ما حدّده له القدر ؛ ثم بعد ذلك إذا هبط عند الموت إلى العالم السفلى ، فانها هى التى كان ينظر إليها ويتعبدها . « وهى تضيء فى نصف الكرة تحت الأرض وسط ظلمات أخيرون ، وتحكم على الأماكن التى تقع فى أقصى مناطق استكس [٤] » . وكانت سعادة الرجل التقىّ بعد الموت فى أن يعيش بالقرب من الإلهة « فى الحقول الإليزية » وأن ينظر إليها ، وهى السعادة

---

(١) Apulejus, Metam. XI, 29.

(٢) نفس المرجع ١١ ، ٢٧ . علاوة على هذا فقد كانت إيزيس تسمى « التى لاتقهر » ، انظر نفس المرجع ١١ ، ٢٩ وتمثال كولونيا الوارد ذكره فى صفحة ٤٨٧ .

(٣) هكذا على التيمة المحفوظة فى المتحف المصرى فى برلين برقم ٩٨٣٤ (Ausf. Verz. S. 377) Oxyrhynchus Pap. XI, 235

(٤) Apulejus, XI, 6.

نفسها التى كان يحظى بها فى حياته إذا سمح له بالإقامة فى المعبد و بالنظر إلى تمثال الإلهة . وكان ذلك يملؤه « طربا ووجدا لايوصفان » . فيرتمى أمامها ، ويقبل قدميها ، وتنهمر دموعه ، حتى إنه لايستطيع الكلام من شدة الشهيق . عند ما يشكرها على طيب أعمالها : « أيتها القديسة ، أيتها الحامية الأزلية للإنسان ، يامن تعنين بهم فى سخاء . وتزوّدينهم بعطفك الأموى . إن أصابتهم محنة . لايمضى يوم بل ولا لحظة لاتفيضين فيها عليهم من الخيرات . ولا تحمين فيها البشر فى البحر والبرّ ، ولا تمدّين فيها يد النجدة لأولئك الذين تدفقهم عواصف الحياة . . . إنك تسكّنين عواصف القدر وتخيفين الحركات المؤذية للنجوم .

إن أهل السماء ليقدّسونك . وسكان العالم السفلى يخدمونك . إنك لتديرين الأرض وتنيرين الشمس وتحكمين العالم وتجوبين تارتارس . وإن النجوم لتجيبك ، والأزمان صائرة إليك ، وإن الآلهة لتحبك والعناصر تخدمك ، بأنفاسك تهب الرياح وتُخصب السحب . وينبت الحبّ . وينمو النبت .

أمام جلالتك تخشع الطيور . التى فى السماء . والحيوانات المتوحشة . التى تهيم فى الجبال . والأفاعى . التى تختبئ فى الثرى . والمردة التى تسبح فى البحر .

إنى أضعف من أن أستطيع مدحك . وأفقر من أن أقدم إليك القرابين . إنه ليعوزنى البيان البليغ للتعبير عما أشعر به نحو جلالتك . وإنه لينبغى أن يكون لى لأداء هذا الواجب ألف فم وألف لسان »[1] .

إن الإحساس الوحيد الذى يستطيع أن يقدمه للإله هو الشعور الحارّ بعرفان الجميل .

وكانت الأقلية هى التى كانت تستطيع عبادة إيزيس بتقوى بالغة مثل هذا المكرَّس . ولكن إذا كان غيرهم قد عبدوها عبادة سطحية . فيعوّض ذلك أن عددهم كان عظيما . ولم يكن فى الامبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء مقاطعة واحدة لم تكن تعبد فيها الآلهة المصرية . حتى استطاع ترتوليان أن يقول : « إن الأرض بأسرها

---

(١) Apulejus XI 24.

تعقد الأيمان اليوم باسم سيرابيس »[1] . وإننا لنجد فى إفريقية الشمالية ، وفى أسبانيا ، وفى بلاد الدانوب ، وفى فرنسا ، وحتى فى انجلترا نفسها ، نقوشا تكرم فيها إيزيس وسيرابيس . وكان لإيزيس ربوعها كذلك فى مناطق جبال الألب وفى ألمانيا[2] . وتقرّر أحد المصادر المسيحية فى تقريع[3] أن تونسبرج جنوب بوزن كانت كأنها إسكندرية ثانية ملأى « بأنوبيس ذى الشكلين وبصور تصف إنسانية ذات أشكال متعدّدة . . . ملأى بحماقات إيزيس واختفاء سيرابيس » وكان فى بُلست » فى جلانتال الكارنثية ، معبد لإيزيس الشمالية[4] . وكان فى مارينهوزن فى مقاطعة الرين مذبح لسيرابيس ، أقامه ضابط رومانى[5] .



١٨٥ — تمثال إيزيس فى كولونيا .

وقد وجدت مرارا فى منطقة الرين تماثيل صغيرة من البرنز للآلهة المصرية . على أن أعجب شاهد على ذلك هو ما حفظته لنا كنيسة أورسولا فى كولونيا . وهو تمثال صغير لإيزيس التى لاتقهر . وقد استخدم فى العصر الوسيط فى تاج أحد أساطينها[6] . وإذا كان قد كشف غير بعيد من هذه الكنيسة عن مقبرة مصرى ، يدعى حورس بن بابك ، فإن المرء لا يملك إلا أن يسائل عما إذا كان هذا الرجل ذو الاسم المصرى ، الذى وجد سبيله من النيل إلى الرين ، كان كاهنا للإلهة المصرية .

وهكذا سادت عقيدة إيزيس فى كل مكان فى أوروبا . وقد كان سلطانها ينمو على الدوام حتى نهاية القرن الثانى . عندما

---

(١) Tertullian, ad, nat 2, 8.

(٢) ومع ذلك لانستطيع أن نصدق ماذكره تاكيتوس فى Germ. 9 من أن بعض السويبيين كانوا يعبدون إيزيس ، وقد ستنتج ذلك فقط من أنه كانت لهم سفينة تقوم مقام المعبد .

(٣) Acta S. S. XIX Mai S. 44.

(٤) CIL III 4806 ff.

(٥) CIL XIII 7610.

(٦) Schaafhausen, Bonn Jahrb. 76,38 = CIL XIII 8190, 8191.

أخذت عقيدة أخرى ، وهى عقيدة متراس الإله الفارسى ، تردها إلى الوراء بعض الشىء ؛ على أنها مع ذلك ظلت قائمة طالما كانت تعبد الآلهة الوثنية . وإننا لنجد فى أثينا فى منتصف القرن الرابع قبرا لكاهن لإيزيس ، دفنت معه فيه الأدوات من الفضة التى كان يستخدمها فى المعبد [1] . وفى نفس العصر نجد فى الرين الأمير الألمانى مديرش . الذى تلقن هذه « الأسرار الإغريقية » وهو أسير فى بلاد الغال . والذى أدت به حماسته لسيرابيس إلى تسمية ابنه أجنارش بعد ذلك باسم سيرابيون [2] . وفى المحاولات الأخيرة فى إحياء الوثنية المحتضرة كان للعقيدة المصرية دورها أيضا ؛ فكان جوليان يكرم الآلهة المصرية ؛ وفى عام ٣٩٢ عندما قام أربو جاست الفرنجى بتنصيب أويجين على العرش . وأتاح للأرستقراطية الوثنية نصرا قصير الأمد . لم تنس كذلك عبادة إيزيس . وفى عام ٣٩٤ احتفل نيكوماك فلافيان بصفته قنصلا بآخر الأعياد الرسمية فى روما . تمجيدا لماجنا ماتر وإيزيس . على أنه فى هذه السنة نفسها انتصر تيودسيوس . وانتهى أمر ذلك جميعا .

على أنه فى الحق بقيت فى العالم الرومانى جماعة هادئة متمسكة بالعقائد المصرية . وهى جماعة الفلاسفة المتصوفين . الذين ظلوا حتى القرن السادس يقومون بالتعليم فى المراكز الكبرى للثقافة . وإذ كانوا يجدون لذة وغبطة فى كل ما كان ذا طابع صوفى وفى كل ما يثير الوجد أو الدهشة . فقد كان لايمكن ألا تثير مصر حماستهم . أجل لقد كانت مصر بلدا « مقدسا » . معابده مزودة بكل شىء . وفيه من الكهنة ما لايحصى عددهم . ممن يسهرون على أداء الطقوس جميعا . وفيه المذابح لاتخبو نارها أبدا . وقد علم المصريون العالم بأسره تقريبا عبادة الآلهة . « وإننا لنعلم أن الآلهة كانت ولا تزال تقطن هناك » . وذلك على نحو ما يذكر المؤلف الساذج الذى يرجع إليه هذا الوصف فى القرن الرابع [3] . ولهذا كان هذا البلد المقدس المثل الأعلى



١٨٦ – قطعتان من نقود جوليان عليهما صورة أبيس وأنوبيس .

(١) Ross, Arch. Aufs. I 37 ff.

(٢) Erman, Ae. Z. 42, 110 وذلك حسب ما جاء فى Amm. Marc. XVI, 12, 35

(٣) Descr. totius mundi (ed. Lumbroso, Accad. dei Lincei 1898) p. 144 ff.

لأولئك المتصوّفين . وقد عمد أحدهم ، وهو أسكليبيادس ، الذى عاش فى القرن الخامس ، إلى الإقامة مدة طويلة فى مصر ليدرس التعاليم المقدسة من مصدرها . وقد نظم الأناشيد للآلهة المصرية وألف كتابا فى الديانة المصرية . على أنه على قدر أبحاثه فانه لم يستطع أن يحظى بما زوّدت الطبيعة به صديقه المجدود حرايسكوس . حقا لم يكن هذا الصديق يعرف قدر ما يعرف هو من « حكمة المصريين » ، على أنه عوضا عن ذلك كانت « طبيعته شبيهة بطبيعة الآلهة » . فكان ذا موهبة ، بحيث كان إذا رأى تمثالا لإله ، فإنه كان يشعر « أحىّ هو أم لا » . فإذا كان تمثال الإله آهلا بروحه (صفحة ١٩٢) ، « فقد كان قلبه يتأثر بمجرّد مشاهدته ، وكان جسده وروحه يثوران كأنه حلت به قوّة إلهية » . وعند ما توفى ودفن ، تلألأ جسده فجأة من خلال اللفائف علامة على أنه قد اتحد مع الآلهة . وهكذا غدا ممجدا (صفحة ٢٩٨) كرجل مصرى من الزمن الأول [١] .

ومع ذلك لم يكن هؤلاء المتصوّفون ليتصوروا كذلك أن هناك قوّة فى العالم يمكن أن ترد للآلهة القديمة سيادتها . وكانوا يعلمون أنهم آخر الوثنيين ، وأن مصر المقدسة « صورة السماء . . . ومعبد الكون بأسره » ، غدت تنتمى منذ ذلك الوقت إلى المسيحية . وإننا لنقرأ بشئ من التأثر النبوءة الحزينة التى يتردّد صداها من أوساطهم [٢] : « سيأتى زمان يبدو فيه أن المصريين عبدوا الإله بتقوى وحماسة دون جدوى . . . ذلك لأن الإله سيعود من الأرض إلى السماء ، وسوف تظل مصر مهجورة ، ولن يعود البلد الذى كان مقرّ الديانة ، مأوى للآلهة . . . أيا مصر ، يا مصر ، إنه لن يبقى من عقائدك غير قصص وروايات ، لن تصدقها الأجيال المقبلة ، ولن تبقى غير كلمات على الحجر تحكى أعمال تقواك » .

---

(١) Suidas s. v Heraiskus.

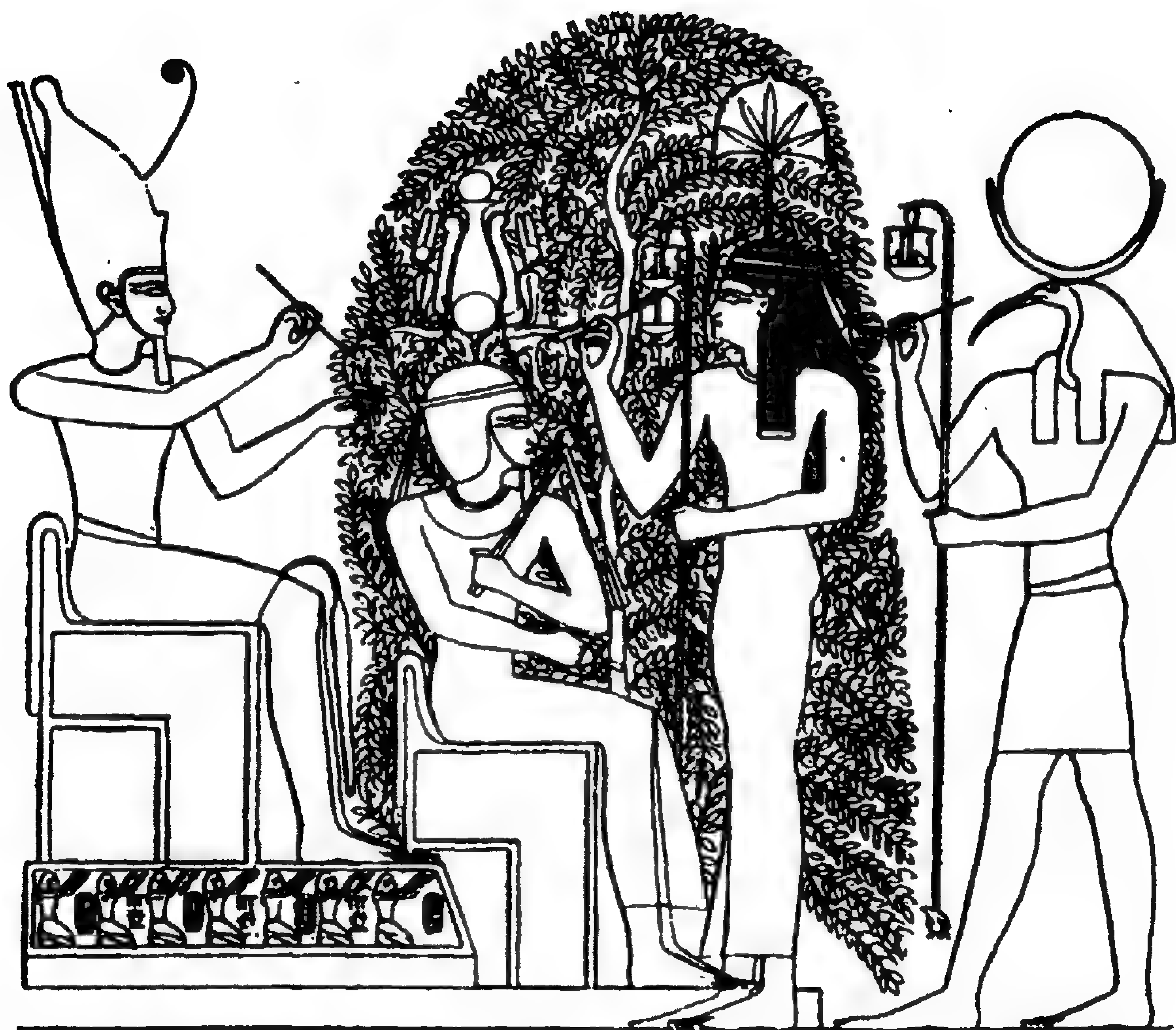
(٢) Pseudoapulejus Asclepius XXIV.

فهرس أبجدى

تشير النجمة قبل رقم الصحيفة إلى أحد الأشكال التى يحتويها الكتاب

اللوحـــات

لوحة ٢



أتوم وسشات وتحوت يكتبون أسماء رمسيس الثانى على الشجرة المقدسة فى هليوبوليس
(من الرمسيوم L. D. III 169) .

لوحة رقم ٣



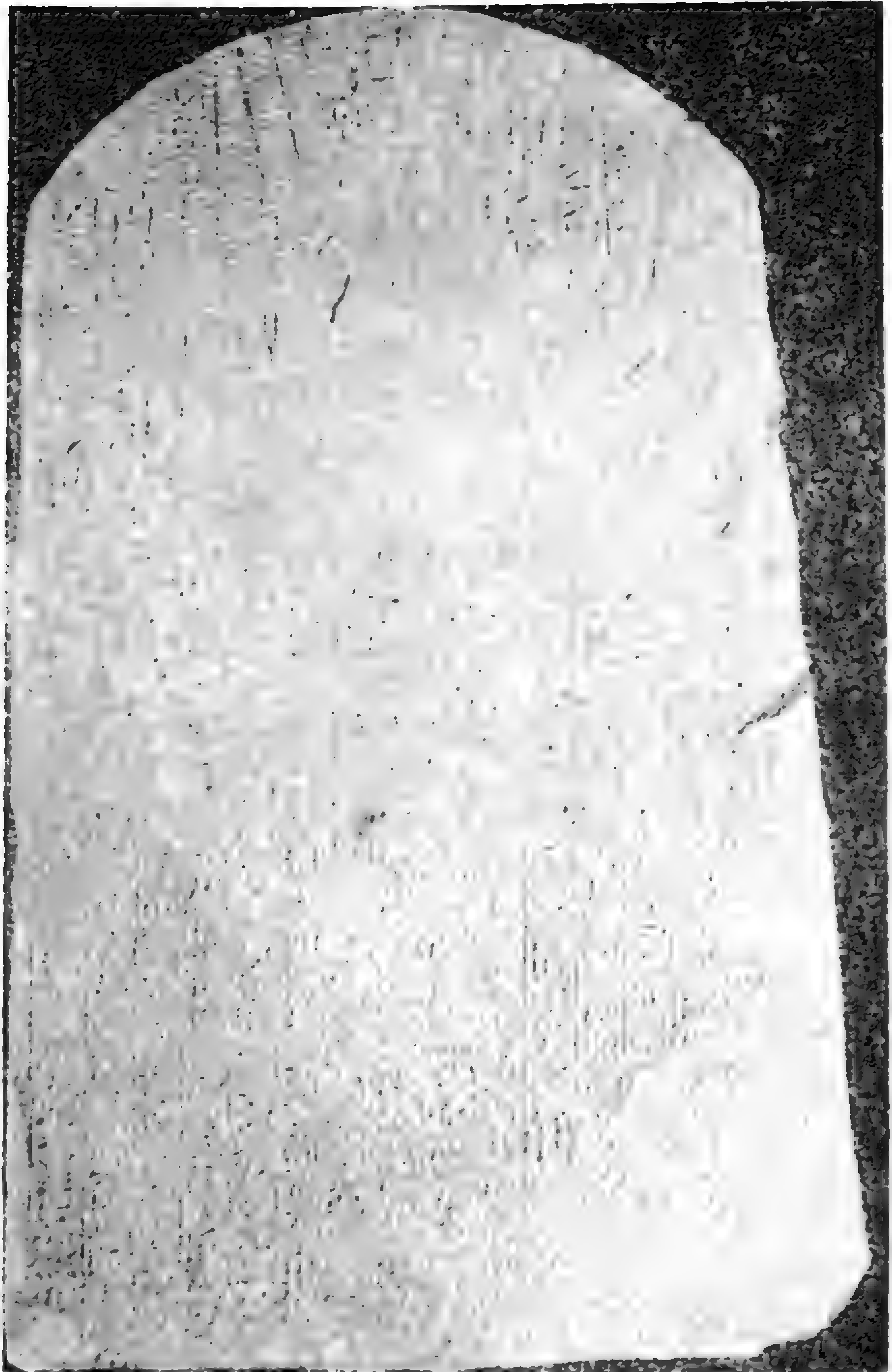
تحوت فى هيئة قرد ، يغرى تفنوت بالعودة إلى مصر
(الحاف من عهد الدولة الحديثة ، برلين ٢١٤٤٣) .

لوحة رقم ١



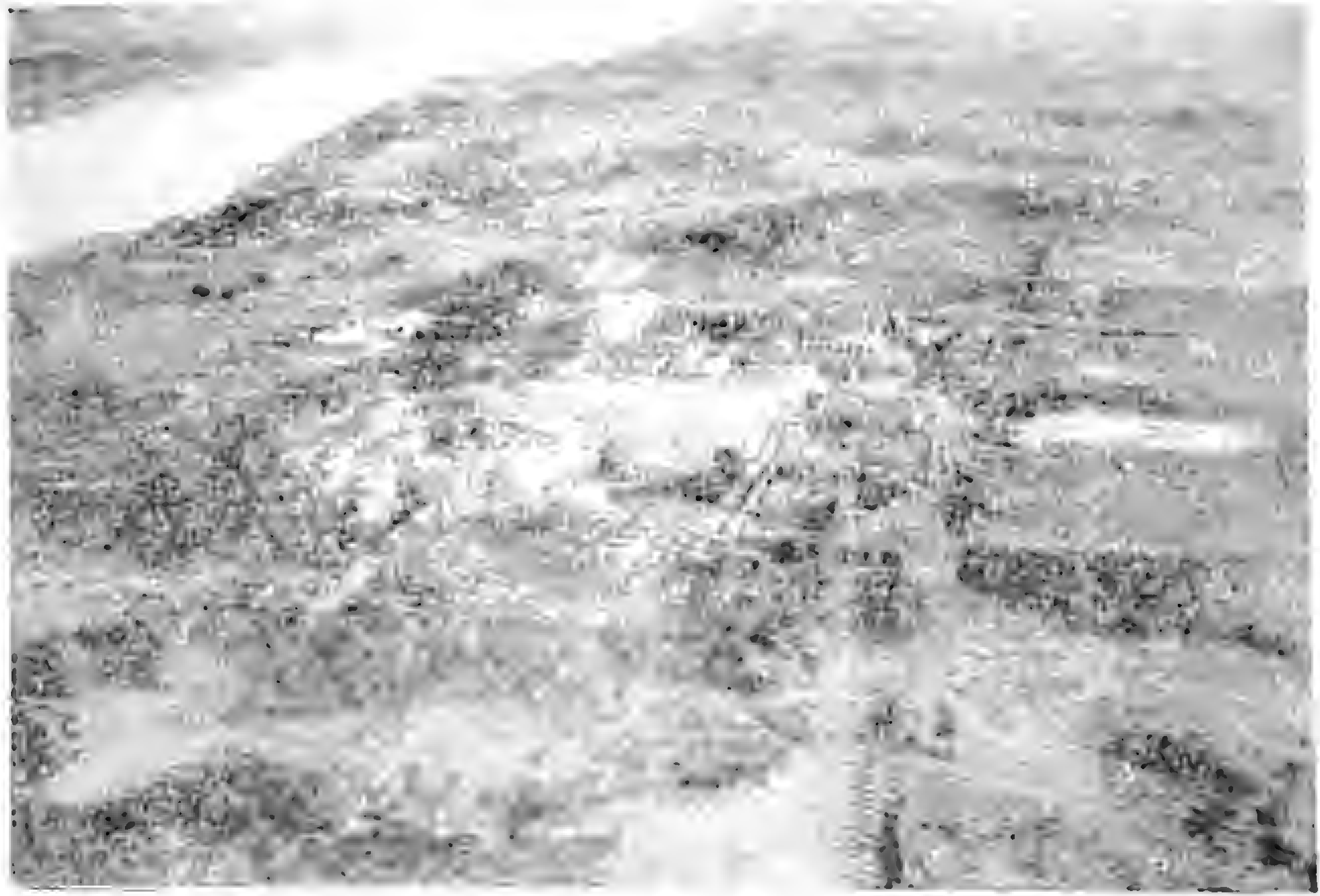
قناع من الذهب من مومياء الملك توت عنخ آمون.

لوحة رقم ٥



المصور نب رع يتعبد للإله أمون ، الذى يظهر أمام بوابة معبده ، وذلك ليمنح ابنه المريض الصحة .
(برلين ٢٠٣٧٧ . من المعبد الشعبى فى الجانب الغربى من طيبة) .

لوحة رقم ٦



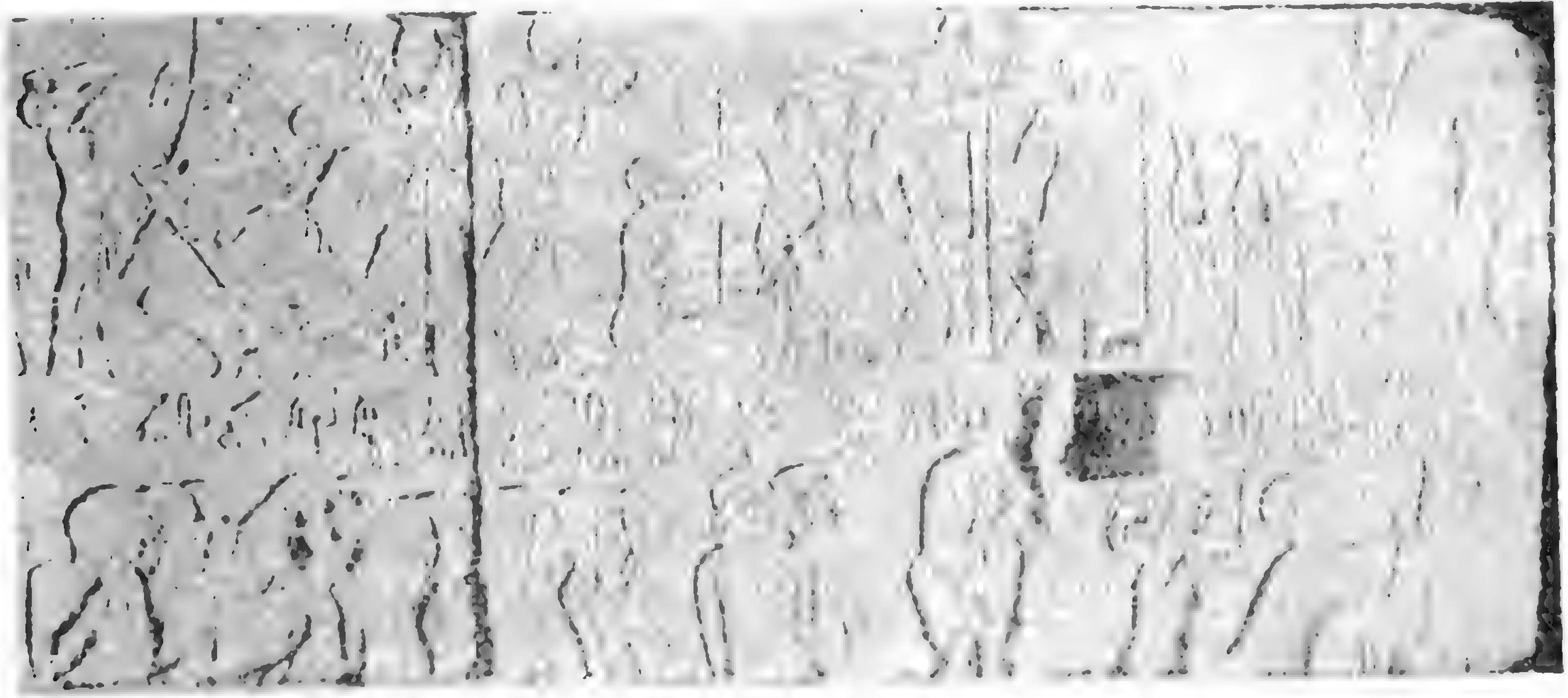
أطلال معبد الكرنك من الجو من قبل الأقصر . فى وسط الصورة المعبد الرئيسى و البحيرة المقدسة ، و فى مقدمتها بيوت قرية الكرنك الحالية ومعبد خنسو .

لوحة ٧



معبد الدير البحرى

لوحة ٨

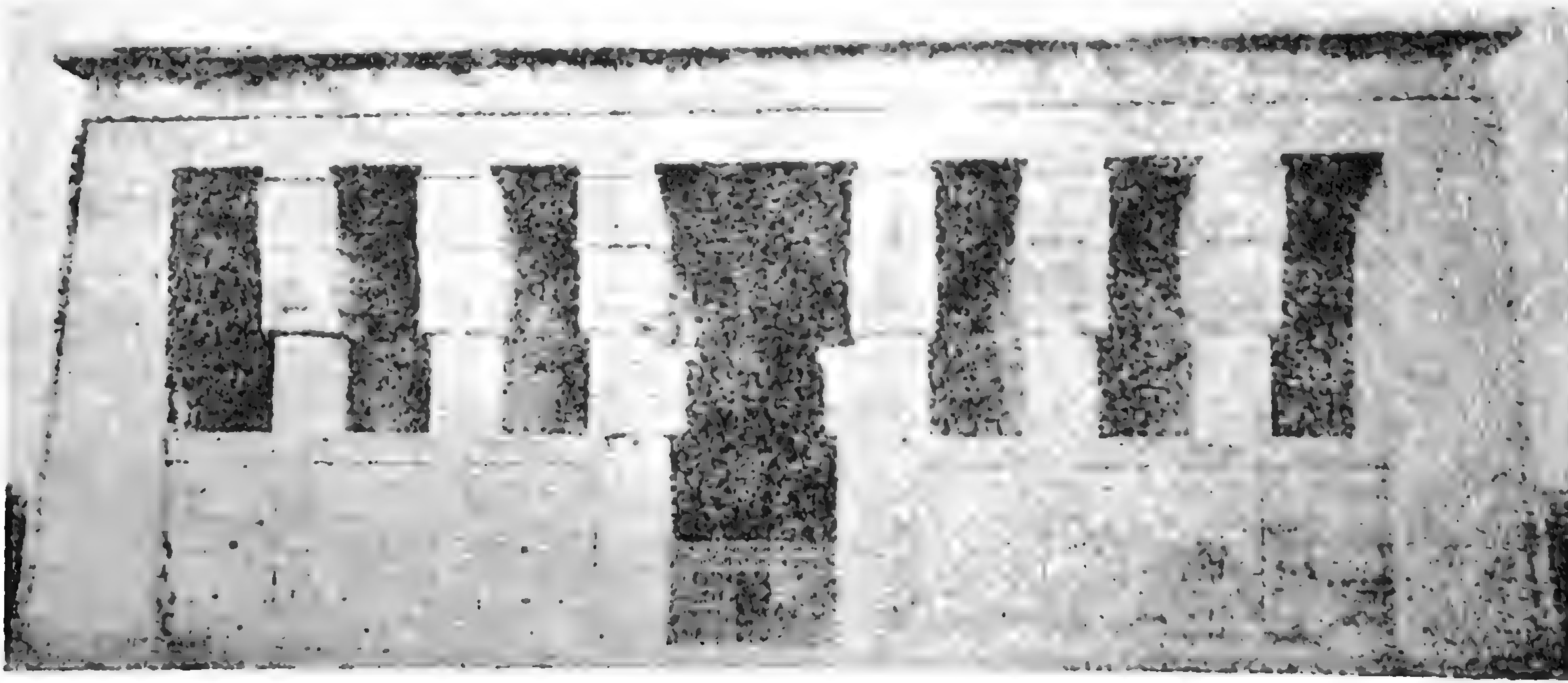


جنازة كاهن أعلى من منف . الأسرة ١٩

فى الصف الأعلى : الزوجة الباكية — ومن خلفها الخدم ينوحون وهم يقيمون العرش للحفل الجنازى . فى الصف الأسفل : من خلف التابوت ، الذى يجر فى قارب ، ابن الميت يولولان، يتبعهما عظماء أعيان المملكة ، وعلى رأسهم ولى العهد ثم الوزيران وغيرهم من العظماء وأربعة رؤساء كهنة ، من بينهم الكاهن الأعلى لهليوبوليس ، وأخيرا محافظ المدينة وهو يتلفت إلى الوزراء يواسى كهنة بتاح ، الذين لم تظهر صورهم فى هذه اللوحة .

(برلين ١٢٤١١ . وقد وجدت هذه الأحجار فى دار أحد الفلاحين) .

لوحة ٩



ردهة معبد دندرة



عيد فى العهد اليونانى

على باب المدينة ، وقد زين بزينة العيد ، تجلس الإلهة وبجانبها حربوقراط ، وبالقرب من قدميها إله آخر صغير . وعلى الباب تمثالا حيوانين مقدسين . — ومن أمام الآلهة كاهن بملابس من طراز قديم يذبح الأضحية ، وخادمان من خدم المعبد يهيئان المذبح ويعدان النبيذ . ومن خلف ذلك امرأة تعد الجعة على الطريقة القديمة . ويبدو أنه لا يشترك فى العيد غير النساء ، يحملن المشاعل أو يوقدنها . — ومنهن واحدة تأتى على جمل ، وبذلك تنتمى إلى إحدى قبائل الصحراء . (نموذج لإناء من الفضة فى متحف برلين) .

رقم الإيداع ٩٧/٨٦٩٢
I.S.B.N 977 - 01 - 5379 - 6

مكتبة الأسرة



عدد ممتاز
بسعر رمزى أربعة جنيهات
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ أدولف إرمان

هذا الكتاب للعالم الألمانى أدولف إرمان، وهو من كبار المتخصصين فى علم المصريات وله قاموس عن قواعد اللغة المصرية القديمة، ومؤلفات أخرى منها كتابنا هذا «ديانة مصر القديمة»، الذى قام بترجمته اثنان من العلماء المصريين هما د.عبدالمنعم أبو بكر ود. محمد أنور شكرى.

نشر إرمان أول مرة موجزا عن الديانة المصرية القديمة عامى ١٩٠٤، ١٩٠٩م، ثم طور ذلك فى دراسة أعمق فى ضوء البحوث الأخرى والمكتشفات الأثرية الأحدث، فجاء هذا الكتاب متفرداً ومثيرا للدهشة بالمعلومات الغزيرة التى تضمنها عن الشروحات والتفسيرات للمعتقد الدينى عند المصرى القديم والأساطير والفلسفات فى نظريات الآلهة.. الخ، مما شكل ديانته بكل ما اشتملت عليه من صحيح ومغالطات، وو... وغموض وسحر وتعاليم وعادات وتقاليد و... مما يبدو مثيراً.

